أكثر من أربعة ملايين نسخة مباعة

جوردان بِ. بيترسون



"المثقَّف الأكثر تأثيرًا الآن في العالم الغربي" The New York Times

ترجمة: محمد إبراهيم الجندي

مقدمة

قواعد؟ المزيد من القواعد؟ حقًّا؟ أليست الحياة معقّدة بما يكفي، ومُقَيّدة بما يكفي، حتى من دون القواعد التي لا تأخذ في الاعتبار مواقفنا الفرديّة الفريدة؟ وإذا كانت أدمغتنا مرنةً طيِّعةً، وجميعها تتطوّر بأشكال مختلفة بحسب التجارب الحياتية التي نمرّ بها، فلماذا نتوقّع أن تكون بعضُ القواعد مفيدة للبشر جميعًا على حدٍّ سواء؟

إن الناس لا يحبِّذون القواعد عادةً، حتى في الكتاب المقدّس... كما حدث عندما نزل النبي موسى من الجبل -بعد غياب طويل- حاملًا الألواح وفيها الوصايا العشر، فوَجدَ بني إسرائيل في حالة صخبٍ وعربدة. لقد كانوا عبيدًا لفرعون وخاضعين لقوانينه الاستبدادية طوال أربعمائة سنة، وبعد ذلك عرَّضهم موسى لصحراء قاسية مجدبة لأربعين سنة أخرى لتطهيرهم من خنوعهم وعبوديتهم. أما وقد تحرَّروا أخيرًا، فقد أطلقوا لأنفسهم العنان،

وفقدوا كل سيطرة على ذواتهم، وها هم يرقصون بجنون حول وثن –عجل من الذهب– اتّخذوه إلهًا، معبرين بذلك عن جميع أشكال الفساد المادي.

صاح فيهم صاحب الشريعة: «لديَّ لكم خبرٌ سارٌّ... ولديَّ لكم خبرٌ سيِّئٌ؛ فأيهما تريدونه أولًا؟»

فأجابه مريدو المتعة: «الخبر السارّ أولًا!»

فقال موسى: «لقد طلبت من الرب تخفيض عدد الوصايا من خمس عشرة إلى عشر وصايا!».

صاح الحشد الخارج عن السيطرة: « نشكر الرب! وماذا عن الخبر السيِّئ؟»

فأجاب موسى: «لا يزال الزنا محرَّمًا».

لذا، ستظلُّ القواعد موجودة دائمًا، ولكن، نرجو ألّا يكون هناك الكثير جدًّا منها. إننا نرفض قبول القواعد، حتى عندما ندرك أنها في مصلحتنا. فإذا كنا نفوسًا حرة جريئة، وإذا كنّا نمتلك شخصيات مستقلّة، فإن القواعد تبدو لنا قيودًا، وإهانة لإحساسنا بالقوة، ولكبريائنا المتعلّق بعيش حياتنا بحُرّية. فلماذا ينبغي محاسبتنا وفقًا لقواعد أي كيان آخر غير أنفسنا؟

ولكننا سوف نُحاسَب حتمًا. فعلى أية حال، لم يعطِ الله لموسى «اقتراحات عشرة»، وإنما أعطاه وصايا واجبة التنفيذ؛ وإذا كان المرء حرًّا من كل قيدٍ، فلربما كان أول رد فعل له تجاه تلقِّيه أمرًا واجب النفاذ هو: لا أحد يحقّ له أن يخبرني بما يجب عليَّ فعله، حتى إذا كان ذلك من أجل مصلحتي. غير أن قصّة العجل الذهبي تُذكِّرنا أيضًا أنه من دون القواعد، سرعان ما نصبح عبيدًا لشهواتنا؛ وما أبعد ما يكون هذا عن الحرّية والتحرّر.

وتشير القصّة إلى شيء آخر، وهو أننا إذا تُرِكنا لتقديراتنا الذاتيّة غير المدروسة بلا رعاية أو توجيه، فإننا سرعان ما ننحطّ إلى تقديس خصائصَ أدنى منزلة من أنفسنا؛ وهي في هذه الحالة حيوان مُصطنع يبرز غرائزنا الحيوانية بصورة همجيّة تمامًا وغير منظمة على الإطلاق. إن القصّة العبريّة القديمة توضح لنا رأي القدماء في احتمالات ممارسة السلوك المتحضِّر في غياب قواعد تهدف إلى الارتقاء بنظرتنا ورفع معاييرنا.

أحد الأشياء الجميلة بشأن قصّة الكتاب المقدّس هو أنها لا تسرد القواعد بالبساطة التي قد يلجأ إليها المحامون، أو المشرّعون، أو المسؤولون؛ وإنما توردها في ثنايا حكاية درامية توضح لنا أسباب احتياجنا إليها، وهو ما يجعل فهمها أيسر علينا. وبالمِثْل، لا يقدّم لنا البروفيسور بيترسون في هذا الكتاب قواعده الاثنتي عشرة مجرّدة فحسب، وإنما هو يروي لنا القصص أيضًا، مستغلًّا معرفته بالعديد من المجالات في توضيح وشرح الأسباب التي تجعل أفضل القواعد غير مقيّدة لنا في نهاية المطاف، وإنما تسهّل علينا تحقيق أهدافنا، وتجعل حياتنا أكثر اكتمالًا وأكثر حرّية.

كانت المرة الأولى التي قابلت فيها جوردان بيترسون في الثاني عشر من سبتمبر العام 2004، في منزل صديقين مشتركين لنا، هما: المنتج التليفزيوني وودِك شمبرج، وأخصائيّة الطبّ الباطني إستيرا بِكير. كان ذلك في حفل ذكرى ميلاد وودِك. وودِك وإستيرا مهاجران بولندیان شبًّا داخل حدود الإمبراطورية السوفييتية، حيث كان الجميع يدرك أن العديد من الموضوعات تُصنّف على أنها من المحظورات، وأن مجرد التشكيك –ولو بشكل عارضٍ غير مقصودٍ– في نظمٍ اجتماعية وأفكارٍ فلسفيّة معيّنةٍ (ناهيك عن النظام السياسي نفسه) قد يزجّ بالمرء في متاعب كبرى.

لكن مضيفنا ومضيفتنا يستمتعان حاليًّا بترف التحدّث بحرّية وبصدق، عن طريق إقامة حفلات رائعة مكرّسة لمتعة قول ما يعتقدانه حقًّا وسماع الآخرين يفعلون الشيء نفسه، في تبادلٍ حرٍّ للآراء. كانت القاعدة لديهما هي: «عبِّر عن رأيك بحرّية». وإذا اتخذ الحديث منحًى سياسيًّا، فإن أصحاب القناعات السياسيّة المتباينة يتحدّثون إلى بعضهم البعض، بل ويتطلّعون إلى ذلك في واقع الأمر، بطريقة صارت نادرة، وتزداد ندرتها يومًا بعد يومٍ. وفي بعض الأحيان، كانت آراء وودِك السياسيّة –أو ما يسمّيها بالحقائق– تندفع منه متفجِّرة، تمامًا مثل ضحكاته. ومن ثم، كان يحتضن الشخص الذي

جعله يضحك، أو الذي استفزّه ليعبِّر عن رأيه، بقوّة ربما كانت أكبر حتى مما كان يريد. كان هذا هو أفضل جزء في تلك الحفلات، كما كانت صراحته وأحضانه الدافئة، تجعل استفزازه أمرًا جديرًا بأن يقدِم عليه المرء. وفي هذه الأثناء، كان صوت إستيرا يصدح في الغرفة متّجهًا في مسارٍ دقيقٍ للغاية إلى المستمع المنشود. ولم يكن التّعبير القوي المشحون بالعواطف الجيّاشة عن الحقائق التي يؤمن بها المرء يجعل المناخ العام في المكان أقل هدوءًا بالنسبة للحاضرين (بل كان يفسح المجال أمام المزيد من هذه التّعبيرات القويّة عن الرأي!)، وهو ما كان يحرِّرنا، ويتسبّب في انطلاق المزيد من الضحكات، ويجعل الأمسية كلّها أكثر بهجة، لأنه مع تحرّر اثنين من أوروبا الشرقية، مثل شمبرج وبِكير، كنا ندرك دائمًا ما الذي نتعامل معه ومن الذي نتعامل معه، وكانت تلك الصّراحة مبهجةً ومنعشةً للروح. وقد وصف الروائي الفرنسي أونوريه دو بلزاك ذات مرّة، الحفلات والحفلات الراقصة في بلده الأم فرنسا، قائلًا إن ما يبدو للوهلة الأولى أنه حفلٌ واحدٌ دائمًا ما يكون حفلين في حقيقة الأمر. ففي الساعات الأولى، يمتلئ الحفل بأناس يشعرون بالضجر يتظاهرون ويتصنّعون، وربما لم يأتوا سوى من أجل لقاء شخصٍ واحدٍ ذي مكانة خاصّة ليمتدح أناقتهم ومكانتهم. وبعد ذلك، وفي الساعات المتأخِّرة للغاية، وبعد أن يكون أغلب الضيوف قد رحلوا، يبدأ الحفل الثاني؛ الحفل الحقيقي. أما لدى مضيفينا، فجميع الحضور

يشاركون في الحوار، ويحلّ الضحك الصادق النابع من القلب محل الأجواء الرسمية الكئيبة. ففي حفلات وودِك وإستير، غالبًا ما كان يبدأ هذا النوع من أحاديث الساعات المتأخرة من الليل والساعات الأولى من الصباح التي تتّسم بالمودة والحميميّة بمجرد دخول الضيوف إلى الغرفة.

وودِك هو صيّاد ذو شعرٍ فضّيٍّ اللون شبيهٍ بلبدة الأسد في رحلة بحث دائم عن مثقفين جماهيريين محتمَلين، وهو يعرف كيفية اكتشاف الأشخاص الذين يستطيعون التحدّث أمام كاميرات التليفزيون، والذين يبدون صادقين وأصيلين لأنهم كذلك حقًّا (والكاميرا تلتقط هذا). وكثيرًا ما يدعو وودِك مثل هؤلاء الناس إلى صالونه. وفي ذلك اليوم، دعا وودِك أستاذًا في علم النفس –من جامعة تورنتو التي أعمل فيها– تنطبق عليه المواصفات؛ إذ يتوفّر فيه الذكاء والعاطفة جنبًا إلى جنب. كان وودِك هو أول من وضع جوردان بيترسون أمام الكاميرا، وكان يعتبره معلِّمًا يبحث عن طلابه؛ لأنه كان مستعدًّا دائمًا للشّرح. وكان من حسن الحظ أنه أحب الكاميرا وبادلته الكاميرا حبًّا بحب.

في ظهيرة ذلك اليوم، كانت هناك طاولة كبيرة موضوعة خارج المنزل في حديقة شمبرج وبِكير، وقد تجمّعت حولها المجموعة المعتادة من الأفواه والآذان، والثرثرة. إلا أنه بدا جليًا أننا مبتلون بمجموعة من النحل الطنّان، وكان رفيقنا الجديد جالسًا إلى الطاولة، يتحدّث بلكنة سكان ألبرتا الكندية، وينتعل زوجًا من أحذية رعاة البقر، متجاهلًا سرب النحل تمامًا ومسترسلًا في حديثه. ظلّ يتحدّث بينما كانت البقية منا تمارس لعبة الكراسي الموسيقية في محاولة للابتعاد عن النحل، ولكن مع محاولة البقاء حول الطاولة في الوقت نفسه لأن ذلك الضيف الجديد على تجمعاتنا كان مثيرًا للاهتمام للغاية. كانت لديه عادة غريبة تتمثّل في التحدّث عن أكثر الأسئلة عمقًا أمام جميع من يجلسون إلى الطاولة أيًا كانوا –وكان أغلبهم من المعارف الجديدة– كما لو كان في حوار قصير عابر. ولو أنه كان في حوار قصير عابر، فيمكن قياس الفترة الفاصلة بين إجابة سؤال مثل: «كيف تعرّفت على وودِك وإستيرا؟». أو عبارة مثل: « لقد كنت مربّي نحل في وقت من الأوقات، لذا فإنني معتاد على التعايش مع النحل»، وبين الموضوعات الأكثر أهمية بالنانو ثانية.

يمكن للمرء أن يسمع مثل هذه الأسئلة العميقة تُناقَش في الحفلات التي يجتمع فيها أساتذة الجامعة والمهنيون، لكن الحوار عادةً ما يبقى بين اثنين من المتخصِّصين في الموضوع، في ركنٍ بعيدٍ ناءٍ، وإذا اشتركت المجموعة بأكملها في الحوار، فغالبًا ما يكون ذلك في ظل وجود شخص متفاخر معجب بنفسه. ولكن بيترسون، على الرغم من سعة اطّلاعه، لم يبدُ قط أنه متحذلق متفاخر. كانت لديه حماسة طفل تعلّم لتوّه شيئًا جديدًا ويحب أن يطلع الآخرين عليه. كان يبدو أنه يفترض، مثلما يفعل الأطفال –قبل أن يدركوا مدى بلادة الكبار الراشدين وعدم اكتراثهم– أنه إذا كان يظنُّ أن شيئًا ما مثيرًا للاهتمام، فإن الآخرين أيضًا قد يعتبرونه كذلك. وكان ثمة جانبٌ صبيانيٌّ في تناول ذلك الشبيه برعاة البقر للموضوعات كما لو أننا جميعًا نشأنا معًا في البلدة الصغيرة نفسها، أو في العائلة ذاتها، أو كنا جميعًا نفكّر طوال الوقت في مشكلات الوجود الإنساني ذاتها.

لم يكن بيترسون «غريب الأطوار» حقًّا؛ فقد كان لديه ما يكفي من السمات العادية، وكان أستاذًا في جامعة هارفارد، وكان سيّدًا مهذّبًا (كما ينبغي أن يكون رعاة البقر)، على الرغم من أنه كان ينطق بكلمات مثل «اللعنة» و«تبًا» كثيرًا، بطريقة سكان الريف في خمسينيات القرن العشرين. غير أن الجميع كانوا ينصتون وقد علت وجوههم علامات الانبهار، لأنه في الواقع كان يتناول قضايا تَهُمُّ جميع الجالسين على الطاولة.

كان ثمة شعورٌ بالحرّية يصاحب التواجد برفقة شخص واسع الثقافة والمعرفة، ولكنّه مع ذلك يتحدّث بطريقة عفويّة بلا تنميق. كان تفكيره مفعَمًا بالحيوية؛ بحيث يبدو أنه بحاجة إلى التفكير بصوتٍ مرتفعٍ، واستخدام القشرة الحركيّة للتفكير، ولكن هذه الحيوية أيضًا كانت بحاجة إلى السرعة لكي تعمل على أفضل وجه؛ لكي تنطلق وتحلِّق. وكانت سرعة تباطئه مرتفعة، وإن لم تكن جنونية. كانت الأفكار الحماسية الجريئة تتداعى من ذهنه، لكن على عكس العديد من الأكاديميين الذين ما إن تتاح لهم فرصة التحدّث حتى يتشبّثون بها ولا يتيحون لغيرهم الفرصة ذاتها، كان يبدو أن بيترسون يحب الأمر حقًّا حينما يعارضه أحدهم، أو يصحِّح له بعض أقواله. لم يكن يبدو عليه الاضطراب أو التوتّر، ولم يكن يتذمّر. كان يقول بطريقة عامية ودودة: «نعم»، ويحني رأسه لا إراديًا، ويهزّها كما لو أنه أغفل نقطة ما، ويضحك من نفسه بسبب تعميمه المفرِط. كان يعبر عن تقديره لمن يطلعه على جانب آخر من قضية ما، وأصبح من الواضح أن التدبّر في معضلة ما –بالنسبة له– هو عمليّة حواريّة.

ولم يكن بوسع المرء إلا أن ينبهر بجانب استثنائي آخر من شخصيته: فقد كان بيترسون عمليًّا للغاية بالنسبة لشخص واسع المعرفة مثله. كانت أمثلته مليئة بالتطبيقات التي تصلح للحياة اليوميّة العاديّة، مثل: إدارة الأعمال، أو كيفيّة صنع قطع الأثاث (وقد صنع الكثير من أثاثه بنفسه)، أو تصميم منزلٍ بسيطٍ، أو إضفاء الجمال على غرفة (وهي فكرة باتت شديدة الرواج الآن على شبكة الإنترنت)، أو، في حالة أخرى محدّدة ذات صلة بالتعليم، تدشين مشروعٍ للكتابة على الإنترنت يمنع طلاب الأقليات من التسرّب من المدارس عن طريق حملهم على القيام بنشاط تحليل نفسي على ذواتهم، حيث يسمحون بالتداعي الحرّ لأفكارهم بشأن ماضيهم، وحاضرهم، ومستقبلهم (وهو ما يعرف الآن باسم «برنامج الكتابة عن الذات»).

كنت دائمًا مغرمًا بشدة بأولئك الأشخاص الذين يأتون من مزرعة في براري الغرب الأوسط (حيث يتعلّمون كلّ شيء عن الطبيعة)، أو الذين يأتون من بلدة صغيرة للغاية، ويكونون قد عملوا بأيديهم في صنع الأشياء، وأمضوا فترات طويلة من الوقت وسط قسوة الطبيعة، وغالبًا ما يكونون قد علّموا أنفسهم بأنفسهم، وارتادوا الجامعة برغم كل الصعوبات. كنت أجدهم مختلفين تمامًا عن نظرائهم من أبناء الحضر المثقّفين، والذين مُسِخَت

طبيعتهم إلى حد ما بكل أسفٍ، والذين يُعَدّ التعليم العالي مقدرًا لهم سلفًا، ولهذا السبب يستخفّون به أحيانًا، أو يفكّرون فيه على أنه مجرّد مرحلة حياتيّة يمرّون بها في سبيل التطوّر المهني، وليس على أنه غاية في حدِّ ذاته. كان هؤلاء الغربيون مختلفين؛ فقد كانوا عصاميين، وعمليين، وودودين، وأقل تكلّفًا من كثير من أقرانهم القادمين من المدن الكبيرة، الذين يقضون حياتهم على نحو متزايد داخل المنازل، وأمام أجهزة الكمبيوتر. وقد بدا لي أن عالم النفس الذي يبدو مثل رعاة البقر هذا يهتم بالأفكار فقط إذا كان من المحتمل، بطريقة ما، أن تكون مفيدةً لشخصٍ ما.

صرنا صديقين. فبوصفي طبيبًا ومحللًا نفسيًّا مُحبًا للأدب، انجذبت إليه لأنه كان طبيبًا أتاح لنفسه أيضًا قدرًا كبيرًا من التعلّم من خلال الكتب، ولم يحبّ فقط الروايات الروسية المفعَمة بالعاطفة، والفلسفة، والأساطير القديمة، وإنما بدا أيضًا أنه يعاملها باعتبارها إرثه الأغلى والأكثر قيمة. إلا أنه كان يجري أيضًا أبحاثًا إحصائية كاشفة على الشخصية والحالات النفسية، كما أنه درس علم الأعصاب. وعلى الرغم من أنه متخصِّص في علم النفس السلوكي، فقد انجذب بقوّة إلى التحليل النفسي الذي يركّز على الأحلام، والأنماط البدائيّة، واستمرار تأثير صراعات الطفولة في مرحلة

النضج، ودور الدّفاعات والتفكير العقلاني في الحياة اليوميّة. كان بيترسون متميِّزًا كذلك في كونه العضو الوحيد المهتم بالأبحاث في قسم علم النفس بجامعة تورنتو الذي يحافظ أيضًا على ممارسة الطب.

في زياراتي له، كانت محادثاتنا تبدأ بالمزاح والضحك عند استقباله لي مرحِّبًا في منزله؛ في تلك البلدة الصغيرة التي نشأ فيها في المناطق الداخليّة من مقاطعة ألبِرتا الكندية؛ حيث كان في سنوات مراهقته يشبه أبطال فيلم «فوبار» **FUBAR**. يقطن بيترسون البيت مع زوجته، تامي، وربما كان هو أكثر بيوت الطبقة الوسطى التي رأيتها روعةً وإذهالًا؛ فقد كانت لديهم تحفٌ فنية، وبعض الأقنعة المنحوتة، ولوحات تجريدية، ولكن كانت تغلب على كل ذلك مجموعة ضخمة من لوحات الواقعية الاشتراكية الأصلية للينين والشيوعيين الأوائل لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. فبعد وقت قصير من سقوط الاتحاد السوفييتي وتنفّس معظم أرجاء العالم الصعداء، بدأ بيترسون في شراء هذه الأعمال الفنّية نظير مبالغ زهيدة عبر شبكة الإنترنت. كانت لوحات الاحتفاء بالروح الثورية السوفييتية تملأ جميع جدران المنزل، وأسقفه، وحتى الحمّامات. وبالطبع لم يكن وجود تلك اللوحات راجعًا إلى أي تعاطف مع الشمولية من جانب جوردان، وإنما إلى

رغبته في أن يُذَكِّر نفسه بشيء كان يعرف أنه وجميع الناس الآخرين يفضلون نسيانه؛ وهو أن مئات الملايين من البشر قد قُتِلوا باسم المدينة الفاضلة («اليوتوبيا»).

تطلّب الأمر بعضًا من التعوّد للتكيّف مع هذا المنزل شبه المسكون بالأشباح و«المزيّن» بذكريات وَهْمٍ كاد يدمر البشريّة فعليًا. لكن وطأة الأمر كانت أهون بفضل زوجته الرائعة والمتفرّدة، تامي، التي كانت متّفقة معه قلبًا وقالبًا، والتي اعتنقت تلك الحاجة غير العادية للتعبير عن الرأي، وشجعت زوجها عليها! وكانت هذه اللوحات بمثابة النافذة الأولى التي يطلّ من خلالها الزوار على مدى قلق جوردان من قدرتنا البشرية على فعل الشرّ باسم الخير، وعلى الغموض النفسي لخداع الذات (وأنَّى للمرء أن يخدع ذاته ويفلت بفعلته؟)؛ وهو قلق أتفق معه فيه. ثم كانت هناك أيضًا تلك الساعات التي كنا نقضيها في مناقشة ما يمكن أن أطلق عليه اسم مشكلة أصغر (وهي أصغر لأنها أكثر ندرة)، وتلك هي مشكلة القدرة البشرية على فعل الشرّ من أجل الشر، أي البهجة التي يستمدّها بعض الناس من تدمير الآخرين، والتي عبّر عنها على نحو شهير شاعر القرن السابع عشر الإنجليزي، جون ميلتون، في رائعته « الفردوس المفقود» **Paradise Lost**.

وهكذا، كنا نتبادل أطراف الحديث ونشرب الشاي في مطبخه، محاطين بتلك المجموعة الفنّيّة الغريبة، التي تُعدّ علامة مرئيّة على سعيه المخلص للانتقال إلى ما وراء أيديولوجيّة مفرطة في التبسيط –اليسار أو اليمين– وعدم تكرار أخطاء الماضي. وبعد فترة من الوقت، لم يُعد ثمة شيء غريبٌ بشأن تناول الشاي في المطبخ، ومناقشة القضايا الأسرية، وآخر ما قرأه كل منا، بينما تحيط بنا تلك الصور المشؤومة. كان هذا تعبيرًا رمزيًا عن العيش في العالم بالصورة التي كان عليها، أو بالصورة التي لا يزال عليها حتى الآن في بعض المناطق.

في كتاب جوردان الأول –والوحيد قبل هذا الكتاب– والذي حمل عنوان «خرائط المعنى» **Maps of Meaning**، يعرض علينا آراءه العميقة في موضوعات شاملة حول أساطير العالم، ويشرح لنا كيف أن جميع ثقافات العالم ابتكرت قصصًا لمساعدتنا على التعامل مع الفوضى التي نُلقى فيها منذ لحظة الميلاد، ورسم خريطة لها في نهاية المطاف؛ وهذه الفوضى هي كل ما هو مجهول لنا، وأي منطقة غير مستكشفة يجب علينا اجتيازها، سواء أكانت في العالم الخارجي، أو في عالم النفس الداخلي.

يوضح كتاب «خرائط المعنى» -الذي نُشر منذ قرابة العقدين من الزمان، والذي يجمع بين التطور، وعلم الأعصاب العاطفي، وبعضًا من أفضل آراء يونج، وبعض آراء فرويد، وكثير من الأعمال العظيمة لنيتشه، ودوستويفسكي، وسولجنتسين، وإلياد، ونيومان، وبياجيه، وفراي، وفرانكل- نهج جوردان واسع النطاق لفهم كيفية تعامل البشر والدماغ البشري مع الوضع المتكرر الذي ينشأ عندما يتحتم علينا -في حياتنا اليومية- مواجهة شيء لا نفهمه. وتكمن روعة الكتاب في إثباته لمدى عمق ورسوخ هذا الوضع في تطورنا نحن البشر، وفي حمضنا النووي، وأدمغتنا، وحكاياتنا العتيقة الضاربة في عمق التاريخ. ويوضح جوردان أن هذه القصص والحكايات قد استمرّت معنا على مر تاريخنا لأنها لا تزال توفّر لنا الإرشاد والتوجيه في التعامل مع عدم اليقين، ومع المجهول المحتوم الذي لا مفر منه.

وإحدى المزايا العديدة لهذا الكتاب الذي بين يديك الآن، عزيزي القارئ، هي أنه يوفّر مدخلًا جيدًا لقراءة كتاب «خرائط المعنى»؛ والذي يُعدّ عملًا

شديد الصعوبة والتعقيد لأن جوردان كان يشرح منهجه في علم النفس أثناء كتابته. لكنه كان كتابًا تأسيسيًّا، لأنه بغضّ النظر عن مدى اختلاف جيناتنا أو تجارب حياتنا، أو مدى اختلاف أدمغتنا المرنة في الاستجابة لتجارب حياتنا، فإننا جميعًا مضطرّون إلى التعامل مع المجهول، ونحن جميعًا نحاول الانتقال من الفوضى إلى النظام. وهذا هو السبب الذي يجعل العديد من القواعد المذكورة في هذا الكتاب – والتي تستند إلى كتاب « خرائط المعنى»– ذات سمة شمولية متأصِّلة فيها.

خرج كتاب «خرائط المعنى» إلى النّور نتيجة لإدراك جوردان المُلتاع – كونه مراهقًا نشأ في خضم سنوات الحرب الباردة– أن الكثيرين من بني البشر بدا أنهم يوشكون على تدمير الكوكب دفاعًا عن هويّاتهم المتنوّعة. شعر جوردان أن من واجبه أن يفهم كيف يمكن أن يضحّي الناس بكل شيء من أجل « هوية» ما، أيًا كانت تلك الهوية. وشعر أن من واجبه أن يفهم الأيديولوجيات التي أدت بالأنظمة الشمولية إلى شكل مختلف من ذلك السلوك نفسه؛ وهو شكل قتل مواطني تلك الأنظمة أنفسهم. وفي كتاب «خرائط المعنى»، وفي هذا الكتاب أيضًا، فإن أحد الأشياء التي ينبّه القراء

إلى توخّي أشد الحذر منها هي الأيديولوجية؛ أيًّا كان من يروّج لها، وأيًّا كانت الغاية من ورائها.

والأيديولوجيات هي أفكار بسيطة، تتّخذ شكل العلوم أو الفلسفات، وتدّعي أنها تشرح تعقيد العالم وتقدّم العلاجات التي ستجعله عالمًا مثاليًا. وأصحاب الأيديولوجيات هم أناس يدّعون أنهم يعرفون كيفية «جعل العالم مكانًا أفضل»، وذلك قبل حتّى أن يعتنوا بأمر الفوضى التي تحتلُّ نفوسهم (وهويّة المحارب التي تمنحها لهم أيديولوجياتهم تغطّي تلك الفوضى وتخفيها عن العيون). ولا شكَّ أن هذا من الصلَف والغرور. وأحد أهم الموضوعات في هذا الكتاب هو «ترتيب بيتك من الداخل» أولًا، ويقدّم جوردان نصائح عمليّة حول كيفيّة فعل هذا.

إن الأيديولوجيّات هي بدائل للمعرفة الحقيقيّة، وأنصار الأيديولوجيّات دائمًا ما يكونون في غاية الخطورة عندما يصلون إلى السلطة، لأن منهج «أنا أعرف كل شيء» الساذج، ضيّق الأفق، لا يضاهي أبدًا تعقيد الوجود الإنساني. وعلاوة على ذلك، فعندما تفشل وسائلهم الاجتماعية المبتدعة

في تحقيق غاياتها المنشودة، فإن أنصار الأيديولوجيّات لا يلومون أنفسهم على ذلك، وإنما يوجِّهون اللوم لجميع من يدركون حقيقة تلك البساطة الساذجة. وقد لاحظ أستاذ عظيم آخر من جامعة تورنتو، هو لويس فيور، في كتابه «الأيديولوجيا وأنصار الأيديولوجيّات» **Ideology and the Ideologists**، أن الأيديولوجيّات تعيد صناعة القصص الدّينيّة ذاتها التي تزعم أنها تستأصلها وتحلّ محلّها، ولكن مع التخلّص من ثراء السرد والأثر النفسي. فالشيوعية مستمدّة من قصّة بني إسرائيل في مصر، حيث توجد طبقة مستعبَدة، وطغاة أثرياء، وزعيم – مثل لينين– يسافر خارج البلاد، ويعيش بين المستعبَدِين، ومن ثم يقودهم إلى أرض الميعاد (المدينة الفاضلة؛ ديكتاتورية البروليتاريا).

ولكي يفهم جوردان الأيديولوجيّات جيّدًا، لم يقرأ باستفاضة فحسب عن معسكرات الاعتقال السوفييتية، وإنما قرأ أيضًا عن الهولوكوست وصعود النازية. ولم يسبق لي قط أن قابلت شخصًا، وُلِدَ مسيحيًا وينتمي لجيلي، انزعج بكل هذه الشدّة لما حدث لليهود في أوروبا، وبذل جهدًا هائلًا ليفهم كيف حدث ذلك. وكنت أنا أيضًا قد درست ذلك بعمق؛ فقد كان والدي أحد الناجين من معسكر أوشفيتز وكانت جدّتي في منتصف العمر عندما

وقفَت وجهًا لوجه أمام الدكتور جوزيف مينجِل(1)، الطبيب النازي الذي أجرى تجارب قاسية إلى حدٍّ لا يمكن وصفه على ضحاياه، وقد نجت من معسكر أوشفيتز بعصيان أمره بالانضمام إلى صفوف المسنين –الضعفاء وأصحاب الشعر الرمادي– وانسلّت بدلًا من ذلك في وسط صفوف الشبان. كما تجنّبت غرف الغاز في مرة أخرى عن طريق مقايضة الطعام بصبغة شعر حتى لا تتعرّض للقتل لكونها تبدو مُسنة. وقد نجا جدي، زوجها، من معسكر اعتقال ماوتهاوزن، لكنه مات مختنقًا بأول قطعة من الطعام الصلب تناولها قبل يوم التحرير. وأنا أروي هذه الحكاية لأنه بعد سنوات من صداقتنا، عندما كان جوردان يتبنّى موقفًا ليبراليًا كلاسيكيًّا منحازًا لحرّيّة التعبير، كان المتطرفون اليساريون يتّهمونه بأنه متعصّبٌ يمينيٌّ.

اسمحوا لي أن أقول بكل ما يمكنني من اعتدال وحياد إن أصحاب هذه الاتهامات، في أحسن الأحوال، لم يبذلوا الجهد اللازم. إن امرءًا له تاريخ عائلي مثل ما لي لقادر على تطوير جهاز رادار –بل وحتّى سونار– لرصد التعصّب اليمينيّ على الفور؛ ولكن الأكثر أهميّة من ذلك هو أن المرء يتعلّم كيف يتعرّف على نوعِ الأشخاص الذين يمتلكون الفهم، والأدوات، والنية

الطيّبة، والشجاعة لمقاومة مثل هذا التعصّب، وجوردان بيترسون هو ذلك الشخص.

كان استيائي من محاولات العلوم السياسية الحديثة لفهم صعود النازية، والشمولية، والتحامل، عاملًا رئيسيًا في قراري إكمال دراساتي في العلوم السياسية بدراسة اللاوعي، والإسقاط، والتحليل النفسي، والقدرة التنكّسية لعلم النفس الجماعي، والطب النفسي، والدماغ. وقد تحوّل جوردان عن العلوم السياسية لأسباب مماثلة. وبهذه الاهتمامات المتوازية المهمّة، لم نكن دائمًا ما نتّفق على «الإجابات» (ونحمد الله على ذلك)، لكننا دائمًا ما كنا نتفق على الأسئلة.

ولم تكن صداقتنا كلّها كآبة وقتامة؛ فقد جعلت من عاداتي حضور محاضرات زملائي في جامعتنا، وبالتالي كنت أحضر محاضرات جوردان التي كانت ثريّة دائمًا، ورأيت ما أصبح ملايين البشر يرونه حاليًا على شبكة الإنترنت؛ رأيت خطيبًا جماهيريًّا لامعًا ومبهرًا عادة، كان في أفضل حالاته يعزف مثل عازف الجاز؛ وأحيانًا يشبه واعظًا متحمِّسًا (ليس في تبشيره،

وإنما في شغفه، وفي قدرته على سرد قصص تنقل مخاطر الحياة التي تصاحب الإيمان أو الجحود بأفكار متنوّعة). ومن ثم كان يتحوّل بالسهولة نفسها لإلقاء موجز منهجي شيّق ساحر لسلسلة من الدراسات العلمية. وقد كان بارعًا في مساعدة الطلاب على أن يصبحوا أكثر تأمّلًا، ويتعاملوا مع أنفسهم ومستقبلهم بجدية. لقد كان يعلّمهم احترام العديد من أعظم الكتب على الإطلاق. وكان يعطي أمثلة حيَّة من ممارسته السريرية، ويكشف عن مكنون ذاته (على نحو ملائم)، بما في ذلك نقاط ضعفه. ويقيم علاقات مدهشة بين التطوّر، والدماغ، والقصص الدينية. ففي عالم يتعلّم فيه الطلاب أن ينظروا إلى التطوّر والدين على أنهما متعارضان (على أيدي مفكّرين مثل ريتشارد دوكينز)،

كان جوردان يبيِّن لطلابه كيف يساعد التطور –في كل شيء– على توضيح الجاذبيّة النفسيّة العميقة والحكمة المتجسِّدة التي يتّسم بها العديد من القصص القديمة؛ من ملحمة جلجامش إلى حياة بوذا، ومن الأساطير المصريّة إلى الكتاب المقدّس. لقد أوضح لهم، على سبيل المثال، كيف تعكس قصص الترحال طوعًا نحو المجهول – وهو مسعى الأبطال– المهمات الشاملة التي تطوّر الدماغ من أجل أدائها. لقد احترم القصص، ولم يكن اختزاليًا، ولم يزعم أبدًا أنه استخلص كل ما فيها من حكمة. فلو أنه كان يناقش موضوعًا مثل التحيّز، أو نظيريه العاطفيين: الخوف والبُغض، أو

يناقش الاختلافات بين الجنسين في المتوسّط، فإنه يستطيع تفسير كيفيّة تطوّر هذه السمات وأسباب استمرارها.

والأكثر أهمية أنه كان ينبّه طلابه إلى مواضيع نادرًا ما تجري مناقشتها في الجامعات، مثل الحقيقة البسيطة القائلة إن جميع القدماء –من بوذا إلى التوراة– قد أدركوا ما يعرفه كل شخص بالغ أجهده الزمان قليلًا، وهو أن الحياة معاناة. فإذا كنت تعاني –أو كان شخصٌ مقرّبٌ منك يعاني– فلا شك أن هذا أمر محزن؛ إلا أنه بكل أسف ليس أمرًا مميزًا أو قاصرًا عليك. فنحن لا نعاني فقط لأن «السّاسة حمقى»، أو لأن «النظام فاسد»، أو لأنك أنت وأنا –وكافة الناس تقريبًا– يمكن أن نصف أنفسنا على نحو مقبول –بطريقة أو بأخرى– على أننا ضحايا لشيء ما، أو لشخص ما. إن قَدَرنا المحتوم هو أن نحظى بقدرٍ معقولٍ من المعاناة لمجرَّد أننا وُلِدنا بشرًا. والأرجح أنك إذا كنت لا تعاني حاليًا –أنت أو شخص تحبّه– فإنك ستعاني في غضون خمس سنوات من الآن، ما لم تكن شخصًا محظوظًا للغاية. إن تربية الأطفال معاناة، والعمل معاناة، والشيخوخة والمرض والموت جميعها معاناة، ويؤكد جوردان أن فعل كل ذلك وحدك، من دون دعم تستمدّه من علاقة حب، أو من حكمة، أو من آراء مفيدة لأعظم علماء النفس، يجعل

المعاناة أكثر مشقّةً على النفس. لم يكن جوردان يخيف الطلاب؛ بل في الواقع، كانوا يجدون هذا الحديث الصادق أمرًا مُطمئنًا، لأن غالبهم كان يعرف في أعماق نفسه أن ما يقوله صحيحًا، حتى وإن لم يكن هناك مؤتمر لمناقشته؛ ربما لأن البالغين الذين يعرفونهم في حياتهم قد أصبحوا مفرطين في محاولة حمايتهم على نحو ساذج، بحيث ضلَّلوا أنفسهم ودفعوها دفعًا للاعتقاد بأن عدم الحديث عن المعاناة من شأنه أن يحمي أبناءهم منها بطريقة سحرية ما.

وهنا كان يربط بين أسطورة البطل، وهو موضوع عابر للثقافات استكشفه أوتو رانك من منظور التحليل النفسي، وذكر –مقتديًا بفرويد– أن أساطير الأبطال متشابهة في العديد من الثقافات، وهي فكرة التقطها كارل يونج، وجوزيف كامبل، وإريك نيومان، وغيرهم. وفي حين قدَّم فرويد إسهامات كبرى في شرح العُصَاب عن طريق التركيز على فهم ما يمكن أن نسميه «قصة البطل الفاشل» (مثل قصة «أوديب») –إلى جانب بعض النقاط الأخرى– فقد ركّز جوردان على الأبطال المنتصرين. وفي جميع قصص النصر التي ركّز عليها، يقتحم البطلُ المجهولَ، ويمخر عباب منطقة غير مستكشفة، ويواجه تحدّيات كبيرة جديدة، ويُقدم على مخاطر مهولة. وفي

هذه العملية، لا بد أن يموت جزء من ذاته، أو يُنبذ، لكي يتمكّن البطل من الميلاد من جديد ومواجهة التحدّي. ويتطلب هذا شجاعة، وهي أمر نادرًا ما تجري مناقشته في محاضرات علم النفس أو الكتب الدراسية. وأثناء تعبير جوردان عن موقفه العلني الأخير دفاعًا عن حرية التعبير، وضد ما أسميه «التعبير القسري» (لأنه ينطوي على إجبار الحكومة للمواطنين على التعبير عن آرائهم السياسية)، كانت المخاطر شديدة للغاية بالنسبة إلى جوردان؛ فقد كان لديه الكثير ليخسره، وكان يعرف هذا. إلا أنني رأيته (ومعه تامي) لا يكتفي فقط بإظهار مثل هذه الشجاعة، وإنما يواصل أيضًا اتباع العديد من القواعد الواردة في هذا الكتاب، والتي قد يكون بعضها في غاية الشدة والصرامة.

لقد رأيته يتطوَّر، من شخصٍ رائعٍ إلى إنسان أكثر مقدرة وثقة بنفسه؛ وذلك من خلال اتباع هذه القواعد. وفي الواقع، كانت عملية تأليف هذا الكتاب، وتطوير هذه القواعد، هي ما دفعه إلى اتخاذ الموقف الذي اتخذه ضد التعبير الجبري أو القسري عن الرأي. وهذا هو السبب الذي جعله –خلال هذه الأحداث– يبدأ في نشر بعض أفكاره عن الحياة وعن هذه القواعد على شبكة الإنترنت. والآن، وبعد أن تجاوز عدد مشاهدات مقاطعه على

موقع «يوتيوب» مائة مليون مشاهدة، بتنا نعرف أن هذه الأفكار قد أصابت وترًا حساسًا.

وبالنظر إلى بغضنا للقواعد، كيف يمكن تفسير تلك الاستجابة غير العادية لمحاضراته، التي يضع لنا فيها القواعد؟ في حالة جوردان، كانت قوّة تأثيره بالطبع، إلى جانب استعداده النادر للدفاع عن مبدأه، هو ما أكسبه في بادئ الأمر جمهورًا واسعًا من المشاهدين على الإنترنت؛ فسرعان ما تجاوزت أعداد مشاهدات مقاطعه الأولى على موقع «يوتيوب» مئات الآلاف. غير أن الناس استمروا في مشاهدة مقاطعه بعد ذلك لأن ما يقوله يلبي حاجة عميقة وغير محددة بوضوح؛ وهذا لأنه إلى جانب رغبتنا في العيش بحرية بدون قواعد، فإننا جميعًا نبحث عن النظام.

إن الاحتياج الشديد للقواعد، أو للمبادئ الإرشادية، المنتشر في أوساط الشباب الأصغر سنًا، بات أعظم في يومنا هذا لأسباب وجيهة. ففي الغرب على الأقل، أصبح مواليد جيل الألفية يعيشون وسط وضع تاريخي فريد من نوعه. وإنني لأظن أنهم أول جيل يتم تعليمه بشكل كامل – وفي آن واحد

– فكرتين تبدوان متناقضتين حول الأخلاق؛ في المدارس، والكليات، والجامعات، على يد كثيرين ممن ينتمون إلى جيلي. وقد قادهم هذا التناقض في بعض الأحيان إلى حالة من التشوّش والارتياب، من دون أي توجيه لهم، وعلى نحو أكثر مأساوية، فإنهم أيضًا يكونون محرومين من ثروات لا يعلمون من الأساس أنها متاحة لهم.

الفكرة الأولى أو الدرس الأول الذي نلقنهم إياه هو أن الأخلاق نسبية، وفي أحسن الأحوال هي «تقدير شخصي للقيمة». وكلمة نسبية تعني أنه ليس ثمة صواب أو خطأ مطلق في أي شيء؛ وبدلًا من ذلك، فإن الأخلاق والقواعد ذات الصلة بها هي مجرّد آراء شخصية أو احتمالات، «بالنسبة إلى» أو «بالارتباط مع» إطار معين، مثل العرق الذي ينتمي إليه المرء، أو تنشئته، أو الثقافة أو اللحظة التاريخية التي يولد فيها. إنها ليست أكثر من مجرد حادث ميلاد. ووفقًا لهذه الحُجّة (التي باتت عقيدة الآن)، يعلمنا التاريخ أن الأديان، والقبائل، والأمم، والجماعات العرقية، تميل إلى الاختلاف مع بعضها بعضًا بشأن القضايا الجوهرية، ودائمًا كان الحال كذلك. واليوم، يخرج علينا يسار ما بعد الحداثة بادعاء إضافي مفاده أن أخلاق جماعة ما ليست إلا محاولة منها للتسلط على جماعة أخرى. لذا

فإن الشيء اللائق الذي ينبغي عليك فعله، بمجرد أن يتبيَّن لك بوضوح مدى تعسّف «قيمك الأخلاقية» الشخصية و«القيم الأخلاقية» لمجتمعك، هو التسامح مع الأشخاص الذين يفكِّرون بطريقة مختلفة، والذين يأتون من خلفيات ثقافية مختلفة (متنوّعة). وهذا التأكيد على التسامح أمر بالغ الأهمية إلى درجة أن أحد أسوأ عيوب الشخصية التي يمكن أن تكون لدى المرء –من وجهة نظر الكثيرين من الناس– هو أن يكون صاحب نزعة إلى «إصدار الأحكام الأخلاقية على الآخرين»(2). وبما أننا لا نعرف الصواب من الخطأ، أو ما هو خير وما هو شر، فإن أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه امرء راشد هو أن يقدّم لفتى شاب النصيحة حول كيفية عيش الحياة.

وهكذا فقد نشأ جيل لم يتعلّم معنى ما كان يطلق عليه في وقت من الأوقات «الحكمة العملية»، التي أرشدت أجيالًا سابقة. وبالتالي، فقد عانى جيل الألفية، الذي يقال له في كثير من الأحيان إنه تلقّى أفضل تعليم متاح في أي مكان، من أحد أشكال الإهمال الفكري والأخلاقي الخطير. قرر النسبويون من جيلي وجيل جوردان –الذين صار كثيرون منهم أساتذة لأبناء جيل الألفية– أن يبخسوا قيمة آلاف السنين من المعرفة الإنسانية بشأن كيفية اكتساب الفضيلة، معتبرين أنها عتيقة وبالية، أو «غير ذات صلة»، أو

حتى «قمعيّة». ولقد حقّقوا نجاحًا كبيرًا في ذلك؛ إلى درجة أن كلمة «الفضيلة» ذاتها باتت تبدو كلمة عتيقة عفَّى عليها الزمن، وأن من يستخدمها يبدو شخصًا تجاوزه الزمان أخلاقيًا ويظنّ نفسه أقوم أخلاقًا من غيره.

ودراسة الفضيلة لا تساوي بالضبط دراسة الأخلاق (الصواب والخطأ، الخير والشر). فقد عرَّف أرسطو الفضائل ببساطة على أنها السلوكيات الأكثر إفضاءً إلى السعادة في الحياة. وكان تعريف الرذيلة هو أنها السلوكيات الأقل إفضاءً إلى السعادة. كما لاحظ أرسطو أن الفضائل دائمًا ما تهدف إلى تحقيق التوازن وتجنّب تطرفات الرذائل. وقد تناول أرسطو الفضائل والرذائل في كتابه «الأخلاق النيقوماخية» **Nicomachean Ethics**، الذي كان كتابًا معتمدًا على الخبرة والملاحظة وليس على التخمين أو الحدس، لنوع السعادة الذي يمكن للبشر تحقيقه. وكانت تنمية القدرة على الحكم على الفارق بين الفضيلة والرذيلة هي بداية الحكمة، وهي شيء لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يكون عتيقًا باليًا.

وعلى النقيض من ذلك، تبدأ نسبيتنا الحديثة بالتأكيد على أن إصدار الأحكام بشأن كيفية عيش الحياة هو أمر مستحيل، لأنه لا يوجد خير حقيقي، ولا توجد فضيلة حقيقية (لأن هذين الشيئين نسبيان أيضًا). وهكذا يكون أقرب تقدير للـ«الفضيلة» من وجهة نظر النسبية هو « التسامح»؛ فالتسامح هو القادر وحده على توفير الترابط الاجتماعي بين الجماعات المختلفة، وإنقاذنا من إيذاء بعضنا بعضًا. لذا فإن الناس على موقع «فيسبوك» وغيره من مواقع التواصل الاجتماعي يومئون إلى فضيلتهم المزعومة، حيث يخبرون الجميع عن مدى تسامحهم، وانفتاحهم، وشفقتهم، وينتظرون تراكم الإعجابات. (ناهيك عن أن إخبار الناس بأنك شخصٌ فاضلٌ لا يُعدّ من الفضيلة، وإنما هو دعاية للذات. والإيماء بالفضيلة ليس فضيلة؛ وإنما هو، على الأرجح، أكثر رذائلنا انتشارًا).

إن عدم التسامح مع آراء الآخرين (بغضّ النظر عن مدى جهل تلك الآراء أو تهافتها) ليس خطأً فحسب في عصرنا الحالي؛ ففي عالم لا وجود فيه للصواب أو الخطأ، يُعد عدم التسامح أسوأ من ذلك: إنه علامة على أنك شخص مُتخلِّف على نحو مُحرِج، وربما حتى خطير.

لكن تبيَّن أن الكثيرين من الناس لا يستطيعون تحمّل ذلك الفراغ –أو الفوضى– المتأصّل في الحياة، والذي أصبح أكثر سوءًا بسبب هذه النسبية الأخلاقية؛ فهؤلاء لا يستطيعون العيش من دون بوصلة أخلاقية، من دون مثل أعلى يتطلّعون إلى الوصول إليه في حياتهم. (من وجهة نظر النسبيين، المُثل العليا هي قيم أيضًا، ومثل جميع القيم، فهي «نسبية» فحسب، ولا تكاد تستحقّ التضحية من أجلها). لذا، فإلى جانب النسبيّة، نرى انتشار العدميّة واليأس، كما نرى أيضًا عكس النسبيّة الأخلاقية؛ وهو اليقين الأعمى الذي تقدّمه لنا الأيديولوجيات التي تزعم أن لديها حلًا لكلّ شيء.

وهكذا نصل إلى الدرس الثاني الذي كثيرًا ما أُمطِرَ به جيل الألفية. فهم يشتركون للحصول على منهج تعليمي في العلوم الإنسانية لدراسة أفضل الكتب التي أُلِّفَت على مر العصور. لكننا لا نحدّد لهم الكتب التي ينبغي عليهم قراءتها؛ لذا فإن ما يحصلون عليه بدلًا من ذلك هو هجمات أيديولوجية على تلك الكتب، وهي هجمات عادة ما تكون مستندة إلى قدر مريع من التبسيط. وفي حين أن النسبيين دائمًا ما تملأهم الشكوك، فإن الإيديولوجيين على عكس ذلك تمامًا. فالشخص الأيديولوجي يفرط في

إطلاق الأحكام ويكون مولعًا بانتقاد الآخرين، وهو دائمًا ما يعرف عيوبهم، ويعرف ما يجب عليه فعله حيال ذلك. لذا يبدو أحيانًا أن الأشخاص الوحيدين المستعدِّين لتقديم المشورة لغيرهم في مجتمع نسبي هم أولئك الذين لا يملكون إلا أقل القليل مما يمكنهم تقديمه.

إن النسبية الأخلاقيّة الحديثة لها العديد من المصادر. فمع معرفتنا في الغرب بالمزيد عن التاريخ، بتنا ندرك أن الحُقب التاريخيّة المختلفة لها قوانين وقواعد أخلاقيّة مختلفة. فعندما مخر الغربيون عباب البحار واستكشفوا العالم الأوسع من حولهم، علمنا بوجود قبائل نائية في كافة قارات الدنيا، ولهذه القبائل قواعد أخلاقية مختلفة تبدو منطقيّة بالنسبة إلى مجتمعاتها، أو في إطار هذه المجتمعات. كما لعب العلم دورًا أيضًا عن طريق مهاجمة النظرة الدينية للعالم، وبالتالي تقويض الأسس الدينية للأخلاقيات والقواعد. فقد أشار علم الاجتماع المادي إلى أنه يمكننا تقسيم العالم إلى حقائق (يمكن للجميع رؤيتها، وتتّسم بالموضوعية و«الواقعية»)، وقيم (وهي أشياء ذاتيّة وشخصيّة). ومن ثم، أمكننا أولًا الاتفاق على الحقائق، وربما، في يوم من الأيام، يمكننا وضع قواعد أخلاقية علميّة (لم نتوصّل إليها بعد). وعلاوة على ذلك، أسهم العلم بطريقة أخرى في ظهور

النسبيّة الأخلاقيّة – من خلال الإيعاز بأن القيم أقل واقعية وصدقًا من الحقائق– لأنه تعامل مع «القيم» على أنها شيء ثانوي. (لكن فكرة أنه يمكننا بسهولة فصل الحقائق عن القيم كانت –ولا تزال– فكرة ساذجة؛ فإلى حدٍّ ما، قيم المرء هي التي تحدِّد ما سيهتم به، وما الذي سيعتبره حقيقة).

كانت فكرة أن المجتمعات المختلفة لها قواعد وأخلاقيّات مختلفة فكرة معروفة للعالم القديم أيضًا، ومن المثير للاهتمام مقارنة ردِّ فعل ذلك العالم تجاه هذا الإدراك برد فعل العالم الحديث (المتمثّل في النسبيّة، والعدميّة، والأيديولوجيّة). فعندما أبحر الإغريق القدماء متّجهين إلى الهند وغيرها من الأماكن الأخرى، اكتشفوا بدورهم أن القواعد، والأخلاق، والعادات، تختلف من مكان إلى آخر، ورأوا أن التفسير لما هو صواب وما هو خطأ كان في أغلب الأحيان متأصِّلًا في سلطة موروثة ما. لم يأت رد الفعل اليوناني في صورة يأس محبط، وإنما في صورة اختراع جديد هو: الفلسفة.

استجابة لحالة عدم اليقين الناتجة عن إدراك هذه القواعد الأخلاقية المتضاربة، قرر سقراط أنه بدلًا من أن يصبح عدميًّا، أو نسبيًّا، أو أيديولوجيًّا، سيكرس حياته للبحث عن الحكمة التي يمكن أن تؤدّي إلى فهم واستيعاب هذه الاختلافات؛ أي إنه ساعد على ظهور الفلسفة. لقد قضى سقراط حياته في طرح أسئلة جوهريّة محيّرة، مثل: «ما الفضيلة؟»، و«كيف يمكن للمرء أن يحيا حياة طيّبة؟» و«ما العدالة؟»، ودرس أساليب مختلفة، متسائلًا أيها يبدو أكثر تماسكًا، وأكثر انسجامًا مع الطبيعة الإنسانية. وهذه هي نوعية الأسئلة التي أعتقد أنها تبث الحياة في هذا الكتاب.

بالنّسبة إلى القدماء، لم يؤدِ اكتشافهم أن الأشخاص المختلفين لديهم آراء مختلفة بشأن كيفية عيش الحياة -عمليًا- إلى حالة من الشّلل؛ وإنما أدّى إلى تعميق فهمهم للإنسانيّة وإلى بعض أكثر المحاورات التي أجراها البشر ثراءً وإشباعًا على الإطلاق حول كيفيّة عيش الحياة.

وبالمثل فعل أرسطو. فبدلًا من اليأس الحائر إزاء هذه الاختلافات بين القواعد الأخلاقيّة، رأى أرسطو أنه على الرغم من اختلاف القواعد والقوانين والتقاليد من مكان إلى آخر، فإن الشيء الثابت الذي لا يتغيّر هو أن البشر بطبيعتهم الفطرية، في جميع الأماكن، لديهم ميل إلى وضع القواعد والقوانين

والتقاليد. وللتعبير عن هذا بلغة العصر، يمكن القول إنه يبدو أن جميع البشر -من خلال هبة بيولوجيّة ما- يهتمون بالأخلاق بشدة وعلى نحو أصيل لا فكاك منه، بحيث إننا معشر البشر ننشئ هيكلًا من القوانين والقواعد أينما حللنا. إن فكرة أن الحياة الإنسانيّة يمكن أن تكون خالية من الاهتمامات الأخلاقيّة هي فكرة خياليّة.

إن وضع القواعد هو سمة مميّزة أصيلة للبشر. وبالنظر إلى أننا حيوانات أخلاقيّة، فكيف سيكون تأثير نسبيتنا الحديثة المفرطة في التبسيط علينا؟ إن هذا يعني أننا نعيق أنفسنا من خلال التظاهر بكوننا مخلوقات أخرى غير أنفسنا. إن ذلك أشبه بارتداء قناع، لكنه قناع غريب، لأن أكثر من يخدعه ذلك القناع هو صاحبه الذي يرتديه.

فقط اخدش السيارة المرسيدس المملوكة لألمع الأساتذة الجامعيين المناصرين لنسبيّة ما بعد الحداثة بمفتاحك، وسترى مدى السرعة التي يسقط بها قناع النسبيّة وعباءة التسامح (والادعاء الزائف بأنه ليس هناك صواب أو خطأ).

ونظرًا إلى أننا لا نملك بعد أخلاقًا تستند إلى العلم الحديث، فإن جوردان لا يحاول وضع قواعده عن طريق محو الماضي والبدء من جديد؛ أو تجاهل المعرفة البشرية المتراكمة على مدار آلاف السنين باعتبارها مجرّد خرافات، وغضّ الطرف عن أعظم إنجازاتنا الأخلاقيّة. وإنما من الأفضل كثيرًا أن نجمع بين أفضل ما نتعلّمه الآن وبين الكتب التي رأى البشر أنه من الصواب الحفاظ عليها لآلاف السنين، والقصص التي قاومت رغم كل الصعاب، وعلى عكس التوقعات، نزعة الزمان إلى طمس الأشياء القديمة ومحوها.

إنه يفعل ما فعلته الإرشادات العاقلة الحصيفة دائمًا؛ فهو لا يدّعي أن الحكمة الإنسانية تبدأ من عنده، وإنما يلجأ أولًا إلى الإرشادات التي يتبعها فعليًا. وعلى الرغم من أن الموضوعات التي يتناولها هذا الكتاب موضوعات جادة، فإن جوردان في كثيرٍ من الأحيان يتّسم بمرحٍ كبيرٍ في معالجتها بلمسة خفيفة، وهو ما تنمّ عنه عناوين الفصول. ولا يدّعي جوردان أنه يغطّي كل شيء، وفي بعض الأحيان تتكوّن الفصول من مناقشات واسعة النطاق لعلم النفس كما يفهمه هو.

لماذا إذًا لا نسمي هذا الكتاب كتاب «إرشادات»، وهو مصطلح أكثر لطفًا ومودّة بكثير، ويبدو أقلّ جمودًا وصرامةً من مصطلح «القواعد»؟

لأن ما يقدمه لنا جوردان هو قواعد في حقيقة الأمر. والقاعدة الأساسية الأولى التي تأتي على رأس القائمة هي أنه يجب عليك أن تتحمّل مسؤوليّة حياتك الشخصية.

قد يظن المرء أن جيلًا ظل يسمع مطولًا من معلّميه المؤدلجين عن الحقوق، والحقوق، والحقوق، سوف يعترض على أن يُقال له إنه من الأفضل أن يركّز بدلًا من ذلك على تحمّل المسؤولية. غير أن هذا الجيل الذي نشأ كثير من أفراده في أسر صغيرة على أيدي آباء يفرطون في حمايته، ولعب في ملاعب ذات أرضيات ناعمة، ثم تلقّى تعليمه في جامعات فيها « أماكن آمنة»؛ حيث لا يضطر إلى سماع أشياء لا يريد سماعها، وتربّى في المدرسة على النفور المذعور من المخاطر، يضم الآن ملايين من الشبان الذين يشعرون بسفاهة هذا التقليل من مرونتهم وقدرتهم على الصمود، والذين تبنّوا رسالة جوردان القائلة بأن كلَّ فردٍ يتحمّل

مسؤولية أساسية؛ وهي أنه إذا أراد المرء أن يعيش حياة كاملة، فعليه أولًا ترتيب بيته من الداخل؛ وحينها فقط يمكنه أن يتطلّع بشكل معقول إلى تحمّل مسؤوليات أكبر. وكثيرًا ما أدّى اتساع نطاق تلك الاستجابة من الشبان إلى أن كاد كلانا ينفجر بالبكاء تأثّرًا.

أحيانًا تكون القواعد المذكورة في الكتاب في غاية الصرامة؛ فهي تتطلّب منك الاضطلاع بعملية تدرّجية من شأنها أن تصل بك مع مرور الوقت إلى حدود وآفاق جديدة. وكما قلت، فإن ذلك يتطلّب الانطلاق نحو المجهول. كما يتطلّب الارتقاء بذاتك إلى ما وراء حدودها الحالية اختيارًا دقيقًا للمُثل العليا ثم السعي لمحاولة الوصول إليها: المُثل العليا التي نتطلّع إليها منبهرين، والتي تتفوّق علينا، والتي لا يمكن أبدًا أن نثق في قدرتنا على مضاهاتها.

ولكن إذا كان من غير المؤكّد أننا سنضاهي مُثُلنا العليا، فلماذا نزعج أنفسنا بالمحاولة في المقام الأول؟ لأنك إذا لم تحاول ذلك، فمن المؤكد أنك لن تشعر أبدًا بأن لحياتك معنى.

وربما لأننا جميعًا في أعمق أعماق نفوسنا –وعلى الرغم من أن هذا قد يبدو غريبًا وغير مألوف بالنسبة لك عزيزي القارئ– نرغب في أن نخضع للحساب والتقييم.

دكتور نورمان دويدج

مؤلف كتاب «الدماغ الذي يغير ذاته»

The Brain that Changes Itself

تمهيد

يتناول هذا الكتاب تاريخًا قصيرًا وآخر طويلًا؛ ولسوف نبدأ بالتاريخ القصير.

في العام 2012، بدأت بالمساهمة في موقع ويب يسمى « كوورا» Quora. على موقع « كوورا»، يمكن لأي شخص أن يطرح سؤالًا، من أي نوع؛ ويمكن لأي شخص الردّ على السؤال. يصوّت القراء بالتأييد للإجابات التي تعجبهم، ويصوتون بالرفض للإجابات التي لا تعجبهم. وبهذه الطريقة، ترتفع الإجابات الأكثر فائدة إلى الأعلى، في حين تهبط الإجابات الأخرى لتتوارى في غياهب النسيان. كنت منجذبًا لذلك الموقع، وأعجبتني طبيعة إتاحته مجانًا للجميع. كانت المناقشات مثيرة في كثير من الأحيان، وكان من المثير للاهتمام رؤية مجموعة متنوعة من الآراء التي يستثيرها السؤال نفسه.

وحين كنت آخذ فترات راحة من العمل (أو أتجنّب العمل)، كنت غالبًا ما أتّجه إلى موقع «كوورا»، بحثًا عن أسئلة أتفاعل معها. فكّرت، وفي النهاية أجبت عن أسئلة من قبيل: «ما الفارق بين السعادة والرضا؟»، و«ما الأشياء التي تتحسّن مع التقدّم في السن؟»، و«ما الذي يمنح معنًى أكثر للحياة؟». يخبرك الموقع بعدد الأشخاص الذين شاهدوا إجابتك وعدد الأصوات المؤيدة التي تلقيتها. وهكذا، يمكنك تحديد نطاق تأثيرك، ومعرفة آراء الناس في أفكارك. وكانت قلّة قليلة من أولئك الذين يشاهدون الإجابة يصوّتون بالتأييد. وفي شهر يوليو من العام 2017، أثناء كتابة هذه السطور –وبعد خمس سنوات من ردّي على سؤال « ما الذي يمنح معنىً أكثر الحياة؟»– تلقّت إجابتي عن ذلك السؤال جمهورًا صغيرًا نسبيًا (14000 مشاهدة، و133 صوتًا مؤيّدًا)، في حين تلقّى ردي على السؤال حول الشيخوخة 7200 مشاهدة و36 صوتًا مؤيّدًا. ليس هذا نجاحًا كبيرًا بالمعنى المفهوم للعبارة؛ إلا إن هذه كانت نتيجة متوقّعة. ففي مثل هذه المواقعِ، تتلقّى أكثر الردود اهتمامًا محدودًا، في حين تحظى نسبة ضئيلة للغاية من الردود بشعبية هائلة.

بعد ذلك بفترة وجيزة، أجبت عن سؤال آخر يقول: «ما هي الأشياء الأكثر قيمة التي يجب على الجميع معرفتها؟». كتبت قائمة قواعد، أو مبادئ؛ بعضها جادّ إلى أبعد حد، والبعض الآخر فكاهي ساخر، مثل: «كن ممتنًا برغم معاناتك»، «لا تفعل الأشياء التي تبغضها»، «لا تخفي الأشياء في الضباب»، وما إلى ذلك. بدا قراء موقع «كوورا» سعداء بهذه القائمة؛ فعلّقوا عليها وقاموا بمشاركتها مع الآخرين، وقالوا أشياء من قبيل: «سوف أطبع هذه القائمة بالتأكيد وأحتفظ بها كمرجع. إنها استثنائية»، و«أنت الرابح في هذا الموقع. يمكننا إغلاقه الآن». وجاءني طلاب في جامعة تورنتو، التي أقوم بالتدريس فيها، وأخبروني بمدى إعجابهم بقائمتي. وحتى الآن، حظي ردّي على سؤال: «ما هي الأشياء الأكثر قيمة...؟»، بمائة وعشرين ألف مشاهدة وثلاثة وعشرين ألف صوت مؤيّد. وجدير بالذكر أن بضع مئات قليلة فحسب من الأسئلة، البالغ إجمالي عددها ستمائة ألف سؤال على موقع «كوورا»، هي التي تخطّت حاجز ألفي صوت مؤيد. لقد أصابت تأمّلاتي، التي كان سببها التسويف، وترًا حسّاسًا؛ وكتبت إجابة حقَّقت نسبة 99.9 بالمائة.

لم يكن واضحًا لي عندما كتبت قائمة قواعد العيش أنها ستحقّق مثل هذا النجاح. كنت قد أوليت عناية كبيرة لجميع الإجابات الستين أو نحوها التي كتبتها على الموقع في الأشهر القليلة التي سبقت هذا المنشور. إلا أن موقع «كوورا» يقدّم أبحاثًا سوقية ممتازة. والمستجيبون يكونون مجهولي الهوية؛ أي إنهم محايدون إلى أبعد حدٍّ ممكنٍ، وآراؤهم عفوية وغير متحيّزة. لذا، فقد اهتممت كثيرًا بالنتائج، وفكّرت في الأسباب التي جعلت هذه الإجابة تحقّق ذلك النجاح الاستثنائي. لعلّي حققت التوازن الصحيح بين ما هو مألوف وما هو غير مألوف أثناء صياغة القواعد. لعل الناس ينجذبون إلى الهيكل الذي تتضمّنه هذه القواعد. أو لعل الناس يحبّون القوائم فحسب.

قبل بضعة أشهر، في شهر مارس 2012، كنت قد تلقّيت رسالة بريد إلكتروني من وكيلة أدبية. كانت قد سمعتني أتحدّث عبر إذاعة راديو «سي بي سي» CBC في برنامج بعنوان «فقط قل لا للسعادة» Just Say No to Happiness، حيث انتقدت فكرة أن السعادة هي الهدف المنشود في الحياة. فعلى مدار العقود السابقة، كنت قد قرأت الكثير والكثير من الكتب الكئيبة التي تتحدّث عن القرن العشرين، مع التركيز بشكلٍ خاصٍّ على ألمانيا النازية والاتحاد السوفييتي. وكان ألكسندر سولجنتسين – وهو أعظم من وثّق فظائع معسكرات العبيد في الاتحاد السوفييتي– قد كتب ذات مرة يقول إن «الأيديولوجية البائسة» التي تقول

بأن «البشر مخلوقون من أجل السعادة» هي أيديولوجية «تنهار محطّمة تحت وطأة أولى ضربات هراوة مشرف العمال»(1). في الأزمات، يمكن أن تتحوّل المعاناة الحتميّة التي تنطوي عليها الحياة بسرعة إلى سخرية هازئة من فكرة أن السعادة هي الغاية الصحيحة للفرد. وفي البرنامج الإذاعي، أشرت – بدلًا من ذلك– إلى أن الغاية هي معنى أعمق للحياة. وقد ذكرت أن طبيعة هذا المعنى يُعاد تقديمها وتكرارها دائمًا في قصص الماضي العظيمة، وهي لا ترتبط بالسعادة وإنما بتطوير الشخصيّة في مواجهة المعاناة. وهذا جزء من التاريخ الطويل لهذا الكتاب.

منذ العام 1985 وحتى العام 1999، كنت أعمل لمدة ثلاث ساعات يوميًا على تأليف كتابي الآخر الوحيد المنشور؛ وهو كتاب «خرائط المعنى: بنية الاعتقاد» Maps of Meaning: The Architecture of Belief. خلال هذه الفترة، وفي السنوات التي تلتها، كنت أيضًا أُدَرِّس منهجًا تعليميًا معتمدًا على مادّة ذلك الكتاب، في جامعة هارفارد أولًا، ثم في جامعة تورنتو حاليًا. وفي العام 2013، ومع ملاحظتي لبزوغ نجم موقع «يوتيوب» ورواجه الشديد، وبسبب شعبية بعض الأعمال التي قدّمتها مع قناة «تي في أو» TVO –وهي قناة تلفزيونية كندية عامة–

قرّرت تصوير محاضرتي الجامعية والعامة ونشرها على الإنترنت. وقد اجتذبت هذه المحاضرات جمهورًا كبيرًا كان آخذًا في التزايد باستمرار؛ فقد حقّقت أكثر من مليون مشاهدة بحلول شهر أبريل العام 2016. وزاد عدد المشاهدات على نحو هائل منذ ذلك الحين (وصل إلى ثمانية عشر مليون مشاهدة أثناء كتابة هذه الكلمات)، ولكن هذا كان راجعًا في جزء منه إلى أنني انخرطت في جدال سياسي اجتذب اهتمامًا هائلًا.

لكنّ هذه قصّة أخرى؛ وربما حتى موضوعًا لكتاب آخر.

اقترحت في كتاب «خرائط المعنى» أن الأساطير والقصص الدينيّة العظيمة من الماضي -وبصفة خاصة تلك المستمدّة من تراث شفوي مبكر- كانت ذات غاية أخلاقيّة، وليست وصفية. وهكذا، فإنها لم تهتم بما يبدو عليه العالم كما قد يفعل العلماء، وإنما بالكيفية التي ينبغي أن يتصرّف بها الإنسان. وأشرت إلى أن أسلافنا صوّروا العالم على أنه مسرح للدراما وليس مكانًا للأشياء. وأوضحت كيف أصبحت مؤمنًا بأن العنصرين المكوِّنَيْن للعالم بوصفه دراما هما النظام والفوضى، وليس الأشياء المادية.

النظام يعني أن يتصرّف الأشخاص المحيطين بك وفقًا لمعايير اجتماعية مفهومة جيّدًا، ويظلّوا متعاونين وتظلّ تصرفاتهم قابلة للتنبؤ بها. إنه عالم البنية الاجتماعية، والمناطق المعروفة، والألفة. وعادةً ما يتم تصوير حالة «النظام»، رمزيًّا –أو تخيليًّا– على أنها حالة ذكورية؛ حالة «الملك الحكيم» و«الطاغية»، مرتبطان معًا إلى الأبد، بينما المجتمع هو النظام والقمع معًا في آن واحد كذلك.

وعلى النقيض، فإن الفوضى هي حيث –أو متى– يحدث شيء غير متوقّع. تظهر الفوضى –في شكل بسيط– عندما تحكي نكتة في حفل مع أشخاص تظن أنك تعرفهم، فتُقابل بصمت محرج يغلّف الجميع. وتتبدّى الفوضى على نحو أكثر كارثيّة عندما تجد نفسك فجأة من دون عمل، أو تتعرّض للخيانة من قبل حبيبك. وبوصف الفوضى نقيض النظام الذي هو ذكوري رمزيًّا، فإنها تُصوِّر تخيليًّا على أنها أنثويّة. إنها الشيء الجديد وغير القابل للتنبؤ به الذي يظهر فجأة في وسط ما هو عادي ومألوف؛ إنها حالة

الخلق والهدم؛ مصدر الأشياء الجديدة ومصير الموتى (تمامًا كما أن الطبيعة، على عكس الثقافة، تمثل الميلاد والموت معًا في آن واحد).

النظام والفوضى هما اليانج والين في رمز الطاوية الشهير: وهو عبارة عن ثعبانين متقابلين(3). النظام هو الثعبان الأبيض الذكوري؛ والفوضى هي النظير الأسود الأنثوي. وتشير النقطة السوداء في الثعبان الأبيض، والنقطة البيضاء في الثعبان الأسود، إلى إمكانية حدوث تحوّل: فعندما تبدو الأمور آمنة، يمكن للمجهول أن يلوحِ في الأفق، ضخمًا وغير متوقّع. وبالمقابل، عندما يبدو كلّ شيء ضائعًا مفقودًا، يمكن أن ينبثق نظام جديد من وسط الكوارث والفوضى.

بالنسبة إلى الطاويين، يوجد المعنى عند الحدِّ الفاصل بين الزوجِ المتشابك دائمًا؛ والسير على هذا الحدِّ يرمز إلى البقاء على طريق الحياة؛ أو الطريق الإلهي.

وهذا أفضل كثيرًا من السعادة.

كانت الوكيلة الأدبيّة التي أشرت إليها تستمع إلى إذاعة «سي بي سي» التي كنت أتناول فيها مثل هذه القضايا، التي كانت تجعلها تسأل نفسها أسئلةً أعمق. ومن ثم، أرسلت لي رسالة بالبريد الإلكتروني، متسائلةً عما إذا كنت قد فكّرت من قبل في تأليف كتاب موجّه إلى عامة الناس. وكنت قد حاولت بالفعل من قبل تأليف نسخة أكثر سهولة من كتاب « خرائط المعنى»، وهو كتاب شديد التكثيف والصعوبة. لكنني وجدت نفسي مفتقرًا للحماسة أثناء محاولة إنتاج نسخة أكثر سهولة، ووجدت أن المخطوطة نفسها تفتقر للحيوية كذلك. أعتقد بأن السبب في ذلك هو أنني كنت أحاول محاكاة ذاتي السابقة، وكتابي السابق، بدلًا من شغل الموضع الفاصل بين النظام والفوضى وإنتاج شيءٍ جديدٍ. اقترحت على الوكيلة أن تشاهد أربعًا من المحاضرات التي ألقيتها في برنامج «أفكار كبرى» **Big Ideas** على قناة «تي في أو» من خلال قناتي على « يوتيوب». ظننت بأنها إن فعلت ذلك، فيمكننا إجراء حوار أكثر استنارة وتعمّقًا بشأن نوعيّة الموضوعات التي يمكن أن أتناولها في كتاب أكثر بساطة موجّه لعامة القراء.

اتصلت بي بعد بضعة أسابيع، وبعد مشاهدة المحاضرات الأربع ومناقشتها مع زميل لها، وقد زاد اهتمامها، وزاد كذلك التزامها بالمشروع. كان الأمر مبشِّرًا؛ وغير متوقّع. إنني دائمًا ما أندهش عندما يتجاوب الناس بشكل إيجابي مع ما أقوله، وذلك نظرًا لخطورته وطبيعته الغريبة. بل إنني شديد الاندهاش من السماح لي بتدريس ما كنت أدرّسه في بوسطن أولًا وفي تورنتو حاليًا (بل وتشجيعي على ذلك). لقد كنت أظنّ دائمًا أنه إذا انتبه الناس حقًّا لما كنت أدرّسه فسوف يغضبون منه بشدّة. ويمكنك أن تقرِّر بنفسك عزيزي القارئ ما إذا كان هذا التخوّف مشروعًا أم لا بعد قراءة الكتاب الذي بين يديك.

اقترحت عليَّ الوكيلة الأدبية أن أكتب دليلًا إرشاديًّا لما يحتاجه المرء «لعيش حياة طيّبة»؛ أيًا كان ما قد يعنيه ذلك. فكّرت على الفور في القائمة التي كتبتها لموقع «كوورا». وكنت في هذه الأثناء قد كتبت بعض الأفكار الإضافية حول القواعد التي نشرتها. واستجاب الناس على نحو إيجابي لهذه الأفكار الجديدة أيضًا. لذا بدا لي أنه قد يكون ثمة توافقٌ جيّدٌ بين قائمة موقع «كوورا» وبين أفكار وكيلتي الأدبية الجديدة. وهكذا، أرسلت لها القائمة؛ وأعجبتها.

وفي الوقت نفسه تقريبًا، كان صديق لي وطالب سابق لديَّ –وهو الروائي وكاتب السيناريو جريج هورويتز– يفكِّر في تأليف كتاب جديد، وهو كتاب أصبح بعد ذلك كتاب الإثارة الأكثر مبيعًا «اليتيم إكس» **Orphan X**. أُعجِبَ هورويتز بالقواعد بدوره، وجعل «ميا» –الشخصية الرئيسية الأنثى في روايته– تُعلّق مجموعة مختارة من تلك القواعد، واحدة تلو الأخرى، على باب ثلّاجتها، عند مراحل في القصّة تبدو فيها القواعد مناسبة. كان ذلك دليلًا آخر يدعم افتراضي بأنها جذّابة. اقترحت على وكيلتي أن أكتب فصلًا موجزًا عن كل واحدة من القواعد؛ فوافقت. لذا كتبت مقترحًا بذلك القدر الموجز. إلا أنني عندما بدأت في كتابة الفصول فعليًا، وجدت أنها لم تكن مختصرة على الإطلاق. لقد كان ما لديَّ لأقوله عن كل قاعدة أكثر بكثير مما تصوّرته في البداية.

كان ذلك راجعًا جزئيًّا إلى أنني أمضيت وقتًا طويلًا جدًّا في إجراء البحث اللازم لكتابي الأول: حيث درّست التاريخ، وعلم الأساطير، وعلم الأعصاب، والتحليل النفسي، وعلم نفس الطفل، والشعر، وأجزاء كبيرة من

الكتاب المقدّس. كذلك قرأت – وربما حتى فهمت– أجزاء كبيرة من «الفردوس المفقود» لجون ميلتون(4)، و«فاوست» جوته، و«الجحيم» من «الكوميديا الإلهية» لدانتي. وقد قمت بدمج كل ذلك –سواء وُفِّقت في ذلك أم لم أوفّق– في محاولة لتناول مشكلة محيّرة هي: السبب أو الأسباب الكامنة وراء حالة التحفّز النووي في سنوات الحرب الباردة. لم أستطع أن أفهم كيف يمكن لأنظمة المعتقدات أن تكون بكل هذه الأهمية التي تجعل الناس على استعداد للمخاطرة بتدمير العالم بأسره من أجل حمايتها. وقد أدركت أن أنظمة المعتقدات المشتركة تجعل الناس مفهومين لبعضهم بعضًا؛ وأن تلك أنظمة لا تتعلّق بالمعتقدات فحسب.

إن الأشخاص الذين يعيشون وفقًا للقواعد نفسها يُنظر إليهم على أنه يمكن التنبؤ بتصرفاتهم؛ فهم يتصرّفون بما يتماشى مع توقعات الآخرين ورغباتهم، ويمكنهم التعاون معهم، ويمكنهم حتى التنافس بسلام، لأن الجميع يعرف ما يمكن توقّعه من الآخرين. ونظام الاعتقاد المشترك يجعل الناس بسطاء في نظر أنفسهم، وفي نظر الآخرين. وتعمل المعتقدات المشتركة على تبسيط العالم أيضًا، لأن الأشخاص الذين يعرفون ما يمكن توقّعه من بعضهم بعضًا يمكنهم العمل معًا لترويض العالم من حولهم. وربما

ليس هناك شيء أكثر أهمية من الحفاظ على هذه المؤسسة؛ مؤسسة التبسيط؛ فلو أنها تعرّضت للتهديد، فإن سفينة الدولة كلّها تهتزّ وتتزعزع.

ليس الأمر أن الناس سيقاتلون من أجل ما يعتقدون؛ وإنما سيقاتلون من أجل الحفاظ على الوئام بين ما يؤمنون به، وما يتوقّعونه، وما يرغبون فيه. سيقاتلون من أجل الحفاظ على التوافق بين ما يتوقّعونه وبين الكيفيّة التي يتصرّف بها الجميع. والحفاظ على ذلك التوافق هو تحديدًا ما يُمكّن الجميع من العيش معًا في سلام، ومن التنبؤ بتصرّفات بعضهم بعضًا، ومن التعاون المثمر المفيد للجميع؛ فهو يقلّل من عدم اليقين، ومن المزيج الفوضوي من المشاعر التي لا تطاق التي تنتج حتمًا عن عدم اليقين.

تخيّل شخصًا تعرّض للخيانة من قبل حبيبٍ كان موضعًا لثقته. لقد انتُهِكَ العقد الاجتماعي المقدّس بين الاثنين. إن الأفعال أعلى صوتًا من الأقوال، وفعل الخيانة يقضي على السلام الهشّ لأي علاقة حميمة. ففي أعقاب الخيانة، تستحوذ علينا مشاعر رهيبة: البغض والازدراء (للذات وللخائن)، والشعور بالذنب، والقلق، والغضب، والهلع. حينها يكون الصراع حتميًّا،

وتكون نتائجه مهلكة أحيانًا. إن أنظمة المعتقدات المشتركة –وهي أنظمة مشتركة لسلوكيات وتوقعات متّفق عليها– تعمل على تنظيم كل هذه المشاعر القوية والسيطرة عليها. ولا عجب أن الناس سيقاتلون من أجل حماية شيء يقيهم من الوقوع تحت سيطرة مشاعر الفوضى والرعب (ومن ثم الانجرار نحو النزاع والقتال).

وهناك المزيد. إن النظام الثقافي المشترك يعمل على تثبيت التفاعلات بين البشر، ولكنه أيضًا نظام قيم؛ تسلسلٌ هرميٌّ للقيَم، حيث تُعطى بعض الأشياء الأولويّة والأهمّيّة، ولا تُعطى أشياء أخرى نفس الأهميّة. وفي غياب نظام قيَم كهذا، لا يستطيع الناس ببساطة التصرّف. بل إنهم في الواقع لا يستطيعون حتى الإدراك، لأن كلًّا من الفعل والإدراك يتطلّبان هدفًا، والهدف المشروع المناسب هو بالضرورة شيء ذو قيمة. إن الكثير من مشاعرنا الإيجابيّة تكون مرتبطة بالأهداف. إننا لا نشعر بالسعادة فعليًّا إلا إذا رأينا أنفسنا نحقّق تقدّمًا؛ وفكرة التقدّم ذاتها تنطوي على القيمة. والأسوأ من ذلك هو حقيقة أن معنى الحياة من دون قيمة إيجابية ليس محايدًا وإنما سلبيٌّ؛ فنظرًا لأننا ضعفاء وفانون، فإن الألم والقلق يمثلان جزءًا لا يتجزّأ من الوجود الإنساني. ولا بدّ أن يكون لدينا شيء نواجه به المعاناة المتأصِّلة في «الكينونة» (**Being** 5). لا بد أن يكون لدينا معنًى متأصِّلٌ في نظام عميق

للقيَم، وإلا سرعان ما سيكون لرعب الوجود اليد العليا. وحينها تسود العدمية، بما تنطوي عليه من فقدان الأمل واليأس.

لذا: من دون القيَم، لا وجود للمعنى. إلا أن ثمة احتمالًا للصراع بين أنظمة القيم المختلفة. وهكذا، فإننا واقعون إلى الأبد بين الرحى والسندان: ففقدان الاعتقاد المرتكز على الجماعة يجعل الحياة فوضوية بائسة ولا تطاق؛ ووجود الاعتقاد المرتكز على الجماعة يجعل الصراع مع الجماعات الأخرى حتميًّا لا مفر منه. في الغرب، أصبحنا منذ فترة ننسحب من الثقافات المرتكزة على التقاليد، والدين، وحتى الأمة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى الرغبة في تقليل خطر الصراع بين الجماعات. لكننا نقع على نحو متزايد فريسة ليأس فقدان المعنى، وهذا ليس تحسنًا على الإطلاق.

أثناء تأليف كتاب «خرائط المعنى»، كنت مدفوعًا (أيضًا) بإدراك متمثّل في أننا لم نعد قادرين على تحمّل كلفة الصِّراع؛ ولا سيما حين يكون على نطاق احتراق العالم بأسره، كما كان الحال في القرن العشرين. لقد أصبحت تقنيات التدمير لدينا أقوى مما ينبغي؛ والعواقب المحتملة لنشوب

حربٍ هي نهاية العالم حرفيًّا. لكننا أيضًا لا نستطيع ببساطة التخلّي عن أنظمة قيَمنا، ومعتقداتنا، وثقافاتنا. ولقد شغلتني تلك المعضلة التي تبدو بلا حلٍّ طيلة أشهر عديدة. فهل ثمة خيار ثالث، لا أستطيع رؤيته؟ لقد راودني في إحدى ليالي هذه الفترة حلم كنت فيه معلّقًا في الهواء، متشبّثًا بثريا، على ارتفاع عدة طوابق من سطح الأرض، وتحت قبة كاتدرائية ضخمة. كان الناس على الأرض بالأسفل بعيدين وصغار الحجم، وكانت هناك مسافة كبيرة تفصل بيني وبين الجدران؛ وبين قبة الكاتدرائية ذاتها.

لقد تعلّمت الاهتمام بالأحلام لأسباب ليس أقلها كوني طبيبًا متخصّصًا في علم النفس السريري. فالأحلام تلقي الضوء على الأماكن المظلمة التي لم يستكشفها العقل نفسه بعد. لقد درست المسيحيّة بقدر معقول أيضًا (أكثر من الأديان الأخرى، على الرغم من أنني أحاول دائمًا إصلاح هذا الخلل). لذا فلا بد أنني، شأني شأن غيري من الناس، أستخلص مما أعرفه أكثر مما أستخلص مما لا أعرفه. وكنت أعرف أن الكاتدرائيات كانت تُشيّد على شكل صليب، وأن النقطة الموجودة تحت القبة هي مركز الصليب. وكنت أعرف أن الصليب هو موضع أقصى معاناة، وموضع الموت والتحوّل، والمركز الرمزي للعالم، في آن واحد. لم يكن ذلك بالمكان الذي أرغب

بالتواجد فيه. وتمكّنت من النزول من الارتفاع الشاهق –من السماء الرمزية– إلى أرض آمنة ومألوفة ومجهولة. لست أدري كيف فعلت ذلك. ومن ثم، بينما لا أزال في الحلم، عدت إلى غرفة نومي وإلى فراشي وحاولت العودة إلى النوم وهدوء اللاوعي. إلا أنني بينما كنت أسترخي في الفراش، شعرت بجسدي ينتقل من مكانه. كانت ريح هائلة تعصف بي، وتستعد لإعادتي من جديد إلى الكاتدرائية، لتضعني مرة أخرى في تلك النقطة المركزية. لم يكن ثمة سبيل للهروب. لقد كان كابوسًا حقيقيًا. أجبرت نفسي على الاستيقاظ. وكانت الستائر من خلفي تتطاير على وساداتي. وما بين اليقظة والنوم، نظرت إلى جوار الفراش عند موضع قدميَّ، ورأيت أبواب الكاتدرائية العظيمة. وحينها هزرت نفسي لأستيقظ تمامًا، فاختفت الأبواب.

لقد وضعني حلمي في مركز «الكينونة» ذاته، ولم يكن ثمة مفرّ. استغرق الأمر شهورًا لكي أفهم ما يعنيه هذا.

وخلال ذلك الوقت، توصّلت إلى إدراكٍ شخصيٍّ أكثر اكتمالًا لما تصرّ عليه دائمًا قصص الماضي، وهو أن: الفرد هو المركز، والمركز يتحدّد بالصليب، كما تُحَدَد المواقع بعلامة ×. والوجود على الصليب هو المعاناة والتحول؛ وهذه الحقيقة –من دون غيرها– لا بد من تقبّلها طوعًا. من الممكن تجاوز

الامتثال الخانع للجماعة وعقائدها، وفي الوقت نفسه، يمكن تجنّب مخاطر وموبقات الطرف النقيض، وهو العدمية. فبدلًا من هذين الخيارين، يمكن إيجاد معنًى كافٍ في وعي الإنسان وتجاربه.

من ناحية، كيف يمكن تحرير العالم من معضلة الصراع الرهيبة، ومن ناحية أخرى، تحريره من الانحلال النفسي والاجتماعي؟ وكانت الإجابة هي: من خلال الارتقاء بالفرد وتطويره، ومن خلال استعداد الجميع لتحمّل عبء «الكينونة» واتخاذ المسار البطولي. يجب على كل منا أن يتحمّل أكبر قدر ممكن من المسؤولية عن الحياة الفرديّة، والمجتمع، والعالم. يجب على كلٍّ منّا أن يقول الحقّ، وأن يصلح ما يحتاج للإصلاح، وأن يهدم ما هو قديم وعتيق ويعيد بناءه. وبهذه الطريقة يمكننا، بل ويجب علينا، تخفيف المعاناة التي تسمّم العالم. الأمر يتطلّب الكثير؛ يتطلّب كل شيء. لكن البديل – وهو رعب المعتقد الاستبدادي، وفوضى انهيار الدولة، والكارثة المأساوية المتمثّلة في عالم طبيعي جامح خارج عن السيطرة، والقلق الوجودي، وضعف الفرد الذي يعيش بلا غاية أو معنى– هو بديل أسوأ بكل تأكيد.

لقد كنت أفكّر وألقي المحاضرات حول أفكار مثل هذه طيلة عقود؛ وقد تراكمت لدي مجموعة كبيرة من القصص والمفاهيم المتعلّقة بها. إلا أنني لا

أزعم ولو للحظة واحدة أن طريقتي في التفكير صحيحة تمامًا أو مكتملة نهائيًا. إن «الكينونة» أكثر تعقيدًا بكثير مما يمكن أن يعرفه شخص واحد، وأنا لست محيطًا بالقصّة بأكملها. إنني بكل بساطة أقدِّم أفضل ما لديَّ.

وعلى أي حال، كانت نتيجة كل البحث والتفكير السابقَيْن هي تلك المقالات الجديدة، التي تشكل منها في نهاية المطاف هذا الكتاب. كانت فكرتي الأولية هي كتابة مقال قصير عن جميع الإجابات الأربعين التي كنت كتبتها على موقع « كوورا». وقد قبلت دار نشر « بنجوين راندوم هاوس كندا» بهذا المقترح الأوَّلي. إلا أنني أثناء الكتابة قمت بتقليل عدد المقالات إلى خمسة وعشرين، ثم إلى ستة عشر، وأخيرًا، إلى اثني عشر مقالًا هي التي يتكوّن منها هذا الكتاب. وكنت أعمل على تحرير وتنقيح هذا العدد المتبقّي من المقالات، بمساعدة ورعاية المحرر (وبالاستفادة من النقد الحادّ والدقيق إلى حدٍّ مفزعٍ من جانب هورويتز، كما ذكرت آنفًا) طيلة السنوات الثلاث الماضية.

تطلّب الأمر وقتًا طويلًا للاستقرار على عنوان الكتاب: « 12 قاعدة للحياة: ترياق للفوضى». ولماذا تفوّق هذا العنوان على بقية العناوين المقترحة للكتاب؟ أولًا وقبل كل شيء، بسبب بساطته؛ فهو يشير بوضوح إلى أن الناس يحتاجون إلى مبادئ مُنَظِّمة لحياتهم، وإلا فإن الفوضى ستسود. إننا نحتاج إلى القواعد، والمعايير، والقيَم – منفردة ومجتمعة. إننا عبارة عن جماعة حيوانات تحمل مسؤولية، وعلينا أن نحمل العبء لتبرير وجودنا البائس. إننا بحاجة إلى الروتين والتقاليد؛ فهذا هو النظام. ويمكن للنظام أن يصبح متطرِّفًا؛ وهذا ليس جيّدًا، إلا أن الفوضى يمكن أن تجتاحنا وتغرقنا؛ وهذا أيضًا ليس جيّدًا. نحن بحاجة إلى التزام الطريق المستقيم الضيّق. لذا فإن كل واحدة من القواعد الاثنتي عشرة المذكورة في هذا الكتاب، والمقالات ذات الصلة بها، توفّر دليلًا إرشاديًا يساعدنا على التزام ذلك الطريق. «ثمة» خطٌ فاصلٌ بين النظام والفوضى؛ وهو الموضع الذي نتمتّع فيه بقدرٍ كافٍ من الاستقرار، وبقدرٍ كافٍ من الاستكشاف، وبقدرٍ كافٍ من التحوّل، وبقدرٍ كافٍ من الإصلاح، وبقدرٍ كافٍ من التعاون، في آن واحد. وفي ذلك الموضع، نجد المعنى الذي يبرّر حياتنا، ويبرّر المعاناة الحتميّة المصاحبة لها. وربما إذا عشنا حياتنا على نحو صحيح يمكننا تحمّل عبء وعينا الذاتي. وربما إذا عشنا حياتنا على نحو صحيح يمكننا الصمود في وجه معرفتنا بمدى هشاشتنا وطبيعتنا الفانية، من دون الشعور

النكد بأننا ضحايا، وهو الشعور الذي يولّد الغضب، في البداية، ثم الحسد، ثم الرغبة في الانتقام والتدمير. ربما إذا عشنا حياتنا على نحو صحيح لن نضطرّ إلى اللجوء إلى اليقين الشمولي لحمايتنا من معرفة قصورنا وجهلنا. ربما أمكننا تجنّب السبل المؤدّية إلى «الجحيم»؛ وقد رأينا في القرن العشرين الرهيب إلى أي مدى يمكن أن يكون هذا «الجحيم» حقيقيًّا.

آمل أن تساعد هذه القواعد والمقالات الناس على فهم ما يعرفونه بالفعل، وهو أن: روحِ الإنسان متعطّشة للأبد إلى بطولة «الكينونة» الحقيقيّة، وأن الاستعداد لتحمّل هذه المسؤولية مكافئ لقرار عيش حياة ذات معنى.

وإذا عشنا جميعًا على نحو صحيح، فسوف نزدهر بشكلٍ جماعيٍّ.

أطيب تمنّياتي لكم جميعًا أثناء قراءة صفحات هذا الكتاب.

دكتور جوردان بِ. بيترسون

أخصائي علم النفس السريري وأستاذ علم النفس

القاعدة 1

قف منتصبًا باسطًا كتفيك إلى الوراء

الكركند ومناطق النفوذ

إذا كنت مثل معظم الناس، فإنك لا تفكِّر في الكركند(2)، إلا إذ كنت تتناوله. إلا أن هذه القشريات اللذيذة والمثيرة للاهتمام جديرة بالكثير من التأمّل. يمتلك الكركند(6) جهازًا عصبيًّا بسيطًا نسبيًّا يحتوي على خلايا عصبيّة كبيرة يسهل رؤيتها، وهي الخلايا السحريّة المكوّنة للدماغ. ولهذا السبب، تمكّن العلماء من رسم خريطة للدوائر العصبيّة للكركند بدقّة شديدة. وقد ساعدنا ذلك في فهم بنية ووظائف دماغ الحيوانات الأكثر تعقيدًا وسلوكاتها، بما في ذلك البشر. إن القواسم المشتركة بينك وبين الكركند أكثر مما قد تظنّ (خاصّة عندما تكون في مزاج سيئ؛ ها ها).

يعيش الكركند في قاع المحيط، ويحتاج إلى اتخاذ منزل هناك؛ أو نطاق يبحث فيه عن الفرائس ويتجوّل فيه بحثًا عن قطع متناثرة صالحة للأكل وأي

أجزاء تنهمر عليه من الفوضى المميتة القادمة من الأعلى. يريد الكركند مكانًا آمنًا للصيد وجمع الطعام. وبعبارة أخرى، يريد بيتًا.

قد يمثل هذا مشكلة، لأن ثمة أعدادًا كبيرة من الكركند. فماذا لو احتل اثنان منها نفس منطقة النفوذ في قاع المحيط، في الوقت ذاته، وكان كلاهما يريد العيش فيها؟ ماذا لو تجمّع في نفس الرقعة الرملية المليئة بالفضلات مئات من حيوانات الكركند تحاول جميعها البحث عن الطعام وإنشاء أسرة؟

تعاني مخلوقات أخرى من هذه المشكلة أيضًا. فعلى سبيل المثال، عندما تتّجه الطيور المغرِّدة شمالًا في الربيع، تدخل في صراعات شرسة حول مناطق النفوذ. فالأهازيج التي تغنيها –والتي يبدو وقعها هادئًا ولطيفًا للغاية على آذان البشر– ما هي إلا صيحات تحذير وتنبيه تدل على الهيمنة؛ وما الطائر البارع موسيقيًّا إلا محارب صغير يعلن سيادته على منطقته. خذ على سبيل المثال طائر النِمنِمة الصغير المشاكس الذي يأكل الحشرات، وهو طائر منتشر في أمريكا الشمالية. عندما يصل أحد طيور النمنمة إلى مكان

جديد يرغب في مكان محمي يبني فيه عشًّا بعيدًا عن الرياح والأمطار، كما يريد أن يكون هذا المكان قريبًا من الطعام، وجذّابًا للإناث من أجل التزاوجِ، ويريد أيضًا إبعاد المنافسين عن هذه المنطقة.

الطيور ومناطق النفوذ

عندما كنت في العاشرة من عمري، صمّمت أنا وأبي بيتًا لعائلة من طيور النِمنِمة. بدا البيت مثل العربة القديمة المغطاة التي كانت تجرّها الخيول، وكان له مدخل أمامي بحجم ربع دولار. كان هذا المدخل مناسبًا لطيور النمنمة صغيرة الحجم، وليس مناسبًا للطيور الأخرى كبيرة الحجم، حيث لا تستطع الدخول عبره. وكان لدى جارتنا المسنَّة بيتًا للطيور أيضًا، بنيناه لها في الوقت نفسه، من حذاء مطاطي قديم عالي الرقبة. كان ذلك البيت يحتوي على فتحة كبيرة تكفي لدخول طائر بحجم طائر أبي الحناء، وكانت جارتنا تنتظر بفارغِ الصبر أن يسكنه أحد الطيور.

سرعان ما اكتشف أحد طيور النمنمة بيت الطيور لدينا، واتّخذه عشًّا له. كان بإمكاننا سماع أغنيته المطولة، تُعاد مرارًا وتكرارًا، في بداية الربيع. إلا أنه بمجرد أن بنى عشّه في العربة المغطاة، بدأ الساكن الجديد في حمل القش الصغير إلى حذاء جارتنا القريب، وملئه عن آخره بحيث لا يستطيع أي طائر آخر –كبيرًا كان أو صغيرًا– أن يدخل إليه. لم تكن جارتنا مسرورة بتلك الضربة الاستباقية، لكن لم يكن ثمة شيء يمكن فعله حيال ذلك. قال والدي: «إذا أنزلناه من مكانه، ونظّفناه وأعدناه إلى الشجرة، فسيملأه طائر النمنمة عن آخره مرة أخرى». إن طيور النمنمة صغيرة ولطيفة، لكنها لا تتهاون أبدًا بشأن منطقة نفوذها.

كانت ساقِي قد كُسِرَت أثناء التزلج في الشتاء السابق –وكانت المرة الأولى التي أتزلج فيها على التل– وتلقّيت بعض المال من بوليصة تأمين مدرسية الهدف منها تعويض الأطفال سيئي الحظ الخُرَقاء. اشتريت بهذا المال مُسَجِّل كاسيت (وكان جهازًا حديثًا عالي التقنية في ذلك الوقت). اقترح والدي أن أجلس في المرج الخلفي، وأسجل أغنية طائر النمنمة، وأعيد تشغيلها وأشاهد ما يحدث. خرجت تحت أشعة شمس الربيع المشرقة وسجلت بضع دقائق من أغنية طائر النمنمة التي كانت تشير بقوة إلى أن

هذه منطقة نفوذه. ثم جعلت الطائر يسمع صوته. وبدأ الطائر الصغير – الذي يبلغ حجمه ثُلث حجم عصفور الدوري– في إلقاء الأشياء عليّ وعلى مسجّل الكاسيت أثناء طيرانه جيئة وذهابًا، على بعد بوصات من مكبر الصوت. وقد رأينا هذا السلوك يتكرّر كثيرًا، حتى في غياب مسجل الكاسيت. فإذا تجرأ طائر أكبر على الجلوس والراحة في أي من الأشجار القريبة من بيت الطائر، فكان يُطرد من مكمنه على الأغلب بواسطة طائر نمنمة يبدو وكأنه طيار ياباني انتحاري من الحرب العالمية الثانية.

إن طائر النمنمة والكركند مختلفان كثيرًا؛ فالكركند لا يطير، أو يغني، أو يجثم فوق الأشجار. وطيور النمنمة لها ريش، ولا تملك أصدافًا صلبة، ولا تستطيع التنفس تحت الماء، ونادرًا ما تُقَدم مع الزبد كطعام. إلا أنهما متشابهان أيضًا في جوانب مهمّة. فعلى سبيل المثال، كلاهما مهووس بالوضع الاجتماعي والمكانة، مثل العديد من المخلوقات الرائعة. لاحظ عالِم الحيوان وعالم النفس المقارن النرويجي ثورليف شيلدراب–إيبي (في العام 1921) أنه حتى الدجاج المنزلي العادي يؤسس نظامًا هرميًا يسمى «ترتيب النقر»(3).

إن تحديد «المكانة» في عالم الدجاج له تداعيات مهمة على بقاء كل طائر على قيد الحياة، لا سيما في أوقات ندرة الغذاء. فالطيور التي لها الأولويّة دائمًا في تناول أي طعام يُنثر في الفناء في الصباح هي الدجاجات المشهورة، ويأتي من بعدها دجاجات الدرجة الثانية: التابعون، ثم المقلِّدون. وبعد ذلك، يأتي دور دجاجات الدرجة الثالثة، وهكذا، وصولًا إلى الدجاجات الرثة، قليلة الريش، التي تعرضت للنقر الشديد، والتي تمثّل الطبقة الدنيا في هرم الدجاج.

على غرار سكان الضواحي، يعيش الدجاج في جماعات. ولكن الطيور المغرّدة، مثل طائر النمنمة، لا تفعل ذلك، إلا أنها تعيش أيضًا في تسلسلٍ هرميٍّ للهيمنة، ولكنه تسلسلٌ منتشرٌ على مساحة نفوذ أكبر. تستحوذ الطيور الأضخم والأقوى والأوفر صحة وحظًا على مناطق النفوذ الأفضل، وتدافع عنها. ولهذا السبب، تزداد احتمالات اجتذابها لشركاء أفضل للتزاوج، وتُنتج أفراخًا تعيش وتزدهر على نحو أفضل. ويؤدّي توافر الحماية من الرياح والأمطار والحيوانات المفترسة، فضلًا عن سهولة الوصول إلى طعام أفضل، إلى جعل حياتها أقل توترًا. إن مناطق النفوذ مسألة مهمة للغاية،

والاختلاف بسيط بين مناطق النفوذ والوضع الاجتماعي. وغالبًا ما يكون الأمر مسألة حياة أو موت.

إذا انتشر أحد الأمراض المُعدية في مجتمع جيّد التنظيم من الطيور المغرّدة، فإن الطيور الأقل نفوذًا والأكثر إجهادًا، التي تحتل أدنى درجات الهرم في عالم الطيور، تكون هي الأكثر عرضة للمرض والموت(4). وينطبق الأمر نفسه على البشر عندما تجتاح فيروسات أنفلونزا الطيور وغيرها من الأمراض الكوكب؛ فالفقراء والمجهدون يموتون دائمًا أولًا، وبأعداد أكبر. كما أنهم أكثر عرضة للإصابة بالأمراض غير المعدية، مثل السرطان، والسكري، وأمراض القلب. فكما يُقال، عندما تصاب الطبقة الأرستقراطية بالزكام، تموت الطبقة العاملة من الالتهاب الرئوي.

ونظرًا لأن مناطق النفوذ مسألةً مهمّةً، ولأن أفضل المناطق تكون دائمًا غير كافية، فإن البحث عن مناطق النفوذ بين الحيوانات يسبّب صراعًا. والصراع، بدوره، يسبّب مشكلة أخرى هي كيفية الفوز أو الخسارة من دون أن تتكبّد الأطراف المتصارعة تكلفة باهظة. وهذه النقطة الأخيرة في غاية الأهمية. تخيّل عصفورين يتصارعان على منطقة مناسبة ومرغوبة لبناء عشٍّ. يمكن أن يتحوّل هذا الصراع بسهولة إلى نزال بدني مباشر. وفي ظلِّ هذه

الظروف، سيفوز في النهاية طائر واحد وهو الأكبر حجمًا عادةً، ولكن حتى الطائر المنتصر قد يتأذّى جراء القتال. وهذا يعني أن طائرًا ثالثًا ذكيًّا كان يشاهد القتال يمكن أن ينتهز الفرصة ويتدخّل ويهزم الطائر المنتصر المصاب. وهذا ليس عدلًا على الإطلاق بالنسبة إلى الطائرين الأولين.

الصراعُ ومناطقُ النّفوذِ

على مدار آلاف السنين، تعلّمت الحيوانات المضطرة للتعايش مع حيوانات أخرى في نفس مناطق النفوذ، العديد من الحيل لترسيخ هيمنتها، مع عدم المخاطرة سوى بأقل القليل من التعرّض للضرر المحتمل. فعلى سبيل المثال، ينقلب الذئب المهزوم على ظهره، مُبديًا حلقه للمنتصر، الذي لا يحط من قدر نفسه بقتل المهزوم. فالذئب الذي صار مهيمنًا الآن قد يظل بحاجة إلى شريك صيد في المستقبل، على أي حال، حتى لو كان ذئبًا مثيرًا للشفقة مثل خصمه المهزوم. وتلوِح سحالي التنانين الملتحية (البوجونا) –وهي سحلية اجتماعية استثنائية– بسيقانها الأمامية سلميًا لبعضها بعضًا في إشارة إلى رغبتها في استمرار الوئام الاجتماعي. وتصدر الدلافين نبضات

صوتية خاصّة أثناء الصيد وخلال أوقات الإثارة الأخرى لتقليل الصراع المحتمل بين أفراد الجماعة المهيمنة والجماعة التابعة. وهذا السلوك متأصّل في مجتمعات الكائنات الحية.

والكركند الذي يجول في قاع المحيط ليس استثناءً من ذلك(5). فلو أنك أمسكت مجموعة منها ونقلتها إلى مكان جديد، يمكنك رؤية طقوس وأساليب تشكيل المكانة الاجتماعيّة لديها. سيبدأ كل كركند أولًا باستكشاف المنطقة الجديدة، من أجل التعرّف على تفاصيلها، وكذلك لإيجاد مكان جيّد يتخذه مأوًى. يعرف الكركند الكثير عن المكان الذي يعيش فيه، ويتذكّر ما يتعلمه. فإذا أفزعته بالقرب من عشه، فسيعود إلى العشّ بسرعة ويختبئ فيه. أما إذا أفزعته على مسافة بعيده من عشّه، فسوف يندفع على الفور إلى أقرب ملاذٍ مناسبٍ، رآه سابقًا وتذكّره الآن.

يحتاج الكركند إلى مخبأ آمن للراحة، بعيدًا عن الحيوانات المفترسة وقوى الطبيعة. علاوة على ذلك، مع تقدّم الكركند في العمر فإنه يطرح صدفته، وهو ما يجعله هشًّا وضعيفًا لفترات طويلة من الزمن. ويمكن أن يمثّل جُحر

موجود تحت صخرة بيتًا جيّدًا للكركند، لا سيما إذا كان موجودًا في مكان يمكن العثور فيه على أصداف وغيرها من المخلّفات لاستخدامها في تغطية المدخل، بمجرّد أن يستكين الكركند داخله. إلا أنه قد لا يكون متاحًا سوى عدد قليل فقط من الملاجئ أو أماكن الاختباء الجيّدة في كل منطقة جديدة؛ فهي نادرة وقيّمة، وستبحث عنها الحيوانات الأخرى باستمرار.

هذا يعني أن حيوانات الكركند غالبًا ما تلتقي ببعضها بعضًا عند استكشاف المنطقة الجديدة. وأثبت الباحثون أنه حتى الكركند الذي نشأ منعزلًا يعرف ماذا يفعل عندما يحدث مثل هذا اللقاء(6). فهو يمتلك سلوكيات دفاعيّة وعدوانيّة معقّدة مدمجة في نظامه العصبيّ؛ حيث يبدأ الرقص في المكان، مثل الملاكم، ويفتح مخالبه ويرفعها، ويتحرّك للخلف وللأمام، ومن جانب إلى آخر، محاكيًا حركة خصمه، وملوّحًا بمخالبه المفتوحة ذهابًا وإيابًا. وفي الوقت نفسه، يستخدم فتحات خاصّة تحت عينيه لتوجيه تيارات من سائل معين نحو خصمه، ويحتوي هذا الرذاذ السائل على مزيج من المواد الكيميائية التي تُعرِّف الكركند الآخر حجمه، وجنسه، وصحته، وحالته المزاجية.

وفي بعض الأحيان، يمكن لأحد حيوانات الكركند أن يعرف على الفور من حجم المخلب أنه أصغر بكثير من خصمه، فيتراجع من دون قتال. ويمكن أن يكون للمعلومات الكيميائيّة المتبادلة في الرذاذ نفس التأثير، حيث تقنع الكركند الأضعف، أو الأقل عدوانية بالتراجع، وهذا هو «المستوى الأول» لتسوية النزاع(7). وإذا كان كلا الحيوانين متقاربين للغاية في الحجم والقدرة الجسدية، أو إذا كان تبادل السائل غير مجدٍ بما فيه الكفاية، فسوف ينتقلان إلى « المستوى الثاني» لتسوية النزاع. سيتقدّم أحدهما ويتراجع الآخر مع تحريك قرون الاستشعار على نحو جنوني وتوجيه المخالب لأسفل. ثم سيتقدّم المدافع إلى الأمام ويتراجع المعتدي. وبعد بضع جولات من هذا الصراع، ربما يشعر الكركند الأكثر عصبية أن الاستمرار ليس في مصلحته، لذا يثني ذيله على نحو لا إرادي، ويستدير للخلف ويختفي، ليجرّب حظه في مكان آخر. وإذا لم ينسحب أيٌّ منهما، فإنهما ينتقلان إلى « المستوى الثالث»، الذي يتضمّن القتال الحقيقي. وهنا، يقترب حيوانا الكركند الغاضبين أحدهما من الآخر بشراسة، مادَّين مخالبهما للقتال. يحاول كلٌّ منهما قلب الآخر على ظهره. ويدرك الكركند الذي انقلب على ظهره أن خصمه قادر على إلحاق أضرار جسيمة به، فيستسلم ويرحل (رغم أنه يضمر بغضًا شديدًا للكركند الآخر ويثرثر كثيرًا

من وراء ظهر المنتصر). وإذا لم يستطع أيٌّ منهما أن يقلب الآخر،أو إذا لم يستسلم أحدهما على الرغم من انقلابه على ظهره، فإنهما ينتقلان إلى «المستوى الرابع». ينطوي ذلك على مخاطر شديدة، وهو ليس بالأمر الذي يمكن الانخراط فيه من دون تفكير مسبق؛ إذ سيلحق بأحدهما أو كليهما ضرر شديد من المعركة الوشيكة، وربما يُقتل أحدهما.

يقترب كلا الحيوانين أحدهما من الآخر بسرعة متزايدة، ومخالب مفتوحة، لكي يتمكنا من الإمساك بساق، أو قرن استشعار، أو عين، أو أي شيء مكشوف وعرضة للخطر. وبمجرّد الإمساك بنجاح بجزء من الجسم، يتراجع الحيوان للخلف بسرعة وشدّة، مع إغلاق المخلب بإحكام، ويحاول بتر هذا الجزء. وعادة ما ينتج عن الصراعات التي تصاعدت إلى هذه المرحلة فائزًا وخاسرًا واضحين. وليس من المرجح أن يبقى الخاسر على قيد الحياة، لا سيما إذا ظل في منطقة نفوذ الفائز، الذي أصبح الآن عدوًّا قاتلًا.

في أعقاب خسارة المعركة، وبغضّ النظر عن مدى العدوانية التي كان عليها الكركند، يصبح غير مستعدٍ لمزيد من القتال، حتى ضد خصم آخر

هزمه في السابق. فالمنافس المهزوم يفقد الثقة، ويستمر ذلك لعدة أيام في بعض الأحيان. وأحيانًا يكون للهزيمة عواقب وخيمة؛ فإذا هُزم الكركند المسيطر على نحوٍ شديدٍ، فإن دماغه يذوب، يذوب حرفيًّا، ثم ينمو له دماغ جديد خاضع؛ ليكون أكثر ملاءمة لوضعه الجديد المتدني(8). فدماغه الأصلي ليس متطوّرًا بما يكفي لتحمّل التحول من ملك إلى تابعٍ ذليلٍ من دون تحلّل وإعادة نمو كاملة تقريبًا. وربما يشعر أي إنسان عانى من تحوّل مؤلم بعد هزيمة مُذلّة في علاقة رومانسية، أو في الحياة المهنيّة، بشعور الكركند الذي كان ناجحًا ومهيمنًا ذات يوم من الأيام.

الكيمياء العصبيّة للهزيمة والنّصر

تختلف كيمياء مخ الكركند الخاسر على نحو مهمٍّ عن الكركند الفائز. وينعكس هذا في وضعية جسديهما. تعتمد حالة الكركند –سواء أكان واثقًا أو خاضعًا– على نسبة مادتين كيميائيتين تعملان على تعديل الاتصالات بين الخلايا العصبية للكركند: السيروتونين والأوكتوبامين؛ فالفوز يزيد من نسبة الأولى إلى الثانية.

وعند ارتفاع مستويات السيروتونين وانخفاض مستويات الأوكتوبامين لدى الكركند، فإنه يكون مشبعًا بالغرور والزهو، والأرجح أنه لن يتراجع عند التحدّي؛ وذلك لأن السيروتونين يساعد على تنظيم مرونة جسد الكركند. يمدّ الكركند المرن ذيله بحيث يبدو طويلًا وخطيرًا، مثل كلينت إيستوود في مجموعة أفلام رعاة البقر في الغرب الأمريكي. وعندما يتعرّض الكركند الذي خسر للتو معركة لزيادة مستويات السيروتونين، فإنه يتمدّد، وربما حتى يتقدّم نحو المنتصر السابق، ويقاتل لفترة أطول وبشراسة أكبر(9). إن الأدوية الموصوفة للبشر المكتئبين –وهي مثبطات استرداد السيروتونين الانتقائية– لها نفس التأثير الكيميائي والسلوكي. ففي إحدى الظواهر المذهلة التي تشير للسمات التطوّرية للحياة على الأرض، فإن عقار « بروزاك»(7) Prozac يرفع معنويات الكركند(10).

يتميّز الكركند المنتصر بارتفاع مستويات السيروتونين وانخفاض مستويات الأوكتوبامين؛ أما التكوين الكيميائي العصبي المعاكس، وهو ارتفاع الأوكتوبامين وانخفاض السيروتونين، فإنه يميز كركند مهزوم، ومنكمش،

وذليل، ويفضّل الهروب، ومن المرجّح أن يتجوّل متواريًا، ويفر عند أول لمحة للمشكلات. كما ينظم السيروتونين والأوكتوبامين أيضًا الفعل المنعكس للذيل، والذي يعمل على دفع الكركند بسرعة إلى الوراء عندما يحتاج إلى الهروب. ويصبح مستوى التحفيز اللازم لاستثارة رد فعل الهروب لدى الكركند المهزوم أقل. ويمكنك رؤية المكافئ لذلك في عملية الفزع المفاجئة التي تنتاب الجندي أو الطفل الذي يعاني من اضطراب ما بعد الصدمة.

مبدأ التّوزيع غير العادل

عندما يستعيد الكركند المهزوم شجاعته ويجرؤ على القتال مرة أخرى، من المرجح أن يخسر مرّة أخرى مقارنة بما قد نتوقّعه، إحصائيًا، من خلال سجل معاركه السابقة. أما الخصم المنتصر، من ناحية أخرى، فمن المرجّح أن يفوز. ينطبق هنا في عالم الكركند مبدأ «الفائز يأخذ كل شيء»، تمامًا كما هي الحال في المجتمعات البشرية، حيث يساوي ما يملكه أعلى 1 بالمائة من صفوة المجتمع ما يملكه 50 بالمائة من الطبقات الدنيا(11)؛ وحيث يمتلك أغنى خمسة وثمانين شخصًا في العالم ما يساوي الثروة التي

يمتلكها ثلاثة ونصف مليار من الأشخاص الأقل دخلًا.

وينطبق المبدأ الوحشي للتوزيع غير العادل نفسه خارج مجال الثروة المالية؛ فهو ينطبق في الواقع في أي مكان يتطلّب الإنتاج الإبداعي. فأغلب الأبحاث العلمية تُنشر عن طريق مجموعةٍ قليلةٍ للغاية من العلماء، وتُنتج نسبة بسيطة من الموسيقيين معظم الموسيقى التجاريّة المسجّلة تقريبًا، ومجموعة قليلة فحسب من المؤلّفين تبيع معظم الكتب. يُباع مليون ونصف مليون كتاب مختلف كل عام في الولايات المتحدة، إلا أن خمسمائة كتاب فقط منها تبيع أكثر من مائة ألف نسخة(12). وعلى نفس المنوال، ألَّف أربعة موسيقيين كلاسيكيين (باخ، وبيتهوفن، وموتسارت، وتشايكوفسكي) جميع المقطوعات الموسيقية التي تعزفها فرق الأوركسترا الحديثة تقريبًا. ألَّف باخ الكثير من الأعمال بحيث يستغرق نسخها يدويًّا عقودًا من العمل، ولكن جزءًا صغيرًا فقط من هذا الإنتاج المذهل هو الذي يُعزف. وينطبق الأمر نفسه على إنتاج الثلاثة الآخرين ضمن هذه المجموعة من الملحّنين المهيمنين: حيث لا يُعزف من أعمالهم على نطاقٍ واسعٍ سوى جزءٍ بسيطٍ. ومن ثم، فإن جزءًا صغيرًا من الموسيقى التي ألفها مجموعة قليلة من

الملحنين الكلاسيكيين يمثّل تقريبًا جميع المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية التي يعرفها ويحبّها العالم.

يُعرف هذا المبدأ أحيانًا باسم «قانون برايس» **Price's law**، نسبة إلى ديريك جيه دي سولا برايس(13)، وهو الباحث الذي اكتشف انطباق هذا المبدأ في العلوم في العام 1963. ويمكن تمثيله باستخدام رسم بياني على شكل حرف L تقريبًا؛ حيث يكون عدد الأشخاص على المحور الرأسي، والإنتاجية أو الموارد على المحور الأفقي. اكتُشف المبدأ الأساسي قبل ذلك بكثير، حيث لاحظ فيلفريدو باريتو (1848-1923) -وهو عالم موسوعي إيطالي- قابلية تطبيقه على توزيع الثروة في أوائل القرن العشرين، ويبدو أنه ينطبق على كل مجتمع خضع للدراسة، بغض النظر عن شكل الحكومة فيه. كما ينطبق أيضًا على سكان المدن (عدد قليل جدًّا من المدن يضم معظم الناس تقريبًا)، وكتلة الأجرام السماوية (عددٌ قليلٌ جدًّا من الأجرام السماوية تستحوذ على كل المادّة)، وتكرار الكلمات في لغة ما (تحدث 90 بالمائة من عمليات التواصل باستخدام 500 كلمة فقط)، إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة. ويُعرف هذا المبدأ أحيانًا باسم «مبدأ متّى» (متّى 29:25)، حيث إنه مشتق من عبارة قد تكون هي أقسى عبارة نُسِبَت

إلى المسيح على الإطلاق: «لِأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى فَيَزْدَادُ وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ».

وعندما تنطبق أقوالك حتى على عالم القشريات، تعرف حقًا أنك «ابن الرب».

ولنعد إلى الكركند المشاكس. لا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن يعرف حيوانا الكركند اللذان يختبر أحدهما الآخر، مَن منهما يمكن العبث معه ومَن يجب أن يحصل على مساحة كبيرة. وبمجرّد معرفة ذلك، يصبح التسلسل الهرمي الناتج مستقرًا للغاية. كل ما يجب على المنتصر فعله بمجرد فوزه هو التلويح بقرون استشعاره بطريقة تنطوي على تهديد، وسيختفي خصمه السابق من أمامه وسط الرمال. سيكفّ الكركند الأضعف عن المحاولة، ويتقبّل وضعه المتدنّي، ويحافظ على اتصال سيقانه بجسده. وعلى النقيض من ذلك، فإن الكركند الأقوى –بعد أن يحصل على المأوى الأفضل، وعلى قسط من الراحة، ويتناول وجبة جيدة– يبسط هيمنته على

جميع أنحاء منطقة نفوذه، ويفزع الحيوانات التابعة في بيوتها ليلًا، فقط لتذكيرها بأنه الملك المتوّج.

كلُّ الإناثِ

تحدِّد إناث الكركند (اللائي يتقاتلن بشدة أيضًا على مناطق النفوذ خلال مراحل الأمومة في حياتهن(14)) الذكر المنتصر بسرعة، وتنجذب إليه بشدّة؛ وهي استراتيجية رائعة في تقديري، فهي استراتيجية تستخدمها أيضًا إناث العديد من الأنواع المختلفة، بما في ذلك البشر. فبدلًا من الاضطلاع بالمهمة الصعبة حسابيًّا المتمثّلة في تحديد أفضل ذكر، فإن الإناث يصدّرن المشكلة إلى حسابات التسلسل الهرمي للسيطرة. إنهنّ يتركن الذكور يتقاتلون، ثم يخترن الذكر المهيمن. هذا ما يحدث إلى حد كبير عند تسعير الأوراق المالية، حيث يتم تحديد قيمة أي مؤسسة من خلال المنافسة الجماعية.

وعندما تصبح الإناث مستعدّة للتخلص من أصدافها ولأن تصبح أكثر لينًا، تصبحن مهتمات بالتزاوج، ويبدأن في التسكّع حول مسكن الكركند المهيمن، مع نثر الروائح الجذّابة ومثيرات الشهوة الجنسية نحوه في محاولة لإغرائه. لقد جعلته عدوانيته ناجحًا، لذا فمن المرجح أن يستجيب بأسلوب تسلّطي ونزق. علاوة على ذلك، فهو كبير الحجم، وذو صحة وقوة، وليس من السهل تحويل انتباهه من القتال إلى التزاوج. (إلا أنه إذا فتنته إحدى الإناث على النحو الصحيح، فسيغيّر سلوكه تجاه هذه الأنثى. وهذه هي الحالة المكافئة لرواية «خمسون درجة من جراي»(8) **Fifty Shades of Grey**، الكتاب الأسرع مبيعًا في كل العصور، وحبكة حكاية «الجميلة والوحش» الخالدة للرومانسية النموذجيّة. وهذا هو نمط السلوك الذي يتم تجسيده باستمرار في القصص الخيالية الأدبيّة الصريحة جنسيًّا، التي تحظى بشعبية كبيرة بين النساء مثل شعبية الصّور المثيرة للنساء العاريات بين الرجال).

إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن القوّة الجسدية الهائلة تعد أساسًا غير مستقرٍّ لتأسيس الهيمنة الدائمة، كما أوضح عالم الرئيسات الهولندي فرانس دي فال، متكبِّدًا الكثير من العناء في سبيل ذلك(15). ففي مجموعات قرود

الشمبانزي التي درسها، كان على الذكور الذين نجحوا على المدى الطويل دعم قدراتهم البدنية بسمات أكثر تطوّرًا. فحتى قرد الشمبانزي الأكثر وحشيّة يمكن هزيمته، في النهاية، على يد خصمين، قوّة كل واحد منهما تساوي ثلاثة أرباع قوّته. ونتيجة لذلك، فإن الذكور الذين يبقون على قمة الهرم لفترة أطول هم أولئك الذين يشكّلون تحالفات مشتركة مع أقرانهم الأدنى مكانة، والذين يولون رعاية بالغة لإناث المجموعة وأطفالهنّ. إن الحيلة السياسيّة المتمثّلة في تقبيل الأطفال تعود بدايتها إلى ملايين السنين حرفيًّا. إلا أن حيوانات الكركند لا تزال بدائيّة نسبيًا، لذا فإن عناصر حبكة «الجميلة والوحش» البسيطة تكفيها.

وبمجرد أن يقع « الوحش» ضحيّة لسحر الأنثى، تتخلّى أنثى الكركند الناجحة عن صدفتها، وتخرج من قشرتها، فتجعل نفسها لينة وضعيفة على نحو خطير، وجاهزة للتزاوج. وفي اللحظة المناسبة، يقوم الذكر – الذي تحوّل الآن إلى عاشقٍ مهتم– بإيداع مجموعة من الحيوانات المنوية في المكان المناسب. بعد ذلك، تتسكّع الأنثى في الأرجاء، وتكتسب بعض القوة لبضعة أسابيع (وهي ظاهرة أخرى غير مجهولة تمامًا بين البشر). وتعود الأنثى إلى بيتها الأصلي على مهل وهي محمّلة بالبيض المخصب. وعندها،

تحاول أنثى أخرى فعل الشيء نفسه؛ وهكذا. لا يحظى الذكر المهيمن -بوضعية جسده المنتصبة والواثقة- فقط بالبيت الرئيسي وسهولة الوصول إلى أفضل أماكن الصيد، بل يفوز أيضًا بكل الإناث. لذا فمن المفيد جدًا أن تكون ناجحًا، إذا كنت حيوان كركند ذكرًا.

ما صلتنا بكل هذا؟ ثمة عدد كبير جدًّا من الأسباب التي تجعل الأمر ذا صلة بنا، بصرف النظر عن الأسباب الكوميدية الواضحة. أولًا، نحن نعلم أن الكركند موجود بصورة أو بأخرى منذ أكثر من 350 مليون سنة(16). وهذه فترة طويلة للغاية؛ فمنذ خمسة وستين مليون سنة، كانت الديناصورات لا تزال موجودة. هذا هو الماضي البعيد الذي لا يمكننا تصوّره. أما بالنسبة للكركند، فقد كانت الديناصورات بمثابة «مُحْدَث النّعْمَةِ»، الذي ظهر واختفى أثناء تدفّق الزمن السرمديّ. وهذا يعني أن التسلسل الهرميّ للهيمنة كان سمة دائمة في البيئة التي تتكيّف معها كل الكائنات الحيّة المعقّدة. فمنذ ثلث مليار سنة، كانت أدمغة الكائنات وأجهزتها العصبية بسيطة نسبيًا. ومع ذلك، فقد كانت تمتلك بالفعل البنية والكيمياء العصبيّة اللازمة لمعالجة المعلومات بشأن المكانة الاجتماعيّة والمجتمع. ولا يمكننا التّأكيد بما فيه الكفاية على أهمّيّة هذه الحقيقة.

من الحقائق البديهيّة في علم الأحياء أنّ التطوّر متحفّظ؛ فعندما يتطوّر شيء ما، فلا بد أن يعتمد على ما أنتجته الطبيعة بالفعل. قد تُضاف سمات جديدة، وقد تتعرض سمات قديمة لبعض التعديلات، ولكن تبقى معظم الأشياء على حالها. ولهذا السبب تبدو أجنحة الخفافيش، وأيدي البشر، وزعانف الحيتان، متشابهة على نحو مذهل في شكل الهيكل العظمي، بل إنها تتكوّن من نفس العدد من العظام. لقد أرسى التطوّر حجر الأساس للفسيولوجيا الأساسيّة منذ زمن طويل.

يعمل التطوّر في معظمه من خلال التنوّع والانتقاء الطبيعي. يحدث التنوّع لعدة أسباب، من بينها خلط الجينات (للتبسيط) والطفرات العشوائيّة. ويختلف الأفراد داخل النوع الواحد لهذه الأسباب. وتختار الطبيعة من بينهم مع مرور الزمن. ويبدو أن هذه النظرية، بالطريقة التي ذكرناها بها، مسؤولة عن التغيير المستمر لأشكال الحياة على مر العصور. ولكن ثمة سؤالًا إضافيًّا يكمن تحت السطح هنا، وهو: ماذا تعني «الطبيعة» بالضبط في

مصطلح «الانتقاء الطبيعي»؟ ماذا تعني «البيئة» التي تتكيَّف الحيوانات معها بالضبط؟ إننا نفترض العديد من الافتراضات بشأن الطبيعة –أو البيئة– وهذه الافتراضات لها نتائج. وقد قال مارك توين ذات مرة: «ليس ما لا نعرفه هو ما يوقعنا في المتاعب؛ وإنما ما نعرفه بالتأكيد».

أولًا، من السهل افتراض أن «الطبيعة» هي شيء له طبيعة معيّنة؛ أيّ شيء ثابت. ولكنّها ليست كذلك؛ على الأقل ليس بالفهم البسيط للعبارة. إنها ثابتة وديناميكية في الوقت ذاته. فالبيئة – أو الطبيعة التي تقوم بعملية الانتقاء– هي ذاتها تتغيّر. ويمثّل رمزا الين واليانج الشهيرين لدى الطاويين هذا الأمر على نحو رائع. فبالنسبة للطاويين، « الكينونة» – أي الواقع نفسه– يتكوّن من مبدأين متعارضين، غالبًا ما يُعبّر عنهما كمؤنّث ومذكر، أو على نحو أكثر تحديدًا، كأنثى وذكر. إلا أن الين واليانج يُفهمان على نحو أكثر دقة على أنهما الفوضى والنظام. يتكوّن رمز الطاوية من دائرة تضم ثعبانين متقابلين. وللثعبان الأسود –الذي يرمز للفوضى– نقطة بيضاء في رأسه، وللثعبان الأبيض –الذي يرمز للنظام– نقطة سوداء في رأسه. وذلك لأن الفوضى والنظام متقاطعان ومتبادلان، وكذلك متجاوران إلى الأبد. فلا يوجد شيء ثابت لدرجة تمنع تغيّره؛ فحتى الشمس نفسها تمر بدورات من

عدم الاستقرار. وبالمثل، لا يوجد شيء متغيّر لدرجة تمنع ثباته؛ فكل ثورة تنتج نظامًا جديدًا، وكلّ موت هو في الوقت نفسه تحوّل.

النظر إلى الطبيعة على أنها ثابتة تمامًا يسبب أخطاءً جسيمة في الفهم. الطبيعة « تنتقي». وتشتمل فكرة الانتقاء ضمنيًا على فكرة اللياقة. إنها «اللياقة» هي التي يجري «انتقاؤها». واللياقة –بمعنى تقريبي– هي احتمال أن يترك كائنٌ حيٌّ معيَّنٌ ذريته (أي ينشر جيناته عبر الزمن). وتعني «اللياقة» مطابقة سمات الكائن الحيّ للمتطلبات البيئية. وإذا تصورنا أن هذه المتطلّبات ثابتة –وذلك إذا تصوّرنا أن الطبيعة سرمدية وثابتة– يكون التطوّر عبارة عن سلسلة لا تنتهي من التحسينات الخطّيّة، وأن اللياقة شيء يمكن فهمه بدقّة متزايدة مع مرور الزمن. إن الفكرة الفيكتورية للتطوّر التي لا تزال حاضرة بقوّة – حيث الإنسان في قمة الهرم– تمثّل نتيجة جزئيّة لهذا النموذج للطبيعة، وتنتج عنها الفكرة الخاطئة بأن ثمة غاية للانتقاء الطبيعي (الجدارة المتزايدة للتكيّف مع البيئة)، وأنه يمكن تصوّرها كنقطة ثابتة.

غير أن الطبيعة –فاعل الانتقاء– ليست ثابتة، ولا حتى بأبسط المعاني. فالطبيعة تتّخذ مظهرًا مختلفًا في كل مناسبة. تختلف الطبيعة مثل مقطوعة موسيقية، وهذا يفسر جزئيًا السبب في أن الموسيقى تقدّم أعمق معانيها

الضمنية. فمع تغيّر البيئة التي تدعم بقاء نوعٍ من الأنواع وتحوّلها، فإن السمات التي تجعل فردًا ما ناجحًا في البقاء على قيد الحياة والتكاثر تتغيّر وتتحوّل بدورها. وهكذا، فإن نظرية الانتقاء الطبيعي لا تفترض وجود كائنات تتكيّف ذاتيًا بدقة متزايدة مع قالب يحدّده العالم؛ بل الأمر أشبه بكون الكائنات في رقصة مع الطبيعة، وإن كانت رقصة مميتة. وكما تقول الملكة الحمراء لأليس في بلاد العجائب: «في مملكتي، عليك أن تركضي بأسرع ما يمكنك لمجرد البقاء ثابتة في مكانك». وما من شخص يقف ثابتًا يمكنه تحقيق الانتصار، مهما كان تكوينه جيدًا.

والطبيعة ليست ديناميكية تمامًا أيضًا. فبعض الأشياء تتغيّر بسرعة، ولكنها تكون جزءًا من أشياء أخرى تتغيّر بسرعة أقل (وتحاكي الموسيقى هذا في كثير من الأحيان أيضًا). فأوراق الأشجار تتغيّر بسرعة أكبر من الأشجار، والأشجار تتغيّر بسرعة أكبر من الغابات. والطقس يتغيّر بسرعة أكبر من تغير المناخ. ولو لم يكن الأمر كذلك، فلن تعمل الآلية المحافظة على التطور، حيث كان الشكل الأساسي لليدين والذراعين سيحتاج للتغيّر بنفس سرعة تغيّر طول عظام الذراع ووظائف الأصابع. إنها فوضى بداخل نظام، بداخل فوضى، بداخل نظام أكبر. والنظام الأكثر واقعيّة هو النظام الأكثر ثباتًا؛

وهذا ليس بالضرورة النظام الأكثر وضوحًا. فعند مراقبة ورقة شجر، قد يغفل المراقب عن الشجرة. ويمكن للشجرة أن تلهيه عن رؤية الغابة. وبعض الأشياء شديدة الواقعية (مثل التسلسل الهرمي الدائم للهيمنة) لا يمكن «رؤيتها» على الإطلاق.

كما أنه من الخطأ تصوّر الطبيعة على نحو رومانسي. فسكان المدن الأغنياء المعاصرون، المحاطون بالخرسانة الدافئة، يتصوّرون البيئة على أنها شيء نقيٌّ ينتمي إلى الجنّة، مثل المناظر الطبيعية التي يرسمها فنان انطباعي فرنسي. أما النشطاء في مجال الحفاظ على البيئة –وهم أكثر مثاليّة في نظرتهم– فيتصوّرون الطبيعة على أنها متوازنة ومتكاملة بشكلٍ متناغم، وذلك في ظلّ غياب الاضطرابات وعمليّات السّلب والنهب التي يتسبب فيها البشر. إلا أن «البيئة» تمثل أيضًا، مع الأسف، داء الفيل، والديدان الغِينيّة (وما أدراك ما الديدان الغِينيّة)، والطفيليات، والبعوض، والملاريا، والجفاف الذي يسبّب المجاعات، والإيدز، و«الطاعون الأسود». إننا لا نتأمّل في جمال هذه الجوانب من جوانب الطبيعة، على الرغم من أنها حقيقيّة مثل نظرياتها وهي من السمات الرائعة المنتمية إلى الجنّة. وبسبب وجود مثل هذه الأشياء بالطبع، فإننا نحاول تغيير محيطنا، وحماية أطفالنا، ببناء المدن

وأنظمة النقل وزراعة الغذاء وتوليد الطاقة. ولو لم تكن الطبيعة الأم عازمة كل هذا العزم على تدميرنا، لكان من الأسهل علينا التعايش بانسجام تام مع شروطها وإملاءاتها.

يقودنا هذا إلى مفهوم خاطئ ثالث، وهو أن الطبيعة شيء معزول تمامًا عن البنى الثقافية التي نشأت بداخلها. النظام بداخل الفوضى، ونظام «الكينونة» يصبح «طبيعيًا» أكثر كلّما استمر لفترة أطول. وذلك لأن «الطبيعة» هي «التي تنتقي»، وكلّما طال وجود سمة ما، طال الوقت الذي جرى انتقاؤها فيه؛ والذي تواجدت فيه لتشكيل الحياة. ولا يهم إذا كانت هذه السمة فيزيائيّة وبيولوجيّة، أم اجتماعيّة وثقافيّة. بل المهم –من منظور دارويني– هو الديمومة، وقد كان التسلسل الهرمي للهيمنة –برغم أنه قد يبدو اجتماعيًا أو ثقافيًّا– موجودًا منذ نحو نصف مليار سنة. إنه دائمٌ، وواقعيٌّ. إن التسلسل الهرمي للهيمنة ليس مثل الرأسمالية، ولا الشيوعيّة؛ وهو ليس المجمع الصناعي العسكري، وليس النظام الأبوي؛ ذلك النظام الثقافي التعسّفي الذي يمكن التخلص منه. بل إنه ليس حتى من صنع البشر؛ بمعناه الأعمق. إنه بالأحرى جانب شبه أبدي من البيئة، وكثير مما يتم إلقاء اللوم فيه على هذه التجلّيات سريعة الزوال هو في الحقيقة نتيجة للوجود الثابت

الدائم لذلك النظام. فنحن («نحن» المهيمنين، نحن الكائنات الحيّة التي تواجدت منذ نشأة الحياة) عشنا في تسلسلٍ هرميٍّ للهيمنة لفترة طويلة للغاية من الزمن. لقد كنا نتصارع على المكانة قبل أن يكون لدينا جلدٌ، أو أيدٍ، أو رئة، أو عظام. إن التسلسل الهرمي للهيمنة أقدم من الأشجار ذاتها.

وهكذا فإن ذلك الجزء من أدمغتنا المسؤول عن تتبّع موقعنا في التسلسل الهرمي للهيمنة قديم وأساسي على نحو استثنائي(17). إنه نظام تحكّم رئيسيّ يعمل على تعديل تصوّراتنا، وقيَمنا، وعواطفنا، وأفكارنا، وأفعالنا، ويؤثّر بقوّة على كل جانب من جوانب كينونتنا، الواعية واللاواعية على حدٍّ سواء. ولهذا السبب، عندما ننهزم، نتصرّف على نحو مشابه كثيرًا للكركند الذي خسر القتال. تنكمش أجسادنا، ونخفض رؤوسنا، ونشعر بالتهديد، والأذى، والقلق، والضعف. وإذا لم تتحسّن الأمور، نُصاب بالاكتئاب المزمن. وفي ظل هذه الظروف، لا يمكننا خوض ذلك النوع من القتال الذي تتطلّبه الحياة بسهولة، ونصبح أهدافًا سهلة للمتنمّرين الأقوى. وهذا ليس وحده وجه التشابه في السلوكات والخبرات الذي يثير الانتباه؛ فكثير من تفاصيل الكيمياء العصبيّة الأساسيّة متشابهة.

لنتأمل السيروتونين، وهو المادّة الكيميائيّة التي تتحكّم في وضعيّة الجسد والهروب لدى الكركند. حيوانات الكركند الأدنى مكانة تنتج أجسادها مستويات منخفضة نسبيًا من السيروتونين. وينطبق هذا أيضًا على البشر ذوي المكانة المنخفضة (وتقل هذه المستويات المنخفضة أكثر وأكثر مع كل هزيمة جديدة). ويؤدّي انخفاض السيروتونين إلى انخفاض الثقة، كما يؤدي إلى زيادة الاستجابة للتوتّر وزيادة الاستعداد البدني للحالات الطارئة، وهو أمر منهك جسديًا؛ وذلك لأن أي شيء يمكن أن يحدث في أسفل التسلسل الهرمي للهيمنة، وفي أي وقت (ونادرًا ما يكون ذلك شيئًا جيِّدًا). ويعني انخفاض السيروتونين قلّة السعادة، والمزيد من الألم والقلق، والمزيد من المرض، وقصر العمر، وذلك لدى البشر والقشريات على حدٍّ سواء. وتتميز المناطق الأعلى في التسلسل الهرمي للهيمنة، ومستويات السيروتونين الأعلى النموذجيّة لدى أولئك الذين يحظون بها، بقلّة الأمراض والحزن والموت، حتى عندما تظلّ عوامل مثل الدخل الأساسي ثابتة. ولا يمكن التأكيد بما يكفي على أهمية ذلك.

هناك آلة حاسبة بدائية للغاية في أعماقك، في أعماق دماغك، تحت أفكارك ومشاعرك بعمقٍ كبيرٍ، وهي تراقب بدقّة المكان الذي تتواجد فيه في المجتمع؛ على مقياس من واحد إلى عشرة، كمثال. فإذا كنت رقمَ واحدٍ، أي على قمّة هرم الهيمنة، فأنت تحقّق نجاحًا ساحقًا. وإذا كنت ذكرًا، فلديك ميزة امتلاك أفضل الأماكن للعيش، والفوز بأعلى جودة للغذاء. ويتنافس الناس من حولك على تقديم خدماتهم لك. كما أن لديك فرصةً غير محدودة للعلاقات الرومانسيّة والاتصال الجنسي؛ فأنت كركند ناجح، وتصطف الإناث الجميلات من أجلك ويتنافسن على جذب انتباهك(18).

أما إذا كنتِ أنثى، فيمكنكِ الاختيار من بين العديد من الخاطبين الممتازين: طول القامة، والقوة، والتناسق الجسدي، والإبداع، والاعتمادية، والصدق، والكرم. وكما هي حال نظيركِ المهيمن من الذكور، سوف تتنافسين بشراسة – وربما بلا رحمة– للحفاظ على وضعك في التسلسل الهرمي الأنثوي للتزاوجِ، أو حتى تحسينه. وعلى الرغم من قلّة احتمال

استخدام العدوانية الجسدية، فثمة العديد من الخدع والاستراتيجيات اللفظية الفعالة التي يمكنك استخدامها –بما في ذلك الانتقاص من المنافِسات– وربما كنتِ خبيرة في استخدامها بالفعل.

وعلى النقيض من ذلك، إذا كنت ذكرًا أو أنثى في المرتبة العاشرة المتدنيّة، فليس لديك مكان للعيش فيه (أو ليس لديك مكان جيّد). سيكون طعامك سيئًا، هذا في حال توافر الطعام من الأساس. كما أنك في حالة بدنيّة وعقلية سيئة، ولست موضع أي اهتمام رومانسي من أي شريك، إلا إذا كان بائسًا مثلك. كذلك أنت أكثر عرضة للإصابة بالأمراض، والشيخوخة السريعة، والموت قبل الأوان، من دون أن يكون هناك من يحزن عليك(19). وحتى المال نفسه قد يكون غير ذي جدوى بالنسبة إليك، فلن تعرف كيف تستخدمه؛ لأنه من الصعب استخدام المال على نحو صحيح، إذا كنت غير معتادٍ على ذلك. سيجعلك المال عرضة للإغراءات الخطيرة للمخدّرات والكحوليات، والتي يكون تأثيرها أفضل بكثير إذا كنت محرومًا من المتعة لفترة طويلة. وسيجعلك المال أيضًا هدفًا للمفترسين والمرضى العقليين، الذين يتمتّعون باستغلال الأشخاص الأدنى مكانة في المجتمع. إن قاع التسلسل الهرمي للهيمنة مكان فظيع وخطير.

يراقب الجزء البدائي القديم من دماغك، والمتخصِص في تقييم الهيمنة، طريقة معاملة الآخرين لك. وبناءً على نتيجة هذه المراقبة، يحدّد قيمة لك ويحدّد مكانتك. إذا عاملك زملاؤك على أنك ذو قيمة أدنى، فإن الآلة الحاسبة تقيّد إفراز السيروتونين، وهذا يتسبّب في حساسيّة زائدة جسديًّا ونفسيًّا حيال أي موقف أو حدث قد يثير المشاعر، خاصةً إذا كانت مشاعر سلبية. أنت بحاجة إلى تلك الحساسيّة؛ فحالات الطوارئ شائعة في القاع، وعليك أن تكون مستعدًا للنجاة.

ومع الأسف، إن هذه الاستجابة الجسدية المفرطة، وتلك اليقظة المستمرة، تحرق الكثير من الطاقة والموارد البدنية الثمينة. هذه الاستجابة هي في الواقع ما يسميه الجميع التوتر، وهو ليس بأي حال من الأحوال استجابة نفسيّة فقط أو حتى على نحو رئيسي. إنها انعكاس للقيود الحقيقيّة لظروف مؤسفة. فعند العيش في القاع، تفترض الآلة الحاسبة القديمة في الدماغ أن أصغر عائق غير متوقّع قد يُنتج سلسلة لا يمكن السيطرة عليها من الحوادث السلبية، والتي يتعيّن عليك التعامل معها بمفردك، لأن

الأصدقاء الجيّدين نادرون بالفعل في منطقة قاع المجتمع. وبالتالي، فإنك ستضحّي على الدوام بما كان يمكنك ادخاره فعليًّا للمستقبل، وذلك لاستخدامه في حالة التأهّب الشديد وإمكانية حدوث حالة من الذعر الفوري في الوقت الراهن. فعندما لا تعرف ما يجب عليك فعله، لا بد أن تكون مستعدًا لفعل أي شيء وكل شيء، في حال تطلّب الأمر ذلك. الأمر أشبه بأن تكون جالسًا في سيارتك ضاغطًا دواستي الوقود والفرامل بكل قوة. وعندما يحدث هذا كثيرًا، فإن كل شيء ينهار. وستقوم الآلة الحاسبة القديمة بتعطيل نظام مناعتك، مما يؤدّي إلى هدر الطاقة والموارد اللازمة لصحتك المستقبلية في الوقت الحاضر، خلال أزمات الحاضر. سوف يجعلك ذلك مندفعًا(20)، لدرجة أنك –على سبيل المثال– ستنتهز أي فرصة لممارسة الجنس قصير الأجل، أو أيّ فرصة للمتعة، بغض النظر عن مستواها المتدنّي، أو المشين، أو عدم مشروعيتها. وسيزيد ذلك احتمالات عيشك –أو موتك– بلا مبالاة، من أجل انتهاز فرصة نادرة للمتعة، بمجرد ظهورها. وسوف تنهكك متطلّبات التأهّب الجسدي لحالات الطوارئ بكل الطرق الممكنة(21).

ومن ناحية أخرى، إذا كنت ذا مكانة عالية، فإن الآلية القديمة تفترض أن مكانتك آمنة وفعّالة ومؤمّنة، وأنك تتلقّى دعمًا اجتماعيًّا جيّدًا. سوف تظن بأن فرصة إلحاق الضرر بك منخفضة ويمكن إسقاطها من الحسابات بأمان. قد يكون التغيير فرصة، وليس كارثة. ويتدفّق السيروتونين بكثرة، ما يجعلك واثقًا وهادئًا، وتقف منتصبًا ومستقيمًا، ولا تكون في حالة تأهب دائم. ونظرًا لأن وضعك آمن، فمن المحتمل أن يكون مستقبلك جيدًا. ومن المفيد التفكير على المدى الطويل والتخطيط لغد أفضل. ولن تحتاج إلى أن تقفز بسرعة لتلتقط أي فُتات يُلقى في طريقك، لأنك تنتظر، بصورة واقعية، حدوث أشياء جيّدة في المستقبل. ويمكنك تأخير إشباع رغباتك، من دون التخلّي عنها إلى الأبد. ويمكنك أن تكون مواطنًا رصينًا، وقورًا، يُعتمد عليه.

الخللُ الوظيفيُّ

❞ مع ذلك، يمكن لآلية الحساب أن تخطئ في بعض الأحيان؛ إذ يمكن أن تتداخل عادات النوم والأكل الخاطئة مع أدائها لوظيفتها وتعيقها. ويمكن أن يوقعها عدم اليقين في حلقة مفرغة. إن الجسم، بأجزائه المختلفة، يحتاج إلى العمل مثل أوركسترا مدرَّبة جيدًا، إذ يجب أن يلعب

كلُّ جهاز دوره على نحو صحيح، وفي الوقت المناسب تمامًا، وإلا ستحدث الضوضاء وتقع الفوضى. ولهذا السبب فإن الروتين ضروري للغاية. والأعمال الحياتية التي نكرِّرها كلَّ يومٍ ينبغي أن تكون أوتوماتيكية؛ إذ يجب تحويلها إلى عادات مستقرّة وموثوقة، بحيث تفقد تعقيدها وتصبح بسيطة ويمكن التنبؤ بها. ويمكن إدراك ذلك بأوضح صورة في حالة الأطفال الصغار، الذين يصبحون مرحين وكوميديين وممتعين عندما تكون مواعيد نومهم وتناول طعامهم مستقرّة، ويصبحون سيّئي الطباع ومنتحبين ومزعجين عندما لا تكون كذلك.

لهذه الأسباب دائمًا أسأل عملائي المرضى أولًا عن النوم. هل يستيقظون في الصباح تقريبًا في الوقت الذي يستيقظ فيه الشخص العادي، وفي نفس الوقت كلّ يوم؟ إذا كانت الإجابة بلا، فإن إصلاح هذا الأمر هو أول شيء أوصي به. لا يهم كثيرًا ما إذا كانوا يأوون إلى الفراش في الوقت نفسه كل مساء أم لا، لكن الاستيقاظ في وقت ثابت أمر ضروري. لا يمكن علاج القلق والاكتئاب بسهولة إذا كان للمريض روتين يوميّ لا يمكن التنبؤ به. ترتبط الأجهزة التي تسبّب المشاعر السلبية ارتباطًا وثيقًا بالإيقاعات اليومية الدورية المناسبة.

والشيء التالي الذي أسأل عنه هو الإفطار. أنا أنصح عملائي بتناول وجبة إفطار غنيّة بالبروتين والدهون في أسرع وقت ممكن بعد الاستيقاظ (من دون كربوهيدرات بسيطة، ولا سكريات؛ حيث إنها تُهضم بسرعة كبيرة وتسبب ارتفاع السكر في الدم ثم انخفاضه سريعًا). وذلك لأن الأشخاص المصابين بالقلق والاكتئاب واقعون بالفعل تحت الإجهاد، خاصّة إذا لم تكن حياتهم تحت السيطرة لفترة طويلة. ومن ثم تكون أجسامهم مستعدّة لإفراز الأنسولين بإفراط، إذا انخرطوا في أي نشاطٍ معقّدٍ أو صعبٍ. وإذا فعلوا ذلك بعد الصيام طوال الليل وقبل الأكل، فسوف يقضي الأنسولين الزائد في مجرى الدم على نسبة السكر في الدم، وبعدها يصابون بنقص السكر في الدم وعدم الاستقرار النفسي والفسيولوجي(22) طوال اليوم. ولا يمكن إعادة ضبط أجهزتهم إلا بعد المزيد من النوم. وقد كان لديَّ العديد من المرضى الذين انخفض مستوى القلق لديهم إلى مستويات غير مرضية لمجرد أنهم بدأوا في النوم وفق جدول زمني منضبط وتناول وجبة إفطار غنية.

ويمكن أن تتداخل عادات سيئة أخرى مع دقة الآلة الحاسبة. يحدث هذا أحيانًا على نحو مباشر، لأسباب بيولوجية غير مفهومة، وأحيانًا يحدث لأن هذه العادات تبدأ حلقة تغذية راجعة إيجابية معقّدة. تتطلّب حلقة التغذية الراجعة الإيجابية جهاز رصد للمدخلات، ومضخم، ومخرجات من نوعٍ ما. تخيّل التقاط إشارة بواسطة جهاز رصد المدخلات، ثم تضخيمها بواسطة المضخِّم، ثم إرسالها في صورة مخرجات مُضخَّمة. لا بأس بهذا. ولكن تبدأ المشكلة عندما يرصد جهاز الرصد الإشارة الخارجة، ويعيدها عبر النظام مرّة أخرى، مما يؤدّي إلى تضخيمها وإرسالها مرّة أخرى. وبعد بضع جولات من التقوية والتضخيم، تخرجِ الأمور عن السيطرة على نحو خطير.

تعرض معظم الناس للصوت الشبيه بالعواء الذي يصمّ الآذان لمثل هذا النوعِ من التغذية الراجعة في الحفلات الموسيقية، عندما يصفر نظام الصوت على نحو مؤلم. يرسل الميكروفون إشارة إلى مكبّرات الصوت، وتصدر مكبّرات الصوت الإشارة، ويلتقط الميكروفون الإشارة، ويرسلها عبر النظام مرّة أخرى، إذا كانت عالية جدًّا أو قريبة جدًّا من الميكروفون. وسرعان ما يتضخّم الصوت إلى مستويات لا تُطاق، مستويات كافية لتدمير مكبرات الصوت، إذا استمرت.

وتنشأ نفس الحلقة المدمِّرة في حياة الناس. وفي كثير من الأحيان، عندما تحدث، نطلق عليها اسم المرض العقلي، على الرغم من أنها لا تحدث فقط داخل نفوس الناس أو لا تحدث أصلًا داخل نفوسهم. ويمثل إدمان الكحوليات، أو أي عقار آخر يغيّر الحالة المزاجية، عملية تغذية راجعة إيجابية. تخيل شخصًا يستمتع بتناول الكحول، ربما أكثر من اللازم. يتناول هذا الشخص ثلاثة أو أربعة مشروبات بسرعة، فيرتفع مستوى الكحول في دمه على نحوٍ حادٍّ. يمكن أن يكون هذا مبهِجًا للغاية، خاصّة بالنسبة لشخص لديه استعدادٌ وراثيّ لإدمان الكحول(23). ولكن هذا يحدث فقط في الوقت الذي ترتفع فيه مستويات الكحول في الدم باستمرار، ولا يستمر إلا إذا استمرّ الشخص في تناول الكحول. وعندما يتوقّف، لا يقتصر الأمر على ثبات مستوى الكحول في دمه ثم البدء في الانخفاض، وإنما يبدأ جسمه أيضًا في إنتاج مجموعة متنوّعة من السموم أثناء عمله على أيض الإيثانول الذي تناوله بالفعل. كما يبدأ أيضًا في المرور بحالة انسحاب الكحول، حيث إن أجهزة القلق التي جرى كبتها عندما كان ثملًا تبدأ في الاستجابة بصورة مفرطة. وتعدّ آثار ما بعد تناول الكحوليات جزءًا من أعراض انسحاب الكحول (وهي تقتل في كثير من الأحيان مدمني الكحول

الذين يحاولون الإقلاع)، وتبدأ هذه الآثار بعد وقت قصير من توقّف تناول الكحوليات. ولمواصلة الإثارة الدافئة، ودرء العواقب غير السارّة، قد يستمرّ الشخص في تناول الكحول، إلى أن يستهلك كل المشروبات الكحولية الموجودة في منزله، أو تغلق الحانات، أو تنفد أمواله.

يعاني الشخص في اليوم التالي الآلام الشديدة لانسحاب الكحول عندما يستيقظ. وحتى الآن، الأمر مؤسف فحسب. ولكن المشكلة الحقيقية تبدأ عندما يكتشف أن آثار انسحاب الكحول يمكن « علاجها» ببضعة مشروبات أخرى في الصباح التالي. هذا العلاج مؤقت بالطبع، إذ يؤجّل أعراض الانسحاب قليلًا إلى المستقبل. ولكن قد يكون هذا هو عين المطلوب –على المدى القصير– إذا كان الألم شديدًا للغاية. والآن تعلّم الشّخص أن يشرب الكحول لعلاج آثار انسحاب الكحول. وعندما يتسبّب الدواء في المرض، تنشأ حلقة التغذية الراجعة الإيجابية. ويمكن أن يحدث إدمان الكحول بسرعة في ظلّ هذه الظروف.

يحدث شيء مشابه في كثير من الأحيان للأشخاص الذين يعانون من اضطرابات القلق، مثل رهاب الخلاء. ويمكن أن يصاب الأشخاص الذين يعانون من رهاب الخلاء بالخوف الشديد لدرجة أنهم لا يخرجون من منازلهم أبدًا. ويُعدّ رهاب الخلاء نتيجة حلقة تغذية راجعة إيجابية. الحدث الأول الذي يحفِّز هذا الاضطراب هو في الغالب نوبة ذعر. وعادة ما يكون المصاب امرأة في منتصف العمر وتعتمد كثيرًا على الآخرين. وربما تكون قد انتقلت للتو من الاعتماد المفرط على والدها إلى علاقة مع صديق أو زوج أكبر سنًا ومهيمنًا نسبيًا، مع وجود القليل من المساحة أو عدم وجود أي مساحة للاستقلال.

في الأسابيع التي تسبق إصابتها بالرهاب، تعاني مثل هذه المرأة عادة من شيء غير متوقّع وغير عادي، وقد يكون شيئًا فسيولوجيًا، مثل خفقان القلب السريع، وهو أمر شائع على أي حال ويزداد احتمال حدوثه خلال فترة انقطاع الطمث، عندما تعاني العمليات الهرمونية التي تنظم حالة المرأة النفسية من تقلبات غير متوقّعة. ويمكن لأي تغيير محسوس في معدل ضربات القلب أن يثير أفكارًا بشأن التعرّض لأزمة قلبيّة والألم والمعاناة التي تحدث بعد الأزمة القلبيّة المحرجة والمعروفة (حيث يشكّل الموت والمهانة

الاجتماعية أشد مخاوف البشر). وربما يكون وقوع الحدث غير المتوقّع عبارة عن صراع في حياة المصاب الزوجية، أو مرض الزوج أو موته. وربما يكون طلاق صديق مقرّب أو دخوله المستشفى. وعادة ما تؤدّي بعض الحوادث إلى الزيادة الأوليّة في معدل الخوف من الوفاة ومن أحكام المجتمع(24).

وربما بعد الصدمة، تغادر المرأة قبل الإصابة بالرّهاب منزلها لتذهب إلى مركز التسوّق تجد المركز مزدحمًا بحيث يصعب إيجاد مكان لإيقاف السيارة. وهذا يزيد توتّرها. وتطفو على السطح أفكارها عن حالة الضعف التي كانت تشغل عقلها منذ التجربة غير السارّة الأخيرة، وتسبّب لها الخوف. يرتفع معدل ضربات قلبها، وتبدأ في التنفّس بصورة سطحية وسريعة. ثم تشعر بتسارعِ نبضات قلبها وتبدأ في التساؤل عما إذا كانت تعاني من أزمة قلبية. ويحفِّز هذا التفكير مزيدًا من القلق، وتزداد سطحية تنفّسها، مما يرفع مستويات ثاني أكسيد الكربون في دمها. ويزداد معدل ضربات قلبها مرة أخرى بسبب خوفها الإضافي، وتشعر بهذا، فيرتفع معدل ضربات قلبها مرّة أخرى. هذه هي حلقة التغذية الراجعة الإيجابية. وسرعان ما يتحوّل القلق إلى حالة من الذعر، الذي يتحكّم فيه نظام مختلف في

الدماغ، مصمَّم للتعامل مع أشد التهديدات، والذي يمكن تحفيزه عن طريق الخوف الشديد. وتستحوذ عليها أعراضها، وتتجه إلى غرفة الطوارئ، حيث يتم فحص وظائف القلب بعد فترة انتظار قلقة. كل شيء على ما يرام؛ ولكنها مع ذلك ليست مطمئنة.

يتطلّب الأمر حلقة تغذية راجعة إضافية لتحويل تلك التجربة غير السارة إلى رهابٍ مرضيٍّ. وفي المرة التالية التي تحتاج فيها للذهاب إلى المركز التجاري، تصاب هذه المرأة بالخوف، وتتذكّر ما حدث في المرة الأخيرة. ولكنها تذهب على أية حال. وفي الطريق، تشعر بنبض قلبها يتسارع، وهذا يحفِّز دورة أخرى من القلق والخوف. ولتفادي الذعر، تتجنّب توتّر المركز التجاري وتعود إلى المنزل. ولكن أنظمة القلق في دماغها تلاحظ أنها هربت من المركز التجاري، وتستنتج أن الرحلة إلى هناك كانت خطيرة حقًّا. أنظمة القلق لدينا عملية جدًّا؛ حيث تفترض أن أي شيء تهرب منه هو شيء خطير، والدليل على ذلك بالطبع أنك هربت.

إذًا، أصبح الاقتراب من المركز التجاري الآن «خطيرًا جدًّا» (أو وصفت المرأة المصابة بالرهاب نفسها بأنها «هشّة للغاية لدرجة تمنعها من الاقتراب من المركز التجاري). ربما لم يكن لهذا تأثيرٌ كافٍ للتسبّب في مشكلات حقيقيّة، فهناك أماكن أخرى للتسوق. ولكن ربما يكون المتجر القريب شبيهًا بالمركز التجاري بما يكفي لإثارة استجابة مماثلة عندما تزوره، مما يجعلها تعود إلى منزلها. والآن أصبح المتجر ضمن نفس الفئة. ثم المتجر الصغير المجاور. ثم الحافلات، وسيارات الأجرة، ومترو الأنفاق. وسرعان ما يصبح كل مكان ضمن هذه الفئة، إلى درجة أن المرأة المصابة بهذا الرهاب ستخاف في النهاية من منزلها نفسه، وستهرب منه إن استطاعت؛ ولكنّها لا تستطيع ذلك. وسرعان ما تقبع في منزلها. والهروب الناجم عن الخوف يجعل كل شيء تهرب منه أكثر تخويفًا، ويجعل الذات أصغر والعالم المحيط الخطير أكبر.

ثمة العديد من أنظمة التفاعل بين الدماغ، والجسم، والعالم الاجتماعي، التي يمكن أن تقع فريسة لحلقات التغذية الراجعة الإيجابية. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يبدأ الأشخاص المصابون بالاكتئاب في الشعور بأنهم بلا جدوى وأنهم عبء، فضلًا عن شعورهم بالحزن والألم، وهذا يجعلهم

ينسحبون من التواصل مع الأصدقاء والعائلة. ثم يجعلهم الانسحاب أكثر وحدة وعزلة، وسيزيد على الأرجح شعورهم بأنهم بلا جدوى وأنهم عبء. ومن ثم ينسحبون أكثر. وهكذا يعظم الاكتئاب ويتضخّم.

إذا أُصيب شخص ما بأذًى شديدٍ في مرحلة ما من حياته –أي أُصيب بصدمة– يمكن أن تتحوّل الآلة الحاسبة للهيمنة على نحو يزيد من احتمالات حدوث أذًى إضافيٍّ بدلًا من تقليلها. يحدث هذا غالبًا في حالة الأشخاص الذي أصبحوا بالغين، ولكنهم تعرّضوا لتنمّر شديد أثناء الطفولة أو المراهقة. وحينها يصابون بالقلق ويشعرون بالسخط بسهولة؛ ويحمون أنفسهم باستراتيجيات دفاعية، ويتجنّبون التواصل المباشر بالعين الذي يفسَّر على أنه تحدٍّ للهيمنة.

ويعني هذا أن الضرر الناجم عن التنمّر (أي الحطّ من المكانة والثقة) يمكن أن يستمر، حتى بعد انتهاء التنمر(25). في أبسط الحالات، ينضج الأشخاص الأدنى مكانة سابقًا وينتقلون إلى مكانة جديدة ويكونون أكثر نجاحًا في حياتهم، ولكنهم لا يلاحظون هذا جيّدًا. وتبقى التكيّفات

الفسيولوجية حيال الواقع السابق التي تأتي الآن بنتائج عكسية كما هي، ويصبحون أكثر توتّرًا وأكثر تشكّكًا من اللازم. وفي الحالات الأكثر تعقيدًا، فإن افتراض التبعيّة المعتاد يجعل الشخص متوتّرًا ومتشكّكًا أكثر من اللازم، وتواصل وضعية الجسد المعتادة التي تنم عن الخضوع استقطاب اهتمامٍ سلبيٍّ حقيقيٍّ من جانب متنمّرين أقل نجاحًا في عالم البالغين. وفي مثل هذه الحالات، تزيد النتيجة النفسية لعملية التنمّر في الفترة العمرية السابقة من احتمالات استمرار التنمّر في الوقت الحاضر (على الرغم من أن هذا لم يكن ينبغي أن يحدث، وذلك بسبب النضج، أو الانتقال الجغرافي، أو التعليم المستمر، أو التحسّن في مكانة ضحية التنمر).

المواجهة

أحيانًا يتعرّض الناس للتنمّر لأنهم لا يستطيعون المقاومة. ويمكن أن يحدث هذا للأشخاص الأضعف، جسديًّا، من خصومهم. وهذا هو أحد أكثر الأسباب شيوعًا للتنمّر الذي يتعرّض له الأطفال؛ فحتّى أقوى طفل في سن ست سنوات لا يستطيع مواجهة طفل في التاسعة. ومع ذلك، يختفي الكثير من هذا التباين في القوّة بعد البلوغ مع الثبات النسبي والتوافق في

حجم الجسم (باستثناء ما يتعلّق بالرجل والمرأة، حيث يكون الأول أكبر وأقوى، خاصّة في الجزء العلوي من الجسم)، وكذلك العقوبات المتزايدة المطبّقة عمومًا بعد البلوغ على أولئك الذين يصرّون على الاستمرار في التنمّر الجسدي.

ولكن كما هي الحال دائمًا، يتعرّض الناس للتنمّر لأنهم «لا» يدافعون عن أنفسهم. ويحدث هذا على نحو متكرّر للأشخاص الذين يتّسمون بالرحمة والتضحية بالذات، لا سيما إذا كانوا يعانون من مشاعر سلبية مرتفعة أيضًا، وإذا كانوا يُحدِثون ضجة كبيرة عند المعاناة عندما يواجههم شخصٌ ساديٌّ يرى متعة في معاناتهم (على سبيل المثال، يتعرّض الأطفال الذين يبكون بسهولة أكبر للتنمّر بوتيرة أكبر) (26). كما يحدث ذلك أيضًا للأشخاص الذين يؤمنون أن جميع أشكال العدوان -بما في ذلك مشاعر الغضب- خاطئة أخلاقيًّا. لقد رأيت أشخاصًا حسّاسين للغاية تجاه أي ظلم وتجاه التنافس شديد العدوانية يكبتون كل المشاعر التي قد تؤدّي إلى مثل هذه الأشياء في أنفسهم. وغالبًا ما يكون هؤلاء أشخاصًا كان آباؤهم غاضبين ومسيطرين على نحو مفرط. إلا أن القوى النفسية ليست أحاديّة البعد في قيمتها، والقدرات المروّعة الكبيرة حقًّا للغضب والعدوان على إحداث

القسوة والفوضى تتوازن من خلال قدرة تلك القوى البدائية أيضًا على مقاومة الظلم، وقول الحق، وتحفيز التحرّك الحازم للأمام في أوقات الفتنة، وعدم اليقين، والخطر.

ومع تقييد قدراتهم العدوانية بإطار أخلاقي ضيّق للغاية، لا يمكن لأولئك الذين يتّسمون بالرحمة والتضحية (والسذاجة وقابلية الاستغلال) استجماع الغضب الصادق والواعي اللازم لحماية أنفسهم. إذا كنت تستطيع العضّ، فإنك لست مضطرًّا لذلك عمومًا. وعند دمج القدرة على الردِّ بعدوانية وعنف مع الشخصية بمهارة، فإنها تقلّل من احتمالات الاحتياج إلى التصرفات العدوانية الفعلية ولا تزيدها. فإذا قلت «لا» في وقت مبكر من دورة القمع، وكنت جادًّا في ما تقوله (وهذا يعني أن تعبِّر عن رفضك على نحو حازم وأن تؤكِّد على هذا الرفض)، فإن نطاق القمع من جانب الشخص المستبد سيظلّ محصورًا ومحدودًا في إطارٍ مناسبٍ؛ فقوى الاستبداد تتمدّد على نحو كبير لملء المساحة المتاحة لها. والأشخاص الذين يرفضون استجماع استجابة منطقة النفوذ المناسبة لحماية أنفسهم يكونون عرضة للاستغلال تمامًا مثل أولئك الذين لا يستطيعون حقًّا الدفاع عن حقوقهم بسبب عجز أساسي أو خللٍ حقيقيٍّ في القوّة.

عادةً ما يقوم الأشخاص الساذجون غير المؤذِين بتوجيه تصوّراتهم وأفعالهم من خلال بعض المسلمات البسيطة: الناس طيبون في الأساس؛ لا أحد يريد أن يؤذي أحدًا آخر؛ التهديد باستخدام القوة (واستخدامها بكل تأكيد) سواء كانت جسدية أو غير ذلك، أمر خاطئ. وتنهار هذه المسلمات –أو يحدث الأسوأ– في وجود أفراد خبثاء وسيئين حقًا(27). وأقصد بكلمة «الأسوأ» أن المعتقدات الساذجة يمكن أن تصبح دعوة فعلية للإساءة، لأن أولئك الذين يهدفون إلى الأذى أصبحوا محترفين في إيقاع الأشخاص الذين يفكِّرون في مثل هذه الأشياء بالتحديد. وفي ظلِّ هذه الظروف، يجب إعادة تجهيز مسلّمات عدم الإيذاء. وفي علاجي الإكلينيكي، كثيرًا ما ألفت انتباه مرضاي الذين يعتقدون بأن الأشخاص الطيبين لا يغضبون أبدًا إلى الدلائل الصارخة على استيائهم هم أنفسهم.

لا أحد يحبّ أن يكون ضحيّة للتنمّر، ولكن الناس غالبًا ما يتحمّلونه لفترة طويلة. لذا، أجعلهم يرون استياءهم، أولًا، على أنه غضب، ثم على أنه دليل على أن ثمة ما يجب أن يُقال، إن لم يكن ما يجب أن يُفعل (خاصّة إذا

كانت الأمانة تتطلّب ذلك). ثم أحثّهم على إدراك أن هذا الفعل جزء من القوة التي تُبعِد الظلم، على المستوى الاجتماعي، وبنفس القدر على المستوى الفردي. في العديد من الأنظمة البيروقراطية، ثمة أشخاص مستبدون ثانويون يضعون قواعد وإجراءات غير ضرورية لمجرّد التعبير عن قوتهم ودعم هذه القوة. يتسبّب هؤلاء الناس في إنتاج تيارات قوية من الاستياء حولهم، وإذا جرى التعبير عنها فإنها ستقيِّد من تعبير هؤلاء عن القوة المَرَضية. وبهذه الطريقة، فإن استعداد الفرد للدفاع عن نفسه يحمي الجميع من فساد المجتمع.

وعندما يكتشف الأشخاص الساذجون القدرة على الغضب داخل أنفسهم، فإنهم يشعرون بالصدمة، وبشدة أحيانًا. يمكن رؤية مثال جيّد على ذلك في قابلية الجنود الجدد للإصابة باضطراب ما بعد الصدمة، والذي يحدث غالبًا بسبب شيء يرون أنفسهم يفعلونه، وليس بسبب شيء حدث لهم. إنهم يستجيبون مثل الوحوش التي يمكن أن يكونوا عليها حقًّا في ظروف ساحة المعركة القاسية، وكشف تلك القدرة يغيّر عالمهم نهائيًّا. ولا عجب في ذلك؛ فربما كانوا يفترضون من قبل أن جميع مرتكبي الفظائع على مر التاريخ كانوا أشخاصًا مختلفين تمامًا عنهم. وربما لم يكونوا قادرين مطلقًا

على رؤية قدرتهم على الظلم والتنمّر (وربما كذلك قدرتهم على الحزم والنجاح). لقد كان لديَّ مرضى يشعرون بالرعب لدرجة إصابتهم بتشنّجات هستيريّة يوميّة فعليًّا بسبب نظرة الكره الشديد على وجوه مهاجميهم. وعادة ما ينشأ هؤلاء الأفراد في عائلات محميّة للغاية، حيث لا يُسمح بحدوث أي شيء فظيع، وكل شيء يكون رائعًا على نحو خياليٍّ. وعندما يَفيق هؤلاء الأشخاص من غفلتهم؛ أي عندما يدرك من كانوا سذّجًا ذات يوم بذور الشر والوحشية بداخلهم، ويرون أنفسهم خطرين (على نحو محتمل على الأقل)، يتناقص خوفهم، ويكتسبون المزيد من احترام الذات. وربما بدأوا بعد ذلك في مقاومة الظلم؛ حيث يرون أن لديهم القدرة على المواجهة، لأنهم خطرون أيضًا، ويرون أنهم يستطيعون مواجهة الظلم، بل يجب عليهم ذلك، لأنهم بدأوا يفهمون مدى الوحشيّة التي سيصبحون عليها إن لم يفعلوا، حيث سيتغذّون على استيائهم، ويحوّلونه إلى أكثر الرغبات تدميرًا. ومرة أخرى أقول: ثمة فارقٌ بسيطٌ بين القدرة المتكاملة على الإيذاء والتدمير، وقوة الشخصية. وهذا أحد أصعب الدروس في الحياة.

ربما كنت فاشلًا، وربما لم تكن؛ ولكن إذا كنت كذلك، فلست مضطرًا لأن تبقى كذلك. ربما كنت تعاني فقط من عادة سيّئة. وربما كنت تعاني

من مجموعة من العادات السيئة. ومع ذلك، حتى إذا كانت وضعيّة جسدك السيّئة موروثة، وحتى إذا كنت شخصًا غير محبوب، أو تعرّضت للتنمّر في المنزل أو في المدرسة الابتدائية(28)، فليس بالضرورة أن يكون هذا الوضع مناسبًا الآن. فالظروف تتغيّر. وإذا كنت تسير بنفس طريقة الكركند المهزوم، فسوف يُعيّن لك الناس مكانة أدنى، وستحدَّد لك آلة الهيمنة الحاسبة القديمة التي تمتلكها مثل القشريّات، والتي تقبع في أعماق دماغك، رقمًا منخفضًا للهيمنة. وعندها لن يفرز مخّك كمّية كافية من السيروتونين، وسيجعلك هذا أقل سعادة، وأكثر قلقًا وحزنًا، وأكثر عرضة للانسحاب في المواقف التي يجب أن تدافع عن نفسك فيها. وسيقلّل أيضًا من احتمال عيشك في حيٍّ جيِّدٍ، وحصولك على الموارد الأعلى جودة، والحصول على شريك حياة صحيح وجذاب. كما سيجعلك أكثر عرضة للإفراط في تعاطي الكوكايين والكحوليات، لأنك تعيش من أجل الحاضر في عالم مليء باحتمالات مستقبليّة غير مضمونة. وكذلك ستزيد احتمالات إصابتك بأمراض القلب، والسرطان، والخرف. وفي العموم، الأمر ليس جيّدًا.

الظروف تتغيّر، ويمكنك أنت أيضًا أن تتغيّر. من خلال إضافة تأثير إلى تأثير، يمكن أن تؤدّي حلقات التغذية الراجعة الإيجابية إلى إنتاجية عكسيّة

في اتجاه سلبي، ولكن يمكنها أيضًا أن تساعدك على التقدّم. وهذا هو الدرس الآخر الأكثر تفاؤلًا في « قانون برايس» و«توزيع باريتو»: أولئك الذين بدأوا يمتلكون الثروة سيجنون المزيد منها، على الأرجح. ويمكن أن تحدث بعض هذه الحلقات الإيجابية الدافعة في مساحتك الشخصيّة الخاصّة. وتقدم تعديلات لغة الجسد مثالًا مهمًّا على ذلك؛ فإذا طلب منك أحد الباحثين تحريك عضلات وجهك، واحدة تلو الأخرى، إلى وضع يبدو حزينًا بالنسبة لمراقب خارجي، فسينتج عن ذلك شعورك بالحزن، وإذا طُلب منك تحريك العضلات واحدة تلو الأخرى إلى وضعٍ يبدو سعيدًا، فسينتج عن ذلك شعورك بالسعادة. إن العواطف، في جزء منها، هي تعبير جسدي، ويمكن تضخيمها (أو كبتها) بواسطة هذا التعبير(29).

يمكن أن تحدث بعض حلقات التغذية الراجعة التي تنشأ من خلال لغة الجسد خارج الحدود الخاصّة للتجربة الذاتيّة، أي في الفضاء الاجتماعي الذي تتشاركه مع الآخرين. فعلى سبيل المثال، إذا كانت وضعية جسدك سيئة –أي إذا كان جسمك مترهلًا وكتفيك متدليين إلى الأمام ومحنيين، وتجلس وصدرك منكمش، ورأسك مطرقًا، ويبدو جسدك صغيرًا، ومهزومًا، وعاجزًا (محميًّا –نظريًّا– من أي هجوم من الخلف)– فستشعر بالضآلة،

والهزيمة، والعجز، وستضخم ردود أفعال الآخرين ذلك. فالناس، مثل حيوانات الكركند، يقيّمون بعضهم بعضًا، من خلال وضع الجسم جزئيًا. فإذا قدَّمت نفسك كشخصٍ مهزومٍ، فسوف يستجيب الناس بمعاملتك على أنك فاشل. وإذا بدأت في اتخاذ وضعيّة منتصبة، فسينظر إليك الناس ويعاملونك بطريقة مختلفة.

ربما تعترض قائلًا: إن القاع حقيقيّ؛ وكون المرء في القاع حقيقيّ بالقدر نفسه. ومجرّد تغيير وضعية الجسد لا يكفي لتغيير أي شيء راسخ. وإذا كنت في المرتبة العاشرة المتدنيّة من حيث المكانة، فإن الوقوف منتصبًا والظهور بمظهر المهيمن قد يجذب فقط انتباه مَن يريدون الحط من مكانتك، مرة أخرى. ويبدو هذا معقولًا. لكن الوقوف منتصبًا مع بسط كتفيك ليس شيئًا جسديًا فحسب، لأنك لست مجرد جسد؛ فأنت روحِ – نفس– أيضًا. والوقوف منتصبًا جسديًا يعني أيضًا الوقوف منتصبًا على المستوى الميتافيزيقي، بل ويتطلب ذلك. إن الوقوف منتصبًا يعني القبول الطوعي لعبء «الكينونة». ويستجيب جهازك العصبي بطريقة مختلفة تمامًا عندما تواجه متطلّبات الحياة طواعيّة؛ فتستجيب للتحديات، بدلًا من أن تستعد للكوارث، وترى الذهب الذي يحمله التنين، بدلًا من أن تنكمش رعبًا

من حقيقة وجود التنين. وتتقدّم لأخذ مكانك في التسلسل الهرمي للهيمنة، واحتلال منطقة نفوذك، معبّرًا عن استعدادك للدفاع عنها وتوسيعها وتطويرها. ويمكن أن يحدث كل ذلك عمليًّا أو رمزيًّا، كإعادة هيكلة ماديًّا أو تصوريًّا.

إن الوقوف منتصبًا مع بسط كتفيك يعني أن تتقبل المسؤولية الثقيلة للحياة بجرأةٍ وإقدامٍ. وهذا يعني اتخاذ قرار طوعي بتحويل فوضى الاحتمالات إلى حقائق نظامٍ سليمٍ، كما يعني حمل عبء ضعف الوعي بالذات، وقبول نهاية جنّة الطفولة اللاواعية، حيث لا يمكن إدراك المحدودية والفناء في الطفولة سوى على نحو باهت غير واضح. ويعني كذلك تقديم التضحيات اللازمة طواعيّة من أجل خلق واقع مثمرٍ وذي مغزى (وبلغة القدماء، يعني العمل من أجل إرضاء الله).

يعني الوقوف منتصبًا مع بسط كتفيك للوراء بناء السفينة التي تحمي العالم من الفيضان، وإرشاد تابعيك عبر الصحراء بعد فرارهم من الطغيان، والابتعاد عن الوطن والمنزل المريحين، وتبليغ الرسالة النبوية لأولئك الذين يتجاهلون الأرامل والأطفال. إنه يعني حمل الصليب الذي يمثّل علامة X،

وهو الموضع الذي تتقاطع فيه أنت وكينونتك على نحو رهيب. إنه يعني طرح النظام الهالك، القاسي، المستبدّ، إلى غياهب الفوضى التي جاء منها؛ ويعني تحمّل عدم اليقين الناشئ عن ذلك، وبالتالي، إقامة نظامٍ أفضل، وأكثر معنى، وأكثر إثمارًا.

لذا، انتبه إلى وضع جسدك بعناية. كفّ عن الترهّل وتحدّب الظهر. عبر عن رأيك بحرّية. ضع رغباتك أمامك، كما لو كان لك الحق في تحقيقها؛ على الأقلّ بقدر ما يحقّ للآخرين ذلك. سرّ منتصب القامة وانظر مباشرة إلى الأمام. امتلك جرأة أن تكون خطيرًا؛ وحفّز السيروتونين على التدفّق بغزارة عبر المسارات العصبيّة المتلهّفة لاستقبال تأثيره المهدئ.

سيبدأ الناس، بمن فيهم أنت نفسك، في افتراض أنك مؤهّل وقادر (أو على الأقل لن يستنتجوا العكس على الفور). ومن خلال التشجيع الناتج عن ردود الأفعال الإيجابية التي تتلقاها، سيبدأ قلقك في الانخفاض. وستجد حينها أنه من الأسهل الانتباه إلى التلميحات الاجتماعية الدقيقة التي يتبادلها الناس عندما يتواصلون. ستتدفّق محادثاتك على نحو أفضل، وسيقلّ عدد

التوقفات المؤقتة المرتبكة. وسيشجعك هذا على لقاء الناس والتفاعل معهم وإبهارهم. ولن يؤدّي القيام بذلك إلى زيادة احتمالات حدوث أشياء طيّبة لك وحسب؛ بل سيجعل تلك الأشياء الطيبة تُشعرك بمزيد من التحسّن عندما تحدث.

وبفضل هذا التعزيز والتشجيع، يمكنك أن تختار اعتناق «كينونتك»، والعمل على تعزيزها وتحسينها. وهكذا، ستكون قادرًا على الصمود، حتى أثناء مرض أحد أحبائك، وحتى عند وفاة أحد الوالدين، وستجعل الآخرين يستمدّون القوّة من وجودهم إلى جوارك بدلًا من أن يغرقوا في اليأس. وبهذا التشجيع، ستشرع في رحلة حياتك، وتدع نورك يشعّ، إذا جاز التعبير، وتسعى لتحقيق مصيرك المشروع. ومن ثم قد يصبح معنى حياتك كافيًا لإبعاد تأثير اليأس المميت عنك.

وحينها قد تصبح قادرًا على تقبّل العبء الرهيب للعالم، وإيجاد البهجة فيه.

استمدّ إلهامك من الكركند المنتصر، بحكمته العملية البالغ عمرها 350 مليون سنة. قف منتصبًا، باسطًا كتفيك للوراء.

القاعدة 2

عامل نفسك كما تعامل شخصًا أنت مسؤول عن مساعدته

لم لا تتناول دواءك فحسب؟

تخيّل أن دواءً وُصِف لمائة شخص. فكّر في ما سيحدث بعد ذلك. ثلث هؤلاء الأشخاص لن يشتري الدواء(30). ونصف السبعة وستين شخصًا الباقين سيشتري الدواء لكنه لن يتناوله بشكل صحيح؛ إذ سيفوّتون بعض الجرعات؛ وسيتوقّفون عن تناوله قبل الأوان؛ وربما حتى لا يتناولونه على الإطلاق.

يميل الأطباء والصيادلة إلى لوم مثل هؤلاء المرضى بسبب عدم انصياعهم، وكسلهم، ووقوعهم في الخطأ. يقولون حينها إنهم لا يستطيعون إكراه الناس على تناول دوائهم. ويميل علماء النفس إلى رفض هذه الأحكام. لقد تعلّمنا كعلماء نفسٍ أن فشل المرضى في اتباع نصائح الخبراء هو خطأ الطبيب،

وليس خطأ المريض، ونعتقد بأن مقدّم الرعاية الصحيّة يتحمّل مسؤولية تقديم مشورة طبّيّة يتبعها المرضى، والتدخل بأسلوب يحظى بالاحترام، والتخطيط بالتعاون مع المريض إلى أن تتحقّق النتيجة المرجوّة، والمتابعة الدقيقة للتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام. وهذا هو أحد الأشياء العديدة التي تجعل علماء النفس أشخاصًا رائعين للغاية. إننا نمتلك بالطبع الوقت الكافي مع مرضانا، على عكس الكثير من الأطباء المهنيين ذوي الوقت الضيّق، الذين يتساءلون لماذا لا يتناول مرضاهم الدواء. ما خطبهم؟ ألا يريدون أن تتحسّن صحتهم؟

وإليك شيء أسوأ. تخيّل مريضًا يخضع لعمليّة زراعة عضو ما؛ ولتكن الكلوة. عادة ما تحدث زراعة العضو بعد مدة من الانتظار المشوب بالقلق من جانب المريض. قليل من الناس هم من يتبرعون بأعضائهم عند الموت (وأقل مَنْ يفعلون ذلك وهم أحياء). وعدد قليل فقط من الأعضاء المُتَبرَّع بها يكون ملائمًا للمرضى الذين يراودهم الأمل. وهذا يعني أن المريض الذي يحتاج لزراعة الكلوة كان يخضع لغسيل الكلى –وهو البديل الوحيد– طيلة سنوات. وتتضمّن عمليّة غسيل الكلى خروج دم المريض بالكامل من جسده ليمر عبر جهاز ما، ثم يعود إلى الجسد. إنها عملية علاجية صعبة وإعجازية،

لذا فإن كل هذا جيد، لكن الأمر ليس سارًّا؛ إذ لا بد من تكراره من خمس إلى سبع مرات أسبوعيًا، ولمدة ثماني ساعات في كلّ مرّة. وهي عملية يجب أن تحدث بعد كل مرة ينام فيها المريض. هذا يفوق الاحتمال. لا أحد يرغب في الاستمرار على علاج غسيل الكلى إلى الأبد.

ويُعد أحد تعقيدات زراعة الكلى هو رفض الجسم للعضو؛ إذ إن جسدك لا يحب أن يخاط به عضو مأخوذ من شخص آخر. وسوف يهاجم جهازك المناعي مثل هذه العناصر الدخيلة ويدمّرها، حتى إذا كانت ضرورية للغاية لنجاتك من الموت. ولمنع حدوث هذا، يجب تناول أدوية لإيقاف هذا الرفض، وهي أدوية تُضعف المناعة على نحو يزيد من احتمالية التعرّض للأمراض المُعدية. ويتقبّل أغلب الناس هذه المقايضة بطيب نفسٍ. إلا أن المرضى الذين يخضعون لزراعة الأعضاء يظلّون يعانون من آثار رفض الأعضاء، على الرغم من وجود واستخدام هذه العقاقير. ولا يرجع سبب ذلك إلى فشل الأدوية (رغم أنها تفشل أحيانًا)؛ وإنما يرجع السبب في معظم الأحيان إلى أن المرضى لا يتناولون أدويتهم. أمرٌ لا يصدّق حقًا؛ فليس من الجيد على الإطلاق أن يصاب المرء بالفشل الكلوي. وغسيل الكلى ليس بالأمر الهيّن. إن عملية زراعة عضو تحدث بعد فترة انتظار

طويلة، بمخاطرة كبيرة وتكلفة ضخمة. هل يمكن أن تخسر كل هذا فقط لأنك لا تتناول دواءك؟ كيف يفعل الناس ذلك بأنفسهم؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟

لنكون صرحاء، الأمر معقّد. إن العديد ممن يخضعون لعملية زراعة الأعضاء في حالة عزلة، أو تحيق بهم مشكلات صحية عديدة (ناهيك عن المشكلات المتعلّقة بالبطالة أو الأزمات العائلية). ربما كانوا يعانون من متاعب في الإدراك أو من الاكتئاب. وربما كانوا لا يثقون بأطبائهم كلّيًّا، أو لا يدركون أهمية الدواء. وربما كانوا غير قادرين على توفير ثمن الأدوية، ويوزعونها على الأيام على نحو يائس وغير ذي جدوى.

لكن –وهذا هو المدهش في الأمر– تخيّل أنك لست أنت المريض؛ وإنما كلبك. لذا تصطحبه إلى الطبيب البيطري، ويصف له الطبيب الأدوية. فما الذي يحدث بعد ذلك؟ لديك نفس الأسباب التي يمكن أن تجعلك لا تثق بالطبيب البيطري كمعالج. علاوة على ذلك، فإنك إذا كنت غير مهتمٍّ كثيرًا لأمر حيوانك الأليف بحيث لم تكن مباليًا بما إذا كان الدواء الموصوف له

غير مناسب، أو دون المستوى المطلوب، أو خاطئًا، فما كنت لتصطحبه إلى الطبيب البيطري من الأساس. إذًا فأنت مهتم لأمره. أفعالك تثبت هذا. وفي الحقيقة –في المعتاد– أنت تهتم به أكثر مما تهتم بنفسك. إن الناس يقومون بشراء الأدوية الموصوفة لحيواناتهم الأليفة وإعطائها للحيوانات على نحو أفضل مما يفعلون هذا لأنفسهم. وهذا ليس جيّدًا. حتى من منظور حيوانك الأليف، هذا ليس جيّدًا؛ فهو يحبّك (على الأرجح)، وسيكون أكثر سعادة لو أنك تتناول دواءك بانتظامٍ.

من الصّعب استنتاج أيّ شيء من هذه الحقائق سوى أنه يبدو أن الناس يحبّون كلابهم، وقططهم، وقوارضهم، وطيورهم (وربما سحاليهم) أكثر من أنفسهم. كم هذا فظيع؟ ما مدى الخزي الذي لا بد أن يوجد لكي يكون هذا صحيحًا؟ ما الذي يمكن أن يجعل الناس يفضّلون حيواناتهم الأليفة على أنفسهم؟

كانت قصة قديمة في سِفر التكوين –السِفر الأول في «العهد القديم»– هي التي ساعدتني في العثور على إجابة لهذا السؤال المحيّر.

ثمة قصتان عن الخلق مستمَدتان من مصدرَيْن شرق أوسطيين مختلفين تبدوان منسوجتَيْن معًا في حكاية سِفر التكوين. تقول القصّة الأولى، الأسبق زمنيًا، والأحدث تاريخيًا – والمعروفة باسم « المصدر الكهنوتي»(9) **Priestly**– إن « الله خلق الكون، بالكلمة الإلهيّة، حيث أوجد النور، والمياه، والأرض، ثم أتبع ذلك بخلق النباتات والأجرام السماوية. ثم خلق الطيور، والحيوانات، والأسماك (أيضًا بواسطة الكلمة)، ثم انتهى بخلق الإنسان، ذكرًا وأنثى، وكلاهما مخلوق على صورته بطريقة ما. كل هذا جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين. وفي المصدر الثاني، الأقدم تاريخيًا، المعروف باسم « اليهوي»(10) **Jawhist**، نجد قصة أخرى للخلق، تتحدّث عن آدم وحواء (وتختلف فيها تفاصيل الخلق إلى حدٍّ ما)، وقصة قابيل وهابيل، ونوحِ، وبرج بابل. ويأتي هذا في الإصحاحات من الثاني إلى الحادي عشر من سفر التكوين. ولفهم الإصحاح الأول من سفر التكوين – أي قصة «المصدر الكهنوتي»– بتأكيده على الكلمة بوصفها قوة الخلق الأساسية، من الضروري أولًا مراجعة بعض الافتراضات الأساسية القديمة

(وهي مختلفة في النوعِ والغاية عن الافتراضات العلميّة، التي تُعتبر حديثة جدًّا من المنظور التاريخي).

برزت الحقائق العلمية منذ 500 عام مضت فحسب، من خلال أعمال فرانسيس بيكون، ورينيه ديكارت، وإسحاق نيوتن. وأيًّا كانت الطريقة التي كان أجدادنا يرون بها العالم قبل ذلك، فإنها لم تكن من خلال عدسة العلم (تمامًا كما لم يكن يمكنهم رؤية القمر والنجوم من خلال العدسات الزجاجية للتليسكوبات الحديثة). ونظرًا إلى أننا صرنا نعتمد على العلم إلى حدٍّ بعيدٍ الآن –وصرنا ماديين حتى النخاع– فقد أصبح من الصعب جدًّا علينا حتى أن نفهم أنه قد تكون ثمة طرق أخرى للرؤية، بل إنها موجودة بالفعل. لكن أولئك الذين عاشوا في تلك الأزمنة الغابرة، التي ظهرت فيها الملاحم المؤسسة لثقافتنا، كانوا أكثر اهتمامًا بكثير بالأفعال التي توجب البقاء على قيد الحياة (وتفسير العالم على نحو يتناسب مع هذا الهدف) مقارنة باهتمامهم بأي شيء يقترب مما نسميه الآن الحقيقة الموضوعية.

قبل انبثاق فجر النظرة العلمية للعالم، كان الواقع يُفَسَّر على نحو مختلف. كان يُنظَر للكينونة على أنها مكان للفعل، وليست مكانًا للأشياء(31). كان يُنظَر لها على أنها شيء أقرب للقصّة أو الدراما. وتلك القصة أو الدراما كانت تُعاش، كتجربة شخصية، بينما تتجلّى لحظة بلحظة في وعي كل إنسانٍ حيٍّ. كانت شيئًا يشبه الحكايات التي نخبر بها بعضنا بعضًا عن حياتنا وأهمّيتها الشّخصيّة؛ شيئًا مماثلًا للحوادث التي يصفها الروائيون عندما يصفون الوجود في صفحات كتبهم. التجربة الشّخصيّة تتضمّن أشياء مألوفة مثل الأشجار والسحُب – وهي أشياء موضوعية بالأساس في وجودها– ولكنها تتضمّن أيضًا (وهو الأكثر أهمية) أشياءً مثل المشاعر، والأحلام، وكذلك الجوع، والعطش، والألم. وهذه الأشياء التي تُحَسّ على نحو شخصيٍّ هي العناصر الأكثر جوهريّة في الحياة الإنسانيّة، من المنظور الدرامي العتيق، ولا يمكن اختزالها بسهولة لتصبح منفصلة وموضوعية؛ حتى بواسطة العقل المادي الاختزالي الحديث. خذ الألم على سبيل المثال؛ الألم الذاتي. إنه شيء حقيقي للغاية، ولا يمكن الجدال في ذلك. فالبشر كافّةً يتصرفون باعتبار آلامهم حقيقية – حقيقية على نحو نهائي ولا يقبل الجدل. الألم يهمّ أكثر مما تهمّ المادة. ولهذا السبب، فيما أظن، تعتبر الكثير جدًا من ثقافات العالم أن المعاناة مصاحبة للوجود بوصفها حقيقة «الكينونة» غير القابلة للاختزال.

وفي جميع الأحوال، فإن ما نختبره ونعايشه على نحو ذاتي يمكن تشبيهه برواية أو فيلم أكثر بكثير مما يمكن تشبيهه بوصف علمي للواقع المادي. إنه دراما التجربة المُعاشة؛ الموت الشّخصيِّ المأساوي والمتفرّد لوالدك، على سبيل المثال، وليس الموت الموضوعي المجرّد الوارد في سجلّات المستشفى؛ إنه ألم الحبّ الأول؛ ويأس الآمال المحطّمة؛ والفرحة المصاحبة لنجاح طفل.

نطاق المهم وليس نطاق المادة

يمكن اختزال عالم المادة العلمي، بطريقة ما، إلى عناصره الأساسية: الجزيئات، والذرّات، وحتى الكواركات. إلا أن عالم التجربة له مكوِّناتأساسيّة كذلك؛ وهذه المكوّنات هي العناصر الأساسية التي تحدّد تفاعلاتها مع بعضها بعضًا الدراما والخيال. وأحد هذه العناصر هي الفوضى. والنظام عنصر آخر. والثالث (لأنها ثلاثة عناصر) هي العمليّة الوسيطة بين الاثنين،

والتي تبدو مطابقةً لما يسميه البشر المعاصرون الوعي. وخضوعنا الأبدي الدائم للعنصرين الأولين هو ما يجعلنا نشكّ في مشروعيّة وجودنا؛ ما يجعلنا نرفع أيدينا في استسلام يائس، ونخفق في العناية بأنفسنا على نحو ملائم. والفهم الصحيح للعنصر الثالث هو ما يفتح لنا الطّريق الوحيد للنجاة.

الفوضى هي نطاق الجهل ذاته. إنها منطقة مجهولة غير مستكشفة. الفوضى هي ما يمتدّ للأبد وبلا توقف إلى ما وراء حدود كل الحالات، والأفكار، والأنظمة. إنها الأجنبي، الغريب، فرد العصابة الأخرى، حفيف الشجيرات في الليل، الوحش الذي يختبئ تحت السرير، غضب والدتك المكتوم، مرض ابنك. الفوضى هي اليأس والفزع اللذان تشعر بهما عندما تتعرّض لخيانة بشعة. هي المكان الذي تجد نفسك فيه عندما ينهار العالم من حولك؛ عندما تموت أحلامك، وتفقد وظيفتك، وينهار زواجك. إنها العالم السفلي للحكايات الخيالية والأساطير، الذي يوجد فيه الذهب والتنّين الذي يحرسه جنبًا إلى جنب، إلى الأبد. الفوضى هي المكان الذي نتواجد فيه عندما لا نعرف أين نحن، وهي ما نفعله عندما لا ندرك ما الذي نفعله. الفوضى، باختصار، هي كل المواقف والأشياء التي لا نعرفها ولا نفهمها.

الفوضى هي أيضًا القدرة عديمة الشكل التي خلق منها الرب النظام، في الإصحاح الأول من سِفر التكوين، بواسطة الكلمة في بداية الزمان. إنها نفس القدرة التي نصنع منها نحن – المخلوقون على صورته– اللحظات الجديدة والمتغيّرة دائمًا في حياتنا. والفوضى هي الحرّيّة؛ الحرّيّة المرعبة.

أما النظام، على النقيض، فهو منطقة مستكشَفة معروفة. يعني هذا مئات الملايين من السنين من التسلسل الهرميّ للمكان، والمكانة، والسّلطة. هو هيكل المجتمع. هو الهيكل الذي وفّره علم الأحياء، أيضًا – وخاصّة بقدر ما أنت متكيّف مع بنية المجتمع. النظام هو القبيلة، والدين، والمدفأة، والمنزل، والوطن. إنه غرفة المعيشة الدافئة الآمنة التي تصطلي فيها نار المدفأة ويلعب فيها الأطفال. إنه علَم بلادك؛ وقيمة العملة. النظام هو الأرض تحت قدميك، وخطّتك لما ستفعله في يومك. إنه عظَمَة التقاليد، وصفوف المكاتب الدراسيّة في الفصل، والقطارات التي تنطلق في موعدها، والتقويم، والساعة. النظام هو القناع الخارجي الخادع الذي يُفترض بنا ارتداؤه، والتهذيب الذي نكون عليه وسط جمع من الغرباء المتحضّرين، والثلج الرّقيق الذي نتزلج عليه. النظام هو المكان الذي يوافق فيه سلوك

العالم توقّعاتنا ورغباتنا؛ المكان الذي تسير فيه الأمور كما نريد لها أن تسير. لكن النظام أحيانًا يكون أيضًا هو الطغيان والسفاهة، عندما تصبح الحاجة إلى اليقين، والاتّساق، والنقاء، متحيّزة بدورها.

حين يكون كل شيء يقينيًّا، نكون في حالة نظام. نكون في هذه الحالة عندما تسير الأمور طبقًا لما هو مخطّط، من دون أن يكون هناك شيء جديد ومثير للاضطراب. في نطاق النظام، تسير الأمور كما أراد لها الله. ونحن نحبّ أن نكون في هذه الحالة. فالبيئات المألوفة متجانسة. وعندما يسود النظام، يمكننا التفكير في الأشياء على المدى الطويل. ففي حالة النظام، تسير الأمور كما ينبغي، ونكون مستقرّين، وهادئين، وقادرين. ولهذا السبب، فإننا نادرًا ما نترك الأماكن التي اعتدناها –سواء جغرافيًّا أو إدراكيًّا– ولا نحبّ الأمر بالتأكيد، عندما نكون مضطرّين لذلك أو عندما يحدث بشكلٍ عارضٍ.

تكون في حالة نظام عندما تملك صديقًا وفيًّا وحليفًا موثوقًا به. وعندما يخونك هذا الشخص ذاته، تنتقل من عالم الوضوح والضوء إلى العالم

السفلي المظلم للفوضى، والحيرة، واليأس. وتلك هي الخطوة نفسها التي تتّخذها، والمكان نفسه الذي تنتقل إليه، عندما تبدأ الشركة التي تعمل بها في الانهيار وتصبح مهدّدًا بفقد وظيفتك. عندما تقدّم إقراراتك الضريبية، فهذا نظام. وعندما تخضع لفحص الحسابات، فهذه فوضى. معظم الناس يفضِّلون التعرّض للسرقة على الخضوعِ لفحص الحسابات. قبل سقوط برجَيّ مركز التجارة العالمي، كان ذلك نظامًا. وأعلنت الفوضى عن نفسها بعد ذلك. شعر الجميع بهذا؛ وأصبح الهواء ذاته محمّلًا بالشك وعدم اليقين. ما الذي سقط بالضبط؟ هذا سؤال خاطئ. لقد كانت المسألة الصحيحة هي: ما الذي ظلّ قائمًا؟

عندما يكون الثلج الذي تتزلج فوقه صلبًا وقويًّا، فهذا نظام. وعندما ينكسر الثلج من تحتك وينهار وتسقط في الماء، فهذه فوضى. النظام هو مقاطعة «شاير» التي يسكنها أقزام الهوبيت في عالم تولكين(11): مقاطعة مسالمة، ومنتجة، وقابلة للسكنى بأمانٍ، حتّى بالنّسبة للسذّج. والفوضى هي مملكة الأقزام في العالم السفلي التي يستولي عليها «سموج»، الأفعى التي تختزن الكنوز. الفوضى هي قاع المحيط العميق الذي يغوص إليه «بينوكيو»(12) لينقذ والده من «مونسترو»، الحوت والتنين الذي ينفخ النار. رحلة الإنقاذ

في الظلام تلك هي أصعب شيء يجب على الدمية فعله إذا كان يريد أن يصبح إنسانًا حقيقيًا؛ إذا كان يريد تخليص نفسه من إغراءات الغش، والتظاهر، ولعب دور الضحية، والمتعة المتهوِّرة، والخضوع التامّ؛ إذا كان يريد أن يأخذ مكانه ككيان حقيقي في العالم.

النظام هو الاستقرار في زواجك. وهو مدعوم بعادات الماضي، وبتوقّعاتك المتجذِّرة –على نحو خفي في الغالب– في تلك العادات. والفوضى هي انهيار ذلك الاستقرار تحت قدميك عندما تكتشف خيانة زوجك. الفوضى هي الترنّح بلا مساعدة أو دعم في الفراغ عندما ينهار الروتين والعادات التي توجّه حياتك.

النظام هو المكان والزمان اللذان تنظَّم فيهما المسلّمات، الخفيّة غالبًا، التي تعيش بها تجاربك وأفعالك لكي يحدث ما ينبغي أن يحدث. والفوضى هي المكان والزمان الجديدان اللذان ينبثقان للوجود عندما تقع المآسي فجأة، أو يكشف الشر عن وجهه الكئيب المُحبط، ولو داخل حدود بيتك ذاته. فدائمًا ما يمكن أن يظهر شيء غير متوقّع أو غير مرغوب به أثناء

وضع خطة ما، وبغضّ النظر عن مدى كون الظروف مألوفة. وعندما يحدث هذا، يتغيّر المكان. لا يراودّنك شكّ في هذا؛ فالمكان قد يكون هو ذاته؛ لكننا نعيش أيضًا في الزمان، إضافة إلى المكان. وبالتالي، فحتى أقدم الأماكن وأكثرها ألفة تحتفظ بقدرة مدهشة على مفاجأتك. فربما كنت تقود سيارتك التي اعتدت عليها وأحببتها لسنوات على الطريق بسعادة. ولكن الزمن يمر؛ وربما تتعطّل المكابح فلا تؤدّي وظيفتها. وربما كنت تتمشى في الطريق بذلك الجسد الذي لطالما اعتمدت عليه. ولكن إذا اختلّت وظائف قلبك، ولو للحظات، يتغيّر كل شيء. وتظلّ الكلاب الودودة المألوفة قادرة على العضّ. ويظلّ الأصدقاء القدامى الموثوق بهم قادرين على خداعك. ويمكن للأفكار الجديدة تحطيم القناعات القديمة المريحة. هذه الأمور مهمة؛ وهي واقعية.

تستجيب أدمغتنا فورًا عندما تظهر الفوضى بواسطة دوائر بسيطة سريعة جدًّا احتفظنا بها منذ الأزمنة الغابرة، حين كان أسلافنا يعيشون على الأشجار وكانت الحيّات تلدغ في لمح البصر(32). وبعد حدوث الاستجابة الجسدية شبه اللحظيّة الانعكاسيّة العميقة، تأتي الاستجابة العاطفيّة الأبطأ والأكثر تعقيدًا التي تطوّرت في مراحل متأخّرة؛ وبعد ذلك

يأتي التفكير، النظام الأعلى، والذي يمكن أن يمتدَّ لثوانٍ، أو دقائق، أو سنوات. كل هذه الاستجابات غريزية بصورة ما، لكن كلما كانت الاستجابة أسرع كانت غريزيّة أكثر.

الفوضى والنظام: الشّخصيّة أنثى وذكر

الفوضى والنظام هما اثنان من أكثر العناصر أساسيّة في التجربة المُعاشة؛ اثنان من أهم الفئات الفرعيّة الأساسيّة للكينونة ذاتها. لكنهما ليسا شيئين أو جسمين، ونحن لا نشعر بهما على أنهما كذلك. إن الأشياء أو الأجسام هي جزء من العالم الموضوعي. إنها جمادات لا روح فيها. إنها ميتة. ولا ينطبق هذا على الفوضى والنظام. فهذان العنصران يُدرَكان، ويُشعَر بهما، ويُفهَمان، مثل الشّخصيّات؛ وينطبق هذا على إدراك، وفهم، وشعور الناس في العصر الحديث بقدر ما كان ينطبق على أسلافهم القدماء. يكمن الفارق فقط في أن المعاصرين لا يلاحظون ذلك.

إن الفوضى والنظام لا يُفهَمان أولًا بموضوعيّة (مثل الأشياء أو الأجسام) ثم يُشخصنان بعد ذلك. كان هذا سيكون صحيحًا لو أننا كنا ندرك الواقع الموضوعي أولًا، وبعد ذلك نستدلّ على الهدف والغاية. لكن الإدراك لا يحدث هكذا، برغم تصوّراتنا. إن إدراك الأشياء كأدوات، على سبيل المثال، يحدث قبل أو بالتزامن مع إدراكها كأجسام. فنحن نرى ما تعنيه الأشياء بنفس السرعة التي نرى بها ماهيتها، أو أسرع(33). وإدراك الأشياء ككيانات ذات شخصية يحدث أيضًا قبل إدراكها كأشياء. ينطبق هذا بشكل خاص على أفعال الآخرين(34)، الآخرين الأحياء، لكننا نرى أيضًا «العالم الموضوعيّ» الجامد من حولنا على أنه عالم متحرّك، له هدف وغاية. ويرجع هذا إلى عمل شيء يسمّيه علماء النفس «متتبّع القوة مفرط النشاط» **the hyperactive agency detector** بداخلنا(35). لقد تطوّرنا، على مر آلاف السنين، في ظروف اجتماعية للغاية. وهذا يعني ان أكثر العناصر أهمّيّة في بيئة نشأتنا هي الشّخصيّات، وليس الأشياء، أو الأجسام، أو المواقف.

كانت الشّخصيّات التي تطوّرنا من أجل إدراكها موجودة في أشكال يمكن التنبؤ بها، وفي ترتيبٍ هرميٍّ تقليديٍّ، منذ قديم الأزل. فعلى سبيل المثال، كانت تنقسم لذكر وأنثى منذ مليار سنة. وهذا زمن طويل للغاية. فقد حدث انقسام الحياة إلى جنسين توأمين قبل تطور الحيوانات عديدة الخلايا. وفي

زمن طويل أيضًا يقدر بخُمس هذه الفترة، نشأت الثدييات، التي تولي عناية مكثّفة لصغارها. وهكذا فإن فئة المخلوقات المكونة من « والد» و/أو «ولد» كانت موجودة منذ 200 مليون سنة. وهذا أطول من عمر الطيور، وأطول من عمر الزهور. إنها ليست مليار سنة كاملة، ولكنها تظل فترة طويلة للغاية. إنها طويلة بما يكفي لأن يضطلع الذكر والأنثى، والوالد والولد بأدوارٍ أساسيّةٍ وحيويّةٍ في البيئة التي تكيّفنا معها. ويعني هذا أن تصنيفات الذكر والأنثى والوالد والولد هي تصنيفات لنا؛ تصنيفات طبيعيّة متجذِّرةً بعمقٍ في بنيتنا الفكريّة، والعاطفيّة، والتحفيزيّة.

إن أدمغتنا اجتماعيّة في جوهرها وفي مضمونها العميق. فقد كانت المخلوقات الأخرى (لا سيما البشر الآخرون) ذات أهمية شديدة بالنسبة لنا أثناء عيشنا، وتكاثُرنا، وتطورنا. كانت تلك المخلوقات تمثّل حرفيًّا موطننا الطبيعي؛ أو بيئتنا. ومن منظور دارويني فإن الطبيعة –الواقع ذاته؛ أو البيئة ذاتها– هي من ينتقي. ولا يمكن تعريف البيئة بأي طريقة أكثر جوهرية من هذا. إنها ليست مجرّد مادّة خاملة. الواقع ذاته هو ما نواجهه عندما نكافح من أجل البقاء والتكاثر. وجزء كبير من هذا الواقع يتكوّن من كائنات أخرى، ورأيهم فينا، ومجتمعاتهم. وهذا هو القول الفصل.

وعلى مدار آلاف السنين، مع زيادة سعة استيعاب أدمغتنا وتطوّر رغبتنا في المعرفة على نحو زائد، أصبحنا أكثر وعيًا بطبيعة العالم وأكثر فضولًا بشأنه -وهو ما تصوّرنا في النهاية أنه العالم الموضوعي من حولنا- خارِج نطاق شخصيات أفراد العائلة والجماعة. وعبارة «خارِج نطاق» هنا لا تشير فقط إلى منطقة فيزيائية مجهولة؛ وإنما تعني خارِج نطاق ما نفهمه حاليًّا- والفهم يعني التعامل والتكيّف مع العالم المحيط، وليس فقط التجسيد الموضوعي له. لكن أدمغتنا ظلّت لفترة طويلة تركّز على الآخرين. وهكذا، يبدو أننا بدأنا أولًا في إدراك العالم المجهول، الفوضوي، غير البشري، من خلال التصنيفات الفطريّة المغروسة في أدمغتنا الاجتماعيّة(36). وحتى هذا يعتبر قولًا خاطئًا: فعندما بدأنا للمرّة الأولى في إدراك العالم المجهول، الفوضوي، غير الحيواني، استخدمنا تصنيفات كانت قد تطوّرت في الأساس لتمثّل العالم الحيواني الاجتماعي ما قبل البشري. فعقولنا أقدم بكثير من الإنسانية؛ وتصنيفاتنا أقدم بكثير من نوعنا. ويبدو أن أكثر تصنيفاتنا قِدَمًا -وهو، بصورة ما، قديم قِدَم الممارسة الجنسيّة ذاتها- يتعلّق بالتصنيف الجنسي: ذكر وأنثى. ويبدو أننا أخذنا هذه المعرفة البدائية بهذا التضادّ الخلّاق المنظّم، وبدأنا نفسّر كل شيء من خلال التضاد بين الذكر والأنثى(37).

يبدو النظام –أو المعلوم– مرتبطًا رمزيًا بالذكورة (كما أوضحنا من خلال مصطلح يانج المذكور آنفًا عند الحديث عن رمز ين–يانج في الطاوية). ربما يرجع ذلك إلى أن الهيكل الهرمي الأساسي للمجتمع البشري هو هيكل ذكوري، كما هو الحال بين معظم الحيوانات، ومن بينها الشمبانزي، الذي يعتبر أقرب شبيه جيني وسلوكي للبشر. ويرجع هذا بدوره إلى أن الذكور كانوا عبر التاريخ، ولا يزالون حتى الآن، هم بناة المدن والبلدات، المهندسين، والبنائين، والحطّابين، ومشغّلي الآلات الثقيلة(38). النظام هو «الإله الأب»، القاضي السرمدي، والمسؤول عن الحساب، وموزّع الثواب والعقاب. النظام هو جيش رجال الشرطة والجنود في زمن السلم. إنه الثقافة السياسيّة، وبيئة الشركات، وقواعد العمل. إنه المُشار إليه بضمير «الغائب» في عبارة: « أنت تعرف ما يقولونه». إنه البطاقات الائتمانيّة، والفصول الدراسيّة، وطوابير دفع ثمن المشتريات في المتاجر، والمنعطفات، وإشارات المرور، والطرق المعتادة للموظفين الذاهبين إلى العمل. ويمكن للنظام أيضًا –عندما يُطبَّق على نحو مفرط، وعندما يفقد التوازن– أن يتجلّى بصورة مدمِّرة ومفزعة. ويتبدّى هذا في أفعال مثل التهجير القسري، والمعتقلات، والانتظام الساحق للروح الذي تتّسم به المشية العسكرية.

أما الفوضى –أو المجهول– فهي مرتبطة رمزيًّا بما هو أنثوي. يرجع هذا جزئيًا إلى أن كل الأشياء التي نعرفها ظهرت، في الأساس، من المجهول، تمامًا مثلما جاءت كل الكائنات التي نقابلها من أرحام الأمهات. الفوضى هي الأم، الوالدة، الأصل، المصدر؛ المادة التي خلقت منها جميع الأشياء. وهي أيضًا ما يهم، أو ما الأمر؛ أي موضوع الفكر والتواصل ذاته. وفي صورتها الإيجابية، الفوضى هي الاحتمالات ذاتها، ومصدر الأفكار، والعالم الغامض للحمل والولادة. وكقوّة سلبيّة، هي الظلمة الحالكة لكهفٍ، والحادثة الواقعة على جانب الطريق. إنها أنثى الدب الأشيب الرحيمة بأشبالها، والتي تنظر لك على أنك عدو محتمل فتمزِّقك إربًا.

الفوضى – الأنثويّة للأبد– هي أيضًا القوّة الساحقة للانتخاب الجنسي. تعتبر نساء البشر أمهات يصعب إرضاؤهن (على عكس إناث الشمبانزي، أقرب نظيراتهن من عالم الحيوان(39)). فأغلب الرجال لا يلبّون معايير إناث البشر. وهذا هو السبب الذي يجعل النساء على مواقع المواعدة الإلكترونية يصنفن 85 بالمائة من الرجال على أنهم أقلّ من المتوسط في ما يتعلّق بالجاذبية(40). ولهذا السبب فإن لنا من الأسلاف الإناث ضعف عدد أسلافنا الرجال (تخيّل أن كل امرأة من النساء اللاتي عشن على وجه

الأرض كان لديها طفل واحد في المتوسِّط. والآن تخيّل أن كل رجل من الرجال الذين عاشوا كان والدًا لطفلين، لو أنه أنجب أي أطفال، بينما النصف الآخر لم ينجب)(41). إنها «المرأة» –في ثوب الطبيعة– التي تنظر إلى نصف الرجال وتقول: «لا!». بالنسبة إلى الرجال، هذا صدام مباشر مع الفوضى، وهو صدام يحدث بقوّة مدمرة في كل مرة يتعرّضون فيها لرفض المواعدة. وهذه الانتقائية الخاصة بإناث البشر هي أيضًا التي تجعلنا مختلفين للغاية عن السلف المشترك الذي كان بيننا وبين أبناء عمومتنا من قرَدة الشمبانزي، بينما تشبه قردة الشمبانزي ذلك السلف إلى حدٍّ بعيدٍ. وقد كان نزوع النساء ذلك للرفض –أكثر من أيِّ قوّة أخرى– هو ما أدى لتطوّرنا لنصبح الكائنات الخلّاقة، المجتهدة، كبيرة الدماغ (التنافسية، والمسيطرة، والعدوانية) التي صرنا إليها اليوم(42). إنها الطبيعة في ثوب المرأة التي تقول: «حسنًا يا فتى، أنت تصلح صديقًا، لكن خبرتي بك حتى الآن لم تدلّ على ملاءمة مادتك الجينية للتناسل المستمرّ».

تعتمد أكثر الرموز الدينية عمقًا في جزء كبير من قوّتها على هذا التقسيم الفرعي الثنائي التصوّري الأساسي. فعلى سبيل المثال، تتكوّن نجمة داوود من مثلّث الأنثوية الذي يشير رأسه إلى أسفل، ومثلّث الذكورة الذي يشير

رأسه إلى أعلى(13). وينطبق الأمر نفسه على يوني **Yoni** ولينجام **lingam** في الهندوسيّة (اللذين يصوَّران مغطيان بالحيّات؛ وهم أعداؤنا ومحرِّضونا القدامى: يُصوّر «شيفا لينجا» **Shiva linga** مع آلهة من الحيّات تسمّى «ناجا» **Naga**). وقد صوّر قدماء المصريين أوزيريس، إله الحساب، وإيزيس، إلهة العالم السفلي، في صورة ثعباني كوبرا معقودَي الذيل. استُخدم الرمز نفسه في الصين لتصوير فوشي **Fuxi** ونوا **Nuwa**، وهما خالقا الإنسانية والكتابة. وهذه التمثيلات أقلّ تجريديّة في المسيحيّة، إذ تكون أشبه بالشّخصيّات، لكنَّ الصورتين الغربيتين المألوفتين لمريم العذراء وهي تحمل المسيح طفلًا وصورة «بييتا» تمثِّلان الوحدة المزدوجة بين الذكر والأنثى، كما يفعل الإصرار التقليدي على تصوير المسيح بمظهر يجمع صفات الجنسين(43).

ويجب أن نشير، في النهاية، إلى أن بنية الدماغ ذاتها، على مستوى مورفولوجي إجمالي، تعكس هذه الازدواجية. ومن وجهة نظري، يشير هذا إلى الواقع الجوهري ما وراء المجازي لهذا التقسيم الرمزي للأنوثة والذكورة، لأن الدماغ متأقلم، بطبيعة الحال، مع الواقع ذاته (أي الواقع المُتصوَّر بهذا الأسلوب شبه الدارويني). وقد اقترح إلكنون جولدبرج – وهو تلميذ عالم

النفس العصبي الروسي الشهير ألكسندر لوريا– على نحو واضح ومباشر أن البنية النصفيّة ذاتها لقشرة الدماغ تعكس التقسيم الأساسي بين التجديد (المجهول، أو الفوضى) والروتين (المعروف، أو النظام)(44). ولا يشير جولدبرج إلى الرموز التي تمثّل هيكل العالم في هذه النظرية، لكن هذا أفضل: فأي فكرة تكون أكثر مصداقية عندما تبرز كنتيجة بحثية في مجالات مختلفة(45).

إننا نعرف هذا بالفعل، لكنّنا لا نعرف أننا نعرفه. غير أننا نفهمه فورًا عندما يُعبَّر عنه بطريقة مثل هذه. إن الجميع يفهمون الفوضى والنظام، والعالم والعالم السفلي، عند شرحها بهذه المصطلحات. ولدينا جميعًا حسٌّ واضحٌ بالفوضى التي تتوارى تحت كلِّ شيء مألوف. وهذا هو السبب وراء فهمنا للقصص الخياليّة الغريبة، مثل « بينوكيو»، و«الجمال النائم»، و«الأسد الملك»، و«حورية البحر»، و«الجميلة والوحش»، بمشاهدها الخالدة التي تصوّر المعروف والمجهول، والعالم والعالم السفلي. جميعنا ذهبنا لكلا المكانَيْن كثيرًا؛ صدفة أحيانًا، واختيارًا أحيانًا أخرى.

كثير من الأشياء يصبح ذا معنى عندما تبدأ في فهم العالم على نحوٍ واعٍ بهذه الطريقة. يبدو الأمر كما لو كانت معرفة الجسد والروحِ تتوافق مع معرفة الفكر. وهناك المزيد: فهذه المعرفة مانعة إلى جانب كونها تصويرية. وهذا النوعِ من معرفة الماهية هو الذي يساعدك على معرفة الكيفيّة. هذا هو نوعِ الكينونة الذي يمكن أن تشتق منه الضرورة. فعلى سبيل المثال، التجاور الطاوي بين الين واليانج لا يمثل الفوضى والنظام فحسب بوصفهما العنصرين الأساسيين للكينونة؛ بل يخبرك كذلك بكيفية التصرّف. و«الطريق»، أو سبيل الحياة في الطاوية، يمثّله (أو يوجد على) الحد الفاصل بين الثعبانين التوأمين. و«الطريق» هو السبيل الصحيح «للكينونة». إنه الطريق نفسه الذي أشار إليه المسيح في إنجيل يوحنا، الإصحاح 14 الآية 6: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ». والفكرة ذاتها يُعبَّر عنها في إنجيل متّى، الإصحاح 7 الآية 14: «مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ».

إننا نعيش في نظام، ومحاطون بالفوضى، إلى الأبد؛ نعيش في منطقة مألوفة، ومحاطون بالمجهول، إلى الأبد. ونحن نعيش ارتباطًا ذا مغزى عندما نوجد في الوسط بينهما على نحو مناسب. إننا متكيِّفون، بأعمق معاني

الداروينية، مع الحقائق الأسمى للفوضى والنظام، الين واليانج، وليس مع عالم الأشياء. وتشكّل الفوضى والنظام البيئة الأبديّة المتساميّة للعيش.

والسيطرة على هذه الازدواجية الجوهرية تعني تحقيق التوازن: حيث قدمٌ مثبتة بقوة في النظام والأمان، والأخرى في الفوضى، والاحتماليّة، والنمو، والمغامرة. وعندما تصبح الحياة فجأة مكثّفة، ورائعة، وذات معنى؛ عندما يمر الوقت وأنت مستغرق في ما تفعله وغير منتبه لما حولك؛ حينها تكون واقفًا بالضبط فوق الحد الفاصل بين النظام والفوضى. والمعنى الذاتي الذي نقابله في ذلك المكان هو رد فعل لأعمق جزء من كينونتنا، من ذاتنا الغريزية المتأصّلة القائمة على أسس عصبية وتطورية، على نحو يشير إلى أننا نضمن الاستقرار، وكذلك نضمن توسّع مساحة مثمرة قابلة للسكنى من فضاء شخصيّ واجتماعي وطبيعي. إنه المكان الصحيح الذي يجب أن نكون فيه، بكل ما يعنيه هذا. وأنت تكون هناك عندما –وحيثما– يكون الأمر مهمًا. وهذا ما تخبرك به الموسيقى أيضًا عندما تنصت إليها؛ وربما بشكل أكبر عندما ترقص على إيقاعها؛ عندما تخبرك الأنماط المتناغمة المتوقّعة وغير المتوقّعة بها بمعنى ينبع من أعمق أعماق «كيانك».

الفوضى والنظام عنصران جوهريان لأن كلَّ موقفٍ حياتي مُعاشٍ (وحتى كلّ موقفٍ مُعاشٍ في الخيال) مكوّن من الاثنين. فأينما كنت، ثمة بعض الأمور التي يمكنك تحديدها، واستغلالها، وتوقّعها، وبعض الأمور الأخرى التي لا تعرفها أو لا تفهمها. وأيًا كنت، سواء كنت تعيش في صحراء كالاهاري، أو تعمل مصرفيًّا في وول ستريت، فإن بعض الأشياء تكون في نطاق سيطرتك، والبعض الآخر ليس كذلك. ولهذا السبب، يمكن لكلا الشخصين فهم القصص ذاتها، والعيش بالحقائق الأبدية ذاتها. وفي النهاية، فإن واقع الفوضى والنظام الجوهري ينطبق على كل كائنٍ حيٍّ، وليس على البشر وحدهم. فالكائنات الحيّة دائمًا ما تتواجد في الأماكن التي يمكنها السيطرة عليها، محاطة بأشياء ومواقف تجعلها أقل حصانة وأكثر عرضة للخطر.

والنظام وحده لا يكفي؛ فلا يمكنك أن تكون مستقرًّا وآمنًا وثابتًا فحسب، لأنه لا يزال ثمة أمور جديدة حيوية ومهمّة لتتعلّمها. ولكن الفوضى قد تكون أكثر مما تحتمل؛ إذ لا يمكنك أن تحتمل ما يفوق قدرتك على التحمل لمدة أطول مما ينبغي بينما لا تزال تتعلّم ما تحتاج لمعرفته. لذا، عليك أن تضع إحدى قدميك في ما تتقنه وتفهمه، وتضع القدم الأخرى في ما

تستكشفه حاليًا وتعمل على إتقانه. حينها تكون قد وضعت نفسك حيثما يمكنك السيطرة على رعب الوجود وحيثما تكون آمنًا، وفي الوقت نفسه تكون متأهِّبًا. هنالك ستجد شيئًا جديدًا تودّ إتقانه وطريقة ما لتطوّر بها ذاتك. وهنالك ستجد المعنى.

جنَّةُ عدن

تذكَّر أن قصص سِفر التكوين –كما أشرنا من قبل– تشكّلت من مصادر عديدة. بعد القصة الكهنوتيّة الأحدث (الإصحاح الأول من سِفر التكوين)، التي تحكي قصّة ظهور النظام من الفوضى، يأتي الجزء اليهوي، الثاني والأقدم، والذي يبدأ في الأساس بالإصحاح الثاني من سِفر التكوين. يحتوي المصدر اليهوي، الذي يستخدم اسم «يهوه» للإشارة إلى الرب، على قصّة آدم وحواء، إضافة إلى شرح أكثر تفصيلًا لأحداث اليوم السادس من أيام الخلق التي أشير إليها في القصّة الكهنوتيّة السابقة. ويبدو الاتصال بين القصّتين نتيجة لتحريرٍ دقيقٍ لشخصٍ أو أشخاصٍ يعرفون فرديًّا لدارسي الإنجيل باسم «المحرَّر»، وهو الشخص الذي نسج هذه القصص معًا. وربما

يكون هذا قد حدث عندما التقى أنصار كلّ مصدرٍ معًا –لسبب أو لآخر– وتسبّب المنطق الخاطئ لقصصهم المختلطة معًا، والتي اندمجت معًا بمرور الوقت على نحو يفتقر للبراعة، في إزعاج شخصٍ واعٍ، حصيفٍ، شجاعٍ، ومهووسٍ بالترابط المنطقيّ.

طبقًا لقصّة الخلق اليهويّة، خلق الله في البداية فضاءً محدودًا يُعرَف باسم «عدن» (والكلمة تعني في اللغة الآرامية –لغة المسيح المفترضة– مكانًا سُقِيَ جيّدًا بالماء)، أو «الفردوس» (pairidaeza باللغة الإيرانية القديمة أو الأفستية، وتعني حديقة أو مكانًا مغلقًا ومحاطًا بالأسوار). وضع الله آدم في تلك الحديقة التي تحوي كل أنواع الأشجار المثمرة، وكان منها شجرتان محرّمتان. كانت الأولى هي « شجرة الحياة» والأخرى هي « شجرة معرفة الخير والشر». ثم أخبر الله آدم أن يأكل من الشجر ما شاء، فيما عدا «شجرة المعرفة» المحرّمة. وبعد ذلك، خلق الله حواء زوجةً لآدم(14).

في البداية، لا يبدو أن آدم وحواء كانا واعيين تمامًا عندما وُضِعَا في الفردوس، وبالتأكيد لم يكونا واعيين لنفسيهما أو خجولين. فكما تؤكّد

القصّة، فإن الأبوين الأولين كانا عاريين، لكنهما لم يكونا خجولين. وتوحي هذه الصياغة، أولًا بأنه من الطبيعي تمامًا والمعتاد جدًّا أن يخجل الناس من عريهم (وإلا لما كان لدينا شيء نقوله عن غياب الخجل)، وثانيًا بأنه كان ثمة شيء غريب بشأن أبوَينا الأصليين، سواء أكان هذا الشيء جيِّدًا أم سيِّئًا. فعلى الرغم من وجود بعض الاستثناءات، فإن الأشخاص الوحيدين الآن الذين لن يشعروا بالخجل إذا أصبحوا عراة فجأة في مكان عام –باستثناء الأشخاص الاستعرائيين غريبي الأطوار– هم الأطفال ما دون سن الثالثة. وفي الواقع فإن أحد الكوابيس الشائعة هو أن يظهر الحالم عاريًا تمامًا بشكل مفاجئ أمام جمهور كبير.

في الإصحاح الثالث من سِفر التكوين، تظهر حية؛ ومن الواضح أنها كانت بساقَيْن في البداية. والله وحده يعلم لِمَ سمح لها بدخول هذه الجنة؛ أو لِمَ وضعها فيها؟ لقد تساءلت كثيرًا عن معنى هذا؛ ويبدو لي أنه انعكاس جزئي للانقسام الثنائي للفوضى والنظام الذي يميّز التجربة كلّها؛ حيث الفردوس مكانٌ منظَّمٌ صالحٌ للسُّكنى، بينما تلعب الحيّة دور الفوضى. لذا فإن الحيّة في جنّة عدن تمثّل النقطة السوداء في جانب الين من رمز

الين/يانج الطاوي للكمال؛ ويعني هذا احتمال إفصاح ما هو مجهول وثوري عن وجهه فجأة بينما يبدو كل شيء هادئًا.

لا يبدو محتملًا، حتى بالنسبة إلى الله، أن يخلق مكانًا مغلقًا محميًا ومنعزلًا بالكامل عن الخارج؛ على الأقل ليس في عالم الواقع بقيوده الضرورية؛ العالم المحاط بما هو متجاوز ومتعالٍ. فدائمًا ما يتسلّل الخارج – الفوضى– إلى الداخل، لأنه ما من شيء يمكن أن يكون منفصلًا كلّيًا عن بقية الواقع. لذا فإنه حتى أكثر الأماكن أمنًا يؤوي حيّات حتمًا. وقد كانت هناك حيّات حقيقيّة زاحفة دائمًا وأبدًا في حشائش وأشجار جنتنا الأفريقية الأصلية(46). إلا أنه حتى لو غابت كل الحيّات (على نحو غير مفهوم، كما في النسخة البدائيّة لسان جورج)، فإنها كانت ستظلّ موجودة في صورة أعدائنا البشريين القدامى (على الأقل عندما كانوا يتصرّفون مثل الأعداء، من منظوراتنا المحدودة للجماعة أو للأقارب). ففي نهاية المطاف، لم يكن ثمة نقصٌ في النزاعات والحروب بين أسلافنا القبليّين(47).

وحتى لو كنا انتصرنا على كل الحيّات التي تهاجمنا من الخارجِ، سواء أكانت زاحفة أو بشرية، فإننا كنا سنظلّ غير آمنين. كما أننا لسنا آمنين الآن أيضًا. فعلى أية حال، لقد رأينا العدو، وهو نحن أنفسنا. الحيّة تسكن روحِ كل واحد منا. وعلى حدٍّ علمي، فإن هذا هو سبب الإصرار الغريب في المسيحية –الذي أوضحه جون ميلتون تمامًا– على أن الحيّة في جنّة عدن هي أيضًا «الشيطان»، أي «روحِ الشرّ» ذاتها. ولا يمكننا أن نؤكّد بما فيه الكفاية على أهمّيّة هذه المطابقة الرمزيّة؛ وما تنطوي عليه من ذكاء مدهش. لقد تطوّرت فكرة المفاهيم الأخلاقيّة المجرّدة ذاتها، بكل ما تستلزمه وتقتضيه، من خلال إعمال الخيال على مدار آلاف السنين. ولقد بُذِلَ جهد هائل في تطوير فكرة «الخير والشر»، والصورة المجازية المتخيّلة المحيطة بها. إن أسوأ الحيّات الممكنة على الإطلاق هي النزعة البشرية الأبدية نحو الشر. أسوأ الحيّات الممكنة على الإطلاق هي حيّة نفسيّة، روحيّة، شخصيّة، داخليّة. وما من أسوار، مهما علا ارتفاعها، يمكنها منع تلك الحيّة. فحتى لو كان الحصن منيعًا للغاية –من حيث المبدأ– لإبقاء كل ما هو سيِّئ في الخارج، فسيظهر الشرُّ مرة أخرى على الفور في الداخل. وكما أكد الكاتب الروسي الكبير ألكسندر سولجنتسين، فإن الحدَّ الفاصل بين الخير والشرّ يمر في قلب كل إنسان.

وببساطة، لا يوجد سبيل لفصل جزء منعزل من الواقع المحيط الأكبر، وجعل كل شيء بداخل هذا الجزء متوقّعًا وآمنًا. فبعض مما جرى استبعاده بعناية فائقة سيتسلّل مرة أخرى إلى الداخل. ويمكن التعبير عن هذا على نحو مجازي بالقول إن حيّةً ما ستظهر حتمًا في النهاية. ولا يمكن حتى لأكثر الآباء حرصًا على حماية أبنائهم أن ينجحوا في حمايتهم تمامًا؛ حتى لو حبسوهم في قبو المنزل في ملاذٍ آمنٍ بعيدًا عن المخدرات، والكحوليّات، والإباحيّة على شبكة الإنترنت. ففي هذه الحالة المتطرّفة من الحماية، فإن كل ما يفعله الوالد الحريص زيادة عن اللزوم، والمُحب زيادة عن اللزوم، هو أنه يحلّ هو نفسه محلّ مشكلات الحياة الفظيعة الأخرى؛ فيصبح هو المشكلة الكبرى. وذلك هو الكابوس الأوديبي الفرويدي الأكبر(49). ومن الأفضل كثيرًا أن تساعد مَنْ تَعولَ على اكتساب الأهليّة والمقدرة بدلًا من أن تحاول حمايتهم.

وحتى لو كان من الممكن التخلّص نهائيًّا من كل تهديد أو كل خطر (وبالتالي كل ما هو مثير للاهتمام ويمثّل تحديًّا)، فإن هذا لن يؤدّي سوى لظهور خطر آخر وهو: طفولة بشريّة دائمة وانعدام نفع مطلق. فأنّى للطبيعة

البشرية أن تصل إلى أقصى إمكانياتها من دون التحدّي والخطر؟ ما المدى الذي سنصل إليه من البَلادة والتفاهة إذا لم يكن ثمة داعٍ للانتباه والاهتمام؟ ربما قَدَّر الله أن خلقه الجديد سيكون قادرًا على التعامل مع الحيّة، واعتبر وجودها أهون الضّررين.

سؤال للآباء: هل ترغبون في جعل أطفالكم آمنين أم أقوياء؟

وفي جميع الأحوال، ثمة حيّة في الجنّة، وهي حيوان «خبيث» وفقًا للقصّة القديمة (تصعب رؤيته، مخادع، ماكر، غادر). لذا ليس من الغريب أنها قررت خداع حواء. ولماذا حواء وليس آدم؟ ربما كان ذلك محض صدفة. لقد كانت الاحتمالات الإحصائيّة لاختيار حواء من دون آدم هي خمسين بالمائة؛ وهذه احتمالات مرتفعة للغاية. لكنني تعلّمت أن هذه الحكايات القديمة لا تحتوي شيئًا لا لزوم له. فأيّ شيء يحدث عرضًا –أو لا يخدم حبكة القصّة– يُنسَى تمامًا في السرد. وكما قال الكاتب المسرحي الروسي أنطون تشيكوف: «إذا كان هناك بندقية معلّقة على الحائط في الفصل الأول، فلا بد من استخدامها في إطلاق النار في فصلٍ تالٍ؛ وإلا فلا حاجة

لوجودها»(50). ربما كان لدى حواء الأولى أسبابٌ أكثر وجاهة للإنصات إلى الحيّات مما لدى آدم. فعلى سبيل المثال، ربما كانت الحيّات ستؤذي أطفالها الذين يعيشون على الأشجار. وربما كان هذا هو السبب وراء كون حواء أكثر تحفّظًا، وقلقًا، وخوفًا، وتوتّرًا، حتى يومنا هذا (حتّى في أكثر المجتمعات الحديثة مساواةً بين الرجل والمرأة، وربما في هذه المجتمعات أكثر من غيرها) (51). وعلى أيّة حال، تخبر الحيّة حوّاء أنها لو أكلت من الشجرة المحرّمة فلن تموت؛ وإنما ستتفتّح عيناها، وستصبح مثل الإله، يمكنها التمييز بين الخير والشر. وبالطبع لا تخبرها الحيّة بأنها لن تصبح مثل الإله إلا في ما يتعلّق بهذا الجانب وحده. ولكنها حيّة في النهاية. ونظرًا لكونها بشرية، وترغب في معرفة المزيد، تقرّر حواء تناول الثمرة المحرَّمة. وفي لمح البصر، تستيقظ؛ تصبح واعية، أو ربما خجولة، للمرة الأولى.

ولا يمكن لامرأة واعية ذات رؤية واضحة ومعرفة أن تتحمّل رجلًا غير واعٍ. لذا تقدِّم حواءُ الثمرةَ لآدم على الفور ليأكل منها بدوره. وهذا يجعله واعيًا لذاته هو أيضًا. ولم يتغيّر الكثير حتى يومنا هذا. فمنذ فجر التاريخ، تتسبّب النساء للرجال في الارتباك والخجل والوعي للذات. وهن تفعلن ذلك في الأساس برفضهنّ لهم؛ لكنّهنّ تفعلنه أيضًا بإشعارهم بالخزي إذا لم يتحمّل

الرجال المسؤولية. ولا عجب في ذلك؛ إذ تتحمّل النساء وحدهنَّ العبء الرئيسي للتكاثر. ومن الصعب جدًا تخيل أي شيء خلاف هذا. غير أن قدرة النساء على إشعار الرجال بالخزي والخجل لا تزال إحدى القوى الرئيسيّة للطبيعة.

وقد تتساءل قائلًا: لكن ما شأن الحيّات بالرؤية؟ حسنًا، أولًا، واضح أنه من المهمّ جدًّا أن نكون قادرين على رؤية الحيّات، لأنها قد تهاجمك (لا سيما إذا كنت صغيرًا وتعيش على الأشجار مثل أسلافنا الذين سكنوها). وقد أشارت البروفيسور لين إيزابيل - أستاذة الأنثروبولوجيا وعلم سلوك الحيوان بجامعة كاليفورنيا- إلى أن بصر البشر الحادّ على نحو مذهل والذي لا يمتلكه سواهم تقريبًا كان نوعًا من التكيّف الذي أُجبرنا عليه قبل عشرات الملايين من السنين بسبب ضرورة اكتشاف وتجنّب الخطر المروع للحيّات، التي اشترك معها أسلافنا في رحلة التطوّر(52). وربما كان هذا أحد أسباب ظهور الحيّة في جنّة الفردوس بوصفها المخلوق الذي منحنا رؤية الإله (إضافة إلى كونها العدو الأصلي والأبدي للبشر). وربما كان أيضًا أحد أسباب التصوير الشائع لمريم العذراء، الأمّ الأصليّة الأبديّة -أو حواء في صورة مثالية- في لوحات القرون الوسطى وعصر النهضة وهي ترفع

المسيح وهو طفل في الهواء، لأبعد ما تستطيع، مبعدة إيّاه عن زاحف مفترس تثبته بقوة تحت قدمها(53). وهناك المزيد. فما تقدّمه الحيّة هو ثمرة فاكهة، والفاكهة مرتبطة أيضًا بتحوّل الرؤية، من حيث إن قدرتنا على رؤية الألوان هي تكيُف يساعدنا على سرعة اكتشاف الثمار الناضجة والصالحة للأكل على أغصان الأشجار(54).

لقد أصغى أبوانا الأصليان للحيّة، وأكلا الثمرة؛ فتفتّحت أعينهما وتيقظا. وقد تظنّ –كما ظنّت حوّاء في البداية– أن هذا شيء جيّد. لكن أنصاف الهدايا تكون أحيانًا أسوأ من عدم تلقّي الهدايا من الأساس. فآدم وحواء يستيقظان واعيين حقًّا، ولكن فقط بالقدر الكافي لاكتشاف بعض الأمور السيئة. ففي البداية، يلاحظان أنهما عاريان.

القرد العاري

بدأ ابني يدرك عريه قبل أن يتم الثالثة من عمره بفترة. كان يرغب في ارتداء الملابس بنفسه، وكان يغلق باب الحمام جيدًا، ولا يظهر أمام الناس عاريًا. ولم أستطع أن أدرك البتة ما علاقة هذا بتربيته. لقد كان هذا اكتشافًا ذاتيًا، وإدراكًا ذاتيًا، وردود أفعال ذاتية. بدا لي الأمر فطريًّا.

ما الذي يعنيه لك إدراكك أنك عارٍ؛ أو ربما الأسوأ من ذلك، أنك ورفيقتك عاريان؟ إنه يعني كلّ الأمور السيّئة؛ والمعبّر عنها بشكل مروِّع – على سبيل المثال– على يد رسام عصر النهضة هانز بالدونج جرين، الذي استلهمنا الصورة التي تتصدّر هذا الفصل من لوحته. إن العري يعني كون الإنسان ضعيفًا وعرضة للخطر والضرر بسهولة. والعري يعني التعرض لآراء الآخرين بشأن جمال المرء وصحته الجسدية. العري يعني الافتقار للحماية ووسائل الدفاع في غابة الطبيعة والإنسان. ولهذا السبب شعر آدم وحواء بالخجل بعد أن تفتحت أعينهما مباشرة. أصبح بمقدورهما الرؤية؛ وكان أول ما رأياه هو ذاتهما. وبدت لهما سوآتهما. كان ضعفهما واضحًا. فعلى عكس الثدييات الأخرى، التي تكون بطونها المرهفة محميّة بقبة ظهرها التي تشبه الدرع، كان آدم وحواء مخلوقين منتصبين، وكانت أكثر أعضائهما ضعفًا وهشاشة مكشوفة للعالم. ولم يكن هذا هو أسوأ ما في الأمر. فقد

صنع آدم وحواء مآزر (في النسخة القياسية المنقّحة من الإنجيل، وأغطية في إنجيل الملك جيمس) على الفور لإخفاء جسديهما الهشَّين؛ ولصيانة كرامتهما. ومن ثم هرعا على الفور للاختباء. لقد شعرا حينها، في تلك الحالة من الضعف -التي أدركاها تمامًا الآن- أنهما غير جديرين بالوقوف بين يديّ الله.

إذا كنت لا تدرك هذا الشعور، فإنك لا تفكّر جيدًا. إن الجمال يُشعر القبيح بالخزي، والقوّة تُشعر الضعيف بالخزي، والموت يُشعر الحيَّ بالخزي - و«المثالي الكامل» يشعرنا جميعًا بالخزي. لذا فإننا نخشاه، ونشعر بالحنق تجاهه؛ بل حتى نكرهه (وبالطبع فإن هذه هي الفكرة التي يتناولها بعد ذلك سِفر التكوين، من خلال قصة قابيل وهابيل). وماذا سنفعل حيال ذلك؟ هل نهجر كل المبادئ المثاليّة للجمال، والصّحّة، والذكاء، والقوّة؟ ليس هذا حلًّا جيّدًا. لن يضمن لنا هذا إلا الشعور بالخزي الدائم؛ بل وبأننا نستحقه بعدالة مطلقة. إنني لا أريد أن تختفي النساء بارعات الجمال اللاتي تخطفن الأبصار بمجرد ظهورهنَّ فقط لكي لا تشعر الأخريات بالخجل. لا أريد لعقول مثل عقل جون فون نيومان(15) أن تختفي لمجرّد أن فهمي للرياضيّات محدود. لقد أعاد نيومان تعريف الأعداد عندما أتم عامه التاسع

عشر(55). الأعداد! نشكر الله على أن وهبنا جون فون نيومان! نشكر الله على أن وهبنا جريس كيلي، وأنيتا إيكبرج، ومونيكا بيلوتشي! إنني لأفخر بالشعور بعدم أهميتي في حضرة أناس مثل هؤلاء. إنه الثمن الذي ندفعه جميعًا من أجل الهدف، والإنجاز، والطموح. لكن لا عجب كذلك أن آدم وحواء قاما بتغطية جسديهما.

والجزء التالي من القصة كوميدي للغاية، في رأيي، على الرغم من أنه مأساوي ومروع أيضًا. في تلك الأمسية، عند هبوب الريح في جنة عدن، يخرج الرب من أجل تمشية المساء. لكنه لا يجد آدم، وهو ما يحيّر الرب، الذي اعتاد على التمشية معه. يناديه الرب، وكأنه نسي أنه قادر على الرؤية عبر الأشجار: « أَيْنَ أَنْتَ؟». ويكشف آدم عن نفسه فورًا، لكن بشكل سيّئ؛ فيظهر أولًا كشخصٍ عصابيٍّ ثم كواشٍ. ينادي ربُ الكون بأكمله، فيجيب آدم: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». ما الذي يعنيه هذا؟ إنه يعني أن البشر –الذين يؤرقهم ضعفهم– يخشون دائمًا وأبدًا قول الحقيقة، والتوسّط بين النظام والفوضى، والكشف عن مصائرهم. وبعبارة أخرى، فإنهم يخشون السير مع الله. وربما ليس هذا من

أكبر مميّزاتهم، ولكنّه أمر مفهوم بالتأكيد. إن الربّ أبٌ ميّال للنّقد القاسي، صاحب معايير عالية، ومن الصعب إرضاؤه.

يقول الرب: « مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟». يشير آدم في تعاسة وبؤس إلى حواء؛ حبيبته، ورفيقته، وتوأم روحه، ويشي بها. ثم يلوم الرب قائلًا: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ (فَأَكَلْتُ)». كم كان هذا مثيرًا للشفقة؛ ودقيقًا في الوقت نفسه. لقد تسبّبت المرأة الأولى في شعور الرجل الأول بالخزي والحنق. ثم ألقى الرجل الأول باللوم على المرأة؛ ثم على الربّ. وهذا هو ما يشعر به كل ذكر يُقابل بالرفض، حتى يومنا هذا. فهو أولًا يشعر بالضآلة أمام من يستهدفها بحبّه، وذلك بعد أن ترى هي عدم ملاءمته ليكون شريكًا للتكاثر. ثم يلوم الرب لأنه خلقها مشاكسة، وخلقه بائسًا عديم الجدوى (إذا كان لديه أي إدراك)، وخلق «الكينونة» ذاتها معيبة. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الأفكار الانتقامية. كم هذا جدير بالازدراء تمامًا (ومفهوم جدًا). فعلى الأقل، يمكن للمرأة أن تنحو باللائمة على الحية، التي يتبين لاحقًا أنها هي الشيطان نفسه، برغم غرابة هذا. وهكذا يمكننا تفهّم خطأ حواء والتعاطف معه؛ فقد خدعها أفضل مخادع. لكن آدم لم يجبره أحد على الوشاية بها.

ومع الأسف، لا ينتهي هنا أسوأ ما في الأمر؛ سواء بالنسبة للإنسان أو للحيّة. فأولًا، يلعن الله الحيّة قائلًا إنه قد حكم عليها بالسعي على بطنها، بلا سيقان، إلى الأبد، في خوف من أن يسحقها البشر الغاضبون. وثانيًا، يخبر المرأة أنها ستعاني الأوجاع عند ولادة أطفالها، وأنها ستشتاق إلى رجل غير جديرٍ، وأحيانًا ممتلئ بالحنق، يستخدم قَدَرَها البيولوجي ليتسيّد عليها، إلى الأبد. فما الذي قد يعنيه هذا؟ قد يعني فحسب أن الرب أبٌ مستبد، كما تصر التفسيرات ذات الدوافع السياسية لهذه القصّة القديمة. وأنا أعتقد أنّها مجرّد قصة وصفية بكل بساطة. وإليكم السبب: فمع تطوّر البشر، تطورت الأدمغة التي أنتجت الوعي الذاتي بقدر هائل. وقد أدى هذا إلى سباق تسلح تطوّري بين رأس الجنين وحوض الأنثى(56). وسعت الأنثى بكل سماحة من ردفيها، إلى درجة يكاد يكون الركض بعدها مستحيلًا. ومن جانبه يسمح الطفل لنفسه بالخروج للوجود قبل أوانه بأكثر من عام، مقارنة بالثدييات الأخرى التي تماثله في الحجم، ويطوّر رأسًا قابلًا للانحناء لأسفل جزئيًا(57). وقد كان هذا ولا يزال تكيّفًا مؤلمًا لكليهما. يعتمد الطفل الجنين على والدته كلّيًا تقريبًا في عامه الأول. وتعني قابلية دماغه الضخم للبرمجة أنه لا بد وأن يُدرَب حتى يصل إلى سن الثامنة عشرة (أو الثلاثين)

قبل إخراجه من العُش. وكل هذا بخلاف الألم الذي تعانيه المرأة أثناء الولادة، واحتمالية الوفاة المرتفعة للأم والطفل على حدٍّ سواء. وكل ذلك يعني أن الأمَّ تدفع ثمنًا باهظًا للحمل والتربية، ولا سيما في المراحل الأولى من عمر الطفل، وأن إحدى النتائج الحتمية لهذا هو الاعتماد المتزايد على عطايا وهبات الرجال، التي تكون أحيانًا متذبذبة ولا يمكن التعويل عليها دائمًا.

وبعد أن يخبر الربّ حواء بما سيحدث، بعد أن أصبحت مدركةً، يلتفت إلى آدم؛ الذي لا ينجو من الموقف، هو ونسله من الذكور، على نحو أفضل. يقول له الرب شيئًا من قبيل: «أيها الرجل، لأنك سمعت لقول امرأتك، فقد تفتّحت عيناك. وبصرك الشبيه ببصر الرب –والذي منحتك إياه الحيّة، والثمرة، والحبيبة– سيجعلك ترى بعيدًا، حتى في المستقبل. لكن أولئك الذين يرون المستقبل يمكنهم أيضًا للأبد رؤية المشكلات القادمة، لذا عليهم الاستعداد لجميع الاحتمالات والطوارئ غير المتوقّعة. ولكي تفعل هذا، سيكون عليك دائمًا أن تضحّي بالحاضر من أجل المستقبل. عليك أن تضحّي بالمتعة من أجل الأمان. وباختصار، سيكون

عليك أن تعمل؛ وسيكون هذا صعبًا. وأرجو أن تكون محبًّا للشوك والعشب، لأنك ستزرع منها الكثير».

ثم يطرد الرب الرّجل الأول والمرأة الأولى من الفردوس، من عالم البراءة، من عالم الحيوان اللاواعي إلى فظائع التاريخ ذاته. ثم يضع الله ملاكًا وسيفًا مشتعلًا على بوابة جنّة عدن، ليمنعهم من الأكل من «ثمر شجرة الحياة». ويبدو هذا تحديدًا نوعًا من المكر اللئيم. فلم لا يجعل الربُ البشر المساكين خالدين وحسب؟ وخاصة إذا كانت هذه هي خطة الرب للمستقبل، كما تقول الحكاية؟ لكن من يجرؤ على استجواب الرب؟

ربما كانت الجنّة مكانًا يجب عليك بناؤه، والخلود شيئًا يجب عليك استحقاقه.

والآن نعود إلى تساؤلنا الأساسي: ما الذي يجعل شخصًا ما يشتري دواءً موصوفًا لكلبه ثم يعطيه إياه بعناية واهتمام، في حين أنه لا يفعل المثل مع

نفسه؟ لديك الآن الإجابة المقتبسة من أحد النصوص الأساسيّة لدى البشر. لماذا يعتني أيُّ شخص بكائنٍ عارٍ، قبيحٍ، خزيان، خائفٍ، وجبانٍ، حانقٍ، وعديم القيمة، ومتحفزٍ، ونزاعٍ لتوجيه الاتهامات، مثل نسل آدم؟ حتى لو كان هذا الشيء، هذا الكائن، هو نفسه من يجب أن يعتني بنفسه؟ وأنا بالطبع لا أستبعد النساء هنا.

كل الأسباب التي ناقشناها حتى الآن والتي ترسم صورة كئيبة وبغيضة للإنسانية تنطبق على الآخرين بقدر ما تنطبق على الذات؛ فهي تعميمات بشأن الطبيعة البشرية؛ وليست أكثر تحديدًا. ولكنّك تعلم أكثر من ذلك بكثير عن ذاتك. إنك سيّئ كما يعلم الآخرون عنك هذا. لكنك الوحيد الذي يدرك النطاق الكامل لآثامك، وعيوبك، ومساوئك. لا أحد أكثر منك علمًا بعيوبك الذهنية والجسدية. لا أحد لديه سبب ليحقّر من شأنك ويزدريك أكثر مما لديك أنت؛ وعن طريق منع نفسك شيئًا يمكنه أن ينفعك كالدواء، يمكنك عقاب ذاتك على جميع مثالبك. من الواضح أن الكلب؛ الوديع، البرئ، غير الواعي، يستحقّ الدواء أكثر منك.

لكن إذا لم تكن مقتنعًا بعد، فدعنا نتفكّر في مسألة أخرى مهمّة. النظام، والفوضى، والحياة، والموت، والخطيئة، والرؤية، والعمل، والمعاناة: كل ذلك ليس كافيًا لمن كتبوا سِفر التكوين أو للبشرية ذاتها؛ فالقصّة مستمرّة بكل مآسيها وكوارثها، ولا بد أن يواجه أبطالها (نحن البشر) صحوة مؤلمة أخرى. فقدرنا التالي هو أن نتفكَّر مليًّا في الأخلاق ذاتها.

الخير والشر

عندما تفتّحت أعينهما، أدرك آدم وحواء ما هو أكثر من عريهما وضرورة العمل الشاق؛ فقد تعرّفا كذلك على «الخير» و«الشر» (تقول الحيّة مشيرة إلى الثمر: «بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ»). فما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟ ما الذي يبقى متاحًا للاستكشاف والفهم، بعد كل ما قلناه حتى الآن؟ حسنًا، يشير السياق البسيط إلى أن المتبقي لا بد أن يكون ذا صلة بالحدائق، والحيّات، وعصيان الأوامر، والثمار، والجنسانيّة، والعريّ. وقد كان هذا العنصر الأخير –العري– هو ما أعطاني الحل في النهاية؛ وقد استغرق الأمر سنوات.

الكلاب حيوانات مفترسة، والقطط كذلك؛ فهي تقتل مخلوقات أخرى وتأكلها. ليس هذا جميلًا. ومع ذلك فنحن نقتنيها كحيواناتٍ أليفةٍ ونعتني بها ونعطيها العلاج عندما تمرض. لماذا؟ إنها حيوانات مفترسة؛ لكن هذه هي طبيعتها فحسب. إنها غير مسؤولة عن هذا. إنها جائعة، وليست شريرة. إنها لا تملك حضور الذهن، والإبداع؛ وفوق كل ذلك، لا تملك الوعي الذاتي، الضروري لإلهام الإنسان قسوته.

ولم لا؟ الأمر بسيط. فعلى عكس البشر، لا تملك الحيوانات المفترسة إدراكًا لضعفها، وقابليتها للأذى، وخضوعها القسري للألم والموت. لكننا نعرف بالضبط كيف، وأين، ولماذا، يمكن أن نتعرّض للأذى. هذا تعريف مقبول للوعي الذاتي كأي تعريف آخر. نحن مدركون لضعفنا، ومحدوديتنا، وكوننا فانين. يمكننا الشعور بالألم، والاشمئزاز من الذات، والخزي، والفزع، ونحن نعلم ذلك. نعلم ما يجعلنا نعاني. نعلم كيف يمكن أن ينزل بنا الآخرون الفزع والألم؛ وهذا يعني أننا نعرف بالضبط كيف يمكننا أن ننزلهما

بالآخرين بدورنا. نعلم أننا عراة، وكيف يمكن استغلال هذا العري؛ وهذا يعني أننا نعلم أن الآخرين عراة، وكيف يمكننا استغلالهم.

يمكننا إخافة الآخرين عن عمد. يمكننا إيذاؤهم وإذلالهم من أجل أخطاء نفهمها تمامًا. يمكننا تعذيبهم –حرفيًا– ببطء، وبراعة، وفظاعة. وهذا أكثر بكثير من الافتراس. هذا تغيّر نوعي في الإدراك. هذا تغيّر ضخم مفاجئ يضاهي تطوّر الوعي الذاتي نفسه. هذا هو مدخل المعرفة بالخير والشرّ إلى العالم. هذا شرخٌ ثانٍ لم يُعالج بعد في بنية « الوجود». هذا هو تحوّل «الكينونة» ذاتها إلى سعي أخلاقي؛ يعتمد بالكلية على تطوّر الوعي الذاتي المعقّد. لا يمكن سوى للإنسان أن يفكّر في أدوات تعذيب مثل المخلّعة **Rack**، والعذراء الحديدية **Iron Maiden**، ولولب الإبهام **Thumbscrew**. الإنسان وحده هو من يعذّب الآخرين من أجل التعذيب. هذا هو أفضل تعريف أمكنني صياغته للشرّ. لا تستطيع الحيوانات ذلك، لكن البشر –بقدراتهم شبه الإلهية المؤلمة– يستطيعونه بكلِّ تأكيدٍ. وبهذا الإدراك، لدينا تقريبًا تبرير كامل لفكرة الخطيئة الأصلية(16) **Original Sin**؛ وهي فكرة لا تلقى أي ترحيب في الأوساط الفكريّة الحديثة. ومن ذا يجرؤ على القول بأنه لم يكن ثمة خيار

إرادي في تحوّلنا التطوّري، والفردي، واللاهوتيّ؟ لقد اختار أسلافنا شركاءهم الجنسيين، وقد اختاروا: الوعي؟ والوعي الذاتي؟ والمعرفة الأخلاقيّة؟ ومن ذا يمكنه إنكار الإحساس بالذنب الوجوديّ الذي يتخلّل التجربة الإنسانيّة كلّها؟ ومن ذا يمكنه أن يتجنّب ملاحظة أن الإنسان من دون ذلك الإحساس بالذنب –ذلك الإحساس بالفساد الداخلي والقدرة على الشر– فهو على بعد خطوة من الاضطراب العقلي؟

لدى البشر قدرة كبيرة على الشرّ. إنها سمة فريدة في عالم الحياة. إننا قادرون على جعل الأمور أسوأ، بإرادتنا، وبمعرفة كاملة بما نقوم به (وكذلك نفعل الشر على نحو عارض، وعن طريق الإهمال، والجهل المتعمّد أحيانًا)، ونحن نفعل ذلك بالفعل. وبالنظر إلى تلك القدرة الرهيبة، وذلك الميل إلى الأفعال الخبيثة والمؤذية، فهل ثمة عجب في أننا نعاني صعوبات في العناية بأنفسنا، أو بالآخرين؛ أو حتّى في أننا نشكِّك في قيمة المؤسّسة الإنسانيّة بأسرها؟ ولقد شككنا في أنفسنا بالفعل –لأسباب وجيهة– ولفترة طويلة جدًّا. فعلى سبيل المثال، منذ آلاف السنين، كان سكان بلاد الرافدين يؤمنون بأن البشر جاءوا من دم «كينجو»؛ وهو أفظع وحش يمكن لإلهة الفوضى خلقه في أكثر لحظاتها تدميرًا ورغبة في الانتقام(58). وبعد

التوصّل إلى استنتاجات مثل هذه، آنى لنا ألا نشكّك في قيمة كينونتنا، بل و«الكينونة» ذاتها؟ من منا إذًا يمكنه أن يواجه المرض -في نفسه أو في غيره- من دون أن يشك في الفائدة الأخلاقية من وصف دواء شافٍ؟ وما من أحد يدرك الظلام بداخل الإنسان أفضل مما يدركه هو ذاته. من منا إذًا سيلتزم التزامًا تامًّا بالعناية بنفسه عندما يصاب بالمرض؟

ربما كان الإنسان مخلوقًا ما كان ينبغي أن يُخلق. ربما يجب حتّى تطهير العالم من كل الوجود البشري حتى يتسنّى للوجود والوعي العودة إلى الوحشية البريئة لعالم الحيوان. وإنني لأظنّ أن أي إنسان يدّعِي أنه لم يتمنَ أبدًا حدوث مثل هذا الأمر لم يراجع ذاكرته ولم يواجه أسوأ خيالاته وأفكاره.

ماذا نفعل إذًا؟

في الإصحاح الأوّل من سِفر التكوين، خلق الله العالم بالكلمة الإلهيّة الصادقة، موجدًا بذلك نظامًا فردوسيًّا قابلًا للسكنى من الفوضى العدمية السابقة لخلق الكون. ومن ثم خلق «الرجل» و«المرأة» على صورته، مانحًا إياهما القدرة على فعل الشيء نفسه؛ وهو خلق النظام من الفوضى، ومواصلة عمله. وفي كل مرحلة من مراحل الخلق –ومن بينها مرحلة خلق أول زوج– كان الله يتأمّل ما خلق ويرى أنه حسنٌ.

يؤدّي تجاور الإصحاح الأول من سفر التكوين والإصحاحين الثاني والثالث (وهما الإصحاحان اللذان يسردان هبوط الإنسان من الجنّة، ويصفان كيف أن قدر البشر مليء بالمآسي ومُؤلم أخلاقيًّا إلى حدٍّ كبيرٍ) إلى تتابع سردي لا يكاد يكون محتملًا من حيث عمقه. إن المغزى الأخلاقي للإصحاح الأول من سِفر التكوين هو أن الخروج إلى الوجود من خلال الكلمة الصادقة هو خيرٌ. وينطبق هذا حتّى على الإنسان ذاته قبل انفصاله عن الربّ. ويضطرب هذا الخير بشدّة بسبب أحداث هبوط آدم من الجنة (وقصة قابيل وهابيل، والفيضان، وبرج بابل)، لكننا نحتفظ بتلميح عن مرحلة ما قبل

الهبوط. أي إننا نتذكّر، إذا جاز التعبير. إننا نظلّ نتوق إلى الأبد لبراءة الطفولة، وللكينونة الحيوانيّة اللاواعية، وللغابة القديمة البكر المقدّسة؛ ونجد الراحة في هذه الأشياء. إننا نقدِّسها، حتى لو أعلنا أننا مناصرون للبيئة ملحدون ومن أشد المعادين للإنسان. والحالة الأصلية للطبيعة –وفق هذا الإدراك– هي حالة فردوسية؛ لكننا لم نعد متوحِّدين مع الله والطبيعة، وما من سبيل سهل للعودة.

لم يبدُ الرجل والمرأة الأصليان –اللذان كانا في حالة وحدة غير منقطعة مع خالقهما– واعيين (ولم يكونا قلقين أو خجولين بالتأكيد)؛ إذ لم تكن أعينهما مفتوحة. لكنهما –برغم هذا الكمال– كانا أيضًا أدنى مكانة، وليس أعلى، مما أصبحا عليه بعد هبوطهما من الجنة. كان الخير شيئًا مُنِح لهما ولم يكن مكتسبًا أو مُستحِقًّا؛ فلم يكن لهما أي خيار. والله يعلم أن هذا أسهل. لكنه ربما ليس أفضل من الخير المُكتَسَب عن جدارة حقيقيّة، على سبيل المثال. ربما كان الاختيار الحرّ مهمًّا، حتى على مستوًى كونيٍّ (على افتراض أن الوعي نفسه ظاهرة ذات أهمية كونية). ومن ذا الذي يمكنه التحدّث بيقين عن مثل هذه الأمور؟ إلا أنني لن أستبعد هذه الأسئلة من نطاق المناقشة لمجرّد كونها أسئلة صعبة. لذا إليكم اقتراح: ربما لم يكن

انبثاق الوعي الذاتي، وبزوغ معرفتنا الأخلاقية بالموت، وهبوط أبوينا من الجنة، هو ما يقلقنا ويجعلنا نشكّ في قيمتنا؛ بل ربما كان عدم استعدادنا للسير مع الله – المنعكس في اختباء آدم خجلًا– رغم هشاشتنا وميلنا للشر، هو مصدر القلق والشكّ.

لقد كُتِبَ الكتاب المقدس بالكامل بحيث يُعرض كل شيء بعد الهبوط من الجنة –تاريخ إسرائيل، والأنبياء، ومجيء المسيح– على أنه علاج لذلك الهبوط، أو سبيل للبعد عن الشر. إن بداية التاريخ الواعي، وبزوغ فكرة الدولة– وكل ما يتعلّق بها من أمراض الفخر والقسوة– وظهور شخصيات أخلاقية عظيمة تحاول إعادة الأمور إلى نصابها، وعلى رأسها المسيح بذاته؛ كل ذلك جزء من محاولة البشرية تقويم ذاتها، بمشيئة الله. وما الذي يعنيه هذا؟

المدهش في الأمر بحق أن الإجابة مذكورة ضمنيًّا بالفعل في الإصحاح الأول من سفر التكوين، وهي: تجسيد صورة الله؛ إخراج « الكينونة» «الخيّرة» من رحم الفوضى – ولكن مع فعل ذلك بوعيٍ، وباختيارٍ حرٍّ.

العودة هي السبيل للمضيّ قدمًا – كما يؤكد تِ. س. إليوت مصيبًا فيما ذهب إليه– لكن يجب عيلنا العودة ككائنات واعية، تمارس الخيار الصحيح للكائنات الواعية، وليس العودة إلى النوم:

لن نكفَّ عن الاستكشاف
وستكون غاية تقصّينا كلّه
أن نصل المكان الذي منه انطلقنا
وأن نعرفه للمرة الأولى.
عبر البوابة المجهولة، المتذكّرة
عندما آخر ما تبقى من الأرض لنكتشفه
هو ذاك الذي كان البداية؛
عند منبع النهر الأطول
صوت الشلال الخبيء،
والأطفال في شجرة التفاح
لا نعرفهم، لأننا لم نفتش عنهم
لكننا نسمعهم، نسمعهم نصف سمع، فى السكينة
بين موجتين من أمواج البحر.
اسمعوا الآن، هنا، الآن، على الدوام –

حالة بساطة تامّة
(تكلّف كلّ شيء)
وكلّ الأشياء ستؤول للخير
وكلّ الأشياء على أنواعها ستؤول للخير
حين تنضم ألسنة اللهيب معًا
فى عقدة النار المتوّجة
والنار والوردة تتّحدان.

(«ليتل جيدينج»، «رباعيات أربع»، 1943).
ترجمة توفيق صايغ؛ بتصرّفٍ بسيطٍ من المترجم.

فإذا كنّا نريد العناية بأنفسنا على نحوٍ ملائمٍ، فسيكون علينا أن نحترم أنفسنا؛ لكننا لا نفعل ذلك لأننا –في نظر أنفسنا– مخلوقات آثمة. ولو أننا عشنا بـ«الحقّ»؛ وتحدّثنا بـ«الحق»؛ فيمكننا حينها السير مع الله مرة أخرى، واحترام أنفسنا، والآخرين، والعالم. حينها يمكننا معاملة أنفسنا كأناسٍ نهتمّ لأمرهم. يمكننا أن نناضل لإصلاح العالم. يمكننا أن نوجِّهه نحو «الجنّة»،

التي نحبّ أن يسكنها الأشخاص الذين نهتمّ لأمرهم، بدلًا من توجيهه نحو «الجحيم»، الذي سيلقي بنا جميعًا فيه إلى الأبد غضبنا وكراهيتنا.

في المناطق التي ظهرت فيها المسيحيّة منذ ألفي عام، كان الناس أكثر همجية بكثير مما هم عليه اليوم. كانت النزاعات في كلِّ مكانٍ. كانت التضحية بالبشر –ومن بينهم الأطفال– حدثًا شائعًا، حتى في المجتمعات المتطوّرة تقنيًا، مثل قرطاج القديمة(59). ففي روما، كانت رياضات الحلبات عبارة عن منافسات حتى الموت، وكان سفك الدماء شائعًا. أما احتمالات أن يرتكب شخصٌ ما في العصر الحديث جريمة قتل أو يتعرّض للقتل –في بلد ديمقراطي فعال– فهي احتمالات متناهية الصِّغر، مقارنة بما كان عليه الحال في مجتمعات الماضي (ولا يزال عليه حتى الآن في الأجزاء الفوضوية وغير المنظمة من العالم) (60). في تلك العصور القديمة، كانت المسألة الأخلاقيّة الرئيسيّة التي تواجه المجتمع هي السيطرة على الأنانيّة العنيفة المتهوّرة، والجشع الطائش والوحشيّة المصاحبة له. ولا يزال يوجد بشر لديهم هذه النزعات العدوانيّة؛ لكنهم على الأقل يعلمون الآن أن مثل هذه السلوكيات هي سلوكيات سيّئة ودنيئة، وإما يحاولون السيطرة عليها أو يواجهون عقبات اجتماعية كبرى إن لم يفعلوا.

لكن الآن أيضًا برزت مشكلة أخرى ربما كانت أقل شيوعًا في ماضينا الأكثر قسوة. فمن السّهل تصديق أن الناس متعجرفون، ومغرورون، ودائمًا ما يفكّرون في مصلحتهم فقط. والتشاؤم الذي يجعل من هذا الرأي حقيقة بديهيّة كونيّة شائع ومنتشر بين الناس. لكن مثل هذه الرؤية للعالم ليست بارزة للغاية لدى الكثيرين من الناس؛ فهم لديهم مشكلة معاكسة هي مشكلة حمل أعباء لا تطاق من الاشمئزاز من الذات، وازدراء الذات، والخزي، والقلق. لذا، فبدلًا من تضخيم أهمّيتهم بنرجسيّة، فإنهم لا يعطون أنفسهم أي قيمة على الإطلاق، ولا يعتنون بأنفسهم باهتمامٍ. ويبدو لي أن الناس غالبًا لا يعتقدون حقًا بأنهم يستحقّون أفضل عناية، من جانب أنفسهم. إنهم واعون على نحو مؤلم لأخطائهم وزلّاتهم، سواء أكانت حقيقية أو مبالغ فيها، وهم خجلون ومتشكّكون في قيمة ذاتهم. إنهم يعتقدون بأن الآخرين يجب ألا يعانوا، ويعملون بكدٍّ وإيثار لمساعدتهم على تخفيف معاناتهم. وهم يفعلون الشيء نفسه حتى مع الحيوانات التي يعتنون بها؛ لكنهم لا يفعلونه مع أنفسهم بسهولة.

صحيح أن فكرة التضحية الفاضلة بالذات متجذِّرة بعمق في الثقافة الغربية (على الأقل بقدر تأثّر الغرب بالمسيحيّة، وهو التأثّر القائم على تقليد إنسان جسَّد عمليًا أسمى معاني التضحية بالذات). لذا فإن أي ادعاء بأن «القاعدة الذهبية»(17) لا تعني التضحية بذاتك من أجل الآخرين قد يبدو مريبًا ومثيرًا للشكوك. لكن موت المسيح الأوّلي هو مثال على كيفية قبول المحدوديّة، والخيانة، والاستبداد على نحو بطولي - كيفية السير مع الله برغم مأساة معرفة المرء بخجله وقلقه- وليس حثًّا على التضحية بأنفسنا من أجل الآخرين. التضحية بأنفسنا في سبيل الله (أو في سبيل الخير الأسمى، إن شئت أن تسمّيه كذلك) لا تعني أن نعاني في صمت، وعن طيب خاطر، عندما يطالبنا شخص أو جهة على الدوام بتقديم ما هو أكثر مما يمنحنا إياه بالمقابل. هذا يعني أننا ندعم الاستبداد، ونسمح لأنفسنا بأن نُعامَل معاملة العبيد. ليس من الفضيلة أن يكون المرء ضحيّة لمتنمِّر؛ حتى لو كان ذلك المتنمِّر هو ذاته.

لقد تعلّمت درسين مهمّين من كارل يونج - عالم النفس السويسري الشهير- عن «معاملة الآخرين كما تحب أن يعاملوك»، أو «أحبب جارك كما تحبّ نفسك». الدرس الأول هو أن كلتا هاتين العبارتين لا علاقة لها

بكون المرء لطيفًا في التعامل. والدرس الثاني هو أن كلتا العبارتين عبارة عن معادلة، وليس أمرًا. فلو أنني كنتُ صديقًا لأحدهم، أو فردًا في عائلة، أو محبًّا عاشقًا، فإنني مُلزَم أخلاقيًّا بأن أبذل من ناحيتي بقدر ما يبذل الطرف الآخر من ناحيته من جهد في العلاقة. وإذا لم أفعل ذلك، فسينتهي بي الحال عبدًا وسيصبح الآخر مستبدًّا. وما الخير المرجو من هذا؟ من الأفضل كثيرًا لأي علاقة أن يكون كلا طرفيها قويّين. وعلاوة على ذلك، فليس ثمة فارق يُذكر بين دفاعك عن ذاتك – في حالة التعرّض للتنمّر، أو العذاب والاستعباد بأي صورة– وبين الدفاع عن شخص آخر. فكما يشير يونج، فإن هذا يعني أن تتقبّل وتحبّ الشخص المذنب الذي هو أنت، بقدر مسامحتك ومساعدتك لشخص آخر متردّد وضعيف وغير مثالي.

وكما يقول الرب ذاته (بحسب القصة): «لِيَ النَّقْمَةُ أَنَا أُجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ»(18). ووفقًا لهذه الفلسفة، فإنك لا تنتمي لذاتك فقط. أنت لست ملك نفسك لتعذّب ذاتك وتسيء معاملتها. يعود ذلك جزئيًّا إلى أن «كينونتك» مرتبطة ارتباطًا لا انفصام له بكينونات الآخرين، وسوء معاملتك لذاتك يمكن أن تكون له عواقب وخيمة على الآخرين. ربما كان هذا أوضح ما يكون في أعقاب حادث انتحار، عندما يُترك أحباء المنتحر في حالة من

الحزن والصدمة في أغلب الأحيان. لكن، بصورة مجازية، هناك أيضًا هذا: ثمة شرارة إلهية فيك، وهي ليست ملكًا لك وإنما هي ملك لله. فعلى أية حال –وطبقًا لسِفر التكوين– لقد خُلِقنا على صورته. إن لدينا القدرة شبه الإلهية على الوعي. ويشارك وعينا في التحدّث عن «الكينونة». فنحن نسخ (مفرغة) قليلة الجودة من الله. يمكننا خلق النظام من الفوضى –والعكس– بطريقتنا، وبكلمتنا. لذا فإننا ربما لم نكن آلهة حقًّا بمعنى الكلمة، لكننا أيضًا لسنا نكرات لا قيمة لها.

في أحلك فترات الظلمة التي عشتها –في العالم السفلي للروح– كثيرًا ما كنت أجد نفسي مندهشًا وغير مستوعب لقدرة البشر على مصادقة بعضهم بعضًا، وعلى حب شركاء حياتهم، وآبائهم، وأطفالهم، وقدرتهم على فعل ما ينبغي عليهم فعله لكي يستمر العالم. عرفتُ رجلًا أصيب في حادث سيارة وأصبح عاجزًا، وكان يعمل في مرفق عمومي. وطيلة سنوات بعد الحادث، كان يعمل جنبًا إلى جنب مع رجل آخر يعاني من مرض عصبي تنكسي. كانا يتعاونان معًا على إصلاح الخطوط، فيعوّض كل منهما نقص الآخر. وإنني لأظن أن هذا النوع من البطولات اليومية العاديّة هو القاعدة وليس الاستثناء. يعاني أغلب الناس من مشكلة صحيّة خطيرة أو أكثر بينما

ينجزون أعمالهم على نحو مثمر وبلا تذمّر. وإذا كان ثمة شخص محظوظ بما يكفي ليكون في فترة نادرة يتمتّع فيها بالنّعم والصّحّة هو نفسه، فعادة ما يكون فرد من أفراد عائلته، على الأقل، يمرّ بأزمة. إلا أن الناس ينتصرون على هذه الأزمات ويستمرون في إنجاز مهمات صعبة ومثمرة للإبقاء على تماسك أنفسهم، وعائلاتهم، ومجتمعاتهم. ومن وجهة نظري، هذا أمرٌ إعجازي؛ بحيث إن الردّ الوحيد المناسب عليه هو العرفان الشديد بالفضل. ثمة الكثير جدًّا من الطرق التي يمكن أن تفشل بها الأمور، أو تنهار تمامًا، ودائمًا ما يكون أناس متألمين مجروحين هم من يمنعون حدوث هذا. وإنهم لجديرون بإعجاب حقيقي صادق من أجل ذلك. إنها معجزة مستمرّة من الجلد والمثابرة.

خلال ممارستي السريريّة، أشجع الناس أن يعزوا الفضل لأنفسهم ولمن حولهم عند التصرّف على نحو مثمر وبعناية، وكذلك عند الاهتمام والاكتراث الحقيقيين تجاه الآخرين. يتعذّب الناس بحدود وقيود «كينونتهم» إلى درجة أنني أندهش في أي وقت أراهم فيه يتصرّفون على نحو صحيح أو يهتمون لأمر غيرهم. لكنَّ عددًا كافيًا من الناس يفعلون ذلك بحيث أصبح لدينا تدفئة مركزية، ومياه جارية، وطاقة حوسبية لا حدَّ لها، وكهرباء، وغذاء

يكفي الجميع، وحتى القدرة على التأمّل في مصير المجتمع الأكبر، والطبيعة؛ الطبيعة المروعة ذاتها. كل هذه الآلات المعقّدة التي تقينا البرد، والجوع، والموت من قلة المياه، تتعطّل دائمًا من خلال الإنتروبيا، ولذا فإن الانتباه الدائم لأناس يقظين ومتنبّهين هو ما يبقيها تعمل جيدًا إلى حد لا يُصدّق. بعض الناس ينزلقون إلى جحيم الغضب والكراهية للكينونة، لكن غالب الناس يرفضون ذلك، رغم معاناتهم، وخيبة أملهم، وخسائرهم، وعيوبهم، وقبحهم، ومرّة أخرى، فإن هذه معجزة لمن كانت له عينان ليراها.

إن البشرية، جمعاء –وأولئك البشر الذين تتكوّن منهم بوصفهم أفرادًا متمايزين– تستحق قدرًا من التعاطف من أجل العبء المروع الذي يرزح تحت وطأته حقًّا كل إنسان؛ قدرًا من التعاطف من أجل خضوعنا للفناء، والاستبداد السياسي، والطبيعة. إنه موقف وجودي لا يواجهه أو يتحمّله أي حيوان، وهو موقف من الثقل بحيث إنه يحتاج إلى إله لكي ينهض بعبء تحمّله على نحو كامل. وهذا التعاطف يجب أن يكون هو العلاج المناسب للازدراء الواعي للذات، الذي له ما يبرره، ولكنه لا يمثّل سوى نصف القصّة الكاملة الصحيحة. يجب موازنة كراهية الذات وكراهية البشرية بواسطة

الامتنان لما ينجزه الناس العاديون كلَّ يوم؛ ناهيك عن الإنجازات المذهلة للأشخاص الاستثنائيين بحقّ.

نحن نستحقّ بعض الاحترام. أنت تستحقّ بعض الاحترام. أنت مهمٌّ للآخرين بقدر ما أنت مهمٌّ لذاتك. لديك دور مهمٌّ لتلعبه في المصير الذي سيؤول إليه العالم. لذا فأنت ملزم أخلاقيًّا بأن تعتني بذاتك. ينبغي أن تهتمَّ بنفسك، وتساعدها، وتُحسن إليها، بنفس الطريقة التي تهتمّ بها بشخصّ تحبّه وتقدّره، وبنفس الطّريقة التي تساعده وتُحسن إليه بها. لذا ربما يجب عليك أن تعتاد على معاملة نفسك بطريقة تخوّلك قدرًا من الاحترام لكينونتك. لكن كل إنسان هو شخص معيب إلى حدٍّ كبيرٍ. الجميع يفشلون في تحقيق مجد الرّب. ولكن إذا كانت هذه الحقيقة الصادمة تعني أننا لا نتحمّل مسؤولية الاهتمام بأنفسنا بقدر الاهتمام بالآخرين، فإن الجميع سيُعاقبون بقسوة طيلة الوقت. ولن يكون هذا أمرًا جيدًا؛ فمن شأنه أن يجعل نقاط ضعف وقصور العالم –التي يمكن أن تدفع كل من يفكِّر بصدقٍ إلى التشكيك في مدى صلاحية العالم للعيش– أسوأ بكل الطرق الممكنة. وببساطة، لا يمكن أن يكون هذا هو أفضل طريق للمضي قدمًا في الحياة.

وبدلًا من ذلك، فإن معاملة نفسك كما تعامل شخصًا أنت مسؤول عن مساعدته تعني أن تتفكّر فيما سيكون مفيدًا لك بحقّ. ولا يعني هذا «ما تريد»، كما أنه لا يعني «ما يجعلك سعيدًا». ففي كل مرّة تعطي فيها طفلًا بعض الحلوى، فأنت تجعله سعيدًا؛ ولكن هذا لا يعني أنه ليس عليك أن تفعل شيئًا للأطفال سوى أن تعطيهم الحلوى. فالسعادة ليست مرادفًا لـ«الخير»، أو «الفائدة» بأي حال من الأحوال. فعليك أن تجعل الأطفال يفرشون أسنانهم؛ ولا بد وأن يرتدوا سترات التدفئة عند الخروج في الجو البارد، برغم أنهم قد يعترضون بعنف. ويجب أن تساعد الطفل على أن يصبح فردًا يتمتّع بالفضيلة، والمسؤولية، والإدراك، وقادرًا على التعاون والمعاملة بالمثل بشكلٍ كاملٍ؛ قادرًا على العناية بنفسه وبالآخرين، وقادرًا على تحقيق النجاح أثناء قيامه بذلك. فلماذا تظن أن من المقبول أن تفعل ما هو أقلّ من هذا لنفسك؟

عليك أن تفكّر في المستقبل وتقول: «ما الذي قد تكون عليه حياتي لو أنني كنتُ أعتني بنفسي جيّدًا؟ ما هي المهنة التي كانت ستمثّل لي تحدّيًا وتجعلني شخصًا منتجًا ومفيدًا، حتى يتسنّى لي أن أحمل نصيبي من العبء

وأستمتع بالنتائج؟ ما الذي يجب عليّ فعله، عندما أمتلك بعض الحرية، من أجل تحسين صحتي، وتوسيع معارفي، وتقوية جسدي؟». عليك أن تعرف أين تقف، حتى تتمكّن من تخطيط مسارك. عليك أن تدرك من أنت، حتى تدرك ما تملك من أسلحة وتدعم نفسك في مواجهة أوجه قصورك. عليك أن تعرف إلى أين تذهب، حتى تتمكّن من تحجيم الفوضى في حياتك، وإعادة بناء النظام فيها، والاستعانة بقوّة «الأمل» الإلهية على مواجهة العالم.

يجب عليك أن تحدِّد إلى أين تذهب، حتى يمكنك أن تساوم على ما هو أنسب لك، لكي لا ينتهي بك الحال إلى الشعور بالغضب، والاستياء، والحقد، والقسوة. عليك أن تعبّر بوضوحٍ عن مبادئك، حتى تتمكّن من الدفاع عن نفسك ضد من يحاولون استغلالك من دون وجه حقٍّ، وحتى تصبح آمنًا مطمئنًا في جِدك ولعبك. عليك تهذيب نفسك بعناية. عليك أن تفي بالوعود التي تقطعها لنفسك، وأن تكافئ نفسك، حتى يمكنك أن تثق بها وتحفّزها. عليك أن تحدّد كيفية معاملتك لنفسك، حتى تزداد احتمالات أن تكون شخصًا طيّبًا صالحًا، وأن تظلّ كذلك. سيكون من الجميل أن تجعل العالم مكانًا أفضل؛ فالجنة، على كل حال، لن تنبثق من تلقاء ذاتها. وعلينا أن نكدّ في العمل لكي تتجسّد لنا واقعًا، وأن نقوّي ذاتنا حتى يمكننا

مواجهة الملائكة المهلكة وسيف القضاء المشتعل التي وضعها الله لحراسة جنته.

لا تستخف بقيمة الرؤية والوجهة؛ فهاتان قوّتان لا يمكن مقاومتهما، وهما قادرتان على تحويل ما قد يبدو لنا أنها عقبات لا يمكن تجاوزها إلى سُبل يمكن عبورها وفرص متزايدة. امنح القوّة للفرد؛ وابدأ بنفسك. اعتنِ بنفسك. حدّد من أنت. وحسّن من شخصيتك. اختر مصيرك، وأفصح عن «كينونتك». أو كما قال فيلسوف القرن التاسع عشر الألماني العظيم، فريدريك نيتشه، بألمعية شديدة: «من كان لحياته غاية يمكنه احتمال أي وسيلة»(61).

يمكنك المساعدة في توجيه مسار العالم، المائل، ليقترب أكثر قليلًا من الجنة، ويبتعد أكثر قليلًا عن الجحيم. وبمجرد أن تدرك ماهيّة الجحيم، وتبحث في ذلك، إن جاز التعبير –ولا سيما جحيمك الفردي الخاص– يمكنك أن تقرر عدم الذهاب إليه، أو عدم المشاركة في خلقه. يمكنك اختيار هدف آخر. ويمكنك –في واقع الأمر– أن تكرِّس حياتك لهذا.

وهذا من شأنه أن يعطي لحياتك «معنى» حقيقيًا؛ أن يسوّغ وجودك البائس؛ أن يكفر عن طبيعتك الخاطئة ويُحلّ الكرامة الطبيعية والثقة الواضحة التي يتّسم بها شخص تعلَّم من جديد كيف يسير مع الله في جنّة عدن محل خزيك، وخجلك، وقلقك.

يمكنك أن تبدأ في معاملة نفسك كما تعامل شخصًا أنت مسؤول عن مساعدته.

القاعدة 3

صادق منْ يتمنّون لك الأفضل

بلدة النشأة القديمة

كانت البلدة التي نشأت فيها قد تكوّنت قبل خمسين عامًا فقط في البراري الشمالية المسطّحة اللامتناهية. كانت بلدة فيرفيو، التابعة لمقاطعة ألبرتا(19)، جزءًا من الحدود مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكان فيها من حانات رعاة البقر ما يثبت هذا. كان متجر شركة «هدسون باي كو» في شارعِ مين لا يزال يشتري فراء القنادس، والذئاب، والقيوط، مباشرة من الصيادين المحلّيين. وكان يعيش في البلدة ثلاثة آلاف شخص، وكانت تبعد أربعمائة ميل عن أقرب مدينة. لم يكن ثمة وجود لتليفزيون الكابل، أو ألعاب الفيديو، أو شبكة الإنترنت. ولم يكن من السهل أن يسلّي المرء نفسه على نحو مشروع في بلدة فيرفيو، لا سيما خلال شهور الشتاء الخمسة، حيث كان من المعتاد أن تقلّ درجات الحرارة عن أربعين درجة مئوية تحت الصفر خلال النهار، وأقل من ذلك في الليل.

يكون العالم مختلفًا حين يكون باردًا إلى هذا الحد. كان السكارى في بلدتنا ينهون حياتهم البائسة مبكّرًا؛ إذ كانوا يفقدون الوعي وسط أكوام الثلج في الثالثة صباحًا ويتجمّدون حتى الموت. لا يستطيع المرء الخروج من بيته بشكل عارض عندما تكون درجة الحرارة أربعين تحت الصفر. فمع أول استنشاق للهواء، يقلّص هواء الصحراء الجاف رئتيك، ويتكوّن الجليد فوق أهدابك فتلتصق معًا. ويتجمّد الشعر الطويل المبتل من الاغتسال ثم تقف نهاياته من تلقاء نفسها لاحقًا في بيت دافئ عندما يجف تمامًا ويمتلئ بالشحنات الكهربية كما لو كانت الأشباح هي من يفعل ذلك. ويضع الأطفال ألسنتهم على الألعاب المعدنية في الملاعب مرة واحدة فقط فتلتصق بها. ولا يتصاعد الدخان من مداخن المنازل، بل يتّجه لأسفل وقد دحرته البرودة ليتجمّع كالضباب فوق أسطح المنازل التي كساها الجليد. ويجب أن تظل السيارات موصولة بالكهرباء ليلًا لتظلّ المحركات دافئة بفضل جهاز تسخين، وإلا لن يتدفّق الوقود فيها في الصباح ولن تدور محركاتها؛ وأحيانًا لا تدور على أي حال. حينها تحاول تشغيل المحرك بلا جدوى إلى أن يصدر المشغل صوت خشخشة ثم يصمت تمامًا. بعدها، يجب عليك إزالة البطارية المتجمدة من السيارة، حيث تفكّ المسامير الملولبة بأصابع متيبّسة من البرد الشديد، وتذهب بها إلى المنزل. وتظل

البطارية في المنزل لساعات إلى أن تدفأ بما يكفي لتخزين شحنة كافية. كذلك فإنك لا ترى أيَّ شيء عبر النافذة الخلفية لسيارتك؛ فهي تكتسي بالصقيع بداية من نوفمبر وتظل كذلك حتى مايو. ولا تؤدّي محاولات إزالة الجليد عن النافذة سوى لتبليل مقاعد السيارة من الداخل قبل أن تتجمّد بدورها. في وقت متأخّر من إحدى الليالي بينما كنا ذاهبين لزيارة صديق، جلستُ لمدة ساعتين على طرف مقعد الراكب الأمامي في سيارة دودج تشالنجر موديل **1970** محشورًا قبالة ناقل الحركة ومستخدمًا خرقة من القماش مشبّعة بالفودكا لمسح زجاج السيارة الأمامي من الداخل ليظل السائق قادرًا على الرؤية، لأن سخان السيارة كان قد تعطّل، ولم يكن إيقاف السيارة خيارًا؛ إذ لم يكن ثمة مكان للتوقّف فيه.

وكان الوضع جحيمًا كارثيًا بالنسبة إلى القطط المنزلية. كانت القطط في البلدة لها آذان وذيول قصيرة لأنها فقدت أطراف آذانها وذيولها بسبب قضمة الصقيع. أصبحت تشبه الثعالب القطبية التي تطوّرت لديها هذه الصفات مسبقًا لتتمكّن من التعامل مع البرد القارس. في أحد الأيام، خرج قطنا المنزلي من البيت من دون أن ننتبه. ووجدناه لاحقًا وقد تجمد فراؤه بسرعة والتصق بالأسمنت الصلب البارد لدرجات سلم الباب الخلفي حيث

كان يجلس. فصلنا القط عن الخرسانة بعناية من دون أي أضرار كبيرة؛ باستثناء ما لحق بكبريائه. وكانت قطط فيرفيو أيضًا عرضة لخطر كبير في الشتاء بسبب السيارات، لكن ليس للأسباب التي يمكن أن تجول ببالك. لم يكن الخطر متجسِّدًا في انزلاق السيارات على الطرق الجليدية بحيث تدهس القطط؛ فالقطط الحمقاء وحدها هي التي تموت بهذه الطريقة. بل كان الخطر يتمثّل في السيارات التي أوقفت بعد قيادتها مباشرة. فقد كانت القطط الشاعرة بالبرد الشديد تحاول التسلّق من أسفل السيارة لتستقر بداخل السيارة فوق المحرك الذي لا يزال دافئًا. لكن ماذا لو قرر قائد السيارة استخدامها مرة أخرى قبل أن يبرد المحرك ويرحل القط؟ سأكتفي بالقول إن القطط المنزلية الملتمسة للدفء ومراوح مبرد السيارة سريعة الدوران لا يتعايشان معًا في سلام.

ونظرًا لأننا كنا في أقاصي الشمال، فقد كانت فصول الشتاء القارس مظلمة جدًّا أيضًا. فبحلول شهر ديسمبر، لم تكن الشمس تشرق قبل التاسعة والنصف صباحًا. وكنا نذهب إلى المدارس في الظلام الدامس. ولم يكن الظلام أقل في طريق عودتنا إلى منازلنا قُبَيل غروب الشمس المبكر. لم يكن هناك الكثير مما يمكن للشباب أن يفعلوه في فيرفيو، ولا حتى في

الصيف. لكن الشتاء كان أسوأ. وحينها، كان الأصدقاء أهم من أي شيء آخر.

صديقي كريس وابن عمه

كان لي صديق في ذلك الوقت. دعونا نسميه كريس. كان فتًى ذكيًّا. كان يقرأ كثيرًا؛ ويحب الخيال العلمي من النوعِ الذي كان يجتذبني (لمؤلفين مثل راي برادبري، وروبرت هاينلاين، وآرثر سِ. كلارك). كما كان يحب الابتكار، وكان مهتمًا بالأدوات الإلكترونية، والمواتير، والتروس. كان مهندسًا بالفطرة. إلا أن كل ذلك دفنته مشكلة حدثت داخل العائلة. لا أعلم ماذا كانت تلك المشكلة بالضبط. كانت شقيقاته فتيات ذكيات، وكان والده معسول اللسان، وكانت والدته طيّبة. بدت الفتيات على ما يرام. لكن كريس تعرّض للتجاهل في جانب مهمٍّ. وعلى الرغم من ذكائه وحب استطلاعه، كان غاضبًا، ناقمًا، فاقدًا للأمل.

تجسّد كل ذلك بصورة مادّية في شاحنته الفورد الزرقاء الصغيرة موديل 1972. كانت تلك الشاحنة سيّئة السمعة بها انبعاجٌ واحدٌ على الأقل في كل جزء من أجزاء جسمها الخارجي الخرب. والأسوأ من ذلك أنه كان بها عددٌ مساوٍ من الانبعاجات من الداخل. كانت تلك الانبعاجات ناتجة عن ارتطام أجزاء من أجساد أصدقائه بالأسطح الداخلية للسيارة أثناء الحوادث المستمرة التي أدت للانبعاجات الخارجية. كانت شاحنة كريس هي الهيكل الخارجي لشخص عدمي. كان لها الملصق المثالي لممتصّ الصدمات؛ إذ كان يقول: «كن يقظًا؛ العالم يحتاج المزيد من اليقظين». كانت المفارقة الناتجة عن التناقض بين ما يقوله الملصق وبين انبعاجات السيارة تؤهّلها بامتياز لمسرح العبث. ولم يكن الكثير من هذا من قبيل الصدفة.

كان والد كريس يصلح الشاحنة في كل مرّة تتعرّض فيها لحادث، ويشتري لابنه شيئًا آخر. فكان كريس يمتلك دراجة نارية وعربة لبيع الآيس كريم، ولكنه لم يكن يبالي بدراجته، ولم يبع أي آيس كريم. وكثيرًا ما كان يعبّر عن سخطه تجاه والده وعلاقتهما. لكن والده كان عجوزًا ومعتلّ الصحة، ولم تُشخَّص إصابته بالمرض إلا بعد سنين عدّة. لم يكن يمتلك الطاقة التي كان

يجب أن يمتلكها. ربما لم يستطع أن يولي ابنه الانتباه الكافي. وربما كان هذا هو كل ما يتطلّبه الأمر لإحداث شرخ في علاقتهما.

كان لكريس ابن عم يدعى إيد وكان يصغره بعامين. كنت أحب إيد بقدر ما يمكن للمرء أن يحب ابن العم الأصغر لصديقه المراهق. كان صبيًّا طويلًا، وذكيًّا، ولطيفًا، ووسيمًا. وكان سريع البديهة كذلك. كان يمكن أن تتنبّأ له بمستقبل جيّد لو أنك التقيته وهو في الثانية عشرة من عمره. لكن إيد تدهورت أحواله ببطء، حيث ترك التعليم ليعيش كمشرّدٍ هائمٍ بلا هدف. لم يكن غاضبًا مثل كريس، لكنه كان مشوّشًا مثله بالضبط. ولو أنك كنت تعرف أصدقاء إيد، فلربما اعتقدت بأن ضغط الأقران هو ما جعله يسلك طريق الانحدار. لكن أقرانه لم يبد واضحًا أنهم أكثر ضياعًا أو إهمالًا منه، رغم أنهم بشكل عام كانوا أقل منه ذكاءً. وبالطبع لم يتحسّن موقف إيد – أو كريس– بعد اكتشافهما للماريجوانا. والماريجوانا ليست مضرّة أكثر من الكحول؛ بل يبدو أحيانًا أنها تجعل الناس أفضل. لكنها لم تجعل إيد أفضل؛ ولم تجعل كريس أفضل أيضًا.

لكي نسلّي أنفسنا في ليالي الشتاء الطويلة، كنا نقود أنا وكريس وإيد وبقية المراهقين سياراتنا وشاحناتنا الصغيرة موديل السبعينيات في جميع الأنحاء مرارًا وتكرارًا. كنا نقود في شارع مين، وعلى طول جادّة السكك الحديدية، وصولًا إلى ما بعد المدرسة العليا، وحول الطرف الشمالي للبلدة، ثم إلى الغرب –أو في شارع مين، وحول الطرف الشمالي للبلدة ثم إلى الشرق– ونكرّر هذا بلا توقّف. وإذا لم نقد سياراتنا في البلدة، كنا نقودها في الريف. كان مساحو الأراضي قد أسسوا شبكة طرق واسعة على مساحة ثلاثمائة ألف ميل مربع من البراري الغربية الشاسعة قبل قرن مضى. فكل ميلين شمالًا، كان ثمة طريقٌ مفروش بالحصى يمتد إلى ما لا نهاية من الشرق إلى الغرب. وفي كل ميلٍ غربًا، كان ثمة طريق آخر يمتدّ من الشمال إلى الجنوب. لم يكن ثمة نقصٌ في الطرق أبدًا.

أرض المراهقة القاحلة

وإذا لم نكن ندور في أنحاء البلدة والريف، كنا نحضر الحفلات. كان بعض الكبار البالغين نسبيًا (أو بعض البالغين المخيفين الأكبر نسبيًا)

يفتحون بيوتهم للأصدقاء. حينها كان المنزل يتحوّل مؤقتًا إلى بيت لكل أنواع متطفّلي الحفلات، وكان كثيرون من هؤلاء غير مرغوب فيهم بحقّ منذ البداية، أو يصبحون غير مرغوب فيهم بسرعة بعد ذلك حين يشربون الكحوليات. كذلك كانت تُقَام حفلات عابرة بالصدفة حين يترك البلدة والدا أحد المراهقين جاهلين بما سيحدث. حينها كان المتسكّعون في السيارات أو الشاحنات التي تدور دائمًا في أرجاء البلدة يلاحظون أن أضواء المنزل منارة لكن سيارة العائلة غير موجودة. لم يكن هذا جيّدًا على الإطلاق؛ إذ كانت الأمور يمكن أن تخرج تمامًا عن نطاق السيطرة.

لم أحب حفلات المراهقين؛ ولا أتذكّرها بأي قدر من الحنين. لقد كانت كئيبة وقابضة للصدر. كانت الأضواء تبقى خافتة، وكان هذا يجعل الوعي الخجول بالذّات في أدنى درجاته. وكانت الموسيقى الصاخبة تجعل المحادثات مستحيلة؛ ولم يكن ثمة الكثير للتحدّث عنه على أية حال. وكان دائمًا ما يحضر تلك الحفلات بعض مضطربي العقل في البلدة. كان الجميع يدخنون ويشربون أكثر مما ينبغي. وكان ثمة إحساس مروّع وطاغٍ بالضياع يخيم على هذه المناسبات، ولم يكن أي شيء يحدث (إلا إذا أخذنا في الاعتبار المرة التي بدأ فيها زميل الدراسة الهادئ جدًا في التلويح ببندقيته

عيار 12 المحشوّة بالرصاص وهو ثمل، أو المرة التي أهانت فيها الفتاة التي تزوجتها لاحقًا بكل احتقار شخصًا كان يهدّدها بالسكين، أو عندما تسلّق صديق آخر شجرة كبيرة وتأرجح من أحد الفروع وسقط على ظهره ساكنًا بجانب نار المخيم مباشرة عند قاعدة الشجرة، ثم تبعه صديقه المقرب الأحمق بعد دقيقة واحدة بالضبط).

لم يكن أحد يعرف ما الذي يفعله في هذه الحفلات بالضبط. هل كانوا يأملون في ظهور قائدة مشجّعين؟ هل كانوا «في انتظار جودو»(20)، الذي لا يأتي قط؟ وعلى الرغم من أن الخيار الأول كان سيحظى بالتفضيل على الفور (برغم أن فِرَق المشجّعات كانت قليلة في بلدتنا)، فإن الخيار الأخير كان أقرب للحقيقة. وأعتقد أنه كان سيكون من الأكثر رومانسية أن أقول إننا جميعًا كنا سنقدم على اغتنام أي فرصة للقيام بشيء أكثر قيمة بعد أن وصلنا إلى حالة من الملل القاتل. لكن هذا ليس صحيحًا. كنا جميعًا متشائمين، وضجرين من الحياة، وحذرين قبل الأوان من تحمّل مسؤولية الالتزام بالانخراط في أندية المناقشات وطلاب سلاح الجو والرياضات المدرسية التي كان البالغون حولنا يحاولون تنظيمها. لم يكن من الجيّد بالنسبة لنا أن نفعل أي شيء. لا أعرف كيف كانت حياة المراهقين قبل أن

يبدأ ثوريو أواخر عقد الستينيات في توجيه النصح لجميع الشباب بالانسجام مع العالم، والتفتيش في الذات، والاعتماد على الذات. هل كان من الطبيعي لمراهق أن ينتمي لنادٍ ما بكل إخلاص في العام **1955**؟ لأن الحال لم يكن كذلك بكل تأكيد بعد عشرين عامًا من ذلك الوقت. كثيرون منا فتّشوا في أنفسهم واعتمدوا على ذواتهم؛ لكن قليلين هم من انسجموا مع العالم.

كنتُ أريد أن أكون في مكان آخر؛ ولم أكن الوحيد في ذلك. فجميع من تركوا بلدة فيرفيو في نهاية المطاف كانوا قد أدركوا أنهم سيتركونها حين بلغوا سن الثانية عشرة. كنتُ أعرف هذا. وزوجتي –التي نشأت معي في الشارع نفسه الذي تشاركته عائلتانا– كانت تعرف هذا. وكان أصدقائي– من ترك منهم البلدة بالفعل ومن لم يتركها– يعرفون هذا أيضًا، بغض النظر عن المسار الذي كانوا يسلكونه. كان ثمة نبوءة ضمنية وسط عائلات أولئك الذين كان من المقدّر لهم أن يلتحقوا بالجامعة بأن الرحيل آتٍ لا محالة. أما بالنسبة لأولئك الذين نشأوا في عائلات أقل حظًّا في التعليم، فلم يكن المستقبل الذي يتضمّن الالتحاق بالجامعة جزءًا من تصوّراتهم. ولم يكن هذا بسبب نقص المال أيضًا؛ فقد كانت مصاريف التعليم العالي منخفضة

للغاية في ذلك الوقت، وكانت الوظائف في ألبرتا كثيرة ومجزية. لقد جنيت من المال في العام 1980 من العمل في مصنع ألواحٍ خشبيةٍ أكثر مما أمكنني كسبه من أي شيء آخر طوال عشرين عامًا لاحقة. لم يكن هناك من لم يلتحق بالجامعة بسبب الحاجة للمال في مقاطعة ألبرتا الغنيّة بالنفط في سبعينيات القرن العشرين.

بعض الأصدقاء المختلفين والمزيد من المعتاد

في المدرسة العليا، وبعد أن ترك جميع أصدقائي الأوائل المدرسة، صادقت اثنين من الوافدين الجدد على البلدة، كانا قد أتيا إلى فيرفيو كطالبين في مدرسة داخلية. لم يكن ثمة مدارس لما بعد السنة التاسعة في بلدتهم الأبعد، التي تستحق اسمها عن جدارة، وهو « بير كانيون» أو «وادي الدببة». كانا ثنائيًّا طموحًا، نسبيًّا؛ وكانا صريحين وجديرين بالثقة، ولكنهما كانا لطيفين ومسليين جدًّا. وعندما تركتُ البلدة للالتحاق بكلية «جراند بريري ريجينال كوليدج»، الواقعة على بعد 90 ميلًا، أصبح أحدهما رفيقي في الغرفة، بينما انطلق الثاني إلى مكان آخر للسعي وراء المزيد من

التعليم. كان كلاهما طموحَين ويهدفان إلى الارتقاء بحياتهما، وكان قرارهما بفعل ذلك يدعم قراري المماثل.

كنتُ في غاية السّعادة عندما التحقت بالكلية، ووجدتُ مجموعة أخرى أكبر من الأصدقاء ذوي العقليّات المتشابهة، وقد انضم إليها رفيقي أيضًا. كنا جميعًا مفتونين بالأدب والفلسفة. كنا ندير اتحاد الطلاب؛ وجعلناه يدرّ أرباحًا للمرة الأولى في تاريخه عن طريق إقامة حفلات رقص في الكليّة. وهل يمكن أن تخسر المال وأنت تبيع البيرة لطلاب الكلية؟ كذلك أسسنا جريدة، وتعرّفنا على أساتذة العلوم السياسية، والأحياء، والأدب الإنجليزي، في الندوات القصيرة جدًّا التي كانت سمة مميّزة حتى في السنة الأولى. كان الأساتذة ممتنين لحماستنا وعلّمونا جيدًا. لقد كنا نؤسّس حياة أفضل.

تخلّصت من الكثير من ماضيَّ. فعندما تعيش في بلدة صغيرة، يعرف الجميع من أنت. تظلّ تحمل سنوات ماضيك مثل كلب يركض وقد ربطت بذيله عشر علب معدنية. لا يمكنك الهروب من ماضيك. لم يكن كل شيء متاحًا على شبكة الإنترنت حينها، وأحمد الله على ذلك، لكن كل شيء

كان مخزّنًا على نحو دائم أيضًا في ذاكرة الجميع وتوقّعاتهم المعلنة وغير المعلنة.

عندما تترك مسقط رأسك وتنتقل إلى مكان آخر، يكون كل شيء غامضًا ومشكوكًا فيه، لفترة ما على الأقل. هذا أمرٌ يسبب التوتّر والضغط، لكن الاحتمالات الجديدة توجد وسط الفوضى. ولا يستطيع الناس –بمن فيهم أنت نفسك– أن يقيدوك بأفكارهم القديمة؛ فأنت تبتعد عن روتينك المعتاد، ويمكنك أن تصنع روتينًا جديدًا أفضل، مع أناس يهدفون إلى تحقيق أشياء أفضل. كنتُ أظن أن هذا ليس إلا تطوّرًا طبيعيًا. كنت أظن أن كل شخص يترك البلدة يمرّ بنفس التجربة الشبيهة بميلاد العنقاء من الرماد؛ ويرغب في ذلك. لكن لم تكن الحال كذلك دائمًا.

ذات مرّة، حين كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، ذهبت مع كريس وصديق آخر يدعى كارل إلى إدمُنتون، وهي مدينة يسكنها ستمائة ألف نسمة. لم يكن كارل قد ذهب إلى مدينة قبل ذلك؛ ولم يكن هذا أمرًا غريبًا؛ فقد كانت مسافة الرحلة من فيرفيو إلى إدمُنتون ذهابًا وعودة ثمانمائة

ميل. كنت قد قمتُ بها كثيرًا، أحيانًا بصحبة والديَّ، وأحيانًا بدونهما. أحببتُ ما تتيحه المدينة من عدم معرفة الناس بك. أحببتُ البدايات الجديدة. أحببتُ الهروب من ثقافة المراهقة التي تتميّز بالكآبة والمحدودية في بلدتي. لذا، أقنعتُ هذين الصديقين بالقيام بالرحلة. لكنهما لم يمرا بالتجربة ذاتها التي عشتها أنا. فبمجرّد وصولنا إلى المدينة، أراد كريس وكارل شراء بعض الحشيش. توجّهنا إلى أجزاء من إدمُنتون تشبه بالضبط أسوأ أجزاء من فيرفيو، ووجدنا بائعي الماريجوانا نفسهم المتخفّين في الشارع. ثم قضينا نهاية الأسبوع نحتسي الكحوليات في غرفة الفندق. وعلى الرغم من أننا سافرنا مسافة كبيرة، فإننا لم نذهب إلى أي مكان على الإطلاق.

وقد رأيت مثالًا أكثر فظاعة على هذا بعد بضع سنوات. كنتُ قد انتقلت إلى إدمُنتون لإكمال شهادتي الجامعية. استأجرت شقة مع شقيقتي، التي كانت تدرس التمريض. كانت شقيقتي من الشخصيات المحبّة للمغامرة مثلي. (لم تمرّ سنوات كثيرة بعد ذلك حتى كانت شقيقتي تزرع الفراولة في النرويج، وتقوم برحلات سفاري في أفريقيا، وتُهرّب الشاحنات عبر الصحراء الكبرى التي يسيطر عليها الطوارق، وتجالس صغار الغوريلا اليتامى في

الكونجو). كانت لدينا شقة جميلة في برج سكني شاهق يطل على الوادي الواسع لنهر ساسكاتشوان الشمالي. كان يمكننا رؤية خط الأفق في خلفية المشهد. اشتريت –في إحدى نوبات الحماسة– بيانو عمودي من طراز ياماها. بدا المكان رائعًا.

سمعت من أحدهم أن إيد –ابن عم كريس الأصغر– قد انتقل إلى المدينة، وظننتُ أن هذا أمرٌ جيد. وفي أحد الأيام، اتصل بي، ودعوته إلى الحضور إلى منزلنا. كنتُ أود معرفة أحواله، وتمنّيت أن يكون قد حقّق بعض النجاحات بما لديه من الإمكانيات التي رأيتها فيه فيما مضى. لكن لم يكن هذا ما حدث. جاء إيد وقد بدا أكبر سنًا، وأقل شعرًا، وأكثر انحناءً. كان حاله يميل أكثر إلى حال شاب بالغ لا تسير أموره على ما يرام، وأقل تجسيدًا لإمكانيات الشباب. كانت عيناه عبارة عن شقّين أحمرين يشيان بإدمانه للحشيش. كان يعمل في جز الأعشاب، وتنسيق الحدائق بين الحين والآخر، وهي وظيفة مناسبة بدوام جزئي لطالب جامعي أو شخص لم يمكنه العثور على ما هو أفضل، لكنها كانت وظيفة وضيعة إلى حد بائس بالنسبة لشخص ذكيّ مثله.

وكان بصحبته صديق.

كان صديقه هو من أتذكّره حقًّا؛ فقد كان فاقدًا للتركيز، ومنتشيًا تمامًا؛ وغير مدرك لما حوله. لم يكن واعيًا أين هو بالضبط. كانت شقيقتي موجودة. كانت تعرف إيد، وكانت قد رأت مثل هذه الأمور من قبل. إلا أنني ظللتُ مستاءً من إحضار إيد مثل هذا الشخص إلى منزلنا. جلس إيد، وجلس صديقه أيضًا؛ رغم أنه لم يكن واضحًا أنه لاحظ هذا. كان الأمر أشبه بكوميديا تراجيدية. ورغم أن إيد كان منتشيًا، فقد ظل يمتلك القدرة على الشعور بالإحراج. ارتشفنا البيرة، ونظر صديق إيد لأعلى، وأفلح في أن يتحدّث قائلًا: «جزيئاتي مبعثرة في جميع أنحاء السقف». وكانت هذه من أصدق الكلمات التي سمعتها على الإطلاق.

انتحيت بإيد جانبًا وقلت له بأدب إنه يجب عليه الرحيل، وأخبرته أنه ما كان يجب أن يحضر معه ذلك الوغد عديم الجدوى. أومأ برأسه موافقًا وقد فهم. وهذا جعل الأمور أسوأ؛ فقد أرسل لي ابن عمه الأكبر، كريس، رسالة مفكّكة بعد ذلك بمدة كبيرة يتحدّث فيها عن هذا الأمر. وقد ضمنت تلك الرسالة في أول كتاب لي، والذي حمل عنوان « خرائط المعنى: بنية

الاعتقاد» **Maps of Meaning: The Architecture of Belief**، والذي نُشِر العام 1999، وكان نصّها(62): « كان لدي أصدقاء. فيما مضى. أي شخص يملك ما يكفي من ازدراء الذات بحيث يمكنه مسامحتي».

ما الذي جعل كريس وكارل وإيد غير قادرين على (أو ما هو أسوأ، غير راغبين في) الانتقال، أو تغيير صداقاتهم وتحسين ظروف حياتهم؟ هل كان ما حدث لهم حتميًّا؛ نتيجة لقيودهم، وصدمات وأمراض الماضي؟ فعلى أي حال، الناس يختلفون بشدة، بطرق تبدو بنيوية وحتمية. إن الناس يختلفون في معدلات ذكائهم، والذكاء إلى حد كبير هو القدرة على التعلّم والتغيّر. وللناس شخصيات مختلفة جدًّا أيضًا. فبعضهم إيجابي، وبعضهم الآخر سلبي. بعضهم شديد القلق، والبعض الآخر هادئ. وفي مقابل كل إنسان لديه دافع للإنجاز، ثمة آخر كسول ومتراخٍ. ودرجة كون هذه الاختلافات جزءًا لا يتجزأ من شخصية الإنسان أكبر مما يمكن أن يفترضه أي شخص متفائل أو يرغب فيه. ثم هناك الأمراض، سواء العقلية أو الجسدية، المُشخَّصة أو الخفية، والتي تقيّد حياتنا أكثر، أو تشكّل تلك الحياة.

أصيب كريس بانهيار ذهاني في الثلاثينات من عمره بعد صراع مع الجنون دام لسنوات عدة. ولم يمر وقت طويل بعد ذلك حتى انتحر. فهل لعب استهلاكه المكثف للماريجوانا دورًا كبيرًا، أم إنه كان علاجًا ذاتيًّا مفهومًا لحالته؟ فعلى أي حال، لقد انخفض استهلاك الأدوية الموصوفة بواسطة الطبيب لعلاج الآلام في الولايات الأمريكية التي شرّعت استهلاك الماريجوانا، مثل ولاية كولورادو(63). ربما جعل الحشيش حياة كريس أفضل، وليس العكس. ربما خفّف من معاناته ولم يزد من اضطرابه. هل كانت الفلسفة العدمية التي كان يغذيها هي ما مهد الطريق لانهياره النهائي؟ وهل كانت هذه العدمية بدورها نتيجة لصحة معتلّة بحق، أم مجرد تبرير عقلي لعدم استعداده لخوض الحياة على نحو مسؤول؟ لماذا كان دائمًا – مثل ابن عمه، ومثل أصدقائي الآخرين– يختار أصدقاء وأماكن غير مناسبة له؟

أحيانًا، عندما يكون لدى الناس نظرة دونية لقيمتهم – أو ربما عندما يرفضون تحمّل مسؤولية حياتهم– يختارون معارف جديدة من النوع نفسه الذي سبّب لهم المتاعب في الماضي. هؤلاء الناس لا يعتقدون بأنهم

يستحقّون الأفضل؛ لذا فإنهم لا يبحثون عنه. أطلق فرويد على هذا اسم «التكرار القهري»(21) **repetition compulsion**، واعتبر أنه دافع لا واعٍ لتكرار فظائع الماضي؛ أحيانًا من أجل صياغة تلك الفظائع على نحو أكثر دقة، وأحيانًا أخرى لمحاولة السيطرة عليها بإيجابية أكبر، وأحيانًا لعدم وجود بدائل أخرى. إن الناس يصنعون عالمهم باستخدام الأدوات التي يملكونها في أيديهم مباشرة. والأدوات الخاطئة تؤدّي إلى نتائج خاطئة. والاستخدام المتكرّر للأدوات الخاطئة نفسها يؤدّي إلى النتائج الخاطئة ذاتها. وعلى هذا النحو، فإن أولئك الذين لا يتعلّمون من الماضي يحكمون على أنفسهم بتكراره. إنه القدر جزئيًا؛ والعجز جزئيًا؛ وجزئيًا... تراه يكون عدم الاستعداد للتعلّم؟ رفض التعلّم؟ رفض التعلّم المُستحثّ؟

إنقاذ الملعونين

يختار الناس أصدقاء غير مناسبين لهم لأسباب أخرى أيضًا. فيحدث هذا أحيانًا لأنهم يريدون إنقاذ شخص ما. ويكون هذا مألوفًا أكثر لدى الشباب، رغم أن الدافع ذاته يظلّ موجودًا لدى أناس ممن هم أكبر سنًا، مثل من

يتّسمون بالمودّة الزائدة عن الحدِّ، أو من ظلّوا سذّجًا، أو من اختاروا بإرادتهم أن يكونوا عميانًا. وقد يعترض أحدهم قائلًا: «من الصواب أن نرى الأفضل في الناس؛ فأسمى الفضائل هي الرغبة في مساعدة الآخرين». لكن ليس كل شخص يعيش في الفشل يعتبر ضحية، وليس كل من في القاع يريد أن يترك القاع ويرتقي، رغم أن الكثيرين يريدون هذا، وينجحون فيه. بيد أن الناس كثيرًا ما يتقبّلون أو حتى يضخمون من معاناتهم، وكذلك معاناة الآخرين، إذا كان يمكنهم التلويح بها كدليلٍ على ظلم هذا العالم. يوجد الكثير من الظالمين بين المهمّشين والمضطهَدِين، برغم أن كثيرين منهم – نظرًا إلى مكانتهم المتدنية– مجرّد طغاة زائفين. إنه أسهل طريق يمكن اختياره للعيش، لحظة بلحظة، على الرغم من أنه الجحيم بعينه على المدى الطويل.

تخيل شخصًا لا يبلي بلاء حسنًا في حياته. إنه شخص يحتاج للمساعدة، بل ويرغب في تلقّي المساعدة. لكن من الصعب التمييز بين شخص يريد المساعدة ويحتاجها حقًا وبين شخص يستغل الراغبين في مد يد العون فحسب. التمييز بين الاثنين أمر صعب حتّى بالنسبة للشخص ذاته الذي يحتاج ويريد المساعدة وربما كان مستغَلًا. الشّخص الذي يحاول ويفشل

ويُسَامحه الآخرون، ثم يحاول ويفشل فيسامحونه مرة أخرى، غالبًا ما يكون شخصًا يريد أن يؤمن الجميع بصدق محاولاته تلك.

وعندما لا يتعلّق الأمر بالسذاجة وحدها، غالبًا ما تكون محاولة إنقاذ شخص ما مدفوعة بالخيلاء والنرجسيّة. وقد أشار الأديب الروسي الشهير فيودور دوستويفسكي إلى شيء من هذا القبيل على نحو تفصيلي في روايته الكلاسيكية اللاذعة «مذكرات من العالم السفلي» **Notes from Underground** والتي تبدأ بهذه السطور الشهيرة: «أنا رجل مريض... رجل حقود. رجل قبيح. وأعتقد أن كبدي عليل». إنه اعتراف شخص بائس، مغرور، يعيش في العالم السفلي للفوضى واليأس. يحلّل ذلك الرجل ذاته بلا رحمة، لكنه بهذا يُكفِّر عن مائة خطيئة فقط من خطاياه، رغم أنه ارتكب ألف خطيئة. ومن ثم، وبعد أن تخيّل أنه كفَّر عن ذنوبه، يرتكب أسوأ الخطايا على الإطلاق؛ إذ يمد يد العون إلى شخصيّة تعيسة بحق هي ليزا، وهي امرأة يائسة تسلك طريق البغاء في القرن التاسع عشر. يدعوها الرجل لزيارته، واعدًا إياها بإعادة حياتها إلى المسار الصحيح. وبينما ينتظر حضورها، تبدأ خيالاته تجنح على نحو متزايد نحو تصوّر نفسه كمسيح مخلِّص:

لكن مرّ يوم، وآخر، وآخر؛ ولم تأتِ، وبدأتُ أصبح أكثر هدوءًا. شعرتُ بكثير من الجرأة والبهجة بعد التاسعة؛ بل إنني بدأت أحلم أحيانًا أحلامًا جميلة: فعلى سبيل المثال، حلمت بأني أصبحت أمثِّل الخلاص بالنسبة إلى ليزا، فقط بمجرّد قدومها إليَّ وتحدُّثي معها ببساطة... إنني أطورّ من شخصيتها وأعلِّمها. وفي النهاية، ألاحظ أنها تحبّني، وبشدّة. أتظاهر بأني لا أفهم (رغم أني لا أفهم لماذا أتظاهر بهذا؛ ربما لمجرّد التأثير فيها). وأخيرًا، وبعد أن يسيطر عليها التشوّش، وتتغيّر هيئتها، وترتعد، وتنتحب، ترمي بنفسها عند قدمي وتقول إني مخلِّصها، وأنها تحبُّني أكثر مما تحبُّ أيَّ شيء آخر في العالم.

لا تغذّي هذه الخيالات شيئًا سوى نرجسية رجل العالم السفلي؛ وهي تدمِّر ليزا نفسها. فالخلاص الذي يقدّمه لها يتطلّب من الالتزام والنضج أكثر بكثير مما هو مستعدٌّ لتقديمه، أو قادر على تقديمه لها. إنه ببساطة لا يملك الشخصية اللازمة لتحقيق هذا؛ وهو أمر سرعان ما يدركه هو نفسه، وسرعان ما يبرّره فور إدراكه. تصل ليزا في النهاية إلى شقّته الحقيرة، وهي تمنِّي

النفس بشدة بالخلاص وقد خاطرت بكل ما تملك من أجل هذه الزيارة. تخبر رجل العالم السفلي بأنها ترغب في أن تهجر حياتها الراهنة. فماذا كان ردّه؟

بدأتُ التحدّث بينما ألهث لالتقاط أنفاسي ومن دون ترابط منطقي في كلماتي: «لماذا أتيت إليَّ، أخبريني بهذا، من فضلك؟». كنت أتوق لقول كلِّ شيء مرّة واحدة، دفعة واحدة؛ لم أهتم حتى كيف أبدأ. صحت وأنا لا أكاد أدرك ما أفعله: «لماذا أتيتِ؟ أجيبي. أجيبي». ثم قلت: «سأخبرك لماذا أتيتِ يا فتاتي الطيِّبة. لقد أتيتِ لأنني خاطبتك خطابًا عاطفيًّا رقيقًا حينها. والآن أنتِ ليِّنة المشاعر تتوقين للكلام الرقيق مرة أخرى. لذا من الأفضل أن تعرفي أني كنت أسخر منكِ آنذاك. كما أسخر منكِ الآن. لماذا ترتجفين؟ نعم، كنتُ أسخر منك! لقد تعرّضت للإهانة أثناء العشاء على يد أناس من حضروا قبلي ذلك المساء. أتيتُ لكِ وأنا أنوي أن أتحدّث عن أحدهم بالسوء، وكان ضابطًا؛ لكنّي لم أنجح، لم أعثر عليه؛ كان لا بد من الانتقام لإهانتي بإهانة شخص ما حتى يمكنني استعادة ذاتي مرّة أخرى؛ ثم ظهرتِ أنتِ وعبّرت عن غضبي لكِ مستهزئًا بكِ. لقد تعرّضت للإهانة وأردت أن أهين شخصًا ما. لقد تعرّضت للمعاملة كشخصٍ تافهٍ وأردت أن

أظهر قوّتي. هذا كلّ ما في الأمر، وأنت تخيلتِ أنّي ذهبت إلى هناك عن قصدٍ لكي أنقذك.

أليس كذلك؟ هل تخيّلتِ هذا؟ هل تخيّلتِ هذا؟

كنت أدرك أنها ربما ستكون مرتبكة ولن تستوعب كل هذا على نحو صحيح، لكنّي كنت أعلم أيضًا أنها ستدرك جوهر المسألة جيِّدًا جدًّا. وهذا ما حدث بالفعل. ابيض وجهها كالمنديل، وحاولت أن تقول شيئًا ما، وجاهدت شفتاها بشكلٍ مؤلمٍ؛ لكنّها انهارت على مقعد كما لو كانت قد ضُربت بفأس. وظلّت تستمع إليَّ بعد ذلك بفم فاغر وعينين متّسعتين، وهي ترتجف برعب شديد. لقد سحقتها السخرية في كلماتي...

تحطّمت آمال ليزا الأخيرة على صخرة الاعتداد الزائد بالنفس، واللامبالاة القاسية، والشر المحض الذي يملأ رجل العالم السفلي. وهو يفهم هذا جيِّدًا. والأسوأ من هذا أن شيئًا ما بداخله كان يهدف للوصول إلى هذا طيلة الوقت. وهو يدرك هذا أيضًا. لكن الشّرير الذي يئس من شره لا يصبح بطلًا؛ فالبطولة شيء إيجابي وليست فقط غياب الشّرّ.

ربما تعترض على ذلك قائلًا إن المسيح نفسه كان يصادق جباة الضرائب والبغايا. وكيف أجرؤ أنا على التشكيك في دوافع من يريدون تقديم المساعدة بحقّ؟

لكن المسيح كان هو الرجل المثالي النموذجي؛ وأنت هو أنت. كيف تضمن أن محاولاتك لجعل حياة شخص ما أفضل لن تؤدّي بدلًا من ذلك إلى انحداره –وانحدارك– أكثر لأسفل؟ تخيّل شخصًا يشرف على مجموعة مميّزة من العمال، وجميعهم يسعون لتحقيق هدفٍ جماعيٍّ. تخيّلهم جميعًا يعملون باجتهاد، وبراعة، وإبداع، واتّحاد. لكن المشرف نفسه مسؤول أيضًا عن عامل مضطرب، صاحب أداء ضعيف في فريق آخر. وفي لحظة إلهام، ينقل هذا المدير حسن النيّة ذلك الشخص المزعج وسط الفريق المتميّز، على أمل أن يتحسّن أسوة بزملائه. فماذا يحدث؟ أدبيات علم النفس واضحة تمامًا بشأن هذه النقطة(64). هل يتحسّن حال الدخيل المضطرب على الفور ويتّخذ المسار المناسب؟ كلا. بل يتدهور حال الفريق بأكمله. يظل الوافد الجديد متشائمًا، ومتكبّرًا، وعصابيًّا. يظلّ يشتكي ويتهرّب من العمل. يفوّت اجتماعات مهمة، ويتسبّب عمله الذي يفتقر للجودة في حدوث تأخيرات، ويجب أن يُعَاد إنجازه بواسطة الآخرين. إلا أنه يظلّ يتلقّى راتبه مثل رفاقه في العمل تمامًا. يبدأ من يعملون باجتهاد من حوله في

الشعور بالخيانة. يقولون لأنفسهم: «لماذا أرهق نفسي جدًّا في محاولة إنهاء هذا المشروع في حين أن زميلي الجديد لا يبذل أي جهد؟». والشيء نفسه يحدث عندما يضع أخصائيون حسنو النيّة مراهقًا جانحًا بين أقران أكثر تهذيبًا. يسود التقصير وليس الاستقرار(65). فالانحدار أسهل بكثير من الارتقاء.

ربما كنت تحاول إنقاذ شخصٍ ما لأنك شخصٌ قويٌّ، كريمٌ، طيبٌ يحاول فعل الصواب. لكن من المحتمل أيضًا –وربما من المرجَّح– أنك ترغب فقط في جذب الانتباه إلى ما لديك من احتياطي لا ينفد من التعاطف والنّيّة الحسنة. أو لعلك تحاول إنقاذ شخص ما لأنك تريد أن تقنع نفسك بأن قوة شخصيتك أكثر من مجرّد عرض ثانوي لحظِّك الطيِّب والمكان الذي ولدت فيه. أو ربما لأنه من الأسهل أن تبدو شخصًا فاضلًا حين تكون إلى جوار شخصٍ مستهترٍ كلّيًّا.

افترض أولًا أنك تقوم بأسهل شيء وليس أصعب شيء.

إدمانك الشديد للكحوليات يجعل من إسرافي في الشرب أمرًا تافهًا. محاداثاتي الطويلة الجادة معك حول زواجك المنهار بشدّة تقنع كلينا بأنك تفعل كل ما بوسعك وبأني أساعدك بقدر ما أستطيع. يبدو الأمر كأن هناك جهدًا يُبذَل، وتقدُّمًا يتحقّق. لكن التحسّن الحقيقي يتطلّب من كليكما أكثر من ذلك بكثير. هل أنت على يقين من أن الشخص الذي يتوسّل من أجل إنقاذه لم يقرّر ألف مرة من قبل أن يتقبّل نصيبه من المعاناة المتزايدة التي لا جدوى منها فقط لأن هذا أسهل من تحمّل أيّ مسؤولية حقيقيّة؟ هل تساعد في صنع وهمٍ؟ هل يمكن أن يكون ازدراؤك أكثر فائدة من شفقتك؟

أو لعلّك لا تملك أي خطّة –سواء أكانت خطّة حقيقية أو غير ذلك– لإنقاذ أحد. أنت تصادق الأشخاص السيئين ليس لأن هذا أفضل لأي شخص، ولكن لأنه أسهل. أنت تعرف هذا. وأصدقاؤك يعرفونه. أنتم جميعًا ملتزمون بعقدٍ ضمنيٍّ يؤدّي إلى العدميّة، والفشل، والمعاناة، في أسوأ وأغبى صورها. لقد قرّرتم جميعًا التضحية بالمستقبل من أجل الحاضر. أنتم لا تتحدّثون عن ذلك صراحة؛ لا تجتمعون لتقولوا: « دعونا نسلك الطريق الأسهل. دعونا نستمتع بما تجلبه اللحظة. ودعونا –علاوة على ذلك– نتّفق

على ألا ننبِّه بعضنا بعضًا لذلك. بهذه الطريقة يمكننا نسيان ما نفعل بسهولة أكبر». أنتم لا تقولون أيًّا من هذا، لكنكم جميعًا تعلمون حقيقة ما يحدث.

قبل أن تساعد شخصًا ما، عليك أن تعرف أولًا لماذا وقع هذا الشخص في المتاعب. يجب ألا تفترض ببساطة أنه ضحيّة نبيلة لظروف جائرة أو ضحية للاستغلال. هذا هو التفسير الأقل احتمالًا، وليس الأكثر احتمالًا. فمن خلال تجربتي -في ممارسة الطبّ وغير ذلك- الأمر لا يكون بهذه البساطة قطُّ. وإضافة إلى ذلك، إذا صدقت فكرة أن كل شيء سيّئ حدث بلا سبب، من دون أدنى مسؤولية شخصيّة يتحمّلها الضحيّة، فأنت تنكر امتلاك هذا الشخص لأيِّ إرادة في الماضي (وبالتالي، في الحاضر والمستقبل أيضًا). وبذلك أنت تجرِّده من أيِّ قوّة.

والأرجح كثيرًا من ذلك أنّ الشّخص قرّر ألا يسلك طريق الارتقاء بسبب صعوبته. وربما يجب أن يكون هذا هو افتراضك الأوّلي عندما تواجه مثل هذا الموقف. تظنّ أن هذه قسوة زائدة. ربما كنت محقًّا. ربما كان هذا تماديًا زائدًا. لكن فكِّر في هذا: من السهل فهم الفشل؛ فليس ثمة تفسير

مطلوب لحدوثه. وبالمثل فإن الخوف، والكراهية، والإدمان، والعهر، والخيانة، والخداع جميعها لا تتطلّب تفسيرًا. وجود الخطيئة أو الانخراط فيها لا يتطلّب أي تفسير. من السهل ارتكاب الخطيئة. ومن السهل أن تفشل أيضًا. من الأسهل ألا تتحمّل أي مسؤولية. من الأسهل ألا تفكّر، وألا تفعل، وألا تهتمّ. من الأسهل أن تؤجّل ما يجب عليك فعله اليوم إلى الغد، وأن تضيع الشهور والسنين القادمة في متع الحاضر الرخيصة. وكما يقول رب عائلة سيمبسون(22) سيئ السمعة قبل أن يلتهم مرطبانًا من المايونيز والفودكا: «تلك مشكلة على هوميروس المستقبلي أن يحلّها. إنه في موقف لا أحسده عليه!»(66).

كيف لي أن أعرف أن معاناتك ليست نوعًا من الاستشهاد بهدف نيل مساعدتي حتى يمكنك أن تدرأ مؤقّتًا ما هو حتميّ؟ لعلك حتّى تجاوزت مرحلة الاهتمام بشأن الانهيار الوشيك الذي ستتعرّض له، لكنك لا تريد الاعتراف بهذا. لعل مساعدتي لن تفلح في إصلاح أي شيء –أو لا يمكنها إصلاح أي شيء– لكنها فقط تُبعد مؤقّتًا ذلك الإدراك الشخصي جدًّا، والفظيع جدًا. لعل مأساتك عبء يوضع على عاتقي لكي أفشل أنا أيضًا، لكي تضيق الفجوة التي بيننا والتي تشعر بوجودها على نحو مؤلم جدًّا بينما

تتدهور أمورك وتغرق. كيف أعرف أنك سترفض ممارسة هذه اللعبة؟ كيف لي أن أعرف أنني أنا نفسي لا أتظاهر فحسب بأنني شخص مسؤول –بينما «أساعدك» بلا جدوى– لكي لا أضطرّ لفعل شيء صعب حقًّا؛ وممكن تحقيقه فعلًا؟

لعل شقاؤك هو السلاح الذي تلوّح به في وجه من ارتقوا وأصبحوا أفضل منك بينما انتظرت أنت وسقطت نحو القاع. لعل شقاءك هو محاولة لإثبات أن العالم ظالم بدلًا من أن يكون هذا الشقاء دليلًا على خطيئتك، وفشلك في تحقيق هدفك، ورفضك الواعي للكفاح والعيش. ربما كان استعدادك للمعاناة والفشل لا ينضب أبدًا، بالنظر إلى ما تستخدم هذه المعاناة لكي تثبته. ربما كان هذا هو انتقامك من «الكينونة». وآنى لي أن أصادقك حين تكون في مثل هذه الحالة؟ كيف يمكنني ذلك؟

إن النجاح لغز غامض. والفضيلة: لا تفسير لها. أما لكي تفشل، فليس عليك سوى أن تكتسب بضع عادات سيّئة. ومن ثم عليك فقط أن تنتظر لحظتك المناسبة. وبمجرّد أن يقضي شخص ما الوقت الكافي في اكتساب

العادات السيئة وانتظار اللحظة المناسبة، فإنه يكون قد تدنّى وتدهوّر كثيرًا. يتبدّد كثير مما كان يمكنه تحقيقه، ويصبح التدنّي الذي صار إليه حقيقة واقعة. إن الأشياء قد تنهار من تلقاء ذاتها، لكن خطايا البشر تعجل بانهيارهم؛ وحينها يأتي الطوفان. لا أقول إنه لا أمل في الخلاص. لكن إخراج شخص ما من هوّة عميقة أصعب بكثير من انتشاله من حفرة. وبعض الهوّات عميقة للغاية؛ ولا يتبقّى الكثير مما يمكن إنقاذه لدى القابع في قاعها.

ربما يجب عليّ الانتظار قبل مساعدتك، على الأقل حتى يتبيّن لي أنك تريد مساعدتي حقًّا. كان كارل روجرز – عالم النفس الشهير المؤيّد للمذهب الإنساني– يؤمن أنه من المستحيل بدء علاقة علاجية مع المريض الذي يحتاج للمساعدة إذا كان هو نفسه لا يريد التحسن(67). كان روجرز يؤمن بأنه من المستحيل إقناع شخص ما بالتغير للأفضل، وبأن الرغبة في التحسّن هي شرط أساسي مسبق لتحقيق أيّ تقدّم. لقد جاءني أفراد للعلاج النفسي بأمر المحكمة. لم يكونوا هم أنفسهم راغبين في العلاج، بل كانوا مكرهين على التماس المساعدة. لم يفلح الأمر، وكان أشبه بتمثيليّة هزلية.

لو أنني أحافظ على علاقة سيّئة بشخصٍ ما، فربما كان ذلك لأنني صاحب إرادة ضعيفة للغاية، ومتردّد في إنهاء العلاقة، لكنني لا أريد أن أدرك هذا. لذا فإنني أستمر في مساعدتك ومواساة نفسي على تضحيتي عديمة الجدوى. وربما يمكنني حينها أن أخلص إلى نتيجة، عن نفسي، مفادها أنني «شخص يضحّي بنفسه، ومستعد لمساعدة الآخرين؛ ولا بد له أن يكون شخصًا صالحًا». ليس الأمر كذلك. فقد تكون مجرّد شخص يحاول أن يبدو جيدًا عن طريق التظاهر بأنك تحلّ ما يبدو أنه مشكلة معقدة، بدلًا من أن تكون شخصًا جيّدًا حقًّا وتعالج مشكلة حقيقية.

ربما كان ينبغي عليَّ أن أنسحب من العلاقة، وأستجمع شتات نفسي، وأصبح قدوةً، بدلًا من الاستمرار في علاقتنا السيئة.

ولا يعد أيّ من هذا مبررًا لنبذ أولئك الذين يحتاجون حقًّا للمساعدة من أجل السعي وراء طموحك الأعمى المحدود، في حال كنت بحاجة إلى ذكر هذا.

إتّفاق مشترك

فكِّر في ما يلي: إذا كان لديك صديق ما كنت لتنصح شقيقتك، أو والدك، أو ابنك، بمصادقته، فلماذا تصادق أنت نفسك مثل هذا الشخص؟ قد تقول: بدافع الوفاء. حسنًا، إن الوفاء لا يعني الحماقة. لا بد من مناقشة الوفاء بإنصاف وصدق. إن الصداقة هي اتفاق مشترك. إنك لست ملزَمًا أخلاقيًا بدعم شخص يجعل العالم مكانًا أسوأ؟ بل العكس تمامًا؛ عليك أن تختار أناسًا يسعون إلى جعل الأمور أفضل، وليس أسوأ. إن اختيار الأشخاص المفيدين لك أمرٌ جيد، وليس أنانية. ومن المناسب والجدير بالثناء أن تصادق أناسًا سوف تتحسّن حياتهم إذا رأوا حياتك تتحسّن.

إذا أحطت نفسك بأناس يدعمون سعيك للتحسّن والارتقاء، فإنهم لن يتسامحوا مع تشاؤمك وتخريبك؛ بل سيشجعونك عندما تفعل ما هو مفيد

لك وللآخرين، ويعاقبونك بحرصٍ واهتمامٍ عندما لا تفعل هذا. وهذا من شأنه أن يدعم عزمك على فعل ما يجب عليك فعله، بأكثر الطرق ملاءمة وعناية. أما أولئك الذين لا يسعون للصعود والارتقاء فسيفعلون عكس هذا؛ فقد يقدّمون سيجارة لمدخِّن سابقٍ أقلع عن التدخين، أو يقدّمون الجعّة لمدمن كحوليات سابق. سوف يشعرون بالغيرة عندما تنجح، أو تفعل خيرًا. سوف ينسحبون، أو يوقفون دعمهم لك، أو يعاقبونك فعليًا من أجل ذلك. سيحاولون تجاهل إنجازك عن طريق تذكيرك بشيء فعلوه في الماضي، سواء أكان حقيقيًّا أم متخيِّلًا. ربما كانوا يحاولون اختبارك، ليروا ما إذا كان عزمك مخلصًا أم لا؛ ليروا ما إذا كنت صادقًا أم لا. لكنهم في الغالب يحاولون أن يجرّوك لأسفل لأن النجاحات الجديدة التي حقّقتها تلقي بضوء أكثر كآبة على أخطائهم وزلّاتهم.

لهذا السبب فإن كل قدوة حسنة تمثّل تحدّيًا مصيريًّا، وكلّ بطلٍ يُعد قاضيًا. يصيح تمثال «ديفيد»(23) الرخامي الضخم الرائع للفنان مايكل أنجلو في وجه من ينظر إليه قائلًا: «يمكنك أن تكون أفضل مما أنت عليه». فعندما تجرؤ على أن تطمح للارتقاء لأعلى، فإنك تكشف عن عدم كفاية الحاضر، ووعد المستقبل. ومن ثم فإنك تزعج الآخرين، في أعماق

أرواحهم، حيث يدركون أن تشاؤمهم وجمودهم غير مبرَّرين. أنت تلعب دور هابيل في مقابل لعبهم لدور قابيل. أنت تذكرهم بأنهم توقفوا عن الاهتمام، ليس بسبب أهوال الحياة -التي لا يمكن إنكارها- وإنما لأنهم لا يريدون حمل أعباء العالم على كواهلهم، حيث تنتمي.

لا تظنّ أنه من الأسهل أن تحيط نفسك بأناسٍ جيِّدين أسوياء بدلًا من الفاسدين السيئين؛ فهو ليس أسهل. فالشخص الجيّد السويّ مثل أعلى. والأمر يتطلّب قوة وجرأة لكي تقف بالقرب من مثل هذا الشخص. تحلَّ ببعض التواضع، وتحلَّ ببعض الشجاعة. استخدم حسن تقديرك للأمور، واحم نفسك من الرحمة والشفقة غير النقدية وغير المفيدة إلى حد بعيد.

صادق من يتمنّون لك الأفضل.

القاعدة 4

قارن نفسك بما كنته بالأمس
وليس بإنسان آخر اليوم

الناقد الداخلي

كان من الأسهل على الناس أن يكونوا بارعين في شيء ما حين كان كثيرون من البشر يعيشون في مجتمعات ريفيّة صغيرة. قد تكون إحدى الفتيات الشابات هي من تختارها زميلاتها لتكون الملكة المتوجة في منافسات إحدى حفلات لم الشمل. وقد يكون أحدهم هو الفائز ببطولة هجاء الكلمات الصعبة، أو عبقري الرياضيات، أو نجم كرة السلة. ولم يكن يوجد في تلك المجتمعات سوى ميكانيكي واحد أو اثنين، وبضع معلمين قلائل. وكان هؤلاء الأبطال المحليون – كلُ في مجاله – يحظون بفرصة الاستمتاع بثقة المنتصر التي يغذيها إفراز السيروتونين. ولعل هذا هو السبب وراء كون الأشخاص الذين وُلدوا في بلدات صغيرة يحظون بتمثيل مفرط إحصائيًا في أوساط العظماء البارزين(68). فلو أنك كنت شخصًا فريدًا بحيث لا يوجد مثلك سوى واحد فقط بين كل مليون إنسان، ولكنك نشأت

في مدينة نيويورك الحديثة، فهناك 20 شخصًا مثلك؛ ومعظمنا يعيش الآن في المدن الكبرى. وعلاوة على ذلك، فقد أصبحنا متّصلين رقميًا بالسبعة مليارات إنسان الذين يعيشون على وجه الأرض الآن. لقد باتت التسلسلات الهرمية لإنجازاتنا حاليًّا رأسية إلى حدٍّ مذهلٍ.

فأيًّا كان مدى براعتك في شيء ما، وأيًّا كان تصنيفك لإنجازاتك، فثمة شخص ما في العالم من حولك سوف يجعلك تبدو بليدًا فيما تفعل. قد تكون عازف جيتار رائع، لكنّك لست جيمي بيج أو جاك وايت؛ ومن المؤكّد تقريبًا أن عزفك لن يبهر جميع رواد المقهى المحلّي القريب منك. وقد تكونين طباخة ماهرة، ولكن ثمة العديد من الطهاة الرائعين. ووصفة والدتك لطهو السمك والأرز –أيًّا كانت درجة الاحتفاء بها في القرية التي نشأت فيها– لا يمكن أن تقارِع وصفات هذه الأيام؛ مثل رغوة الجريب فروت، وآيس كريم الويسكي/التبغ. ولا بد أن أحد دونات المافيا يمتلك يختًا أكثر بهرجة من اليخت الذي تملكه أنت – إذا كنت ثريًا بما يكفي لتمتلك يختًا. ولا بد أن رئيسًا تنفيذيًا موسوسًا ومحبًّا للتملك لديه ساعة يد ذاتية الملء أكثر تعقيدًا من ساعة يدك ذاتيّة الملء، ويحتفظ بها في صندوق ساعات أوتوماتيكي ذاتي الملء مصنوع من الخشب والحديد الصلب وأكثر قيمة من

صندوق ساعاتك. وحتى ممثّلات هوليوود الأشدّ فتنةً وجمالًا تتحوّلن في النهاية إلى « ملكات للشر» أثناء توجسّهن المرضي الدائم لظهور « سنو وايت» الجديدة. وماذا عنك؟ حياتك المهنيّة مملة ولا قيمة لها، ومهاراتك في التدبير المنزلي من الدرجة الثانية، وذوقك مروّع، وجسدك أكثر بدانة من أصدقائك، والجميع يخشون حفلاتك. من يبالي بك إذا كنت رئيس وزراء كندا في حين أن شخصًا آخر هو رئيس الولايات المتحدة؟

ثمة صوت داخلي ناقد يسكن بداخلنا، وروح تدرك كل هذا. وهذا الصوت نزّاع دائمًا إلى عرض قضيته الصاخبة. إنه صوت دائمًا ما يحكم على جهودنا المتواضعة بانعدام القيمة، وقد يكون من الصعب جدًّا إسكاته. والأسوأ من ذلك أنه من الضروري وجود نقّاد من هذا النوع؛ فالعالم مليء بالفنانين الذين يقدّمون أعمالًا لا ذوق فيها، والموسيقيين الذين يقدّمون ألحانًا لا نغم فيها، والطهاة الذين يقدّمون وصفات لا طعم لها، والمديرين المتوسطين الذين يعانون من اضطراب الشخصية البيروقراطيّة، والروائيين المبتذلين، والأساتذة المملّين المُحمّلين بالأيديولوجيّات. إن البشر يختلفون عن الأشياء في جوانب مهمّة من صفاتهم. فالموسيقى البشعة تزعج المستمعين في كل مكان؛ والمباني سيئة التصميم تنهار عند وقوع الزلازل؛

والسيارات المُصَنَّعَة بمعايير جودة متدنية تقتل سائقيها عند وقوع اصطدام. إن الفشل هو الثمن الذي ندفعه مقابل تدنِّي المعايير، ولأن تواضع المستوى له عواقب حقيقية ووخيمة، فإن المعايير ضرورية للغاية.

نحن لسنا متساوين في القدرة أو الإنتاج، ولن نكون كذلك أبدًا. ثمة عددٌ قليلٌ جدًّا من الناس ينتجون الكثير من كلِّ شيء. الفائزون لا يأخذون كلَّ شيء، ولكنهم يأخذون أكثر من غيرهم، والقاع ليس بالمكان الجيّد لتتواجد فيه. الناس تُعساء في القاع؛ فهم يمرضون هناك، ويظلّون مجهولين وممقوتين. إنهم يضيِّعون حياتهم هناك. يموتون هناك. ونتيجة لذلك، فإن صوت تشويه الذات ونقدها في عقول الناس ينسج حكاية مدمِّرة. الحياة لعبة صِفرية النتيجة. الحقارة وانعدام القيمة هي الحالة الافتراضية. فما الذي يمكن أن يحميَ الناسَ من مثل هذا النّقد الصاعق سوى العمى الإرادي المتعمّد؟ ولمثل هذه الأسباب ظل جيل كامل من علماء النفس الاجتماعي يوصي بما يسمّى «الأوهام الإيجابية» باعتبارها السبيل الوحيد الموثوق نحو الصحّة العقليّة(69). هل تلك هي عقيدتهم؟ أن تدع كذبة تكون هي المظلّة التي تحميك. إنه ليصعب تصوّر فلسفة أكثر كآبة، وبؤسًا، وتشاؤمًا من

فلسفة تقول: الأمور فظيعة للغاية بحيث لا يمكن أن ينقذك شيء سوى الوهم.

إليك طريقة بديلة (وهي طريقة لا تتطلّب أي أوهام). إذا كانت الأقدار تقف ضدك دائمًا، فربما كانت اللعبة التي تلعبها مخادعة بطريقةٍ ما (وربما كنت أنت المخادع، من دون أن تعلم أنت نفسك ذلك). إذا كان الصوت الداخلي يجعلك تشكّ في قيمة جهودك ومساعيك -أو حياتك، أو الحياة ذاتها- فربما كنت بحاجة إلى التوقّف عن الإنصات له. وإذا كان صوت الناقد الداخلي يقول الأشياء السيّئة ذاتها عن الجميع، بغض النظر عما يحقّقونه من نجاح، فما مدى مصداقية هذا الصوت؟ ربما كانت تعليقاته مجرّد ثرثرة، وليس فيها شيء من حكمة. سيكون هناك دائمًا أشخاص أفضل منك؛ هذا مجرّد قول نمطي عدمي مبتذل، مثل العبارة القائلة: من سيدرك الفارق الذي ستحدثه جهودي بعد مليون سنة؟ والرد المناسب على هذه العبارة ليس أن تقول: حسنًا، كل شيء فارغ بلا معنى إذًا. وإنما الردّ هو: أي أحمق يمكنه اختيار إطار زمني لا قيمة فيه لأيِّ شيء. إن إقناع نفسك بعدم جدوى أي شيء لا ينطوي على نقد عميق للكينونة؛ وإنما هي خدعة رخيصة للعقل الواعي.

إن معايير الأفضل أو الأسوأ ليست وهمية أو غير ضرورية. فلو أنك لم تقرّر أن ما تفعله الآن أفضل من البدائل الأخرى من الأشياء التي كان يمكن أن تفعلها، لما كنت تفعله. وفكرة الاختيار من دون تقدير للقيمة هي تناقضٌ في المصطلحات. فتقدير القيمة هو شرط مسبق للتصرّف. وعلاوة على ذلك، فإن كل نشاط تفعله –بمجرّد اختيارك أن تفعله– ينطوي على معايير إنجاز داخليّة خاصّة به. فإذا كان يمكن القيام بفعل ما، فلا بد أنه يمكن القيام بهذا الفعل على نحوٍ جيِّدٍ أو سيِّئٍ. لذا فإن قيامك بأي فعل على الإطلاق يعني أنك تلعب لعبة لها نهاية محدّدة وذات قيمة، وهي نهاية يمكنك الوصول إليها دائمًا بقدرٍ معيَّن من الكفاءة والبراعة، سواء زاد هذا القدر أو قلّ. وكلُّ لعبة مصحوبة بفرصة للنجاح والفشل. والتفاضل في الجودة موجود دائمًا. وإضافة إلى ذلك، إذا لم يكن هناك أفضل وأسوأ، فلن يكون ثمة شيء يستحق القيام به. لن تكون هناك قيمة، وبالتالي، لن يكون ثمة معنى لما تقوم به. لماذا تبذل جهدًا إذا كان جهدك لن يُحَسِّن أيَّ شيءٍ؟ إن المعنى ذاته يقتضي وجود فارق بين الأفضل والأسوأ. كيف يمكن

إذًا إسكات صوت الوعي الذاتي الناقد؟ أين تكمن الأخطاء في منطق رسالة ذلك الصوت؛ ذلك المنطق الذي يبدو أنه صحيح ولا تشوبه شبهة خطأ؟

يمكن أن نبدأ بالتأمل في الكلمتين الواضحتين الحاسمتين: «النجاح» أو «الفشل». إنك إما تكون ناجحًا؛ أي تكون شيئًا شاملًا، متفرِّدًا، جيِّدًا إجمالًا، أو تكون عكس ذلك؛ أي تكون شيئًا شاملًا، متفرِّدًا، سيِّئًا على نحو لا يمكن إصلاحه. هاتان الكلمتان لا توحيان بوجود بديل أو منطقة وسط. غير أنه في عالمٍ معقّدٍ مثل عالمنا، تُعتبر مثل هذه التعميمات (هذا الفشل الشديد في التمييز) علامة على تحليل ساذج، أو تافه، أو حتى خبيث ومؤذٍ. فثمّة درجات حيويّة وتدرجات للقيمة طمسها هذا النظام الثنائي؛ وعواقب ذلك وخيمة.

فأولًا، ليست ثمة لعبة واحدة تنجح أو تفشل فيها؛ بل ثمة العديد من الألعاب، وعلى نحو أكثر تحديدًا، العديد من الألعاب الجيّدة؛ الألعاب التي تناسب مواهبك، وتجعلك تشارك على نحو مثمر مع أناس آخرين، وتحافظ على نفسها بل وتحسن من نفسها مع مرور الوقت. المحاماة لعبة جيدة؛

وكذلك السباكة، أو الطب، أو النجارة، أو التدريس. العالم يسمح بطرق عديدة للكينونة. إذا لم تنجح في إحداها، يمكنك أن تجرب أخرى. يمكنك أن تختار شيئًا يتوافق على نحو أفضل مع المزيج الفريد المكوّن من نقاط قوّتك، ونقاط ضعفك، وظروفك. وإضافة إلى ذلك، إذا لم يفلح تغيير اللعبة، فيمكنك ابتكار لعبة جديدة. لقد شاهدت مؤخّرًا عرضًا للمواهب ضمّ مقلِّدًا أغلق فمه بشريط لاصق وقام بشيء كوميدي باستخدام قفازي الفرن. كان ذلك شيئًا غير متوقّع. كان شيئًا أصيلًا مبتكرًا. وقد بدا أن الأمور تسير على خير ما يرام مع ذلك الممثل.

من غير المحتمل أيضًا أنك تلعب لعبة واحدة فقط؛ فلديك مهنة، وأصدقاء، وأفراد أسرة، ومشاريع شخصيّة، ومحاولات فنّيّة، ومساعٍ رياضية. يمكن أن تفكِّر في تقدير مدى نجاحك في جميع اللُعب التي تلعبها. تخيّل أنك بارِع جدًّا في بعضها، ومتوسِّط في بعض آخر، وسيِّئ للغاية في ما تبقى. وربما كان هذا هو الشيء الطبيعي المنطقي الذي ينبغي أن تكون عليه الأمور. قد تعترض قائلًا: لا بد أن أفوز في كل شيء! ولكن الفوز في كل شيء قد يعني فقط أنك لا تفعل أيَّ شيء جديد أو صعب. قد تحقّق الفوز، ولكنك لا تنمو، وقد يكون النمو هو أهمّ شكلٍ من أشكال الفوز. فهل

ينبغي أن يكون لتحقيق النصر في الوقت الحاضر الأولوية على إمكانات واحتمالات المستقبل؟

وأخيرًا، ليتك تدرك أن تفاصيل الألعاب العديدة التي تلعبها هي تفاصيل فريدة للغاية بالنسبة لك، وخاصة جدًّا بك وحدك، بحيث إن مقارنة نفسك بالآخرين هي ببساطة مقارنة خاطئة. ربما كنت تبالغ في تقدير قيمة ما لا تملكه، وتبخس قيمة ما تملكه. إن الامتنان مفيد حقًا؛ وهو أيضًا بمثابة حماية جيّدة من مخاطر الاستسلام لمشاعر الحقد والاستياء والعيش في دور الضحية. قد يكون زميلك أفضل منك في العمل؛ إلا أن زوجته تخونه، في حين أن زواجك مستقرٌّ وسعيدٌ. من صاحب الحظ الأفضل؟ قد يكون الممثل الشهير الذي تكنّ له الإعجاب شخصًا متعصِّبًا دائمًا ما يقود سيارته وهو مخمور. هل حياته أفضل حقًّا من حياتك؟

عندما يُحقِّر ناقدك الداخلي من قيمتك باستخدام مقارنات مثل هذه، عليك أن تعرف طريقة عمله: فأوّلًا، هو يختار مجال مقارنة تعسّفي واحد (لعله يكون الشهرة، أو السلطة)؛ ومن ثم يتصرّف كما لو كان هذا المجال هو المجال الوحيد المناسب. وبعد ذلك يقارنك على نحو سلبي بشخص رائع حقًّا في ذلك المجال. ويمكن للناقد الداخلي أن يأخذ تلك الخطوة

الأخيرة إلى ما هو أبعد من ذلك، وذلك باستخدام الفجوة غير القابلة للرّدم بينك وبين المُقارن به كدليلٍ على الظلم الأساسي القائم في هذه الحياة. وبهذه الطريقة، يمكن بفعالية بالغة تقويض دافعك لفعل أي شيء على الإطلاق في حياتك. وبالطبع لا يمكن اتهام أولئك الذين يقبلون مثل هذا النهج في تقييم الذات بأنهم يسهلون الأمور على أنفسهم. لكن جعل الأمور صعبة للغاية هو مشكلة كبرى بالقدر نفسه.

عندما نكون صغارًا جدًا في السن، لا نكون متفرِّدين ولا مثقَّفين جيِّدي الاطلاع؛ إذ لم يتح لنا الوقت بعد لذلك، ولم نكتسب حكمة وضع معاييرنا الخاصّة. ونتيجة لذلك، يصبح من المحتّم أن نقارن أنفسنا بالآخرين، لأن المعايير ضرورية؛ ومن دونها، لا وجود لغاية نسعى لبلوغها، ولا لشيء نفعله. وعلى النقيض، عندما ننضج، نصبح أفرادًا ومتفرِّدين على نحو متزايد. تصبح ظروف حياتنا شخصيّة أكثر، وأقلّ قابلية للمقارنة بظروف الآخرين. وبصورة رمزية، يعني هذا أنه ينبغي علينا مغادرة المنزل الذي يحكمه الأب، ومواجهة فوضى كينونتنا الفرديّة. يجب أن ننتبه لتشوّشنا وندركه، من دون أن نتخلّى كلّيًّا عن الأب في تلك العملية. ومن ثم ينبغي علينا أن نعيد اكتشاف قيم ثقافتنا – المحجوبة عنا بجهلنا، والمختفية في كنز الماضي الدفين الذي

تراكمت عليه الأتربة– وننقذها، وندمجها في حياتنا. وهذا هو ما يعطي الوجود معناه الكامل والضروري.

من أنت؟ أنت تظنّ أنك تعرف، لكن ربما كنت لا تعرف حقًّا. أنت – مثلًا– لست سيّد نفسك، ولست عبدًا لها. لا يمكنك بسهولة أن تخبر نفسك بما يجب عليك فعله وتُكره ذاتك على الطاعة (تمامًا كما لا تستطيع أن تخبر زوجك، أو زوجتك، أو ابنك، أو ابنتك، بما يجب عليهم فعله، ولا بأنهم يسهلون الأمور على أنفسهم. لكن جعل الأمور صعبة للغاية هو مشكلة كبرى بالقدر نفسه.

عندما نكون صغارًا جدًا في السن، لا نكون متفرِّدين ولا مثقَّفين جيِّدي الاطلاع؛ إذ لم يتح لنا الوقت بعد لذلك، ولم نكتسب حكمة وضع معاييرنا الخاصّة. ونتيجة لذلك، يصبح من المحتّم أن نقارن أنفسنا بالآخرين، لأن المعايير ضرورية؛ ومن دونها، لا وجود لغاية نسعى لبلوغها، ولا لشيء نفعله. وعلى النقيض، عندما ننضج، نصبح أفرادًا ومتفرِّدين على نحو متزايد. تصبح ظروف حياتنا شخصيّة أكثر، وأقلّ قابلية للمقارنة بظروف الآخرين. وبصورة

رمزية، يعني هذا أنه ينبغي علينا مغادرة المنزل الذي يحكمه الأب، ومواجهة فوضى كينونتنا الفرديّة. يجب أن ننتبه لتشوّشنا وندركه، من دون أن نتخلّى كلّيًّا عن الأب في تلك العملية. ومن ثم ينبغي علينا أن نعيد اكتشاف قيم ثقافتنا – المحجوبة عنا بجهلنا، والمختفية في كنز الماضي الدفين الذي تراكمت عليه الأتربة– وننقذها، وندمجها في حياتنا. وهذا هو ما يعطي الوجود معناه الكامل والضروري.

من أنت؟ أنت تظنّ أنك تعرف، لكن ربما كنت لا تعرف حقًّا. أنت – مثلًا– لست سيّد نفسك، ولست عبدًا لها. لا يمكنك بسهولة أن تخبر نفسك بما يجب عليك فعله وتُكره ذاتك على الطاعة (تمامًا كما لا تستطيع أن تخبر زوجك، أو زوجتك، أو ابنك، أو ابنتك، بما يجب عليهم فعله، ولا تستطيع إكراههم على الطاعة). إنك مهتم ببعض الأشياء ولست مهتمًا بأشياء أخرى. يمكنك تشكيل هذا الاهتمام، ولكنْ هناك حدودٌ لذلك؛ فبعض الأنشطة ستظلّ تجتذب اهتمامك دائمًا، والبعض الآخر لن يثير لديك أدنى قدر من الاهتمام.

إن لديك طبيعة. يمكنك بالطبع أن تحاول التسلّط عليها وإخضاعها، لكنك ستتمرّد على ذلك بكلِّ تأكيدٍ. ما مدى صعوبة أن تُكره نفسك على العمل وتحافظ على رغبتك في العمل؟ إلى أيِّ مدى يمكنك التضحية من أجل شريكك قبل أن يتحول كرم العطاء إلى حقدٍ واستياءٍ؟ ما الذي تحبه حقًّا؟ وما الذي تريده صدقًا؟ قبل أن تتمكّن من التعبير عن معايير القيمة الخاصّة بك، لا بد من أن تنظر لنفسك كما تنظر لشخص غريب؛ ومن ثم، لا بد أن تتعرّف على نفسك. ما الذي تجده ممتعًا أو ذا قيمة؟ ما القدر الذي تحتاجه من الراحة، والمتعة، والمكافأة، لكي تشعر بأنك أكثر قدرةً على حمل الأعباء؟ ما مقدار تدليلك لنفسك لكي لا تصل إلى مرحلة عدم القدرة على الاحتمال والفرار من المسؤوليّة؟ يمكنك أن تُكره نفسك على تحمّل مطحنتك اليومية في العمل فقط لكي تركل كلبك الأليف بإحباطٍ غاضبٍ عند عودتك إلى المنزل. ويمكنك أن ترى أيام حياتك الثمينة تمرّ بلا غاية ولا مغزى. أو يمكنك أن تتعلّم كيف تغري نفسك بنشاطٍ مثمرٍ ومستمرٍّ. هل تسأل نفسك ماذا تريد؟ هل تتفاوض مع نفسك بإنصافٍ؟ أم إنك طاغية مستبدٌّ، ونفسك هي عبدك؟

متى تكره والديك، أو زوجتك، أو أطفالك، ولماذا؟ وما الذي يمكن فعله حيال ذلك؟ ما الذي تحتاجه وتريده من أصدقائك وشركائك في العمل؟ ليس المقصود بهذا مجرّد ما يجب أن تريده. إنني لا أتحدّث عن ما يطلبه

الآخرون منك، أو عن واجباتك تجاههم. إنني أتحدّث عن تحديد طبيعة التزامك الأخلاقي، تجاه نفسك. وقد يدخل الوجوب في هذا الالتزام، لأنك واقع في شبكة من الالتزامات الاجتماعية. الوجوب هو مسؤوليتك، وينبغي أن تنهض بها. ولكن هذا لا يعني أنك يجب أن تلعب دور الكلب الأليف، المطيع الودود؛ فهذا ما يريده الديكتاتور من عبيده.

عليك –بدلًا من ذلك– أن تتجرّأ على أن تكون خطيرًا. تجرّأ على أن تكون صادقًا. تجرّأ على التعبير عن نفسك، والتعبير عما يبرِّر حياتك حقًّا (أو تجرّأ على الوعي بذلك، على الأقل). فعلى سبيل المثال، إذا سمحت لرغباتك المظلمة وغير المعلنة التي تريدها من شريك حياتك بأن تظهر جلية –إذا كنت على استعداد حتّى للتفكير فيها– فقد تكتشف أنها لم تكن مظلمة إلى الحدِّ الذي كنت تتصوّره، بعد أن ظهرت في ضوء النهار. بل إنك قد تكتشف أنك كنت خائفًا فحسب، وتتظاهر بأنك شخصٌ أخلاقيٌّ. قد تكتشف أن نيلك ما ترغب فيه حقًّا سيمنعك من الاستسلام للإغراءات والضلال. هل أنت متأكِّدٌ من أن شريك حياتك سيكون غير سعيدٍ إذا أظهرت له المزيد من كوامن نفسك ورغباتك الدفينة؟ ثمة أسباب وجيهة

لكون النساء الفاتنات القاتلات والأبطال الأشرار يتّسمون بالجاذبية الجنسية...

ما الطريقة التي تحتاج إلى أن يتحدّث إليك بها الآخرون؟ ما الذي تحتاج لأن تأخذه من الناس؟ ما الذي تتحمّله كارهًا راغمًا، أو تتظاهر بأنك تحبّه، سواء أكان واجبات أو التزامات؟ استشر غضبك في ذلك. إن الغضب شعورٌ كاشفٌ، على الرغم من أنه شعورٌ مرضيٌّ. إنه جزء من ثالوث شرير: التكبّر، والخداع، والغضب. لا شيء يسبّب الأذى أكثر من هذا الثالوث الخبيث البغيض. لكن الغضب يعني دائمًا أحد أمرين: إما أن الشخص الغاضب غير ناضج؛ وفي هذه الحالة يجب عليه أن يصمت، ويكفَّ عن النحيب، ويتابع حياته، وإما أن يكون ثمة موقفُ استبدادٍ جارٍ على قدمٍ وساقٍ؛ وفي هذه الحالة، يكون على الشخص الخاضع للظلم التزامٌ أخلاقيٌّ بالمقاومة والدفاع عن نفسه. ولماذا عليه أن يفعل هذا؟ لأن عواقب الصمت أسوأ. من الأسهل بالطبع التزام الصمت وتجنّب الصراع في تلك اللحظة. لكن على المدى البعيد، سيكون هذا مهلكًا. عندما يكون لديك ما تقوله، يكون الصمت كذبًا؛ والاستبداد يتغذّى على الأكاذيب. ومتّى يكون عليك أن تتصدّى للظلم وتقاومه، رغم ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر؟ عندما تبدأ

في إضمار أفكارٍ انتقاميّة سرّية؛ عندما تجد حياتك تتسمّم وخيالك مفعم بالرغبة في الهدم والتدمير.

كان لديَّ منذ عقود مريضٌ يعاني من حالة حادّة من اضطراب الوسواس القهري. كان عليه أن يهندم منامته مباشرة قبل أن يتمكن من الخلود للنوم ليلًا. ثم كان عليه أن يسوّي وسادته، ثم يضبط ملاءات سريره؛ مرارًا وتكرارًا، مرارًا وتكرارًا. قلت له: «لعل ذلك الجزء من ذاتك -ذلك الجزء اللحوح التكراري إلى حدِّ الجنون- يريد شيئًا ما، لكنه قد يكون شيئًا غير مفصح عنه. دعه يعبر عما يريد. ما الذي قد يكونه هذا الشيء؟». قال: «السيطرة». فقلت: « أغمض عينيك واجعله يخبرك بما يريده. لا تدع الخوف يمنعك؛ فأنت لست مضطرًا لأن تنفِّذ ما ستقوله فعليًا لمجرّد أنك تفكّر فيه». قال: «إنه يريد مني أن أمسك زوج أمي من ياقة قميصه، وأدفعه إزاء الباب، وأهزّه مثل الفأر». ربما حان الوقت لهز شخص ما مثل الفأر، على الرغم من أنني اقترحت عليه شيئًا أقل عدوانية وبدائية من ذلك. لكن الله وحده يعلم ما هي المعارك التي يجب خوضها -صراحةً، واختيارًا، وعن طيب نفس- من أجل تحقيق السلام. ما الذي تفعله لتجنب الصراع، على الرغم من أنه قد يكون ضروريًّا؟ ما الذي تميل إلى الكذب بشأنه، على افتراض أن الحقيقة قد تكون لا تطاق؟ ما الذي تختلقه، وتزيّفه، وتدعيه؟

يعتمد الطفل الرضيع على والديه في كل احتياجاته تقريبًا. والطفل الأكبر سنًا –وأعني الطفل الناجح– يمكنه أن يترك والديه –مؤقتًا على الأقل– وينشئ علاقات صداقة. إنه يتخلى عن جزء صغير من نفسه ليفعل ذلك، لكنه يكسب الكثير في المقابل. أما المراهق الناجح فلا بد أن يصل بتلك العملية إلى نهايتها المنطقية؛ إذ يجب عليه أن يترك والديه ويصبح مثل أي شخص آخر. عليه أن يندمج مع الجماعة حتى يمكنه تجاوز اتّكالية مرحلة الطفولة. وبمجرّد أن يندمج، يصبح عليه كشخص راشد ناجح أن يكون مختلفًا عن الآخرين، بالقدر المناسب تمامًا.

كن حذِرًا عندما تقارن نفسك بالآخرين؛ فأنت كائن فريد بمجرّد أن تصبح راشدًا. لديك مشكلاتك الخاصّة والمحدّدة؛ المالية، والحميمية، والنفسية، وغير ذلك. وتلك المشكلات مطمورة في السياق الأوسع الفريد لوجودك. إن حياتك المهنية أو وظيفتك تنسجم معك، أو لا تنسجم، على نحو شخصي تمامًا، وهي تفعل ذلك وفق تفاعل فريد مع الظروف الشخصية الفريدة الأخرى لحياتك. وعليك أن تقرر مقدار الوقت الذي ستقضيه في

كل جانب من جوانب حياتك. عليك أن تقرر ما ستتخلّى عنه، وما ستسعى وراءه.

الغاية من أعيننا (أو إجراء عمليّة جرد)

دائمًا ما تنظر أعيننا إلى الأشياء التي نهتم بالاقتراب منها، أو بدراستها، أو البحث عنها، أو امتلاكها. ينبغي علينا أن نرى، لكن لكي نرى، يجب أن نوجّه نظرنا نحو هدف ما، لذا فإننا دائمًا ما نستهدف شيئًا ما بنظرنا. إن عقولنا مصمّمة لتلائم أجسادنا المهيأة للصيد وجمع الطعام.

والصيد هو تحديد هدف، وتعقّبه، ورميه. والجمع هو التحديد والإمساك. إننا نرمي الحجارة، والرماح، وغيرها من الأدوات. ونرمي الكرات عبر الأطواق، ونرمي أقراص الهوكي في الشباك. إننا نطلق القذائف على الأهداف باستخدام الأقواس، والمدافع، والبنادق، والصواريخ. ونقذف بالإهانات، وندشن الخطط، ونُلقِي بالأفكار. إننا ننجح عندما نسجّل هدفًا أو نحقّق غاية؛ ونفشل، أو نخطئ، عندما لا نفعل ذلك (إذ إن كلمة «يخطئ» sin تعني عدم إصابة الهدف(70)). كما أننا لا نستطيع الترحال

من دون وجود غاية نتوجّه إليها، وطالما أننا في هذا العالم، فإن علينا الترحال دائمًا(71).

نحن دائمًا عند النقطة «أ» (وهي نقطة غير مرغوبة بالنّسبة إلينا بالقدر الذي نحبه)، ونتحرّك نحو النقطة «ب» (التي نعتبرها أفضل، وفقًا لقيمنا الواضحة والضمنيّة). كما أننا دائمًا ما نواجه العالم بحالة من القصور ونسعى لتصحيح تلك الحالة. يمكننا تخيّل طرق جديدة يمكن بها ضبط الأمور وتقويمها، وتحسينها، حتى لو كان لدينا كلّ ما كنا نعتقد بأننا بحاجة إليه. وحتى عندما نكون في حالة من الرضا –المؤقَّت– فإننا نظلّ فضوليين. نحن نعيش في إطار يُعَرِّف الحاضر بأنه ناقص دائمًا، ويُعَرِّف المستقبل بأنه أفضل دائمًا. ولو أننا لم نر الأمور من هذا المنظور لما فعلنا أيَّ شيءٍ على الإطلاق. ما كنا سنتمكّن حتى من الرؤية، لأننا لكي نرى يجب علينا التركيز، ولكي نركّز يجب أن نختار شيئًا واحدًا من دون غيره لنركِّز عليه. ولكننا نستطيع أن نرى. بل نستطيع حتى أن نرى أشياء لا وجود لها أمام أعيننا. يمكننا تصوّر طرق جديدة تجعل الأمور أفضل. يمكننا أن نبني عوالم افتراضية جديدة، تظهر فيها مشكلات لم نكن حتى نعلم عنها شيئًا لكي نتمكّن من معالجتها. ومزايا هذا واضحة: إذ يمكننا تغيير العالم بحيث

يمكن في المستقبل تصحيح حالة الحاضر التي لا تُطاق. أما العيب الكامن في كل هذا التبصّر والإبداع فهو الاضطراب والانزعاج المزمنين. فنظرًا إلى أننا دائمًا ما نقارن ما هو كائن بما يمكن أن يكون، فعلينا أن نستهدف ما يمكن أن يكون. ولكننا يمكن أن نصوّب أعلى مما ينبغي، أو أدنى مما ينبغي، أو نصوّب على نحو فوضوي للغاية. لذا فإننا نخفق في إصابة هدفنا ونعيش في حالة إحباط وخيبة أمل، حتى عندما يبدو للآخرين أننا في حالة طيّبة. كيف يمكننا إذًا الاستفادة من قدرتنا على التخيّل، وقدرتنا على تحسين المستقبل، من دون التشويه المستمر لحياتنا الحالية، غير الناجحة، والتي لا قيمة لها؟

ربما كانت الخطوة الأولى هي إجراء عمليّة جردٍ. من أنتَ؟ إنك عندما تشتري منزلًا وتستعد للعيش فيه تستخدم مفتشًا ليُعدَّ لك قائمة بجميع عيوبه؛ أي وضعه الحقيقي الواقعي حاليًا، وليس الوضع الذي تودّ أن يكون عليه. بل إنك ستدفع له المال مقابل ما سيكشفه لك من عيوبٍ في المنزل. أنت بحاجة لأن تعرف؛ بحاجة إلى اكتشاف العيوب الخفيّة في المنزل؛ بحاجة إلى معرفة ما إذا كانت تلك العيوب مجرّد عيوب تجميليّة أم مشكلات هيكليّة. أنت بحاجة لأن تعرف لأنك لا تستطيع أن تصلح شيئًا

ما إلا إذا كنت تعرف أنه معيوب؛ وأنت نفسك بك عيوبٌ. أنت بحاجة إلى مفتّش كهذا. ويمكن للناقد الداخلي أن يلعب هذا الدور، إذا أمكنك أن تضعه على المسار الصحيح؛ إذا استطعت أنت وهو أن تتعاونا. يمكنه أن يساعدك على إجراء عمليّة جردٍ لما لديك. لكن ينبغي عليك أن تأخذ جولة معه في منزلك النفسي، وأن تنصت بتروٍ واهتمامٍ لما يقول. ربما كان منزلك النفسي خربًا تمامًا، وفي أمسّ الحاجة للترميم والإصلاح. وآنى لك أن تبدأ أعمال الترميم اللازمة من دون أن يحبطك، بل ويسحقك، التقرير المطوّل والمؤلم الذي سيرفعه لك ناقدك الداخلي بشأن ما تنطوي عليه من عيوب وأوجه قصور؟

إليك تلميح: إن المستقبل مثل الماضي. ولكن ثمة فارقًا حاسمًا بينهما؛ فالماضي ثابت، ولكن المستقبل قد يكون أفضل. قد يكون أفضل بمقدار محدّد؛ المقدار الذي يمكن تحقيقه، ربما خلال يوم واحد، عن طريق قدر أدنى من الاهتمام. قد يكون الحاضر سيئًا تمامًا؛ لكن نقطة انطلاقك قد لا تكون بنفس أهميّة الاتجاه الذي ستسير فيه. ربما كانت السعادة توجد دائمًا في رحلة صعود الجبل، وليس في الشعور الزائل بالإنجاز الذي ينتظرك عند

الذروة التالية. ويشكّل الأمل قدرًا كبيرًا من السعادة، أيًّا كان عمق العالم السفلي الذي راودك فيه ذلك الأمل.

وعند اللجوء لمساعدة الناقد الداخلي على نحو صحيح، سيقترح عليك شيئًا تقوم بتقويمه، وهو شيء يمكنك تقويمه، وسوف تقوم بتقويمه؛ طواعية، من دون سخط، وربما حتّى بسرور. اسأل نفسك: هل ثمة جانبٌ في حياتك أو في ظروفك تعمّه الفوضى ويمكنك تقويمه، وترغب في تقويمه؟ وهل يمكنك، وهل تودّ، تقويم ذلك الجانب الذي يعلن بكل تواضع أنه بحاجة إلى التقويم؟ هل يمكنك أن تفعل ذلك الآن؟ تخيّل نفسك شخصًا أنت مضطرٌ للتفاوض معه. وتخيّل أن ذلك الشخص شخصٌ كسولٌ، حساسٌ، ساخطٌ، ويصعب التوافق معه. بهذا التوجّه الذهني، لن يكون من السهل عليك تحفيزه على العمل. قد تحتاج إلى استخدام بعض السحر والمزاح. يمكن أن تحدث نفسك، من دون سخرية أو تهكّم، وتقول لها: «معذرة، إنني أحاول تقليل بعض المعاناة التي لا لزوم لها ها هنا. وأنا بحاجة إلى بعض المساعدة». تجنّب السخرية قدر المستطاع، وقلّ لنفسك: « إنني أتساءل عما إذا كان هناك أيُّ شيءٍ يمكنك فعله؟ سأكون ممتنًّا جدًّا لخدماتك». اسأل نفسك بصدقٍ وبتواضعٍ. هذا ليس بالأمر الهيِّن.

وقد تكون مضطرًا للمزيد من التفاوض، وفقًا لحالتك الذهنية. فلعلّك لا تثق بنفسك. لعلّك تظن أنك ستطلب من نفسك شيئًا واحدًا، وبعد إنجاز ذلك الشيء مباشرة، ستطلب المزيد. وستتبنّى موقفًا تأديبيًا مسيئًا ومؤلمًا، وتشوّه ما تم تقديمه بالفعل. ومن ذا الذي يريد العمل مع طاغية مستبدّ كهذا؟ أنت لا تريد ذلك. ولهذا السبب فإنك لا تفعل ما تريد من نفسك أن تفعله. إنك موظّف سيّئ؛ ولكنك رئيسٌ أسوأ. ربما كنت بحاجة لأن تقول لنفسك: «حسنًا. أعلم أننا لم نكن على وفاقٍ في ما مضى. يؤسفني ذلك. إنني أحاول التحسّن. والأرجح أنني سأرتكب المزيد من الأخطاء في تلك المسيرة، لكنّني سأحاول الإنصات إليك إذا كان لديك اعتراضٌ. سأحاول أن أتعلّم. لقد لاحظت، الآن، اليوم، أنك لم تكن متحمِّسًا كثيرًا لمد يد العون حين تكون ثمة فرصة لذلك وحين أطلب منك ذلك. فهل ثمة شيء يمكنني تقديمه في مقابل تعاونك؟ ربما إذا غسلت الأطباق، يمكننا الذهاب لتناول القهوة. أنت تحبّ الإسبرسو. ماذا عن كوب من الإسبرسو؛ ربما كمّيّة مضاعفة؟ أو لعلك تريد شيئًا آخر؟». ومن ثم يمكنك الإنصات للردِّ. ربما ستسمع صوتًا داخل نفسك (ولعلّه يكون صوت طفل اختفى منذ أمد بعيد). ربما سيقول ذلك الصوت: «أحقًّا؟ أترغب حقًّا في أن تفعل شيئًا لطيفًا من أجلي؟ هل ستفعل ذلك حقًّا؟ أليست هذه خدعة؟».

وهنا يجب أن تكون في غاية الحذر.

إن ذلك الصوت الصغير هو صوت شخص تألّم كثيرًا في الماضي وأصبح الآن شديد الحذر. لذا، يمكنك أن تقول باهتمامٍ بالغٍ: «نعم، حقًّا. إنني قد لا أكون بارعًا في فعل ذلك، وقد لا تكون صحبتي رائعة، لكنني سأفعل شيئًا لطيفًا من أجلك. أعدك بذلك». إن قليلًا من اللُّطف الصادق يعود بالكثير من الفوائد، والمكافأة الحصيفة تشكِّل حافزًا قويًّا. وحينها يمكنك أن تأخذ ذلك الجزء الصغير من ذاتك من يده وتغسل تلك الأطباق. ومن الأفضل بعد ذلك ألا تذهب لتنظِّف الحمّام وتنسى أمر فنجان القهوة، أو الفيلم، أو قدح الجعّة، وإلا فسيكون من الأصعب عليك بعد ذلك استدعاء تلك الأجزاء المنسيّة من ذاتك من زوايا وشقوق العالم السفلي الذي تختبئ فيه.

يمكن أن تسأل نفسك: «ما الذي يمكنني قوله لشخص آخر –صديقي، أخي، رئيسي، مساعدي في العمل– ومن شأنه أن يصحح الأمور قليلًا بيننا غدًا؟ ما الفوضى التي يمكنني التخلّص منها في المنزل، أو في مكتبي، أو

في مطبخي، الليلة، بحيث يكون المسرح مُعدًّا للعب على نحو أفضل؟ ما الحيّات التي يمكنني إزالتها من خزانة ملابسي ومن عقلي؟». إن خمسمائة قرار صغير تتّخذها، وخمسمائة عمل صغير تقوم به، هي ما يُشكّل يومك، اليوم، وكل يوم. فهل يمكنك أن تهدف إلى تحقيق نتائج أفضل لواحد أو اثنين من هذه القرارات أو الأفعال الصغيرة؟ على أن يكون الحكم على تلك الأفضلية من منظورك الشخصيّ الخاصِّ، ووفقًا لمعاييرك الفردية الخاصّة؟ هل يمكن أن تقارن غدك الشخصي بأمسك؟ هل يمكن أن تستخدم حسن تقديرك للأمور، وتسأل نفسك عما قد يكون عليه ذلك الغد الأفضل؟

ابدأ بأهداف صغيرة؛ فليس في صالحك أن تُحمل نفسك أكثر من طاقتها في البداية، نظرًا لمواهبك المحدودة، وميلك للخداع، وعبء السخط الذي تحمله، وقدرتك على تجنّب حمل المسؤولية. لذا، حدّد لنفسك الهدف التالي: بحلول نهاية اليوم، أريد أن تكون الأمور في حياتي أفضل قليلًا جدًّا مما كانت عليه هذا الصباح. ثم اسأل نفسك: «ما الذي يمكنني فعله، وأنا مستعد لفعله، ومن شأنه أن يحقّق ذلك الهدف، وما الشيء الصغير الذي أودّ الحصول عليه كمكافأة؟». ومن ثمَّ، عليك أن تفعل ما عزمت على أن تفعله، حتى إذا فعلته على نحوٍ سيِّئ. وبعدها عليك أن تكافئ نفسك بتلك

القهوة التي تحبّها، كنخب انتصار. قد تشعر بقدر من الحماقة حيال ذلك، ولكن عليك أن تفعلها على أي حال. وافعل الشيء نفسه غدًا، وفي اليوم الذي يليه، والذي يليه. ومع كل يوم يمرّ، يرتفع الحد الأدنى للمقارنة قليلًا، وهذا رائع. تلك هي الفائدة المركّبة. افعل ذلك لمدة ثلاث سنوات، وستصبح حياتك مختلفة تمامًا. وحينها ستهدف إلى تحقيق شيءٍ أعلى. ثم سيرتفع طموحك ليلامس النجوم. سوف يختفي سقف الأهداف من أمام عينيك، وستتعلّم أن ترى. وما تهدف لتحقيقه يحدّد ما تراه. هذا يستحقّ التكرار: ما تهدف لتحقيقه يحدّد ما تراه.

ما تريدهُ وما تراهُ

برهن عالم النفس المعرفي دانيال سيمونز منذ أكثر من خمسة عشر عامًا مضت –على نحو لا يمكن نسيانه– على اعتماد البصر على وجود هدف (وبالتالي، على القيمة؛ لأنك توجّه بصرك نحو ما تعلّق عليه قيمة)(72). كان سيمونز يدرس شيئًا يسمى « العمى المستديم الغافل»(24) sustained inattentional blindness، وكان يجعل الأفراد

الخاضعين للدراسة يجلسون أمام شاشة عرض، ويعرض لهم، على سبيل المثال، حقل قمح. ومن ثم، كان يقوم بتغيير الصورة ببطء، وبسرية من دون أن يعرفوا، أثناء مشاهدتهم لما يُعرض. كان يضيف إلى الصورة ببطء طريقًا يقطع حقل القمح. لم يكن يضع ممرًا صغيرًا يسهل عدم الانتباه إليه؛ بل كان يضيف طريقًا رئيسيًا يحتلّ ما يقارب ثُلث حجم الصورة. وكان الأمر اللافت للنظر أن المشاهدين كانوا كثيرًا ما يعجزون عن رؤيته.

وكانت التجربة التي جعلت الدكتور سيمونز شهيرًا تجربةً من النوع نفسه، ولكنها كانت أكثر إثارة؛ بل كانت لا تُصدّق. فأولًا، أنتج مقطع فيديو لفريقين كل منهما مكوّن من ثلاثة أشخاص(73). وكان أحد الفريقين يرتدي قمصانًا بيضاء، والآخر يرتدي قمصانًا سوداء. (لم يكن الفريقان يبعدان كثيرًا عن الكاميرا، ولم تكن تصعب رؤيتهما بأي حال من الأحوال. كان اللاعبون الستة يملأون معظم مساحة الشاشة، وكانت ملامح وجوههم قريبة بما يكفي لرؤيتها بوضوح). وكان مع كلِّ فريقٍ كرة خاصّة به، يلعب بها أفراد الفريق ويلقونها لبعضهم بعضًا أثناء تحرّكهم وقيامهم بالمراوغات في مساحة صغيرة أمام بعض المصاعد حيث تم تصوير اللعبة. وما أن انتهى دانيال سيمونز من تصوير الفيديو حتى قام بعرضه على المشاركين في دراسته.

طلب سيمونز من كل واحد من المشاركين أن يحصي عدد المرّات التي ألقى فيها الفريق الذي يرتدي القمصان البيضاء الكرة لبعضهم البعض. وبعد بضع دقائق، طلب من المشاركين تحديد عدد التمريرات. أجاب معظمهم: «15 تمريرة». كانت تلك هي الإجابة الصحيحة، وشعر أكثر المشاركين بالرضا عن إجابتهم. لقد اجتازوا الاختبار إذًا! لكن حينها كان الدكتور سيمونز يسأل كل واحد منهم: «وهل رأيت الغوريلا؟».

وكانوا يجيبون: «هل تمزح؟ أي غوريلا؟».

فيقول: «شاهد الفيديو مرة أخرى؛ لكن لا تُحصِ عدد التمريرات هذه المرة». وبوضوح تام، بعد دقيقة أو نحو ذلك من بداية الفيديو، يدخل رجل يرتدي بدلة غوريلا ويرقص الفالس في منتصف الملعب لبضع ثوانٍ طويلة، ثم يتوقّف، ويدقّ صدره بيديه بالطريقة النمطية المعتادة للغوريلا في كل مكان من الملعب. في منتصف الشاشة بالضبط. غوريلا كبيرة لا تخطئها عين. ظاهرة بوضوح مؤلم لا يقبل الجدل. لكنّ واحدًا من كل اثنين من المشاركين في الدراسة لم يرها في المرة الأولى التي شاهد فيها الفيديو. وما

زال هناك ما هو أسوأ من ذلك؛ فقد أجرى دكتور سيمونز دراسة أخرى. وفي هذه المرة، عرض على المشاركين فيديو لشخص يتلقّى خدمة ما على طاولة. وينحني النادل مختفيًا تحت الطاولة ليستردّ شيئًا سقط منه، ثم يعاود الظهور من جديد. ماذا إذًا؟ لا يكتشف معظم المشاركين أي خطأ في الفيديو هذه المرة أيضًا. ولكن الشّخص الذي عاد للظهور بعد انحناء النادل الأصلي كان شخصًا مختلفًا وليس هو نفسه النادل الأول! قد تقول لنفسك: « هذا مستحيل. كنت سألاحظ هذا». لكن الحقيقة أن « هذا ممكن». فثمة احتمال كبير أنك ما كنت لتكتشف التغيير، حتى لو اختلف جنس الشخص أو عرقه في الوقت نفسه. أنت أيضًا أعمى.

يرجع هذا جزئيًا إلى أن القدرة على الإبصار ثمينة؛ ثمينة من منظور نفسي فسيولوجي؛ وثمينة من منظور عصبي. إن جزءًا صغيرًا جدًّا من شبكية عينيك هو النُقرَة(25) **Fovea** عالية الدقّة؛ وهو الجزء المركزي عالي الدقّة من العين، والذي يستخدم في القيام بأشياء مثل التعرف على الوجوه. وتحتاج كل خليّة من خلايا النُقرَة النادرة إلى عشرة آلاف خلية في القشرة البصرية لمجرّد إجراء الجزء الأول من المعالجة متعدّدة المراحل للإبصار(74). ثم تحتاج كل خلية من تلك الخلايا البالغ عددها عشرة آلاف إلى عشرة آلاف

خلية إضافية فقط من أجل الوصول إلى المرحلة الثانية. ولو كانت شبكيّة عينيك كلّها مثل جزء النُقرَة لكنت بحاجة إلى جمجمة كائن فضائي عملاق من تلك التي تظهر في الأفلام التجارية الرخيصة لاستضافة دماغك. ونتيجة لذلك فإننا نقوم بعملية فرز عندما نبصر؛ فغالب بصرنا محيطي خارجي وذي دقة منخفضة. فنحن ندّخر النُقرَة للأشياء المهمّة؛ فنوجّه قدرات الدقّة العالية لأعيننا نحو الأشياء القليلة المحدّدة التي نهدف إلى رؤيتها بوضوح، ونترك كلّ شيء بخلاف ذلك -أي كل شيء تقريبًا- يذوي ويتلاشى في الخلفية، من دون أن نراه.

فإذا ظهر شيء لم تكن توليه انتباهك على نحو يتداخل مباشرة مع النشاط الحالي الذي توليه تركيزك، فسوف تراه. وبخلاف ذلك، لن يكون له وجود بالنسبة إليك. إن الكرة التي كان يركّز عليها المشاركون في دراسة سيمونز لم تُحجب قطّ بواسطة الغوريلا أو أي من اللاعبين الستة. ولهذا -أي لأن الغوريلا لم تتداخل مع المهمة المطلوبة والمحدّدة بدقّة- فقد كانت الغوريلا غير قابلة للتمييز مثل كلّ شيء آخر لم يره المشاركون حين كانوا يركّزون بصرهم على تلك الكرة. لذا أمكن تجاهل ذلك القرد الكبير بسهولة. وتلك هي الطريقة التي تتعامل بها مع التعقيد الشديد لهذا العالم:

إنك تتجاهل ذلك التعقيد بينما تركّز بدقّة على اهتماماتك الخاصة. إنك ترى الأشياء التي تسهِّل تحركك إلى الأمام؛ باتجاه أهدافك المنشودة. إنك تكتشف العقبات عندما تظهر في طريقك؛ ولكنك أعمى عن رؤية كلِّ شيء آخر (وثمة الكثير من الأشياء الأخرى؛ لذا فأنت أعمى للغاية). وهذا ما يجب أن تكون عليه الأمور، لأن العالم يحتوي على ما هو أكثر بكثير مما يخصّك أو يعنيك. وأنت لا بد أن ترعى مواردك المحدودة بعناية. إن الرؤية صعبة للغاية؛ لذا يجب عليك أن تختار ما تراه، وتتجاهل الباقي.

ثمة فكرة عميقة في النصوص الفيدية(26) القديمة (وهي أقدم مخطوطات الديانة الهندوسية، وجزء من أساس الثقافة الهندية): فالعالم، كما نراه، هو «مايا»؛ أي مظهر أو وهم. ويعني هذا جزئيًا أن الناس تُعميهم رغباتهم (كما أنهم غير قادرين فحسب على رؤية الأشياء على حقيقتها). وهذا صحيح على مستوى يتجاوز المجاز. إن عينيك أداتان. إنهما لديك لكي تساعداك في الحصول على ما تريد. والثمن الذي تدفعه مقابل هذه الأداة –ذلك الاتجاه المحدّد والمركز– هو العمى عن كل شيء آخر. لا يهمّ هذا كثيرًا عندما تسير الأمور على ما يرام، وننال ما نريد (على الرغم من أن ذلك قد يمثِّل مشكلة، حتى حين نحصل على ما نريد، لأن نيل ما نريد حاليًا يمكن أن يُعمينا عن واجبات أسمى). لكن كل ذلك العالم الذي

نتجاهله يمثّل مشكلة كبرى بحقٍّ عندما نكون في أزمة، وعندما لا يسير شيء مطلقًا على النحو الذي نريده. حينها، يمكن أن يكون هناك أشياء أكثر بكثير من قدرتنا على التعامل معها. ولكن من حسن الطالع أن تلك المشكلة تحتوي بداخلها على بذور حلّها. فنظرًا لأنك تجاهلت الكثير جدًا، فثمة احتمالات كثيرة متبقية لم تنظر فيها بعد.

تخيّل أنك شخصٌ تعيسٌ. أنت لا تحصل على ما تحتاجه. وعلى نحو غريب، قد يكون هذا بسبب ذلك الذي تريده نفسه. أنت أعمى بسبب ما تريده. ربما كان ما تحتاجه حقًّا موجودًا أمام عينيك مباشرةً، لكنّك لا تستطيع رؤيته بسبب ما تريده وتستهدف تحقيقه حاليًا. ويؤدي بنا هذا إلى شيء آخر، وهو: الثمن الذي لا بد من دفعه قبل أن تتمكّن أنت، أو أي شخص آخر، من الحصول على ما يريده (أو الأفضل من ذلك، ما يحتاجه). فكّر في الأمر بهذه الطريقة: أنت تنظر إلى العالم بطريقتك الخاصّة المميزة، وتستخدم مجموعة من الأدوات لحجب أغلب الأشياء بالخارج، والسماح بدخول بعض الأشياء القليلة. لقد قضيت الكثير من الوقت في بناء هذه الأدوات، وقد أصبحت مألوفة لك. إنها ليست مجرد أفكار مجرّدة؛ بل هي مدمجة فيك مباشرة، وهي توجّهك في هذا العالم. إنها قيمك الأكثر عمقًا،

وهي قيم ضمنيّة وغير واعية غالبًا. لقد أصبحت جزءًا من بنيتك البيولوجية. إنها أدوات حيّة؛ وهي لا تريد الاختفاء، أو التحوّل، أو الموت. لكن في بعض الأحيان، يحين أجلها، ويجب أن تولد أشياء جديدة. ولهذا السبب (على الرغم من أنه ليس هذا السبب وحده)، من الضروري أن تتخلّى عن بعض الأشياء في رحلة صعودك الشاقّة. فإذا كانت الأمور لا تسير على ما يرام معك؛ حسنًا، قد يكون ذلك لأن الحياة فاسدة، وفقًا لأكثر الأقوال المأثورة تشاؤمًا، ومن ثم تموت. لكن قبل أن تدفعك الأزمة التي تمرّ بها إلى تلك النتيجة البغيضة، فكّر في التالي: تلك ليست مشكلة الحياة؛ بل مشكلتك أنت. على الأقل، سيترك لك هذا الإدراك بعض الخيارات. فإذا كانت حياتك لا تسير على ما يرام، فربما كانت معرفتك الحاليّة منقوصة وغير ملائمة، وليس العيب في الحياة ذاتها. وربما كان هيكلك القيمي بحاجة إلى بعض التعديلات الجوهرية. ربما كان ما تريده يعميك عن غيره من الخيارات الممكنة. وربما كنت تتمسّك برغباتك، الحالية، بشدّة تعميك عن رؤية أي شيء آخر؛ ولو كان هذا الشيء هو ما تحتاجه بحقٍّ.

تخيَّل أنك تفكّر بطريقة تنطوي على الحسد قائلًا لنفسك: «ينبغي أن أفوز بوظيفة مديري». فإذا تمسَّك مديرك بوظيفته، بعناد، وبكفاءة، فإن أفكارًا

مثل هذه ستقودك إلى حالة من السخط، والتعاسة، والغضب. ولعلك تدرك هذا، فتقول لنفسك: «إنني تعيس؛ إلا أنني يمكن أن أشفى من هذه التعاسة لو أمكنني تحقيق طموحي فحسب». لكن يمكنك ألا تتوقّف عند هذا الحدِّ وتتابع التفكير قائلًا لنفسك: «مهلًا. ربما أنا لست تعيسًا لأنني لست في وظيفة مديري. لعلّي تعيس لأنني لا أستطيع التوقّف عن الرغبة في هذه الوظيفة». ولا يعني هذا أنه يمكنك أن تخبر نفسك ببساطة وبشكل سحري بأن تتوقّف عن الرغبة في تلك الوظيفة، ومن ثمَّ تعمل بهذه النصيحة وتتغير. إنك لن تغيّر نفسك – ولن تستطيع في الواقع أن تغيّر نفسك– بهذه السهولة. وعليك أن تصل إلى مستويات أعمق من ذلك. عليك أن تغيّر ما تسعى وراءه على نحو أعمق.

وهكذا، يمكنك أن تقول لنفسك: «لا أعرف ماذا أفعل حيال هذه المعاناة الغبيّة. لا يسعني التخلّي عن طموحاتي ببساطة؛ فهذا سيجعلني بلا غاية أسعى إلى تحقيقها. لكن توقي لوظيفة لا يمكنني الحصول عليها لن يفيدني بشيء». ويمكن أن تقرّر تبنّي موقفٍ مختلفٍ. فيمكنك أن تفكّر، بدلًا من ذلك، في الإلهام الذي قد تجلبه لك خطة مختلفة: خطة تشبع رغباتك وترضي طموحاتك حقًّا، لكنها خطة تزيل المرارة والاستياء اللذين تعاني

منهما الآن. يمكنك أن تقول لنفسك: «سوف أضع خطة بديلة. سأحاول أن أريد أيَّ شيء من شأنه أن يجعل حياتي أفضل -أيًا كان ذلك الشيء- وسأبدأ العمل على تحقيقه منذ الآن. وإذا كان هذا يعني شيئًا بخلاف مطاردة وظيفة مديري، فسوف أقبل بذلك وأتابع التقدّم للأمام».

وهكذا أصبحت الآن تتّخذ مسارًا مختلفًا تمامًا. قبل ذلك، كان مسعاك الصحيح، والمرغوب، والجدير بجهدك، مسعى ضيقًا ومحدَّدًا. لكنك أصبحت عالقًا في ذلك المسعى، مختنِقًا وتعيسًا إلى حدٍ بعيدٍ. لذا كان عليك التخلّي عنه. إنك تقدّم تضحية ضرورية، وتسمح لعالم جديد كامل من الاحتمالات أن يتجلّى أمامك؛ وهو عالم كان خافيًا عليك بسبب طموحك السابق. وثمة الكثير من الأشياء في ذلك العالم. فكيف ستبدو حياتك، لو كانت أفضل؟ كيف ستبدو الحياة ذاتها؟ ما الذي تعنيه حتى كلمة «أفضل»؟ أنت لا تعلم شيئًا عن هذا. ولا يهم أنك لا تعلم ذلك بالضبط، وعلى الفور، لأنك ستبدأ ببطء في رؤية ما تعنيه كلمة «أفضل»، بمجرّد أن تقرّر بحقّ أنك تريد ذلك الأفضل. سوف تبدأ في إدراك ما كان خافيًا عليك بسبب افتراضاتك المسبقة وأفكارك المسبقة؛ أي بسبب الآليات السابقة لرؤيتك. سوف تبدأ في التعلم. بيد أن كل هذا لن ينجح إلا

إذا كنت ترغب حقًّا في تحسين حياتك. إنك لا تستطيع خداع بنيتك الإدراكية الكامنة؛ ولا حتى بمقدار ذرّة. إن هذه البنية تستهدف ما توجِّهها إليه. ولكي تقوم بالمراجعة، والتعديل، والجرد، واستهداف الأفضل، عليك التفكير في الأمر مليًا، وعليك أن تقلّبه على جميع الأوجه وعلى كافة المستويات. عليك أن تصقل ذاتك. عليك أن تهذِّبها. وعليك أن تكون حذِرًا؛ لأن جعل حياتك أفضل يعني تحمّل مسؤولية كبيرة، وهذا يتطلّب جهدًا كبيرًا، وعناية كبيرة، مقارنة بالعيش بحماقة وسط الألم، والتمسّك بالكبر، والصلف، والخداع، والسخط.

وماذا لو كشف لك العالم عن ما يحتويه من خيرٍ على نحو يتناسب بالضبط مع رغبتك في تحقيق الأفضل؟ ماذا لو أن ارتقاء مفهومك عن الأفضل وتوسيعه، وتطويره، وتحسينه كان مرتبطًا بزيادة الاحتمالات والمكاسب التي يمكنك تحقيقها؟ لا يعني هذا أنه يمكنك الحصول على ما تريده فقط عن طريق تمنّيه، أو أن كل شيء في الحياة هو مجرد تأويل، أو أنه لا يوجد واقع حقيقي؛ فلا يزال العالم قائمًا كما هو، ببنيته وهيكله وحدوده. وأثناء تحركك فيه ومعه، يتعاون معك أو يعارضك. لكنك تستطيع الرقص معه، إذا كان هدفك هو الرقص؛ وربما يمكنك حتى أن تقوده

وتوجّهه، إذا كنت تمتلك ما يكفي من المهارة واللياقة والهبات لتفعل ذلك. ليست هذه نظرية لاهوتية. ليست تصوفًا. إنها معرفة تجريبية. لا يوجد سحرٌ هنا؛ أو لا يوجد سحر أكثر من سحر الوعي الموجود بالفعل. فنحن نرى فقط ما نستهدف رؤيته. أما باقي العالم (وهو الجزء الأكبر منه) فهو مختفٍ عن أعيننا. وإذا بدأنا نستهدف شيئًا مختلفًا –شيئًا من قبيل «أريد أن تكون حياتي أفضل»– فستبدأ عقولنا في أن تقدّم لنا معلومات جديدة– مستمدّة من العالم الذي كان خافيًا من قبل– من أجل مساعدتنا في سعينا ذاك. ومن ثم يمكننا استخدام هذه المعلومات، والتحرّك، والتصرّف، والرؤية، والتحسّن وفقًا لها. وبعد القيام بذلك، أي بعد التحسّن، يمكننا أن نسعى وراء شيء مختلف، أو شيء أسمى؛ شيء من قبيل: «أريد لكل شيء آخر بخلاف حياتي أن يكون أفضل». ومن ثم ندخل واقعًا أكثر رقيًّا واكتمالًا.

وما الذي يمكننا التركيز عليه في ذلك الواقع؟ ما الذي قد نراه؟

فكِّر في الأمر بهذه الطريقة. ابدأ بملاحظة أننا نرغب في الأشياء بالفعل؛ بل نحتاج إلى تلك الأشياء. تلك هي الطبيعة البشرية. إننا نشترك في الشعور

بالجوع، والوحدة، والعطش، والرغبة الجنسيّة، والعدوان، والخوف، والألم. مثل هذه الأشياء هي عناصر الكينونة؛ العناصر البدائية، البديهيّة، للكينونة. لكن يجب علينا فرز وتنظيم هذه الرغبات البدائيّة، لأن العالم مكان معقّد وواقعي على نحو صارم. فلا يمكننا ببساطة الحصول على الشيء الواحد المحدّد الذي نريده بشدة الآن فورًا، إلى جانب كل شيء آخر نريده عادة، لأن بعض رغباتنا يمكن أن تتعارض مع بعضها الآخر، وتتعارض مع رغبات الآخرين، ومع العالم. لذا، لا بد أن نكون واعين لرغباتنا، وأن نعبّر عنها، ونرتب أولوياتها، وننظّمها في تسلسلات هرميّة. وهذا يجعلها تتضافر مع بعضها بعضًا، ومع رغبات الآخرين، ومع العالم. وبهذه الطريقة، ترتقي رغباتنا بنفسها. بهذه الطريقة، تنظّم نفسها في صورة قيم وتصبح أخلاقية. إن قيمنا وأخلاقنا هي مؤشّرات على تطورنا.

إن الدراسة الفلسفيّة للأخلاق –دراسة الصواب والخطأ– هي الأخلاق. ومثل هذه الدراسة يمكن أن تجعلنا أكثر تطورًا في خياراتنا. إلا أن الدين أكبر وأعمق من الأخلاق. إن الدين لا يقتصر على الاهتمام بالصواب والخطأ، وإنما يهتمّ بالخير والشرّ ذاتهما؛ أي بالأنماط الأوّليّة للصواب والخطأ. يهتم الدين بنطاق القيمة، والقيمة المطلقة. ليس هذا بنطاق علمي؛

وليس مجالًا للوصف التجريبي. فعلى سبيل المثال، لم يكن الأشخاص الذين كتبوا وحرروا الكتاب المقدّس من العلماء. وما كان لهم أن يكونوا علماء، حتى إن أرادوا ذلك؛ فلم تكن وجهات النظر، والأساليب، والمناهج، والممارسات العلمية قد صيغت بعدُ وقت كتابة الكتاب المقدس.

يهتم الدين –بدلًا من ذلك– بالسلوكيات الصحيحة. يهتم بما أطلق عليه أفلاطون اسم «الخير». فالمتديّن الحقيقي الصادق لا يحاول صياغة أفكار دقيقة حول الطبيعة الموضوعية للعالم (على الرغم من أنه قد يحاول أن يفعل ذلك أيضًا). إنما هو يسعى لأن يكون «شخصًا صالحًا». ربما كانت كلمة «صالح» لا تعني بالنسبة إليه شيئًا أكثر من أن يكون «مطيعًا»؛ ولو طاعة عمياء. ومن هنا نشأ اعتراض التنوير الغربي الليبرالي الكلاسيكي على المعتقد الديني، وهو اعتراض مفاده أن: الطاعة وحدها لا تكفي. لكنها بداية على الأقل (وقد نسينا هذا): فأنت لا يمكنك أن توجه نفسك نحو أي شيء ما لم تكن منضبطًا ومتنوّرًا على نحو كامل. لن تعرف ما تهدف لتحقيقه، ولن تتوجّه نحوه مباشرة، حتى إذا استطعت بطريقة ما تحديد هدفك على نحو صحيح. ومن ثمَّ سوف تتوصّل إلى نتيجة مفادها: «لا يوجد شيء أهدف لتحقيقه»؛ ومن ثمَّ، سوف تكون تائهًا ضائعًا.

لذلك من الضروري والمرغوب فيه أن تنطوي الأديان على عنصر عقائدي دوجمائي قاطع. فما هي فائدة نظام قيمي لا يوفر هيكلًا مستقرًّا؟ ما فائدة نظام قيمي لا يَهدي مريديه إلى سبيل أقوم وأسمى؟ وما الفائدة التي يمكن أن تحقّقها إذا لم تستوعب، أو لم يمكنك أن تستوعب، ذلك الهيكل، أو أن تتقبّل ذلك السبيل؛ ليس بالضرورة على أنه الوجهة النهائية، وإنما بوصفه نقطة انطلاق على الأقل؟ من دون ذلك، أنتَ لست أكثر من شخص راشد عمره عامين فحسب، لكن من دون سحر الأطفال أو قدراتهم الكامنة. وأكرر أن هذا لا يعني أن الطاعة كافية. لكن الإنسان القادر على الطاعة – أو فلنقل الإنسان المنضبط، بدلًا من ذلك– هو –على أقل تقدير– أداة جيّدة الصنع. هو كذلك على الأقل (وهذا ليس قليلًا). بالطبع لا بد من وجود رؤية تتجاوز الانضباط؛ تتجاوز المُعتقد. فلا بد للأداة من غرض يُراد لها تحقيقه. ولمثل هذه الأسباب، قال السيد المسيح، في إنجيل توما: «ملكوت الآب مبسوط على الأرض والناس لا يرونه»(75).

هل يعني هذا أن ما نراه يعتمد على معتقداتنا الدينية؟ نعم! وما لا نراه أيضًا! قد تعترض قائلًا: «لكنني مُلحد منكر لوجود الله». وأقول لك، كلا، أنت لست كذلك (وإذا كنت تريد أن تفهم هذا، يمكنك أن تقرأ رواية دوستويفسكي «الجريمة والعقاب»، التي ربما كانت أعظم رواية كتبها بشرُ على الإطلاق، والتي يقرّر فيها الشخصية الرئيسية، راسكولنيكوف، أن يتعامل مع إلحاده بجدّية فاعلة، ويرتكب ما سوّلت له نفسه أنه جريمة قتل من أجل الخير، ولكنه يدفع الثمن). إنك ببساطة لست ملحدًا في أفعالك، وأفعالك هي التي تعكس بدقة أعمق معتقداتك؛ تلك المعتقدات الكامنة والراسخة بعمق في كيانك، تحت إدراكاتك الواعية، ومواقفك المُعلنة، ومعرفتك السطحية بذاتك. ويمكنك أن تعرف ما تؤمن به فعليًا (وليس ما تعتقد أنك تؤمن به) عن طريق مراقبة أفعالك. وإذا لم تفعل ذلك، فإنك ببساطة لا تعرف ما تؤمن به حقًا. إنك أكثر تعقيدًا من أن تفهم نفسك.

الأمر يتطلّب مراقبة دقيقة، وتعليمًا، وتأملًا، وتواصلًا مع الآخرين، لمجرد أن تخدش سطح معتقداتك. إن كل ما تقدره هو نتاج عمليات تطوّر مطوّلة ومعقّدة بقدر لا يمكن تصوّره؛ تطوّر شخصي، وثقافي، وبيولوجي. إنك لا تفهم كيف يكون ما تريده – وبالتالي، ما تراه– رهنٌ بالماضي السحيق،

الكبير، العميق. إنك ببساطة لا تفهم كيف تشكّلت كلّ دائرة عصبيّة تنظر من خلالها للعالم (على نحو مؤلم) من خلال الأهداف الأخلاقية لأسلافنا من البشر طوال ملايين السنوات الماضية، وطوال عمر الحياة الممتد لمليارات السنين قبل ظهور البشر.

أنت لا تفهم أي شيء.

أنت حتى لم تكن تعلم أنك أعمى.

لقد أمكن توثيق بعض معرفتنا بمعتقداتنا؛ إذ كنا نراقب أنفسنا في تصرفاتنا، ونتأمل ما نراقبه، ونروي حكايات مستخلصة من خلال ذلك التأمل، على مدار عشرات الآلاف من السنين، وربما مئات الآلاف. وهذا كلّه جزء من محاولاتنا، الفردية والجماعية، لاكتشاف معتقداتنا وصياغتها. وجزء من المعرفة المنتجة على هذا النحو هو ما تضمنته التعاليم الأساسية لأربع ثقافات، من خلال النّصوص القديمة، مثل كتاب « تاو تي

تشينج»(27)، أو النصوص الفيدية المقدّسة سالفة الذكر، أو قصص الكتاب المقدّس. والكتاب المقدّس –سواء أكان هذا أفضل أو أسوأ– هو النصّ التأسيسي للحضارة الغربية (القيم الغربيّة، والأخلاق الغربيّة، والمفاهيم الغربيّة للخير والشرّ). إنه نتاج عمليات لا تزال في الأساس تتجاوز نطاق فهمنا. والكتاب المقدّس هو مكتبة مؤلّفة من كتب عديدة، وكل واحد منها كتبه وحرّره أناسٌ عديدون. إنه حقًّا نص منبثق؛ أو قصة مُختارة، ومُسلسلة، ومتماسكة –في نهاية الأمر– كتبها الجميع ولم يكتبها أحد، على مدار آلاف عديدة من السّنوات. لقد انبثق الكتاب المقدّس من الأعماق بفضل الخيال الجمعي البشري، الذي كان بدوره نتاجًا لقوى يتعذّر تخيلها تعمل على مدر فترات زمنية ممتدّة وضاربة في أعماق التاريخ. ويمكن للدراسة المتأنّية والمُبَجِّلة للكتاب المقدَّس أن تكشف لنا أشياء حول ما نؤمن به، وكيف نتصرّف، وكيف يجب أن نتصرّف، على نحو لا يمكن أن يتكشّف لنا بأي طريقة أخرى.

إلهُ العهْدِ القديمِ وإلهُ العهْدِ الجديدِ

يمكن أن يبدو لنا أن إله العهد القديم قاسٍ، ناقدٌ، خطيرٌ، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته، لا سيما عند القراءة السطحية المتعجِّلة. ويمكن القول إن المعلّقين المسيحيين قد بالغوا في التّأكيد على صحّة هذا الأمر، رغبة منهم في تضخيم الفارق بين التقسيمات القديمة والجديدة للكتاب المقدّس. غير أنه كان ثمة ثمنٌ باهظٌ تم دفعه مقابل هذه المكيدة؛ وأقصد بذلك نزوع البشر المعاصرين، عند التحدّث عن يهوه(28)، إلى القول: « ما كنت لأؤمن قط بإله مثل هذا». لكن إله العهد القديم لا يبالي كثيرًا بما يظنه أو يقوله البشر المعاصرون. بل إنه كثيرًا ما كان لا يبالي بما يظنّه البشر المذكورون في العهد القديم ذاته، (على الرغم من أنه كان يمكن مساومته – إلى حدٍّ مثير للدهشة– كما هو واضح تمامًا في القصص الإبراهيمية). إلا أنه عندما كان شعبه ينحرف عن الطريق القويم –عندما كانوا يعصون أوامره، وينقضون عهوده، ويخالفون وصاياه– كانت المتاعب تحيق بهم يقينًا بعدها مباشرة. فلو أنك لم تستجب لأوامر إله العهد القديم –أيًّا كانت طبيعة تلك الأوامر، ومهما حاولت تجنّب الإذعان لها– فستواجه، أنت وأولادك وأحفادك، متاعب خطيرة مهلكة.

لقد كان الواقعيون هم من أوجدوا –أو أدركوا– إله العهد القديم. فعندما كان سكّان تلك المجتمعات القديمة يهيمون على وجوههم بلا مبالاة

سالكين السبيل الخاطئ، كان إله العهد القديم يحكم عليهم بالاستعباد والبؤس -لقرون ممتدّة أحيانًا- وذلك ما لم يقض عليهم بمحو وجودهم كلّيًا. فهل كان ذلك منطقيًّا؟ هل كان عادلًا؟ هل كان منصفًا؟ لم يطرح مؤلفو العهد القديم مثل هذه الأسئلة إلا بحذرٍ شديدٍ، وتحت ظروف محدَّدة للغاية. وبدلًا من طرح مثل هذه الأسئلة، افترضوا أن «خالق الوجود» يعرف ما يفعله، وأنه صاحب السلطان المطلق، وأن أوامره يجب أن تُتبع بعناية وتُطاع بخضوع. لقد كانوا حكماء؛ إذ كان هو «قوّة جبارة». وهل يجوز التساؤل عما إذا كان الأسد الجائع منطقيًّا، أو عادلًا، أو منصفًا؟ أي سؤال أحمق هذا؟ لقد أدرك بنو إسرائيل في العهد القديم وأسلافهم أنه لا يمكن العبث مع الله، وأن الجحيم الذي قد يفتح الإله الغاضب أبوابه إذا عُصيت أوامره هو جحيم حقيقي. وبما أننا عشنا مؤخّرًا في قرن وصمته الفظائع الرهيبة لهتلر، وستالين، وماو، فإننا قد ندرك الشيء نفسه الذي أدركه أولئك الحكماء.

أما إله العهد الجديد فغالبًا ما يُقدَّم كشخصيّة مختلفة (على الرغم من أن سِفر الرؤيا -آخر أسفار العهد الجديد- وحكمه النهائي، يحذّر من أي رضا عن النفس مفرط في سذاجته). فإله العهد الجديد ربٌ طيّبٌ، وصانعٌ بارعٌ،

وأبٌ خيِّرٌ. إنه لا يريد لنا سوى الخير. وهو كُلّي المحبة، وكُلّي الغفران. سوف يلقي بك إلى الجحيم بالطبع إذا أسأت التصرّف على نحو بالغ؛ إلا أنه في الأساس إله المحبّة. ويبدو هذا أكثر تفاؤلًا، وأكثر قبولًا لدى البشر، لكنّه (بالقدر نفسه تمامًا) أقل قابلية للتصديق. ففي عالم مثل هذا الذي نعيش فيه -في مستنقع الخسران والهلاك ذاك- من ذا يصدّق مثل هذه الرواية؟ هل يمكن تصديق صورة الإله كُلّي الخيريّة في عالم ما بعد معسكر أوشفيتز؟ ومن أجل أسباب كهذه، اعتبر الفيلسوف نيتشه -الذي ربما كان أكثر النقّاد الذين واجهوا المسيحيّة ذكاءً ودهاءً على الإطلاق- أن إله العهد الجديد هو أسوأ جريمة أدبيّة في التاريخ الغربي. ففي كتابه «ما وراء الخير والشر» **Beyond Good and Evil**، كتب يقول(**76**):

الاحترام «للعهد القديم» في «العهد القديم» اليهودي، في كتاب العدالة الإلهية، أناس وأشياء وأقوال عظيمة الطراز بحيث لا يمكن للكتابات اليونانية والهندية أن تضاهيها بشيء. والمرء يقف بوجل ورهبة أمام هذه البقايا العظيمة لما كان عليه الإنسان في زمن غابر، وتراوده أفكار محزنة حول آسيا القديمة وأوروبا شبه جزيرتها المتصدرة لها، التي تأبى إلّا أن تعني بالنظر إلى آسيا، «تقدّم الإنسان». والحق يقال: إن من كان هو نفسه مجرد

حيوان داجن أليف هزيل ولا يعرف سوى حاجات الحيوانات الداجنة (كالمتعلمين في أيامنا، بمن فيهم مسيحيو المسيحية «الثقفة») فليس عليه، لا أن يعجب ، ولا أن يحزن بأي حال تحت ذاك الركام من الأطلال –إن تذوّق العهد القديم فيصل لتفريق «الكبير» عن «الصغير» – وقد يجد العهد الجديد، كتاب الرحمة، أقرب إلى قلبه بقليل (وفيه الكثير من تلك الرائحة الناعمة الفاترة الصالحة لإخوان الصلاة والنفوس الصغيرة) إلصاق هذا العهد الجديد، وهو من كل النواحي نوع من الروكوكو الذوقي، بالعهد القديم، ليكوّنا معًا كتابًا واحدًا، هو « الإنجيل» كتاب الكتب: لعل وخز ضمير أوروبا الأدبي يكمن في ذلك التجرؤ الأكبر وتلك « الخطيئة الكبرى بحق الروح»(29). أليس من السذاجة المفرطة أن يفترض المرء أن مثل هذا «الكيان» الرحيم كُلي الخيريّة هو من يحكم هذا العالم الرهيب؟ غير أن الشيء الذي يبدو مستعصيًا على الفهم بالنسبة إلى شخص أعمى قد يكون بديهيًا تمامًا بالنسبة إلى شخص انفتحت عيناه وأصبح بصيرًا.

دعنا نعد إلى الموقف الذي يتحدَّد فيه هدفك بشيء تافه بسيط؛ وهو حسدك لمديرك المشار إليه آنفًا. إنه بسبب ذلك الحسد يظهر العالم الذي تعيش فيه على أنه مكان للمرارة، وخيبة الأمل، والحقد. تخيل أنك أصبحت

تلاحظ تعاستك، وتتأمّل فيها، وتعيد النظر. وإضافة إلى ذلك فقد قرّرت قبول مسؤوليتك عن تلك التعاسة، وجرؤت على افتراض أنها قد تكون شيئًا خاضعًا لسيطرتك؛ ولو بصورة جزئية على الأقل. يمكنك أن تفتح عينًا واحدة، لبرهة قصيرة، وتنظر. إنك تطلب شيئًا أفضل؛ تضحّي بتفاهتك، وتتوب من حسدك، وتفتح قلبك. وبدلًا من أن تلعن الظلام، تفتح الباب لدخول بعض الضوء. لقد قرّرت أن تسعى لحياة أفضل؛ بدلًا من أن تسعى لمكتب أفضل.

لكنك لا تتوقّف عند هذا الحدِّ؛ فأنت تدرك أنه من الخطأ أن تهدف إلى عيش حياة أفضل إذا كان ثمن ذلك أن تفسد حياة شخص آخر. لذا فإنك تُصبح مبدعًا؛ وتقرّر أن تلعب لعبة أكثر صعوبة. تقرّر أنك تريد حياة أفضل على نحو يجعل حياة عائلتك أيضًا أفضل؛ أو حياة عائلتك وأصدقائك؛ والغرباء المحيطين بهم. وماذا عن أعدائك؟

❞ هل ترغب في إدخالهم في اللعبة أيضًا؟ إنك لا تعرف على الإطلاق كيف يمكنك أن تفعل ذلك. لكنك قرأت شيئًا من التاريخ، وتعرف كيف تتفاقم الخصومة. لذا فإنك تبدأ في أن تتمنّى الخير حتى لأعدائك، من

حيث المبدأ على الأقل، على الرغم من أنك لم تتقن بعد، بأي حال من الأحوال، السّيطرة على هذه المشاعر.

ومن ثَّم يتغيّر اتجاه نظرك. تُصبح قادرًا على رؤية ما وراء القيود التي طوّقتك، من دون أن تدري. وتبرز احتمالات جديدة لحياتك، وتعمل جاهدًا من أجل تحقيقها. وتتحسّن حياتك بالفعل. ثم تبدأ تفكّر فيما هو أبعد من ذلك قائلًا لنفسك: «أفضل؟ ربما كان ذلك يعني أنها أفضل بالنسبة إليَّ، وإلى عائلتي وأصدقائي؛ وحتى بالنسبة إلى أعدائي. لكن هذا ليس كل ما في الأمر؛ فهو يعني أنها أفضل اليوم، على نحو يجعل كلَّ شيء أفضل غدًا، والأسبوعِ المقبل، والعام المقبل، وبعد عقد من الآن، وبعد مائة عام من الآن؛ وحتى بعد ألف عام من الآن. وأفضل إلى الأبد».

ومن ثمَّ يصبح معنى « أفضل» أن تهدف إلى « تحسين الكينونة». وبالتفكير في كل هذا –وتحقيق كل هذا– أنت تخاطر. أنت تقرِّر أنك ستبدأ في التعامل مع إله العهد القديم– بكل قوّته الرهيبة التي تبدو استبداديّة في كثير من الأحيان – كما لو كان يمكنه هو أيضًا أن يصبح إله

العهد الجديد (على الرغم من أنك تدرك أن ذلك من باب العبث السخيف في جوانب عديدة). وبعبارة أخرى، فإنك تقرِّر أن تتصرّف كما لو أنه يمكن تبرير الوجود من خلال ما فيه من خير؛ فقط لو أنك تصرّفت على النحو الملائم والصحيح. وذلك القرار عينه – ذلك الإعلان عن الإيمان الوجودي– هو ما يُمَكِّنك من التغلّب على العدمية، والسخط، والغرور. إعلان الإيمان ذاك هو ما ينأى بك عن كراهية «الوجود»، وعن كل الشرور المصاحبة لها. وفي ما يتعلّق بهذا الإيمان، فإنه لا يعني على الإطلاق الإيمان بأشياء تعرف يقينًا أنها خاطئة. الإيمان ليس هو الاعتقاد الطفولي بوجود السحر؛ بل هذا هو الجهل، أو حتى العمى المتعمِّد. إنما الإيمان هو إدراك أن اللاعقلانية المأساوية في الحياة لا بد أن يوازنها إيمان لا عقلاني موازٍ بالخيريّة الجوهريّة للوجود والكينونة. الإيمان هو إرادة التجرؤ على التطلّع لتحقيق ما هو غير قابل للتحقيق، وفي الوقت نفسه، التضحية بكل شيء، بما في ذلك (وأهم ما في ذلك) حياتك ذاتها. إنك تدرك أنه ليس لديك، فعليًا، شيءٌ أفضل تفعله. لكن كيف يمكنك أن تفعل كل هذا؟ – على افتراض أنك أحمق بما يكفي لأن تحاول.

يمكنك أن تبدأ بـ: عدم التفكير؛ أو –على نحو أكثر دقّة، ولكن أقل حسمًا– رفض إخضاع إيمانك لعقلانيتك الحالية، ونظرتها الضيقة. ولا يعني هذا أن «تجعل نفسك غبيًّا»؛ بل يعني عكس ذلك تمامًا. يعني أنه يجب عليك أن تكفّ عن المناورة، والحساب، والتواطؤ، والتآمر، والإكراه، والإلحاح، والتجنّب، والتجاهل، والمعاقبة. يعني أنه يجب عليك أن تنحّي استراتيجياتك القديمة جانبًا. ويعني أنه ينبغي عليك، بدلًا من كل ما سبق، أن تنتبه، لأنك ربما لم تكن قطُّ منتبهًا بحق من قبل.

انتبه

انتبه. ركِّز على محيطك، الماديّ والنفسي. راقب شيئًا يزعجك، ويقلقك، ولا يسمح لك بأن تستمتع بكينونتك، ويمكنك إصلاحه، وتريد إصلاحه. يمكنك أن تجد مثل هذه الأشياء عن طريق أن تطرح على نفسك (وكأنك تريد أن تعرف حقًّا) ثلاثة أسئلة: «ما الشيء الذي يزعجني؟»، «هل يمكنني إصلاح هذا الشيء؟»، و«هل أنا مستعدٌ حقًّا لإصلاحه؟». إذا وجدت أن الإجابة عن أحد هذه الأسئلة الثلاثة أو جميعها هي «لا»، فانظر في شيء

آخر. ابدأ بهدف صغير. ابحث حتى تجد شيئًا يزعجك، ويمكنك إصلاحه، وتريد إصلاحه، ثم أصلحه. وقد يكون هذا كافيًا ليوم واحد.

ربما كانت هناك كومة مكدّسة من الأوراق على مكتبك، وكنت تحاول تجنّب التعامل معها. إنك حتى لا تريد النظر إليها عندما تدخل غرفتك؛ فهي تحتوي على أشياء فظيعة: نماذج ضريبية، وفواتير، ورسائل من أناس يريدون أشياء لست على يقين أنك تستطيع تقديمها. راقب خوفك، وامنحه بعض التعاطف. ربما كانت ثمة حيّات في كومة الأوراق تلك؛ ربما كانت ستؤذيك. بل ربما كانت هناك رؤوس هيدرا؛ وإذا قطعت أحدها، فستظهر سبعة رؤوس أخرى. كيف يمكنك التكيّف مع ذلك؟

يمكنك أن تسأل نفسك: «هل هناك أي شيء قد أكون مستعدًا لفعله بشأن كومة الأوراق هذه؟ هل يمكنني أن أنظر في بعضها؟ لمدة عشرين دقيقة؟» وربما كان الجواب هو: «كلا!» ولكن قد يمكنك النظر فيها لمدة عشر دقائق، أو حتى خمس دقائق (وإذا لم يكن ذلك، فدقيقة واحدة). ابدأ بهذا؛ وسرعان ما ستجد أن خطورة هذه الكومة من الأوراق تتقلّص بشدة،

لمجرد أنك نظرت في جزء منها، وستجد أن الأمر كلّه عبارة عن أجزاء. وماذا لو قدّمت لنفسك كأسًا من النبيذ مع العشاء، أو استرخيت في أريكتك وبدأت القراءة، أو شاهدت فيلمًا سخيفًا، كمكافأة؟ وماذا لو طلبت من زوجتك، أو طلبت من زوجك، أن يقول لك: «أحسنت صنعًا» بعد أن تصلح الشيء الذي أصلحته، أيًا كان هذا الشيء؟ هل كان ذلك ليحفِّزك؟ قد يكون الأشخاص الذين ترغب في تلقّي الشكر منهم غير بارعين في تقديمه طواعية في البداية، ولكن هذا لا ينبغي أن يثبطك؛ فالناس يتعلّمون، حتى إذا كانوا غير بارعين على الإطلاق في البداية. اسأل نفسك ما الذي تحتاجه ومن شأنه أن يحفِّزك على إنجاز المهمة، بصدق، واستمع إلى الإجابة. لا تقل لنفسك: «لست بحاجة لأن أفعل ذلك لتحفيز نفسي». وماذا تعرف أنت عن نفسك؟ إنك أكثر الأشياء تعقيدًا في الكون بأكمله، من ناحية، ومن ناحية أخرى، أنت شخص لا يستطيع حتى ضبط منبه الميكروويف في منزلك. لذا، لا تبالغ في تقدير معرفتك بذاتك.

دع مهمات اليوم تعلن عن نفسها أمامك لتفكِّر فيها. ربما يمكنك أن تفعل هذا في الصباح، أثناء جلوسك على حافة سريرك قبل أن تنهض منه. ويمكنك أن تجرِّب فعل هذا في الليلة السابقة، أثناء استعدادك للنوم. ثم

اطلب من نفسك إسهامًا طوعيًا من جانبها. إذا طلبت منها بلطف، وانصت لها باهتمام، ولم تحاول أن تغش أو تخادع، فقد تقدِّم لك مثل هذا الإسهام. افعل هذا كل يوم، لفترة من الزمن؛ ثم افعله طوال ما بقي من حياتك. وسرعان ما ستجد نفسك في موقف مختلف. فحينئذ ستكون قد اعتدت على أن تسأل نفسك: «ما الذي يمكنني فعله، وأريد فعله، لجعل الحياة أفضل قليلًا؟». كما أنك لا تملي على نفسك ما يجب أن يكون «الأفضل». إنك لست مستبدًّا أو طوباويًّا، حتى مع نفسك، لأنك أدركت من خلال معرفتك بالنازيين، والسوفييت، والماويين، ومن تجربتك الشخصيّة، أن كونك شموليًّا هو أمر سيّئ. اسع لتحقيق هدفٍ سامٍ. اجعل هدفك هو تحسين « الكينونة». ألزم نفسك – من صميم روحك– بـ«الصدق» و«الخير الأسمى». ثمة نظام صالح للحياة ينبغي تأسيسه، وجمال ينبغي إخراجه للوجود. وثمة شرٌّ ينبغي هزيمته، ومعاناة يجب التخفيف منها، وذاتٌ يجب تحسينها.

وفي تقديري، تلك هي ذروة أخلاق الشريعة الغربية.

وهي كذلك الرسالة التي توصلها لنا المقاطع الحماسيّة الرائعة، والمثيرة لحيرة أبدية، التي اشتملت عليها موعظة المسيح على الجبل، وهي –بطريقة

ما– جوهر حكمة العهد الجديد. إنها محاولة «الروح البشرية» لتحويل فهمنا للأخلاق من النهي الأوّلي الضروري: «لا تفعل...»، الشبيه بمخاطبة الأطفال، ومن الوصايا العشر، إلى الرؤية الواضحة تمامًا، والإيجابية، للإنسان الحقيقي. إنها ليست فقط التعبير عن التحكُّم في الذات، وضبط النفس، المثير للإعجاب، بل هي أيضًا الرغبة الجوهرية في إصلاح العالم. إنها ليست التوقّف عن الخطيئة، وإنما هي نقيض الخطيئة؛ هي الخير ذاته. إن موعظة الجبل توضح الطبيعة الحقيقية للإنسان، والغاية الصحيحة للجنس البشري: ركّز على اليوم حتى يمكنك العيش في الحاضر، وانتبه بشكل كامل ومناسب لما هو أمامك مباشرة؛ لكن لا تفعل ذلك إلا بعد أن تقرِّر السماح لما هو بداخلك بأن يشرق ويتألق، بحيث يمكن أن يبرر الوجود، ويضيء العالم. افعل ذلك فقط بعد أن تعقد العزم على التضحية بكل ما يجب عليك التضحية به لكي يمكنك السعي وراء الخير الأسمى.

تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ.
وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا.
فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟
فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟

فَإِنَّ هذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الأُمَمُ. لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذِهِ كُلِّهَا.

لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ.

فَلاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ.

(لوقا 12: 22–34)

الإدراك هو بزوغ الفجر. لذا، بدلًا من أن تلعب دور الطاغية المستبدّ، أنت تنتبه وتولي اهتمامك. أنت تقول الحق، ولا تتلاعب بالعالم؛ تتفاوض، ولا تلعب دور الشهيد أو الطاغية. لم تعد هناك ضرورة للغيرة والحسد، لأنك لم تعد تعلم يقينًا ما إذا كان شخص آخر أفضل منك حالًا أم لا. لم تعد مضطرًا للشعور بالإحباط، لأنك تعلّمت ألا تطمح كثيرًا، وأن تكون صبورًا. إنك تستكشف حقيقة ذاتك، وما تريده، وما أنت مستعد لأن تفعله. إنك تعرف أن حلول مشكلاتك الشخصيّة الفريدة لا بد أن تكون مصمَّمة خصيصًا من أجلك، من أجلك أنت وحدك. إنك أقل اهتمامًا بأفعال الآخرين، لأن لديك الكثير مما يجب أن تفعله أنت نفسك.

اهتمّ بأمر اليوم، ولكن اسعَ لتحقيق الخير الأسمى.

والآن، أصبح مسارك يتّجه نحو السماء. وهذا يجعلك مفعمًا بالأمل. فحتى رجل على متن سفينة غارقة يمكن أن يسعد عندما يعتلي سطح قارب نجاة! ومن يدري إلى أين يمكن أن يذهب في المستقبل. إن خوض الرحلة بسعادة من الممكن جدًا أن يكون أفضل من بلوغ الغاية بنجاح...

اسأل تُعطى. اقرع يُفتح لك. إذا سألت وكأنك تريد حقًا أن تُعطى، وإذا قرعت وكأنك تريد حقًّا أن تدخل، فقد تنال فرصة تحسين حياتك، قليلًا؛ أو كثيرًا؛ أو كلّيًّا – وبهذا التحسّن، سيتحقّق بعض التقدّم في الكينونة والوجود ذاتهما.

قارن نفسك بما كُنته بالأمس، وليس بإنسان آخر اليوم.

القاعدة 5

لا تجعل أطفالَك يفعلون أيَّ شيءٍ يدفعك إلى عدم حبهم

في الواقع، الأمر ليس على ما يرام

رأيت مؤخّرًا صبيًا في الثالثة من عمره يتبع والدته ووالده ببطء في مطار مزدحم. كان يصرخ بعنف كل خمس ثوانٍ – والأهم من ذلك، أنه كان يفعل ذلك عفويًّا من دون سبب واضح. ولم يكن واضحًا أن هذه النوبة من الصراخ توشك على الانتهاء. فبصفتي والدًا، استطعت أن أميّز هذا من نغمة صراخه. لقد كان يثير غضب والديه ومئات الأشخاص الآخرين ليلفت الانتباه إليه. لعلّه كان بحاجة إلى شيء ما. لكن هذه لم تكن طريقة مناسبة للحصول عليه، وكان ينبغي على والديه إخباره بذلك. قد تعترض قائلًا إنهما «ربما كانا منهكين ومتعبين من اختلاف التوقيت بعد رحلة طويلة». غير أن ثلاثين ثانية فحسب يستخدمان فيها مهارة حلّ المشكلات بعناية كانت كفيلة بإنهاء هذا المشهد المخزي. إن أي والدين أكثر حصافة ما كانا ليسمحا بأن يصبح شخص يهتمان لأمره حقًّا محط ازدراء العامة.

وقد رأيت أيضًا زوجين كانا غير قادرين على أن يقولا لا لابنهما البالغ من العمر عامين -أو غير راغبين في ذلك- وكانا مضطرّين إلى المشي وراءه تمامًا في كل مكان يذهب إليه، في كل لحظة مما كان يفترض أن يكون زيارة اجتماعية مبهجة، وذلك لأن الطفل كان يسيء التصرّف بشدة عندما لا يُتابع عن كثب، لدرجة أنه لا يمكن أن يحظى بثانية من الحرية الحقيقية من دون مخاطرة. لقد أدّت رغبة والديه في تركه يتصرّف من دون تقويم من جانبهما لكلِّ تصرّفٍ مندفعٍ إلى إحداث تأثير معاكس تمامًا: لقد حرماه بدلًا من ذلك من كل فرصة للانخراط في فعلٍ مستقلٍّ. ولأنهما لم يجرؤا على تعليمه معنى كلمة «لا»، لم يكن لديه إدراك للحدود المعقولة التي تتيح أقصى قدر من الاستقلال الذاتي للأطفال. لقد كان ذلك مثالًا كلاسيكيًا على فوضى زائدة عن الحد تؤدّي إلى نظام زائد عن الحد (وما يتمخّض عنه ذلك من نتائج عكسيّة حتميّة). ورأيت كذلك والدين لم يتمكّنا من الاشتراك في محادثة مع البالغين في مأدبة عشاء لأن طفليهما - البالغ عمريهما أربع وخمس سنوات- هيمنا على المشهد الاجتماعي، وأكلا اللُباب من كل شرائح الخبز، مما أخضع الجميع لاستبدادهما الطفولي،

على مرأى ومسمع من الأب والأم، الشاعرين بالحرج، واللذين لا يستطيعان التدخّل.

عندما كانت ابنتي –التي صارت بالغة الآن– طفلةً، ضربها طفل آخر على رأسها بلعبة شاحنة معدنية. ورأيت الطفل نفسه –بعد سنة من تلك الواقعة– يدفع أخته الصغيرة بطريقة وحشية للخلف على طاولة ذات سطح زجاجيٍّ هشٍّ. حملته والدته بعد ذلك مباشرةً (بدلًا من أن تحمل ابنتها الصغيرة المذعورة)، وأخبرته بنبرة هادئة ألا يقوم بمثل هذه الأفعال مجدّدًا، في حين كانت تربّت عليه برفق بطريقة تنمّ بوضوح عن قبول لأفعاله. وهذه الطريقة في التربية من شأنها أن تنتج شخصًا يعتقد بأنه إله الكون. وهذا هو الهدف غير المعلن للعديد من الأمهات، بمن فيهنَّ أولئك اللاتي يعتبرن أنفسهنّ مناصرات للمساواة التامّة بين الجنسين. أولئك النسوة سوف تعترضن بشدة على أي أمر ينطق به ذكر بالغ، لكنّهنّ سوف يهرولن بعد ذلك بثوانٍ لإعداد شطيرة من زبدة الفول السوداني لولدها إذا طلب ذلك وهو منشغل بلعب لعبة فيديو وهو ممتلئ بشعور بأهميته الذاتية. إن الزوجات المستقبليات لمثل هؤلاء الأولاد لديهنَّ كلّ الحقّ في كراهية حمواتهنَّ. وماذا عن احترام

المرأة؟ هذا أمر يلتزم به الأولاد الآخرون، والرجال الآخرون؛ وليس أولادهنَّ الأعزاء.

وربما كان شيء مشابه إلى حد ما هو السبب وراء تفضيل الأطفال الذكور الذي نراه في بلدان مثل الهند، وباكستان، والصين، حيث تشيع ممارسة الإجهاض على حسب جنس الجنين. وتعزو التدوينة المنشورة على موقع ويكيبيديا حول هذه الممارسة أسبابها إلى «الأعراف الثقافية» التي تُفضِّل الأطفال الذكور على الإناث. (وأنا أقتبس من ويكيبيديا لأنه يُكتب ويُحرّر بشكل جماعي، ومن ثمَّ فهو المكان الأمثل لإيجاد الحكمة المقبولة). لكن لا يوجد دليل على أن هذه الأفكار تُعزى إلى الثقافة فحسب. فثمة أسباب نفسية بيولوجية معقولة لتطوّر مثل هذا التوجّه، وهي ليست أسبابًا جذّابة من منظور المساواة الحديث. فإذا أجبرتك الظروف على وضع البيض كلّه في سلة واحدة، إن جاز التعبير، فعندئذ يكون الابن رهانًا أفضل، وفقًا للمعايير الصارمة للمنطق التطوّري، حيث يكون تكاثر جيناتك هو أهم ما في الأمر. ولماذا؟

حسنًا، قد تكسبك ابنتك الناجحة من وجهة نظر إنجابية ثمانية أو تسعة أطفال. وقد كان لدى بيتا شوارتز – إحدى الناجيات من مذابح الهولوكوست، والتي تعتبر مثالًا بارزًا في هذا الشأن– ثلاثة أجيال من النسل المباشر يماثلونها في جودة الأداء. لقد كانت جدة لما يقرب من ألفي شخص عند وفاتها في عام 2010(77).

ولكن بالنسبة للابن الناجح من وجهة النظر الإنجابية، لا توجد حدود حقًّا؛ حيث تكون ممارسة الجنس مع عدة إناث هي تذكرته للتكاثر الأسي المتضاعف (نظرًا إلى القيود العمليّة المفروضة على الجنس البشري من حيث عدد الولادات). وتشير الشائعات إلى أن كلًّا من الممثل وارن بيتي، والرياضي ويلت تشامبرلين، قد ضاجعا آلاف النساء (وهو أمر شائع أيضًا بين نجوم موسيقى الروك). إنهما لم ينجبا أطفالًا بهذه الأعداد؛ حيث تحدّ وسائل تحديد النسل الحديثة من ذلك، لكن بعض المشاهير المماثلين فعلوا ذلك في الماضي. فعلى سبيل المثال، سلف سلالة تشينغ، جيوكانجا (حوالى عام 1550)، هو السلف الذكر لمليون ونصف المليون إنسان في شمال شرقي الصين(78). وقد أنتجت سلالة أونيل التي تعود إلى العصور الوسطى ما يصل إلى ثلاثة ملايين من الذرية الذكور، الذين يعيشون بالأساس في شمال غربي أيرلندا وفي الولايات المتحدة، من خلال الهجرة الأيرلندية(79). ويأتي على رأس هؤلاء جميعًا، جنكيز خان، القائد

العسكري الذي غزا أكثر أنحاء آسيا، والذي يُعد سلف 8 بالمائة من الرجال في آسيا الوسطى؛ أي ستة عشر مليون من الذرية الذكور، بعد 34 جيلًا(80). لذا، ومن وجهة نظر بيولوجية عميقة، ثمة أسباب تجعل الآباء يفضِّلون الأبناء إلى حدٍّ يكفي للقضاء على الأجنّة الإناث، على الرغم من أنني لا أزعم وجود علاقة سببية مباشرة، كما لا أشير إلى انعدام وجود أسباب أخرى أكثر اعتمادًا على الثقافة.

قد تفضي المعاملة التفضيليّة التي يحظى بها الابن أثناء التنشئة إلى إنتاج رجل جذّاب، موفور الصحة، وواثق من نفسه. وقد حدث هذا في حالة أبي التحليل النفسي، سيجموند فرويد، بحسب روايته؛ إذ يقول: «إن رجلًا كان هو الطفل المفضل بلا منازع لدى والدته يحافظ طوال حياته على شعور المنتصر؛ تلك الثّقة في النجاح التي غالبًا ما تؤدّي إلى النجاح الحقيقي»(81). لا بأس. ولكن «شعور المنتصر» يمكن أن يتحوّل بسهولة بالغة إلى «استبداد حقيقي». فقد جاء نجاح جنكيز خان الإنجابي المتميّز بكل تأكيد على حساب أي نجاح من أي نوعٍ قد يحقّقه آخرون في هذا الجانب (بما في ذلك ملايين القتلى من الصينيين، والفرس، والروس، والمجريين). لذا فإن تدليل الابن قد يكون أمرًا جيدًا من وجهة نظر «الجين

الأناني» (حيث يسمح لجينات الطفل المفضل بتكرار نفسها في عدد لا يحصى من ذريته)، بحسب التعبير الشهير لعالم الأحياء التطوري ريتشارد دوكينز(30)، ولكنه قد يؤدّي إلى مشهد مظلم ومؤلم، حيث يتحوّل إلى شيء خطير إلى حدٍّ لا يوصف.

ولا يعني أي مما ذكرناه أن جميع الأمهات يفضِّلن جميع الأبناء الذكور على البنات (أو أن البنات لا يكنَّ مفضّلات على الأبناء الذكور أحيانًا، أو أن الآباء لا يفضلون أحيانًا أبناءهم الذكور)؛ إذ من الواضح أن ثمة عوامل أخرى يمكن أن تهيمن. ففي بعض الأحيان، على سبيل المثال، تتجاوز الكراهية اللاواعية (والتي قد تكون واعية أيضًا في أحيان أخرى) أي قلق يساور أحد الوالدين بشأن أي طفل، بغض النظر عن الجنس، أو الشخصية، أو الحالة. لقد رأيت صبيًّا في الرابعة من عمره كثيرًا ما يُترك جائعًا. لقد أصيبت مربيته، وكان يتم تدويره بين الجيران من أجل الرعاية المؤقّتة. وعندما تركته والدته لدينا في منزلنا، قالت إنه لن يأكل إطلاقًا، طوال اليوم، وقالت: «لا بأس، الأمر على ما رام». ولكن لم يكن الأمر على ما يرام (في حال كنت بحاجة إلى قول هذا). كان هذا الصبي البالغ من العمر أربع سنوات هو نفسه الذي تشبّث بزوجتي لساعات بلوعةٍ مطلقةٍ والتزامٍ تامٍّ، عندما

تمكّنت بكل عناد، وإصرار، ورحمة، من إطعامه وجبة غداء كاملة، ومكافأته طوال فترة تناول الوجبة من أجل تعاونه معها، ورفضها السماح له برفض الطعام. كان قد بدأ بفم مغلق وهو جالس معنا جميعًا إلى مائدة غرفة الطعام؛ أنا، وزوجتي، وطفلينا، وطفلين من أطفال الحي تولّينا رعايتهما خلال اليوم. وضعت زوجتي الملعقة أمام فمه منتظرةً بصبر وإصرار، بينما كان يحرّك رأسه للأمام وللخلف رافضًا دخول الملعقة فمه مستخدمًا طرقًا دفاعية نموذجية لطفل متمرّد عمره عامين لا يحظى برعاية جيّدة.

لكنها لم تسمح له بالرفض. كانت تربّت على رأسه في كل مرة يفتح فيها فمه ويتناول ملعقة من الطعام، وتقول له بصدق إنه «ولد جيد» عندما يفتح فمه. لقد كانت تعتقد حقًّا أنه ولد جيّد. لقد كان ولدًا لطيفًا ومحطّمًا. وبعد عشر دقائق لم تتكبّد فيها عناء كبيرًا، كان قد انتهى من وجبته. كنا نراقبه جميعًا باهتمام؛ فقد كانت تلك دراما حياة أو موت.

قالت زوجتي وهي ممسكة بطبق طعام الصبي: «انظر. لقد أنهيت طعامك كلّه». وعلى الفور ابتسم الصبي ابتسامةً عريضةً ومشرقة؛ إنه هو الصبي

نفسه الذي كان واقفًا في زاوية المكان برغبته ويتملّكه الأسى عندما رأيته للمرة الأولى؛ الصبي الذي لم يتفاعل مع الأطفال الآخرين وكان يعلو وجهه عبوسٌ دائمٌ؛ الصبي الذي لم يستجب لي عندما دغدغته ولاطفته محاولًا حمله على اللعب. وقد أسعد هذا جميع الجالسين إلى المائدة. وحتى بعد مرور عشرين عامًا، وبينما أكتب عن هذه الواقعة الآن، لا تزال عيناي تترقرقان بالدموعِ. وبعدها، أصبح يتبع زوجتي في أرجاء البيت كجروٍ صغيرٍ بقيّة اليوم ولم يدعها تغيب عن ناظريه. وعندما كانت تجلس، كان يقفز في حجرها، ويحتضنها، وقد فتح ذراعيه للعالم من جديد، ملتمسًا بيأس الحب الذي لطالما افتقده. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، عادت والدته في وقت مبكر عن المتّفق عليه، ودخلت إلى الحجرة التي كنا نجلس فيها جميعًا. تمتمت باستياء وهي ترى ابنها متكورًا في حجر زوجتي قائلةً: «أوه يا لكِ من أم خارقة!» ومن ثمَّ رحلت بقلب أسود قاتل لم يتأثر ولم يتغير فيه شيء، وفي يدها طفلها الذي قُدِرَ له الشقاء. كانت تلك الأم متخصِّصة في علم النفس؛ أي إنها كانت تدرك مثل هذه الأمور تمامًا. لكن لا عجب أن الناس يفضّلون أن يبقوا عميانًا.

الجميعُ يكرهونَ الحسابَ

كثيرًا ما يأتيني عملاء لمناقشة مشكلاتهم العائلية اليومية. ومثل هذه الهواجس اليومية العادية ماكرة وخبيثة؛ فتكرارها المعتاد والمتوقّع يجعلها تبدو تافهة، لكن هذا المظهر الذي يوحي بالتفاهة خادع: فالأشياء التي تحدث كل يوم هي حقًّا التي تشكِّل حياتنا، والوقت الذي نقضيه بالطريقة نفسها مرارًا وتكرارًا يتزايد بمعدل ينذر بالخطر. لقد تحدّث معي أحد الآباء مؤخّرًا عن المتاعب التي يواجهها عند جعل ابنه يخلد للنوم ليلًا(31)؛ وهو طقس يومي يستمر عادةً لمدة ساعة إلا ربع من الشجار. قمت بإجراء عملية حسابية: خمسٌ وأربعون دقيقة في اليوم، طيلة سبعة أيام في الأسبوع؛ تلك ثلاثمائة دقيقة، أو خمس ساعات أسبوعيًا. وبضرب خمس ساعات في الأسبوع في أربعة أسابيع شهريًا، تكون النتيجة عشرين ساعة شهريًا. وبضرب عشرين ساعة في الشهر في اثني عشر شهرًا، تكون النتيجة مائتين وأربعين ساعة سنويًا. وهذا الوقت يعادل شهرًا ونصف شهر عمل في وظيفة عادية عدد ساعات العمل فيها أربعين ساعة في الأسبوع.

كان العميل يقضي شهرًا ونصف شهر بمعدل أسابيع العمل سنويًا في شجار عقيم وبائس مع ابنه. وغني عن القول إن كليهما كانا يعانيان جراء ذلك. فبغض النظر عن مدى حسن نواياك، أو مزاجك اللطيف وتسامحك، فإنك لن تستطيع الحفاظ على علاقات جيّدة مع شخص تتشاجر معه لمدة شهر ونصف الشهر سنويًا بمعدل أسابيع العمل. سوف يتراكم الاستياء حتمًا. وحتى لو لم يحدث ذلك، فمن البديهي أن كل ذلك الوقت الضائع البغيض كان يمكن قضاؤه في أنشطة أكثر فائدة ومنفعة ومتعة، وأقل توترًا وضغطًا. وكيف لنا أن نفهم حالات مثل هذه؟ أين تكمن المشكلة؛ في الأب أم في الابن؟ في الطبيعة أم في المجتمع؟ وما الذي يمكن فعله، إن كان ثمة شيء يمكن فعله؟

يميل البعض إلى إلقاء مسؤولية جميع المشاكل من هذا النوع على عاتق الشخص البالغ، سواء أكان الأب أو المجتمع الأوسع نطاقًا. ويعتقد هؤلاء الناس أنه «لا يوجد طفل سيِّئ، ولكن يوجد آباء سيّئون». وتبدو هذه الفكرة مبرّرة تمامًا عند تخيل الصورة المثالية للأطفال الأبرياء الأنقياء. إن صفات الجمال، والانفتاح، والبهجة، والثقة، والقدرة على الحب، التي يتّسم بها الأطفال تجعل من السهل إلقاء المسؤوليّة الكاملة على الشخص البالغ.

لكن هذا التوجّه الذهني في التفكير رومانسي إلى حدٍّ ساذجٍ وخطيرٍ؛ وهو متحيّز لجانب واحد في حالة والدين رُزِقا بابن أو ابنة صعبة المراس. كما أن عزو كل أشكال الفساد البشري إلى المجتمع من دون تفكيرٍ ليس بالأمر الجيّد. ولا يؤدّي هذا الاستنتاج سوى لترحيل المشكلة إلى الماضي. وهو لا يفسّر شيئًا ولا يحلّ أيّ مشكلة. فإذا كان المجتمع فاسدًا، ولكن أفراده غير فاسدين، فأين منشأ الفساد إذًا؟ وكيف انتشر؟ إنها نظرية أيديولوجية بعمق وأحاديّة الجانب.

والأمر الأكثر صعوبة وإثارة للمتاعب هو الإصرار –الناشئ منطقيًّا عن هذا الافتراض للفساد الاجتماعي–، على أن جميع المشكلات الفردية –مهما كانت ندرتها– لا بد من حلّها عن طريق إعادة هيكلة ثقافيّة، بغض النظر عن مدى جذريّتها. ويواجه مجتمعنا دعاوى متزايدة إلى تفكيك التقاليد التي يقوم عليها استقراره لكي يحتوي أعدادًا ضئيلة من الأشخاص الذين لا يندرجون في الفئات التي ترتكز عليها مفاهيمنا أو لا يرغبون في ذلك. وهذا ليس بالأمر الجيّد؛ فليس من الممكن حلّ مشكلة كلِّ شخصٍ عن طريق ثورة اجتماعيّة، لأن الثورات خطيرة ومزعزعة للاستقرار. لقد تعلّمنا أن نتعايش معًا وننظم مجتمعاتنا المعقّدة ببطء وعلى نحو تدريجي، على امتداد

فترات زمنيّة ممتدة، ونحن لا نفهم بدقة كافية لماذا يفلح هذا. لذا فإن تغيير أساليب حياتنا الاجتماعية بلا مبالاة من أجل بعض اللغو الأيديولوجي (والتنوع هو أول ما يتبادر إلى ذهني من هذا اللغو) سينتج عنه على الأرجح مشكلات تفوق النفع الذي قد يعود منه، وذلك بالنظر إلى المعاناة التي تتمخّض عنها الثورات عمومًا، حتى الصغيرة منها.

هل كان تحرير قوانين الطلاق تمامًا في ستينيات القرن العشرين –على سبيل المثال– أمرًا جيِّدًا حقًّا؟ لا أعتقد بأن الأطفال الذين هُدِمَت حياتهم بسبب الحرّيّة المفترضة التي قدّمتها هذه المحاولة للتّحرير سوف يقولون ذلك. إن الرعب والفزع يكمنان خلف الأسوار التي أورثها لنا أسلافنا بحكمة. ونحن نهدم تلك الأسوار ونعرض أنفسنا للخطر. إننا نتزلج –من دون وعيٍ– فوق طبقة رقيقة من الجليد، تحتها مياه عميقة باردة، تختبئ فيها وحوش لا يمكن تصوّرها.

وأنا أرى أن أولياء الأمور اليوم يخشون أطفالهم، لأسباب ليس أقلّها أنه ينظر إليهم على أنهم وكلاء لذلك الطغيان الاجتماعي المفترض، وفي الوقت

نفسه يُبخَسون حقّهم في التقدير المستحقّ لهم من أجل دورهم كوكلاء مُحبّين ضروريين لفرض الانضباط، والنظام، والتمسّك بالعادات والتقاليد. إنهم قابعون بتفكيرهم على نحو غير مريحٍ وبوعيٍ ذاتيٍ في الظلِّ هائلِ القوة لأخلاقيّات المراهقين في ستينيّات القرن العشرين، وهو عِقد اتسم بالتجاوزات والانغاس في الموبقات على نحو أدّى إلى تشويه عام لسن البلوغ، وإنكار بلا تفكير لوجود سلطة كفؤة، وانعدام القدرة على التمييز بين فوضى عدم النضج والحرّية المسؤولة. وقد أدى ذلك إلى زيادة حساسيّة الوالدين تجاه المعاناة العاطفية قصيرة الأمد لأطفالهم، مع زيادة خوفهم من الإضرار بأطفالهم إلى درجة مؤلمة ومُعَوّقة. وقد يحتج البعض بأن هذا أفضل من النتيجة العكسيّة؛ ولكن ثمة كوارث تكمن عند طرفي النّقيض لكلِّ متّصلٍ أخلاقيٍّ.

الهمجيُّ الحقيرُ

يُقال إن كلَّ إنسانٍ هو تابع – بوعيٍ أو بغير وعيٍ– لفيلسوف مؤثّر ما. والاعتقاد القائل بأن أرواح الأطفال نقيّة بالفطرة، ولا يخرّبها سوى المجتمع والثقافة، هو اعتقادٌ مستمدٌّ بقدرٍ كبيرٍ من فيلسوف القرن الثامن عشر

السويسري الفرنسي، جان جاك روسّو(82). كان روسّو شديد الإيمان بالتأثير الفاسد للمجتمع البشري والملكية الخاصة على حدٍّ سواء. وقد زعم أنه لا يوجد ما هو ألطف وأروع من الإنسان في حالته قبل الحضارية. وفي الوقت نفسه بالضبط، هجر روسّو –وقد أدرك عجزه كأب– خمسة من أبنائه وتركهم للصدقات العطوفة والقاتلة لدور الأيتام في ذلك الوقت.

إلا أن الهمجيَّ النبيل الذي وصفه روسّو كان صورة مثالية –أو فكرة تجريديّة، نموذجيّة، ودينيّة– ولم يكن الحقيقة المكوّنة من لحمٍ ودمٍ التي افترضها. إنه الطفل الإلهيُّ الأسطوريُّ المثاليُّ الذي يسكن خيالنا على نحوٍ دائمٍ. إنه أيقونة إمكانات الشباب، والبطل الوليد، والبريء المظلوم، والابن المفقود منذ زمن طويل للملك الشرعي. إنه تلميحات الخلود التي تصاحب تجاربنا المبكرة. إنه آدم؛ الإنسان المثالي، الذي يمشي بلا خطيئة مع الإله في الجنة قبل هبوطه منها. ولكن البشر أشرار بقدر ما هم أخيار في الوقت نفسه، والظلام الذي يسكن أعماقنا إلى الأبد موجود أيضًا بقدرٍ ليس بالهيّن في نفوسنا ونحن أصغر سنًا. وبوجه عام، فإن الناس يتحسّنون مع تقدّمهم العمر، ولا يزدادون سوءًا، ويصبحون أكثر لطفًا، وصدقًا، وإخلاصًا، وأكثر استقرارًا عاطفيًا، عند نضجهم(83). ونادرًا ما يظهر التنمّر الذي يشهده فناء المدرسة(84) –والذي غالبًا ما يكون شديدًا ورهيبًا– في مجتمع الأشخاص الناضجين. وتُعتبر رواية «أمير الذباب»(32) **Lord of the**

Flies السوداوية والأناركية للروائي ويليام جولدينج من الروايات الكلاسيكية لأسباب وجيهة.

وعلاوة على ذلك، فثمة الكثير من الأدلّة المباشرة على أن أهوال السّلوك البشري لا يمكن عزوها بسهولة إلى التاريخ والمجتمع. ولعل هذا هو ما اكتشفته على نحو مؤلم للغاية عالمة الرئيسيات، جين جودال(33)، بدايةً من العام 1974، حين علمت أن قردة الشمبانزي المحبّبة لديها قادرة على قتل بعضها بعضًا، ومستعدّة لفعل ذلك (إن شئنا استخدام مصطلحات البشر)(85). وبسبب الطبيعة الصادمة والأهمية الأنثروبولوجية الكبيرة لذلك الاكتشاف، فقد احتفظت جودال بملاحظاتها سرًّا طيلة سنوات، خوفًا من أن يكون اتصالها بالحيوانات قد دفعها إلى إظهار سلوك غير طبيعي. وحتى بعد أن نشرت نتائج دراستها، رفض الكثيرون تصديقها. لكن سرعان ما أصبح واضحًا أن ما اكتشفته لم يكن أمرًا نادرًا بأي حال من الأحوال.

بكل صراحةٍ ووضوحٍ: تشنّ قردة الشمبانزي حروبًا قبلية في ما بينها. وهي تفعل ذلك بوحشية تكاد لا تُتصوّر. يتميز الشمبانزي العادي الكامل النمو

بقوة تزيد عن ضِعف قوة الإنسان، على الرغم من صغر حجمه(86). وقد أشارت جودال بشيء من الفزع إلى نزعة قرود الشمبانزي التي درستها إلى نهش كابلات وأسلاك فولاذية قوية(87). وتستطيع قردة الشمبانزي أن تمزق بعضها بعضًا حرفيًا؛ وهي تفعل ذلك. لا يمكن إلقاء اللوم في ذلك على المجتمعات البشرية وتقنياتها المعقّدة(88). كتبت جودال تقول: «كثيرًا ما كنت أستيقظ ليلًا على صور مروّعة تتقافز في ذهني من تلقاء نفسها – ساتان [قرد شمبانزي خضع للملاحظة لمدة طويلة] يكوّر قبضته في شكل كوب تحت ذقن سنيف ليشرب الدماء التي تسيل من جرح بالغ في وجهه... وجوميو يقطع شريحة من جلد فخذ ديه؛ وفيجان يقوم ويضرب مرارًا وتكرارًا جسد جولياث المبرّح ضربًا والمرتجف خوفًا، رغم أن جولياث كان أحد المفضلين لديه في طفولته»(89). وتجوب عصابات صغيرة من قرود الشمبانزي المراهقة – أكثرهم من الذكور– حدود منطقتها؛ وإذا صادفت أغرابًا (حتى إن كانت قرود شمبانزي كانوا يعرفونها من قبل ولكنها انفصلت عن المجموعة حين أصبحت كبيرة للغاية)، وكان عددهم يفوق عدد قرود الشمبانزي الغريبة، فإنها تحتشد حولها وتهاجمها وتقضي عليها بلا رحمة. لا تملك قرود الشمبانزي ذوات متضخّمة، ومن الحكمة أن نتذكّر أن القدرة البشرية على ضبط النفس قد يكون مبالغًا في تقديرها أيضًا. فالقراءة المتمعّنة في كتاب صادم ومروّع مثل كتاب المؤلفة إيريس

تشانج(34) الذي حمل عنوان «اغتصاب نانكينج»(35) The Rape of Nanking(90) – والذي يصف التدمير الوحشي لتلك المدينة الصينية على يد الغزاة اليابانيين– من شأنها أن توقظ أشدّ الأشخاص رومانسية من أوهامه في هذا الصدد. وكلما قل ما يقال عن الوحدة 731 – وهي وحدة أبحاث الحرب البيولوجية اليابانية في ذلك الوقت– كان ذلك أفضل. ويمكنك أن تقرأ عنها على مسؤوليتك الشخصية عزيزي القارئ. لقد حذّرتك.

كذلك، فإن مجتمعات البشر البدائيين الذين لا يزالون يعيشون على الصيد وجمع الثمار أكثر دموية من نظرائهم في المناطق الحضرية والصناعية، وذلك برغم حياتهم المجتمعية وثقافاتهم المحلية. يبلغ معدل القتل السنوي في المملكة المتحدة الحديثة حوالى واحد لكل مائة ألف من السكان(91). ويزيد هذا المعدل بمقدار أربعة أو خمسة أضعاف في الولايات المتحدة الأمريكية، ويزيد تسعين ضعفًا في هندوراس، التي تملك أعلى معدل مسجل للقتل بين دول العالم الحديثة. غير أن الأدلّة تشير بقوّة إلى أن البشر أصبحوا أكثر مسالمة، وليس أقل مسالمة، مع مرور الزمن وزيادة حجم المجتمعات وزيادة تنظيمها. وكان لدى شعب كونغ

بوشمان(36) Kung bushmen! في افريقيا –والذي صوّرته إليزابيث مارشال توماس في خمسينيات القرن العشرين بصورة رومانسية بوصفه شعبًا من «أناس مسالمين»–(92) معدل قتل سنوي يبلغ 40 لكل مائة ألف فرد من السكان، وقد انخفض هذا المعدل بنسبة تزيد على 30٪ بمجرد خضوعهم لسلطة الدولة(93). وهذا مثال مفيد للغاية على الهياكل الاجتماعية المعقّدة التي تعمل على تقليل الميول العنيفة لدى البشر، وليس تفاقمها. وتتحدّث التقارير عن معدلات قتل سنوية قدرها ثلاثمائة لكل مائة ألف فرد من السكان في قبيلة يانومامي في البرازيل، والتي تشتهر بالعدوانية؛ لكن الإحصاءات لا تبلغ الذروة هناك. ويقتل سكان بابوا في غينيا الجديدة بعضهم بعضًا بمعدلات سنوية تتراوح بين 140 إلى 1000 لكل مائة ألف(94). غير أن الرقم القياسي يبدو محجوزًا لقبيلة كاتو، وهم من سكان كاليفورنيا الأصليين، حيث لقي 1450 فردًا منهم لكل مائة ألف حتفهم بصورة عنيفة حوالى العام 1840(95).

ولما كان الأطفال لا يسكن أرواحهم الخير فقط –مثلهم في ذلك مثل باقي البشر– فلا يمكن تركهم لأنفسهم ببساطة –من دون تدخّل من المجتمع– لكي ينضجوا ويحققوا الكمال. فحتى الكلاب لا بد من تنشئتها

تنشئة اجتماعية إذا أرادت أن تصبح جزءًا من القطيع؛ علمًا أن الأطفال أكثر تعقيدًا بكثير من الكلاب. وهذا يعني أنهم يمكن أن يضلّوا السبيل تمامًا وعلى نحو معقّد إذا لم يحظوا بالتدريب، والتأديب، والتشجيع المناسب. ويعني هذا أيضًا أنه ليس من الخطأ فحسب أن نعزو كل ميول العنف لدى البشر إلى أمراض الهيكل الاجتماعي؛ بل إن ذلك خطأ بما يكفي ليكون بمثابة سير في الاتجاه المعاكس. إن التنشئة الاجتماعية عملية ضرورية تدرأ الكثير من الضرر وتحقّق الكثير من الفوائد. ولا بد من تشكيل الأطفال وتعليمهم، وإلا فلن ينجحوا. وتنعكس هذه الحقيقة انعكاسًا صارخًا في سلوكهم: فالأطفال في حاجة ماسّة للاهتمام من أقرانهم ومن ذويهم البالغين كذلك لأن هذا الاهتمام –الذي يجعلهم أفرادًا فاعلين ومشاركين راقين في المجتمع –ضروري للغاية.

ويمكن أن يلحق بالأطفال ضرر كبير بسبب غياب الاهتمام الواضح، يضاهي الضرر الذي يسببه الإيذاء، سواء أكان عقليًا أو جسديًا، أو يفوقه. وهذا الضرر ناتج عن التجاهل وليس عن فعلٍ سيئٍ، غير أنه ليس أقل وطأة أو أقل ديمومة. ويتضرّر الأطفال عندما يفشل آباؤهم الغافلون المتساهلون «على نحو رحيم» في جعلهم أذكياء، ومنتبهين، ويقظين، وبدلًا من ذلك

يتركونهم في حالة من عدم الوعي وعدم القدرة على التمييز. ويتضرّر الأطفال عندما لا يجرؤ المسؤولون عن رعايتهم على تقويم تصرفاتهم ويتركونهم من دون توجيه؛ خوفًا من الصراع أو الاستياء. وأنا شخصيًا يمكنني تمييز مثل هؤلاء الأطفال في الشارع؛ إذ يكونون هشّين، وفاقدين للتركيز، ومرتبكين. يكونون كئيبين وفاترين بدلًا من أن يكونوا لامعين ومتألّقين. يكونون مثل أحجار لم تُنحت ولم تتشكّل، وأسرى لحالة دائمة من انتظار الكينونة والحياة.

هؤلاء الأطفال يعانون من تجاهلٍ دائمٍ من أقرانهم؛ ويرجع ذلك إلى أنه ليس من الممتع اللعب معهم. وعادةً ما يميل الكبار لإظهار التوجّه نفسه نحوهم (على الرغم من أنهم ينكرون هذا بشدة إذا تعرّضوا لضغط). عندما كنت أعمل في مراكز الرعاية النهارية في بداية حياتي المهنية، كان هؤلاء الأطفال الذين يعانون من التجاهل نسبيًا يأتون إليَّ قانطين، بأسلوبهم المتلعثم، وتربيتهم غير المكتملة، من دون أي إحساس بالمسافة الشخصية المناسبة، ومن دون قدرة على المزاح الذكيّ اللطيف. كانوا يتخبّطون حولي –أو في حجري تمامًا، أيًّا كان ما أفعله– مدفوعين حتمًا برغبة قوية في جذب انتباه الكبار، الذي يُعد حافزًا ضروريًّا للتطور. وكان من الصعب جدًّا

ألا يستجيب المرء بضيق – بل حتى باشمئزاز– لهؤلاء الأطفال وطفوليتهم المستمرّة لفترة أطول مما ينبغي؛ ومن الصعب ألا يدفعهم بعيدًا عنه؛ على الرغم من أنني كنت أشعر بالشفقة عليهم، وأفهم أزمتهم جيِّدًا. وأعتقد بأن هذه الاستجابة – برغم أنها قد تكون قاسية وبغيضة– تكاد تكون إشارة تحذير داخليّة عامّة تنذر بالخطر النسبي المتمثّل في إقامة علاقة مع طفل نُشِّئ تنشئة اجتماعية سيّئة: وأعني بذلك احتمال الاتكالية الفوريّة وغير المناسبة لذلك الطفل (التي كان ينبغي أن تكون مسؤوليّة الوالدين)، وما سيجلبه ذلك من احتياج حتمي هائل للوقت والموارد. وعند مواجهة مثل هذا الموقف، تزيد احتمالات أن يوجّه الأقران الودودون المحتملون والكبار البالغون المهتمّون اهتمامهم إلى التفاعل مع أطفال آخرين تكون تكلفة التعامل معهم أجدى وأنفع.

والدٌ أم صديق

وقد يكون التجاهل وسوء المعاملة التي تعتبر جزءًا لا يتجزأ من أساليب التربية الضعيفة، أو حتى الغائبة تمامًا، أمرًا مُتعمّدًا؛ مدفوعًا بدوافع أبوية

واضحة وواعية (وإن كانت خاطئة ومُضَلِّلة). ولكن في غالب الأحيان، تنتاب الآباء المعاصرون حالة من الشلل بسبب الخوف من أن يبغضهم أبناؤهم إذا هم عاقبوهم لأي سبب. فأهم شيء يرغبون فيه هو كسب صداقة أبنائهم، وهم على استعدادٍ للتضحية بالاحترام من أجل كسب تلك الصداقة. وهذا ليس بالأمر الجيد. فالطفل سيكون له العديد من الأصدقاء، ولكنه لن يحظى سوى بوالدين فحسب؛ والوالدان أكثر أهمية من الأصدقاء، وليس العكس. فليس للأصدقاء سوى سلطة محدودة للغاية لتقويم سلوكيات أصدقائهم. لذا يحتاج كل والدٍ إلى أن يتعلّم كيف يحتمل الغضب المؤقّت أو حتى البغض المؤقّت الذي قد يشعر به أطفاله تجاهه بعد اتخاذه أي إجراء تقويمي لازم، وذلك لأن قدرة الأطفال على إدراك العواقب طويلة الأجل لتصرفاتهم، أو الاهتمام بتلك العواقب، هي قدرة محدودة للغاية. والوالدان هما الحكمان في المجتمع؛ فهما يعلِّمان أطفالهما كيف يتصرّفون حتى يتمكّن الآخرون في المجتمع من التعامل معهم على نحو مثمر وذي مغزى.

إن تربية طفل فعلٌ ينطوي على كثير من المسؤولية. فالتربية ليست هي الغضب عند إساءة التصرّف، وليست هي الانتقام عند ارتكاب خطأ. وإنما التربية هي مزيج دقيق من الرحمة والحكم طويل الأمد على التصرّفات. والتربية السليمة تتطلّب جهدًا؛ بل إنها في الواقع مرادف لبذل الجهد. فمن

الصعب أن تولي الأطفال الاهتمام؛ ومن الصعب أن تعرف ما هو الصواب وما هو الخطأ في تربيتهم، ولماذا. ومن الصعب صياغة استراتيجيات منصفة وحنونة للتربية، والتفاوض على تطبيقها مع الآخرين المشاركين معك في رعاية طفلك. وبسبب هذا المزيج من المسؤولية والصعوبة، فإن أي تلميح إلى أن جميع القيود المفروضة على الأطفال ضارّة بهم قد يُستقبل بترحابٍ خاطئٍ فاسدٍ؛ فبمجرّد تقبّل هذه الفكرة، فإنها تسمح للكبار –الذين من المفترض أن يكونوا أكثر حصافة من أن يهملوا واجباتهم– بأن يصبحوا وكلاء للثقافة الشائعة في المجتمع، ويتظاهروا بأن هذا هو الأصلح للأطفال. وهذا في الحقيقة ليس سوى خداعٍ عميقٍ وخبيثٍ للذات؛ ليس سوى كسلٍ، وقسوةٍ، وفعلٍ لا يمكن تبريره. ولا تتوقّف نزعتنا إلى التبرير عند هذا الحدّ.

إننا نفترض أن القواعد سوف تعوق ما كان يمكن أن يكون إبداعًا فِطريًا غير محدودٍ لدى أطفالنا على نحو لا يمكن إصلاحه، وذلك على الرغم من أن الدراسات العلمية تشير إلى ما يلي: أولًا، الإبداع الذي يتخطّى الحدود المعتادة نادر للغاية(96)، وثانيًا، القيود الصارمة تسهّل الإنجاز الإبداعي ولا تعيقه(97). وكثيرًا ما يتزامن الاعتقاد بأن القواعد والتنظيم ذات تأثير مدمِّر

تمامًا مع فكرة أن الأطفال سوف يتّخذون قرارات صائبة بشأن مواعيد نومهم ومحتوى طعامهم، إذا سمحنا لطبيعتهم المثالية بالإفصاح عن نفسها. وكل هذه افتراضات لا أساس لها من الصحة. فالأطفال قادرون تمامًا على أن يعيشوا على شطائر السجق والدجاج المقلية، وحبوب الفطور الملوّنة، إذا كان ذلك سيجذب الانتباه لهم، ويمنحهم القوّة، أو يمنعهم من تجربة أي شيءٍ جديدٍ. وبدلًا من الذهاب إلى الفراش بهدوء وحكمة وسلام، فإنهم سيقاومون الرغبة في النوم ليلًا، إلى أن يترنّحوا من الإعياء. وهم مستعدّون تمامًا أيضًا لاستفزاز الكبار، أثناء استكشافهم للمعالم المعقّدة للبيئة الاجتماعية، تمامًا مثلما تضايق صغار قردة الشمبانزي القرود البالغة في جماعاتها(98). إن ملاحظة عواقب المضايقة والاستهزاء تُمضكّن صغار الشمبانزي والأطفال على حدٍّ سواء من التعرّف على الحدود التي تقيّد ما يمكن أن يكون حريّة مرعبة لا تخضع لأي تنظيم لولا تلك القيود. وعند التعرّف على تلك الحدود، فإنها توفّر الأمان، حتى إذا كان اكتشافها يتسبّب في شعور مؤقّت بالإحباط وخيبة الأمل.

أذكر أنني اصطحبت ابنتي إلى حديقة ألعاب ذات مرة وهي في الثانية من عمرها. كانت تلعب على القضبان الأفقية وتتعلّق في الهواء. وكان فتى شقيٌّ

مستفزٌّ للغاية في نفس عمرها تقريبًا يقف أعلى منها على القضيب نفسه الذي كانت تمسك به. رأيته يتحرّك نحوها، والتقت أعيننا. ومن ثمَّ، راح يدوس على يديها ببطء وتعمّد، وراح يزيد من قوّة ضغطه على يدها، وفعل هذا مرارًا بينما كان يحدّق فيَّ متحدّيًا. لقد كان يعلم تمامًا ما يفعله. كانت فلسفته تقول بلسان الحال: تبًّا لك أيها الأب. كان قد توصّل بالفعل إلى نتيجة مفادها أن الكبار تافهون جديرون بالازدراء، ويمكن تحدّيهم من دون عواقب تُذكر. (ومن المؤسف أنه سيصير شخصًا بالغًا راشدًا يومًا ما). كان هذا هو المستقبل البائس الذي أثقله به والداه. لكن لصدمته الكبيرة والمفيدة، فقد حملته حملًا وألقيت به على بعد ثلاثين قدمًا من المكان.

كلا، في الواقع لم أفعل. لقد اكتفيت بأخذ ابنتي إلى مكان آخر. لكن كان سيكون أفضل له بكثير لو أنني فعلت ذلك.

تخيّل طفلًا يضرب أمه على وجهها بشكل متكرّر. لماذا يفعل شيئًا كهذا؟ إنه سؤالٌ غبيٌّ. إنه سؤالٌ ساذجٌ إلى حدٍّ غير مقبول. فالإجابة واضحة. لكي يسيطر على أمه. لكي يرى إن كان سيفلت بفعلته. فالعنف – على أي

حال- ليس لغزًامحيِّرًا؛ وإنما المسالمة هي اللغز. العنف هو الوضع الافتراضي؛ لأنه سهل. ولكن المسالمة هي الأصعب: إذ يجب تعلّمها، والتطبّع بها، واكتسابها. (غالبًا ما يطرح الناس الأسئلة النفسية الأساسية على نحو عكسي. لماذا يدمن الناس المخدرات؟ هذا ليس لغزًا. بل اللغز هو لماذا لا يتناول الناس المخدرات طوال الوقت. لماذا يعاني الناس من القلق؟ هذا ليس لغزًا. ولكن اللغز هو كيف يكون الناس هادئين مطمئنّين. ثمة لغز في الأمر. إننا كائنات فانية وقابلة للانكسار؛ وثمة مليون سبب لوقوع الأخطأ، بمليون طريقة مختلفة. ولهذا من الطبيعي أن تصاب عقولنا بالذعر في كل ثانية. ولكن هذا لا يحدث. ويمكن أن يُقال الشيء نفسه عن الاكتئاب، والكسل، والإجرام).

فإذا كان يمكنني أن أؤذيك وأسيطر عليك، فيمكنني إذًا أن أفعل ما يحلو لي، متى أردت، حتى أثناء وجودك. يمكنني تعذيبك لكي أشبع فضولي. يمكنني أن أسرق الاهتمام منك، وأتسلّط عليك. يمكنني أن أسرق لعبتك. يلجأ الأطفال للضرب؛ أولًا لأن العنف فطري -رغم أنه مهيمن في سلوك بعض الأفراد أكثر من غيرهم- وثانيًا، لأن الضرب يسهل إشباع الرغبة. ومن الحماقة افتراض أن هذا السلوك العنيف لا بد من اكتسابه. إن الأفعى لا

تحتاج إلى أن تتعلّم كيف تلدغ؛ فتلك غريزتها. والأطفال في عمر السنتين -إحصائيًا- هم أكثر البشر عنفًا(99). إنهم يركلون، ويضربون، ويعضّون، ويسرقون ممتلكات الآخرين؛ وهم يفعلون ذلك بهدف الاستكشاف، والتعبير عن غضبهم وإحباطهم، وإشباع رغباتهم التلقائية. والأكثر أهمية من ذلك -في ما يتعلّق بأغراضنا هنا- هو أنهم يفعلون ذلك لاكتشاف الحدود الفعلية للسلوك المسموح به. وآنى لهم أن يعرفوا ما هو مقبول وما هو غير مقبول إلا بهذه الطريقة؟ إن الأطفال يشبهون المكفوفين الذين يبحثون عن جدار. عليهم أن يمضوا قدمًا، ويختبروا، لكي يعرفوا أين تقع الحدود الحقيقية (التي نادرًا جدًّا ما تكون مواضعها حيث يقال لهم).

والتقويم المستمر لمثل هذه التصرفات من شأنه أن يعلِّم الطفل الحدود المقبولة للعدوان. وغياب التقويم يؤدّي فقط إلى زيادة الفضول؛ لذا فإن الطفل سوف يضرب، ويعضّ، ويركل، إذا كان عدوانيًا ومسيطرًا بطبيعته، إلى أن يضع شيء ما حدًّا لذلك. ما مدى القوّة التي يمكن أن أضرب بها أمّي؟ إلى أن تعترض. وفي ضوء ذلك، من الأفضل أن يأتي التقويم عاجلًا وليس آجلًا (إذا كانت النتيجة النهائية التي يريدها الوالد هي ألا يضربه طفله). كما أن التقويم يساعد الطفل أيضًا على معرفة أن ضرب الآخرين استراتيجيّة اجتماعيّة مرفوضة. ومن دون هذا التقويم، لن يمر طفل بالعملية المجهدة المتمثّلة في تنظيم وضبط دوافعه، بحيث يمكن أن تتعايش هذه الدوافع -

من دون صراعٍ– داخل نفس الطفل، وفي العالم الاجتماعي الأوسع نطاقًا. إن تنظيم عقل إنسان ليس أمرًا هيّنًا.

كان ابني طفلًا عنيدًا عندما كان صغيرًا. وعندما كانت ابنتي طفلة صغيرة، كنت أستطيع جعلها تتجمّد في مكانها بمجرد أن أنظر لها نظرة صارمة. ولكن هذه النظرة لم يكن لها أي تأثير على ابني مطلقًا. وقد وضع زوجتي (وهي ليست بالأم العاجزة بأي حال من الأحوال) في وضع سيّئ إلى مائدة العشاء عندما كان عمره تسعة أشهر فقط. لقد تشاجر معها من أجل الفوز بإمساك الملعقة بنفسه. قلنا لأنفسنا: «هذا جيِّد»؛ إذ لم نكن نرغب في إطعامه ولو لدقيقة واحدة أكثر من اللازم. ولكن المشاكس الصغير لم يكن يأكل سوى ثلاث أو أربع ملاعق فحسب، ثم يلهو بعد ذلك. كان يقلّب طعامه في الطبق، ويسقط بعضًا منه على سطح الطاولة الصغيرة الملحقة بكرسي الأطفال المرتفع، ثم يراقبه وهو يقع على الأرض تحته. لا بأس؛ إنه يستكشف. ولكنه لم يكن يأكل كميّة كافية من الطعام؛ وبالتالي لم يكن ينال قسطًا كافيًا من النوم لأنه لم يكن يتناول ما يكفيه. ومن ثمَّ، كان صوت بكائه في منتصف الليل يوقظ والديه؛ وكانا يشعران بالاستياء وتعكّر المزاج. كان يصيب أمّه بالإحباط، وكانت تنفِّس عن إحباطها في وجهي. لم يكن مسار الحوادث جيدًا.

وبعد أيام قليلة من هذا التدهور، قرّرت أن أستردّ الملعقة؛ واستعددت للحرب. خصّصت وقتًا كافيًا للمعركة. وعلى الرغم من أن هذا قد يبدو صعب التصديق، فإن شخصًا كبيرًا صبورًا يمكنه أن يهزم طفلًا عمره عامين. وكما يقول المثل: «السن الكبيرة مع الحنكة والدهاء يمكنهما دائمًا التغلب على الشباب والمهارة». ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن الوقت يمرّ على الطفل الصغير البالغ عامين وكأنه دهر. فنصف ساعة بالنسبة لي تمرّ على ابني كأسبوعٍ. وهكذا طمأنت نفسي بأنني سأنتصر. وقد كان الصغير عنيدًا وفظيعًا. لكن يمكنني أنا أن أكون أسوأ منه في ذلك. جلسنا، وجهًا لوجه، وطبقه أمامه. كان الوضع ساخنًا ظهيرة ذلك اليوم. كان يعلم هذا، وكنت أعلمه أيضًا. التقط الملعقة؛ فأخذتها منه، وملأتها بالعصيدة اللذيذة، ووجهتها نحو فمه. نظر إليّ متحدّيًا بالطريقة نفسها التي نظر لي بها الطفل الشقيُّ في فناء اللعب الذي كان يدوس على يد ابنتي. لوى فمه بقوة فأصبح وجهه عابسًا ورفض تمامًا إدخال الملعقة. فظللت أتتبع فمه بالملعقة وهو يلوي رأسه في حركات دائرية صغيرة.

لكن جعبتي كانت مليئة بالحيل؛ فنكزته في صدره بيدي الحرة بطريقة أعلم أنها ستضايقه. ولكنه لم يتزحزح. وفعلتها مجددًا، ومجددًا. لم يكن النكز مؤلمًا؛ ولكن كان يصعب تجاهله. وبعد نحو عشر نكزات تقريبًا، فتح فمه بغرض التعبير عن غضبه. هاه! لقد أخطأ! وقمت بإدخال الملعقة في فمه؛ فحاول ببسالة إخراجه من فمه باستخدام لسانه. ولكنني كنت أعلم كيف أتعامل مع هذا أيضًا؛ فوضعت سبابتي أفقيًا على شفتيه. خرج بعض الطعام من فمه، ولكنه ابتلع بعضه أيضًا. وهكذا أحرز الوالد نقطة. ومن ثمَّ، ربّتت على رأسه وقلت له إنه ولد جيد؛ وكنت أعني ما أقوله. فعندما يقوم شخص ما بفعل شيء كنت تحاول حمله على فعله، كافئه فورًا. لا مجال للضغائن بعد تحقيق النصر. وبعد ساعة، كان الأمر قد انتهى. كان غاضبًا، وكان ينتحب، واضطرت زوجتي إلى مغادرة الغرفة؛ فقد كان التوتّر كبيرًا. ولكن الطفل أكل طعامه. ثم تهاوى ابني منهكًا على صدري؛ ورحنا في غفوة معًا. وعندما استيقظ كان يحبني أكثر مما أحبني قبل تأديبه.

كان هذا شيئًا لاحظته بوجه عام حين كنا نتواجه؛ وليس مع ابني فقط. فبعد فترة وجيزة، اتفقنا على تبادل مجالسة الأطفال مع زوجين آخرين؛ فكان جميع الأطفال يتجمّعون في بيت واحد، ويخرج والدان معًا لتناول

العشاء أو دخول السينما، ويتركان الوالدين الآخرين لمجالسة الأطفال، الذين كانوا جميعًا تحت سن ثلاث سنوات. وذات مساء، انضم إلينا زوجان آخران. لم أكن أعرف طفلهما، الذي كان ولدًا ضخمًا قويًا في الثانية من عمره.

قال والده: «إنه لن ينام. بعد أن تضعه في الفراش، سوف يزحف خارجه وينزل إلى الطابق السفلي. إننا نشغِّل له عادة فيديو لدمية إلمو ونتركه يشاهده».

قلت لنفسي: «من المستحيل أن أكافئ طفلًا متمرّدًا على سلوك غير مقبول. ومن المؤكّد أنني لن أدع أحدًا يشاهد فيديو لشخصية إلمو»؛ فلطالما كنت أكره تلك الدمية المخيفة المتذمّرة. لقد كانت تلك الدمية سُبة في تاريخ صانع الدُمى جيم هِنسون. لذا، لم تكن مكافأة الصغير بمشاهدة الدمية إلمو خيارًا مطروحًا. لكنني لم أقل أيَّ شيءٍ بالطبع؛ فليس من اللياقة التحدُّث مع الآباء عن أطفالهم؛ إلى أن يصبحوا مستعدين للإنصات.

بعد ساعتين، أدخلنا الأطفال ليناموا. وسرعان ما راح أربعة أطفال في سُبات عميق، ولكن طفل الدمية إلمو لم ينم. إلا أنني كنت قد وضعته في سرير أطفال ذي حواجز لكي لا يستطيع الهرب منه. لكنه كان يستطيع الصراخ، وهذا ما فعله بالضبط. كان الوضع شائكًا؛ وكانت تلك استراتيجية ذكيّة منه. فقد كان صراخه مزعجًا، وكان يهدّد بإيقاظ باقي الأطفال، الذين كانوا سيبدأون بالصراخ بدورهم. وهكذا ربح الطفل نقطة. لذا، عدُت إلى غرفة النوم مهرولًا، وقلت له: «نم». ولم يأتِ هذا بنتيجة؛ فقلت: «نم، وإلا سآتي وأجعلك تنام». إن مجادلة الأطفال لا تأتي بنتيجة، وخاصةً في ظل ظروف مثل هذه، لكنني كنت أؤمن بالتحذير العادل. وبالطبع لم ينم؛ بل صرخ مجدّدًا ليؤثّر عليّ.

كثيرًا ما يفعل الأطفال هذا؛ فيظن الوالدان المذعوران أن الطفل الباكي دائمًا ما يكون حزينًا أو متألِّمًا. لكن هذا ببساطة ليس صحيحًا. فالغضب أحد أكثر الأسباب شيوعًا للبكاء. وقد أكد التحليل الدقيق لأنماط حركة العضلات أثناء بكاء الأطفال هذا(100). والبكاء بسبب الغضب لا يشبه

البكاء بسبب الخوف، أو الحزن؛ كما أن أصوات البكاء في هذه الحالات المختلفة ليست متشابهة ويمكن التمييز بينها ببعض الانتباه الدقيق. وغالبًا ما يكون الهدف من البكاء بسبب الغضب هو فرض السيطرة، ويجب التعامل معه من هذا المنظور. لذا فقد حملت الطفل وأرقدته في وضع النوم؛ برفقٍ، وبصبرٍ، ولكن بحزمٍ. نهض مجدّدًا؛ فأرقدته مجدّدًا. فنهض مجدّدًا؛ فأرقدته مجدّدًا. فنهض مجدّدًا؛ فأرقدته مجدّدًا، ولكن في هذه المرة، وضعت يدي على ظهره. قاوم بعنف، ولكن من دون جدوى؛ فقد كان حجمه –في نهاية المطاف– لا يتجاوز عُشر حجمي. كنت أستطيع السيطرة عليه بيد واحدة. لذا، فقد وضعته في وضع النوم، ورحت أتحدّث إليه بهدوء وقلت له إنه ولد جيّد وإنه يجب أن يسترخي. وهدّأته بأن رحت أربت على ظهره برفق؛ فبدأ يسترخي، وبدأت عيناه تغفلان؛ فرفعت يدي.

وبمجرد أن رفعت يدي عنه، قفز واقفًا من فوره. أثار ذلك إعجابي؛ فهذا طفل جريء! رفعته وأرقدته في وضع النوم مرة أخرى، وقلت له: «نم أيها الشقي»، ورحت أربت على ظهره برفق لبعض الوقت. يشعر بعض الأطفال بالاسترخاء جراء هذه الحركة؛ وكان قد بدأ يصيبه التعب؛ وأصبح مستعدًا للاستسلام. أغلق عينيه؛ وعندئذ نهضت واقفًا وبدأت أتحرّك بسرعة وبهدوء

نحو الباب. اختلست النظر إليه للتأكّد من نومه لمرة أخيرة؛ فوجدته واقفًا على قدميه. أشرت إليه بإصبعي وقلت: «نم أيها الشقي»، وكنت أعني ما أقوله، فاستلقى في الفراش وكأنني أطلقت عليه رصاصة. ثم أغلقت الباب. لقد أحببت ذلك الطفل وأحبني. ولم نسمع أنا وزوجتي له صوتًا بقية الليلة.

عندما عاد والده في وقت متأخر من تلك الليلة، سألني: «كيف كان الطفل؟». فأجبته: «بخير. لم تحدث أي مشكلة، وهو نائم الآن».

قال والده: «ألم ينهض من الفراش؟».

قلت: «كلا، لقد نام طوال الوقت».

فنظر إليَّ الأب. كان يريد أن يعرف؛ ولكنه لم يسأل. وأنا لم أخبره.

يقول المثل القديم: «لا تبذل العطاء لشخص لن يقدّر عطاءك». وقد تظنّ أن هذا من القسوة. ولكن تدريب ابنك على عدم النوم ومكافأته على سلوكه بمشاهدة دميةٍ مخيفةٍ قاسٍ أيضًا. ويمكنك أن تختار موقفك، كما يمكنني أنا أيضًا أن أختار موقفي.

التأديبُ والعقابُ

يخاف الآباء في العصر الحديث بشدّة من كلمتين كثيرًا ما تتردّدان معًا: التأديب والعقاب؛ فهاتان الكلمتان تستدعيان في الأذهان السجون، والجنود، والأحذية العسكرية. وفي الواقع، من السهل تجاوز الفارق بين التأديب والاستبداد، أو بين العقاب والتعذيب. ولا بد من التعامل مع التأديب والعقاب بحذر. إن هذا الخوف ليس مفاجئًا. ولكن كلا الإجرائين ضروريان؛ ويمكن تطبيقهما بوعي أو من دون وعي، وعلى نحو جيّد أو سيّئ، ولكن لا مفر من استخدامهما.

ليس الأمر أنه من المستحيل التأديب بمنح مكافأة. ففي الحقيقة، منح مكافأة على السلوك الحسن يمكن أن يكون فعّالًا. وقد كان أشهر علماء علم النفس السلوكي، بي. إف. سكينر، من أشد أنصار هذا النهج. لقد كان خبيرًا فيه. لقد نجح في تعليم الحمام لعب البينج بونج، على الرغم من أن كل ما فعله الحمام هو دحرجة الكرة ذهابًا وإيابًا بدفعها بمناقيرها(101). لكنّها مجرّد حمامات؛ لذا، فمهما كان لعبها سيئًا، فإن هذا يظلّ إنجازًا رائعًا. بل إن سكينر علّم طيوره توجيه الصواريخ خلال الحرب العالمية الثانية فيما عُرِفَ باسم « مشروع الحمام» (الذي أُطلِقَ عليه لاحقًا اسم «أوركون»)(102). لقد قطع شوطًا طويلًا قبل أن يؤدّي اختراع نظم التوجيه الإلكترونية إلى إبطال جهوده.

راقب سكينر الطيور التي كان يقوم بتدريبها لأداء هذه الأعمال بعناية فائقة، وكان يُتبع أي فعل يقترب مما كان يهدف إليه بمكافأة فورية ذات حجم مناسب بالضبط: فلا هي صغيرة بحيث تكون عديمة الأهمية، ولا هي كبيرة بحيث تقلل من قيمة المكافآت المستقبلية. ويمكن استخدام هذا النهج مع الأطفال، وهو يأتي بنتائج ممتازة. تخيّل أنك تريد من ابنك

الصغير أن يساعدك في إعداد المائدة. إنها مهارة مفيدة؛ وأنت ستحبه أكثر إن فعل ذلك. وسيكون هذا مفيدًا أيضًا لتقديره (المتزعزع) لذاته. لذا فإنك تقسِّم السلوك المرغوب إلى أجزاء أصغر. وأحد عناصر إعداد المائدة لتناول الطعام هو حمل طبق من خزانة الأطباق إلى المائدة. حتى هذا قد يكون معقّدًا للغاية؛ فقد يكون طفلك قد تعلّم المشي من أشهر قليلة، وقد يكون كثير الترنّح في مشيته ولا يمكن الاعتماد عليه. لذا، عليك البدء في تدريبه بمناولته طبقًا وأخذه منه مرة أخرى. ويمكن أن تتبع ذلك بتربيتة على الرأس. ويمكنك أن تحوّل الأمر إلى لعبة: انقل الطبق من يدك اليسرى إلى اليمنى، ثم لف الطبق حولك، ثم أعطه الطبق وارجع إلى الوراء بضع خطوات حتى يضطر الطفل إلى المشي بضع خطوات ليعطيك الطبق مرة أخرى. قم بتدريبه ليصبح ماهرًا في مناولة الأطباق، ولا تتركه يستمر كثيرًا في هذه المرحلة.

يمكنك تدريب أي شخص تقريبًا على أي شيء بهذه الطريقة. أولًا، فكِّر في ما تريده. وبعد ذلك، راقب الناس من حولك كالصقر. وأخيرًا، كلما رأيت شيئًا يشبه ما تريده ولو قليلًا، انقض (كالصقر) وامنحه مكافأة. فعلى سبيل المثال، إذا أصبحت ابنتك متحفّظة كثيرًا منذ بدء مرحلة المراهقة، وكنت تود لو أنها تتحدّث أكثر مما تفعل، فهدفك هو: ابنة أكثر رغبة في التواصل. وذات صباح، أثناء تناول الفطور، راحت تحكي حكاية طريفة حدثت في المدرسة. هذا وقت ممتاز للانتباه. هنا يأتي دور المكافأة.

توقّف عن إرسال الرسائل النصّية، وأنصت إليها؛ إلا إذا كنت تريدها ألا تحكي لك أيَّ شيء بعد الآن.

من البديهي أنه يمكن -بل ويستحسن- استخدام التدخّلات الأبوية التي تجعل الأطفال سعداء في تشكيل سلوكياتهم. والأمر نفسه ينطبق على الأزواج، والزوجات، وزملاء العمل، والآباء. إلا أن سكينر كان رجلًا واقعيًّا. لقد لاحظ أن استخدام المكافآت صعب للغاية؛ إذ يجب على المراقب الانتباه بصبر إلى أن يقوم الشخص بالسلوك المرغوب من تلقاء نفسه، وبعد ذلك يتم تعزيزه. وهذا يتطلّب الكثير من الوقت والكثير من الانتظار، وتلك مشكلة. ثم إنه كان مضطرًا إلى تجويع الطيور لتفقد ربع وزنها الطبيعي لكي تصبح مهتمة بالمكافآت من الطعام وتعيرها انتباهها حقًّا. ولكن هذه ليست هي العيوب الوحيدة في ذلك النهج الإيجابي البحت.

إن المشاعر السلبية تساعدنا على التعلّم، تمامًا مثل نظيرتها الإيجابية. إننا بحاجة للتعلم لأننا أغبياء وعرضة للضرر بسهولة. وقد نموت. هذا ليس جيدًا، ونحن لا نشعر بشعور جيّد حياله. ولو أننا فعلنا، فسنسعى للموت،

ومن ثمَّ سنموت. بل إننا لا نشعر بشعور جيِّد تجاه الموت إذا كان مجرّد احتمال ممكن. وهذا الأمر مستمر دائمًا. وبهذه الطريقة، توفّر لنا المشاعر السلبية – برغم بؤسها– نوعًا من الحماية. إننا نشعر بالحرج، والخوف، والخجل، والاشمئزاز، لكي نتجنّب الأذى. ونحن عرضة للشعور بهذه المشاعر كثيرًا. وفي الواقع، نحن نشعر بمشاعر سلبية تجاه خسارة ذات حجم معيَّن أكثر من مشاعرنا الإيجابيّة تجاه كسب شيء بنفس الحجم. إن الألم أقوى من المتعة، والقلق أقوى من الأمل.

تأتي المشاعر –السلبية والإيجابية– في شكلين متمايزين على نحو مفيد. يشير الرضا (وهو الشبع، في الواقع) إلى أن ما فعلناه كان جيِّدًا، أما الأمل (وهو مكافأة تحفيزيّة) فيشير إلى أن شيئًا مبهجًا في طريقه إلينا. أما الألم فيؤذينا، وبذلك لا نكرّر الأفعال التي نتج عنها الأذى الشخصي أو العزلة الاجتماعية (لأن الوحدة هي أيضًا نوع من أنواع الألم). والقلق يجعلنا نبتعد عن الأشخاص المؤذيين، والأماكن السيئة، لكي لا نشعر بالألم. ويجب موازنة هذه المشاعر كلها إزاء بعضها بعضًا، ويجب الحكم عليها بحرص في سياقها، ولكنها جميعًا ضرورية لاستمرارنا في الحياة والازدهار. وهكذا، فإننا نؤذي أطفالنا بعدم استخدام كل ما هو متاح لمساعدتهم على التعلم،

بما في ذلك المشاعر السلبية، رغم أن استخدام هذه المشاعر يجب أن يحدث بأكثر الطرق الممكنة شفقة ورحمة.

كان سكينر يعلم أن التهديدات والعقوبات يمكنها منع السلوك غير المرغوب فيه، تمامًا كما تعزز المكافآت السلوك المرغوب فيه. وفي عالم أصبح عاجزًا أمام فكرة التدخل في المسار الأصلي المفترض للتطور الطبيعي للطفل، قد يكون من الصعب علينا حتى أن نناقش الأساليب السابقة. غير أن الأطفال ما كانوا ليحظوا بكل تلك الفترة الطويلة من التطوّر الطبيعي قبل النضج لو لم يكن من الضروري تشكيل سلوكهم. كانوا سيولدون من رحم أمهاتهم وهم جاهزون للتداول في البورصة. كما لا يمكن حماية الأطفال كليًا من الخوف والألم؛ فهم صغار وضعفاء، ولا يعلمون الكثير عن هذا العالم. وحتى بينما يتعلمون شيئًا طبيعيًا مثل المشي، فإنهم يقعون، ويتلقّون الضربات من العالم. كل هذا ونحن لم نقل شيئًا عن الإحباط والرفض الذي سيواجهونه لا محالة عند التعامل مع أشقّائهم، وأقرانهم، والكبار العنيدين غير المتعاونين. وفي ضوء هذا، لا يكون السؤال الأخلاقي الأساسي هو كيف نحمي الأطفال تمامًا من التعاسة والفشل، بحيث لا يشعرون أبدًا بأي

خوف أو ألم، وإنما كيف نزيد قدرتهم على التعلّم بحيث يمكنهم اكتساب معرفة مفيدة بأقل تكلفة ممكنة.

في فيلم ديزني «الأميرة النائمة»، ينجب الملك والملكة ابنة، الأميرة «أورورا»، بعد طول انتظار، ويخطِّطان لحفلة تعميد مبهرة لتقديم الأميرة للعالم. يرحِّب الملك والملكة بكل شخصٍ يحبّ ويبجل ابنتهما، ولكنهما لا يدعوان «مالفسنت» (وهو اسم يعني «شرير» أو «حاقد»)، وهي ملكة العالم السفلي، أو الطبيعة في صورتها السلبية. ويعني هذا، رمزيًا، أن الملك والملكة يبالغان في حماية ابنتهما الحبيبة، عن طريق إحاطتها بعالم ليس فيه أيّ سوءٍ أو شرٍّ. ولكن هذا لم يحمها؛ بل جعلها ضعيفة. فقد ألقت مالفسنت لعنة على الأميرة تجعلها تموت في سن السادسة عشرة بسبب وخزة من إبرة مغزل. والمغزل هنا يرمز إلى القدر؛ والوخزة – التي تسيل الدم– ترمز إلى فقد العذرية، وهي علامة على تحوّل الفتاة من الطفولة إلى الأنوثة.

ومن حسن الحظ أن إحدى الجنّيّات الطيِّبات (أي العنصر الإيجابي في الطبيعة) تمكّنت من تخفيف العقاب من الموت إلى الغيبوبة، التي ستوقظها منها قُبلة من حبيبها. ومن ثمَّ، يتخلّص الملك والملكة المذعوران من جميع المغازل في مملكتهما، ويسلّمان طفلتهما إلى الجنّيّات الطيّبيات، وهن ثلاث.

وواصل الملك والملكة استراتيجية إزالة جميع الأشياء الخطيرة؛ ولكنهما بهذه الاستراتيجية كانا يجعلان ابنتهما ساذجة، وغير ناضجة، وضعيفة. وذات يوم، قبل أن تتم الأميرة أورورا عامها السادس عشر مباشرة، تقابل أميرًا في الغابة، وتقع في غرامه في اليوم نفسه. وهذا أمر مبالغ فيه من أي منظور معقول. وبعدها راحت تتحسر وتنتحب بسبب حقيقة أنها من المقرر أن تتزوج الأمير فيليب، الذي خُطِبت له وهي طفلة صغيرة، وتنهار عاطفيًا عندما تعود إلى قلعة أبويها للاحتفال بعيد ميلادها. وفي تلك اللحظة تظهر لعنة مالفسنت؛ فينفتح أحد أبواب القلعة، ويظهر منه مغزل، وتوخز الأميرة إصبعها وتسقط فاقدةً الوعي، وتصبح «الأميرة النائمة». وبهذا (رمزيًا، مرة أخرى) تكون الأميرة قد اختارت الغيبوبة على أهوال حياة الكبار البالغين. وكثيرًا ما يحدث شيءٌ مشابهٌ لهذا من ناحية وجودية للأطفال الذين يُبالغ ذووهم في حمايتهم، حيث يمكن أن تنهار معنوياتهم – ومن ثمَّ يفضلون نعيم الغيبوبة – عند أول مرة يواجهون فيها الفشل، أو ما هو أسوأ من ذلك،

وهو الشر الحقيقي الذي لا يفهمونه، ولن يفهموه، وليس لديهم أي قدرة على دفعه ومقاومته.

ولنأخذ حالة الطفلة ذات الثلاثة أعوام التي لم تتعلّم مشاركة ما معها كمثال. إنها تُظهر سلوكها الأناني في حضور أبويها، ولكنهما لطيفان أكثر من اللازم بحيث لا يتدخّلان. وبدقة أكبر، يرفض الأبوان الانتباه، ومعالجة ما يحدث، وتعليم ابنتهما كيف تتصرّف على نحو سليم. إنهما ينزعجان بالطبع حين ترفض مشاركة ما لديها مع أختها، ولكنهما يتظاهران بأن كل شيء على ما يُرام. لكن الأمر ليس على ما يرام. فسوف ينفجران في وجهها لاحقًا من أجل شيء لا علاقة له على الإطلاق بسلوكها الخاطئ. وسوف يجرحها هذا، وستشعر بالحيرة والارتباك، ولكنها لن تتعلم شيئًا. والأسوأ من ذلك أنها عندما تحاول تكوين صداقات، لن تسير الأمور على ما يرام، بسبب افتقارها إلى التطوّر الاجتماعي. فالأطفال من عمرها سينفرون منها بسبب عدم قدرتها على التعاون، وسيتشاجرون معها، أو يبتعدون عنها بحثًا عن طفل آخر يلعبون معه. وسوف يلاحظ آباء هؤلاء الأطفال صعوبة التعامل معها وسوء سلوكها، ولن يدعوها مجددًا لتلعب مع أطفالهم. ستكون وحيدة ومنبوذة، وسيترتب على ذلك شعورها بالقلق، والاكتئاب، والغضب.

وسينتج عن هذا إعراضها عن الحياة، وهو ما يعادل الرغبة في دخول حالة الغيبوبة واللاوعي.

إن الآباء الذي يرفضون تحمل مسؤولية تأديب أطفالهم يعتقدون أنه يمكنهم ببساطة اختيار عدم خوض الصراع اللازم من أجل تربية الأطفال تربية سليمة. إنهم يتجنّبون الظهور في صورة الشخص البغيض (على المدى القصير)، ولكنهم بذلك لا ينقذون أطفالهم أو يحمونهم من الخوف والألم. بل على العكس تمامًا: فالعالم الاجتماعي الأوسع نطاقًا بما ينطوي عليه من نقد وعدم اكتراث سيفرض عليهم الصراع وينزل بهم العقاب بصورة أكبر بكثير مما كان سيفعله والدٌ واعٍ. يمكنك أن تؤدّب أطفالك، أو يمكنك أن تعهد بهذه المسؤولية إلى العالم القاسي الناقد اللامبالي؛ ولكن لا ينبغي أبدًا الخلط بين الدافع لتفضيل الخيار الأخير وبين الحب.

قد تعترض –مثلما يعترض آباء العصر الحديث– قائلًا: ولماذا ينبغي أن يخضع الطفل للأوامر التعسفية الصادرة من والده؟ وفي الواقع، ثمة تنويع جديد لتفكير القوامة السياسية يفترض أن مثل هذه الفكرة هي «تمييز على

أساس سن البلوغ»(103): وهو نوع من التحيّز والقمع يشبه أفكارًا مثل «التمييز على أساس الجنس» أو « التمييز العنصري». ويجب الرد على التشكيك في سلطة الكبار الراشدين بحكمة. ويتطلّب هذا فحصًا دقيقًا للمسألة نفسها. إن قبول صيغة الاعتراض يعتبر نصف الطريق نحو الإقرار بصحة الاعتراض، وقد يكون هذا خطيرًا إذا كانت المسألة نفسها مطروحة على نحو خاطئ. دعونا نقسّم المسألة إلى أجزاء.

أولًا، لماذا يخضع الطفل؟ هذا سؤال سهل. يجب على كل طفل الإنصات للكبار وطاعتهم لأنه يعتمد على الرعاية التي يمنحها له شخص كبير بالغ غير كامل أو أكثر من شخص. وفي ضوء هذا، يكون من الأفضل للطفل أن يتصرّف بطريقة تحث على المحبة الصادقة والمودّة. ويمكننا تخيل شيء أفضل من هذا. فمن الممكن أن يتصرّف الطفل بطريقة تضمن اجتذاب الانتباه التام من البالغين، وتفيد حالته الحالية وتطوّره المستقبلي في الوقت نفسه. هذا معيار مرتفع جدًا، ولكنه في مصلحة الطفل، لذا فلدى الأطفال أسبابٌ لا تحصى للتطلّع إليه.

كما ينبغي تعليم كل طفل أن يتقبّل بكياسة توقّعات المجتمع المدني. ولا يعني هذا أن ينسحق الطفل وينخرط في الإذعان الأيديولوجي بلا تفكير. وإنما يعني أن الأبوين عليهما مكافأة التوجّهات والأفعال التي من شأنها أن تحقّق لأبنائهم النجاح في العالم خارجِ نطاق الأسرة، وعليهما استخدام التهديد والعقاب عند الضرورة للتخلّص من السلوكيات التي تؤدّي إلى البؤس والفشل. وثمة إطار زمني ضيق لهذه الفرصة أيضًا، لذا فمن المهم إنجاز ذلك بسرعة. فإذا لم يتعلّم الطفل أن يتصرّف على نحو صحيح عند وصوله إلى سن الرابعة، فسيكون من الصعب عليه دائمًا أن يكوّن صداقات. والدراسات البحثية واضحة في هذا الصدد. وتكوين الصداقات أمر مهم لأن الأقران يشكِّلون المصدر الرئيسي للتنشئة الاجتماعية بعد سن الرابعة. والأطفال الذين يرفضهم أقرانهم يتوقّفون عن التطور لأن أقرانهم ينفرون منهم؛ فيتخلّفون أكثر وأكثر عن الركب، بينما يواصل الأطفال الآخرون التقدّم. ومن ثمّ، غالبًا ما يتحوّل الطفل الذي ليس لديه أصدقاء إلى مراهق ثم شخص بالغ وحيد، أو معادٍ للمجتمع، أو مكتئب. وهذا ليس جيّدًا. إن جزءًا أكبر مما ندرك بكثير من سلامتنا العقلية يأتي نتيجة انغماسنا في الأوساط الاجتماعية؛ حيث لا بد من تذكيرنا باستمرار بأن نفكر ونتصرف على نحو ملائم. وعندما نحيد عن الجادّة، يدفعنا الأشخاص الذي يهتمون لأمرنا إلى الصراط القويم بوسائل صغيرة أو كبيرة.

لذا فمن الأفضل أن نكون محاطين ببعض هولاء الأشخاص.

وبالعودة إلى المسألة قيد النقاش، نقول إنه ليس كل ما يمليه الكبار على الأطفال تعسّفيًّا. فهذا لا يصحّ سوى في دولة شمولية تعاني من خلل وظيفي. ولكن في المجتمعات المتحضّرة المتفتّحة، تمتثل الغالبية العظمى من المجتمع لعقد اجتماعي فعّال، يهدف إلى التحسين المتبادل للجميع؛ أو على الأقل التعايش المشترك معًا من دون الكثير من العنف. وحتى نظام من القواعد لا يسمح إلا بالحدِّ الأدنى من ذلك العقد الاجتماعي لا يُعد تعسّفيًّا بأي حال من الأحوال، وذلك بالنظر إلى البدائل. فإذا كان المجتمع لا يكافئ السلوك الإيجابي المثمر الداعم للمجتمع، ويصرّ على توزيع الموارد بطريقة تعسّفيّة وغير عادلة، ويسمح بالسرقة والاستغلال، فإنه لن يظل خاليًا من الصراعات لفترة طويلة. وإذا كانت الهياكل الهرمية فيه لا تستند سوى إلى القوة (أو كانت تستند إليها بشكل أساسي)، بدلًا من الكفاءة اللازمة لإنجاز الأمور المهمّة والصعبة، فسيكون عُرضة للانهيار أيضًا. وينطبق هذا أيضًا –بصورة أبسط– على الهياكل الهرمية لمجتمعات قرود الشمبانزي، وهو مؤشِّر على حقيقته الأساسية، البيولوجية، غير التعسفية(**104**).

إن الأطفال الذين لا يحظون بتنشئة اجتماعية سليمة يعيشون حياة بشعة. لذا، من الأفضل أن يحظوا بأفضل تنشئة اجتماعية ممكنة. ويمكن تحقيق جزء من هذه التنشئة بالمكافأة، ولكن ليس كلّها. وبذلك لا تكون المسألة هي ما إذا كنا سنستخدم العقاب والتهديد أم لا؛ وإنما المسألة هي أن نفعل ذلك بوعيٍ وحكمةٍ. كيف إذًا يجب تأديب الأطفال؟ هذا سؤال صعب لأن الأطفال (والآباء) يختلفون كثيرًا في أمزجتهم. فبعض الأطفال لطفاء طيّعين. إنهم يرغبون بشدّة في إرضاء الكبار، ولكنهم في مقابل ذلك تكون لديهم نزعة لتجنّب الصراعات والاتكالية. وثمة أطفال آخرون يكونون عنيدين وأكثر استقلالية. وهؤلاء يريدون أن يفعلوا ما شاءوا، متى شاءوا، طوال الوقت، ويتّصفون بصعوبة التعامل معهم، وعدم الطاعة، والعناد. بعض الأطفال في حاجة ماسة للقواعد والتنظيم، ويشعرون بالرضا حتى في البيئات الصارمة. وأطفال آخرون –لا يبالون كثيرًا بالثبات والروتين– يرفضون تمامًا حتى أقل مطالب النظام الضرورية. بعض الأطفال خياليين ومبدعين، والبعض الآخر عمليين ومحافظين. وكل هذه اختلافات عميقة، ومهمّة، ومتأثّرة بشدة بعوامل بيولوجية، ومن الصعب تعديلها اجتماعيًا. ولمن حسن الحظ حقًا أننا

نحن المستفيدين من التدبّر العميق في الاستخدام الملائم للسلطة الاجتماعية في وجه كل هذا الاختلاف والتنوع.

الحدّ الأدنى اللازم من القوّة

وإليكم فكرة مبدئية مباشرة: لا يجب الإكثار من القواعد دون ضرورة. وبعبارة أخرى، فإن القوانين السيّئة تقضي على احترام القوانين الجيدة. وهذا هو المكافئ الأخلاقي – بل والقانوني– لمبدأ « شفرة أوكام»(37) Occam's Razor، وهو مقصلة المفاهيم التي يستخدمها العلماء، والذي ينصّ على أنّ أفضل الفرضيات هي أبسطها. لذا، لا تفرض على الأطفال –أو القائمين على تأديبهم– قواعد أكثر مما ينبغي؛ فهذا الطريق يؤدِّي إلى الإحباط.

قلِّل القواعد. ثم فكّر في ما ستفعله عند خرق إحدى هذه القواعد. من الصعب وضع قاعدة عامّة لشدّة العقاب تنطبق في أي سياق. غير أن

القانون العام الإنجليزي قد أقرّ معيارًا مفيدًا في هذا الصدد، ويُعد هذا المعيار أحد الثمار الرائعة للحضارة الغربية. ويمكن لتحليل هذا القانون أن يساعدنا في وضع مبدأ ثانٍ مفيدٍ.

يسمح لك القانون العام الإنجليزي بالدفاع عن حقوقك، ولكن بطريقة معقولة فحسب. فمثلًا، إذا اقتحم أحدهم منزلك، وكان معك مسدسٌ محشوٌّ بالذخيرة، فمن حقّك أن تدافع عن نفسك، ولكن من الأفضل أن تفعل ذلك على مراحل. وماذا لو كان جارك السكير قد اختلط عليه الأمر وكان هو من يقتحم منزلك؟ قد تفكّر قائلًا لنفسك: «سأطلق عليه النار». لكن الأمر ليس بهذه البساطة. بل ينبغي عليك بدلًا من إطلاق النار فورًا، أن تقول: «توقف! أنا أحمل سلاحًا». فإذا لم يسفر هذا عن تفسير أو يتراجع، فربما يمكنك إطلاق طلقة تحذيرية في الهواء للترهيب. وبعد ذلك، إذا استمرّ المقتحم في التقدّم، يمكنك التصويب على ساقه. (أرجو ألا تأخذ كلامي على أنه مشورة قانونية، فهو مجرّد مثال فحسب). وثمة مبدأ عملي واحد ذكي يمكن استخدامه لتوليد كل هذه الاستجابات المتدرِّجة في شدّتها: وهو مبدأ استخدام الحد الأدنى اللازم من القوة. وهكذا يكون لدينا

مبدآن عامّان للتأديب. المبدأ الأول: قلّل القواعد. والمبدأ الثاني: استخدم الحدَّ الأدنى اللازم من القوة لإنفاذ القواعد.

وقد تتساءل بشأن المبدأ الأول قائلًا: «أقلّل القواعد إلى ماذا بالضبط؟». إليك بعض الاقتراحات. ممنوع العضّ، أو الرّكل، أو الضّرب، إلا في حالة الدفاع عن النفس. لا تعذِّب الأطفال الآخرين أو تتنمّر عليهم لكي لا ينتهي بك المطاف في السجن. تناول طعامك بتحضّر وقدّم الشكر، لكي يرغب الناس في استضافتك في منزلهم ويشعرون بسعادة عند إطعامك. تعلّم المشاركة لكي يلعب معك الأطفال الآخرون. عندما يتحدّث إليك شخص كبير، انصت إليه بانتباه لكي لا يكرهك ويتكرّم بتعليمك شيئًا. نم مبكرًا وبهدوء لكي يتمكّن والداك من أن يحظيا بحياة خاصّة ولا يكرهان وجودك. حافظ على مقتنياتك لأنك يجب أن تتعلّم كيف تحافظ عليها، ولأنك محظوظ أنك تملكها. لتكن صحبتك جيّدة عندما يحدث شيء ممتع لكي تُدعى دائمًا إلى الحوادث الممتعة. تصرّف بطريقة تجعل الآخرين يشعرون بسعادة لوجودك، ولكي يرغب الناس في تواجدك. إن الطفل الذي يعرف هذه القواعد سيكون مرحّبًا به في كل مكان.

وقد تتساءل بشأن المبدأ الثاني –الذي لا يقلّ أهمّية عن الأول– وتقول: «ما هو الحد الأدنى اللازم من القوة؟». هذا الحدّ لا بد أن يوضع بناءً على التجربة، بدءًا بأقل قدر ممكن من التدخل. بعض الأطفال يتجمّدون بمجرد نظرة غاضبة. وثمة آخرون يوقفهم أمر شفوي. وبعض الأطفال يحتاجون إلى إشارة تهديد بيدك. وهذه الاستراتيجية مفيدة بصفة خاصّة في الأماكن العامة مثل المطاعم. ويمكن إعطاء هذه الإشارة التحذيرية فجأة، بهدوء وفعالية، من دون المخاطرة بالتصعيد. وما البديل؟ إن الطفل الذي يبكي بغضب طلبًا للانتباه لا يجعل من نفسه طفلًا محبوبًا. والطفل الذي يجري من طاولة إلى أخرى ويعكّر صفو الجميع يجلب الخزي (وتلك كلمة قديمة ولكنها فعّالة) لنفسه ولوالديه. وهذه النتيجة هي أبعد شيء عن النتيجة المثالية، ومن المؤكّد أن الأطفال سيتصرّفون بشكلٍ أسوأ في الأماكن العامة لأنهم يجربون: إنهم يحاولون التأكد ما إذا كانت القواعد القديمة نفسها تنطبق في هذا المكان الجديد أيضًا أم لا. إنهم لا يدركون هذا شفويًا؛ خاصّة إذا كانوا دون الثالثة من عمرهم.

عندما كان أطفالنا صغارًا وكنا نصطحبهم إلى المطاعم، كان الجميع ينظر إليهم ويبتسم. كانوا يجلسون بلطفٍ ويأكلون بأدبٍ. غير أنه لم يكن

باستطاعتهم البقاء على هذه الحال طويلًا، ونحن لم نكن نجعلهم يجلسون طويلًا. وعندما كانوا يبدأون في التململ، بعد الجلوس لمدة خمس وأربعين دقيقة، كنا نعلم أن وقت الانصراف قد حان. لقد كان هذا جزءًا من الاتفاق. ولطالما أخبرنا رواد المطاعم القريبة من منزلنا أنه من الرائع أن يروا أسرة سعيدة مثلنا. إننا لم نكن سعداء طوال الوقت، ولم يتصرّف أطفالنا بأدبٍ وتهذيبٍ طوال الوقت. لكنهم كانوا كذلك معظم الوقت، وكان من الرائع رؤية الناس يتجاوبون بإيجابية بالغة في وجودهم. وكان ذلك جيدًا حقًّا للأطفال. كانوا يرون أن الناس يحبونهم، وكان هذا يعزِّز سلوكهم الجيِّد. كانت تلك هي مكافأتهم.

سوف يحبّ الناس أطفالك إذا منحتهم الفرصة لذلك. لقد تعلّمت هذا الأمر بمجرّد أن رُزقنا بطفلتنا الأولى، ابنتنا، ميكيلا. فعندما كنا نسير بها في الشارع وهي في عربة الأطفال القابلة للطي في حي الطبقة العاملة في مونتريال الفرنسية الذي كنا نسكن فيه، كان العمال السكيرون خشني الطباع يتوقّفون ويبتسمون لها. كانوا يصدرون أصواتًا، وضحكات، وتعبيرات بلهاء بوجوههم لملاطفتها. إن رؤية الناس وهم يتفاعلون مع الأطفال يمكن أن تعيد إلينا إيماننا بالطبيعة البشريّة. وكل ذلك يتضاعف عندما يتصرّف

أبناؤك بأدب في الأماكن العامة. ولكي تضمن حدوث هذه الأشياء، عليك أن تؤدّب أطفالك بعناية وبفعالية؛ ولكي تفعل ذلك، عليك أن تتعلّم كيف تكافئ، وكيف تعاقب، بدلًا من أن تنفر من تلك المعرفة.

يكمن جزء من إنشاء علاقة مع ابنك أو ابنتك في تعلّم كيفية استجابة هذا الصغير للتدخّلات التأديبية؛ ومن ثم تتدخّل بفعالية. من السهل جدًا أن نلقي بكليشيهات مبتذلة بدلًا من ذلك، مثل: «لا يوجد مبرر للعقاب الجسدي» أو «ضرب الأطفال لا يفعل شيئًا سوى تعليمهم أن يضربوا الآخرين». ولنبدأ بالرد على الادعاء الأول: لا يوجد مبرر للعقاب الجسدي. أولًا، يجب أن نلاحظ ونقرّ بوجود اتفاقٍ عامٍّ على أن بعض أشكال سوء السلوك -لا سيّما تلك المرتبطة بالسرقة والاعتداء- خاطئة ويجب معاقبتها. ثانيًا، يجب أن نلاحظ أن جميع هذه العقوبات تقريبًا تتضمّن مفهوم العقاب بأشكاله النفسية والجسدية المباشرة المتعدّدة. إن الحرمان من الحرّية يسبّب الألم بطريقة تشبه الصدمة الجسديّة. ويمكن أن يُقال الشيء نفسه عن استخدام العزلة الاجتماعيّة (بما في ذلك أسلوب العزل). نحن نعلم هذا من منظور البيولوجيا العصبية. فمناطق الدماغ ذاتها تشارك في الاستجابات جميعًا، ويمكن تثبيطها بواسطة الفئة ذاتها من المخدرات، وهي العقاقير

الأفيونية(105). إن السجن عقوبة جسدية بلا شك – لا سيمّا الحبس الانفرادي– حتى من دون استخدام العنف. ثالثًا، يجب أن نلاحظ أنه يجب إيقاف بعض الأفعال غير المشروعة على نحو فعّال وفوري، على الأقل لكيلا يحدث شيء أسوأ. فما هو العقاب المناسب لطفل لا يريد التوقّف عن محاولة إدخال شوكة في قابس الكهرباء؟ أو طفل يجري ضاحكًا في موقف سيارات مزدحم لأحد المتاجر؟ والإجابة بسيطة: أي عقاب من شأنه أن يوقف السلوك السلبي بأسرعِ وقتٍ في حدود المعقول؛ لأن البديل قد يكون قاتلًا.

يبدو هذا بديهيًا في حالة موقف السيارات والقابس. ولكن الأمر نفسه ينطبق في العالم الاجتماعي، وهذا يقودنا إلى النقطة الرابعة بشأن تبريرات العقاب الجسدي. إن عقوبات سوء السلوك (من النوعِ الذي كان يمكن إيقافه بشكل فعّال في الطفولة) تصبح أكثر شدة مع تقدّم الأطفال في العمر؛ ويكون الأطفال الذين لم يحظوا بتنشئة اجتماعية فعّالة حتى سن الرابعة هم من ينتهي بهم الحال إلى مواجهة العقاب الصريح من المجتمع في أواخر سنين مراهقتهم وأوائل سنيّ رشدهم. وبالمثل، غالبًا ما يكون الأطفال الجامحون الذين يبلغون من العمر أربع سنوات هم أنفسهم الذين

كانوا عدوانيين بلا مبرر -بطبيعتهم- في سن الثانية. وتشير الإحصاءات إلى أن هؤلاء الأطفال كانت لديهم نزعة تفوق أقرانهم للضرب، والعض، والركل، وأخذ اللعب عنوة (وهو ما يُعرف لاحقًا باسم السرقة). ويشكِّل هؤلاء نحو خمسة بالمائة من الصبية، ونسبة أصغر من ذلك بكثير بين الفتيات(106). وترديد العبارة السحرية «لا يوجد مبرر للعقاب الجسدي» كالببغاء من دون تفكير يعني أيضًا تعزيز الوهم القائل بأن شياطين سنِّ المراهقة يتطوّرون على نحوٍ سحريٍّ ما من الأطفال الصغار الذين كانوا أبرياء كالملائكة في وقت من الأوقات. وأنت لا تقدّم لطفلك أي معروف عن طريق غض الطرف عن أي سلوك سيِّئ يأتي به (خاصةً إذا كان ابنك أو ابنتك أكثر عدوانيّة على نحو مزاجي). والتمسك بنظرية لا يوجد مبرر للعقاب الجسدي (وهذه هي النقطة الخامسة) ينطوي أيضًا على افتراض بأن كلمة «لا» يمكن أن تُقال بفعاليّة لشخص آخر في غياب التهديد بالعقاب. فالمرأة يمكنها أن تقول «لا» لرجل متسلِّطٍ نرجسيٍّ لمجرّد أن لديها أعراف اجتماعية، والقانون والدولة يدعمانها. ويمكن للوالد أن يقول «لا» لطفله الذي يريد قطعة ثالثة من الكعك لأن الوالد أو الوالدة أكبر، وأقوى، وأكثر مقدرة من الطفل (والقانون والدولة يدعمان سلطته). وفي النهاية، فإن كلمة «لا» دائمًا ما تعني: «إذا واصلت فعل هذا، سيحدث لك شيء لا تحبّه». وبخلاف ذلك فإنها لا تعني أي شيء. أو، الأسوأ من ذلك، وهو أن تعني: «هراء فارغ آخر

يغمغم به كبار حمقى». والأسوأ على الإطلاق أن يكون معناها: «الكبار جميعًا ضعفاء وعاجزين». وهذا درس سيِّئ للغاية، حين يكون مصير كل طفل أن يصير كبيرًا راشدًا، وحين يكون أكثر الأشياء التي جرى تعلّمها من دون ألمٍ شخصيٍّ لا داعي له هي محاكاة للكبار، أو تمّ تعلّمها منهم بشكل صريح. ما الذي يمكن أن يتطلّع إليه طفل يتجاهل الكبار وينظر إليهم بازدراء؟ لماذا يكبر أصلًا؟ وتلك هي قصة بيتر بان، الذي يظنّ بأنّ كل الكبار هم نسخ مختلفة من كابتن هوك، طغاة ويخشون الموت. إن الحالة الوحيدة التي يكون لكلمة «لا» فيها معنى من دون حاجة للعنف هي عندما يقولها شخص متحضِّر إلى شخص متحضِّر مثله.

وماذا عن فكرة أن ضرب الأطفال لا يفعل شيئًا سوى تعليمهم أن يضربوا الآخرين؟ أولًا، كلا. هذا ليس صحيحًا. هذا تبسيط زائد. فأولًا، كلمة «الضرب» هي كلمة سطحية للغاية لوصف الفعل التأديبي الذي يقوم به والد فعّال. فإذا كان «الضرب» يصف بدقة النطاق الكامل لاستخدام القوة الجسدية، فلن يكون ثمة فارق بين قطرات المطر والقنابل الذرية. إن الحجم مهم؛ وكذلك السياق، إذا لم نختر العمى الاختياري والسذاجة في هذا الشأن. وكل طفل يعرف الفارق بين أن يعضه كلب بغيض من دون استثارته

وبين عضة خفيفة من كلبه الأليف إذا حاول أخذ عظمته وهو يلعب معه من دون انتباه. وعندما نتحدّث عن الضرب، لا يمكننا أن نغفل مسألة ما الشدة التي ضُرِبَ بها الشخص ولماذا ضُرِبَ. والتوقيت أيضًا مهمٌ، وهو جزء من السياق. فإذا نقرت طفلك الذي يبلغ من العمر سنتين بإصبعك مباشرةً بعد أن ضرب أخته الرضيعة على رأسها بمكعب خشبي، فسيدرك العلاقة بين الأمرين، وسيكون أقل ميلًا لضربها مرة أخرى في المستقبل، على أقل تقدير. ويبدو أن هذه نتيجة جيدة. فهو بالتأكيد لن يستنتج أنه ينبغي أن يضربها أكثر اقتداءً بنقرة والدته. إنه ليس غبيًّا؛ بل هو فقط يشعر بالغيرة، ويتصرّف بعفوية وتهوّر، وهو لا يزال بريئًا لم يتعلّم شيئًا. وهل ثمة طريقة أخرى لحماية أخته الصغيرة؟ إذا كان تأديبك له غير فعّال، فستظلّ الطفلة الرضيعة تعاني؛ وربما لسنوات. سيستمر أخوها في التنمّر عليها لأنك لا تفعل شيئًا لإيقافه. إنك تتجنّب الصراع اللازم لفرض السلام، وتغضّ الطرف. وبعد ذلك، في وقت لاحق، عندما تواجهك الطفلة الصغرى (ربما حين تصبح راشدة)، ستقول لها: «لم أدرك قط أن الأمر كذلك». ولكن الحقيقة هي أنك لم تشأ أن تدرك؛ لذا، لم تدرك. لقد رفضت فحسب الاضطلاع بمسؤولية التأديب، وبرّرت ذلك بإظهار مدى لطفك ورقتك لأطفالك. ستكون مثل الساحرة الشريرة في بيت الحلوى التي تتظاهر بالطيبة لاستدراج الأطفال وأكلهم(38).

إذًا، إلى أين يقودنا هذا كله؟ إلى القرار بالتأديب على نحو فعّال أو على نحو غير فعّال (ولكن ليس إلى قرار تجاهل التأديب كليًا، لأن الطبيعة والمجتمع سيعاقبان بقسوة بالغة أي أخطاء في سلوك الطفولة لم يتمّ تصحيحها). لذا، إليك بعض التلميحات العملية: قد يكون العزل شكلًا فعّالًا للغاية من أشكال العقاب، لا سيما إذا تمّ الترحيب بالطفل الذي أساء السلوك بعد أن يسيطر على انفعاله. يجب أن يجلس الطفل الغاضب وحده حتى يهدأ، وبعدها ينبغي السماح له بالعودة إلى الحياة الطبيعية. ويعني هذا أن الطفل يفوز؛ بدلًا من أن يظل غاضبًا. والقاعدة هي: «تعالَ وكن معنا بمجرد أن يمكنك التصرف على نحو ملائم». هذا اتفاق جيد جدًا للطفل، والوالد، والمجتمع. ولا بد أنك ستعرف حين يستعيد ابنك السيطرة على في غضبه؛ وستحبه مرة أخرى، برغم سوء سلوكه السابق. وإذا كنت لا تزال غاضبًا، فلعل طفلك لم يندم على سوء سلوكه بشكلٍ كاملٍ؛ أو ربما ينبغي عليك أن تفعل شيئًا ما حيال ميلك لإضمار الضغائن.

إذا كان ابنك من النوعِ المزعج دائمًا الذي يهرب ببساطة ضاحكًا عندما تُجلسه وحده على الدرجِ أو في غرفته، فربما يجب إضافة قيد جسدي إلى إجراء العزل. ويمكن الإمساك بالطفل بعناية ولكن بقوّة من أعلى ذراعيه حتى يتوقّف عن التلوّي وينتبه. وإذا لم يفلح هذا، فقد يتطلّب الأمر جعل الطفل ينحني على ركبة الوالد؛ فبالنسبة إلى الطفل الذي يتجاوز الحدود إلى حدٍّ مثيرٍ للغاية، يكون الضرب على المؤخرة إشارة إلى الجدّية المطلوبة من الشخص الكبير المسؤول. وثمة بعض المواقف التي لن يكون فيها هذا الفعل كافيًا أيضًا، ويرجع السبب جزئيًا إلى أن بعض الأطفال يكونون عنيدين للغاية، ومحبّين للاستكشاف، وصعبي المراس، أو إلى أن السلوك المرفوض في غاية السوء. وإذا لم تفكر في هذه الأمور مليًّا، فإنك لا تقوم بدورك كوالد على نحو مسؤول. إنك تترك عبء عملك الصعب لغيرك، وهو سيقوم به بقسوة أكبر منك بكثير.

ملخَّصُ المبادئ

مبدأ التأديب الأول: قلل القواعد. المبدأ الثاني: استخدم الحد الأدنى اللازم من القوة. وإليك مبدأ ثالث: يجب أن يتعاون الوالدان معًا(107). إن

تربية الأطفال الصغار عمل شاقّ ومرهق؛ لذا من السهل أن يرتكب الوالد بعض الأخطاء. فالأرق، والجوع، والتوتر التالي للمجادلات، وآثار شرب الكحول، والمرور بيوم سيّئ في العمل، جميعها أشياء قد تجعل المرء غير عقلاني، إذا كانت منفردة؛ أما في حال اجتماعها معًا، فيمكنها أن تجعله خطيرًا. وفي ظل هذه الظروف، من الضروري أن يكون ثمة شخصٌ موجودٌ، من أجل المراقبة، والتدخّل، والنقاش. هذا من شأنه أن يقلّل احتمالات أن تصل الإثارة المتبادلة بين طفلة مستفزّة مزعجة ووالدتها النزقة الشاعرة بالضجر إلى نقطة اللاعودة. ينبغي أن يكون الوالدان معًا؛ حتى يتمكن أب لطفل وليد أن يعتني بزوجته التي صارت أمًّا للمرة الأولى حتى لا يصيبها الإنهاك إلى درجة تجعلها تفعل شيئًا يأسًا بعد سماعها بكاء وليدها من الحادية عشرة مساءً حتى الخامسة فجرًا لمدة ثلاثين يومًا متتالية. وأنا لا أقول إننا يجب أن نكون أشرارًا تجاه الأمهات الوحيدات؛ فالعديد منهن يكافحن بشجاعة على نحو يصعب تصديقه –ونسبة منهن كان لا بد لهن أن تهربن بمفردهن من علاقة وحشية – ولكن هذا لا يعني أنه ينبغي أن نتظاهر بأن جميع أشكال الهياكل الأسرية متساوية في النجاح والازدهار. إنها ليست متساوية. قُضي الأمر.

وإليك مبدأ رابع، وهو مبدأ نفسي إلى حد بعيد: ينبغي أن يفهم الآباء أنهم يمكن أن يكونوا قساة، وناقمين، ومتعجرفين، وحانقين، وغاضبين، ومخادعين. إن قليلًا جدًّا من الناس هم من قد يحاولون –بوعي كام– أن يخفقوا في مهمتهم كأبٍ أو كأمٍّ، ولكن التربية السيّئة موجودة طوال الوقت. ويرجع هذا إلى أن البشر يمتلكون قدرة هائلة على الشر، تمامًا مثل الخير؛ ولأنهم أيضًا يختارون أن يتعاموا عن هذه الحقيقة. إن البشر عدوانيون وأنانيون، وهم كذلك طيبون وخيّرون. ولهذا السبب لا يمكن لأي إنسان بالغ – قرد مفترس يحتل قمّة هرم التسلسل البيولوجي– أن يتحمّل بحق الخضوع لهيمنة طفل حدث مغرور. سيأتي الانتقام حتمًا. فإذا فشل والدان في غاية اللطف والصبر في أن يمنعا ابنهما من الدخول في نوبة غضب في مكان عام مثل المتجر المحلّي، فإنهما سيردّان الصاع لصغيرهما عندما يستقبلانه بفتور بارد حين يركض إليهما بحماسة ليُري أمه وأباه أحدث إنجازاته. إن قدرًا كافيًا من الإحراج، والعصيان، وتحدّي الهيمنة، كفيل بأن يجعل أيَّ والد – يفترض أنه يؤثر أطفاله على نفسه– يشعر بالاستياء والغضب. وحينئذ سيبدأ العقاب الحقيقي. إن الغضب يولد الرغبة في الانتقام. وستقلّ تدريجيًا لمحات الحب التلقائية، مع ظهور بعض المسوغات المنطقية لغياب هذا الحب، وسيقلّ السعي وراء فرص التطور الشخصي للطفل، وستبدأ مرحلة من الإعراض العاطفي. وتلك هي البداية فحسب في

الطريق نحو حرب عائلية كاملة، يحدث أمعظها خفيةً، وراء واجهة مزيفة من الحب والاستواء النفسي.

ومن الأفضل تجنّب هذا الطريق الذي تسلكه كثير من العائلات. إن الوالد أو الوالدة التي تعي جديًا قدرتها المحدودة على الاحتمال وإمكانية أن تسيء التصرّف عند إثارة أعصابها يجب عليها أن تخطّط جدّيًا لاستراتيجية تأديبية مناسبة –خاصةً إذا تابعها شريك واعٍ آخر– ولا تسمح أبدًا للأمور بأن تتدهور إلى النقطة التي تبدأ عندها الكراهية الحقيقية في الظهور. برجاء الحذر. فالعائلات السامة في كل مكان؛ وهي عائلات لا تضع أي قواعد ولا تقيد أي سلوك سيّئ. فالآباء يوبّخون أبناءهم بصورة عشوائية وعلى نحو لا يمكن التنبؤ به، ويعيش الأطفال في هذه الفوضى وينسحقون تحت وطأتها، إذا كانوا ضعفاء، أو يتمرّدون بشكل غير مثمر، إذا كانوا أقوياء. وكل هذا ليس جيدًا؛ وقد يكون قاتلًا.

وإليكم مبدأ خامس وأخير وأكثر عمومية. يجب على الآباء التصرّف كوكلاء عن العالم الحقيقي –وكلاء رحماء، وكلاء مهتمون– ولكنهم وكلاء

على أي حال. وهذا الالتزام يفوق أي مسؤولية لضمان السعادة، أو تشجيع الإبداع، أو تعزيز تقدير الذات. إن الواجب الرئيسي للآباء هو جعل أطفالهم محبوبين اجتماعيًا. وهذا من شأنه أن يزوّد الطفل بالفرص، وتقدير الذات، والشعور بالأمان. هذا الواجب أهم حتى من تعزيز الهوية الفردية. ولا يمكن تحقيق تلك النتيجة الرائعة بأي حال إلا بعد ترسيخ درجة عالية من التطور الاجتماعي.

الطِّفل الجيِّد والوالد المسؤول

إن الطفل الذي حظيَ بتنشئة اجتماعية مناسبة في عمر الثالثة يكون طفلًا مؤدّبًا ومحبوبًا. وهو ليس طفلًا ضعيفًا أو عاجزًا كذلك. فهو يجتذب اهتمام الأطفال الآخرين ويحظى بتقدير الكبار البالغين، ويعيش في عالم يرحب به فيه الأطفال الآخرون ويتنافسون على نيل اهتمامه، ويسعد الكبار برؤيته، بدلًا من الاختفاء خلف ابتسامات زائفة. وهو يُقدِّم إلى العالم بواسطة أشخاص يسعدهم أن يفعلوا ذلك من أجله، وسيفيده هذا في النهاية هويته

الفردية أكثر من محاولة أي والد جبان أن يتفادى الصراعات اليومية والتأديب.

ناقش شريك حياتك بشأن ما تحبّه وما لا تحبّه فيما يتعلّق بأطفالك، وإذا تعذّر ذلك، ناقش صديقًا في ذلك. ولكن لا تخشى أن يكون لديك أمور تحبها وأخرى لا تحبها في ابنك. أنت قادر على التمييز بين ما هو مناسب وما هو غير مناسب، وبين السمين والغث. أنت تدرك الفارق بين الخير والشر. وبعد أن يتّضح موقفك –بعد تقييم نفسك من حيث السوء، والغرور، والاستياء، والحنق– اتخذ الخطوة التالية، وأدِّب أطفالك. تحمّل مسؤولية تأديبهم. تحمل مسؤولية الأخطاء التي سترتكبها حتمًا أثناء عملية التأديب. ويمكنك أن تعتذر عندما تخطئ، وتتعلّم أن تقدم أداءً أفضل.

أنت تحب أطفالك على أي حال. فإذا كانت أفعالهم تجعلك تكرههم، ففكر في التأثير الذي سيتركوه عند الآخرين، الذين لا يهتمون بهم بأي قدر يداني اهتمامك أنت بهم. هؤلاء الأشخاص الآخرون سوف يعاقبونهم، وبشدة، إما بالتجاهل وإما بالفعل. لا تسمح لهذا بأن يحدث. ومن الأفضل

أن تجعل أبناءك الأشقياء يعرفون ما هو مرغوب وما هو غير مرغوب، حتى يصبحوا مواطنين متطوّرين في العالم الكبير خارج نطاق الأسرة.

إن الطفل المنتبه –وليس المنساق– الذي يمكنه أن يلعب، ولا يبكي باستمرار، والذي يمزح، ولا يثير الضيق، والذي هو جدير بالثقة؛ ذلك الطفل سيحظى بأصدقاء في أي مكان يذهب إليه، وسيحبه معلموه، وكذلك والداه. وإذا كان ينتبه بأدب للكبار، فسينتبهون إليه، ويبتسمون له، وينصحونه بسرور.
سوف يزدهر ذلك الطفل في عالم يمكن بسهولة بالغة أن يكون باردًا، وقاسيًا، وعدائيًا. إن وضع قواعد واضحة ينتج عنه أطفال يشعرون بالاطمئنان وآباء هادئين يتمتّعون بهدوء البال وسلامة العقل. ومبادئ التأديب والعقاب الواضحة توازن بين الرحمة والعدالة بحيث يمكن تعزيز التطوّر الاجتماعي والنضج النفسي إلى أقصى درجة ممكنة. إن القواعد الواضحة والمبادئ المناسبة تساعد كلًا من الطفل، والأسرة، والمجتمع، في تأسيس النظام، وحفظه، وتوسيعه، والنظام هو كل ما يحمينا من فوضى وأهوال جحيم العالم السفلي، حيث كل شيء مشكوك فيه، ومثير للقلق،

ويائس، ويدعو للاكتئاب. وما من هبات أعظم من هذه يمكن لوالد ملتزم وشجاع أن يمنحها لأبنائه.

لا تجعل أطفالك يفعلون أي شيء يدفعك إلى كراهيتهم.

القاعدة 6

أصلح من نفسك

قبل أن تنتقد العالم من حولك

مشكلة دينية

لا يبدو من المعقول وصف الشّاب الذي قتل عشرين طفلًا وستةً من أعضاء هيئة التدريس بمدرسة «ساندي هوك» الابتدائية في مدينة نيوتاون بولاية كونتيكت الأمريكية في العام 2012(39) بأنه شخصٌ متديّن. والأمر نفسه ينطبق على القاتل المسلّح في دار السينما بولاية كولورادو(40)، وقاتلي ثانوية كولومباين(41). لكنَّ هؤلاء القتلة كانت لديهم مشكلة في التعامل مع الواقع، لها جذور دينية. فكما كتب أحد الثنائي اللذين ارتكبا مذبحة كولومباين(108):

«الجنس البشري لا يستحقّ النضال من أجله، بل يستحقّ القتل. أعيدوا كوكب الأرض للحيوانات؛ فهي تستحقّه أكثر منّا بكثير. لم يعد هناك معنًى لأيِّ شيءٍ».

والأشخاص الذين يفكِّرون في أشياء كهذه ينظرون للكينونة ذاتها على أنها شيءٌ ظالمٌ وقاسٍ إلى درجة الفساد، وينظرون للكينونة البشرية تحديدًا على أنها شيءٌ حقيرٌ، بغيض، جدير بالازدراء. إنهم يُنصِّبون أنفسهم قضاة حاكمين على الواقع ويعتبرونه معيبًا وفاسدًا. إنهم أقسى النقّاد. يردف الكاتب شديد التشاؤم للسطور السابقة، قائلًا:

«إذا كنتم تذكرون تاريخكم، فقد توصَّل النازيون إلى «حل نهائي» لمشكلة اليهود... وهو قتلهم جميعًا. حسنًا، في حال لم تدركوا بعد مقصدي، فإني أرى «قتل البشرية جمعاء». يجب ألا أن ينجو أحد».

بالنسبة إلى مثل هؤلاء الأشخاص، عالم الواقع هو عالم ناقص وشرير؛ لذا فليذهب كل شيء إلى الجحيم!

ما الذي يحدث عندما يفكِّر شخصٌ ما بهذه الطريقة؟ تتناول هذه المسألة مسرحية ألمانية رائعة للأديب الألماني يوهان فولفجانج فون جوته، وهي

مسرحية « فاوست» **Faust**. يبيع بطل المسرحية، وهو باحث يُدعى «هينريتش فاوست» روحه الخالدة لشيطان يسمى «مفستوفيلس»، مقابل أن يحصل على كل ما يريده في حياته على الأرض. وفي مسرحية جوته، يُعتبر مفستوفيلس العدو الأبدي للكينونة، وهو يمتلك عقيدة أساسية واضحة(109):

أنا ذلك الروح الذي دأبه الإنكار والذي يعشق العدم والفناء

ويحق له هذا؛ لأن كل ما ينشأ في العالم وينمو جدير به أن يفنى ويمحى

وكان أولى له لو لم يوجد ولم ينشأ

وما تسمونه أنتم الغيّ والضلال والمعصية والباطل

هذا كله هو عنصري الخاص الذي أنتمي إليه(42).

كان جوته يعتبر هذا الشعور بالكراهية مهمًّا جدًّا –وضروريًّا جدًّا للعنصر الرئيسي للتدمير الإنساني الانتقامي– حتى إنه جعل مفستوفيلس يكرِّره مرة أخرى بصياغة مختلفة نوعًا ما في الجزء الثاني من المسرحية، الذي كتبه بعد الأول بسنوات عديدة(110).

كثيرًا ما يفكِّر البشر بطريقة مفستوفيلس، رغم أنهم نادرًا ما ينفِّذون أفكارهم بالوحشية الرهيبة التي اتّسم بها القتلة الجماعيون في المدرسة، والكلّية، ودار السينما. فمتى تعرَّضنا لظلم، سواء أكان حقيقيًّا أو متخيِّلًا؛ ومتى واجهنا مأساة أو وقعنا ضحايا لمكائد الآخرين؛ ومتى شعرنا بالخوف والألم بسبب أوجه قصورنا التي تبدو اعتباطية؛ حينها يبزغ من الظّلام على نحوٍ قاسٍ إغراء التشكيك في الكينونة ولعنها. لماذا يتحتّم أن يعاني أناس أبرياء بهذه البشاعة؟ وأي كوكب مروع رهيب هذا الذي نعيش عليه على أي حال؟

إن الحياة شاقّة للغاية في حقيقة الأمر. فكل واحد منا مُقدَّر له المعاناة والفناء في النهاية. أحيانًا تكون المعاناة نتيجة واضحة لخلل شخصي، مثل العمى المتعمَّد، أو عدم القدرة على اتّخاذ القرار، أو الحقد. وفي هذه الحالات، حين يبدو أن مصدر المعاناة هو الذات، فإنها قد تبدو معاناةً عادلةً ومستحقةً. يمكننا أن نقول حينها إن الناس ينالون ما يستحقون. إلا أن هذا ليس عزاءً، حتى إذا كان صحيحًا. وأحيانًا، إذا غيّر أصحاب المعاناة من سلوكياتهم، فإن حياتهم تصبح أقل مأساوية. بيد أن السيطرة البشرية محدودة؛ وجميع البشر عرضة لليأس، والمرض، والشيخوخة، والموت. وفي نهاية المطاف، لا يبدو أننا نحن المسؤولون عن ضعفنا. خطأ مَنْ هذا إذن؟

إن من يعانون من مرض شديد (أو الأسوأ من ذلك؛ من لديهم أطفال مرضى) سيجدون أنفسهم حتمًا يطرحون هذا السؤال، سواء أكانوا متديّنين أم لا. والأمر نفسه ينطبق على شخص وجد نفسه عالقًا بين تروس آلة بيروقراطية كبرى؛ يعاني مراجعة الضرائب، أو يواجه دعوى قضائية لا نهاية لها، أو دعوى طلاق. ولا تقتصر الحاجة إلى إلقاء اللوم على شخص ما أو

شيء ما بسبب وضع الكينونة الفظيع الذي لا يمكن احتماله على أصحاب المعاناة وحدهم؛ فعلى سبيل المثال، بدأ الروائي الروسي العظيم ليو تولستوي نفسه في التساؤل عن قيمة الوجود البشري، وهو في قمة شهرته وإبداعه وتأثيره(111). وكانت طريقته في التفكير تسير على النحو التالي:

«كان وضعي فظيعًا. كنت أعرف أنني لن أصل لشيء من خلال المعرفة العقلانية سوى إنكار الحياة؛ ولم أجد في الإيمان سوى إنكار العقل، وكان هذا أكثر استحالة بالنسبة إليّ من إنكار الحياة. وطبقًا للمعرفة العقلانية، فإن الحياة فاسدة والناس يعرفون ذلك. لا يجب عليهم عيش تلك الحياة، إلا أنهم عاشوها، وما زالوا يعيشونها، تمامًا كما فعلت أنا نفسي، على الرغم من أنني كنتُ أعلم منذ وقت طويل أن الحياة فاسدةٌ ولا معنى لها».

وبرغم كل محاولاته، لم يتمكّن تولستوي من تحديد أكثر من أربع طرق فقط للهروب من هذه الأفكار. الأولى هي الانتكاس إلى جهل يشبه جهل الأطفال بالمشكلة. والثانية هي السعي وراء المتعة بتغافل وغباء. والثالثة هي «متابعة عيش حياة مليئة بالشر وانعدام المعنى بإدراك مسبق بأنها لا يمكن

أن تسفر عن شيء ذي قيمة». وربط تولستوي تلك الطريقة الأخيرة بالضعف: « فالأشخاص الذين يندرجون في هذه الفئة يدركون أن الموت أفضل من الحياة، لكنهم لا يملكون القوة اللازمة للتصرّف بعقلانية وإنهاء هذا الوهم بسرعة بقتل أنفسهم».

والطريقة الرابعة والأخيرة وحدها هي التي تتضمّن « القوة والطاقة. وهي تعتمد على تدمير الحياة بمجرد أن يدرك المرء أنها مليئة بالشر وأنها بلا معنى». وتابع تولستوي أفكاره بلا هوادة قائلًا:

«فقط من يتمتّعون بالقوة الاستثنائية والاتّساق المنطقي مَنْ يتصرفون بهذه الطريقة. فبعد إدراكهم لحماقة المزحة التي تُمَارَس علينا، ورؤية أن ما يحظى به الموتى من نِعَمٍ أفضل مما يحظى به الأحياء، وأنه من الأفضل ألا يكون للمرء وجودٌ في الحياة، يتصرّفون ويضعون نهاية لتلك المزحة السخيفة؛ ويستعينون بأيّ وسيلة متاحة لفعل ذلك: حبل حول الرقبة، أو مياه، أو سكين مغروس في القلب، أو قطار».

لم يكن تولستوي متشائمًا بما فيه الكفاية. فالمزحة الحمقاء التي تُمارَس علينا لا تدفعنا فقط للانتحار؛ بل إنها تحفِّز على ارتكاب جرائم القتل، القتل الجماعي، الذي يعقبه الانتحار. وهذا اعتراض وجودي أكثر فعالية بكثير. فبحلول شهر يونيو من عام 2016، ورغم عدم معقولية هذا، كان ثمة ألف حادثة قتل جماعي (وهي الحادثة التي يُقتَل فيها أربعة أفراد أو أكثر في واقعة واحدة، بخلاف مرتكبها) في الولايات المتحدة في 1260 يومًا(112). وهذا يعني خمس حوادث كل ستة أيام على مدار أكثر من ثلاث سنوات. والجميع يقولون: «لا نفهم ماذا يحدث». كيف لا يزال بمقدورنا التظاهر بهذا؟ لقد أدرك تولستوي هذا منذ أكثر من قرن مضى. وأدركه كذلك الكُتّاب القدامى لقصة قابيل وهابيل في الكتاب المقدس منذ أكثر من عشرين قرنًا مضت. فقد وصفوا القتل بأنه أول فعل في تاريخ ما بعد الهبوط من جنّة عدن؛ وهو ليس قتلًا فحسب، بل قتل أخٍ؛ وليس قتل بريءٍ فحسب، بل قتل شخصٍ طيِّبٍ ومثاليٍّ؛ وهي جريمة قتل ارتُكِبَت عن عمد نكاية في خالق الكون نفسه. وقتلة اليوم يقولون لنا الشيء نفسه، بطريقتهم الخاصة. ومن ذا يجرؤ على أن يقول إن هذا ليس هو الفساد الكامن في جوهر البشر؟ لكننا لا ننصت؛ لأن الحقيقة مؤلمة إلى حدٍّ يفوق قدرتنا على الاحتمال. فحتّى بالنسبة إلى عقل هائل مثل عقل الأديب

الروسي العظيم، لم يكن ثمة ملاذ أو مفَرّ. وأنّى للبقية من عامّة البشر أن يتمكّنوا من التعامل مع معضلة كهذه في حين اعترف رجل بمكانة تولستوي ومنزلته الرفيعة بالهزيمة؟ لقد ظل يخبّئ أسلحته من نفسه لسنوات، ولا يمسك بحبل في يده كي يتجنّب شنق نفسه.

أنّى لشخصٍ واعٍ مدركٍ أن يتجنّب السّخط على العالم؟

الانتقام أو التحوّل

قد يهزُّ شخصٌ متديّنٌ قبضته غاضبًا يأسًا إزاء ذلك الظلم البيِّن والعمى الإلهي. فحتّى المسيح نفسه شعر بالهجر والخذلان قبل صلبه، أو هذا ما تقوله القصّة. وقد يلقي شخصٌ لا أدريٌّ أو ملحدٌ باللوم على القدَر، أو يتأمّل بمرارة في قسوة الصُدف. وقد يرهق آخر نفسه بالتفكير بحثًا عن العيوب الشخصية التي تشكِّل أساس معاناته وتردّي أحواله. وكلّ هذه

تنويعات للفكرة ذاتها. اسم الهدف يتغيّر، ولكن العمليّة النفسيّة الأساسيّة تبقى ثابتةً. لماذا؟ لماذا كل هذه المعاناة والقسوة؟

حسنًا، ربما كان هذا حقًّا من صنع الله؛ أو القدر الأحمق الخاطئ الأعمى، إذا كنتَ تميل للتفكير بهذه الطريقة؛ ويبدو أن كل مسوِّغات التفكير بهذه الطريقة متوفِّرة. لكن ما الذي سيحدث إن فعلت ذلك؟ يعتقد القتلة الجماعيون أن وجود المعاناة في الحياة يبرِّر الحساب والانتقام، كما ذكر قاتلًا كولومباين بوضوح تام(113): «أُفضِّل الموت سريعًا على أن أخون أفكاري. وقبل أن أترك هذا المكان الحقير، سأقتل كل من أحكم عليه أنه لا يصلح لأي شيء، لا سيما الحياة. إذا كنتَ قد ضايقتني في الماضي، فستموت إذا رأيتك. قد تكون قادرًا على إزعاج الآخرين والنجاة بفعلتك في نهاية المطاف، لكن هذا لن يحدث معي. أنا لا أنسى من آذوني».

تعرَّضَ كارل بانزرام(43)، أحد أكثر القتلة قسوة في الانتقام في القرن العشرين، للاغتصاب، والوحشية، والخيانة، في المؤسَّسة التي كانت مسؤولة عن «إعادة تأهيله» في ولاية مينيسوتا عندما كان حدَثًا جانحًا. وقد خرج من تلك المؤسّسة غاضبًا إلى حدٍّ لا يوصف، وأصبح سارقًا، ومشعِل حرائق،

ومغتصِبًا، وقاتلًا. كان يهدف بوعيٍ وعلى الدوام إلى التدمير، حتى إنه كان يتابع القيمة المالية للمنشآت التي يحرقها. بدأ الأمر معه بكراهية أولئك الذين آذوه، وزاد حنقه حتى شملت كراهيته البشرية جمعاء، ولم يكتفِ بهذا؛ بل كان الدمار الذي يسبّبه موجهًا بالأساس تجاه الله ذاته. ليس ثمة طريقة أخرى للتعبير عن هذا. لقد كان بانزرام يغتَصِب، ويقتل، ويحرق، ليعبّر عن غضبه على الكينونة ذاتها. كان يتصرّف كما لو كان هناك مسؤول عما حدث. والشيء نفسه حدث في قصة قابيل وهابيل؛ فقد رُفِضَ قربان قابيل، وشعر بالمعاناة. فتحدّى الله والوجود الذي خلقه. وردّه الله خائبًا، وأعلمه بأن متاعبه نابعة من ذاته. وفي ثورة غضبه، قتل قابيل أخاه هابيل، المفضَّل عند الله (والقدوة لأخيه قابيل، في حقيقة الأمر). كان قابيل غيورًا بالطبع من شقيقه الناجح؛ ولكنه قتله في الأساس نكاية في ربه. وهذه هي أصدق نسخة لما يحدث عندما تصل رغبة الناس في الانتقام إلى أقصى مداها.

كان رد فعل بانزرام مفهومًا تمامًا (وهذا ما كان مفزعًا جدًا في الأمر). وتكشف تفاصيل سيرته الذاتية أنه كان أحد الأشخاص الذين قال تولستوي عنهم إنهم أقوياء ومتَّسِقين منطقيًا. كان فاعلًا قويًا، شجاعًا، متَّسقًا، ولا

يخشى شيئًا. كان يمتلك شجاعة قناعاته الراسخة. فكيف لشخصٍ مثله أن يصفح وينسى، بالنظر إلى ما حدث له؟ يواجه البشر أمورًا مروِّعة بالفعل؛ ولا عجب أنهم يحاولون الانتقام. ففي مثل هذه الظروف، يبدو الانتقام حتمية أخلاقية. إذ كيف يمكن التفريق بين الانتقام وبين السعي للعدالة؟ وبعد المرور بتجربة مروّعة، ألا يكون الصفح مجرّد جبن، أو ضعف في الإرادة؟ مثل هذه الأسئلة تؤرقني. لكن الناس يتجاوزون الماضي المروّع أحيانًا ويفعلون الخير، وليس الشرّ، رغم أن هذا قد يبدو متجاوزًا لقدرة البشر.

لقد التقيت أناسًا استطاعوا فعل هذا. وأعرف رجلًا، كان فنّانًا عظيمًا، خرج من «مدرسة» مماثلة تمامًا لتلك التي وصفها بانزرام؛ غير أن هذا الرجل كان قد دخلها طفلًا بريئًا عمره خمس سنوات بعد فترة طويلة قضاها في المستشفى حيث كان يعاني من الحصبة، والنكاف، والجدري، في الوقت نفسه. خرج إلى المجتمع شابًا غاضبًا منكسرًا بعد أن عجز عن مجاراة الأسلوب السائد في المدرسة، وتعمَّد الانعزال عن عائلته بعد تعرّضه لإساءة معاملته، وتجويعه، وتعذيبه بطرق أخرى. آذى نفسه بشدّة بعد ذلك بتعاطي المخدرات والكحوليات وأشكال أخرى من سلوكات تدمير الذات. أبغض كل شيء؛ بما في ذلك الله، ونفسه، والقدر الأعمى. لكنه وضع حدًّا

لكلّ هذا. توقّف عن تناول الكحوليات، وتوقّف عن الكراهية (رغم أنها لا تزال تظهر في ومضات خاطفة). أعاد إحياء الثقافة الفنية لتقاليد وطنه الأم، ودرَّب شابًا يافعًا لمواصلة الدرب الذي سار عليه. بنى طوطمًا يبلغ طوله خمسين قدمًا يخلّد به حوادث حياته، وزورقًا يبلغ طوله أربعين قدمًا من جذع شجرة واحد من نوعٍ نادرًا ما يُصنَّع الآن. كما أعاد جمع شمل عائلته وأقام احتفالًا راقصًا لست عشرة ساعة حضره المئات من الناس ليعبّر عن حزنه ويتصالح مع ماضيه. لقد قرر أن يصبح شخصًا صالحًا، ثم فعل الأشياء المستحيلة اللازمة للعيش بهذه الطريقة.

كانت لديَّ عميلة لم تحظ بأبوين صالحين. ماتت والدتها وهي صغيرة السن للغاية، وكانت جدّتها التي ربّتها عجوزًا شكسة، قاسية، شديدة الاهتمام بالمظاهر. أساءت الجدّة معاملة حفيدتها وعاقبتها بسبب مناقبها: الإبداع، والرقّة، والذكاء؛ وكانت عاجزة عن مقاومة التعبير عن سخطها من حياتها العصيبة للغاية بإنزال العقاب بحفيدتها. كانت علاقة الفتاة بأبيها أفضل، لكنه كان مدمنًا ومات بشكل بغيض بينما كانت تعتني به. كان لديها ابن؛ ولم تستمر في فعل أي من هذا معه. لقد نشأ صادقًا، ومجتهدًا، ومستقلًّا، وذكيًّا. وبدلًا من توسيع شقّ النسيج الثقافي الذي ورثته، وبدلًا من

توريثه لابنها، فقد رتقته. لقد رفضت خطايا أسلافها. إنه لمن الممكن بالفعل تحقيق مثل هذه الإنجازات.

«ليس بالضرورة أن تتمخَّض المِحَن –سواء أكانت نفسية، أو جسدية، أو فكرية– عن عدمية (أي رفضٍ جذريٍّ للقيمة، والمعنى، والرغبة). بل دائمًا ما ينبثق عن المحن تأويلات مختلفة عدّة».

كتب نيتشه هذه الكلمات، وما كان يعنيه هو أن الناس الذين يتعرّضون للشرِّ قد يرغبون بالتأكيد في استمراره وممارسته وتعريض الآخرين له؛ لكن من الممكن أيضًا أن نتعلّم الخير من خلال تعرضنا للشر. فالصبيّ الذي يتعرّض للتنمّر يمكنه أن يقلد سلوكيات معذبيه؛ ولكن يمكنه أيضًا التعلم من الإساءة التي تعرّض لها أنه من الخطأ التنمّر على الناس وجعل حياتهم بائسة تعيسة. ويمكن لفتاة تعرّضت للإيذاء على يد والدتها أن تتعلّم من تجربتها البغيضة أهمية أن تكون أمًّا صالحة. إن العديد من البالغين –إن لم يكن غالب البالغين– الذين يؤذون الأطفال تعرّضوا هم أنفسهم للإيذاء حين كانوا أطفالًا. إلا أن غالبية من تعرّضوا للإيذاء حين كانوا أطفالًا لا يؤذون أطفالهم. تلك حقيقة مؤكّدة يمكن إثباتها ببساطة وبشكل حسابي كما يلي: إذا أساء أبٌ معاملة ثلاثة أطفال، وكل منهم أنجب ثلاثة أطفال، وهكذا،

فسيصبح هناك ثلاثة مسيئين في الجيل الأول، وتسعة في الجيل الثاني، وسبعة وعشرون في الجيل الثالث، وواحد وثمانون في الجيل الرابع؛ وهكذا بشكلٍ متضاعف. وبعد عشرين جيلًا، سيكون أكثر من عشرة مليارات من البشر قد تعرَّضوا للإيذاء في طفولتهم، وهذا عدد يفوق تعداد سكان كوكب الأرض حاليًّا. لكن الإيذاء –على عكس ذلك– يختفي عبر الأجيال. فالناس يمنعون انتشاره؛ وتلك شهادة على الهيمنة الفعلية للخير على الشرّ في قلوب البشر.

كذلك فإن الرغبة في الانتقام، رغم أن لها ما يبرّرها، تمنع ظهور أفكار أخرى مثمرة. وقد فسَّر الشاعر الأمريكي/الإنجليزي، تِ. سِ. إليوت، سبب هذا في مسرحيته «حفل الشراب» **The Cocktail Party**. لا تحظى إحدى شخصيات المسرحية بوقت طيب؛ فتتحدّث إلى معالجها النفسي عن تعاستها الشديدة، وتقول إنها تأمل لو كانت هي نفسها السبب في معاناتها. يتفاجأ المعالج ويسألها لماذا. وتقول إنها فكّرت طويلًا وتوصّلت إلى النتيجة التالية: إذا كانت هي السبب، فربما تكون قادرة على فعل شيء ما بشأن ذلك. لكن إذا كان الله هو المتسبِّب في هذا –إذا كان

الواقع ذاته معيوبًا، وكان مصرًا على أن تعيش في بؤس– فهي هالكة إذًا. إنها لا تستطيع تغيير بنية الواقع ذاتها؛ لكن ربما تستطيع تغيير حياتها.

كان لدى الأديب الروسي ألكسندر سولجنتسين كلَّ الحقِّ في التساؤل عن بنية الوجود حين كان سجينًا في أحد معسكرات العمل الإلزامي السوفييتية في منتصف القرن العشرين الرهيب. كان سولجنتسين قد قضى الخدمة العسكرية كجندي على الجبهة الروسية الضعيفة في مواجهة الغزو النازي. وأُلقِيَ القبض عليه، وضُرِب، وأُلقي في السجن، على يد أبناء وطنه. ثم أُصيب بالسرطان. كان يمكنه أن يمتلئ بالسخط والمرارة. لقد أصبحت حياته بائسة تعيسة بسبب اثنين من أسوأ الطواغيت في التاريخ، ستالين وهتلر. لقد عاش في ظروف وحشيّة، وضاعت فترات طويلة من حياته الثمينة وتبدّدت بلا طائل. كما شهد المعاناة المهينة والعبثيّة والموت المفجع لأصدقائه ومعارفه. ثم أُصيب بمرض خطير للغاية. لقد كان لدى سولجنتسين كافة الأسباب للسخط على الله؛ فحتى النبي أيوب لعلّه لم يواجه مثل هذا الشقاء الرهيب.

لكن الكاتب العظيم، والمدافع المتحمِّس عن الحقيقة، لم يسمح لعقله بالانحراف صوب الانتقام والتدمير. وبدلًا من ذلك، فتح عينيه. فخلال المحَن العديدة التي مرّ بها، قابل سولجنتسين أناسًا كانوا يتصرّفون بنُبل وشرف في ظل ظروف مروعة. كان يتأمّل في سلوكياتهم كثيرًا وبعمق، ثم يسأل نفسه أصعب الأسئلة: هل ساهم هو نفسه في صنع حياته الكارثية؟ وإذا كانت الإجابة هي نعم، فكيف؟ تذكّر دعمه المطلق للحزب الشيوعي في شبابه، وأعاد التفكير في حياته بأكملها. كان لديه الكثير من الوقت للقيام بهذا في المعتقل. كيف ضلّ السبيل في الماضي؟ كم مرة تصرّف فيها على نحو يخالف ضميره، وشارك في أفعال كان يعرف أنها خاطئة؟ كم مرّة خان فيها ذاته وكذب؟ وهل ثمة سبيل لإصلاح أخطاء الماضي والتكفير عنها في الجحيم الموحل للمعتقلات السوفييتية؟

راح سولجنتسين يتأمّل في تفاصيل حياته بعمق شديد. وسأل نفسه سؤالًا ثانيًا، وثالثًا. هل يمكنني الآن التوقّف عن ارتكاب مثل هذه الأخطاء؟ هل يمكنني الآن إصلاح الضرر الذي أحدثته أخطاء الماضي؟ وتعلَّم أن يشاهد ويُنصِت. وجد أناسًا استحقّوا إعجابه واحترامه؛ فقد كانوا صادقين رغم كل شيء. راح يحلِّل ذاته، جزءًا بعد جزء، وترك ما هو غير ضروري وضارّ في

نفسه ليموت، وأعاد إحياء ذاته من جديد. ثم ألف كتاب « أرخبيل المعتقلات السوفييتية» **The Gulag Archipelago**، وهو عملٌ أدبيٌّ يؤرِّخ لنظام معسكرات الاعتقال السوفييتية(**115**). إنه كتاب قويٌّ رهيبٌ كتبته القوّة الأخلاقية الطاغية للحقيقة الصريحة المحضة. كان الغضب المطلق يصرخ عبر مئات الصفحات من الكتاب على نحو لا يُحتمل. مُنِع الكتاب في الاتحاد السوفييتي (لأسباب معروفة)، وهُرِّبَ إلى الغرب في سبعينيات القرن العشرين، وخرج للعالم بقوّة. حطّمت كتابات سولجنتسين بشكل نهائي وتام أي مصداقية فكريّة للشيوعيّة، سواء كأيديولوجيّة أو كمجتمع. لقد أعمل سولجنتسين فأسه في أصل الشجرة التي ذاق ثمارها المُرّة؛ والتي كان شاهدًا على غرسها وداعمًا له.

تسبّب قرار رجل واحد بتغيير حياته –بدلًا من أن يلعن القدر– في هزِّ نظام الاستبداد الشيوعي الفاسد حتى النخاع. وانهار هذا النظام تمامًا بعد ذلك بسنوات ليست بالكثيرة، وكانت شجاعة سولجنتسين من بين الأسباب القويّة لهذا الانهيار. ولم يكن سولجنتسين الشخص الوحيد الذي حقّق مثل هذه المعجزة. ويتبادر إلى الذهن من أمثال هؤلاء فاتسلاف هافِل، الكاتب

المضطهَد الذي أصبح لاحقًا –على نحو مستحيل– رئيس تشيكوسلوفاكيا ثم جمهورية التشيك الجديدة، وكذلك المهاتما غاندي.

عندما تنهار الأمور

رفضت شعوب بأكملها بشكل قاطع إدانة الواقع، وانتقاد الوجود، وإلقاء اللوم على الله. ومن المثير للاهتمام النظر للعبرانيين في العهد القديم بهذا الخصوص. كانت محَنهم تتوالى تباعًا على نحو متّسق. إن قصص آدم وحواء، وقابيل وهابيل، ونوح، وبرج بابل، هي قصص قديمة حقًّا، وتتوارى أصولها في غياهب الزمان. ولا يبدأ التاريخ حقًّا، على النحو الذي نعرفه، إلا بعد قصّة الطوفان المذكورة في سِفر التكوين. وهو يبدأ بالنبي إبراهيم، الذي أصبح نسله الشعب العبراني المذكور في العهد القديم، المعروف أيضًا باسم الكتاب العبري. يعقد العبرانيون ميثاقًا مع يهوه – الله– وتبدأ مغامراتهم التاريخية الشهيرة.

وتحت قيادة رجل عظيم، ينظّم العبرانيون أنفسهم في صورة مجتمع، ثم إمبراطورية. ومع زيادة ثرواتهم، يؤدّي نجاحهم إلى الكبر، والغرور، والصلف.

يُبرز الفساد رأسه القبيح، وتصبح الدولة المتزايدة في الغرور مهووسة بالسلطة والقوة، وتبدأ في نسيان واجبها تجاه الأرامل، واليتامى، وتنبذ ميثاقها القديم مع الله. ثم يظهر نبيّ. ويقوم هذا النبي بإهانة الملك المستبد والدولة الكافرة على نحو علني وجريء – وهو تصرّف ينمُّ عن شجاعة مطلقة– ويخبرهم عن الحساب الرهيب القادم. وحين يبدأون في إعطاء بعض الاهتمام لكلماته، يكون الأوان قد فات. يعذّب الله شعبه المنحرف العاصي ويحكم عليهم بهزيمة مذِلَّة وأجيال من العبودية والذلّ. يندم العبرانيون على ذنوبهم ويتوبون، على مدار زمن طويل، ويُرجِعون محنتهم إلى فشلهم في التمسّك بميثاق الله، ويؤكّدون لأنفسهم أنه كان بمقدورهم فِعل ما هو أفضل. ومن ثمَّ يعيدون بناء دولتهم، وتدور الدائرة من جديد.

تلك هي الحياة. إننا نبني أبنية لنعيش فيها؛ نبني عائلات، ودولًا، وبلدانًا؛ ونجرِّد الأساسات التي قامت عليها تلك الأبنية، ونصوغ أنظمة للمعتقدات. في البداية، نسكن تلك الأبنية وأنظمة المعتقدات، مثل آدم وحوّاء في الفردوس. ولكن النجاح يجعلنا نشعر بالرضا عن أنفسنا، وننسى الانتباه. ننظر لما لدينا باستهانة واستخفاف، ونتغافل، ونعجز عن ملاحظة أن الأمور

تتغير، أو أن الفساد يضرب بجذوره. وينهار كل شيء. هل هذا خطأ الواقع؛ أو خطأ الله؟ أم إن الأمور تنهار لأننا لم ننتبه بما يكفي؟

عندما ضرب الإعصار نيو أورليانز وغرقت المدينة تحت الأمواج، هل كانت هذه كارثة طبيعية؟ يُعِدّ الهولنديون الحواجز والسدود لمواجهة أسوأ عاصفة يمكن أن تضربهم خلال عشرة آلاف عام. ولو كانت نيو أورليانز قد استعدّت بالطريقة نفسها، لما وقعت المأساة. لم تكن المشكلة أن أحدًا لم يكن يعرف. فقانون مواجهة الفيضانات للعام 1965 أوجب إدخال تحسينات على نظام أرصفة حجز المياه التي تمنع فيضان بحيرة بونشرترين. كان من المقرّر أن يكتمل النظام بحلول العام 1978. وبعد مرور أربعين عامًا، كان 60 بالمائة فقط من العمل هو ما تم إنجازه. لذا فقد كان العمى المتعمَّد والفساد هما من هزما المدينة.

الإعصار هو قضاء الله وقدره ولا يمكن تجنّبه، لكن الفشل في الاستعداد في الوقت الذي تكون فيه ضرورة الاستعداد معروفة سلفًا خطيئة. هذا هو الفشل في إصابة الهدف. وثمن الخطيئة هو الموت (رسالة إلى أهل رومية

23:6). دائمًا وجَّه اليهود القدامى اللوم لأنفسهم عندما كانت الأمور تنهار. كانوا يتصرّفون كما لو كانت خيرية الله –خيرية الواقع– أمرًا بديهيًا، وأنهم يتحمّلون مسؤولية فشلهم. وهذا تحمّل مفرط للمسؤولية يفوق كلّ الحدود؛ ولكن البديل له هو الحكم على الواقع بأنه سيئ وبغيض، وانتقاد الكينونة ذاتها، والانغماس في السخط والرغبة في الانتقام.

إذا كنتَ تعاني، فهذا أمر طبيعي. فقدرات الناس محدودة والحياة مأساوية. ولكن إذا كانت معاناتك لا تُحتَمل، وبدأت تصبح فاسدًا، فإليك أمرًا ينبغي أن تفكِّر فيه.

نظِّم حياتك

فكّر في ظروفك. ابدأ بهدف بسيط. هل أحسنت استغلال الفرص التي أتيحت لك؟ هل تجتهد من أجل تحسين حياتك المهنية، أو حتى وظيفتك، أم تجعل السخط والمرارة يعيقانك ويعرقلانك؟ هل صالحت شقيقك؟ هل

تعامل زوجتك وأولادك بتقديرٍ واحترامٍ؟ هل لديك عادات تدمِّر صحتك ورفاهيتك؟ هل تتحمّل مسؤولياتك حقًّا؟ هل قلت ما يجب عليك قوله لأصدقائك وأفراد أسرتك؟ هل ثمة أشياء يمكنك القيام بها، وتعلم أنه يمكنك القيام بها، ومن شأنها أن تجعل محيطك أفضل؟

هل نظّمت حياتك وتخلّصت من الفوضى فيها؟

إذا كانت الإجابة هي لا، فإليك شيئًا يمكن أن تجرّبه: ابدأ بالتوقّف عن فعل ما تعرف أنه خطأ. ابدأ ذلك اليوم. لا تضيّع الوقت في التساؤل حول كيفية معرفتك بأن ما تفعله خطأ إذا كنتَ تشعر بأنه كذلك. التساؤلات في غير وقتها المناسب يمكن أن تسبّب لك الحيرة وتشتِّتك عن الفعل، ولا تؤدّي إلى أي إدراك أو بصيرة. يمكنك أن تعرف أن شيئًا ما صواب أو خطأ من دون معرفة السبب. يمكن لكيانك بأكمله أن يخبرك بأمرٍ لا يمكنك تفسيره أو توضيحه. إن كل إنسان هو شخص معقّد للغاية إلى حد يمنعه من معرفة نفسه تمامًا، ونحن جميعًا نطوي على حكمة لا يمكننا استيعابها.

لذا توقّف ببساطة عندما تدرك، ولو إدراكًا باهتًا، أنه يجب عليك التوقّف. كُف عن التصرّف بتلك الطريقة الوضيعة. كُف عن قول تلك الأشياء التي تجعلك ضعيفًا وشاعرًا بالخزي. لا تتكلّم سوى بالأشياء الإيجابية التي تجعلك قويًّا، ولا تفعل سوى الأشياء التي يمكنك التحدّث عنها بعزّة وافتخار.

يمكنك استخدام معاييرك الخاصّة لتقدير الأمور. ويمكنك الاعتماد على نفسك في التوجيه والإرشاد. ليس عليك الالتزام بنظام سلوكي خارجي تعسّفي (رغم أنه يجب عليك ألّا تغفل الإرشادات التي تقدّمها لك ثقافتك. إن الحياة قصيرة، وليس لديك الوقت الكافي لمعرفة كلِّ شيءٍ بنفسك. لقد اكتسب القدماء الحكمة بمشقّة وصعوبة، وربما كان لدى أسلافك الموتى نصائح مفيدة يخبرونك بها).

لا تُلقِ باللوم على الرأسمالية، أو اليسار المتشدِّد، أو ظلم أعدائك. لا تحاول إصلاح وتنظيم الدولة قبل أن تكون قد نظّمت حياتك وخبراتك.

تحلَّ بقدرٍ قليلٍ من التواضع. فإذا كنت لا تستطيع إحلال السلامِ في بيتك، فكيف تجرؤ على محاولة حكم مدينة كاملة؟ دع روحك ترشدك. راقب ما يحدث على مَرّ الأيام والأسابيع. حين تكون في العمل، ستبدأ في قول ما تعتقده حقًّا. ستبدأ في إخبار زوجتك، أو زوجك، أو أطفالك، أو والديك، بما تريده وتحتاجه حقًّا. وحين تعرف أنّك تركت أمرًا كان عليك فعله، ستتصرّف لتصحيح هذا الخطأ. سيبدأ ذهنك في التفكير بصفاءٍ حين تتوقّف عن ملئه بالأكاذيب. ستتحسّن حياتك حين تتوقّف عن تشويهها بأفعال غير صادقة. وستبدأ حينها في اكتشاف أشياء جديدة أكثر دقّة تفعلها بشكل خاطئ. توقّف عن فعل هذه الأشياء أيضًا. وبعد مرور الوقت الكافي من الجهد المستمر، سوف تصبح حياتك أبسط وأقل تعقيدًا. سيبدأ تقديرك للأمور في التحسّن. سوف تحلّل ماضيك، وتفهمه، وستصبح أكثر قوةً وأقل شعورًا بالمرارة. ستتوجّه نحو المستقبل بثقة أكبر. ستكُفّ عن جعل حياتك عسيرة بلا داعٍ. وسيتبقى لك حينها مواجهة مآسي الحياة الحتمية، لكنها لن تكون محمَّلة بالمرارة والخداع.

وربما تكتشف حينها أن روحك التي أصبحت أقل فسادًا الآن، وأقوى بكثير مما كان يمكن أن تكون عليه قبل ذلك، قادرة على تحمّل تلك

المآسي الضرورية الصغيرة المتبقيّة التي لا يمكن تجنّبها. وربما حتى ستتعلّم كيفية مواجهتها بحيث تظلّ محزنة –محزنة فقط– بدلًا من أن تتحوّل إلى جحيمٍ حقيقيٍّ. ربما سيقلّ قلقك، ويأسك، وسخطك، وغضبك – برغم أن هذه الأشياء قد تكون قاتلة في البداية. ربما ستنظر روحك النقيّة حينها لوجودها على أنه خير حقيقي، على أنه شيء يُحتفى به، حتى في مواجهة ضعفك. ربما ستصبح قوّة أكبر وأعظم من أجل السلام والخير.

ربما سترى حينها أنه إذا فعل كل البشر هذا في حياتهم، فربما يكُفّ العالم عن أن يكون مكانًا بغيضًا فاسدًا. وبعد ذلك، وبجهد مستمر، ربما يكُف حتى عن أن يكون مكانًا مليئًا بالمآسي. ومن يدري كيف سيصبح الوجود إذا سعينا جميعًا إلى الأفضل؟ من يدري أي نعيم أبديّ يمكن لأرواحنا –التي طهّرتها الحقيقة، والتي تسعى نحو الأفضل– أن تنشئه هنا على تلك الأرض الخربة الفانية؟

أصلح من نفسك قبل أن تنتقد العالم من حولك.

القاعدة 7

اسع وراء المعنى

(وليس وراء النّفعِية)

خذ ما يمكنك أخذه بينما الفرصة سانحة

الحياة معاناة. هذا واضح. ليست هناك حقيقة أساسية لا يمكن دحضها مثل هذه الحقيقة. إنها الحقيقة التي أخبر الله بها آدم وحواء، قبل طردهما من الجنة مباشرة.

وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ».

وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ التِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ.

وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ.

بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ».

(سِفر التكوين 3: 16–19)

وما الذي يمكننا فعله حيال ذلك؟

تريد الجواب الأبسط، والأكثر وضوحًا، ومباشرة؟ اسعَ وراء المتعة؛ اتبع شهواتك؛ عِش من أجل اللحظة؛ افعل ما هو نفعي؛ اكذب، وغشّ، واسرق، واخدع، وتلاعب؛ لكن إياك أن يُكشَفَ أمرك. ما الفارق الذي يمكن أن يحدثه ذلك في كون بلا معنى في الأساس؟ وليست هذه بالفكرة الجديدة على أي حال؛ فقد استخدمت حقيقة مأساة الحياة –والمعاناة التي هي جزء منها– لتبرير السعي الفوري وراء إشباع الغرائز الأنانية لفترة طويلة جدًّا من الزمان.

فَإِنَّهُمْ بِزَيْغِ أَفْكَارِهِمْ قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: «إِنَّ حَيَاتَنَا قَصِيرَةٌ شَقِيَّةٌ، وَلَيْسَ لِمَمَاتِ الإِنْسَانِ مِنْ دَوَاءٍ، وَلَمْ يُعْلَمْ قَطُّ أَنَّ أَحَدًا رَجَعَ مِنَ الْجَحِيمِ.

إِنَّا وُلِدْنَا اتِّفَاقًا، وَسَنَكُونُ مِنْ بَعْدُ كَأَنَّا لَمْ نَكُنْ قَطُّ، لأَنَّ النَّسَمَةَ فِي آنَافِنَا دُخَانٌ، وَالنُّطْقَ شَرَارَةٌ مِنْ حَرَكَةِ قُلُوبِنَا.

فَإِذَا انْطَفَأَتْ عَادَ الْجِسْمُ رَمَادًا، وَانْحَلَّ الرُّوحُ كَنَسِيمٍ رَقِيقٍ، وَزَالَتْ حَيَاتُنَا كَأَثَرِ غَمَامَةٍ، وَاضْمَحَلَّتْ مِثْلَ ضَبَابٍ يَسُوقُهُ شُعَاعُ الشَّمْسِ، وَيَسْقُطُ بِحَرِّهَا.

وَبَعْدَ حِينٍ يُنْسَى اسْمُنَا، وَلاَ يَذْكُرُ أَحَدٌ أَعْمَالَنَا. إِنَّمَا حَيَاتُنَا ظِلٌّ يَمْضِي، وَلاَ مَرْجِعَ لَنَا بَعْدَ الْمَوْتِ؛ لأَنَّهُ يُخْتَمُ عَلَيْنَا فَلاَ يَعُودُ أَحَدٌ.

فَتَعَالَوْا نَتَمَتَّعْ بِالطَّيِّبَاتِ الْحَاضِرَةِ، وَنَبْتَدِرْ مَنَافِعَ الْوُجُودِ مَا دُمْنَا فِي الشَّبِيبَةِ.

وَنَتَرَوَّ مِنَ الْخَمْرِ الْفَاخِرَةِ، وَنَتَضَمَّخْ بِالأَدْهَانِ، وَلاَ تَفُتْنَا زَهْرَةُ الأَوَانِ.

وَنَتَكَلَّلْ بِالْوَرْدِ قَبْلَ ذُبُولِهِ، وَلاَ يَكُنْ مَرْجٌ إِلّا تَمُرُّ لَنَا فِيهِ لَذَّةٌ.

وَلاَ يَكُنْ فِينَا مَنْ لاَ يَشْتَرِكُ فِي لَذَّاتِنَا، وَلْنَتْرُكْ فِي كُلِّ مَكَانٍ آثَارَ الْفَرَحِ؛ فَإِنَّ هٰذَا حَظُّنَا وَنَصِيبُنَا.

لِنَجُرْ عَلَى الْفَقِيرِ الصِّدِّيقِ، وَلاَ نُشْفِقْ عَلَى الأَرْمَلَةِ، وَلاَ نَهَبْ شَيْبَةَ الشَّيْخِ الْكَثِيرِ الأَيَّامِ.

وَلْتَكُنْ قُوَّتُنَا هِيَ شَرِيعَةَ الْعَدْلِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الثَّابِتِ أَنَّ الضُّعْفَ لاَ يُغْنِي شَيْئًا».

(سِفر الحكمة 1: 1-11).

ربما تكون متعة النفعيّة متعة زائلة، لكنها متعة على أي حال، وهذا شيء يقاوم رعب وألم الوجود. وكما يقول المثل القديم، فإن كل إنسان يسعى

لمصلحته، ولا عزاء للضعفاء. لِمَ لا تأخذ ببساطة كل ما يمكنك أخذه، متى كانت الفرصة سانحة؟ لِمَ لا تقرِّر العيش بهذه الطريقة؟

أم أن ثمة بديلًا أكثر قوة وأكثر إقناعًا؟

قدَّم أسلافنا إجابات دقيقة ومفصَّلة للغاية لمثل هذه الأسئلة، لكننا لا نزال لا نفهمها جيدًا؛ وهذا لأنها لا تزال ضمنية إلى حدٍّ بعيدٍ؛ حيث تتجلّى في المقام الأول في الطقوس والأساطير، ولم يُفصَح عنها بالكامل حتى الآن. إننا نمارسها ونجسِّدها في القصص، لكننا لا نملك من الحكمة بعد ما يكفي لصياغتها على نحو واضح وصريح. إننا لا نزال قرود شمبانزي في جماعة، أو ذئاب في قطيع. إننا نعرف كيف نتصرّف، ونعرف من هو الزعيم، ولماذا. لقد تعلمنا ذلك بالخبرة والتّجربة. تشكّلت معارفنا من خلال تفاعلنا مع الآخرين، وأنشأنا طرق تعامل وأنماط سلوك يمكن التنبؤ بها، لكننا لا نفهمها حقًا، أو نعرف من أين انبثقت؛ إذ إنها تطوّرت على مدار فترات ممتدة من الزمن. فلم يكن ثمة أحد يقوم بصياغتها على نحو صريح (على الأقل ليس في الماضي السحيق)؛ على الرغم من أننا نُخبر بعضنا

بعضًا دائمًا بكيفية التصرّف. ولكننا استيقظنا ذات يوم ليس ببعيد، وكنا نمارس هذه السلوكيات بالفعل، وبدأنا نلاحظ ما نفعله. بدأنا في استخدام أجسادنا كأدوات لتجسيد أفعالها، وبدأنا التقليد والتمثيل، واخترعنا الطقوس. بدأنا في تمثيل تجاربنا، ثم بدأنا في سرد القصص، وقمنا بتشفير ملاحظاتنا حول دراما حياتنا في هذه القصص. وبهذه الطريقة، أصبحت المعلومات –التي كانت في البداية كامنة ضمنيًّا في سلوكياتنا– مجسّدة في قصصنا. لكننا لم نفهم، ولا زلنا لا نفهم، معنى ذلك.

إحدى هذه القصص التي أنتجها خيالنا الجمعي على مرّ القرون هي قصّة الكتاب المقدّس عن الفردوس والهبوط منه. تقدّم لنا القصّة وصفًا عميقًا لطبيعة «الكينونة»، وتدلّنا على السبيل إلى نوع من التصوّر والفعل يتوافق مع تلك الطبيعة. ففي جنّة عدن، وقبل بزوغ فجر الوعي بالذات –كما تقول القصة– كان البشر بلا خطيئة. كان والدانا الأولان –آدم وحواء– يسيران مع الرب. وبعد إغواء الحيّة، أكل الأبوان من شجرة معرفة الخير والشر، واكتشفا الموت والضعف، وابتعدا عن الله. وهكذا طُرِدَ البشر من الفردوس، وبدأوا يعيشون وجودهم البشري الفاني. وتظهر فكرة التضحية بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، بداية من قصة قابيل وهابيل، وتتطوّر عبر المغامرات

الإبراهيمية وسِفر الخروج: وبعد كثير من التأمّل، تدرك البشرية المناضلة أنه يمكن نيل رضا الله، وتجنّب غضبه، من خلال التضحية المناسِبة، وتدرك كذلك أنه يمكن تحفيز الإقدام على القتل البشع بين أولئك غير الراغبين في النجاح بهذه الطريقة، أو غير القادرين على ذلك.

تأخير الإشباع

عند الانخراط في التضحية، بدأ أجدادنا في تجسيد ما يمكن اعتباره فرضية، إذا عبّرنا عنها بالكلمات: يمكن نيل شيء أفضل في المستقبل عن طريق التخلّي عن شيءٍ ذي قيمةٍ في الحاضر. وتذكَّر، إن شئت، أن حتميّة الكدّ هي إحدى اللعنات التي أنزلها الله بآدم وذريته نتيجة الخطيئة الأولى. فإدراك آدم للقيود الأساسية المفروضة على وجوده -ضعفه وموته في نهاية المطاف- يعادل اكتشافه للمستقبل. المستقبل: حيث ستموت (ليس قريبًا جدًّا كما نأمل). ويمكن تجنّب موتك من خلال الكدِّ؛ من خلال التضحية بالحاضر من أجل الاستفادة لاحقًا. ولهذا السبب -ضمن أسباب أخرى بلا شك- يُقدَّم مفهوم التضحية في الإصحاح التالي مباشرة لدراما الهبوط من

الجنّة في الكتاب المقدّس. وثمة فارقٌ بسيطٌ بين التضحية والكَدّ؛ وكلاهما عمل بشري خالص. ففي بعض الأحيان تتصرّف الحيوانات كما لو كانت تكِدّ وتكدح، لكنها في الحقيقة لا تفعل أكثر من اتباع غرائزها الطبيعية. إن القنادس تبني السدود، وهي تفعل ذلك لأنها قنادس، والقنادس تبني السدود. لكنها أثناء ذلك لا تفكِّر قائلة لنفسها: «نعم، لكنني كنت أفضِّل أن أكون على شاطئ في المكسيك مع صديقتي».

ببساطة، التضحية –الكَدّ– هي تأخير الإشباع، ولكن هذه عبارة مبتذلة للغاية لوصف شيء بهذه الأهمية البالغة. كان اكتشاف إمكانية تأخير الإشباع يعني في الوقت نفسه اكتشاف الزمن، ومعه مبدأ السببية (على الأقل القوة السببية للكدّ الإنساني الطوعي). فمنذ وقت بعيد، في الأزمنة الغابرة، بدأنا ندرك أن الواقع مصمَّم كما لو كان يمكن مساومته. لقد أدركنا أن التصرّف على نحو صحيح الآن؛ في الحاضر –عن طريق تنظيم دوافعنا، ومراعاة معاناة الآخرين– يمكن أن يجلب لنا المكافآت في المستقبل، في مكان وزمان لم يوجدا بعد. ومن ثمَّ بدأنا في كبح دوافعنا الآنية، والسيطرة عليها، وتنظيمها، لكي نتمكّن من التوقّف عن إزعاج الآخرين وإزعاج ذواتنا المستقبلية. وكان ذلك بطريقة ما مكافئًا لتنظيم المجتمع؛ حيث إن اكتشاف

العلاقة السببية بين جهودنا اليوم وجَوْدة الحياة في الغد حفّز العقد الاجتماعي؛ وهو التنظيم الذي يتيح لنا تخزين عمل اليوم على نحو موثوق (في شكل وعود من الآخرين غالبًا).

غالبًا ما يحدث الفهم قبل القدرة على التعبير (تمامًا كما ينمّ سلوك الطفل عن معرفته معنى كلمة «أم» أو «أب» قبل أن يتمكّن من التعبير بالكلمات عن ما يعنيه دور الأم والأب) (**116**). وكان فعل التضحية الطقوسية للربِّ بمثابة تشريعٍ مبكرٍ ومتطوّرٍ لفكرة جدوى التأخير. وثمة رحلة إدراكية طويلة بين تناول الطعام بنهم وبين تعلّم ادّخار بعض اللحم الزائد، المدخَّن بالنار، حتى نهاية اليوم أو ادّخاره لشخص غير موجود. يتطلّب الأمر وقتًا طويلًا لتتعلّم كيف تدّخر لنفسك شيئًا ما لوقت لاحق، أو تتشاركه مع شخص آخر (وهذان الأمران يعنيان الشيء نفسه حين تتشارك مع ذاتك المستقبلية، كما في الحالة الأولى). فمن الأسهل كثيرًا والأرجح كذلك أن تلتهم بأنانية وعلى الفور كل ما تقع عليه عيناك. وثمة رحلات طويلة مماثلة بين كل قفزة في التطوّر في ما يتعلّق بالتأخير ومفهومه: المشاركة قصيرة الأجل، والادخار من أجل المستقبل، وتمثيل ذلك الادخار في صورة سجلات، ولاحقًا في صورة عملة، وأخيرًا، ادخار المال في بنك أو مؤسسة اجتماعية أخرى. وكان

لا بد لبعض المفاهيم أن تكون بمثابة وسائط، وإلا ما كان من الممكن أن تظهر مجموعة ممارساتنا وأفكارنا بشأن التضحية والكد وتمثيلاتها.

كان أسلافنا يمثلون دراما، أو خيالًا؛ فقد جسّدوا القوة التي تحكم القدر على أنها روح يمكن مساومتها، ومقايضتها، كما لو كانت إنسانًا آخر. والمدهش في الأمر أن هذا الأمر قد أفلح. يرجع السبب في ذلك جزئيًا إلى أن المستقبل يتكون إلى حد بعيد من بشر آخرين؛ وغالبًا ما يكون أولئك هم الذين راقبوا، وقيَّموا، أدق تفاصيل سلوكك السابق. وليس هذا التصوّر بعيدًا جدًّا عن تصوّر الربّ، جالسًا في عليائه، يرصد كل أفعالك ويدوّنها في كتاب كبير للرجوع إليها لاحقًا. إليك فكرة رمزية مفيدة: المستقبل هو أبٌ مولعٌ بالنقد وإصدار الأحكام. هذه بداية جيدة. لكنْ ثمة سؤالان أساسيان إضافيان يبرزان، بسبب اكتشاف التضحية والكدّ، وكلاهما له علاقة بالامتداد الأساسي لمنطق العمل؛ وهو التضحية الآن من أجل الكسب لاحقًا.

السؤال الأول: ما الذي يجب التضحية به؟ قد تكون التضحيات الصغيرة كافية لحل المشكلات الصغيرة الفرديّة، ولكن من المحتمل بالمِثْل أن ثمة ضرورة للتضحيات الأكبر والأكثر شمولًا لحلّ مجموعة من المشكلات الكبيرة والمعقّدة. هذا أصعب، ولكنه قد يكون أفضل. فعلى سبيل المثال، التكيّف مع الانضباط اللازم للدراسة في كليّة الطبّ قد يتعارض بشدة مع نمط الحياة الماجن لطالب جامعي جانح. والتخلي عن ذلك يعتبر تضحية. لكن يمكن للطبيب -بإعادة صياغة تعبير جورج دبليو. بوش- أن يوفّر لقمة العيش لأسرته. وتوفير لقمة العيش مشكلة كبيرة يتم التخلص منها لفترة زمنية طويلة جدًّا بعد تخرّج طالب الطبّ. لذا فالتضحيات ضرورية لتحسين المستقبل، وقد تكون التضحيات الأكبر أفضل.

أما السؤال الثاني (وهو مجموعة من الأسئلة المرتبطة، حقًا): لقد أرسينا بالفعل المبدأ الأساسي: التضحية ستحسِّن المستقبل، ولكن بمجرّد إرساء المبدأ، يجب وضع تفاصيله. فلا بد من فهم نطاقه الكامل أو أهميته. ما الذي تنطوي عليه فكرة أن التضحية ستحسِّن المستقبل، في الحالات النهائية الأكثر تطرّفًا؟ أين تقع حدود هذا المبدأ الأساسي؟ يجب أن نسأل في البداية: «ما التضحية الأعظم والأكثر فعالية –والأكثر إشباعًا– بين

جميع التضحيات الممكنة؟»، ثم: «ما مدى الجودة التي يمكن أن يكون عليها أفضل مستقبل ممكن، إذا أمكن تقديم التضحية الأكثر فعالية؟».

تأتي القصّة التوراتية لقابيل وهابيل -ابنا آدم وحواء- بعد قصّة الطرد من الجنّة مباشرة، كما ذكرنا سابقًا. لقد كان قابيل وهابيل حقًا هما أول البشر، لأن الله خلق والديهما بنفسه خلقًا مباشرًا، ولم يولدا بالطريقة المعتادة. كان قابيل وهابيل ابنا التاريخ البشري، وليسا ابني جنّة عدن. كان عليهما أن يكدّا، ويقدّما التضحيات، لإرضاء الرب، وقد فعلا ذلك، بواسطة المذبح والطقوس المناسبة. ولكن الأمور تعقّدت؛ فقد أرضى قربان هابيل الربَّ، ولكن قربان قابيل لم يرضه. وقد تلقّى هابيل الثواب مضاعَفًا مرات عدّة، ولكن قابيل لم ينَل شيئًا. لا نعرف بالتحديد سبب ذلك (على الرغم من أن النص يُلمِّح بقوة إلى أن قلب قابيل لم يكن مخلصًا). ربما كانت جودة القربان الذي قدّمه قابيل سيئة؛ وربما كانت روحه حاقدة؛ أو ربما كان الربّ يمقته لأسباب خاصة لا علم لنا بها. كل هذا واقعي، بما في ذلك غموض تفسير النص؛ فليست كلّ التضحيات متساوية في الجودة. علاوة على ذلك، كثيرًا ما يبدو أن التضحيات عالية الجودة لا تُكافأ دائمًا بمستقبل أفضل؛ وسبب ذلك ليس واضحًا. لماذا لا يرضى الله؟ وما الذي كان لا بد

أن يتغيّر لكي يرضى؟ تلك أسئلة صعبة؛ والجميع يطرحها، طوال الوقت، حتى لو لم ينتبهوا لذلك.

وطرح مثل هذه الأسئلة يعادل التفكير.

لقد أدركنا أنه يمكن تأخير المتعة على نحو مفيد لنا بصعوبة بالغة؛ فهو يتعارض تمامًا مع غرائزنا الحيوانية القديمة والأساسية، والتي تتطلب الإشباع الفوري (لا سيما في ظل ظروف الحرمان، التي هي حتمية وشائعة في الوقت ذاته). ومما يزيد الأمور تعقيدًا أن هذا التأخير لا يكون مفيدًا إلا عندما تستقرّ الحضارة بالقدر الكافي لضمان وجود المكافأة المتأخِّرة في المستقبل. فإذا كان كل ما ستدخره سيتعرّض للتدمير –أو الأسوأ من ذلك، وهو السرقة– فلا جدوى من الادخار إذًا. ولهذا السبب يأكل الذئب 20 رطلًا من اللحم النيء في وجبة واحدة؛ فهو لا يفكِّر قائلًا: «كم أكره الإسراف في الأكل. ينبغي أن أدّخر بعضًا من هذا الطعام للأسبوع المقبل». كيف إذًا أمكن تحقيق هذين الإنجازين المستحيلين والمتزامنين بالضرورة (التأخير واستقرار المجتمع في المستقبل)؟

إليك تقدّم تطوري افتراضي، من الحيوان إلى الإنسان. إنه سيناريو خاطئ في تفاصيله بلا شك، لكنه صحيح بالقدر الكافي لأغراضنا في هذا الموضوع: أولًا، يوجد فائض في الطعام. قد يتوفّر هذا الطعام من خلال جثث حيوانات كبيرة، مثل الماموث أو غيره من الحيوانات العاشبة الضخمة. (لقد أكلنا الكثير من حيوانات الماموث، وربما أكلناها كلها). بعد قتل حيوان كبير، يتبقّى بعضه لوقت لاحق. يحدث هذا عرضيًا في البداية، ولكن في النهاية، نبدأ في تقدير الاستفادة من فكرة « الوقت اللاحق». تتطوّر فكرة شرطيّة للتضحية في الوقت نفسه: «إذا ادّخرت بعض الطعام –حتى لو كنت أريده الآن– فلن أتضوّر جوعًا لاحقًا». وتتطوّر تلك الفكرة الشرطية إلى المستوى التالي: (« إذا ادّخرت بعض الطعام لوقتٍ لاحقٍ، فلن أجوع، وكذلك لن يجوع أولئك الذين أهتم لأمرهم»)؛ ثم إلى المستوى التالي: («لا يمكنني تناول هذا الماموث كلّه بأي حال، ولكن لا يمكنني ادخار الباقي لفترة طويلة جدًّا أيضًا. ربما ينبغي عليّ إطعام بعض الأشخاص الآخرين. لعلّهم يتذكّرون ذلك ويطعموني بعضًا مما لديهم حين يكون لديهم طعام ولا يكون لدي شيء. حينها سأفوز بجزء من الماموث الآن، وجزء منه لاحقًا. إنها صفقة جيدة.

وربما سيثق بي أولئك الذين سأطعمهم بوجه عام. وربما أمكننا حينها تبادل الطعام إلى الأبد»). وبهذه الطريقة، يصبح « الماموث» الحالي « ماموثًا مستقبليًا»، ويصبح «الماموث المستقبلي» «سمعة شخصية»؛ ومن هنا ينشأ العقد الاجتماعي.

المشاركة لا تعني أن تتخلّى عن شيء تقدره من دون أن تحصل على شيء في المقابل؛ بل إن هذا بالضبط هو المعنى الذي يخشاه كل طفل يرفض مشاركة ما يملكه مع الآخرين. المشاركة، على نحو صحيح، تعني بدء عملية مقايضة. والطفل الذي لا يستطيع المشاركة – أي الذي لا يستطيع المقايضة– لا يستطيع تكوين أي علاقات صداقة، لأن امتلاك الأصدقاء هو شكلٌ من أشكال المقايضة. اقترح بنجامين فرانكلين ذات يوم أن يطلب الوافد الجديد على الحي من أحد جيرانه أن يسدي له معروفًا، مشيرًا إلى مبدأ قديم: الشخص الذي أسدى إليك معروفًا من قبل يكون أكثر استعدادًا لإسداء معروف آخر من الشخص الذي أسديته أنت معروفًا(117). ففي رأي فرانكلين، أن تطلب شيئًا ما من أحدهم (شيئًا معقولًا بالطبع) هو فعل يمثل الدعوة الأكثر نفعًا والأكثر سرعة للتفاعل الاجتماعي. فمثل هذا الطلب من جانب الوافد الجديد يتيح لجاره فرصة إظهار نفسه كشخصٍ

طيّبٍ صالحٍ في أول لقاء بينهما، كما أنه يعني أن الأخير يمكنه الآن أن يطلب من الأول معروفًا في المقابل، بسبب الدَّين الذي صار الأول يَدين له به، وهذا يزيد من الألفة والثقة المتبادلة بينهما. وبهذه الطريقة، يمكن للطرفين التغلب على ترددهما الطبيعي وخوفهما المشترك من الغرباء.

أن يكون لديك شيء أفضل من ألّا يكون لديك شيء؛ وأفضل من ذلك أن تشارك ما لديك بسخاء مع الآخرين. والأفضل من ذلك كلّه أن تشتهر على نطاق واسع بالمشاركة السخيّة؛ فهذا شيء يدوم؛ هذا شيء يمكن الاعتماد عليه. وعند هذه المرحلة من التجريد، يمكننا أن نلاحظ كيف أُرسيت أسس مفاهيم الاعتمادية، والصدق، والسخاء. وهكذا يكون أساس الأخلاق المترابطة قد أُرسيَ. والمشارك الصادق المنتِج هو النموذج الأولي للمواطن الصالح، والإنسان الصالح. وبهذه الطريقة يمكننا أن نرى كيف يمكن أن تنشأ أسمى المبادئ الأخلاقية من الفكرة البسيطة القائلة إن «بقايا الطعام فكرة جيدة».

يبدو الأمر وكأن شيئًا مثل التالي قد حدث خلال تطوّر البشرية. ففي البداية، كانت هناك عشرات أو مئات الآلاف من السنين قبل ظهور التاريخ المكتوب والدراما. وخلال ذلك الوقت، بدأت ممارسات التأخير والمشاركة المقترنة معًا في الظهور ببطء وعلى نحو مؤلم. ثم أصبحت ممثلة –بصورة تجريدية مجازية– في هيئة طقوس وقصص عن التضحية، تُروى بطريقة كهذه: «يبدو الأمر كما لو أن هناك كيانًا قويًّا مهيمنًا في السماء، يرى كل شيء، ويحكم عليك. ويبدو أن التضحية بشيء ذي قيمة كبيرة لديك يجعله يرضى عنك؛ ومن مصلحتك أن يرضى عنك، لأن أبواب الجحيم ستنفتح عليك إن لم تضحّي، ولم يرضَ. لذا، عليك ممارسة التضحية والمشاركة، إلى أن تصبح خبيرًا بارعًا فيهما، وسوف تسير أمورك على خير ما يرام»(44). لم يقل أحد أي شيء من هذا، على الأقل ليس على نحو واضح ومباشر؛ إلا أن الأمر كان ضمنيًا في الممارسة ثم في القصص.

جاء الفعل أولًا (كما كان ينبغي، لأن الحيوانات التي كنا عليها ذات يوم من الأيام كانت قادرة على الفعل لكنها لم تكن تستطيع التفكير). تأتي القيمة الضمنيّة غير المدركة أولًا (حيث إن الأفعال التي سبقت التفكير كانت تتضمّن القيمة، ولكنها لم تعبّر عن هذه القيمة بوضوح). لقد رأى

البشر الناجح يحالفه النجاح والفاشل يبوء بالفشل على مر آلاف السنين. ومن ثمَّ فكرنا في الأمر، وتوصّلنا إلى نتيجة مفادها: الناجح من البشر يؤخّر الإشباع. الناجح منا يقايض المستقبل. وهنا تبدأ فكرة رائعة في الظهور، متّخذة شكلًا أكثر وضوحًا في صورة قصص أكثر وضوحًا: ما الفارق بين الشخص الناجح والفاشل؟ الفارق هو التضحية الناجحة. فالأمور تتحسّن مع ممارسة الناجحين تضحياتهم. وتصبح الأسئلة أكثر دقة، وأوسع نطاقًا في الوقت نفسه: ما أكبر تضحية ممكنة؟ مقابل أعظم خير ممكن؟ وتصبح الإجابات أكثر عمقًا وتعقيدًا.

الإله في الثقافة الغربية -على غرار الكثير من الآلهة- يطالب بالتضحية؛ وقد أوضحنا بالفعل سبب ذلك. ولكنه أحيانًا يطالب بما هو أكثر؛ فهو لا يطالب بالتضحية وحسب، بل التضحية تحديدًا بأكثر شيء تحبّه. يتجلّى هذا على نحو صادم للغاية (وواضح بقدر يسبّب الحيرة) في قصة إبراهيم وإسحاق. أراد إبراهيم -خليل الله- أن ينجب ولدًا لفترة طويلة من الزمن؛ وقد وعده الله بذلك، بعد الكثير من التأخير، وفي ظلّ ظروف تبدو مستحيلة بوضوح متمثّلة في كبر السن وعُقم الزوجة. ولكن بعد ذلك بوقت ليس بطويل، حين كان إسحاق الذي وُلِدَ ميلادًا إعجازيًا لا يزال طفلًا، يتحوّل

الرب على نحو بربري وغير معقول ويطالب عبده المخلص إبراهيم بالتضحية بابنه. وتنتهي القصة نهاية سعيدة؛ حيث يرسل الرب ملاكًا ليكف يد إبراهيم المطيعة ويتقبّل كبشًا بدلًا من إسحاق. هذا أمر جيّد، لكنه لا يعالج القضية التي نطرحها هنا: لماذا يصل إلى هذا المدى في طلباته؟ لماذا يفرض الله – أو تفرض الحياة– مثل هذه المطالب؟

سنبدأ تحليلنا بحقيقة بديهية، صادمة، واضحة، لا تنال حقّها من التأكيد، مفادها أن: الأمور أحيانًا لا تسير على ما يرام. يبدو أن لذلك علاقة وثيقة بالطبيعة الرهيبة للعالم؛ بأوبئته، ومجاعاته، واستبداداته، وخياناته. ولكن إليك المشكلة الحقيقية: أحيانًا، حين لا تسير الأمور على ما يرام، لا يكون العالَم هو السبب، وإنما السبب هو ذلك الذي هو أكثر أهمية في الوقت الحالي، على نحو شخصي وذاتي. لماذا؟ لأن العالم يتكشّف أمام ناظريك –بدرجة غير محدّدة– من خلال قالب قيَمك (سنتحدّث عن هذا باستفاضة في القاعدة العاشرة).

فإذا لم يكن العالم الذي تراه هو العالم الذي تريده، فقد حان الوقت لإعادة النظر في قيَمك. حان الوقت لتخليص نفسك من افتراضاتك المسبقة الحالية. حان الوقت للتخلّي عما لديك والمضيّ قدمًا. بل ربما حان الوقت

للتضحية بأعز ما لديك، لكي يمكنك أن تصبح الشخص الذي يمكن أن تكونه، بدلًا من أن تبقى على ما أنت عليه.

ثمة قصّة قديمة وربما كانت مُختلقة حول كيفية اصطياد قرد توضح هذه المجموعة من الأفكار على نحو جيد للغاية. أولًا، عليك أن تجد جرّة كبيرة ذات فوّهة ضيقة، بحيث يبلغ قطر فوهتها ما يكفي بالكاد ليضع القرد يده بداخلها. وبعد ذلك، عليك أن تملأ جزءًا من الجرّة بالصخور، بحيث تصبح ثقيلة إلى حد أن القرد لا يستطيع حملها. ثم يجب عليك أن تبعثر بعض الهدايا الجذّابة للقرود بالقرب من الجرّة، لكي تجذب أحد القرود، وتضع بعضها داخل الجرّة أيضًا. سيأتي القرد ويدخل يده في الفتحة الضيقة ويمسك بمافي داخل الجرّة. لكنه الآن لن يستطيع إخراج قبضته، المليئة بالهدايا، من فتحة الجرة الضيقة للغاية؛ لن يستطيع إخراجها من بدون فتح يده؛ ومن دون التخلّي عما لديه بالفعل. وهذا بالضبط ما لن يفعله القرد. ويستطيع صائد القرود حينها أن يذهب إلى الجرّة ويمسك القرد؛ فلن يضحّي القرد بجزء مما لديه كي يحافظ على ذاته كلّها.

إن التخلي عن شيء ثمين يضمن الرخاء في المستقبل. والتضحية بشيء ثمين ترضي الله. فما هو الشيء الأكثر قيمة والأفضل للتضحية به؟ أو، ما الشيء الذي يرمز لذلك على الأقل؟ قطعة مختارة من اللحم. أفضل حيوان في القطيع. عنصرٌ غالٍ من ممتلكاتك. وما الذي يفوق كل ذلك؟ شيء شخصي للغاية ومن المؤلم التخلّي عنه. ربما كان هذا مجسَّدًا رمزيًا في إصرار الرب على الختان كجزء من قربان إبراهيم؛ حيث يُقدَّم الجزء رمزيًا لافتداء الكل. وما الذي يتجاوز ذلك؟ ما الذي يرتبط على نحو أكبر بالشخص كله، وليس بجزء منه؟ ما الذي يمثّل التضحية القصوى لنيل الجائزة الكبرى؟

إنه سباق متقارب بين الطفل والنفس. لقد تجسّدت تضحية الأم –التي تقدّم طفلها قربانًا للعالم– بقوّة وبعمق من خلال تمثال مايكل أنجلو الرائع «بييتا»، الذي تظهر صورة له في بداية هذا الفصل. نحت مايكل أنجلو مريم وهي تتأمّل ابنها المصلوب والمقتول. هذا خطأها؛ فقد جاء إلى هذا العالم من خلالها وعاش دراما الكينونة العظيمة. هل من الصواب جلب طفل إلى هذا العالم الرهيب؟ كل امرأة تطرح على نفسها هذا السؤال. تجيب بعضهن بالنفي، ولديهن أسبابهن الوجيهة. أما مريم فتجيب بالإيجاب، طواعية، وهي

تعرف تمام المعرفة ما سيحدث؛ مثلما تعرف كل الأمهات إذا سمحن لأنفسهن بإدراك ذلك. وإنه لعمل شجاع للغاية، عندما يُفعَل طواعية.

وبدوره، يقدم ابن مريم – المسيح– نفسه للربّ وللعالم؛ للخيانة، والتعذيب، والموت، وصولًا إلى نقطة اليأس على الصليب، حيث يصيح بتلك الكلمات الرهيبة: «إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» (متّى 46:27). تلك هي القصة النموذجية للرّجل الذي يضحّي بذاته كلّها من أجل الأفضل – الذي يقدِّم حياته من أجل الارتقاء بالوجود– الذي يسمح لإرادة الرب بأن تتجلّى واضحة تمامًا في حدود حياة فانية واحدة. هذا هو نموذج الرجل الشريف الجليل. لكن في حالة المسيح –بينما يضحّي بنفسه– يضحّي الرب أيضًا بابنه في الوقت نفسه. ولهذا السبب فإن الدراما المسيحية للتضحية بالابن والنفس نموذجية. إنها قصة تصل إلى الحدود القصوى، حيث لا يمكن تخيّل شيء أكثر تطرّفًا –ولا شيء أعظم– من ذلك. وهذا هو تعريف كلمة «نموذجي»؛ هذا هو جوهر المكوّن «الديني».

إن الألم والمعاناة هما جوهر هذا العالم؛ لا شك في ذلك. ويمكن للتضحية أن توقف الألم والمعاناة مؤقتًا، بدرجة ما، صغُرَت أو كبُرَت؛ ويمكن للتضحيات الأكبر أن تفعل هذا بفعالية أكبر. لا شك في هذا أيضًا. الجميع يعرف هذا في صميم روحه. وهكذا فإن الشخص الذي يرغب في تخفيف المعاناة –الذي يرغب في تصحيح عيوب الكينونة؛ الذي يرغب في أفضل مستقبل ممكن؛ والذي يرغب في خلق جنة على الأرض– سيقدّم أعظم التضحيات، من ذاته وابنه، ومن كل ما يحبه، ليعيش حياة تهدف إلى الخير. سيتخلى عن النفعية؛ وسيسلك سبيل المعنى الأسمى؛ وبهذه الطريق سيجلب الخلاص لهذا العالم اليائس.

ولكن هل يمكن تحقيق شيء كهذا؟ أليس هذا ببساطة من باب مطالبة الفرد بما لا يطيق؟ ربما يحتج أحدهم بقوله إن هذا شيء جيّد وطيب بالنسبة إلى المسيح، ولكنه كان في النهاية ابن الله. ولكن لدينا أمثلة أخرى، وبعضها أقل أسطورية ونموذجية. تأمّل، على سبيل المثال، قصة الفيلسوف اليوناني القديم سقراط. فبعدما عاش حياته كلّها باحثًا عن الحقيقة ومعلِّمًا لبني وطنه، واجه سقراط محاكمة على جرائم ضد مدينة أثينا، وطنه ومسقط رأسه. وقدّم له متهموه الكثير من الفرص لمغادرة المدينة وتجنّب

المتاعب(118). لكن الحكيم العظيم كان قد فكّر بالفعل في هذا المسار ورفضه. رآه رفيقه هرموجانيس خلال هذا الوقت وهو يناقش « كافة الموضوعات»(119) باستثناء موضوع محاكمته، وسأله لماذا يبدو غير مكترث على الإطلاق. أجابه سقراط في البداية بأنه كان يستعدّ طوال حياته للدفاع عن نفسه(120)، ولكنه قال بعد ذلك شيئًا أكثر غموضًا وأهمية: فعندما حاول تحديدًا التفكير في استراتيجيات من شأنها أن تؤدّي إلى تبرئته «بوسائل مشروعة أو غير مشروعة»(121) –أو حتى عند التفكير فقط في أفعاله المحتملة في المحاكمة(122)– وجد العلامة الإلهية تعيقه عن ذلك، وتلك هي: روحه الداخلية، أو صوته الداخلي، أو قرينه. بل إن سقراط ناقش هذا الصوت في المحاكمة نفسها(123). وقد قال إن أحد العوامل التي تميّزه عن غيره من الرجال(124) هو استعداده المطلق للاستماع إلى تحذيرات هذا الصوت؛ أن يكفّ عن الكلام ويتوقّف عن العمل عندما يعترض هذا الصوت الداخلي. وقد اعتبرت الآلهة نفسها أن سقراط أكثر حكمة من غيره من الرجال، وكان هذا أحد الأسباب المهمّة لاعتباره أكثر حكمة، وذلك وفقًا لكاهنة معبد دلفي نفسها، والتي تُعتَبَر قاضيًا موثوقًا به في مثل هذه الأمور(125).

ولما كان صوته الداخلي الموثوق به قد أبدى اعتراضه على الفرار (أو حتى الدفاع عن نفسه)، غيّر سقراط رأيه في أهمّية محاكمته. بل بدأ يفكّر في أن المحاكمة ربما كانت نعمة وليست نقمة. أخبر هرموجانيس أنه أدرك أن الروح التي كان ينصت إليها دائمًا ربما كانت تعرض عليه مخرجًا من الحياة، بطريقة «أسهل وأقل إزعاجًا لأصدقائه»(126)، بـ«جسد سليم وروح قادرة على إظهار العطف»(127) ومن دون «آلام المرض» ومضايقات الشيخوخة(128). وقد أتاح له قراره بقبول مصيره تنحية الخوف المُهلك في مواجهة الموت نفسه، قبل مجريات المحاكمة وأثناءها، وبعد صدور الحكم(129)، وحتى بعد ذلك أثناء إعدامه(130). رأى سقراط أن حياته كانت ثرية وغنية بحيث يمكنه أن يتخلّى عنها بطيب نفس. لقد أتيحت له فرصة ترتيب أموره؛ ورأى أنه يستطيع الهروب من التدهور البطيء الرهيب المصاحب للشيخوخة في السنوات المتقدّمة من العمر. لقد أصبح يدرك أن كل ما يحدث له هو هديّة من الآلهة؛ لذا لم يكن مطلوبًا منه الدفاع عن نفسه أمام متهميه؛ على الأقل ليس بهدف إعلان براءته والهرب من مصيره. وبدلًا من ذلك، قلب الطاولة، مخاطبًا قضاته بطريقة تجعل القارئ يفهم بالتحديد سبب رغبة مجلس المدينة في موت ذلك الرجل. ثم شرب السم بشجاعة الرجال.

رفض سقراط النفعية، وضرورة التلاعب التي تصاحبها؛ وفي ظل أقسى الظروف، اختار بدلًا من ذلك أن يحافظ على سعيه وراء ما هو حقيقي وذي معنى. وبعد ألفين وخمسمائة سنة، نتذكّر قراره هذا ونستمدّ منه السلوى. ماذا يمكننا أن نتعلّم من هذا؟ إذا توقّفت عن قول الأكاذيب وعشت وفقًا لما يمليه ضميرك، تستطيع الحفاظ على نبلك، حتى في مواجهة أقسى التهديدات؛ وإذا التزمت بأعلى المُثُل بصدق وشجاعة، فستجد أمانًا وقوة أكبر مما كان سيوفّره لك التركيز قصير النظر على سلامتك؛ وإذا عشت حياتك على نحو تام وكما ينبغي، يمكنك اكتشاف معنى عميقًا جدًا للحياة من شأنه أن يحميك حتى من خوفك من الموت.

هل يمكن أن يكون كلّ ذلك صحيحًا بأي حال من الأحوال؟

الموت والكدح والشّر

تتسبب مأساة الكينونة الواعية لذاتها في المعاناة، وهي معاناة حتمية. وهذه المعاناة بدورها تحفِّز الرغبة في الإشباع الفوري الأناني؛ أي الرغبة في النفعية. غير أن التضحية -والكد- تفيد في تجنّب المعاناة على نحو أكثر فعالية بكثير من المتعة المتهوّرة قصيرة الأجل. ومع ذلك، فإن المأساة نفسها (التي يُنظر إليها على أنها القسوة التعسفية للمجتمع والطبيعة التي تقابل ضعف الفرد) ليست هي مصدر المعاناة الوحيد؛ بل ربما ليست المصدر الرئيسي لها. فلا بد أيضًا من التفكير في مشكلة الشرّ. إن العالم يقف ضدنا، هذا يقين لا شك فيه، ولكن عدم إنسانية الإنسان تجاه الإنسان هو شيء أسوأ بكثير. وهكذا فإن مشكلة التضحية تتفاقم في تعقيدها؛ فليس الحرمان والعجز المهلِك وحسب هما ما يجب معالجتهما بواسطة الكد في العمل؛ أو الرغبة في العطاء والتخلّي عن الممتلكات؛ بل هناك أيضًا مشكلة الشرّ.

تأمّل مرة أخرى قصّة آدم وحواء. تصبح الحياة صعبة للغاية على أطفالهما (نحن البشر) بعد هبوط والدينا الأصليين وانتباههما من غفلتهما. أولًا، هناك ذلك المصير الرهيب الذي ينتظرنا في عالم ما بعد الفردوس؛ في عالم التاريخ. وليس أقل ذلك المصير ما أطلق عليه جوته «كدحنا الإبداعي الذي

لا ينتهي»(131). وكما رأينا، فإن البشر يكدّون؛ ونحن نكدّ ونكدح لأننا استيقظنا على حقيقة ضعفنا، وقلّة حيلتنا أمام المرض والموت، ونودّ حماية أنفسنا لأطول فترة ممكنة. وبمجرد أن نرى المستقبل، فلا بد لنا أن نستعدّ له، وإلا سنعيش في حالة من الإنكار والرعب. لذا فإننا نضحّي بملذات اليوم من أجل غدٍ أفضل. غير أن حقيقة الفناء وضرورة الكدح ليست هي الاكتشاف الوحيد لآدم وحواء عندما أكلا من الثمرة المحرّمة، واستيقظا، وفتحا أعينهما؛ بل لقد أُنعم عليهما أيضًا بمعرفة الخير والشر (أم تُراها لعنة وليست نعمة؟).

استغرق الأمر مني عقدين من الزمان لكي أفهم ما يعنيه ذلك (لكي أفهم ولو جزءًا يسيرًا مما يعنيه ذلك). والمعنى هو أنك بمجرد أن تدرك بوعيٍ أنك ضعيف ومعرّض للخطر، فإنك تفهم طبيعة الضعف البشري عمومًا؛ تفهم معنى الشعور بالخوف، والغضب، والاستياء، والمرارة؛ وتفهم ماذا يعني الألم. وبمجرد أن تفهم تلك المشاعر حقًّا في نفسك، وكيف تنتج، فإنك تدرك كيفية خلقها لدى الآخرين. وبهذه الطريقة، أصبحنا نحن الكائنات الواعية لذاتها قادرين على تعذيب الآخرين طواعية وبإرادة وإتقان (وتعذيب

أنفسنا بالطبع؛ لكننا معنيون الآن بالآخرين). ونحن نرى عواقب هذه المعرفة الجديدة تتجلّى عندما نلتقي بابنّيْ آدم وحواء، قابيل وهابيل.

منذ وقت ظهورها، تعلّمت البشرية أن تقدّم التضحيات للرب؛ حيث تُنفَّذ طقوس جماعية على مذابح من الحجارة مصمَّمة لهذا الغرض، مثل ذبح شيء ذي قيمة –كحيوان معين أو جزء منه– وتحويله من خلال النار إلى الدخان (أي الروح) الذي يصعد إلى السماء. وبهذه الطريقة، تتجسّد فكرة التأخير في إطار درامي لكي يتحسّن المستقبل. تقبّل الله قربان هابيل، فازدهرت أحواله؛ إلا أن قربان قابيل رُفِضَ، فشعر بالغيرة والمرارة؛ ولا عجب في ذلك. فإذا فشل شخص ما ورُفِضَ لأنه رفَض تقديم أيّ تضحيات على الإطلاق، فهذا أمر يمكن على الأقل تفهّمه. قد يشعر المرء بالاستياء والرغبة في الانتقام حينها، لكنه يعلم في قرارة نفسه أنه هو نفسه الملوم؛ وتلك المعرفة عمومًا تضع حدًّا لغضبه. ولكن الأمر يصبح أسوأ بكثير إذا كان الشخص قد تخلّى بالفعل عن ملذات الحاضر –لو أنه اجتهد وكدح ومع ذلك لم تكلّل جهوده بالنجاح– وقوبل بالرفض برغم جهوده. حينها يكون قد خسر الحاضر والمستقبل كلَيْهما معًا. ومن ثمَّ فقد كان كدحه –

تضحيته– بلا غاية ولا معنى. وفي مثل هذه الظروف، تُظلم الدنيا أمام عينيه وتتمرّد روحُه.

غضب قابيل لأنه رُفِض، فواجه ربَّه، وكال له الاتهامات، ولعن خلقه. وقد تبيَّن أن هذا كان قرارًا سيئًا للغاية. وردّ الرب، بوضوحٍ لا لبس فيه، بأن الخطأ هو خطأ قابيل؛ بل وأسوأ من ذلك، أن قابيل انغمس في الخطيئة عن علم، وإرادة، ورغبة(132)، ونال عاقبة عمله. ولم يكن هذا بأي حالٍ من الأحوال ما أراد قابيل سماعه؛ فهذا ليس اعتذارًا من الرب أبدًا، بل هو إهانة تزيد الجرح سوءًا. وهنا يخطط قابيل – الشاعر بالمرارة حتى النخاع– للانتقام، ويتحدّى الخالق بجرأة؛ بكل جرأة. وهو يعلم جيدًا كيف يؤذي؛ فهو كائن واعٍ لذاته في نهاية المطاف؛ وقد أصبح أكثر وعيًا لذاته بسبب معاناته وشعوره بالخزي. لذا قتل هابيل بدمٍ باردٍ. قتل أخاه؛ مثله الأعلى (لأن هابيل كان تجسيدًا لكل ما أراد أن يكونه قابيل). ارتكب قابيل أفظع الجرائم نكاية في نفسه، وفي البشرية، ونكاية في الربّ ذاته، في آنٍ واحدٍ، وقد فعل ذلك لنشر الخراب وتحقيق انتقامه؛ فعل ذلك لتسجيل معارضته الجوهرية للوجود؛ للاحتجاج على نزوات وتقلّبات الكينونة التي لا تُطاق. وكان أبناء قابيل –ذريته؛ من جسده، ومن قراره، على حد سواء– أسوأ منه.

ففي ذروة غضبه الوجودي، قتل قابيل مرة واحدة، أما لامَك، حفيده، فقد ذهب لما هو أبعد من ذلك بكثير. يقول لامَك: «فَإِنِّي قَتَلْتُ رَجُلًا لِجُرْحِي، وَفَتًى لِشَدْخِي. إِنَّهُ يُنْتَقَمُ لِقَايِينَ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ، وَأَمَّا لِلامَكَ فَسَبْعَةً وَسَبْعِينَ» (سفر التكوين 4: 23–24). أما تُوبَالَ قَايِينَ، «الضَّارِبَ كُلَّ آلَةٍ مِنْ نُحَاسٍ وَحَدِيدٍ» (سفر التكوين 4: 22)، فإنه يأتي بعد سبعة أجيال من قابيل، وهو أول صانع لأسلحة الحرب. وبعد ذلك، في قصص سفر التكوين، يأتي الطوفان، وهذا الترتيب ليس عرَضيًا بأي حال من الأحوال.

يدخل الشر إلى العالم مع الوعي للذات. فالكدح الذي لُعِنَ به آدم سيّئ بما فيه الكفاية، ومعاناة الولادة التي أُثقلت بها حواء وما يترتّب عليها من اتكال على زوجها ليست مسائل تافهة أيضًا؛ فهي تدل على المآسي الضمنية والمؤلمة في الغالب المتمثّلة في العجز، والحرمان، والعوَز القاسي، وقلة الحيلة أمام المرض والموت، وهي المآسي التي تميّز الوجود وتعذبه في الوقت نفسه. والواقعية الحقيقية لهذه المآسي كافية أحيانًا لتحويل شخص شجاع لينقلب عدوًا للحياة. إلا أنني أعرف من واقع خبرتي أن البشر أقوياء بما يكفي لتحمل المآسي الضمنية للكينونة من دون تعثر؛ من دون انكسار، أو تحوّل إلى الشر والجريمة، وهو الأسوأ. لقد رأيت دليلًا على ذلك مرارًا

وتكرارًا في حياتي الخاصّة، وفي عملي كأستاذ جامعي، وفي مهنتي كطبيب ممارس. إننا أقوياء بما يكفي لتحمّل الزلازل، والفيضانات، والفقر، والسرطان. بيد أن الشرّ البشري يضيف بُعدًا جديدًا كلّيًّا للبؤس في العالم. ولهذا السبب يظهر الوعي للذات، والإدراك المصاحب له للفناء ومعرفة الخير والشر، في الإصحاحات الأولى من سِفر التكوين (وفي التراث الكبير المحيط بهذه القصص) باعتبارها طوفانًا كونيًّا هائلًا.

إن الحقد البشري الواعي يمكن أن يدمّر الروح التي لا تستطيع حتى المآسي أن تهزّها. أذكر أنني اكتشفت مع إحدى مريضاتي أنها ظلت تعاني لسنوات من حالة خطيرة من اضطراب الكرب التالي للصدمة(45) -post traumatic stress disorder- رعشة جسدية يومية وفزع، وأرق ليلي مزمن- بمجرّد تذكّر تعبير وجه صديقها الغاضب المخمور. كان «وجهه الساقط» (سِفر التكوين 4: 5) يدل على رغبته الواضحة والواعية في إيذائها. وكانت هي أكثر سذاجة مما ينبغي، وقد هيّأها ذلك مسبقًا للإصابة بالصدمة، ولكن هذه ليست غايتنا هنا؛ وإنما المقصود هو أن الشر الطوعي الذي ننزله ببعضنا بعضًا يمكن أن يكون مدمِّرًا على نحو عميق ودائم، حتى للأشخاص الأقوياء. وما الذي يحفِّز هذا الشرّ بالضبط؟

إنه لا يظهر فقط في أعقاب مآسي الحياة وقسوتها، ولا يظهر حتى بسبب الفشل نفسه، أو بسبب الإحباط والمرارة التي غالبًا ما يولّدها الفشل على نحو مفهوم؛ وإنما يظهر بسبب مآسي الحياة القاسية التي تتضخّم نتيجة للتضحيات التي يتم رفضها دائمًا (وإن كان تصورنا لتلك التضحيات سيئًا؛ وإن كانت مقدّمة بغير رضا). هذا من شأنه أن يغيّر ويحوّل الناس إلى الأشكال الوحشيّة بحقٍّ، والتي تبدأ حينها في فعل الشرِّ بوعيٍ؛ والتي تبدأ في التسبّب لذاتها وللآخرين في الألم والمعاناة (والتي تفعل ذلك فقط من أجل الألم والمعاناة). وبهذه الطريقة، تنشأ حلقة مفرغة خبيثة بحق: تضحية على مضض، تقدّم بغير رضا؛ ثم رفض لتلك التضحية من قبل الله أو الواقع (اختر ما شئت)؛ ثم استياء غاضب ناتج عن ذلك الرفض؛ ثم شعور بالمرارة والرغبة في الانتقام؛ ثم تضحية تُقدّم بعدم رضا أكبر، أو يُرفض تقديمها من الأساس. ثم يصبح الجحيم نفسه هو نهاية هذا الانحدار للهاوية.

إن الحياة « بغيضة، ووحشية، وقصيرة» حقًّا، كما وصفها الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز على نحو لا يُنسى. غير أن قدرة الإنسان على الشرِّ

تجعل الحياة أسوأ. ويعني هذا أن المشكلة الرئيسية للحياة –التعامل مع حقائقها الوحشية الغاشمة– ليست هي فقط ما ينبغي التضحية به وكيفية التضحية به من أجل تقليل المعاناة، ولكن ما ينبغي التضحية به وكيفية التضحية به من أجل تقليل المعاناة والشرِّ أيضًا؛ الذي هو المصدر الواعي، والطّوعي، والانتقامي لأسوأ أنواع المعاناة. تمثّل قصة قابيل وهابيل أحد مظاهر القصّة النموذجية للإخوة الأعداء، البطل والخصم: عنصرا النفس البشرية الفردية؛ اللذان يهدف أحدهما لأعلى، نحو الخير، والآخر يستهدف الجحيم ذاته. إن هابيل بطلٌ حقيقيٌّ؛ لكنه بطل هزمه قابيل في النهاية. استطاع هابيل إرضاء ربه –وهو إنجاز عظيم وبعيد الاحتمال– لكنه لم يستطع التغلب على الشرّ البشري. ولهذا السبب، فإن هابيل نموذج غير مكتمل. ربما كان ساذجًا، على الرغم من أن الأخ الحاقد يمكن أن يكون غادرًا وماكرًا إلى حدٍّ لا يمكن تصوره، مثل الحيّة التي نراها في سِفر التكوين 1:3. ولكن الأعذار – وحتى الأسباب؛ بل حتى الأسباب التي يمكن تفهّمها– لا تهم في التحليل النهائي. فقد بقيت مشكلة الشر بلا حل حتى بعد تضحيات هابيل التي تقبّلها الله. وقد استغرق الأمر آلاف السنين بعد ذلك كي يتوصّل البشر إلى ما يشبه الحل. فالحكاية ذاتها ظهرت مرة أخرى، في أبلغ صورها، في قصّة المسيح ومحاولة إغواء الشيطان له. ولكن في هذه المرة، يُعبَّر عنها على نحو أكثر شمولًا؛ ويفوز البطل في النهاية.

بحسب القصة، «أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ» (متى 4:1)، قبل صلبه. هذه هي قصة قابيل، ولكن مع إعادة صياغتها على نحو مجرّد. فلم يكن قابيل مسرورًا ولا سعيدًا، كما رأينا؛ وكان يكد في العمل –أو هكذا كان يظن– ولكن الله لم يرضَ. وفي الوقت نفسه، كانت حياة هابيل متيسّرة بكل المقاييس؛ فقد كانت محاصيله يانعة، وكانت النساء تحببنه؛ وأهم من ذلك كلِّه أنه كان رجلًا صالحًا حقًّا. الجميع كان يعرف ذلك. لقد كان جديرًا بحظِّه الطيِّب. وكل هذه كانت أسبابًا أدّت إلى المزيد من الحسد والكراهية له. وعلى النقيض من ذلك، لم تكن الأمور تسير على نحو جيّد مع قابيل، فكان الشؤم يلازمه، مثلما يلازم النسر بيضة يرقد عليها. ووسط بؤسه، يناضل من أجل خلق شيء جهنَّمي، وبقيامه بذلك، دخل البرّية الصحراوية الكامنة في عقله؛ فأصبح مهووسًا بسوء حظه وشؤم طالعه، وبغدر الربِّ به. راح يذكِّي نيران غضبه، وانغمس في أفكاره الانتقامية المُحكَمة. وأثناء ذلك، كان غروره ينمو ليتّخذ حجمًا شيطانيًا، وفكّر قائلًا لنفسه: «لقد أسيئت معاملتي وتعرّضت للظلم. هذا كوكب أحمق لعين، ولا آبه لو ذهب إلى الجحيم». وبهذا، يلتقي قابيل بالشيطان في البرّية، وبكل

أغراضه ومقاصده، يقع فريسة لإغواءاته. ويفعل قابيل كل ما بوسعه ليجعل الأمور سيئة إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ، مدفوعًا بـ(ما وصفه جون ميلتون بكلماته الخالدة بقوله):

«الحقد الراسخ الذي يرمي إلى إفساد سلالة الإنسان كلها

بإفساد جذر الشجرة وإقحام الجحيم في الأرض

حتى تتشابكا وتمتزجا– وكل ذلك لمناهضة

الخالق العظيم!...(46)(133).

لجأ قابيل إلى الشرِّ لينال ما منعه إياه الخير، وقد فعل ذلك مريدًا مختارًا، وبوعيٍ ذاتيٍّ وعمدًا ومع سبق الإصرار.

أما المسيح فقد سلك طريقًا مختلفة. كانت إقامته في الصحراء بمثابة الليلة المظلمة للروح؛ فهي تجربة عميقة وشاملة إنسانيًّا. إنها الرحلة إلى ذلك المكان الذي يتوجّه إليه كل واحد منا عندما تنهار الأمور من حوله، ويهجره الأصدقاء والأسرة، ويستبد به اليأس والقنوط، وتغويه العدمية السوداء. ودعونا نشير، في شهادة على صحّة الحكاية، إلى أن أربعين يومًا وليلة من الجوع في البرية قد تدفعك إلى هذا المكان بالتحديد. فبهذه الطريقة بالضبط يتحطّم العالَمان الموضوعي والذاتي معًا على نحوٍ متزامنٍ. وتمثّل فترة الأربعين يومًا فترة رمزية تحاكي الأربعين عامًا التي قضاها بنو إسرائيل هائمين في الصحراء بعد فرارهم من طغيان فرعون مصر. وإن أربعين يومًا لفترة طويلة في العالم السفلي للافتراضات المظلمة، والحيرة، والخوف؛ طويلة بما يكفي للوصول إلى مركز ذلك العالم السفلي، وهو الجحيم ذاته. ويمكن لأيِّ شخص القيام برحلة إلى هناك لمشاهدة معالم ذلك المكان؛ أيّ شخص يرغب في التعامل بجدّية كافية مع شرِّ النفس وشرِّ الإنسان. ويمكن لقدرٍ بسيطٍ من مطالعة التاريخ أن تفيد في هذا الصدد. ورحلة عبر الفظائع

الاستبدادية للقرن العشرين –بما تتميّز به من معسكرات اعتقال، وأعمال سخرة، وأمراض أيديولوجية قاتلة– تُعد بداية جيّدة؛ هذا مع الوضع في الاعتبار حقيقة أن أسوأ حرّاس تلك المعتقلات كانوا من البشر؛ بشر مثلنا تمامًا. وهذا كلّه من أجل جعل قصّة المسيح في البرية تتّخذ طابعًا واقعيًّا من جديد؛ من أجل تحديثها لكي يستوعبها العقل البشري الحديث.

كتب تيودور أدورنو(47) **Theodor Adorno**، الباحث في شؤون الاستبداد، يقول: «بعد أوشفيتز، يجب ألّا يُكتب الشعر». لقد كان مخطئًا؛ فالشعر يجب أن يُكتب عن أوشفيتز. في أعقاب العقود العشرة الأخيرة من الألفية السابقة، صارت قدرة البشر الرهيبة على التدمير مشكلة بادية الخطورة تتضاءل إلى جوارها مشكلة المعاناة غير المفتَداة. ولن تُحَلَّ أيٌّ من هاتين المشكلتين من دون حلّ الأخرى. وهنا تصبح فكرة حمل المسيح لخطايا البشر كما لو كانت خطاياه هو نفسه فكرة أساسية، فاتحةً الباب أمام الفهم العميق لمواجهة الشيطان نفسه في الصحراء. يقول الكاتب المسرحي الروماني تيرينس: «كل ما هو إنساني مألوف بالنسبة إليَّ».

ويضيف رائد التحليل النفسي الفذ، المخيف دائمًا، كارل جوستاف يونج: «لا يمكن أن تنمو شجرة وتصل إلى عنان السماء ما لم تكن جذورها ضاربة في أعماق الجحيم»(134). ويجب على كل من يقرأ هذه العبارة أن يقف أمامها قليلًا. فالرأي المدروس بعمق لهذا الطبيب النفسي يقول إنه ليس ثمة احتمال لحركة نحو الأعلى من دون حركة مقابلة نحو الأسفل. ولهذا السبب يُعد التنوير نادرًا للغاية. فمن ذا لديه الاستعداد لذلك؟ هل ترغب حقًّا في مقابلة الشخص المسؤول عن أكثر الأفكار خبثًا وشرًا في القاع السحيق؟ ما الذي كتبه إريك هاريس، القاتل الجماعي لطلاب مدرسة كولومباين الثانوية، على نحو غامض تمامًا في اليوم السابق مباشرة لمذبحة زملائه في الصف؟ لقد كتب يقول: «من المثير للاهتمام أن أكون في صورتي الإنسانية، وأعرف أنني سأموت.

ثمة قدر من التفاهة يحيط بكل شيء»(135). مَن ذا يجرؤ على تفسير مثل هذه الرسالة؟ أو الأسوأ–، من ذا يجرؤ على التهوين من بشاعتها؟

يواجه المسيح الشيطان في الصحراء (انظر لوقا 4: 1–13، ومتى 4: 1–11). تنطوي هذه القصّة على معنى نفسي واضح –معنًى مجازيٍّ– إضافة إلى أي معانٍ مادية أو ميتافيزيقية أخرى قد تتضمّنها. إنها تعني أن

المسيح سيظل إلى الأبد هو من قرّر تحمّل المسؤولية الشخصية عن العمق الكامل للفساد البشري. تعني أن المسيح سيظلّ إلى الأبد هو المستعد لمواجهة مخاطر الإغواءات التي تفرضها العناصر الأكثر خبثًا في الطبيعة البشرية، والمستعد لتأملها بعمق. تعني أن المسيح سيظل دائمًا هو المستعدّ لمواجهة الشرّ –بوعيٍ، واختيارٍ، وبشكلٍ كاملٍ– في شكله الذي يتواجد بداخله وفي العالم الخارجي في الوقت ذاته. هذا ليس شيئًا تجريديًّا وحسب (على الرغم من أنه تجريدي). إنه ليس مجرّد مسألة فكرية.

إن الجنود الذين يصابون باضطراب ما بعد الصدمة كثيرًا ما يصابون به بسبب شيء فعلوه، وليس بسبب شيء رأوه(136). فهناك العديد من الشياطين –إذا جاز التعبير– في ساحة المعركة، والمشاركة في الأعمال الحربية شيء يمكن أن يفتح بابًا إلى الجحيم. وبين الحين والآخر، يخرج شيء ما من هذه البوابة ويتملّك فتًى مزارعًا ساذجًا من ولاية أيوا، ويحوّله إلى شيء وحشي. يرتكب الفتى جرائم مروِّعة؛ فيغتصب ويقتل النساء، ويذبح أطفال ماي لاي، ويشاهد نفسه يفعل ذلك، ويستمتع جزء مظلم من ذاته بما يفعله؛ وهذا تحديدًا هو الجزء الذي لا يُنسى أكثر من غيره وسط

كل هذه الجرائم. ولاحقًا، لن يعرف الفتى كيف يتصالح مع حقيقة ذاته والعالم الذي تكشّف له حينها. ولا عجب في ذلك.

في الأساطير المصرية القديمة، العظيمة والجوهرية، يتعرّض الإله حورس – الذي يُصوَّر في الغالب على أنه بشارة بقدوم المسيح، من الناحيتين التاريخية والمفاهيمية(137)– للشيء نفسه، عندما يواجه عمه الشرير سِت(48)، المغتصب لعرش أوزيريس، الذي هو والد حورس. يمتلك حورس –الإله المصري الذي يأخذ صورة الصقر، والذي يرى كل شيء، والذي يمثّل عين مصر العليا الراعية لها للأبد والشجاعة لمواجهة طبيعة سِت الحقيقية، ويلاقيه في قتال مباشر. لكن في صراعه مع عمّه المخيف الرهيب، ينهار وعيه، ويفقد إحدى عينيه، على الرغم من مكانته الإلهية وقدرته التي لا مثيل لها على الرؤية. فما الذي كان سيفقده رجل عادي من عوام الناس يحاول فعل الشيء نفسه؟ ولكنه ربما اكتسب رؤية داخلية وإدراكًا يتناسب مع ما خسره من رؤية للعالم الخارجي.

يجسِّد الشيطان رفض التضحية؛ فهو تجسيد للغطرسة، والحقد، والخداع، والمكر، والقسوة الواعية. إنه الكراهية المحضة للبشر، ولله، وللكينونة؛ وهو لن يتواضع، حتى حين يعلم تمامًا أنه ينبغي له ذلك. وعلاوة على ذلك، فهو يعرف بالضبط ما يفعله، وهو مهووس بالرغبة في التدمير، ويفعل ذلك عن عمد، ونيّة، وقصد، وبشكلٍ كاملٍ. لذا كان لا بد أن يكون هو –النموذج الأصلي للشر– الذي يواجه ويغوي المسيح، الذي هو النموذج الأصلي للخير. كان لا بد أن يكون هو من يقدِّم لمُخلِّص البشرية –في أحلك الظروف وأشدّها صعوبة– ما يتوق إليه الناس كافة بكل حماسة.

في البداية، يُغوي الشيطان المسيح الجائع بسد جوعه عن طريق تحويل صخور الصحراء إلى خبز. ثم يقترح عليه أن يُلقي بنفسه من فوق جرف، ويطلب من الله والملائكة أن يمنعوا سقوطه. ويرد المسيح على الاختبار الأول بقوله: «لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ». فما الذي تعنيه هذه الإجابة؟ إنها تعني أنه حتى في ظل ظروف الحرمان الشديد، ثمة أشياء أكثر أهمية من الطعام. وبعبارة أخرى، فإن الخبز لن ينفع رجلًا خان روحه، ولو كان يتضوّر جوعًا حاليًا(49). من الواضح أن المسيح كان يستطيع استخدام قدرته غير المحدودة تقريبًا، كما

يقترح الشيطان، للحصول على الخبز في التو واللحظة –لإنهاء صيامه– وحتى بالمعنى الأوسع، لكسب الثروة في العالم (التي كان من شأنها أن تحلّ نظريًا مشكلة الخبز على نحو دائم). لكن بأي ثمن؟ ولأي غاية؟ الشراهة، في خضم الخراب الأخلاقي؟ هذا هو أسوأ أنواع الطعام وأكثرها بؤسًا. لذا فقد كان المسيح يهدف إلى غاية أسمى: إلى توصيف حالة للكينونة من شأنها أن تحلّ مشكلة الجوع أخيرًا وإلى الأبد. إذا اخترنا جميعًا أن نعيش بكلمة الله بدلًا من النفعية؟ هذا سيتطلّب من كل شخص أن يعيش، وينتج، ويضحّي، ويتحدّث، ويشارك بطريقة من شأنها أن تجعل حرمان الجوع شيئًا من الماضي. وهكذا تُحَلّ مشكلة الجوع وسط حرمان الصحراء على نحو حقيقي ونهائي.

ثمة إشارات أخرى لذلك في الأناجيل، بصورة درامية تمثيلية. يُصوَّر المسيح دائمًا على أنه مصدر عون لا نهائي؛ فهو يضاعف الخبز والسمك على نحو إعجازي، ويحوّل الماء إلى نبيذ. فما الذي يعنيه هذا؟ إنها دعوة للسعي وراء معنى أسمى، باعتباره أسلوب حياة أكثر عملية وأعلى جودة في الوقت ذاته. إنها دعوة صُوِّرت في شكل درامي/أدبي: عش مثلما يعيش «المخلص» النموذجي، ولن تجوع أنت ولا أهلك بعد ذلك. وتتجلّى هِبات

العالم لأولئك الذين يعيشون على نحو صحيح؛ وهذا أفضل من الخبز، وأفضل من المال الذي يشتري الخبز.

وهكذا يتجاوز المسيح –الإنسان المثالي رمزيًا– الاختبار الأول، ويتبقى اثنان.

يقول الشيطان في الاختبار التالي: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللّهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: إِنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لاَ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ». لماذا لم يتجلَّ الله لينقذ ابنه الوحيد من الجوع والعزلة ومن الشر العظيم؟ لأن هذا لا يرسخ نمطًا للحياة. إنه حتى لا يصلح كنوعٍ من أنواع الأدب. إن «المدد الغيبي» –أي ظهور قوة إلهيّة تنقذ البطل بطريقة سحرية من ورطته– هو أسوأ حبكة يمكن أن يستخدمها كاتب فاشل. إنها حبكة تسخر من الاستقلالية، والشجاعة، والمصير، والإرادة الحرّة، والمسؤولية، وتجعل منها أضحوكة. وعلاوة على ذلك، فإن الربّ ليس حصن أمان للعميان بأي حال من الأحوال، وليس شخصًا يُطلب منه أداء حيل سحرية، أو يُجبَر على الكشف عن ذاته؛ ولا حتى من قِبل ابنه.

«لاَ تُجَرِّب الرَّبَّ إِلهَكَ» (متى 4:7): هذا الرد، وإن كان مختصرًا، يمحق الإغواء الثاني. إن المسيح لا يستطيع أن يأمر الرب ببساطة، أو حتى أن يجرؤ على مطالبته، بالتدخّل لصالحه. بل هو يرفض التخلّي عن مسؤوليته عن حوادث حياته، ويرفض مطالبة الرب بإثبات وجوده. وهو يرفض كذلك حل مشكلات الضعف المميت لذاته شخصيًا –عن طريق إجبار الرب على إنقاذه– لأن ذلك لن يحلّ المشكلة للآخرين جميعًا وإلى الأبد. وثمة صدى يتردّد أيضًا لرفض المسيح لسلوى الجنون في هذا الإغواء المنبوذ. لقد كان تماهي المسيح مع فكرة أنه هو المسيح الخارق المُعجِز يمثل إغراءً حقيقيًا في ظل الظروف القاسية التي عاشها في البرية؛ وقد كان هذا سهلًا، ولكنه كان سيدل أيضًا على اضطراب في العقل. وبدلًا من ذلك، رفض المسيح فكرة أن الخلاص –أو حتى البقاء على قيد الحياة على المدى القصير– يعتمد على إظهار التفوّق النرجسي، وتوجيه الأوامر لله، حتى من قِبل ابنه.

وأخيرًا يأتي الاختبار الثالث، والأشدّ قوة على الإطلاق. يرى المسيح ممالك العالم كلّها أمام عينيه لتصبح ملكًا له؛ وتلك هي الدعوة المغرية للسلطان الأرضي: فرصة التسلط على كل إنسان وكل شيء. يُعرَض على المسيح ذروة التسلسل الهرمي للهيمنة، وهي الرغبة الحيوانية لدى كل

حيوان من الرئيسيات: الطاعة من الجميع، والوضع الاجتماعي الأفضل على الإطلاق، وسلطة البناء والنماء، وإمكانية الإشباع الحسّي غير المحدود. تلك هي النفعيّة في صورتها الأوضح. ولكن هذا ليس كل شيء؛ فهذا التوسع في المكانة يوفر أيضًا فرصة غير محدودة لتجلّي الظلام الداخلي والإفصاح عن وجهه القبيح. فشهوة الدم، والاغتصاب، والتدمير، تُعدّ جزءًا لا يتجزأ من إغراء السلطة. فاشتهاء البشر للسلطة لا يكون فقط من أجل تجنّب المعاناة، ولا يكون فقط لأنهم يريدون القوّة ليتمكّنوا من التغلّب على قلّة حيلتهم في مواجهة العوز، والمرض، والموت؛ بل يشتهون السلطة لأنها تعني أيضًا القدرة على الانتقام، وضمان خضوع الآخرين، وسحق الأعداء. فلو أنك منحت قابيل السلطة الكافية، فلن يقتل هابيل وحسب؛ بل سيعذّبه أولًا، على نحو خيالي وبلا نهاية. وبعد ذلك، وفقط بعد ذلك، سوف يقتله؛ ثم سيطارد الآخرين جميعًا.

وثمة شيء أعلى حتى من قمة التسلسل الهرمي للهيمنة، ولا ينبغي التضحية بإمكانية تحقيقه من أجل تحقيق نجاح قريب. وهو مكان حقيقي أيضًا، على الرغم من عدم إمكانية تصوّره وفقًا للمعنى الجغرافي القياسي للمكان الذي نستخدمه عادة لتوجيه أنفسنا. رأيت ذات مرّة منظرًا طبيعيًا

هائلًا يمتد لأميال في الأفق أمامي. كنت طائرًا في الهواء، وأحظى برؤية شاملة كرؤية الطائر. وكنت أرى في كل مكان أهرامات زجاجية متعدّدة الطبقات، بعضها صغير وبعضها كبير، وبعضها متداخل، وبعضها منفصل – وجميعها تشبه ناطحات السحاب الحديثة؛ وجميعها مليئة بأناس يسعون للوصول إلى قمة كل هرم. ولكن كان ثمة شيء ما فوق كل قمة، وهو مجال خارج كل هرم، يأوي إليه كل شيء. كان هذا هو الموقع المميّز للعين التي تستطيع، أو ربما التي تختار، أن ترتفع بحرّية فوق هذا النزاع؛ التي تختار عدم السيطرة على أي مجموعة معيّنة أو قضية معينة، ولكن بدلًا من ذلك ترتفع بطريقة ما فوق الجميع في الوقت نفسه. كان هذا هو الانتباه، بذاته، خالصًا وغير محدود بشيء؛ انتباه يقظ، منفصل، وحذِر، ينتظر التصرّف عندما يحين الوقت ويتحدّد المكان. وكما قال تاو تي تشينج:

«من يحوك الخطط، يخطئ هدفه؛

ومن يتمسّك بشيء، يخسره.

الحكيم لا يخطط للفوز،

وبالتالي لا يُهزَم؛

وهو لا يتمسك بشيء، لذا لا يخسر شيئًا»(**138**).

ثمة دعوة قوية إلى الكينونة الصحيحة في قصة الإغواء الثالث. فلكي ينال المرء أعظم جائزة ممكنة –وهي تأسيس مملكة الله على الأرض، وانبعاث الفردوس– لا بد له أن يدير حياته بطريقة تتطلّب رفض الإشباع الفوري للرغبات الطبيعية والفاسدة على حدٍّ سواء، بغضِّ النظر عن مدى قوة، وإقناع، وواقعية طريقة تقديمها، والتخلّص أيضًا من إغواءات الشر. يُضاعف الشر من كوارث الحياة، ويزيد إلى حدٍّ كبيرٍ من الدافع للنفعية، وهو الدافع الموجود بالفعل بسبب مأساة الكينونة الأساسية. ويمكن للتضحية العادية أن تدرأ المآسي –بقدرٍ ما، زاد أو قل– ولكن هزيمة الشرّ تتطلّب نوعًا خاصًّا من التضحية. ووصف تلك التضحية الخاصّة هو ما شغل الخيال المسيحي (وغير المسيحي) طيلة قرون عديدة. فلماذا لم يكن لها التأثير المطلوب؟ لماذا لا نزال غير مقتنعين بأنه لا توجد خطّة أفضل من رفع رؤوسنا نحو السماء، والسعي نحو الخير، والتضحية بكل شيء لتحقيق هذا الطموح؟ هل عجزنا عن الفهم فحسب، أم أننا ضللنا السبيل؛ عن قصد أو عن غير قصد؟

افترض كارل يونج أن العقل الأوروبي وجد نفسه مدفوعًا لتطوير التقنيات المعرفية للعلوم، لدراسة العالم المادي، بعد أن خلص ضمنيًا إلى أن المسيحية –بتركيزها الشديد على الخلاص الروحي– قد فشلت في معالجة مشكلة المعاناة بالقدر الكافي في عالم الواقع. أصبح هذا الإدراك شديد الوضوح في القرون الثلاثة أو الأربعة السابقة لعصر النهضة. ونتيجة لذلك، بدأ تصوّر تعويضي غريب وعميق في الظهور في أعماق النفس الغربيّة الجمعيّة، حيث تجلّى أولًا في التأمّلات الغريبة للخيمياء(50) alechemy، ثم تطوّر بعد عدة قرون ليأخذ الشكل الكامل والمتقن للعلوم الحديثة(139). كان الخيميائيون هم أول من بدأوا في دراسة تحوّلات المادّة بجدّية، على أمل اكتشاف أسرار الصحّة، والثروة، وطول العمر. افترض أولئك الحالمون العظماء (وفي مقدّمتهم نيوتن(140)) وتخيّلوا أن العالم المادي –الملعون من الكنيسة– يحمل أسرارًا قد يؤدّي كشفها إلى تحرير البشرية من آلامها ونقاط ضعفها الأرضية. وكانت تلك الرؤية –المدفوعة بالشكِّ– هي ما وفّر القوّة التحفيزية الجمعية والفردية الهائلة اللازمة لتطوير العلوم، وكانت تفرض مطالب شديدة على المفكّرين الأفراد في ما يتعلّق بالتركيز وتأخير الإشباع.

ولا يعني هذا أن المسيحيّة –حتى في شكلها الذي تحقّق على نحو غير كامل– كانت فاشلة؛ بل على العكس تمامًا: لقد حقّقت المسيحية أمرًا شبه مستحيل. لقد سَمَت العقيدة المسيحية بالروحِ الفردية، فوضعت العبد، والسيّد، والعامّة، والنبلاء، على قدم المساواة في ما يتعلّق بالوضع الميتافيزيقي، وساوت بينهم جميعًا أمام الرب والقانون. وقد أصرّت المسيحية على أن الملك نفسه هو مجرّد إنسان مثل باقي البشر. ولكي يترسّخ شيء يتعارض تمامًا مع كل الأدلّة الواضحة، كان لا بد من دحض فكرة أن السلطان الدنيوي وعلوّ المنزلة يدلان على تفضيل الله لبعض الناس على غيرهم. وتحقّق ذلك جزئيًا من خلال الإصرار المسيحي الغريب على أنه لا يمكن نيل الخلاص بالجهد أو القيمة؛ أي من خلال «الأعمال»(141). وأيًّا كانت أوجه قصور هذه العقيدة، فقد أدّت إلى منع الملوك، والأرستقراطيين، والتجّار الأثرياء، على حدٍّ سواء، من التسلّط أخلاقيًّا على عامة الناس. ونتيجة لذلك، فإن المفهوم الميتافيزيقي للقيمة المتسامية الضمنيّة لكل روحٍ قد ترسَّخ رغم صعاب جمّة مستحيلة بوصفه الافتراض الأساسي للقانون والمجتمع الغربيين. لم يكن الحال كذلك في عالم الماضي، وهو ليس كذلك أيضًا في معظم الأماكن في عالم الحاضر.

وفي الواقع، يُعد من قبيل الإعجاز (وينبغي أن نضع هذه الحقيقة نصب أعيننا بقوة) أن المجتمعات الهرمية القائمة على العبودية في زمان أسلافنا أعادت تنظيم نفسها، تحت تأثير فكر أخلاقي/ديني، بحيث أصبح امتلاك الإنسان لإنسان آخر، والهيمنة المطلقة عليه، أمرًا يُعتبر خاطئًا.

سيكون من المفيد أن نتذكّر أيضًا أن الفائدة المباشرة للعبودية واضحة، وأن الحجّة القائلة بأن الأقوياء يجب أن يهيمنوا على الضعفاء مقنعة، وملائمة، وعملية للغاية (على الأقل بالنسبة للأقوياء). وهذا يعني أن النقد الثوري لكل ما تقدّره المجتمعات القائمة على امتلاك العبيد كان ضروريًّا قبل أن يمكن التشكيك في هذه الممارسة، ناهيك عن إلغائها (بما في ذلك فكرة أن امتلاك القوّة والسلطة يجعل من صاحب العبيد سيّدًا نبيلًا؛ وبما في ذلك أيضًا الفكرة الأكثر جوهرية القائلة إن السلطة التي يمتلكها سيّد العبد هي سلطة مشروعة، وربما حتى فاضلة أخلاقيًّا). وقد طرحت المسيحية ادعاءً صريحًا مفاجئًا مفاده أنه حتى الأشخاص الأدنى مكانة لهم حقوق، حقوق أصيلة؛ وأن السيادة والمكانة مطالبتين أخلاقيًا – على مستوى أساسي– بالاعتراف بتلك الحقوق. وطرحت المسيحية صراحة أيضًا الفكرة الأكثر غرابة واستعصاءً على الفهم القائلة بأن امتلاك العبيد هو أمر يحطّ

كثيرًا من منزلة السادة (الذين كان يُنظر إليهم سابقًا بإعجاب على أنهم نبلاء)، بل يحطّ من منزلتهم أكثر مما يحطّ من منزلة العبيد. ونحن عاجزون عن فهم مدى صعوبة استيعاب مثل هذه الفكرة؛ كما أننا ننسى أن العكس كان بديهيًا على مدار معظم تاريخ البشرية. إننا نظن بأن الرغبة في استعباد الآخرين والهيمنة عليهم هي التي تتطلّب التفسير. لقد عكسنا المسألة، مرة أخرى.

ولا يعني كل هذا أن المسيحية لم تكن تعتَوِرها المشكلات. لكن من الملائم هنا أن نشير إلى أن مشكلات المسيحية كانت من النوع الذي يظهر فقط بعد حل مجموعة مختلفة تمامًا من المشكلات الأكثر خطورة. كان المجتمع الذي أنتجته المسيحية أقل همجية بكثير من المجتمعات الوثنية التي حلّ محلّها، وأيضًا من المجتمع الروماني. لقد أدرك المجتمع المسيحي على الأقل أن إطعام العبيد للأسود المفترسة بهدف الترفيه عن العامة كان أمرًا خاطئًا، وإن ظلّ العديد من الممارسات الوحشية الأخرى قائمة. وقد اعترضت المسيحية على قتل الأطفال، والدعارة، وعلى المبدأ القائل بأن القوة تعني الحق. وأصرّت المسيحية على أن قيمة المرأة مساوية

لقيمة الرجل (رغم أننا لا نزال نحاول معرفة كيفية إبراز هذا الإصرار سياسيًّا). كذلك طالبت المسيحيّة بأن يُعتبر حتى أعداء المجتمع بشرًا. وأخيرًا، فصلت الكنيسة عن الدولة، بحيث لم يعد بإمكان الأباطرة عمومًا ادعاء القدسيّة باسم الآلهة. كان كل هذا يُعدّ مستحيلًا؛ لكنه تحقَّق.

لكن مع تقدّم الثورة المسيحية، توارت عن الأنظار المشكلات المستحيلة التي حلّتها؛ وهذا ما يحدث للمشكلات التي يجري حلها. وبعد تطبيق الحل، حتى حقيقة أن مثل هذه المشكلات كانت قائمة من الأساس اختفت عن الأنظار. وحينها فقط أمكن للمشكلات التي بقيت بعيدة عن الحل السريع بواسطة العقيدة المسيحية أن تحتلّ مكانة مركزية في وعي الغرب؛ أن تحفّز – على سبيل المثال– تطوير العلوم بهدف حل المعاناة الجسدية المادية التي كانت لا تزال قائمة على نحوٍ مؤلمٍ للغاية في المجتمعات التي صارت مسيحيّة بنجاح. إن حقيقة كون السيارات تلوّث البيئة لا تصبح مشكلة كبيرة بما يكفي لجذب الانتباه العام إلا عندما تتوارى عن الأنظار المشكلات الأسوأ التي تم حلّها بواسطة محرّك الاحتراق الداخلي. فالناس حين يعانون من الفقر لا يهتمون بمستويات ثاني أكسيد الكربون. ولا يعني هذا أن مستويات ثاني أكسيد الكربون غير مهمّة؛ بل يعني أنها غير مهمّة

حين يكون على المرء أن يهلك نفسه في العمل لكي يستطيع العيش، أو حين يتضوّر جوعًا، أو حين يضطرّ لانتزاع قوته من أرضٍ صخريةٍ صلبةٍ مجدبةٍ، مليئةٍ بالأشواك. إنها غير مهمّة حتى وقت اختراع الجرار وإنقاذ مئات الملايين من الجوعِ. وعلى أية حال، بحلول الوقت الذي ظهر فيه نيتشه في أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت المشكلات التي تركتها المسيحيّة من دون حلٍّ هي الأهم.

وصف نيتشه نفسه –من دون مبالغة كبيرة– بأنه يتفلسف بمطرقة(142). وقد تضمّن نقده المدمّر للمسيحية –التي كانت قد ضعفت بالفعل جراء صراعها مع العلم الذي مهّدت الطريق لظهوره– جبهتين رئيسيتين للهجوم. ادعى نيتشه أولًا أن فكرة الحقيقة التي طوّرتها المسيحية نفسها لأعلى درجاتها هي التي وصلت في النهاية إلى التشكيك في الافتراضات الأساسية للعقيدة المسيحية، ومن ثم تقويضها. ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن الفارق بين الحقيقة المعنوية أو السردية وبين الحقيقة الموضوعية لم يكن قد تم استيعابه بعد على نحو كامل (وهكذا تم افتراض تعارض في حين لم يكن ثمة تعارض بالضرورة)؛ ولكن هذا لا ينفي تلك النقطة. فحتى عندما يستخف الملحدون المعاصرون المعارضون للمسيحية بالأصوليين لإصرارهم –مثلًا– على أن

قصّة الخلق في سفر التكوين صحيحة موضوعيًّا، فإنهم يستخدمون إحساسهم بالحقيقة، الذي تطور إلى حدٍّ كبيرٍ عبر قرون من الثقافة المسيحية،- للانخراط في مثل هذه المناقشة. واصل كارل يونج تطوير حجج نيتشه بعد ذلك بعقود، مشيرًا إلى أن أوروبا استيقظت أثناء عصر التنوير من حلم مسيحي، وأدركت أن كل شيء كانت تعتبره حتى ذلك الحين مسلّمًا به، يمكن التشكيك فيه، بل يجب التشكيك فيه. وأعلن نيتشه قائلًا: «لقد مات الإله. وسيظل ميتًا. ونحن الذين قتلناه. كيف لنا أن نعزّي أنفسنا ونحن قتلة؟ من كان أكثر قداسة وعظمة في العالم نزف حتى بخناجرنا. من ذا الذي سيمسح الدماء عن أيادينا؟»(143).

وفقًا لنيتشه، لم تعد العقيدة الأساسية للإيمان الغربي ذات مصداقية، بالنظر إلى ما يعتبر العقل الغربي الآن أنه الحقيقة. غير أن هجوم نيتشه الثاني – على استبعاد العبء الأخلاقي الحقيقي للمسيحية أثناء تطوّر الكنيسة- كان هو الأكثر تدميرًا. شن فيلسوف المطرقة هجومًا حادًا على طريقة تفكير مسيحيّة مبكّرة وكانت مؤثّرة جدًا في ذلك الوقت، وهي فكرة أن: المسيحية تعني قبول الافتراض القائل بأن تضحية المسيح، تلك التضحية وحدها، هي التي افتدت البشرية. ونقول إن هذا لم يكن معناه على

الإطلاق أن المسيحي المؤمن بأن المسيح مات على الصليب من أجل خلاص البشرية قد تحرّر من أي التزام أخلاقي شخصي، وإنما كان يشير ضمنيًا بقوة إلى أن المسؤولية الأوليّة عن الخلاص قد حملها «المخلِّص» بالفعل، وأنه لم يبق شيءٌ مهمٌّ للغاية ليفعله البشر الساقطون.

اعتقد نيتشه أن بولس، والبروتستانتيين اللاحقين الذين اتّبعوا لوثر، أزالوا المسؤولية الأخلاقية عن كاهل أتباع المسيح. لقد خففوا من فكرة محاكاة المسيح. كانت هذه المحاكاة هي الواجب المقدّس على كلِّ مؤمن، ليس بالتمسك بمجموعة من العبارات عن المعتقد التجريدي (أو مجرد التحدّث عنها)، وإنما بإظهار روحِ المخلِّص فعليًا، في الظروف المحدّدة والخاصّة لحياة كلِّ فردٍ؛ وذلك لتحقيق أو تجسيد النموذج الأصلي، أو كما قال يونج؛ جعل عباءة النمط الأبدي جزءًا من لحم الإنسان. وقد كتب نيتشه يقول: «لم يمارس المسيحيون أبدًا الأفعال التي أمرهم بها يسوع؛ والثرثرة البشعة عن «التبرير بالإيمان» وأهميته العليا والفريدة ما هو إلا نتيجة لافتقار الكنيسة إلى الشجاعة والإرادة اللازمتين لإعلان الأفعال التي أمر بها يسوع»(144). لقد كان نيتشه حقًّا ناقدًا لا نظير له.

كان للإيمان العقائدي بالمسلّمات الرئيسية للمسيحية (أن صلْبَ المسيح قد افتدى العالم؛ وأن الخلاص كان مدّخرًا للحياة الآخرة؛ وأن الخلاص لا يمكن تحقيقه بواسطة الأعمال) ثلاث نتائج يعزز بعضها بعضًا: أولًا، الحط من قيمة الحياة الدنيا، لأن الآخرة فقط هي المهمة. وكان هذا يعني أيضًا أنه أصبح من المقبول التغاضي عن المسؤولية عن المعاناة الموجودة في الواقع الحالي وتجاهلها. ثانيًا، القبول السلبي بالوضع الراهن، لأنه لا يمكن نيل الخلاص في جميع الأحوال من خلال الجهد المبذول في هذه الحياة (وهي نتيجة سخر منها ماركس أيضًا بقوله إن الدين أفيون الشعوب). وثالثًا وأخيرًا، حقّ المؤمن في رفض أي عبء أخلاقي حقيقي (بخلاف الإيمان المعلن بالخلاص من خلال المسيح)، لأن ابن الله قد قام بالفعل بالعمل المهمّ اللازم كلّه. ولأسباب مثل هذه، انتقد دوستويفسكي -الذي كان له تأثير كبير على نيتشه- المسيحية المؤسّسية بدوره (رغم أنه نجح في فعل هذا بطريقة أكثر غموضًا، ولكنها أيضًا أكثر تعقيدًا). ففي تحفته الأدبية، «الإخوة كارامازوف» **The Brothers Karamazov**، جعل دوستويفسكي بطله الخارق الملحد، إيفان، يحكي قصة قصيرة هي قصة «كبير المحققين»(**145**).

وإليكم مراجعة موجزة للقصّة.

يتحدّث إيفان إلى شقيقه أليوشا –الذي كان يزدري مساعيه للالتحاق بدار الرهبنة– عن عودة المسيح إلى الأرض وقت محاكم التفتيش الإسبانية. وكما هو متوقَّع، تتسبّب عودة المنقذ في حدوث ضجة؛ فهو يشفي المرضى، ويحيي الموتى. وسرعان ما يجذب سلوكه انتباه كبير المحقّقين نفسه، والذي يلقي القبض على السيد المسيح فورًا ويحبسه في زنزانة. وبعد ذلك يزوره المحقّق، ويخبر المسيح خلالها أنه لم تعد ثمة حاجة إليه، وأن عودته ببساطة تمثّل تهديدًا كبيرًا جدًّا للكنيسة. ويقول المحقّق للمسيح إن العبء الذي ألقاه على كاهل البشرية –عبء الوجود والعيش بالإيمان والصدق– هو ببساطة أكبر من أن يتحمّله البشر. يدّعي المحقّق أن الكنيسة خفّفت تلك الرسالة، بشفقة منها، فرفعت مطلب الكينونة المثالية عن عاتق أتباعها، وزوَّدتهم بدلًا من ذلك بوسائل بسيطة ورحيمة للإيمان والآخرة. ويشير المحقق إلى أن هذا العمل استغرق قرونًا، وأن آخر شيء تحتاجه الكنيسة بعد كل هذا الجهد هو عودة الرجل الذي أصرَّ على أن يتحمّل البشر كل هذا العبء في المقام الأول. ينصت إليه المسيح في صمت، وعندما يهم المحقّق بالرحيل، يحتضنه المسيح ويقبّله؛ فيشحب وجه المحقّق من الصدمة، ثم يخرج ويترك باب الزنزانة مفتوحًا.

إن عمق هذه القصة وعظمة الروح التي أنتجتها أكبر من أن نوفيها حقّها. لقد واجه دوستويفسكي -أحد عباقرة الأدب العظماء على مر العصور- أخطر المعضلات الوجودية في جميع كتاباته العظيمة، وقد فعل ذلك بشجاعة، وإقدام، وبغير مبالاة بالعواقب. فدوستويفسكي، الذي من الواضح أنه مسيحي، رفض بشدّة أن يجعل من خصومه العقلانيين الملحدين خصومًا ضعفاء. بل على العكس تمامًا: ففي رواية «الإخوة كارامازوف» -على سبيل المثال- يفنّد إيفان الملحد فرضيات المسيحيّة بوضوح وشغف لا نظير لهما. ولم يستطع أليوشا، الذي يوافق الكنيسة بقلبه وعقله، أن يهدم ولو حجّة واحدة من حجج شقيقه (رغم أن إيمانه ظل راسخًا لم يتزعزع). لقد أدرك دوستويفسكي أن المسيحيّة انهزمت على يد القدرات العقلية -بل حتى على يد الفكر- واعترف بذلك، ولكنه لم يتغافل عن هذه الحقيقة (وهذا أمر ذو أهمّية بالغة). لم يحاول دوستويفسكي المراوغة من خلال الإنكار، أو الخداع، أو حتى السخرية لإضعاف الرأي المعارض لما يؤمن بأنه الشيء الحقيقي الأكثر صدقًا وقيمة؛ وبدلًا من ذلك جعل الأفعال تتحدّث بصوت أعلى من الكلمات، وعالج المشكلة بنجاح. ففي نهاية القصّة، جعل دوستويفسكي الخير الأخلاقي العظيم المتجسّد في أليوشا -

الذي يمثّل محاكاة شجاعة للمسيح- يحقّق النصر على الذكاء النقدي المدهش والعدمي لإيفان.

الكنيسة المسيحيّة التي وصفها كبير المحقّقين هي نفسها الكنيسة التي سخر منها نيتشه. تمثِّل تلك الكنيسة كلَّ شيءٍ فاسدٍ لا يزال يعارضه النقّاد الحداثيون للمسيحية؛ فهي سخيفة، ومنافقة، وأبوية، وخادمة لمصالح الدولة. سمح نيتشه لنفسه -برغم ذكائه المتوقِّد- بالغضب، ولكنه ربما لم يعالج غضبه بحسن التقدير على النحو الكافي. وهنا في تقديري يتفوّق دوستويفسكي حقًّا على نيتشه؛ حيث يتفوّق أدب دوستويفسكي العظيم على فلسفة نيتشه. يمثل المحقِّق الأداة الحقيقيّة التي استخدمها الأديب الروسي العظيم. وهو محقّق انتهازي، وساخر، ومخادع، وقاسٍ، ومستعد لاضطهاد الزنادقة؛ وربما حتى تعذيبهم وقتلهم. إنه يقدّم عقيدة يعرف أنها خاطئة. ولكن دوستويفسكي يجعل المسيح -الإنسان المثالي النموذجي- يُقبِّله. وعلى القدر نفسه من الأهمية أنه في أعقاب القبلة، يترك كبير المحقّقين الباب مواربًا ليتمكّن المسيح من الهروب من إعدامه الوشيك. لقد رأى دوستويفسكي أن الفساد الكبير للمسيحية لا يزال قادرًا على إفساح مجال

لروحِ مؤسِّس المسيحية. وهذا هو شعور الامتنان الذي يشعر به رجل يملك روحًا حكيمة وعميقة للحكمة الغربية الباقية، برغم خطاياها.

لا يعني هذا أن نيتشه لم يكن راغبًا في منح الإيمان –ومنح الكاثوليكية، على نحو أكثر تحديدًا– ما يستحقّه. لقد كان نيتشه يؤمن بأن التاريخ الطويل من «انعدام الحرّية» الذي ميّز المسيحية الدوجماتية الصارمة –بإصرارها على تفسير كل شيء في إطار نظرية ميتافيزيقية واحدة متماسكة– كان شرطًا مسبقًا ضروريًا لظهور العقل الحديث المنضبط والمتحرّر في الوقت ذاته. وقد كتب يقول في كتابه «ما وراء الخير والشر» **Beyond Good and Evil**:

إن عبودية الروحِ الطويلة... إن طويل إرادة الروحِ لتأويل كل ما يجري وفقًا لنموذج مسيحي، ولإعادة اكتشاف الإله المسيحي وتبريره حتى في المصادفة أيًا كانت– كل هذا القسري والتعسفي والقاسي والمرعب والمنافي للعقل تجلّى بوصفه الوسيلة التي تربّى بها الروح الأوربي وبلغ قوّته

وفضوله الجارف ومرونته المرهفة، مع الاعتراف بأن الكثير من القوّة والروح الذي لا يمكن تعويضه وجب أن يُطمس ويُخنق ويفسد بذلك أيضًا(**146**).

ما وراء الخير والشرّ، نيتشه، م. س.

بالنسبة إلى كل من نيتشه ودوستوفسكي، تتطلّب الحرية –حتى القدرة على التصرّف– قيودًا. ولهذا السبب، أدرك كلاهما الضرورة الحيويّة لعقيدة الكنيسة. فلا بد أن يكون الفرد مقيّدًا أو مُحاطًا بقالب –أو حتى يمكن تدميره– بواسطة بنية تأديبية تقييدية متماسكة، قبل أن يتمكّن من التصرّف بحرية وبكفاءة. وقد اعترف دوستويفسكي، بكرم روحي عظيم، بامتلاك الكنيسة –برغم فسادها– قدرًا من الرحمة، وقدرًا من البراجماتية. واعترف كذلك بأن روح المسيح، والكلمة المُنشئة للعالم، كانت تجد مستقرّها –وربما حتى سيادتها– تاريخيًّا داخل البنية العقائديّة، ولعلها لا تزال كذلك حتى الآن.

إذا قام الأب بتأديب ابنه على نحو صحيح، فإنه يكبت حريته بوضوح، لا سيما في الواقع الحالي. إنه يضع قيودًا على التعبير الطوعي لكينونة ابنه،

ويجبره على أن يتّخذ مكانه كفرد اجتماعي في العالم. يرغب مثل هذا الأب في تحويل كل تلك الإمكانيات الطفولية عبر مسار واحد منفرد. وبوضع مثل هذه القيود على ابنه، ربما يمكن اعتباره قوّة هدّامة، تتصرّف على هذا النحو من أجل استبدال تعدّدية الطفولة الإعجازية بواقعيّة واحدة ضيّقة ومحدودة. ولكن إذا لم يفعل الأب ذلك، فإنه يترك ابنه ليظلّ مثل «بيتر بان»؛ «الصبي الخالد»، «ملك الأطفال التائهين»، و«حاكم نيفرلاند» الخيالية التي لا وجود لها. وهذا ليس بديلًا مقبولًا أخلاقيًّا. لقد قُوِضَت عقيدة الكنيسة بسبب روح الحقيقة التي رسّختها الكنيسة ذاتها بقوة، وبلغ هذا التقويض ذروته بموت الإله. ولكن البنية العقائديّة للكنيسة كانت بنية تأديبية ضرورية. إن وجود فترة طويلة من عدم الحرية –أي فترة من الالتزام ببنية تفسيرية واحدة– ضروري لتطوّر العقل الحر؛ وقد وفّرت العقيدة المسيحية فترة انعدام الحرية تلك. ولكن العقيدة ماتت، على الأقل بالنسبة للعقل الغربي الحديث. لقد هلكت مع الإله. غير أن ما ظهر من وراء جثتها –وهذه مسألة ذات أهمية قصوى– هو شيءٌ أكثر موتًا؛ شيءٌ لم يكن حيًا قط، حتى في الماضي: إنه العدميّة، وحساسيّة خطيرة بالقدر نفسه للأفكار الطوباويّة الشموليّة الجديدة. ففي أعقاب موت الإله، ظهرت الفظائع الجماعيّة الرّهيبة للشيوعيّة والفاشيّة (تمامًا كما تنبّأ كل من دوستويفسكي ونيتشه). من جانبه، افترض نيتشه أنه سيكون على كل فرد من البشر أن

يبتكر قيَمه الخاصّة في أعقاب موت الإله. ولكن هذا العنصر من تفكيره يبدو هو الأضعف من الناحية النفسيّة: فنحن لا نستطيع ابتكار قيَمنا الخاصّة، لأننا لا نستطيع ببساطة فرض ما نؤمن به على أرواحنا. كان هذا هو اكتشاف كارل يونج العظيم؛ والذي يرجع الفضل الأكبر فيه إلى دراسته المكثّفة للمشكلات التي طرحها نيتشه.

إننا نتمرّد على استبدادنا الشخصي، بقدر ما نتمرّد على استبداد الآخرين. فأنا لا أستطيع أن آمر نفسي بالقيام بفعلٍ ما، ولا يمكنك أنت ذلك أيضًا. أقول لنفسي: «سأكفّ عن التسويف»، إلا أنني لا أفعل. وأقول: «سأتناول طعامًا صحّيًّا»، إلا أنني لا أفعل. وأقول: «سأمتنع عن سلوك الإفراط في شرب الخمر»، إلا أنني لا أفعل. لا يمكنني ببساطة أن أجعل نفسي على الصورة التي يتصوّرها عقلي (لا سيما إذا كانت تستحوذ على ذلك العقل أيديولوجيّة ما). إن لديّ طبيعة معينة، وأنت كذلك، والبشر جميعًا. ولا بد أن نكتشف تلك الطبيعة، ونتعامل معها، قبل أن نتمكّن من التصالح مع أنفسنا. ما حقيقة أنفسنا الفعلية؟ ما الحقيقة التي يمكننا أن نصبح عليها بصدق، مع معرفة ماهيتنا الحقيقيّة؟ ينبغي علينا أن نصل إلى الأعماق قبل أن نتمكّن حقًا من الإجابة عن هذه الأسئلة.

قبل ثلاثمائة سنة من زمن نيتشه، شرع الفيلسوف الفرنسي الكبير رينيه ديكارت في مهمّة فكرية هدفها هو التعامل مع شكّه بجدّية، وتحليل الأمور، والوصول إلى ما هو جوهري، ليرى ما إذا كان بإمكانه إنشاء، أو اكتشاف، قضية واحدة تمتنع على التشكيك فيها. كان يبحث عن حجر الأساس الذي يمكن أن يقوم عليه الوجود المناسب. وجد ديكارت هذه المسألة التي كان يبحث عنها في «الأنا» الذي يفكّر -«الأنا» الواعي- كما في عبارته الشهيرة: «أنا أفكِّر، إذن أنا موجود» **cogito ergo sum**. ولكن هذا «الأنا» كان مفهومًا جرى تصوّره قبل فترة طويلة؛ فمنذ آلاف السنين، كان «الأنا» الواعي هو عين حورس التي ترى كل شيء، وحورس هو الإله الابن وإله الشمس، الذي جدّد الدولة عن طريق الانتباه لفسادها المحتوم ثم مواجهته. وقبل ذلك، كان «الأنا» متمثلًا في الإله الخالق «مردوخ» في بلاد الرافدين، الذي كان يرى في جميع الاتجاهات، ويتحدّث بكلمات سحريّة خلقت العالم. وخلال الحقبة المسيحيّة، تحوّلت «الأنا» إلى «لوجوس»(51) **Logos** (أي الكلمة)، وهي «الكلمة» التي أضفت النظام على الوجود في بداية الزمان. ويمكن القول إن ديكارت أضفى

العلمانية على «لوجوس»، محوِّلًا إياها، على نحو أكثر وضوحًا، إلى معنى «الواعي والمفكر». وببساطة، فإن هذه هي الذات الحديثة. ولكن ماذا تكون هذه الذات بالضبط؟

يمكننا أن نفهم أهوالها –إلى حدٍّ ما– إذا كنا نرغب في ذلك، ولكن لا يزال من الأصعب تحديد الخير فيها. الذات هي الفاعل العظيم للشرِّ الذي ظهر على مسرح الكينونة في صورة النازيّة والستالينيّة على حدٍّ سواء؛ والذي أنشأ معسكرات اعتقال أوشفيتز، وبوخنفالد، وداخاو، وعددًا كبيرًا من معسكرات الاعتقال السوفييتية. ولا بد من النظر في كل ذلك بجدّية شديدة. ولكن ما عكس ذلك في الذات؟ ما الخير الذي هو النظير الضروري لذلك الشر؛ والذي يصبح أكثر مادية وشمولية من خلال وجود هذا الشر ذاته؟ وهنا يمكننا أن نقول بيقين ووضوحٍ إنه حتى الفكر المنطقي –أي تلك القدرة العقلية المحبّبة لدى أولئك الذين يزدرون الاحتكام إلى المعرفة التقليديّة– هو على أقلِّ تقديرٍ شيءٌ قريبٌ بشدّةٍ وبالضرورة للإله الميت والمبعوث من جديد إلى الأبد، المنقذ الأبدي للإنسانيّة، «لوجوس» نفسه. لقد اعتبر فيلسوف العلم كارل بوبر –الذي لم يكن صوفيًّا بالقطع– أن التفكير نفسه امتداد منطقي للعمليّة الداروينيّة. فالمخلوق الذي لا

يستطيع التفكير لا بد له أن يجسِّد كينوته فحسب؛ فهو يستطيع فقط التصرّف وفق طبيعته، على نحو مادِّيٍ ملموسٍ، في الواقع الحالي الآني. وإذا لم يستطع من خلال سلوكه أن يفي بمتطلبات بيئته، فسيموت ببساطة. ولكن هذا لا ينطبق على البشر؛ فنحن البشر نستطيع إنتاج تجسيدات تجريدية لأنماط الكينونة المحتملة. يمكننا إنتاج فكرة في خيالنا، ويمكننا اختبارها إزاء أفكارنا الأخرى، أو أفكار الآخرين، أو العالم نفسه. وإذا فشلت، يمكننا أن نهملها وننبذها. ونستطيع أن نترك أفكارنا تموت نيابة عنا، بحسب صياغة بوبر(147). ومن ثمَّ، يستطيع الكيان الأساسي، أي منشئ هذه الأفكار أن يمضي قدمًا وقد أصبح غير مقيَّد بالأخطاء. إن إيمان الجزء الخالد منا والذي يستمرّ بعد الموت هو شرط أساسي للتفكير ذاته.

إن الفكرة ليست هي الحقيقة. فالحقيقة هي شيء ميت بذاته؛ إذ ليس لها وعي، ولا إرادة، ولا دافع، ولا فعل. وهناك مليارات الحقائق الميتة. شبكة الإنترنت تُعد مقبرة للحقائق الميتة. لكن الفكرة التي تسيطر على الشخص فكرة حيّة؛ فهي ترغب في التعبير عن نفسها، والعيش في العالم. ولهذا السبب يصرّ علماء عمق النفس –وفي مقدمتهم فرويد ويونج– على أن النفس البشرية هي ساحة معركة للأفكار. الفكرة لها هدف، وهي تريد شيئًا

وتعرض بنية للقيمة. تعتقد الفكرة أن ما تهدف إليه أفضل مما لديها الآن، وتختزل العالم في الأشياء التي تساعد أو تعرقل تحقيق الهدف المنشود، وتعتبر كل شيء آخر غير ذي صلة. الفكرة ترسم شكلًا على الخلفية. الفكرة شخصية وليست حقيقة. وعندما تتجلّى داخل شخص ما، فإنها دائمًا تجعل من هذا الشخص تجسيدًا لها؛ وتُكرِهه على تجسيدها. وفي بعض الأحيان، قد يكون هذا الدافع (أو الاستحواذ، بتعبير آخر) قويًا جدًّا إلى حدٍّ أن الشّخص يفضّل الموت على أن تهلك الفكرة. وبشكل عام، هذا قرار خاطئ، نظرًا لأنه غالبًا ما تكون الفكرة وحدها هي التي يجب أن تموت، بحيث يكفّ الشّخص الذي يحملها عن تجسيدها، ويغيّر سلوكه، ويمضي قدمًا في حياته.

وباستخدام المفاهيم الدراميّة لأسلافنا، فإن القناعات الأكثر أهمّية هي التي يجب أن تموت –يجب التضحية بها– عندما تضطرب العلاقة مع الرب (على سبيل المثال، عندما يدلّ وجود معاناة لا مبرر لها ولا تطاق في الغالب على أن ثمة ما يجب تغييره). لا يعني هذا سوى أن المستقبل يمكن أن يكون أفضل إذا قُدِّمت التضحيات المناسبة في الحاضر. لم يكتشف أي حيوان آخر هذا من قبل، وقد استغرق البشر مئات الآلاف من السنين

لمعرفة ذلك. لقد تطلّب الأمر دهرًا من الملاحظة وعبادة الأبطال، ثم آلاف السنين من الدراسة، لتكثيف تلك الفكرة في قصّة موجزة. ثم تطلَّب الأمر آمادًا متطاولة لتقييم القصة، ودمجها، لكي يمكننا الآن أن نقول ببساطة: «إذا كنت منضبطًا وتفضّل المستقبل على الحاضر، فيمكنك تغيير بنية الواقع لصالحك».

ولكن ما أفضل طريقة لفعل ذلك؟

في العام 1984، بدأت أسلك نفس الطريق التي سلكها ديكارت. لم أكن أعرف في ذلك الوقت أنها الطريق نفسها، ولا أدّعي أي قرابة بديكارت، الذي يعتبر بحقّ أحد أعظم الفلاسفة على مر العصور. لكن الشك كان قد تملّكني بحق. كنت قد تجاوزت المسيحية الضحلة التي اعتنقتها في شبابي حين تمكّنت من فهم أساسيات النظرية الداروينية. ومن بعدها، لم أستطع التمييز بين العناصر الأساسية للمعتقد المسيحي وبين التفكير الرَّغْبيّ(52). وبعد ذلك مباشرة بدا لي أن الاشتراكية تُعدّ بديلًا جذابًا، ثم تبيَّن لي بعد بعض الوقت أنها واهية بالقدر نفسه وغير ذات قيمة،

ومع مرور الوقت، أدركت –من خلال الكاتب العظيم جورج أورويل– أن كثيرًا من هذا التفكير كان دافعه هو كراهيّة الأغنياء والناجحين، وليس الاهتمام الحقيقي بالفقراء. إضافة إلى ذلك، كان الاشتراكيون أكثر رأسمالية في جوهرهم من الرأسماليين؛ فقد آمنوا بسطوة المال بالقدر نفسه؛ وإنما كانوا يظنّون وحسب أنه إذا امتلك مختلف الناس المال، فإن المشكلات التي تعاني منها البشريّة ستختفي. وهذا ببساطة غير صحيح. فثمة العديد من المشكلات التي لا يحلها المال، وثمة مشكلات أخرى يزيدها المال سوءًا. فلا يزال الأثرياء يعانون من إجراءات الطلاق، ويعزلون أنفسهم عن أطفالهم، ويعانون من القلق الوجودي، ويصابون بالسرطان والخرف، ويموتون في وحدة من دون حب. إن المدمنين المتعافين المبتلين بكثرة المال يفسدون كل شيء بحالة من جنون التذمّر والسُكْر. والملل يثقل كاهل أولئك الذين ليس لديهم ما يفعلونه.

كانت حقيقة الحرب الباردة القائمة في ذلك الوقت تعذّبني كذلك؛ فأصبحت هاجسًا، وسبَّبت لي الكوابيس، ودفعتني نحو الصحراء، نحو الليل الطويل للروح البشرية. لم أستطع أن أفهم كيف تصوّب الواحدة من أكبر قوتين في العالم أسلحة دمار شامل مؤكّد نحو الأخرى. هل كان كلا

النظامان استبداديًا وفاسدًا بقدر الآخر؟ هل كانت مجرّد مسألة رأي؟ هل كانت كل القيم مجرّد غطاء للسلطة والقوة؟

هل كان الجميع مجانين؟

وعلى أيّة حال، ماذا حدث بالضبط في القرن العشرين؟ كيف يمكن المخاطرة بموت عشرات الملايين من البشر والتضحية بهم من أجل العقائد والأيديولوجيّات الجديدة؟ كيف اكتشفنا شيئًا أسوأ بكثير من الأرستقراطيّة والمعتقدات الدينيّة الفاسدة التي سعت الشيوعيّة والفاشيّة بعقلانيّة شديدة إلى انتزاعها وأخذ مكانها؟ لم يُجب أحد عن هذه الأسئلة، على حدّ علمي. وعلى غرار ديكارت، انتابني الشكّ. بحثت عن شيء –أي شيء– يمكنني اعتباره غير قابل للجدل. كنت أرغب في صخرة ثابتة أؤسِّس عليها منزلي. وكان الشك هو ما قادني إليها.

قرأت ذات مرّة عن عملية تعذيب خبيثة للغاية في أوشفيتز؛ حيث يجبر الحارس النزيل على حمل كيس يبلغ وزنه مئة رطل من الملح الرطب من أحد جانبي المعتقل الكبير إلى الجانب الآخر، ثم إعادته مرة أخرى. كان مكتوبًا على اللوحة في مدخل المعتقل: «العمل سيحررك»؛ وكانت الحرّية هنا تعني الموت. كان حمل الملح تعذيبًا لا طائل من ورائه. لقد كان جزءًا من فن خبيث، وجعلني ذلك أدرك يقينًا أن بعض الأفعال خاطئة لا ريب.

كتب ألكسندر سولجنتسين، على نحو حاسم وعميق، عن أهوال القرن العشرين، وعن عشرات الملايين ممن جُرِّدوا من وظائفهم، وعائلاتهم، وهويتهم، وحياتهم. وفي الجزء الثاني من المجلّد الثاني من كتابه «أرخبيل المعتقلات السوفييتية (الغولاغ)»، تناول سولجنتسين محاكمات نورنبرج، التي اعتبرها الحدث الأكثر أهمية في القرن العشرين. وماذا كانت خلاصة تلك المحاكمات؟ ثمة بعض الأفعال الرهيبة في جوهرها لدرجة أنها تتعارض مع الطبيعة السليمة للإنسان. هذا صحيح في جوهره؛ وعبر الثقافات، وعبر الزمان والمكان. هذه الأفعال شريرة. ولا توجد أعذار للانخراط فيها. فتجريد إنسان آخر من إنسانيته، وإنزاله إلى مكانة الطفيليات، وتعذيبه أو ذبحه من دون أي اعتبار لبراءة أو إدانة فردية، من أجل تحويل الألم إلى فن، هو أمر خاطئ لا شك في ذلك.

ما الذي لا يسعني الشك فيه إذًا؟ حقيقة المعاناة. فليست هناك حجة تدحضها، ولا يستطيع العدميون تقويضها بالشك، ولا يستطيع الشموليون نفيها أو إقصاءها، ولا يستطيع السوداويون الهروب من واقعها. المعاناة حقيقيّة، وإنزال المعاناة بخبث بشخص آخر، فقط من أجل المعاناة ذاتها، أمر خاطئ. أصبح هذا هو أساس اعتقادي. ومن خلال البحث في أدنى مستويات الفكر والفعل الإنساني، وإدراك قدرتي على التصرّف مثل حارس سجن نازي، أو حارس معتقل روسي، أو تعذيب الأطفال في زنزانة، أدركت ما يعنيه «أن يحمل المرء خطايا العالم على عاتقه». إن كل إنسان لديه قدرة هائلة على الشر، وكل إنسان -وتلك حقيقة بديهية- قد لا يدرك ما هو خير، ولكنه بالتأكيد يدرك ما هو ليس خيرًا. وإذا كان هناك شيء ليس خيرًا، فهناك إذًا ما هو خير. وإذا كانت أسوأ خطيئة هي تعذيب الآخرين، فقط من أجل المعاناة؛ فإن الخير هو أي شيء يعارض ذلك تمامًا. الخير هو أيّ شيء يمنع حدوث مثل هذه الأشياء.

المعنى بوصفه الخير الأسمى

استخلصت من هذا استنتاجاتي الأخلاقية الأساسية: ليكن هدفك هو السموّ. وانتبه للآخرين. أصلح ما يمكنك إصلاحه. لا تغترّ بمعرفتك. اسعَ جاهدًا للتواضع، لأن الكبرياء الاستبدادي يتجلّى في التعصب، والقمع، والتعذيب، والموت. كن مدركًا لمواطن قصورك؛ جبنك، وحقدك، وغضبك، وكراهيتك. فكر في أخطاء روحك قبل أن تتجرّأ على اتهام الآخرين، وقبل أن تحاول إصلاح نسيج العالم. ربما لم يكن العالم هو المخطئ؛ ربما كنت أنت المخطئ. لقد فشلت في ترك بصمتك، وأخطأت الهدف. لقد عجزت عن إدراك المجد الإلهي؛ وارتكبت المعاصي. وكل ذلك يمثّل إسهامك الشخصي في فساد العلم وشرّه. وقبل كل شيء، لا تكذب؛ لا تكذب بشأن أي شيء على الإطلاق؛ فالكذب هو السبيل إلى الجحيم. لقد كانت الأكاذيب الكبيرة والصغيرة للدول النازية والشيوعية هي التي أودت بحياة الملايين من الناس.

اعلم إذًا أن تخفيف الألم والمعاناة غير الضروريَّين عمل طيّب. لذا، اجعل القاعدة التالية إحدى قواعد حياتك: سأتصرّف بطريقة تؤدّي إلى تخفيف الألم والمعاناة غير الضروريين بقدر ما أستطيع. لقد رسخت الآن في قمة

تسلسلك الهرمي الأخلاقي مجموعة من المسلمات والأفعال التي تهدف إلى تحسين الكينونة. لماذا؟ لأننا نعرف البديل؛ فقد كان البديل هو القرن العشرين. كان البديل شديد الشبه بالجحيم إلى درجة أن الفارق لا يستحقّ المناقشة. ونقيض الجحيم هو الجنّة. ووضع مبدأ تخفيف الألم والمعاناة غير الضروريَّين في ذروة تسلسلك الهرمي للقيمة يعني العمل على تحقيق ملكوت الله على الأرض. وتلك مملكة، وحالة ذهنية، في الوقت نفسه.

لاحظ يونج أن بناء مثل هذا التسلسل الهرمي الأخلاقي أمر حتمي؛ على الرغم من أنه قد يحدث على نحو سيّئ ومتناقض ذاتيًا. وفي رأي يونج، فإن أيًّا كان ما يوجد في قمة التسلسل الهرمي الأخلاقي للفرد يمثل –من كافة النواحي– القيمة المطلقة لهذا الشخص؛ أو إله ذلك الشخص ومعبوده. إنه ما يجسِّده هذا الشخص؛ وأعمق ما يؤمن به. إن الشيء المجسَّد واقعيًا وعمليًا ليس مجرّد حقيقة، أو حتى مجموعة من الحقائق؛ بل إنه الشخصية، أو اختيار بين شخصيتين متناقضتين، إن شئنا مزيدًا من الدقة. إنه الاختيار بين شيرلوك هولمز أو بروفيسور موريارتي؛ بين باتمان أو الجوكر؛ سوبرمان أو ليكس لوثر؛ تشارلز فرانسيس إكزافيير أو ماجنيتو؛ ثور أو لوكي؛ هابيل أو قابيل؛ المسيح أو الشيطان. فإذا كانت الشخصية تعمل من أجل الارتقاء

بالوجود، ومن أجل تأسيس الفردوس، فهي شخصيّة المسيح. وإذا كانت تعمل من أجل تدمير الوجود، ومن أجل توليد ونشر المعاناة والألم غير الضروريين، فهي شخصيّة الشيطان. تلك هي الحقيقة الأصلية التي لا مفرّ منها.

النفعية هي اتباع دافع أعمى. إنها المكسب قصير الأجل، وهي تتّسم بالضيق والأنانية، والكذب من أجل تحقيق أهدافها، ولا تضع شيئًا في الاعتبار، وتعبّر عن عدم النضج وعدم المسؤولية. وأما المعنى فهو بديلها الناضج. ويظهر المعنى عندما تنتظم الدوافع، وتُرتَّب، وتتّحد. ينشأ المعنى من التفاعل بين احتمالات العالم وهيكل القيم الذي يعمل داخل هذا العالم. إذا كان هيكل القيم يهدف إلى تحسين الكينونة، فإن المعنى المنبثق سيعمل على استدامة الحياة؛ وسيوفّر ترياقًا للفوضى والمعاناة، وسيجعل كل شيء مهمًا، وسيجعل كل شيء أفضل.

إذا كنت تتصرّف على نحو سليم، فإن أفعالك تسمح لك بأن تكون مكتملًا نفسيًا، الآن، وغدًا، وفي المستقبل، بينما تفيد نفسك، وعائلتك،

والعالم الأكبر من حولك. سينتظم كل شيء في صف واحد متّسق، وستتوحّد كل الأشياء معًا، وهذا سيُنتج المعنى الأكبر والأسمى. وهذا الانتظام يمثّل موضعًا في المكان والزمان يمكننا اكتشافه من خلال قدرتنا على الشعور بما هو أكثر مما يتكشّف أمامنا ببساطة في الزمان والمكان من خلال حواسنا فحسب، فالحواسّ مقيّدة بوضوح بقدرتها على جمع المعلومات وتمثيلها. المعنى يعلو على النفعية؛ والمعنى يرضي جميع الدوافع، الآن وإلى الأبد. ولهذا السبب يمكننا اكتشافه.

إذا آمنت أن استياءك من الوجود ليس مبرَّرًا، على الرغم من الظلم والألم فيه، فربما تبدأ في رؤية أشياء يمكنك إصلاحها لتقليل الألم والمعاناة غير الضروريين، ولو بقدر ضئيل. وربما تسأل نفسك: «ماذا يجب أن أفعل اليوم؟»؛ بطريقة تعني: «كيف يمكنني أن أستغلّ وقتي لتحسين الأمور، بدلًا من زيادتها سوءًا؟». وقد تكون المهمات المطلوب منك إنجازها في صورة كومة من أوراق العمل التي لم تنته منها والتي يمكنك أن توليها انتباهك، أو الغرفة التي يمكنك أن تجعلها أكثر بهجة، أو الوجبة التي يمكن أن تكون لذيذة أكثر قليلًا لتستمتع بها عائلتك.

قد تجد أنه إذا التزمت بهذه الالتزامات الأخلاقية، بمجرد أن تضع قيمة «جعل العالم أفضل» في قمة التسلسل الهرمي للقيَم، فإنك ستشعر بمعنى يزداد عمقًا كل يوم. المعنى ليس نعمة، وليس سعادة؛ بل هو شيء يشبه التكفير عن الحقيقة الآثمة لكينونتك الممزّقة والمتهدّمة. إنه سداد الدين الذي تدين به مقابل معجزة وجودك المذهلة وغير المعقولة. إنه طريقة تَذَكُّرك لمحرقة الهولوكوست. إنه طريقة علاجك لأمراض التاريخ، واضطلاعك بمسؤولية كونك أحد سكان الجحيم المحتمَلين. إنه الرغبة في أن تكون ملاكًا في الفردوس.

النفعيّة هي إخفاء جميع أسرارك المخزية؛ وهي تغطية الدماء التي أرَقتها للتو بغطاء؛ وهي تجنّب المسؤولية. النفعيّة هي الجبن، والسطحية، والخطيئة؛ وهي خطيئة لأن النفعية المجرَّدة، المتكرِّرة مرات عدة، تُنتج شخصيّة الشيطان، وهي خطيئة لأنها تنقل اللعنة من رأسك إلى شخص آخر، أو إلى ذاتك المستقبليّة، بطريقة ستجعل مستقبلك –والمستقبل كله بوجه عام– أسوأ وليس أفضل.

ليس ثمة إيمان، ولا شجاعة، ولا تضحية، في فعل ما هو نفعيّ. وليس ثمّة ملاحظة دقيقة بأن الأفعال والافتراضات مهمّة، أو أن العالم مصنوع مما هو مهمّ. ولأن يكون ثمة معنًى في حياتك أفضل من أن تنال ما تريد، لأنك قد لا تعرف ما تريده ولا ما تحتاجه حقًّا. المعنى هو الشيء الذي يأتيك فجأة، من تلقاء نفسه. يمكنك إعداد الظروف المناسبة مسبقًا، ويمكنك اتباع المعنى، عندما يتجلّى أمامك، ولكن لا يمكنك ببساطة أن تولده بإرداتك. المعنى يدل على أنك في المكان المناسب، في الوقت المناسب، وفي حالة توازن مناسب بين النظام والفوضى، حيث يصطفّ كلّ شيء وينتظم بأفضل صورة ممكنة في تلك اللحظة.

ما هو نفعي يفلح فقط في الوقت الراهن؛ فهو آنيّ، وعفويّ، ومقيّد. وعلى النقيض من ذلك، فإن المعنى هو تنظيم ما يمكن أن يكون مجرّد أفعال نفعية في سيمفونية للكينونة. المعنى هو ما يتجلّى من لحن بيتهوفن لقصيدة «إلى السعادة» بقوّة أكبر مما تعبّر عنه الكلمات، وهو الميلاد البديع لنمط جميل من رحم أنماط عقيمة، حيث تعزف كل آلة مقطوعتها، وتتوّج ذلك

كلّه أصوات منضبطة، تعبّر عن النطاق الكامل للمشاعر الإنسانية، من اليأس إلى البهجة.

المعنى هو ما يتجلّى عندما تكون مستويات الكينونة المتعدِّدة مرتّبة في انسجام وظيفيٍّ تامٍّ، من العالم الذرّي الصغير إلى الخليّة، إلى العضو، إلى الإنسان الفرد، إلى المجتمع، إلى الطبيعة، إلى الكون بأسره، حيث يعمل الفعل في كل مستوى بمثاليّة وجمال على تسهيل الفعل في جميع المستويات، وكأن الماضي، والحاضر، والمستقبل، قد جُمِعَت معًا وتوافقت. المعنى هو ما ينبثق على نحو جميل وعميق مثل بُرعم وردة تشكّل حديثًا وتفتح من العدم لنور الشمس والربّ. المعنى هو زهرة لوتس تجاهد للصعود من أعماق بحيرة مظلمة وعبر المياه الصافية دائمًا لتتفتّح على السطح، كاشفة بداخلها عن بوذا الذهبي، الكامل تمامًا بذاته، إلى درجة أن الإرادة الإلهية يمكن أن تكشف عن نفسها في كل كلماته وإيماءاته.

ينبثق المعنى عندما يجتمع كلّ شيء في رقصة صوفية منتشية لها هدف واحد هو تمجيد الواقع بحيث إنه مهما كان رائعًا، يمكن أن يصبح أفضل،

وأفضل، وأكثر عمقًا إلى الأبد في المستقبل. ينبثق المعنى عندما تصبح الرقصة ذات قوة هائلة إلى درجة تصبح معها كل أهوال الماضي، وكلّ الكفاح الرّهيب الذي تنخرط فيه الحياة والأحياء، والبشرية جمعاء، حتى هذه اللحظة، جزءًا ضروريًا وجديرًا بالتقدير من المحاولة متزايدة النجاح لبناء شيءٍ «عظيمٍ» و«طيّبٍ» بحقّ.

المعنى هو التوازن النهائي بين فوضى التحوّلات والاحتمالات من ناحية، وانضباط النظام الأصلي القديم من ناحية أخرى، والذي يهدف إلى إنتاج نظام جديد أكثر نقاءً من رحم الفوضى الحاضرة الحالية، وأكثر قدرة على إنتاج فوضى ونظام أكثر توازنًا وأفضل ثمرة. المعنى هو «الطريق»، ومسار الحياة الأكثر ثراءً، والمكان الذي تعيش فيه عندما يرشدك «الحبّ» وتقول «الصدق»، وعندما يأخذ هذا الأولوية المطلقة على أيِّ شيءٍ تريده – أو شيءٍ قد تريده.

افعل ما هو ذا معنى، وليس ما هو نفعيّ.

القاعدة 8
تحرَّ الصدق أو على الأقل لا تكذب

الصدق في عالم بلا قواعد

لقد تلقّيت تعليمي لأصبح معالجًا نفسيًا سريريًا بجامعة ماكجيل في مونتريال. في هذه الفترة، كنت ألتقي زملائي أحيانًا في مستشفى دوجلاس هوسبيتال بمونتريال، حيث كان أول اتصال مباشر لنا بالمرضى العقليين. بُنِيَ مستشفى دوجلاس هوسبيتال على مساحة عدّة فدادين، ويضم عشرات المباني التي تتّصل ببعضها البعض عن طريق أنفاق تحت الأرض لحماية العاملين والمرضى في أيام الشتاء الطويلة في مونتريال. ذات مرة، كان المستشفى يؤوي مئات المرضى المقيمين لفترات طويلة. كان هذا قبل أن تظهر العقاقير المضادّة للذِّهان وحركات إلغاء الرعاية المؤسّسيّة التي انتشرت على نطاق واسع في أواخر ستينيات القرن الماضي، حيث أُغْلِقت جميع المصحّات العقليّة السكنيّة التي كانت تؤوي المرضى إلا قليلًا منها، لينتهي المطاف، بمعظم المرضى «المسرّحين» من هذه الدُّوْر بالتسكّع في الطرقات وخوض حياة أكثر بؤسًا وصعوبةً. وبحلول الثمانينيات، في الوقت

الذي زرت فيه المستشفى للمرة الأولى، كان جميع المرضى المقيمين بالمستشفى قد خرجوا منها باستثناء أولئك الذين يعانون أمراضًا شديدة خطورة. وكان أولئك الذين ظلّوا بالمستشفى أكثر المرضى تضرّرًا ومعاناةً. كانوا يتصرّفون بطريقة غريبة ويلتفون حول ماكينات البيع المنتشرة في أنفاق المستشفى، ويتصرّفون كما لو أن ديان أربوس(53) على وشك أن تلتقط لهم صورة، أو أن هيرونيموس بوش(54) سيرسم لهم لوحة فنية.

وذات يوم، بينما كنا نصطف أنا وزملائي في انتظار تلقّي بعض التعليمات من الطبيب النفسي الألماني المتحفِّظ الذي كان مسؤولًا عن إدارة برنامج التدريب السريري بمستشفى دوجلاس هوسبيتال، اقتربت إحدى المريضات المقيمات في المستشفى إقامة طويلة، وقد بدا عليها آثار الضعف والوهن، من إحدى الطالبات، وكانت امرأة شابة متحفِّظة قليلة الخبرة، وتحدّثت إليها حديثًا ودّيًّا بطريقة طفولية، وسألت زميلتي: «لماذا تقفون هنا كلّكم؟ ماذا تفعلون؟ هل يمكنني مرافقتكم؟»؛ فالتفتت إليَّ زميلتي وسألتني بحيرة وهي لا تدري ماذا تفعل: «ماذا أجيبها؟»، وقد بدت وجِلة من هذا الطلب الذي جاء من شخص وحيد ومتألِّم، وكذلك كان حالي. لم يرغب أيٌّ منا في أن يقول أيَّ شيء قد يُفسَّر على أنه رفض أو توبيخ.

كنا بذلك قد دخلنا أرضًا محرّمة؛ حيث لا يقدِّم المجتمع قواعد أو إرشادات حول كيفيّة التعامل. كنا وقتها لا نزال طلّابًا حديثي العهد بالطبِّ السريري، ولم نكن على استعدادٍ بعد لمواجهة مريضةٍ بالفصام مقيمة في مستشفى للأمراض العقلية تسأل سؤالًا وديًّا ساذجًا عن إمكانيّة الانتماء الجماعي. غير أن هذا الموقف كان يفتقر أيضًا لإمكانيّة الأخذ والعطاء السائدة في المحادثات الطبيعيّة التي تدور بين أناس مدركين للإشارات السياقيّة. فما هي القواعد الملائمة تحديدًا في مثل هذه المواقف، بعيدًا عن حدود التفاعل الاجتماعي؟ ماذا كانت الخيارات المتاحة بالضبط؟

لم أجد إلا خيارين لاحا سريعًا أمامي: يمكنني أن أخبر المريضة قصّة مختلقة لحفظ ماء وجه الجميع، أو أن أصدِقَها القول. فعبارة مثل «لا يمكن أن تزيد مجموعتنا على ثمانية أفراد» تندرج ضمن الخيار الأول، ومثلها عبارة «نحن على وشك مغادرة المستشفى الآن». وما كان لأيٍّ من هاتين العبارتين أن تجرح مشاعرها -ظاهريًا على الأقل- كما أنها لا تحمل أيّ

إشارة إلى الفارق في المكانة بيننا وبينها، لكنَّ الإجابتين ليستا صادقتَيْن؛ لذا لم ألجأ لأي منهما.

أخبرت المريضة ببساطة ووضوحِ، قدر ما استطعت، أننا طلبة جدد نتلقّى تدريبًا لنصبح أطباء أمراض نفسية؛ ولهذا السبب لا يمكنها مرافقتنا. سلّطت هذه الإجابة الضوء على الفارق بيننا، فاتسعت الفجوة بيننا وباتت أكثر وضوحًا. وعلى الرغم من أن وقع الإجابة كان أكثر قسوةً إذا ما قورن بكذبة بيضاء حيكت ببراعة، إلا أنني كنت أعرف أن الكذب، ولو بِنيَّة حسنة، قد يكون له عواقب سيّئة غير مقصودة. بدت عليها خيبة الأمل، لكن للحظةٍ واحدةٍ فحسب، ثم تفهّمت الأمر وأصبح كلُّ شيءٍ على ما يرام. وهذا بالضبط ما حدث.

مررت بعدة تجارب غريبة قبل بضعة أعوام من بداية تدريبي السريري(148). وجدت نفسي عرضةً لدوافع قهرية قويّة (لم أتصرّف وفق أيٍّ منها)، وبالتالي تشكّلت لديَّ قناعةٌ بأنني لا أعرف إلا القليل عن كنه ذاتي وما أريده. لذا بدأت أنتبه عن كثب لما كنت أفعله؛ وأقوله. وأقل ما

يُقال عن هذه التجربة أنها كانت مربكة؛ فسرعان ما وجدتني وقد أصبحت شخصين: أحدهما يتحدّث، والآخر أكثر استقلالًا وحياديةً، يركّز، وينتبه، ويُصدِرِ الأحكام. وسرعان ما أدركت أنَّ كلَّ ما كنت أقوله تقريبًا كان يجافي الحقيقة. وكانت لديَّ دوافع وراء قولي هذه الأكاذيب: فقد رغبت في أن أفوز في المجادلات، وأن أحظى بمكانة مرموقة، وأن أثير إعجاب الناس، وأنال ما أريد. كنت أستخدم اللغة لتطويع العالم من حولي لتحقيق ما كنت أظنّه ضروريًا؛ لكنني كنت مزيَّفًا ومخادعًا. وعندما أدركت ذلك، بدأت التدريب على أن أقتصر في حديثي على قول الأشياء التي لا يعترض عليها ذلك الصوت الداخلي. بدأت التدريب على قول الصدق؛ أو على الأقل، الامتناع عن الكذب. وسرعان ما أدركت أن هذه المهارة أفادتني كثيرًا في الأوقات التي لم أعرف فيها ماذا أفعل. ماذا يجب أن تفعل حين لا تعلم ماذا تفعل؟ تحرَّ الصدق. وقد كان هذا ما فعلته في يومي الأول في دوجلاس هوسبيتال.

في وقت لاحق، كان لديَّ مريضٌ يعاني من جنون الارتياب(55) ويتّسم سلوكه بالخطورة. والعمل مع الأشخاص المصابين بجنون الارتياب يتّسم بالصعوبة؛ إذ يعتقد أولئك الأشخاص أنَّ ثمة قوى غامضة تتآمر عليهم من

وراء الستار. ويعاني مرضى جنون الارتياب من فرط التأهّب والتركيز، ويهتمون بالإيماءات غير اللفظية بانتباه لا يظهر قط أثناء التفاعلات الإنسانية العادية. وعلى الرغم من أنهم قد يسيئون التفسير (وهذا هو جنون الارتياب)، فإن لديهم قدرات استثنائية شبه خارقة على اكتشاف الدوافع المختلطة، والنقد، والكذب. لذا يجب أن تنصت بعناية وتتحرّى الصدق إذا كنت تريد من شخص مريض بجنون الارتياب أن يفتح لك قلبه ويحكي عما بداخله.

أنصتُّ إلى مريضي باهتمام وتحدّثت معه حديثًا صادقًا، وكان يروي لي، بين الحين والآخر، خيالات وأوهامًا مفزعة عن إنزال عقاب شديد بأشخاص انتقامًا منهم. كنت أراقب ردود أفعالي، وأنتبه للأفكار والتصوّرات التي كانت تطرأ على مخيّلتي أثناء حديثه، وأخبرته بملاحظاتي. لم أكن أحاول السيطرة على أفكاره أو تصرّفاته أو توجيهها (أو حتى أفكاري أو تصرّفاتي أنا). كنت فقط أحاول إخباره بأكبر قدر ممكن من الصراحة والشفافية كيف كانت أفعاله تؤثّر تأثيرًا مباشرًا على شخص واحد على الأقل؛ وهو أنا. لم يكن اهتمامي الصادق به وصراحتي معه تعنيان مطلقًا أنني لم أكن مضطربًا، ناهيك عن قبول ما كان يقوله. كنت أخبره حين كان يخيفني

(وهو ما حدث كثيرًا) أنه مخطئ في كلماته وسلوكه، وأنه سيوقع نفسه في متاعب كبيرة.

إلا أنه تحدّث إليَّ لأنني أنصتُّ إليه وحدّثته بصدقٍ، على الرغم من أن ردودي لم تكن مشجّعة له. لقد وثق بي برغم (أو بالأحرى، بسبب) معارضتي له. لقد كان مصابًا بجنون الارتياب ولم يكن غبيًّا. كان يعلم أن سلوكه غير مقبول اجتماعيًّا، ويدرك أنَّ أيَّ شخصٍ يتحلّى باللياقة سيفزع على الأرجح عند سماع أوهامه وخيالاته الجنونية. لقد وثق بي وتحدّث إليَّ نتيجة رد فعلي معه. ولم يكن ثمة سبيل لفهمه من دون هذه الثقة.

بدأت المشكلة التي واجهها هذا المريض في بيئة بيروقراطية، مثل المصارف. فقد كان يدخل إلى إحدى هذه المؤسسات محاولًا إنجاز مهمة بسيطة؛ مثل طلب فتح حساب، أو سداد فاتورة، أو إصلاح خطأ ما. وبين الحين والآخر، كان يصادف ذلك الشخص غير المتعاون، الذي قد يقابله أيٌّ منا من حين لآخر في مكان كهذا. يرفض هذا الشخص بطاقة الهوية التي يقدّمها له، أو يطالبه ببعض المعلومات التي قد لا تكون ضرورية

ويصعب الحصول عليها. أعتقد بأن الإجراءات البيروقراطية أمر لا مفر منه في بعض الأحيان؛ إلا أنها قد تصبح أكثر تعقيدًا من دون داعٍ نتيجة حالات سوء استخدام السلطة البيروقراطية. وقد اعتاد مريضي هذا على مثل هذه الأمور؛ وكان مهووسًا بفكرة الشرف، الذي كان، بالنسبة إليه، أكثر أهمّية من السلامة، أو الحرّية، أو الانتماء. واستنادًا إلى هذا المنطق (لأن مرضى جنون الارتياب منطقيون للغاية) فإنه ما كان ليسمح لأي شخصٍ بأن يهينه، أو يسيء إليه، أو يحطّ من قدره، ولو قليلًا، ولا يمكنه تجاهل ما قد يعكِّر صفوه. وقد أدى سلوك مريضي المتعنِّت والمتشدِّد إلى إصدار عدة إجراءات تقييدية بحقّه. غير أن الإجراءات التقييديّة عادةً تأتي بأفضل النتائج مع الأشخاص الذين لا يحتاجون إلى إصدارها مطلقًا.

كانت عبارته المفضَّلة في مثل هذه المواقف هي: « سأكون أسوأ كوابيسك». وقد تمنّيت بشدّة، عقب مواجهة بعض العقبات البيروقراطية غير الضرورية، لو كان بوسعي قول مثل هذه العبارة، لكن من الأفضل بوجه عام تجاهل مثل هذه الأمور وتركها تمرّ. لكن مريضي كان يعني ما يقوله، بل كان يصبح كابوس أحدهم بالفعل في بعض الأحيان. كان بمثابة الشرير في رواية « العجائز لا وطن لهم» **No Country for Old Men**.

كان هو الشخص الذي تلتقيه في المكان غير المناسب وفي الوقت غير المناسب. فإذا ما عبثت معه مغضبًا إياه -ولو عن غير قصد- فسيلاحقك، وسيذكِّرك بما فعلته، وسيحرص على إزعاجك وإخافتك. لم يكن من نوع الأشخاص الذين يمكن أن تكذب عليهم. أما أنا فقد كنت صادقًا معه، وهذا ما كان يجعله هادئًا مطمئنًا.

صاحب العقار

كنت أقيم في عقار يملكه زعيم عصابة سابق لمجموعة من راكبي الدرّاجات الناريّة. جاورته أنا وزوجتي، تامي، في مبنًى سكنيٍّ صغير يملكه والداه. كانت لديه صديقة تظهر عليها ندبات وآثار لجروح ألحقتها بنفسها عمدًا، وهي إحدى سمات اضطراب الشخصيّة الحدّية؛ وقد انتحرت هذه الفتاة في الفترة التي كنا نقيم فيها هناك.

كان دينيس رجلًا ضخم الجثة، قويّ البنية، كنديٌّ من أصل فرنسيٍّ، ذا لحية فاتحة، وكان كهربائيًّا هاويًا موهوبًا. وكان صاحب موهبة فنّية أيضًا، وقد اعتاد كسب قوته من صنع لوحات خشبيّة مزوّدة بمصابيح نيون مصمّمة بالطلب. كان دينيس يحاول الامتناع عن الشراب بعد خروجه من السجن، لكنّه ظلّ يختفي لأيامٍ، كل شهر تقريبًا، يسرف خلالها في الشراب. كانت لديه قدرة مذهلة على تناول الكحوليات؛ إذ كان بوسعه أن يتناول خمسين أو ستين زجاجة بيرة في يومين يفرط خلالهما في الشراب إلى حدِّ الثمالة، ويظلّ مع ذلك واقفًا طوال هذا الوقت. قد يبدو من الصعب تصديق هذا، إلا أنه صحيح. لقد كنت أجري بحثًا عن إدمان الكحوليات على مستوى العائلات في ذلك الوقت، وكان بعض الخاضعين للدراسة يشيرون إلى اعتياد آبائهم على استهلاك الفودكا يوميًا. كان هؤلاء الآباء يشترون زجاجة فودكا بعد ظهيرة كل يوم من الاثنين إلى الجمعة، ويشترون زجاجتين يوم السبت ليتدبّروا أمرهم في فترة إغلاق متاجر الخمور أيام الآحاد.

كان لدى دينيس جروٌ صغيرٌ، وكنت أسمع أنا وتامي صوته أحيانًا برفقة دينيس في الباحة الخلفية للمبنى في الرابعة صباحًا –أثناء جلسات الشراب الماراثونية لدينيس– وهما يعويان ويصيحان بجنون. وقد اعتاد دينيس في

مناسبات كهذه، وبين الحين والآخر، أن يشرب حتى آخر سنت ادّخره، ثم كان يأتي إلى شقتنا في المساء طارقًا بابنا وهو يترنّح برعونة، إلا أنه يقف على قدميه واعيًا مدركًا لما يفعله على نحو مذهل لا يكاد يُصدَّق.

كان يقف أمام الباب حاملًا بين يديه محمصة خبز، أو مايكروويف، أو لوحة، محاولًا أن يبيعني هذه الأغراض حتى يتسنّى له مواصلة الشراب. اشتريت منه بضعة أغراض كهذه، متظاهرًا بالسخاء والكرم. غير أن تامي أقنعتني في نهاية المطاف أنه لم يعد بوسعي شراء المزيد. كان ذلك يصيبها بالتوتر ويثير حفيظتها تجاه دينيس، الذي كانت تكنّ له مشاعر طيبة. وعلى الرغم من أن طلبها كان منطقيًا –بل وضروريًا– إلا أنه وضعني في موقفٍ حرجٍ.

ماذا عساك تقول لرئيس عصابة سابق لمجموعة من راكبي الدراجات النارية معروف بميله للعنف يقف ثملًا مخمورًا أمام باب شقتك المفتوح متحدِّثًا بلغة إنجليزية ركيكة محاولًا بيعك جهاز المايكروويف الذي يملكه في الساعة الثانية صباحًا؟ كان هذا السؤال أكثر صعوبةً من أسئلة المريضة

المقيمة بالمصحّة العقليّة ومريض جنون الارتياب المثير للفزع. غير أن الإجابة كانت واحدة: قول الصدق. لكن من الأفضل لك أن تعرف جيّدًا ما هو القول الصدق.

طرق دينيس بابنا مجدّدًا بعد حديثي أنا وزوجتي بهذا الشأن، ونظر إليَّ تلك النظرة المرتابة المباشرة من عينين ضيقتين تميزان الشخص القاسي صعب المراس الذي أفرط في الشرب وأصبح على استعداد تام لإثارة المتاعب. وتلك النظرة تقول: «أثبت براءتك». وقف أمامي مترنِّحًا بعض الشيء وسألني بأدب ما إذا كنت أرغب في شراء محمصة الخبز التي يملكها. حرّرت نفسي تمامًا حتى النخاع من أي دوافع حيوانية للهيمنة والتفوّق الأخلاقي، وأخبرته بأكبر قدر ممكن من الصراحة والحذر أنه لا يسعني شراءها. لم أكن أمارس أي لعبة. لم أكن في هذه اللحظة ذاك الشاب المثقّف، الواعد، سعيد الحظ، الذي يجيد الإنجليزية، ولم يكن هو راكب الدراجات النارية الكيبيكي الذي خرج من السجن ومستوى الكحول في دمه مرتفع للغاية. كلا. بل كنا رجلين يحاولان بنِيَّة طيبة مساعدة أحدهما الآخر في صراعنا المشترك لفعل ما هو صائب. قلت له إنه سبق وأن أخبرني أنه يسعى للإقلاع عن الشراب، وقلت إن إعطاءه المزيد من

المال ليس في صالحه، وقلت إن مجيئه إلينا ثملًا في هذا الوقت المتأخر من الليل لبيعي بعض الأغراض يصيب تامي -التي لطالما كان يحترمها- بالتوتّر والعصبيّة.

حدّق دينيس في عينيَّ، ونظر إليَّ نظرة جادة من دون أن ينبس ببنت شفة لنحو خمس عشرة ثانية. وكانت هذه مدة طويلة بما يكفي ليرى. كنت أعرف أنه يراقب ليرى أي تعبير بسيط يدل على أنني أسخر منه، أو أخدعه، أو أزدريه، أو أشعر بالفخر والرضا عن تصرّفي. إلا أنني كنت قد فكّرت مليًا وبحذر في هذا الأمر، ولم أقل إلا ما كنت أعنيه حقًا. كنت قد اخترت كلماتي بعناية وحذر لاجتياز موقف خطير أتحسّس فيه الخطى لكي لا أتعثّر. ثم استدار دينيس ورحل. وليس هذا فحسب، بل إنه تذكّر حديثنا على الرغم من حالة الثمالة الشديدة التي كان فيها آنذاك، ولم يحاول مجدّدًا أن يبيعني أي شيء. أما علاقتنا، التي كانت جيّدة جدًّا بالنظر إلى الفروق الثقافية الهائلة بيننا، فقد توطّدت وأصبحت أكثر قوةً.

إن اختيار الطريق السهل للخروج من موقف ما أو تحرّي الصدق ليسا خيارين مختلفين فحسب، بل هما مساران منفصلان ومتمايزان في الحياة؛ إنهما سبيلان مختلفان تمامًا لعيش الحياة.

خداعُ العالم

يمكنك استخدام الكلمات لتطويع العالم من حولك لنيل ما تريد؛ وهذا هو ما يعنيه «التصرف بسياسة». هذا هو اللف والدوران؛ وهذا هو تخصّص المسوِّقين، والباعة، والمعلنين عديمي الضمير، وفنّاني الإغواء، والمثاليين المهووسين بالشعارات، والمضطربين عقليًا، وهو الحديث الذي يلجأ إليه بعض الناس عند محاولتهم التأثير على الآخرين أو التلاعب بهم واستغلالهم. هذا ما يفعله الطلاب الجامعيون حين يكتبون مقالًا لإرضاء أساتذتهم، بدلًا من التعبير عن أفكارهم وتوضيحها. وما يفعله كل شخص منا عندما يرغب في شيء ما، فيقرّر أن يظهر غير ما يبطنه لإرضاء الآخرين وتملّقهم. هذا هو تدبير المكائد، ورفع الشعارات، والدعاية. إن عيش الحياة بهذه الطريقة يعني أن يصبح المرء مهووسًا ببعض الرغبات السقيمة، ثم يصوغ حديثه ويقوم

بأفعاله بطريقة تحقّق له غايته على نحو منطقي. وقد تتضمّن الغايات المدروسة عادةً: «فرض معتقداتي الفكرية»، أو «إثبات أنني على صواب (أو كنت على صواب)»، أو «إظهار أنني كفؤ»، أو «الارتقاء في التدرّج الهرمي للسيادة»، أو «تجنّب المسؤولية» (أو نظير ذلك «نسب الفضل لنفسي عن أعمال قام بها آخرون»)، أو «الحصول على ترقية»، أو «الحصول على أكبر قدر ممكن من الاهتمام»، أو «نيل رضا الجميع»، أو «نيل فوائد لعب دور الضحية»، أو «تبرير نزعتي التشاؤمية»، أو «تعليل نظرتي المعادية للمجتمع»، أو «تسوية نزاع حالي»، أو «الحفاظ على سذاجتي»، أو «الاستفادة من ضعفي»، أو «الظهور دائمًا بمظهر القديس»، أو «إلصاق الخطأ دائمًا بطفلي الذي لا أحبه» (وتلك غاية آثمة للغاية). وكل هذه أمثلة على ما أطلق عليه عالم النفس النمساوي ألفرد أدلر -زميل سيجموند فرويد وابن بلده- اسم «أكاذيب الحياة»(**149**).

والشخص الذي يعيش إحدى أكاذيب الحياة هو شخص يحاول التلاعب بالواقع بواسطة الخيال، والأفكار، والأفعال؛ بحيث يحقّق بعض النتائج المرغوبة والمحدَّدة سلفًا. ويستند هذا الأسلوب في الحياة -بوعيٍ أو بغيرِ وعيٍ- على فرضيتين أساسيتين؛ أولاهما هي أن المعرفة الحاليّة كافية

لتحديد ما هو خير في المستقبل البعيد، من دون أدنى شك؛ والثانية هي أن الحقيقة لا يمكن تحمّلها إذا ما تُركت لتجري في مجراها من دون تدخّل. الفرضية الأولى لا يمكن تبريرها فلسفيًّا؛ فما تطمح إليه في الوقت الحالي قد لا يكون جديرًا بمحاولة السعي لتحقيقه، تمامًا كما أن ما تفعله في الوقت الحالي قد يكون خاطئًا. أما الفرضية الثانية فهي أسوأ وأكثر ضلالًا؛ فهي لا تصحّ إلا إذا كانت الحقيقة لا تُطاق في حدِّ ذاتها، وفي الوقت نفسه، يسهل التلاعب بها وتشويهها. وقد يحتاج مثل هذا الحديث والتفكير إلى الغرور واليقين، وهما الصفتان اللتان وصف بهما الشاعر الإنجليزي العبقري جون ميلتون الشيطان، أعلى الملائكة منزلة عند الله والذي ضلّ الطريق تمامًا. إن ملكة العقلانيّة تميل على نحو خطير نحو الكبر والغرور: ما أعرفه هو كل ما يراد معرفته. والكبر يقع في غرام صنائعه، ويحاول جعلها مطلقة.

لقد رأيت أناسًا يحدِّدون شكل عالمهم المثالي وصفته، ومن ثمَّ يجعلون حياتهم شديدة التعقيد لجعل هذا العالم المثالي حقيقة واقعية. فالطالب ذو الميول اليساريّة يتبنّى موقفًا عصريًا مناهضًا للسلطة، ثم يقضي العشرين عامًا التالية من عمره في سعيٍ حثيثٍ ساخطٍ لهزيمة طواحين الهواء القابعة في

مخيّلته. وتقرر فتاة في الثامنة عشرة من عمرها قرارًا اعتباطيًا بأنها تريد التقاعد في سن الثانية والخمسين؛ ومن ثمَّ تعمل جاهدة طوال ثلاثة عقود لتحقيق هذا الهدف، من دون أن تلاحظ أنها اتخذت هذا القرار حين تجاوزت للتو مرحلة الطفولة. فما الذي كانت تعرفه عن نفسها في سن الثانية والخمسين حين كانت بعدُ مراهقةً؟ وحتى في الوقت الراهن، بعد مرور سنوات عديدة، لا تزال لا تملك سوى فكرة ضبابية غائمة عن جنّة عدن التي تنتظرها بعد التقاعد. ولكنها تأبى أن تلاحظ وتدرك ذلك. وما المغزى من حياتها، إذا كان هذا الهدف المبدأي الذي أسست عليه حياتها خاطئًا؟ إنها تخشى فتح صندوق باندورا الذي تقبع بداخله جميع مشكلات هذا العالم. إلا أن الأمل يقبع بداخله أيضًا. ولكنها، بدلًا من ذلك، تطوّع حياتها لتلائم خيالات مراهقة تنقصها الخبرة.

ومع مرور الوقت، يصبح هذا الهدف الذي تمّ تحديده بسذاجة شكلًا آثمًا من أشكال أكاذيب الحياة. وقد أخبرني عميل في الأربعينات من عمره عن رؤية صاغها لنفسه وهو أصغر سنًا قائلًا: «أرى نفسي متقاعدًا، أجلس على أحد الشواطئ الاستوائية، وأشرب كؤوس المارجريتا تحت أشعّة الشمس». ليست هذه بخطة؛ بل هي صورة لملصق سياحي. فبعد تناول ثماني كؤوس

من المارجريتا، لن يتسنّى لك انتظار أيّ شيء سوى آلام ما بعد الشرب. وبعد مرور ثلاثة أسابيع من الإفراط في شرب المارجريتا -إن بقي لك شيء من عقل ولم تفقد صوابك- ستصبح شخصًا تعيسًا كارهًا لنفسه. وفي غضون عامٍ أو أقلّ، ستصبح شخصًا مثيرًا للشفقة تمامًا. ولا يمكن لهذا أن يكون نهجًا مستدامًا للحياة المستقبلية. وهذا النوع من التبسيط المفرط للحقائق وتزييفها يليق تمامًا بأصحاب الأيديولوجيات؛ فهؤلاء يتبنّون قاعدة بديهية واحدة فحسب، مثل: الحكومة فاسدة، الهجرة سيّئة، الرأسمالية بغيضة، المجتمع الأبوي فاسد. ومن ثمَّ يرشّحون وينتقون تجاربهم، ويصرّون إصرارًا ضيّق الأفق على إمكانيّة تفسير كلّ شيء على أساس تلك القاعدة البديهية. وهؤلاء يؤمنون إيمانًا نرجسيًا بأن العالم يمكن تصحيح مساره إذا آل إليهم زمام الأمور.

وثمة مشكلة جوهرية أخرى متعلّقة بأكاذيب الحياة، ولا سيما حينما تكون قائمة على تجنّب الفعل. فإثم إتيان الفعل يقع عندما تقدم على فعل شيء تعلم أنه خطأ؛ أما إثم التجنّب فيحدث عندما تسمح بوقوع خطأ ما كان بوسعك فعل شيء للحيلولة دون وقوعه. وعادةً ما يُنظر إلى النوع الأول على

أنه أشد فداحة من الثاني؛ أي من تجنّب الفعل. لا أتّفق كثيرًا مع هذا الرأي.

انظر حال فتاة تصرّ على أن كل شيء في حياتها على ما يرام. إنها تتجنّب الصراع، وتبتسم دائمًا، وتفعل ما يُطلب منها. تجد لنفسها كوة تختبئ فيها؛ فلا تتحدّى السلطة، ولا تسعى لعرض أفكارها، ولا تشكو حين تُساء معاملتها. تسعى لتكون غير مرئية، مثل سمكة تسبح وسط سرب غفير متدافع. لكن إحساسًا دفينًا مؤرقًا يعذّب قلبها. إنها لا تزال تعاني، لأن الحياة معاناة؛ وهي وحيدة، ومنعزلة، ولا تشعر بالإنجاز. غير أن خنوعها وطمس معالم شخصيتها قد جردا حياتها من أي معنى؛ فأضحت مثل العبيد، أداةٌ يستغلها الآخرون. إنها لا تحصل على ما تريده، أو ما تحتاج إليه، لأن ذلك سيحتِّم عليها التعبير عن رأيها. لذا فإن حياتها تفتقد أي شيء ذي قيمة يجعلها قادرة على تحمّل متاعب الحياة. وهذا يضنيها ويُسقمها.

قد يكون مثيرو المتاعب المزعجون هم أول من يختفي عندما يفشل النظام الذي تخدمه ويتقلّص، لكن الأشخاص غير المرئيين هم من يُضحّى بهم بعد

ذلك. فالشخص الذي يختبئ لا يضطلع بدور حيوي؛ والحيوية تتطلّب إسهامًا أصليًّا مبدعًا. والاختباء لا ينقذ أولئك الذين يذعنون ويتمسّكون بالتقاليد من المرض، والجنون، والموت، والضرائب. كما أن الاختباء يعني قمع المرء لقدراته الكامنة وكبتها. وتلك هي المشكلة.

إذا لم تكشف عن ذاتك للآخرين، فلن تستطيع أن تكشف عن ذاتك لذاتك؛ وهذا لا يعني فقط أنك تكبت ذاتك –وإن كان ذلك أحد معانيه– ولكنّه يعني أيضًا أن الكثير جدًّا مما كان يمكنك أن تكونه لن يتحقّق أبدًا. تلك حقيقة بيولوجية بقدر ما هي حقيقة مفاهيمية. فحين تقدم على الاستكشاف بجرأة، وتواجه المجهول طوعًا، فستجمع المعلومات وتبني ذاتًا جديدة تحيلك شخصًا آخر بفضل ما تعلّمته؛ وهذا هو العنصر المفاهيمي. غير أن الباحثين قد توصّلوا مؤخّرًا إلى أن جينات جديدة في النظام العصبي المركزي للكائنات الحيّة تُنَشِّط نفسها تلقائيًا عند تعرّض هذه الكائنات لموقف جديد (أو حين تضع نفسها في موقفٍ جديدٍ). وهذه الجينات تُشفّر بروتينات جديدة؛ وهذه البروتينات هي وحدات بناء لأنسجة جديدة في الدماغ. ويعني هذا أن جزءًا كبيرًا من ذاتك لا يزال في طور النمو، بمعنى ماديّ بحت، ولن يتأتّى ذلك النمو وأنت ساكن ثابت في مكانك. عليك أن تتحدّث، وتتحرّك، وتقوم بفعل أشياء جديدة حتى تنشط وتضيء بداخلك

جوانب جديدة. وإن لم تفعل... فستظلّ ذاتك غير مكتملة النضج، ولطالما كانت الحياة في غاية القسوة على أولئك الذين لم يكتمل نضجهم.

حين تقول لا لرئيسك، أو زوجك، أو أمّك، متى كان يجب عليك قولها، فإنك تحوّل ذاتك إلى شخص يمكنه أن يقول لا حينما يجب عليه قولها. أما إذا كنت تقول نعم في وقت كان ينبغي عليك أن تقول لا، فإنك تحوّل نفسك إلى شخص لا يمكنه إلا أن يقول نعم، حتى حين يكون من الواضح أن هذا هو الوقت الذي ينبغي لك أن تقول فيه لا. وإذا وجدت نفسك تتساءل يومًا كيف يمكن لأناس عاديين جدًّا ولطفاء أن ينتهي بهم الحال لأن يرتكبوا مثل تلك الفظائع الرهيبة التي ارتكبها حرّاس معسكرات الاعتقال السوفييتية، فقد أصبحت الآن تعلم الإجابة؛ ففي الوقت الذي كان ينبغي أن تُقال فيه كلمة لا بكل حزمٍ، لم يكن ثمة أحد متبقٍ ليقولها.

إذا خنت نفسك، وتحدّثت بالزور والبهتان، وجسّدت الأكاذيب، فإنك بذلك توهن شخصيتك؛ وإذا كانت شخصيتك واهنة، فستقضي عليك

الشدائد والمحن حين تظهر، وهي تظهر حتمًا. ستحاول الاختباء، لكن لن يكون ثمة مكان لتختبئ فيه؛ وحينها ستجد نفسك تفعل أشياء فظيعة.

وحدها أكثر النظريات الفلسفية تهكمًا وقنوطًا هي التي تصرّ على إمكانيّة تحسين الواقع من خلال الكذب والزيف. ومثل هذه الفلسفة تحكم على الكينونة والمصير معًا على حد سواء بأنهما فاسدان معيبان، وتُدين الصدق باعتباره غير كافٍ، وتتّهم الصادقين بأنهم مخدوعون مُضلَّلون. إنها فلسفة تصنع الفساد المستشري في أنحاء العالم وتبرّر وجوده.

هذه ليست رؤية، وليست خطّة وُضِعَت لتحقيق رؤية، هي رؤية خاطئة في ظل هذه الظروف. إن وجود رؤية للمستقبل، المستقبل المنشود، أمر ضروري؛ إذ تربط هذه الرؤية الأفعال التي نقوم بها الآن بقيَم أساسية مهمّة على المدى البعيد، وتضفي على هذه الأفعال –في الوقت الراهن– الأهمّية والقيمة. الرؤية تضع إطارًا يحدّ من القلق والشك وعدم اليقين.

إنها ليست رؤية، وإنما هي عمى متعمَّد. إنها أسوأ أنواع الكذب؛ فهي كذبة متقنة تستخدم المسوِّغات المنطقية السهلة. والعمى المتعمّد هو أن تأبى معرفة شيء يمكنك معرفته؛ وهو أن ترفض الإقرار بأن صوت الدق على الباب يعني وجود شخص ما على الباب؛ وهو رفض الاعتراف بوجود غوريلا تزن ثمانمائة رطل في الغرفة، ووجود فيل تحت السجاد، وهيكل عظمي في خزانة الملابس. العمى المتعمَّد هو رفض الاعتراف بوجود خطأ في تنفيذ الخطّة. إن لكل لُعبة قواعدها، وبعض هذه القواعد تكون ضمنية؛ أي إنك تقبلها بمجرد أن تقرّر أن تلعب اللعبة. وأولى هذه القواعد هي أن اللعبة مهمّة؛ فلو لم تكن كذلك، فما كنت لتلعبها. وثاني القواعد أن الخطوات التي تتّخذها أثناء اللعبة تكون صحيحة متى كانت تساعدك على تحقيق الفوز فيها. فإذا اتخذت خطوةً لا تساعدك على الفوز، فهي بطبيعة الحال، خطوة غير موفّقة. أنت بحاجة إلى أن تجرّب خطوة أخرى. هل تذكر المزحة القديمة: الجنون هو أن تفعل الأمر نفسه مرارًا وتكرارًا وتتوقّع تحقيق نتائج مختلفة.

إذا كنت محظوظًا، وفشلت، ثم جرَّبت شيئًا جديدًا، فإنك تمضي قدُمًا. وإذا لم يفلح الأمر، فإنك تجرّب شيئًا مختلفًا مجدَّدًا. وقد يكون إجراء

تعديل طفيف كافيًا إذا ما كانت الظروف مواتية. لذا فمن الحكمة أن تبدأ بإجراء تغييرات بسيطة وتنظر إذا ما كانت تصنع فارقًا. ولكن، في بعض الأحيان، قد يكون تسلسل القيم بأكمله خاطئًا، ويجب التخلّي عن المنظومة بأكملها. يجب تغيير اللعبة بأسرها. وهذه ثورة، بكل ما تنطوي عليه الثورة من فوضى وفزع. إنها ليست شيئًا يمكنك الانخراط فيه باستخفاف، لكنها تكون ضرورية أحيانًا. إن تدارك الخطأ يتطلّب تضحية، وتدارك الخطأ الفادح يتطلّب تضحية عظيمة. وتقبّل الحقيقة يعني أن تضحّي؛ وإذا كنت قد رفضت الحقيقة لفترة طويلة من الزمان، فأنت بذلك تثقل عاتقك بدَيْن كبير من التضحيات المتراكمة على نحو خطير. تلتهم حرائق الغابات الأغصان الميتة واليابسة من الأشجار، وتتحرّر العناصر الحبيسة لتعيدها إلى التربة. لكن النيران يتم إخمادها أحيانًا بوسائل اصطناعية؛ وهذا لا يحول دون تراكم الأغصان الميتة، وعاجلًا أو آجلًا سينشب حريق هائل؛ وحين يحدث هذا ستستعر النيران لتدمر كل شيء في طريقها؛ بما في ذلك التربة التي تنمو فيها الغابات.

إنه لمن السهل إغواء عقل منطقي، متفاخر بنفسه، مطمئنّ بيقينه، مفتتن بألمعيته، بحيث يتجاهل الخطأ، وينكره، ويحجبه. وقد رأى الفلاسفة الوجوديون الأدباء –بدءًا من سورين كيركجارد (56)– أن هذا النمط من

الكينونة «زائف». فالشخص الزائف يستمر في فهم الأمور والتصرّف بطريقة أثبتت خبراته الشخصية ذاتها خطأها؛ لكنه لا يتحدّث مع صوته الداخلي.

«هل تحقَّق ما أريد؟ كلا. إذًا فثمة خطأ في أهدافي أو في أساليبي، ولا يزال يجب عليَّ التعلم». هذا هو صوت الصدق والحقيقة.

«هل تحقَّق ما أريد؟ كلا. إذًا العالم من حولي ظالم، والناس أنانيون وأغبى من أن يفهموا. هذا خطأ شيء آخر أو شخص آخر». وهذا هو صوت الزيف والكذب. والطريق من هنا وصولًا إلى «لا بد من ردع هؤلاء الناس»، أو «يجب أن نلحق بهم الأذى»، أو «يجب القضاء عليهم» ليس بعيدًا. فمتى سمعت عن حادث وحشي لا يستوعبه عقلك، فاعلم أن مثل هذه الأفكار كانت حاضرة.

لا عتب في أي من ذلك على اللاوعي، أو الكبت. فالمرء حين يكذب، يعلم أنه يكذب. قد يتعامى عن عواقب أفعاله، وقد يخفق في تحليل ماضيه

أو صياغته بوضوحٍ لكي لا يفهمه. بل قد ينسى المرء حتى إنه كذب وبذلك تغيب عن وعيه هذه الحقيقة. إلا أنه كان واعيًا في كل خطأ يقترفه، وفي كل مسؤولية يتجاهل الاضطلاع بها. لقد كان يعلم ما كان يفعله في تلك اللحظة. وخطايا الشخص الزائف تفسد أحوال الدول وتزيدها سوءًا.

يضع أحد الأشخاص المتعطّشين للسلطة قاعدة جديدة في مكان عملك؛ وهي قاعدة لا حاجة لها، بل إن لها آثارًا سلبية على الإنتاج، وتسبب الإزعاج، وتستأصل البهجة وتفقد عملك معناه. لكنك تقول لنفسك إن الأمور على ما يرام، وأن الأمر لا يستحق الشكوى. ثم يتكرّر هذا الأمر مجدّدًا، وتكون أنت قد درّبت نفسك على السماح لمثل هذه الأشياء بأن تحدث بعدم إبداء أي رد فعل في المرة الأولى. لقد أصبحت أقل شجاعة، وازداد خصمك قوّة، لأنك لم تعارضه. وقد باتت المؤسّسة أكثر فسادًا، وعملية الجمود البيروقراطي والقمع قائمة على قدمٍ وساقٍ، وأنت أسهمت في ذلك بتظاهرك بأن الأمور على ما يرام. لماذا لم تشكُ؟ لماذا لم تأخذ موقفًا؟ لو أنك فعلت، فلربما تشجَّع آخرون، يخشون مثلك التعبير عن رأيهم، واتخذوا صفّك ودافعوا عنك. وإذا لم يحدث هذا، فربما كان هذا

أوان الثورة. ربما كان عليك أن تجد وظيفة أخرى، في مكان آخر، لا تخشى فيه أن يحيق الفساد بروحك.

لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟

(مُرقس 8:36)

لعل أحد أهم إسهامات ألكسندر سولجنتسين في رائعته الأدبية «أرخبيل المعتقلات السوفييتية»، هو تحليله للعلاقة السببية المباشرة بين العلّة التي أصابت دولة معتقلات العمل الإجباري السوفييتية (التي عانى فيها ملايين البشر ولقوا حتفهم) وبين نزعة المواطن السوفييتي، التي أصابت المجتمع بأسره تقريبًا، إلى تزييف تجربته الشخصية في كل يوم، وإنكار معاناته التي كانت الدولة هي السبب فيها، ومن ثم دعمه لإملاءات النظام الشيوعي المولع بأيديولوجيته. لقد كانت هذه العقيدة الفاسدة، وهذا الإنكار، هما ما رأى سولجنتسين أنهما ساعدا وشجّعا السفّاح الكبير المريض بجنون

الارتياب، جوزيف ستالين، على ارتكاب جرائمه. وقد كتب سولجنتسين هذه الحقيقة، الحقيقة التي عاشها هو نفسه –والتي أدركها بمشقّة من خلال تجربته في المعتقلات– ليفضح أكاذيب الدولة السوفييتية. ولم يجرؤ أحد من المثقّفين على الدفاع عن هذه الأيديولوجية مرة أخرى بعد نشر سولجنتسين لكتابه؛ وما كان لأحد أن يتجرّأ على أن يقول: «ما فعله ستالين لم يكن هو الشيوعيّة الحقيقيّة».

وقد توصّل فيكتور فرانكل –الطبيب النفسي وأحد الناجين من معسكرات الاعتقال النازية، وصاحب كتاب «الإنسان والبحث عن المعنى» Man's Search for Meaning– إلى نتيجة اجتماعية نفسية مشابهة مفادها أن: الوجود الفردي الزائف المخادع هو باكورة الشمولية الاجتماعية. وبالمثل، آمن سيجموند فرويد من جانبه أن «الكبت» أسهم مساهمةً لا يمكن الاستهانة بها في تطوّر الأمراض العقلية (والفارق بين كبت الحقيقة وبين الكذب هو اختلاف كمّي، وليس نوعيًّا). وأدرك ألفريد أدلر أن الأكاذيب هي التي تجلب الأسقام. وأدرك كارل جوستاف يونج أن المشكلات الأخلاقية هي الوباء الذي يشقي مرضاه، وأن السبب في هذه المشكلات هو الكذب. جميع هؤلاء المفكرين – الذين كانوا معنيين

بالأساس بالأمراض على المستويين الفردي والثقافي- توصّلوا إلى النتيجة ذاتها، وهي: إن الأكاذيب تحيط ببنية الكينونة. فالكذب يفسد الأرواح والبلدان على حد سواء، وكلا نوعَي الكذب يغذّي الآخر.

لقد رأيت مرارًا وتكرارًا كيف يتحوّل مجرد شقاء وجودي عادي إلى جحيمٍ تامٍّ بسبب الخيانة، والخداع. فعلى سبيل المثال، يمكن لأزمة إصابة أحد الوالدين بمرض عضال -وهي محنة يصعب التعامل معها أصلًا- أن تتحوّل إلى واقع مروِّع إلى حد يفوق الوصف جراء الشجارات التافهة والمشينة بين أبناء المصاب البالغين، الذين يتجمّعون مثل الوحوش حول فراش الموت -وقد استحوذ على عقولهم ماضٍ بغيضٍ لا يزال حيًا- لتتحوّل المأساة إلى عبث شيطاني سافر بكل خِسّةٍ، وجبنٍ، وسخطٍ، من جانبهم.

وقد تستغل أم عازمة على أن تحيط بابنها لحمايته من جميع خيبات الأمل والآلام عدم قدرة الابن على أن يشبَّ مستقلًّا ومعتمدًا على نفسه؛ فلا هو يغادر كنفها قط، ولا هي تصبح وحيدة قط. إنها مؤامرة خبيثة، تُحاك ببطء -مع تكشّف المرض وإعلانه عن نفسه- من خلال آلاف الغمزات

والإيماءات ذات المغزى. فهي تلعب دور الشهيدة، التي كُتِبَ عليها أن تعول ولدها، وتقتات على التعاطف والشفقة – مثل مصاصة دماء– من أصدقائها الداعمين لها. أما هو فيجلس في قبوه يطيل التفكير، ويتخيّل نفسه مضطهَدًا، مستضعَفًا. ويتخيّل بسعادة غامرة الدمار الذي يمكن أن يلحقه بالعالم الذي رفضه بسبب جبنه، وحماقته، وعجزه. وأحيانًا يُقدِم بالفعل على إحداث ذلك الدمار. ويتساءل جميع من حوله: «لماذا؟». ورغم أنه يمكنهم معرفة السبب، فإنهم يأبون ذلك.

وحتى أولئك الذين يحيون حياةً طيبةً يمكن، بالطبع، أن تكون حياتهم مشوّهة وعرضة للأذى، والمرض، والوهن، والكوارث الخارجة عن السيطرة. فالاكتئاب، والاضطراب ثنائي القطب، والفصام، هي أمراض – شأنها شأن السرطان– تنطوي جميعًا على عوامل بيولوجية خارجة عن سيطرة المرء. والمشَقات التي هي من صميم الحياة كافية لإضعاف كل واحد منا والاستبداد به، لتخرجنا عن أطوارنا، وتكسرنا عند أكثر نقاط ضعفنا وهنًا. وحتى أفضل حياة ممكنة لا يمكن أن توفّر حماية كاملة مطلقة لأصحابها من الضعف. لكن الأسرة التي يتشاجر أفرادها وسط أنقاض وحطام مسكنهم الذي دمَّره أحد الزلازل تقلّ احتمالات نجاحها في إعادة البناء والتعافي

مجددًا مقارنة بأسرة اكتسبت قوّتها من الثقة والولاء المتبادلين بين أفرادها. ويمكن لأي ضعف طبيعي أو تحدٍّ وجوديٍّ -بغض النظر عن ضآلته- أن يتفاقم ويصبح أزمة خطيرة إذا كان ثمة قدرٌ كافٍ من الخداع لدى الفرد، أو الأسرة، أو المجتمع والثقافة.

قد تخفق النفس البشرية الصادقة على الدوام في سعيها لتحقيق الفردوس على الأرض. إلا أنها قد تتمكن، برغم ذلك، من تقليل المعاناة المخيّمة على الوجود إلى مستوى يمكن تحمله. إن مأساة الكينونة ناتجة عن القيود المفروضة علينا والضعف الذي يميّز التجربة البشرية؛ بل إنها قد تكون هي الثمن الذي ندفعه مقابل «الكينونة» ذاتها، حيث إن الوجود يجب أن يكون محدودًا ومقيّدًا، لكي يكون قائمًا.

لقد رأيت زوجًا يتأقلم بصدق وشجاعة في الوقت الذي كانت فيه حالة زوجته تتدهور نحو حالة خرفٍ نهائيٍّ. قام الزوج بإجراء التعديلات اللازمة، خطوة وراء خطوة، وكان يتقبّل المساعدة حين يحتاج إليها. لقد رفض أن ينكر تدهور حالة زوجته المؤسف، وهكذا تكيَّف معه من دون جزع. ورأيت

عائلة تلك السيدة تترابط على نحو داعم ومساند بينما كانت هي تحتضر على فراش الموت، وتحظى بروابط عائلية عادت إلى الوجود من جديد مع أفراد العائلة –الأخ، والأخوات، والأحفاد، والأب– كتعويض جزئي، ولكنه صادق، لخسارتهم. وقد رأيت ابنتي المراهقة تناضل لمدة عامين على أثر إصابتها بكسر في الورك والكاحل، وتتجاوز هذه الفترة التي عانت خلالها آلامًا شديدة ومستمرّة، من دون أن تفتر روحها أو تضعف. ورأيت أخاها الأصغر وهو يضحي –مختارًا وبلا سخطٍ– بفرصٍ عدّة لتكوين صداقات والمشاركة في الحياة الاجتماعية، لكي يقف إلى جانب أخته وإلى جانبنا أثناء معاناتها. يمكن للإنسان، بالحب والتشجيع والشخصية السليمة، أن يتكيف بمرونة تفوق كلّ تصوّر. لكن الهلاك المطلق جراء المآسي والخداع هو ما لا يمكن للإنسان تحمّله.

إن قدرة العقل المنطقي على الخداع، والتلاعب، والتآمر، وتدبير المكائد، والتزييف، والتهوين، والتضليل، والخيانة، والمراوغة، والنكران، والتغافل، والتبرير، والتحيّز، والمبالغة، والتشويش، هي قدرة هائلة، واستثنائية، إلى درجة أن قرونًا كثيرة سابقة على ظهور التفكير العلمي –كان التركيز خلالها على توضيح طبيعة المساعي الأخلاقية– اعتبرت هذه القدرة قدرة شيطانية

إيجابية. ليس هذا بسبب العقلانية المنطقية ذاتها كعملية؛ فتلك العملية يمكن لها أن تخلق الوضوح والتطوّر، وإنما سببه أن العقلانية عرضة لأسوأ الإغواءات على الإطلاق، وهو إغواء رفع منزلة ما تدركه تلك العقلانية الآن في الوقت الراهن إلى منزلة المطلق.

ويمكننا أن نعود الآن من جديد إلى الشاعر العظيم جون ميلتون لتوضيح ما يعنيه هذا. فعلى مر آلاف السنين، نسج العالم الغربي خيالًا أشبه بالحلم بشأن طبيعة الشر يعتمد على الجوهر الديني. وكان لهذا الخيال بطلًا، وهي شخصية الخصم الذي كرَّس نفسه تمامًا لإفساد «الكينونة». وقد أخذ ميلتون على عاتقه نظم جوهر هذا الحلم الجمعي، ووضعه في قالب درامي، وصياغته بوضوح، ونفخ الروح فيه في صورة الشيطان؛ أو «لوسيفر»، «حامل الضوء». وكتب ميلتون عن إغواء لوسيفر الرئيسي، وعواقبه الآنية(150):

«أن يضارع منزلة الله

إذا تطاول عليه! وهكذا حفزه هذا المرمى الطامح

إلى تحدي عرش الله وملكه

وإثارة قتال عاق في الجنة: معركة يشينها الخيلاء

وحصادها هباء! وهكذا قذف الإله الجبار به من حالق
فانقلب ساقطًا يتقد لهيبًا من السماء العليا
ذميمًا مدحورًا مشتعلًا في هوة
مالها من قرار، فأقام بها
تغله الأصفاد الصلبة ويصطلي بعذاب الحريق».
جون ميلتون، الفردوس الفقود، م. س.

كان لوسيفر، فيرأي ميلتون– أي بروح المنطق – أكثر ملائكة الله روعة، خلقه الله من العدم. ويمكن فهم هذا نفسيًا؛ فالمنطق كائن حيٌّ، فهو يعيش داخل كلٍّ منا، بل هو أكبر عمرًا منا جميعًا. ويمكن فهم المنطق على أفضل نحو على أنه شخصية، وليس قدرة نمتلكها. إن له غاياته، وإغواءاته، ونقاط ضعفه؛ وهو يحلّق عاليًا ويرى أبعد من أي شيء سواه. لكن المنطق يغرم بنفسه، والأدهى من ذلك أنه يهيم في غرام صنائعه؛ فيرفع من قدرها، ويقدّسها باعتبارها حقائق مطلقة. لذا فإن لوسيفر يجسّد روح الشمولية؛ وقد قُذِفَ من الجنة إلى الجحيم، لأن مثل هذا التعالي، وذاك التمرّد على الله العليّ الذي لا يحيط بعلمه شيء، يفضي حتمًا إلى الجحيم.

ولنقلْ ذلك مجدّدًا بطريقة أخرى، فإن أعظم إغواء للقدرة العقلانية المنطقية هو تمجيد ذاتها وصنائعها، والادعاء بأن لا شيء يمكنه أن يعلو على نظرياتها، ولا حاجة لوجود ما هو خارج سلطتها وولايتها. ويعني هذا أن جميع الحقائق المهمّة قد تم اكتشافها، وأنه لم يعد ثمة شيء ذو أهمية مجهولًا؛ ولكن الأهم من ذلك كله أن ذلك يعني إنكار ضرورة المواجهة الفردية الشجاعة للكينونة. وما الذي يمكن أن ينقذك؟ يقول الشخص الشمولي: «يجب أن تركن إلى إيمانك بما تعرفه». لكن هذا ليس هو ما سينقذك. ما سينقذك هو استعدادك للتعلّم مما لا تعرفه. هذا هو الإيمان بإمكانية التحوّل البشري. هذا هو الإيمان بالتضحية بالذات الحالية من أجل الذات التي يمكن أن تكون. الشخص الشمولي ينكر ضرورة تحمّل الفرد مسؤوليته الأساسية عن الكينونة.

هذا الإنكار هو ما يعنيه التمرّد على «الإله العلي». هذا هو ما يعنيه الشخص الشمولي بقوله: كل ما يجب اكتشافه قد تم اكتشافه، وكل شيء سيتكشف تمامًا كما هو مخطّط له، وكل المشكلات ستختفي للأبد بمجرد قبول النظام المثالي. لقد كانت قصيدة ميلتون الرائعة بمثابة نبوءة؛ فمع ظهور العقلانية المنطقية من بين أنقاض المسيحية، صاحبها التهديد الرهيب

المتمثّل في الأنظمة الشمولية. وقد بدت الشيوعية -تحديدًا- نظامًا جذّابًا، ليس للعمال المضطهدين -الذين يفترض نظريًا أن يكونوا هم المستفيدين منها- وإنما للمفكّرين، الذين زيّن لهم غرورهم وإعجابهم بالعقل أنهم على صواب دائمًا. لكن اليوتوبيا الموعودة لم تظهر مطلقًا؛ وبدلًا منها عرفت البشرية وعانت جحيم روسيا في عهد ستالين، والصين في عهد ماو، وكمبوديا في زمن بول بوت، وكان مواطنو هذه البلدان مطالبين بخيانة خبراتهم التي عاشوها، والانقلاب على رفقائهم المواطنين من أبناء بلدهم، والموت بعشرات الملايين.

وتحكي طرفةٌ سوفييتية قديمة أن أمريكيًا مات وسيق إلى الجحيم. وأخذه الشيطان بنفسه في جولة هنالك. مرَّا بمرجلٍ كبيرٍ، وحدّق فيه الأمريكي، فوجده ممتلئًا بأرواح شقيّة تتلظى في قدر مستعر؛ وبينما يناضلون لمغادرة القدر الملتهب، تدفعهم شياطين أدنى منزلةً تجلس على شفا المرجل بداخله مرة أخرى. هال الأمريكي ما رآه، فقال له إبليس: «هنا يمكث المذنبون من الإنجليز». ثم انطلقا في سبيلهما حتى وصلا إلى مرجل ثانٍ، أكبر قليلًا وأشد سعيرًا، فحدّق فيه الأمريكي، ووجده ممتلئًا بأرواح تشقى في العذاب، وجميعهم يعتمرون قلنسوات، والشياطين تدفع بداخله التائقين إلى الفرار

منه. وقال الشيطان: «هنا يمكث العصاة الفرنسيون». وعلى مسافة بعيدة، كان يوجد مرجل ثالث، أكبر كثيرًا، ويستعر بنيران ابيضّت من فرط لهيبها. ولا يكاد الأمريكي يستطيع الاقتراب منها، لكنه يفعل في النهاية مع إصرار الشيطان وإلحاحه عليه، فيقترب ويحدّق في المرجل، فيجده مكتظًا بأناس لا يكاد يراهم تحت سطح الحميم المستعر. ومع ذلك، كان أحدهم يتسلّق المرجل ويحاول الوصول إلى الشفا. وعلى نحو غريب، لم تكن توجد شياطين تجلس على شفا هذا القدر العملاق، إلا أن المتسلّق يعود للاختفاء تحت السطح. وهنا يسأل الأمريكي: «لماذا لا يوجد شياطين لمنعهم من الهرب؟». فيرد إبليس: «هنا يمكث الروس. إذا حاول أحدهم الهرب، يسحبه الآخرون ليغرق فيه مجددًا».

كان ميلتون يؤمن بأن رفض الشيطان العنيد والمتعنِّت للتغيير وإصراره على الخطأ لا يعني فقط طرده من الجنة، وتردّيه التالي في أعمق أعماق جحيم لا قرار له، وإنما يعني أيضًا رفضه الخلاص ذاته. فالشيطان يعلم تمامًا أنه حتى لو كان مستعدًّا للتصالح، وشاء الله أن يعفو عنه، فإنه سيعود للعصيان والتمرّد من جديد، لأنه لن يتغير. وربما كان هذا العناد المتكبّر المختال هو ما شكّل الخطيئة الغامضة التي لا تغتفر بحق الروح القدس.

... وداعًا إذن يا رياض الهناء

يا موطن السرور الأبدي! ومرحبًا بالهم والغم!

مرحبا بالدرك الأسفل! وأنت يا أغوار الجحيم السحيقة

تقبلي ربك الجديد: رب يأتي إليك بذهن لا يتبدل

ولا ينال منه مكان ولا زمان. (151).

جون ميلتون، الفردوس الفقود، م. س.

ليس هذا خيالًا للحياة الآخرة؛ وليس مجالًا لعذاب سرمديّ مقيم بعد انتهاء الوجود للأعداء السياسيين. إنها فكرة مجرّدة، وعادةً ما تكون التجريدات أكثر واقعيةً من تجسيداتها. إن فكرة وجود الجحيم بطريقة غيبية ما ورائية ليست فكرة عتيقة ومنتشرة بين الناس فحسب، بل هي حقيقية. فالجحيم أبديّ، ولطالما كان موجودًا. إنه موجود الآن، وهو الجزء الأكثر جدبًا، ويأسًا، وخبثًا، من العالم السفلي الفوضوي، الذي يسكنه القانطون والناقمون إلى أبد الأبدين.

فالذهن هو الذي يخلق المكان، وهو في باطنه

قادر على أن يحيل الجحيم جنة أو الجنة جحيمًا(152).

...

لنا أن نسود هنا آمنين، وإنني لأرى
أن السيادة مطمع رفيع ولو كانت في الجحيم!
سيد في جهنم أكرم من عبد في الجنة! (**153**).
جون ميلتون، الفردوس الفقود، م. س.

يحيا الذين كذبوا كثيرًا بالقدر الكافي -قولًا وفعلًا- هنالك في الجحيم؛ الآن. يمكنك أن تتجوّل في أحد شوارع المدينة المزدحمة، فاتحًا عينيك ومنتبهًا جيدًا لما حولك، وسترى أناسًا يعيشون في الجحيم الآن. أولئك هم الذين تتجنّبهم وتبتعد عنهم بالفطرة، وأولئك هم الذين يستشيطون غضبًا بمجرد أن تنظر إليهم، على الرغم من أنهم قد يشيحون بوجوههم خجلًا في بعض الأحيان. لقد رأيت أحد مدمني الكحول المشرّدين المحطّمين بشكلٍ مروعٍ يفعل ذلك تمامًا أمام ابنتي الصغيرة. كان كل ما أراده هو أن يتحاشى رؤية حاله المزري المتدنّي منعكسًا بوضوحٍ في عينيها.

الخداع هو ما يزيد الناس بؤسًا إلى حدٍّ لا يطيقون احتماله، والخداع هو ما يملأ النفوس البشرية بالسخط، والحقد، والرغبة في الانتقام، وهو ما يفضي

إلى المعاناة الرهيبة للبشرية: معسكرات الموت النازية، وغرف التعذيب والإبادة الجماعية في عصر ستالين، وذلك الوحش الأفظع والأعتى، ماو. لقد كان الخداع هو ما قتل مئات الملايين من الناس في القرن العشرين، وكان الخداع هو ما كاد يفني الحضارة ذاتها. والخداع هو الذي لا يزال يهدِّدنا، بأعمق شكل ممكن، في يومنا هذا.

الصّدق هو البديل

ماذا يحدث إذا قررنا أن نكفّ عن الكذب؟ بل ما الذي يعنيه هذا؟ إننا محدودون في معرفتنا في نهاية المطاف. ينبغي علينا أن نتّخذ قرارات في الواقع الآني، على الرغم من أنه لا يمكن قط تمييز أفضل الوسائل وأفضل الغايات بيقين تام. إن الهدف، أو الطموح، يوفّر البنية اللازمة للفعل. الهدف يمنحنا الوجهة؛ يمنحنا نقطة تعارض مع الحاضر، ويمنحنا إطارًا يمكن تقييم الأشياء بداخله. يُحدِّد الهدف معالم التقدّم الذي نُحرزه ويجعله مثيرًا، كما أنه يحدُّ من القلق، لأنه في حال غياب الهدف، يمكن لأي شيء أن يعني أي شيء أو لا يعني شيئًا على الإطلاق؛ ولا يمنح أيٌّ من هذين الخيارين

المرء نفسًا مطمئنة. لذا، علينا أن نفكّر، ونخطط، ونحدِّد، ونفترض، لكي نتمكّن من العيش. كيف إذًا يمكننا تخيّل المستقبل، وتحديد اتجاهنا، من دون أن نقع فريسة لإغواء يقين شموليٍّ مستبدٍّ؟

يمكن أن يساعدنا شيء من الاعتماد على التقاليد في تحديد أهدافنا. فمن المنطقي أن نفعل ما كان الآخرون يفعلونه دائمًا، ما لم يكن لدينا مبررٌ قويٌّ لئلا نفعل ذلك. من المنطقي أن نتعلّم، ونعمل، ونبحث عن الحب، ونبني أسرة. فهكذا تحافظ الثقافة على نفسها. لكن من الضروري أن تسعى إلى هدفك –وإن كان تقليديًّا– وأنت بكامل وعيك وانتباهك. ربما كان لديك اتجاه، لكنه ربما كان خاطئًا. وربما كانت لديك خطّة، لكنها ربما كانت سيّئة. ربما تكون قد انحرفت عن هدفك بسبب جهلك؛ والأسوأ من ذلك، بسبب فسادك الخفيّ. لذا ينبغي عليك أن تتآلف مع ما لا تعرفه، وليس مع ما تعرفه. ينبغي عليك أن تظلّ يقظًا لتراقب نفسك. ينبغي أن تُزيل الخشبة من عينك قبل أن تشغل نفسك بالقذى في عين أخيك. وبهذه الطريقة، تمنح روحك القوّة لكي تصبح قادرة على تحمّل عبء الوجود، وتُجدِّد طاقة مجتمعك وبلدك.

فطن المصريون القدماء إلى هذه الحقيقة بالفعل منذ آلاف السنين، رغم أن معرفتهم ظلّت متجسِّدة في صورة درامية(154). لقد عبدوا الإله أوزيريس، المؤسِّس الأسطوري للدولة وإله الثقافة والتقاليد. إلا أن أوزيريس كان عرضة للإطاحة به ونفيِه إلى العالم السفلي على يد أخيه، سِت الشرير مُدبِّر المكائد. في هذه القصة، جسَّد المصريون حقيقة أن التنظيمات الاجتماعية تتحجَّر بمرور الوقت وتستعصي على التغيير وتسير نحو العمى المتعمّد. فلم يكن أوزيريس ليرى حقيقة شخصية أخيه، رغم أنه كان يستطيع ذلك. وانتظر سِت متحيِّنًا اللحظة المناسبة، ثم شن هجومه. قطَّع جسد أوزيريس إربًا، ونثر بقاياه المقدَّسة في أرجاء المملكة. وأرسل روح أخيه إلى العالم السفلي، وجعل من الصعب عليه أن يجمع شتات نفسه من جديد.

ومن حسن الطالع أن الملك العظيم لم يكن مضطرًا إلى التعامل مع سِت بنفسه. فقد عبد المصريون أيضًا الإله حورس، ابن أوزيريس. اتخذ الإله حورس صورة صقر، والصقر هو أكثر الكائنات حِدّة بصَر، وهو العين المصرية الهيروغليفية الواحدة التي لا تزال تحتفظ بشهرتها حتى الآن (كما أشرنا إلى ذلك في القاعدة السابعة). كان أوزيريس تجسيدًا للتقاليد، وقد

شاخ وأصابه العمى المتعمَّد. أما حورس، على النقيض من ذلك، كان قادرًا على الرؤية، وكان يرى. لقد كان إله اليقظة. وهذا شيء يختلف عن العقلانية. ونظرًا لأن حورس كان يقظًا ومنتبهًا، فقد تمكَّن من فهم شرور سِت واستطاع أن ينتصر عليه، وإن كان الثمن فادحًا. فعندما واجه حورس عمه سِت، كانت المعركة رهيبة؛ وقبل هزيمة سِت ونفيه من المملكة، انتزع إحدى عيني ابن أخيه. لكن حورس المُنتصر في النهاية استردّ عينه، ثم فعل شيئًا لم يكن متوقعًا قط: لقد ذهب طوعًا إلى العالم السفلي ومنح عينه لأبيه.

ما الذي يعنيه هذا؟ أول ما يعنيه هو أن المواجهة مع الحقد والشّرّ تنطوي على قدر كبير من البشاعة كان كافيًا لإتلاف بصر إلهٍ؛ وثانيًا، يعني أن ابنًا يقظًا يمكنه أن يردَّ البصر لأبيه. دائمًا تكون الثقافة في حالة أقرب إلى الموت، على الرغم من أنها تأسست بواسطة أرواح أناس عظماء من الماضي. لكن الحاضر ليس هو الماضي. وهكذا فإن حكمة الماضي تتلاشى، أو تُهجَر، على نحو يتناسب مع الاختلاف الحقيقي بين ظروف الحاضر والماضي. وهذه مجرّد نتيجة لانقضاء الزمن، والتغيير الذي يجلبه هذا الانقضاء حتمًا. لكن من الصحيح أيضًا أن الثقافة وما تنطوي عليه من

حكمة عرضة للفساد أيضًا؛ أو عُرضة للعمى المتعمَّد، والمكائد الشيطانية. لذا فإن التدهور الوظيفي الحتمي للمؤسسات الذي أورثه لنا أسلافنا يتفاقم بسبب سوء سلوكنا،وعجزنا عن إصابة الهدف، في الوقت الحاضر.

نحن مسؤولون عن رؤية ما هو أمام أعيننا بشجاعة، وعن التعلم منه، حتى إذا بدا مفزعًا وبشعًا؛ وحتى إن تسبّب الفزع الناتج عن رؤيته في تدمير وعينا وإفقادنا نصف بصرنا. إن الرؤية شيء مهم للغاية حين تتحدّى ما نعرفه ونعتمد عليه، وهي تزعجنا وتجعلنا لا نشعر بالارتياح أو الاستقرار. الرؤية هي ما تعطي المرء معرفة وإدراكًا، وتجدّد الثقافة والدولة. ولهذا السبب قال نيتشه إن قيمة الإنسان تتحدّد بالقدر الذي يستطيع تحمُّله من الحقيقة. فأنت لست ما تعرفه الآن، بل أنت أيضًا كل ما يمكنك أن تعرفه، لكن فقط إن أردت أن تعرف. لذا لا ينبغي أبدًا أن تُضحّي بما يمكنك أن تكونه من أجل ما أنت عليه بالفعل. لا ينبغي قط أن تتخلّى عن الأفضل الذي يكمن بداخلك من أجل الأمان الذي تشعر به بالفعل؛ وبالتأكيد ينبغي ألّا تفعل ذلك عندما ترى لمحة لا يمكن إنكارها لشيء يتجاوز ذلك.

في الثقافة المسيحية، يُعرَف المسيح بأنه «لوجوس». و«لوجوس» هو «كلمة الله». وتلك الكلمة هي التي حوَّلت الفوضى إلى نظام في بداية الزمان. وفي هيئته البشرية، ضحّى المسيح بنفسه طوعًا في سبيل الحقيقة، وفي سبيل الخير، وفي سبيل الله. ونتيجة لذلك، مات وُولد من جديد. فالكلمة التي أنتجت النظام من الفوضى ضحّت بكل شيء –حتى بنفسها– في سبيل الله. هذه العبارة وحدها –التي تنطوي على حكمة تستعصي على الفهم– تُلخص المسيحية. إن كل قدر من التعلم يعني قدرًا من الموت. وكل معلومة جديدة تتحدّى تصوّرًا سابقًا، وتجبره على التبدّد إلى فوضى قبل أن يُولد من جديد كشيء أفضل. أحيانًا، تُدمّرنا مثل هذه الموتات فعليًا. وفي مثل هذه الحالات، قد لا نتعافى أبدًا، وإذا تعافينا، فإننا نتغير كثيرًا. لقد اكتشف أحد أصدقائي الطيبين أن زوجته التي ارتبط بها لعقود كانت تخونه. لم يكن يتوقّع هذا. سيطرت عليه حالة من الاكتئاب الشديد، وهوى إلى العالم السفلي. قال لي في لحظة ما: «لطالما اعتقدت بأن الأشخاص الذين يصابون بالاكتئاب ينبغي عليهم أن ينسوا فحسب. كم كنت جاهلًا بلا أدنى فكرة عما أقوله». وفي نهاية المطاف، عاد من الأعماق. صار إنسانًا جديدًا في جوانب عديدة؛ وربما أصبح أكثر حكمة وأفضل حالًا. لقد فقد أربعين رطلًا من وزنه، وشارك في ماراثون للجري، وسافر إلى أفريقيا،

وتسلّق جبل كليمنجارو. لقد اختار أن يُولد من جديد على أن يهوي إلى الجحيم.

حدّد طموحاتك، حتى وإن كنت لا تعرف يقينًا ما ينبغي أن تكون طموحاتك. وأفضل الطموحات هو ما يتعلّق بتطوير الشخصية والقدرة، وليس بالمكانة والنفوذ. فالمكانة يمكن أن تُفقد؛ أما الشخصية فهي تصحبك أينما ذهبت، وهي تُتيح لك تجاوز المحن والشدائد. وبعد أن علمت هذا، اربط حبلًا بصخرة كبيرة. احمل الصخرة وضعها أمامك واسحب نفسك نحوها. تأمَّل وراقب بينما تتحرّك للأمام. صف تجربتك لنفسك وللآخرين بأقصى قدر ممكن من الوضوح والتفصيل. وبهذه الطريقة، سوف تتعلّم كيف تتقدّم نحو هدفك بمزيد من الفعالية والكفاءة. وبينما تفعل ذلك، لا تكذب؛ وبالأخص لا تكذب على نفسك.

إذا انتبهت لما تفعله وتقوله، فيمكنك أن تتعلّم الشعور بحالة من الانقسام والضعف الداخلي عندما تُسيء القول أو الفعل. إنه إحساس مُتجسِّد وليس فكرة. أنا شخصيًا ينتابني إحساس داخلي بالانهيار والانقسام، وليس

بالصلابة والقوة، عندما أكون غير منتبه لأقوالي وتصرفاتي. يبدو أن هذا مغروس في ضفيرتي البطنية، حيث توجد عقدة كبيرة من النسيج العصبي. وفي الواقع، لقد تعلّمت اكتشاف الأوقات التي أكذب فيها عن طريق مراقبتي لهذا الإحساس بالانهيار والانقسام، ومن ثمَّ أعرف أنني كنت أكذب. غالبًا ما كان يتطلّب مني الأمر وقتًا طويلًا لاكتشاف الخداع. فأحيانًا كنت أستخدم الكلمات بغرض التظاهر، وأحيانًا كنت أحاول إخفاء جهلي بالموضوع محل النقاش، وأحيانًا كنت أستخدم كلام الآخرين لتجنب مسؤولية التفكير المستقلّ.

إذا كنت منتبهًا بينما تسعى للوصول إلى شيء ما، فستمضي قدمًا نحو هدفك. لكن الأهم من ذلك أنك ستكتسب المعلومات التي من شأنها أن تُحدث تحوّلًا في هدفك ذاته. لا يسأل الشخص الشمولي أبدًا: «ماذا لو أن طموحي الحالي خاطئ؟». وبدلًا من ذلك، يتعامل معه على أنه غاية مطلقة. يصبح هذا الطموح إلهه الذي يعبده فعليًا، ويُشكِّل أعلى قيمة لديه، ويتحكّم في عواطفه وحالات تحفّزه، ويُحدِّد أفكاره. إن الناس كافة يعبدون طموحهم. وفي هذا الصدد، لا يوجد ملحدون؛ بل يوجد فقط أناس يعرفون، وآخرون لا يعرفون، أي إله يعبدون.

لو أنك كرَّست كل شيء كلّيًّا، وبعمى، وبجهل، وبإرادة، لتحقيق هدفٍ معيّنٍ من دون سواه، فلن تستطيع أبدًا أن تتبيّن ما إذا كان ثمة هدف آخر يمكن أن يساعدك ويساعد العالم على نحوٍ أفضل. هذا هو ما تُضحّي به إذا لم تتحرَّ الصدق. وفي المقابل، عندما تقول الصدق، ستتحوّل قيمك أثناء تقدّمك. لو سمحت لنفسك أن تهتدي بالحقيقة التي تتجلّى للعيان بينما تمضي قدمًا في الحياة، فسوف تتغير أفكارك بشأن ما هو مهم. سوف تعيد توجيه ذاتك، تدريجيًا في بعض الأحيان، وعلى نحو جذري ومفاجئ في أحيان أخرى.

تخيّل أنك التحقت بكلية الهندسة لأن هذه رغبة والديك؛ لكنها ليست رغبتك أنت. لن تشعر بأي حافزٍ وسوف تُخفق لأنك تعمل في عكس اتجاه رغباتك. سوف تناضل كي تستطيع التركيز وضبط النفس، لكن هذا لن يُجدي نفعًا. سوف ترفض روحك طغيان إرادتك (وهل ثمة طريقة أخرى يمكن التعبير بها عن ذلك؟) لماذا تذعن؟ لعلك لا تريد أن تُخيّب أمل والديك (رغم أن هذا بالضبط ما سيحدث لو أنك فشلت). لعلك تفتقر إلى

الشجاعة اللازمة لخوض صراع ضروري من أجل تحرير نفسك. لعلك لا تريد أن تُضحّي بإيمانك الصبياني بأن والديك يعرفان كل شيء، وترغب بإخلاص في أن تستمر في يقينك بأن ثمة شخصًا ما يعرفك أفضل مما تعرف نفسك، ويعرف أيضًا كل شيء عن العالم. لعلك تريد أن تنعم بهذه الطريقة بحماية نفسك من العزلة الوجودية القاسية للكينونة الفردية وما يلازمها من مسؤولية. هذا أمر شائع للغاية ومفهوم؛ لكنك تعاني لأنك لم تُخلَق حقًّا لتكون مهندسًا.

وفي أحد الأيام، يفيض الكيل. تقرّر عدم مواصلة تعليمك، ويُصاب أبواك بالإحباط. وتتعلّم أنت أن تتعايش مع الأمر. لا تستشر إلا نفسك، رغم أن هذا يعني أنك يجب أن تعتمد على قراراتك الشخصية. تنال درجة علمية في الفلسفة، وتتقبّل تبعات أخطائك، وتصبح ذاتك. فعن طريق رفض رؤية والديك، تُشكِّل رؤيتك الخاصة. وبعد ذلك، عندما يتقدّم أبواك في العمر، تصبح ناضجًا بما يكفي للوقوف إلى جانبهما ودعمهما عندما يحتاجان إليك؛ وهكذا فإنهما ينتصران أيضًا. لكن كان لا بد أن يكون ثمن كلا النصرين هو الصراع الذي تسبّب فيه صدقك مع نفسك. وكما جاء على لسان المسيح في إنجيل متى، الإصحاح 10، الآية 34، مؤكدًا على دور

الصدق: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا».

وبينما تتابع حياتك مُتسلِّحًا بالصدق، بينما هو يكشف لك عن نفسه، سيكون عليك قبول الصراعات التي تتمخّض عنها الكينونة، وسيتعيّن عليك التعامل معها. وإذا فعلت ذلك، ستستمر في النضج وستصبح أكثر تحمّلًا للمسؤولية، بطرق صغيرة، (لا تستهن بأهمية هذه الطرق الصغيرة)، وأخرى كبيرة. ستصبح أكثر قدرة من أي وقت مضى على التعامل مع أهدافك الجديدة التي وضعتها بمزيد من الحكمة، وستصبح أكثر حكمة في صياغتها، عندما تكتشف أخطاءك الحتميّة وتُصحِّحها. سيصبح تصوّرك لما هو مهم أكثر ملاءمة، مع استفادتك من الحكمة التي اكتسبتها من خلال خبراتك. ستكُفُّ عن التذبذب الجامح وستمضي مباشرة نحو الخير الذي لم يكن ليتأتّى لك فهمه لو أنك أصررت على أنك كنت على صواب مطلق منذ البداية، برغم كل الأدلة التي تؤكّد عكس ذلك.

إذا كان الوجود خيرًا، فإن أوضح وأنقى وأصحّ علاقة مع هذا الخير علاقة خيِّرة أيضًا. وعلى النقيض، إذا لم يكن الوجود خيِّرًا، فستُضَلّ السبيل. لن ينقذك شيء؛ لن تنقذك بالتأكيد التمرّدات التافهة، والتفكير الضبابي، والعمى الظّلامي؛ فكل هذا من الخداع. هل الوجود خير؟ عليك أن تُخاطر مخاطرة كبيرة كي تكتشف الإجابة. عِش بالصدق، أو عِش بالخداع، وواجِه العواقب، واستخلص النتائج بنفسك.

تلك هي «قفزة اليقين» التي أكَّد على ضرورتها الفيلسوف الدنماركي كيركجارد. إنك لا تستطيع أن تعرف مسبقًا؛ فحتّى مثال جيّد لا يصلح كدليل، نظرًا للاختلافات بين الأفراد. ويمكن أن يُعزى المثال الجيّد دومًا إلى الحظ. لذا، عليك أن تُخاطر بحياتك الشخصية الفرديّة كي تكتشف الحقيقة. وهذه المخاطرة هي التي وصفها القدماء بأنها التضحية بالإرادة الشخصية في سبيل إرادة الله. إنها ليست ضربًا من ضروب الخضوع (على الأقل بالمعنى الحالي الذي نفهم به الخضوع)، وإنما هي فعل شجاع. إنها اليقين بأن الريح ستدفع قاربك نحو ميناء جديد أفضل. إنها اليقين بأن الكينونة يمكن تصحيحها بالتحول والتغيير. إنها روح الاستكشاف ذاتها.

لعله من الأفضل أن تتصوّر الأمر على هذا النحو: كل إنسان يحتاج إلى هدف ملموس محدّد -إلى طموحٍ أو غاية- للحدِّ من الفوضى وإضفاء معنى مفهوم وواضح على حياته. لكن جميع هذه الأهداف الملموسة يمكن -بل ويجب- إخضاعها لما قد يُعتبر هدفًا أسمى، وهو السبيل إلى التعامل مع الأهداف ذاتها وصياغتها. ويمكن أن يكون الهدف الأسمى « العيش بصدق». وهذا يعني: «اسعَ بكدٍ نحو غايةٍ مؤقتةٍ، واضحةٍ، ومحدَّدةٍ جيِّدًا. اجعل معاييرك للفشل والنجاح في وقتها الصحيح، واجعلها واضحةً، على الأقل لنفسك أنت (والأفضل من ذلك أن يفهم آخرون أيضًا ما تحاول فعله ويشتركون معك في تقييمه). لكن بينما تفعل ذلك، اسمح للعالم من حولك ولروحك بأن يكشفا عن نفسيهما كما يحلو لهما، بينما تنتهج الصدق في أفعالك وأقوالك». هذا طموحٌ عملي براجماتي، وهو أكثر أشكال الإيمان شجاعة في الوقت ذاته.

الحياة معاناة. قال بوذا هذا بوضوحٍ. وعبَّر المسيحيون عن الشعور نفسه بصورة تصويرية من خلال صلب المسيح. والعقيدة اليهودية مليئة بما يذكِّر بهذا أيضًا. إن حقيقة الوجود الأساسية التي لا مفرَّ منها هي أن الحياة والقيود صنوان متلازمان. فضعف كينونتنا يجعلنا عُرضة لآلام النقد والازدراء

الاجتماعي، وكذلك التدهور الحتمي لأجسادنا. لكن حتى كل طرق المعاناة هذه –رغم فظاعتها– ليست كافية لإفساد العالم وتحويله إلى جحيم، مثلما أفسد النازيون، والماويون، والستالينيون، العالم وحوَّلوه إلى جحيم. ولهذا السبب، أنت بحاجة إلى الكذب، كما قال هتلر بوضوح:

«دائمًا ما تنطوي الكذبة الكبيرة على مصداقية كبيرة؛ لأن جماهير الأمة الغفيرة غالبًا ما يكون من الأسهل إفسادها بالتأثير في طبائعها العاطفية العميقة وليس بالتأثير في وعيها أو إرادتها؛ وهكذا، نظرًا للسذاجة البدائية لعقول الجماهير، فإنهم يسقطون ضحايا للكذبة الكبيرة بسهولة أكبر من الكذبة الصغيرة، لأنهم هم أنفسهم كثيرًا ما يكذبون كذبات صغيرة في أمور بسيطة لكنهم يشعرون بالخزي عندما يلجأون إلى الكذبات الكبيرة. ولن يخطر ببالهم قط أن يختلقوا كذبات ضخمة، ولن يصدقوا أن الآخرين يمكن أن يكونوا على قدر من الوقاحة يجعلهم يشوِّهون الحقيقة إلى هذا الحد المشين. وعلى الرغم من أن الحقائق التي تُثبت أن الأمر كذلك حقًّا قد تكون واضحة تمامًا في أذهانهم، يظل يساورهم الشك والتردّد، ويواصلون الاعتقاد بأنه ربما كان ثمة تفسير آخر للأمور».

وللوصول إلى مرحلة الأكاذيب الكبيرة، أنت بحاجة أولًا إلى الأكاذيب الصغيرة. والأكاذيب الصغيرة هي – على سبيل المجاز– الطُعم الذي يستخدمه الشيطان للإيقاع بضحاياه. إن القدرة البشرية على التخيّل تجعلنا قادرين على الحلم وعلى صنع عوالم بديلة من وحي خيالنا. هذا هو المصدر الأساسي لقدرتنا الإبداعية. لكن هذه القدرة الفريدة تأتي مصحوبة بنقيضها، أو الوجه الآخر للعملة: إذ يمكننا أن نخدع أنفسنا، والآخرين، لنظنَّ أن الأمور على خلاف الحقيقة التي نعرفها، ونتصرّف وفقًا لذلك.

ولماذا لا نكذب؟ لماذا لا نلوي عنق الحقائق ونشوِّهها من أجل الفوز بمكسب رخيص، أو تسهيل الأمور، أو الحفاظ على استقرار الأوضاع، أو تجنّب جرح مشاعر الآخرين؟ إن للحقيقة جانبًا مخيفًا: فهل نرغب حقًّا في مواجهة الحقيقة حين تُطل برأسها المرعب القبيح في كل لحظة من لحظات وعينا، وعند كل منعطف من منعطفات حياتنا؟ لماذا لا ندير لها ظهورنا، على الأقل عندما يكون التحديق فيها مؤلمًا إلى حدٍّ لا يُطاق؟

السبب بسيط: لأن الأشياء تتداعى. فما كان مُجديًا بالأمس لن يفلح اليوم بالضرورة. لقد ورثنا عن أجدادنا الآلية العظيمة للدولة والثقافة، لكنهم فارقوا الحياة ولم يعد بمقدورهم التعامل مع التغيّرات التي نشهدها اليوم. أما الأحياء فيمكنهم ذلك. يمكننا أن نفتح أعيننا ونُعدِّل ما لدينا كلّما دعت الضرورة، كما نستطيع أن نعمل على استمرار عمل هذه الآلية بسلاسة. أو يمكننا أن نتظاهر بأن كل شيء على ما يُرام، ونمتنع عن إجراء الإصلاحات اللازمة ثم نلعن القدر عندما لا تسير الأمور على النحو الذي نريده.

الأشياء تتداعى: هذا أحد الاكتشافات العظيمة للبشرية. ونحن نزيد من وتيرة التدهور الطبيعي للأشياء العظيمة من خلال العمى، والسلبية، والخداع. فمن دون الانتباه اليقظ، تضمحلّ الثقافة وتندثر، ويسود الشر.

إن ما تراه من الكذبة عندما تُمارس عمليًا (ومعظم الكذبات تُمارس عمليًا وليست تُلفظ شفويًا) جزء ضئيل جدًّا من حقيقتها. فالكذبة ترتبط بكل شيء آخر؛ وهي تُحدِث في العالم تأثيرًا يُماثل التأثير الذي تُحدثه قطرة واحدة من

مياه الصرف في زجاجة شامبانيا كبيرة نقية. إنها شيء من الأفضل أن يُنظر إليه باعتباره كائنًا حيًّا ينمو.

وعندما تكبُر الكذبة بالقدر الكافي، يَفسد العالم بأسره. لكن إذا تأمّلت الأمر جيدًا، ستجد أن أكبر الكذبات تتألّف من كذبات صغيرة، وتلك الأخيرة تتألّف من كذبات أصغر؛ وأصغر الكذبات هي البذرة التي تنشأ منها الكذبة الكبيرة. فالكذب ليس مجرد تزييف للحقيقة؛ وإنما هو فعل ينطوي على جانب من أخطر مؤامرة تستحوذ على الجنس البشري. فالبراءة الظاهرية للكذب، وخسّته التافهة، والغطرسة الواهية التي ينشأ عنها، والتملّص الوضيع من المسؤولية الذي يهدف إليه؛ كل هذا يؤدّي دورًا فعالًا في إخفاء طبيعته الحقيقية، وخطورته الفعلية، وحقيقة أنه لا يختلف مطلقًا عن الشرور الكبرى التي يقترفها الإنسان ويستمتع بها في غالب الأحيان. إن الأكاذيب تُفسد العالم؛ والأسوأ من ذلك أن تلك هي غايتها.

أولًا، يكذب المرء كذبة صغيرة؛ ثم يُتبعها بعدد من الكذبات الصغيرة التي تدعمها. وبعد ذلك، يأتي دور التفكير المشوّه الذي يهدف إلى تجنّب

الشعور بالخزي الناتج عن تلك الكذبات، ثم بعض الكذبات الإضافية لتغطية تبعات التفكير المشوَّه. ثم يحدث أفظع ما في الأمر كله، وهو تحوّل تلك الكذبات –التي صارت ضرورية الآن– من خلال الممارسة، إلى اعتقادٍ وفعل تلقائيين، منهجيين، مُوجَّهَين عصبيًا على مستوى «اللاوعي» لتحقيق غرضٍ محدَّدٍ. وبعد ذلك، تُخفق التجربة المقَزِّزة ذاتها كفعلٍ عمادُه الزيف في تحقيق النتائج المنشودة. فإذا كنت لا تؤمن بوجود الجدران الخرسانية، فإن ذلك لن يمنع إصابتك بجرح إذا اصطدمت رأسك بأحدها. وحينها سوف تلعن الواقع نفسه لأنه أوجد تلك الجدران.

بعد ذلك، يأتي دور الغطرسة والشعور بالفوقية اللذين يصاحبان حتمًا إنتاج كذبات ناجحة (والكذبات الناجحة افتراضيًا– وهذا هو أحد أكبر المخاطر– هي التي يبدو أن الجميع انخدع بها، لذا فالجميع أغبياء ما عداي. الجميع أغبياء ويمكنني خداعهم، ومن ثم يمكنني أن أنال ما أريد). وأخيرًا، تأتي هذه الفرضية: «الكينونة ذاتها عرضة لألاعيبي؛ لذا فهي غير جديرة بالاحترام».

هذا هو تداعي الأشياء، على النحو الذي قُطِّع به جسد أوزيريس إربًا. هذا هو انهيار بنية الإنسان أو الدولة تحت تأثير قوة خبيثة. تلك هي فوضى العالم السفلي التي تنبثق، كفيضان هائل، لتكتسح الأرض المألوفة. لكن الجحيم لم يأتِ بعد.

يأتي الجحيم لاحقًا. يأتي الجحيم عندما تؤدّي الكذبات إلى تدمير العلاقة بين الفرد أو الدولة وبين الواقع ذاته. تتداعى الأشياء؛ وتفسد الحياة؛ ويتحوَّل كل شيء إلى إحباط وخيبة أمل. يضيع الأمل على الدوام؛ ويحاول الشخص المخادع بيأس التقرّب بقربان –مثل قابيل– لكنه يُخفق في نيل رضا الله. ثم يحِلُّ المشهد الدرامي الأخير.

يمتلئ الشخص الكاذب بالمرارة لما يكابده من عذاب بسبب فشله المستمر. ويندمج الإحباط والفشل معًا لينتجا وهمًا مفاده: العالم مصمّمٌ على إيلامي، وتعذيبي، وتدميري. أحتاج إلى أن أنتقم لنفسي، ويَجدُر بي ذلك، ولا بد لي أن أفعل ذلك. تلك هي البوابة إلى الجحيم. وحينها يصبح العالم السفلي –وهو مكان مرعب وغير مألوف– هو البؤس ذاته.

وفقًا لتقاليد الثقافة الغربية العظيمة، فإن كلمة الله حوَّلت «الفوضى» إلى «كينونة» في بداية الزمان. ومن المعروف، في هذه الثقافة، أن الرجل والمرأة على السواء قد خُلِقا على صورة الله. ومن ثمَّ، فإننا نحن أيضًا نحوّل الفوضى إلى «كينونة» بواسطة الكلمة؛ نحول احتمالات المستقبل الكثيرة إلى حقائق واقعية في الماضي والحاضر.

عندما تقول الصدق، فإنك بذلك تخلق الصورة المثلى للواقع. الصدق يبني صروحًا قادرة على الصمود لآلاف السنين. الصدق يُطعم الفقراء، ويكسي العراة، ويَهب الأمم الثراء والأمان. الصدق يختزل التعقيد الرهيب للإنسان في كلمةٍ بسيطة يقولها، بحيث يصبح شريكًا بدلًا من أن يكون عدوًا. الصدق يجعل الماضي ماضيًا بحق، ويحقّق الاستفادة المثلى من احتمالات المستقبل. الصدق هو المورد النهائي والمعين الطبيعي الذي لا ينضب. الصدق هو النور الذي يبدّد الظلام.

عليك أن ترى الصدق؛ وأن تقول الصدق.

لن يأتي الصدق متخفيًا في صورة آراء يُعبِّر عنها الآخرون، لأن الصدق ليس مجموعة من الشعارات وليس أيديولوجية من الأيديولوجيات. وإنما الصدق ذو طابع شخصي. فصدقك شيء لا يستطيع أحد معرفته سواك، وهو يعتمد على الظروف الفريدة لحياتك أنت. عليك إذًا أن تعي وتفهم صدقك الشخصي. انقله بعناية وبوضوحٍ لنفسك وللآخرين. هذا كفيل بأن يضمن لك مزيدًا من الأمن والاستقرار في حياتك، في ظل بنية معتقداتك الحالية. كذلك سيضمن لك الخير في مستقبلك، الذي سينبثق من يقينيات الماضي.

ينبثق الصدق مُتجدِّدًا على الدوام من أعمق منابعِ «الكينونة». وسوف يحمي روحك من الذبول والموت بينما تواجه المأساة الحتمية للحياة، وسيساعدك على تجنّب الرغبة الرهيبة في الانتقام لتلك المأساة؛ التي هي جزء من الخطيئة المروِّعة للكينونة، والتي لا بد لكل مخلوق أن يتحمّلها بلا تذمّر وبلا جزع، فقط كي يتسنّى له الوجود.

إذا لم تكن حياتك تسير على أفضل نحو ممكن، فجرّب قول الصدق. وإذا كنت تتشبث بأيديولوجية ما باستماتة، أو تجد نفسك مُستغرقًا في العدمية، فجرب تحرِّيَ الصدق. وإذا كنت تشعر بأنك ضعيف ومنبوذ، وقانط ومرتبك، فجرّب التزام الصدق. في الجنة، الجميع يقولون الصدق، وهذا ما يجعلها جنة.

تحرَّ الصدق إذًا؛ أو على الأقل، لا تكذب.

القاعدة 9

افترِض أن الشَّخص الذي تنصت إليه ربما كان يعرف شيئًا لا تعرفه

ليست نصيحة

العلاج النفسي ليس نصيحة. النّصيحةُ هي ما تتلقّاه عندما يتمنّى الشّخص الذي تتحدّث معه عن شيءٍ فظيعٍ ومعقَّدٍ أن تصمت وتغرب عن وجهه. النّصيحة هي ما تحصل عليه عندما يريد الشخص الذي تتحدَّث إليه أن يسعد ويبتهج بتفوّقه عليك في الذّكاء؛ فعلى أية حال، لو لم تكن غبيًّا جدًّا، لما كنت تواجه مشكلاتك الغبيّة مثلك.

العلاج النفسي هو محادثة صادقة. والمحادثة الصادقة هي الاستكشاف، والتعبير، ووضع الاستراتيجيات. وعندما تشارك في محادثة صادقة، فأنت تنصت وتتحدّث؛ لكنك تنصت في معظم الوقت. والإنصات يعني الانتباه. ولسوف يدهشك ما سيخبرك به الناس لو أنك كنت تنصت بحقٍّ. ففي

بعض الأحيان، إذا كنتَ تنصت إلى الناس بصدقٍ، فسيخبرونك بعيوبهم وأخطائهم. وفي بعض الأحيان، سيخبرونك حتى كيف يخطِّطون لإصلاحها. وفي بعض الأحيان، سيساعدك هذا على إصلاح عيبٍ لديكَ أنتَ نفسك. في إحدى المرات المدهشة (وهي ليست سوى مرّة واحدة من مرّات كثيرة حدثت فيها مثل هذه الأشياء)، كنت أنْصت إلى إحدى السيدات بعناية فائقة، وأخبرتني في غضون دقائق بأنها: (أ) ساحرة، وبأن (ب) مجموعة الساحرات التي تنتمي إليها كانت تقضي الكثير من وقتها في مناقشة السلام العالمي. كانت هذه السّيدة موظّفة في مستوًى متدنٍّ لفترة طويلة من الوقت في وظيفة بيروقراطية. ما كنت لأستطيع أن أخمّن أبدًا أنها تمارس السحر؛ كما أنني لم أكن أعرف أن الساحرات تقضين قدرًا من وقتهنّ في التّفكر بالسلام العالمي. كذلك لم يمكنني أن أعرف ما الذي أفهمه من حديثها، لكنّه لم يكن حديثًا مملًّا، وهذا أمر جيِّد.

في ممارستي للطبِّ النّفسي السريري، أتحدّث وأنْصت. أتحدّث أكثر مع بعض الناس، وأنْصت أكثر للبعض الآخر. وكثيرون من الأشخاص الذين أنصت لهم ليس لديهم أحدٌ آخر يتحدّثون إليه. بعض هؤلاء الناس وحيدٌ حقًّا في هذا العالم. ومثلُ هؤلاء الأشخاص الوحيدين أكثر بكثير مما تظنّ.

إنك لا تلتقي بهم لأنهم وحيدون. والبعض الآخر يحيط به أشخاصٌ مستبدون، أو نرجسيون، أو سُكارى، أو مصابون بصدمة، أو يلعبون دور الضحية باحترافٍ. وبعضٌ ثالث لا يجيد التعبير عن نفسه؛ يعيش في الظلِّ، ويكرِّر نفسه، ويقول أشياء غامضة ومتناقضة. وهؤلاء يصعب الإنصات إليهم. وآخرون تحدث من حولهم أشياء فظيعة؛ إذ لديهم آباء مصابون بمرض ألزهايمر أو أطفال مرضى، ولا يتبقى من وقتهم الكثير للتعامل مع مخاوفهم الشخصية.

في إحدى المرّات، دخلت مكتبي عميلة كانت تزورني منذ بضعة أشهر(57) في الموعد المحدّد سلفًا للزيارة، وبعد بعض المقدِّمات التمهيدية القصيرة، قالت لي: «أظن أنني تعرّضت للاغتصاب». ليس من السهل معرفة كيفية الاستجابة لمثل هذا التصريح، رغم أنه كثيرًا ما يكون هناك بعض الغموض المحيط بالحوادث. فكثيرًا ما يكون للكحوليات دخلٌ بالأمر، كما هو الحال في غالب حالات الاعتداء الجنسي. فالكحوليات يمكن أن تسبّب الغموض؛ وهذا أحد الأسباب التي تجعل الناس يشربون الكحوليات. ترفع الكحوليات عن الناس مؤقتًا العبء الرهيب للوعي بالذات. فالسُكارى يعرفون بشأن المستقبل، لكنهم لا يبالون به. هذا أمر

مثير؛ ومبهج بالنسبة إليهم. يستطيع السُكارى أن يحتفلوا ويعربدوا كما لو لم يكن ثمة غدٌ قادمٌ. لكن لأن الغد قادمٌ لا محالة -في أغلب الأحيان- يُدخِل السُكارى أنفسهم في المتاعب أيضًا؛ فيفقدون الوعي، ويذهبون إلى أماكن خطيرة مع أناس طائشين؛ حيث يمرحون ويصخبون، لكنهم أيضًا يتعرّضون للاغتصاب. لذا، فقد فكّرت على الفور أن ما حدث ربما كان شيئًا من هذا القبيل. وإلا فكيف لي أن أفهم كلمة «أظنّ» في عبارتها؟ لكن هذه لم تكن نهاية القصّة؛ فقد أضافت تفصيلة أخرى: « خمس مرات». كانت الجملة الأولى بشعة بما فيه الكفاية، لكن الثانية أنتجت شعورًا رهيبًا لا يمكن سبر أغواره من هول فظاعته. خمس مرات؟ ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟

أخبرتني عميلتي أنها كانت تذهب إلى البار وتتناول بعض المشروبات؛ ومن ثمَّ يبدأ أحدهم في التحدّث معها. وكان ينتهي بها المطاف معه في بيته، أو في بيتها. ثم تمضي الأمسية حتمًا إلى ذروتها الجنسية. وفي اليوم التالي، كانت تستيقظ غير متيقّنة مما حدث؛ غير متيقّنة من دوافعها، وغير متيقّنة من دوافعه، وغير متيقّنة من العالم بأسره. كانت الآنسة «س»، وهو الاسم الذي سندعوها به، تستيقظ في حالة من الغموض تصل إلى حدّ انعدام

الوجود. كانت شبحَ إنسانٍ. إلا أنها كانت ترتدي ملابسها باحترافيّة ومهنيّة. كانت تعرف كيف تقدّم نفسها في الظهور الأول، لتترك انطباعات جيّدة. ونتيجة لذلك، تمكّنت من شق طريقها لتصبح عضو مجلس استشاري حكومي يدرس إنشاء بنية تحتية أساسية لأحد مشاريع النقل العملاقة (على الرغم من أنها لم تكن تفقه شيئًا عن الحكومة، أو المجالس الاستشارية، أو مشاريع البناء). كذلك كانت تقدّم برنامجًا إذاعيًا محلّيًا للجمهور متخصِّصًا في شؤون المشاريع الصغيرة، على الرغم من أنها لم تعمل في وظيفة حقيقية قطّ، ولم تكن تعرف شيئًا عن ريادة الأعمال. لقد كانت تعيش على مساعدات الرعاية الاجتماعية طوال فترة رشدها.

لم يقدِّم لها والداها ولو دقيقة واحدة من الاهتمام؛ وكان لديها أربعة أشقاء، ولم يكونوا يعاملونها معاملة طيّبة على الإطلاق. لم يكن لديها أي أصدقاء، لا حينها، ولا في الماضي. ولم يكن لديها شريك حياة. لم يكن لديها أحدٌ تتحدّث إليه، ولم تكن تعرف كيف تفكِّر تفكيرًا مستقلًّا (وليس هذا بالأمر النادر). لم يكن لديها ذات؛ بل كانت بالأحرى نغمة نشازٍ من تجارب مشتتةٍ غير مترابطة. كنت قد حاولت قبل ذلك أن أجد لها وظيفة، فسألتها إن كانت لديها سيرة ذاتية، فردّت بالإيجاب. طلبت منها أن

تحضرها لي، فأحضرتها في جلستنا التالية. كانت سيرة ذاتية مكوّنة من خمسين صفحة. تحملها في صندوق لحفظ المجلّدات، مقسّم إلى أقسام ذات فواصل من أشرطة المانيلا؛ وهي تلك التي لها علامات فهرسة ملونة على الجانبين. تضمّنت الأقسام موضوعات مثل: « أحلامي»، و«كتب قرأتها». وكانت قد كتبت العشرات من أحلامها الليلية في قسم «أحلامي»، وقدّمت ملخصات موجزة ومراجعات للكتب التي قرأتها. كان هذا هو ما تقترح إرساله إلى أصحاب العمل المحتملين (أو لعلها أرسلته إلى بعضهم بالفعل: من يدري حقًّا؟). من المستحيل أن ندرك إلى أي مدى ينبغي على المرء أن يكون نكرة تمامًا، لكي يتواجد في عالم يكون فيه صندوقٌ لحفظ المجلّدات، يحتوي على خمسين صفحة مفهرسة تضمّ أحلامًا وروايات بمثابة سيرة ذاتية. لم تكن الآنسة «س» تعرف شيئًا عن نفسها، ولم تكن تعرف شيئًا عن الآخرين، ولم تكن تعرف شيئًا عن العالم. لقد كانت فيلمًا يُعرض بضبابية ولا يشاهده أحد، وكانت تنتظر بيأس ظهور قصّة عن نفسها تجعل كلَّ شيءٍ مفهومًا وذا مغزى.

لو أنك وضعت بعض السكّر في ماء بارد وقلَّبته، فسوف يذوب السكّر. وإذا قمت بتسخين الماء، يمكنك إذابة المزيد من السكّر. وإذا قمت

بتسخين الماء إلى درجة الغليان، يمكنك إضافة الكثير جدًّا من السكّر وجعله يذوب أيضًا. وبعد ذلك، إذا أخذت هذا المحلول السكّري المغلي، وقمت بتبريده ببطء، ولم تحرّكه أو ترجّه، فيمكنك أن تخدعه (لا أعرف كيف يمكن التعبير عن الأمر بعبارة أخرى) وتجعله يحتفظ بسكّر ذائب أكثر بكثير مما كان يمكنه أن يحتفظ به لو ظل باردًا طيلة الوقت. يُدعى هذا محلولًا فائق التشبّع. ولو أنك قمت بإسقاط بلورة واحدة من السكّر في هذا المحلول فائق التشبّع، فسوف يتبلّر كل السكّر الزائد على نحو مفاجئ ومدهش. يبدو الأمر وكأنه كان يتوق إلى النظام بشدة. كانت هذه حال عميلتي تلك. إن أناسًا مثل هذه المريضة هم السبب في نجاح جميع أشكال العلاج النفسي العديدة التي تمارس حاليًا؛ فالناس يمكن أن يكونوا في حالة حيرة شديدة إلى درجة أن تنتظم نفوسهم وتهدأ، وتتحسّن حياتهم، عن طريق تبنّي أي منظومة تأويل متّسقة ومعقولة. يؤدّي هذا إلى جمع عناصر حياتهم المشتتة والمتباينة بطريقة منظّمة؛ بأي طريقة منظّمة. وهكذا، إذا انحلّت ذاتك تمامًا وتفكّكت (أو إذا لم تكن ذاتك مجتمعة ومتّحدة معًا من قبل قط)، فيمكنك إعادة هيكلة حياتك وفقًا لمبادئ فرويد، أو يونج، أو أدلر، أو روجر، أو المبادئ السلوكية. على الأقل، حينها يكون ثمة مغزى، وتكون إنسانًا متماسكًا. على الأقل، حينها قد تصلح لشيء ما، وإن لم تكن

تصلح لكل شيء بعد. إنك لا تستطيع إصلاح سيارة بمعول، ولكنك تستطيع زرع شجرة بذلك المعول؛ وهذا شيء مفيد أيضًا.

في الوقت نفسه الذي كنت أعالج فيه هذه العميلة تقريبًا، كانت جميع وسائل الإعلام منشغلة بقصص حول استعادة الذكريات؛ لا سيما ذكريات الاعتداء الجنسي. واحتدم الجدل: هل هذه حكايات حقيقية لصدمة من الماضي؟ أم تراها تلفيقات لاحقة حلم بها المرضى نتيجة للضغط الذي مارسه عليهم معالجون نفسيون غافلون -بقصد أو بغير قصد- وتمسَّك بها بيأس مرضى سريريون متلهِّفون لإيجاد سبب بسيط لجميع متاعبهم؟ في بعض الأحيان، ربما كانت حكايات حقيقية حقًّا؛ وفي أحيان أخرى، ربما كانت مجرّد أحلام ملفّقة. إلا أنني أدركت على نحو أكثر وضوحًا وأكثر دقّة مدى السهولة التي قد يمكن بها غرس ذكرى خاطئة في المشهد العقلي للإنسان، وذلك بمجرّد أن كشفت عميلتي عن عدم يقينها بشأن تجاربها الجنسيّة. إن الماضي يبدو ثابتًا، لكنه ليس كذلك؛ ليس كذلك بمعنًى نفسيٍّ مهمٍ. فالماضي ينطوي على الكثير والكثير، والطريقة التي ننظِّم بها الماضي يمكن أن تخضع لمراجعة جذرية.

تخيّل، على سبيل المثال، فيلمًا كل أحداثه مروِّعة وفظيعة؛ ولكن كل هذه الأحداث تؤول إلى نهاية سعيدة في نهاية الفيلم. كل شيء على ما يرام. النهاية السعيدة بما يكفي يمكن أن تغيّر معنى جميع الأحداث السابقة؛ ويمكن أن يُنظر إلى هذه الأحداث على أنها كانت تستحق المشاهدة، في ضوء تلك النهاية. والآن، تخيّل فيلمًا آخر، تقع فيه الكثير من الأحداث، وهي جميعًا أحداث مثيرة، لكن هناك الكثير جدًّا منها. تمر تسعون دقيقة من زمن الفيلم، وتبدأ أنت في الشعور بالقلق. تفكِّر قائلًا لنفسك: «إنه فيلم رائع. لكن هناك الكثير من الأحداث. أرجو أن يتمكّن صانعو الفيلم من ربط جميع خيوط الأحداث ببعضها بعضًا».

لكن ذلك لا يحدث، وبدلًا من ذلك، تنتهي القصّة نهاية مفاجئة، من دون حلٍّ، أو بعد وقوع حدثٍ تافهٍ ومبتذلٍ، وتغادر أنت قاعة العرض في غاية الانزعاج والضيق وعدم الرضا؛ من دون أن تلاحظ أنك كنت مستغرقًا تمامًا ومستمتعًا كليًّا بالفيلم طوال الوقت تقريبًا. إن الحاضر يمكنه تغيير الماضي؛ والمستقبل يمكنه تغيير الحاضر.

كما أنك عندما تتذكّر الماضي، تتذكّر بعض أجزاء منه وتنسى أجزاء أخرى. إن لديك ذكريات واضحة لبعض الأشياء التي حدثت، ولكن ليس لأشياء أخرى ربما كانت ذات أهمية مساوية للأشياء التي تذكرها؛ تمامًا كما أنك في الوقت الراهن واعٍ لبعض جوانب محيطك وغير واعٍ للبعض الآخر. إنك تقوم بتصنيف تجاربك، وتجميع بعض العناصر معًا، وفصلها عن البقية. وثمة تعسّف غامض غريب بشأن كل هذا. إنك لا تصنع سجلًّا شاملًا وموضوعيًّا؛ فأنت لا يمكنك ذلك. أنت فقط لا تعرف ما يكفي؛ ولا تدرك ما يكفي. كما أنك لست موضوعيًا أيضًا. أنت كائنٌ حيٌّ؛ أنت ذاتي وغير موضوعي؛ ولديك عادةً مصالح شخصية – على الأقل في نفسك. فما الذي يجب إدراجه في قصتك بالضبط؟ وأين هي بالضبط الحدود بين الأحداث؟

يعدُّ الاعتداء الجنسيُّ على الأطفال أمرًا شائعًا إلى حدٍّ مؤلمٍ(156)، إلا أنه ليس شائعًا بالقدر الذي يظنّه المعالجون النفسيون الذين تلقّوا تعليمًا رديئًا، كما أنه لا يفرز دائمًا بالغين مصابين بأضرار نفسية جسيمة(157). إن الناس يختلفون في درجات مرونتهم. فحدَثٌ واحدٌ يمكن أن يطيح بكيان شخص ما، ولكنه لا يستطيع أن ينال من شخص آخر سوى بقدرٍ ضئيلٍ. لكن المعالجين الذين لا يعرفون فرويد جيّدًا غالبًا ما يفترضون على نحو

بديهي أن الشخص البالغ الذي يعاني من الكرب لا بد أن يكون قد تعرّض للاعتداء الجنسي في الطفولة؛ وإلا لماذا هو في كرَب؟ لذا فإنهم ينقِّبون، ويستنتجون، ويلمحون، ويوحون، ويبالغون في ردة فعلهم، وينحازون، ويميلون؛ ويبالغون في أهمية بعض الأحداث، ويهوِّنون من شأن أحداث أخرى؛ ويهذِّبون الحقائق لتُناسب نظرياتهم(158). وفي النهاية يقنعون مرضاهم بأنهم تعرّضوا للاعتداء الجنسي، ولكنهم لا يتذكّرون. ثم يبدأ المرضى في التذكّر؛ ثم يبدأون في توجيه الاتهامات. وفي بعض الأحيان، يتذكّرون أشياء لم تحدث قط، ويتّهمون أشخاصًا أبرياء. وهل ثمة خبر جيّد بعد كل هذا؟ الخبر الجيّد هو أن نظريّة المعالج، على الأقل، تظلّ قائمة. وهذا جيّد؛ بالنسبة للمعالج. لكن بعض الأضرار الجانبية تحدث. إلا أن الناس غالبًا ما يكونون مستعدّين لإحداث الكثير من الأضرار الجانبية، لو كان ذلك سيمكِّنهم من الحفاظ على نظرياتهم.

كنت أعرف كل هذا عندما جاءت الآنسة «س» للتحدّث معي عن تجاربها الجنسية. وعندما حكت لي عن رحلاتها إلى حانات العُزّاب، وما كان يحدث بعدها على نحو متكرِّر، جالت بخاطري عدة أفكار في وقت واحد. قلت في نفسي: «أنت غامضة للغاية، وإنسانة غائبة عن الوجود

تمامًا. أنت من سكان الفوضى والعالم السفلي. إنك قادرة على الذهاب إلى عشرة أماكن مختلفة في الوقت نفسه. ويمكن لأي شخص أن يأخذك من يدك ويوجّهك في أي طريق شاء». فعلى أيّ حال، إذا لم تكن أنت من يُسيِّر دراما حياتك الشخصية، فأنت تلعب دورًا تافهًا في حياة شخص آخر؛ ولعله يخصِّص لك دورًا كئيبًا، وحيدًا، ومأساويًّا. وبعد أن حكت الآنسة «س» قصّتها، جلسنا صامتَيْن. قلت في نفسي: « لديك رغبات جنسيّة طبيعيّة. إنك وحيدة للغاية؛ ولا تنالين الإشباع الجنسي. أنت خائفة من الرجال، وجاهلة بالعالم، ولا تعرفين شيئًا عن نفسك. أنت تتسكّعين هنا وهناك كحادثة تنتظر أن تقع، وهي تقع بالفعل، وتلك الحادثة هي حياتك».

وفكّرت بيني وبين نفسي: «جزء منك يريد أن يؤخذ عنوة. وجزء منك يريد أن يكون طفلًا. لقد أساء إخوتك معاملتك، وتجاهلك والداك، لذا فإن جزءًا منك يريد الانتقام من الرجال. جزء منك مذنب، وجزء آخر يشعر بالخزي. جزء منك يشعر بالبهجة والحماسة. من أنت؟ ماذا فعلت في حياتك؟ ماذا حدث لك؟». وماذا كانت الحقيقة الموضوعية؟ لم يكن ثمة سبيل لمعرفة الحقيقة الموضوعية، ولن يكون ثمة سبيل لذلك. لم يكن ثمة مراقبٌ موضوعيٌّ، ولن يكون ثمة مراقبٌ كهذا قط. لم تكن هناك قصة كاملة

ودقيقة. لم يكن ثمة وجود لشيء كهذا، ولن يكون. كانت هناك فقط، ولا تزال، روايات غير مكتملة ووجهات نظر مجزّأة. لكن بعض الروايات ووجهات النظر أفضل من بعضها الآخر. إن الذاكرة ليست وصفًا للماضي الموضوعي. الذاكرة أداة. الذاكرة هي مرشد من الماضي من أجل المستقبل. فإذا كنت تذكر أن شيئًا سيّئًا حدث في الماضي، وكنت تعرف سبب حدوثه، فيمكنك تجنّب حدوث هذا الشيء السيئ مرة أخرى في المستقبل. هذا هو الغرض من الذاكرة. إنه ليس «أن نتذكّر الماضي»؛ وإنما أن نمنع حدوث الشيء البغيض نفسه مرارًا وتكرارًا.

قلت لنفسي: «يمكنني تبسيط حياة الآنسة «س». أستطيع أن أقول لها إن شكوكها بشأن الاغتصاب مبرّرة تمامًا، وأن شكّها في الأحداث ليس سوى دليلٍ إضافيٍّ على لعبها دور الضحية بشكلٍ كاملٍ ولوقت طويل. كان يمكنني أن أؤكّد لها أن شركاءها الجنسيين كانوا ملزَمين، بموجب القانون، بأن بأن يتأكدوا أنها لم تسرف في شرب الكحول إلى الحد الذي يجعلها توافق على المعاشرة الجنسية. كنت أستطيع أن أقول لها إنها تعرّضت بلا جدال لأفعال عنيفة محظورة وغير مشروعة، إلا إذا كانت قد وافقت على كل حركة جنسية موافقة صريحة ولفظية. كنت أستطيع أن أقول لها إنها

كانت ضحيّة بريئة». كنت أستطيع أن أخبرها بكل هذا؛ وكان هذا سيكون صحيحًا. وكانت هي ستقبله على أنه صحيح، وتتذكّره طوال ما بقي من حياتها. كانت ستصبح إنسانة جديدة، لها تاريخ جديد، ومصير جديد.

لكنني فكّرت أيضًا قائلًا لنفسي: «يمكنني أن أخبر الآنسة «س» بأنها كارثة تمشي على الأرض. يمكنني أن أخبرها أنها تتسكّع لتدخل حانة مثل مومس في غيبوبة، وأنها تشكِّل خطرًا على نفسها، وعلى الآخرين، وأنها بحاجة إلى الاستيقاظ، وأنها إذا كانت تذهب إلى حانات العُزّاب وتتناول كميات كبيرة من الكحوليات، ويصطحبها أحدهم إلى البيت ليمارس معها الجنس بعنف وبقسوة (أو حتى برقة ولطف)، فما الذي يمكنها أن تتوقّعه من كل هذا بحق الجحيم؟». وبعبارة أخرى، كان يمكنني أن أخبرها – بعبارات أكثر فلسفية– أنها تمثل «المجرم الشاحب» في كتابات نيتشه؛ وهو الشخص الذي يجرؤ في لحظة من اللحظات على خرق القانون المقدّس، وفي اللحظة التالية يخشى دفع الثمن. وكان ذلك أيضًا سيكون صحيحًا، وكانت ستقبله على أنه صحيح، وتتذكّره.

لو أنني كنت متمسِّكًا بأيديولوجية يسارية مناصرة للعدالة الاجتماعية، لكنت أخبرتها بالقصّة الأولى. ولو أنني كنت متمسِّكا بأيديولوجية متحفِّظة،

لأخبرتها بالقصّة الثانية. وكانت استجاباتها بعد أن أخبرها بأيٍّ من القصّتين، الأولى أو الثانية، ستُثبت أن القصة صحيحة على نحو يرضيني ويرضيها؛ صحيحة تمامًا ولا يمكن دحضها. وكانت هذه لتسمّى «نصيحة».

اكتشف الحقيقة من أجل نفسك

لكنني بدلًا من ذلك، قررت الإنصات. لقد تعلّمت ألّا أسرق مشكلات العملاء. لا أريد أن أكون البطل المخلِّص أو المنقذ في قصّة شخص آخر. إنني لا أريد حياتهم. لذا فقد طلبت منها أن تخبرني بما تظنّه، وأنصتُّ إليها. وتحدّثت هي كثيرًا. وعندما انتهينا، ظلّت غير متيقّنة ما إذا كانت قد تعرّضت للاغتصاب أم لا، وأنا كذلك. كم هي الحياة معقّدة.

في بعض الأحيان، يتعيّن عليك تغيير الطريقة التي تفهم بها كل شيء فقط لكي تفهم شيئًا واحدًا بشكل صحيح. إن سؤال: « هل تعرّضت للاغتصاب؟»، قد يكون سؤالًا معقّدًا للغاية؛ إذ تشير حقيقة طرح السؤال

بهذه الصيغة إلى وجود طبقات لا حصر لها من التعقيد؛ ناهيك عن التعرّض للاغتصاب «خمس مرات». ثمّة عددٌ لا يُحصى من الأسئلة المتضمّنة في سؤال: «هل تعرَّضت للاغتصاب؟»؛ ومن بينها: ما هو الاغتصاب؟ ما هو القبول؟ ما الذي يمثّل تحذيرًا جنسيًّا مناسبًا؟ كيف ينبغي للمرء أن يدافع عن نفسه؟ أين يكمن الخطأ؟ إن سؤال: «هل تعرَّضت للاغتصاب؟» بمثابة «هيدرا»؛ إذا قطعت رأسها، نمت لها سبعة رؤوس. وتلك هي الحياة. كانت الآنسة «س» ستحتاج إلى التحدّث لمدة عشرين سنة لكي تعرف ما إذا كانت قد تعرَّضت للاغتصاب أم لا. وكان لا بد من وجود شخصٍ ما لينصت إليها؛ وأنا بدأت معها تلك العملية، ولكن بعض الظروف جعلت من المستحيل بالنسبة إليَّ أن أنهيها. توقفت المريضة عن متابعة العلاج النفسي معي وهي أفضل حالًا بقليل مما كانت عليه عندما قابلتني للمرة الأولى. لكنها على الأقل لم تتركني وهي مجرّد تجسيدٍ حيٍّ لأيديولوجية لعينة أنا صاحبها.

إن الأشخاص الذين أنصت إليهم يحتاجون إلى التحدّث، لأن تلك هي الطريقة التي يفكّر بها الناس. ويحتاج الناس إلى التفكير؛ وإلا فإنهم يتخبّطون على غير هدى كالعميان. وعندما يفكّر الناس، فإنهم يحاكون

العالم، ويخطِّطون لكيفية التصرّف فيه. وإذا استطاعوا محاكاة العالم جيّدًا، فيمكنهم أن يعرفوا ما هي الأشياء الحمقاء التي لا ينبغي عليهم فعلها؛ ومن ثمَّ لا يفعلونها؛ وبالتالي يتجنّبون معاناة عواقبها. تلك هي الغاية من التفكير. لكننا لا نستطيع أن نفكّر وحدنا. إننا نحاكي العالم، ونخطِّط لكيفية تصرُّفنا فيه. البشر وحدهم يستطيعون فعل هذا، وهذا هو مقدار براعتنا وروعتنا. إننا نصنع من أنفسنا بعض التجسيدات الوهمية، ونضع تلك التجسيدات في عوالم خيالية، ثم نشاهد ما يحدث. فإذا نجح التجسيد، فإننا نحاكي أفعاله وتصرّفاته في العالم الحقيقي. ومن ثمَّ نحقِّق النجاح والازدهار بدورنا (كما نأمل). وإذا فشل التجسيد، فإننا لا نحاكيه، إذا كان لدينا شيء من عقل؛ بل نتركه يموت في العالم الخيالي، حتى لا نضطر إلى الموت حقًّا في العالم الواقعي.

تخيَّل طفلَيْن يتحدّثان. يقول الأصغر منهما: «ألن يكون من الممتع التسلق صعودًا إلى السطح؟». بهذا يكون قد وضع بالفعل تجسيدًا لنفسه في عالمٍ خياليٍّ على سطح المنزل. لكن أخته الكبرى تعترض، وتقول محذِّرة: «هذا فعلٌ أحمقُ؛ فماذا لو سقطت عن السطح؟ وماذا لو اكتشف والدنا ما فعلت؟». وحينها يمكن للطفل الأصغر تعديل المحاكاة الأصلية،

واستخلاص النتيجة المناسبة، وترك ذلك العالم الخيالي كلّه يذوي ويختفي. ويمكنه ألا يفعل ذلك. ربما كانت المخاطرة تستحق من وجهة نظره. لكنه الآن يستطيع أن يضعها في اعتباره على الأقل. إن العالم الخيالي أكثر اكتمالًا بعض الشيء، والتجسيدات الخيالية أكثر حكمةً بقليل.

يعتقد الناس أنهم يفكِّرون، لكن هذا ليس صحيحًا؛ فغالبًا ما يكون نقد الذات هو ما يعتبره الناس تفكيرًا. أما التّفكير الحقيقي فهو أمر نادر الحدوث؛ تمامًا مثل الإنصات الحقيقي. التفكير هو الإنصات إلى نفسك؛ وهو صعب. فلكي تفكّر، ينبغي أن تكون شخصَيْن على الأقل في الوقت ذاته؛ ثم عليك أن تدع هذين الشخصين يختلفان في الرأي. التّفكير هو حوار داخلي بين منظورين مختلفين للعالم، أو أكثر من منظورين. المنظور الأول هو تجسيد في عالم محاكاة؛ وله تمثيلاته الخاصّة للماضي والحاضر والمستقبل، وأفكاره الخاصّة حول كيفية التصرّف. وكذلك الحال بالنسبة للمنظور الثاني، وأيضًا الثالث، والرابع. التفكير هو العمليّة التي تتخيّل بها هذه التجسيدات عوالمها، وتعبّر بها عن تلك العوالم لبعضها البعض. ولا يمكنك أن تضع تجسيدات لأناس ضعفاء في مواجهة بعضهم بعضًا عندما تفكّر، لأنك حينها لا تكون تفكّر؛ وإنما تمنطق الأمور وتلفّق. أنت فقط

تجعل خصمًا ضعيفًا يواجه ما تريده لكي لا تضطر إلى تغيير رأيك. أنت تمارس الدعاية، والخداع، وتستخدم استنتاجاتك لتبرير فرضياتك. أنت تختبئ من الحقيقة.

التفكير الحقيقي مُعقَّد وصعب؛ فهو يتطلّب منك أن تكون متحدِّثًا واضحًا، مُبينًا، ومنصتًا، يقظًا، لبيبًا في الوقت نفسه. إنه ينطوي على صراعٍ؛ لذا عليك أن تتحمّل الصراع. والصراع ينطوي على مفاوضات وتسويات. لذا عليك أن تتعلَّم الأخذ والعطاء، وتعديل افتراضاتك، وضبط أفكارك؛ وحتى تصوّراتك عن العالم. وأحيانًا يؤدّي هذا إلى هزيمة وإقصاء أحد التجسيدات الداخلية أو أكثر. وتلك التجسيدات لا تحبّ الهزيمة أو الإقصاء بدورها؛ فمن الصعب بناؤها، وهي ذات قيمة كبيرة. إنها حيّة، وتحبّ أن تبقى حيّة، وسوف تقاتل لكي تبقى حيّة. ومن الأفضل لك أن تنصت إليها؛ وإن لم تفعل فسوف تنتقل إلى العالم السفلي وتتحوّل إلى شياطين تعذّبك وتؤرقك. ونتيجة لذلك، فإن التفكير مؤلم عاطفيًّا، وصعب نفسيًّا، أكثر من أي شيء آخر؛ باستثناء عدم التفكير. لكن يجب أن تكون شديد الوضوحِ والتطوّر والرقيّ لكي يحدث كل ذلك داخل رأسك.

ماذا تفعل، إذًا، إذا لم تكن تجيد التفكير، أي تجيد أن تكون شخصين في وقت واحد؟ هذا سؤال سهل. عليك أن تتحدّث. لكنك تحتاج إلى

شخصٍ ينصت إليك. والشخص الذي ينصت إليك هو مؤيِّد وخصم لك في الوقت نفسه.

الشّخص المنصت يقوم باختبار حديثك (وتفكيرك) من دون حاجة إلى قول أي شيء. الشّخص المنصت هو ممثل للإنسانية. إنه يمثل عامّة الناس. ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال أن عامّة الناس دائمًا ما يكونون على صواب، ولكنهم عادة ما يكونون على صواب. لذا، إذا قلت شيئًا أفزع جميع من حولك وأجفلهم، فعليك إعادة النظر في ما قلته. وأنا أقول هذا برغم معرفتي التامّة بأن الآراء الصادمة المثيرة للجدل تكون صحيحة أحيانًا؛ بل أحيانًا تكون صحيحةً إلى حدٍّ أن عامّة الناس سوف يهلكون إذا رفضوا الإنصات إليها. ولهذا السبب –وغيره من الأسباب– يكون المرء ملزمًا أخلاقيًّا بالتعبير بصدقٍ عن تجربته الشخصية. لكن الأشياء الجديدة تمامًا والثورية غالبًا ما تكون خاطئة. إنك بحاجة لأسباب وجيهة –بل وجيهة جدًّا– لكي تتجاهل، أو تعارض، الرأي العام السائد. فهذا الرأي العام هو ثقافتك. إنها شجرة عملاقة، وأنت تجلس على أحد فروعها. فإذا انكسر ذلك الفرع الذي تجلس عليه، فسيكون طريق السقوط إلى الهاوية طويلًا؛ وربما أطول مما تظنّ. إذا كنت تقرأ هذا الكتاب، فثمّة احتمال كبير أنك

شخص مميّز؛ فأنت تستطيع القراءة، ولديك وقت للقراءة. أنت تجلس عاليًا وسط السحاب؛ وقد استغرق الأمر أجيالًا لا حصر لها لكي تصل إلى ما أنت عليه الآن. وربما كان الواجب إظهار بعض الامتنان. فإذا كنت مصرًّا على فهم العالم وتسييره بطريقتك، فمن الأفضل أن تكون لديك أسبابٌ وجيهة. إذا كنت ستتمسّك بموقفك، فمن الأفضل أن تكون لديك أسبابٌ وجيهة. ومن الأفضل أن تكون قد أمعنت التفكير فيها بتأنٍ وتروٍّ؛ وإلا فإنك قد تكون مقبلًا على أوقات عصيبة للغاية. عليك أن تفعل مثلما يفعل بقية الناس، إلا إذا كان لديك سببٌ وجيهٌ للغاية يجعلك لا تفعل لذلك. إذا كنت تسير في خندق، فأنت تعلم على الأقل أن أناسًا آخرين سلكوا هذا السبيل. وكثيرًا ما يعني الخروج من هذا الخندق أنك ستضلّ الطريق. وفي البرّيّة القاحلة التي تنتظرك بعيدًا عن الطريق الصحيح، ثمة قطّاعُ طُرُقٍ ووحوشٌ.

هذا هو صوت الحكمة.

يمكن للشّخص المنْصِت أن يعكس عامّة الجمهور؛ وهو يستطيع أن يفعل ذلك من دون أن يتحدّث. يستطيع أن يفعل ذلك فقط عن طريق جعل المتحدِّث ينْصت إلى نفسه؛ وهذا ما أوصى به فرويد. كان فرويد يجعل مرضاه يستلقون على أريكة، وينظرون إلى السقف، ويتركون عقولهم تهيم، ويقولون ما يجول في خواطرهم. تلك هي طريقته المسمّاة « التداعي الحرّ»(58). وتلك هي الطريقة التي يتجنّب بها المحلّل النفسي الفرويدي نقل تحيّزاته وآرائه الشخصية إلى المشهد الداخلي لعقل المريض. ولهذه الأسباب لم يكن فرويد يواجه مرضاه. لم يكن يرغب في تغيير تأمّلاتهم العفوية عن طريق تعبيراته العاطفية، مهما كانت طفيفة. كان قلقًا – كما ينبغي له أن يكون– من أن تنعكس آراؤه الشخصية – والأسوأ من ذلك، مشكلاته الشّخصيّة التي لم يجد لها حلًّا– على نحو خارج نطاق سيطرته في استجاباته وردود أفعاله، الواعية وغير الواعية على حدٍّ سواء. كان يخشى أنه بهذه الطريقة سيؤثّر سلبًا على تطوّر مرضاه. ولأسباب كهذه أيضًا، أصرّ فرويد على ضرورة التحليل النفسي للمحلّلين النفسيين أنفسهم. لقد أراد من أولئك الذين يمارسون طريقته أن يكتشفوا بعض أسوأ البقع العمياء

والتحيّزات المسبقة في أنفسهم، ويتخلّصوا منها، لكي لا يمارسوا التحليل النفسي على نحو فاسد. وكان لدى فرويد بعض الحق؛ فقد كان عبقريًا على كل حال. يمكنك أن تدرك ذلك من كراهية الناس له حتى الآن. لكن نهج الانفصال والابتعاد الذي أوصى به فرويد كانت تشوبه بعض العيوب أيضًا. فالعديد من الأشخاص الذين يلتمسون العلاج النفسي يرغبون في علاقة وثيقة وشخصية بقدر أكبر، بل هم يحتاجون إلى ذلك (على الرغم من أن ذلك أيضًا ينطوي على مخاطر أخرى). وكان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أفضل أسلوب المحادثة في ممارستي العلاجية على النهج الفرويدي؛ وهو ما يفضّله كذلك معظم علماء النفس السريري.

قد يكون من المفيد لعملائي رؤية ردود أفعالي. ومن أجل حمايتهم من التأثير غير الضروري الذي قد ينتج، أحاول تحديد هدفي على نحو صحيح، بحيث تظهر استجاباتي نتيجة للدافع المناسب. لذا أبذل كل جهدي لكي أريد لهم الأفضل (أيًّا كان ذلك الأفضل). أحاول تصفية ذهني، وتنحية اهتماماتي الشخصيّة جانبًا. وبهذه الطريقة، أركّز فقط على ما هو أفضل لعملائي، بينما أكون متنبِّهًا في الوقت نفسه لأي إشارات قد تدلّ على أنني أسيء فهم هذا الأفضل؛ فهذا الأفضل هو شيء يجب التفاوض عليه، وليس

افتراضه تعسّفيًّا من جانبي. إنه شيء يجب التعامل معه بعناية فائقة من أجل التخفيف من مخاطر التفاعل الشخصي الوثيق. يتحدّث العميل، وأنصت أنا؛ وأحيانًا أستجيب. وكثيرًا ما تكون الاستجابة خافتة؛ وأحيانًا لا تكون حتى لفظية. يواجه كل منا الآخر، ونكون على اتصال بالعين، ويمكننا رؤية تعبيرات أحدنا الآخر. يمكنه رؤية آثار كلماته عليَّ، ويمكنني رؤية آثار كلماتي عليه، ويمكنه الاستجابة لردود أفعالي.

قد يقول لي العميل: «إنني أكره زوجتي». وبمجرد أن ينطق بعبارة كهذه، لا يمكن التراجع عنها. لقد خرجت من العالم السفلي، وتجسّدت من الفوضى، وأظهرت نفسها. لقد أصبحت معروفة وملموسة، ولم يعد من السّهل تجاهلها. لقد أصبحت حقيقة. لعلّ المتحدّث نفسه جفل منها؛ وهو يرى الشعور نفسه منعكسًا في عيني. يلاحظ ذلك، ويتابع حديثه ليصل إلى الصحة العقلية والاستقامة، فيقول: «مهلًا. هذا أقسى مما تستحق. أحيانًا أكره زوجتي. أكرهها حين لا تخبرني بما تريد. كانت أمي تفعل ذلك طوال الوقت أيضًا. لقد دفعت أبي إلى حافة الجنون؛ بل دفعتنا جميعًا إلى حافة الجنون، لكي أكون صادقًا معك. بل دفعت نفسها إلى الجنون! كانت إنسانة طيبة، لكنها كانت شديدة الاستياء. حسنًا، على الأقل زوجتي ليست

على نفس القدر من السوء. ليست كذلك على الإطلاق. مهلًا! أعتقد أن زوجتي تخبرني عادةً بما تريده، لكنني أنزعج بشدّة عندما لا تفعل ذلك، لأن أمّي عذّبتنا جميعًا بلعبها دور الضحية. لقد أثّر ذلك فيَّ حقًّا. لعلّي كنت أبالغ الآن في رد فعلي حين يحدث ذلك ولو بقدرٍ ضئيلٍ من جانب زوجتي. مهلًا! إنني أتصرّف تمامًا مثلما كان يفعل أبي عندما كانت أمي تزعجه! هذا ليس أنا. ولا شأن لزوجتي بأي شيء من هذا! من الأفضل أن أخبرها بهذا».

وألاحظ أنا من كل هذا أن عميلي قد فشل في السابق في التمييز بين زوجته ووالدته على نحو صحيح. وأرى أن روح والده كانت تستحوذ عليه؛ من دون وعيٍ منه. ويرى هو بدوره كلَّ ذلك. وحينها يصبح أكثر قدرة على التمييز، وأقل ارتباكًا، وأقل حيرة بقليل. حينها يكون قد رتق ثقبًا صغيرًا في نسيج ثقافته. ومن ثمَّ يقول: «كانت هذه جلسة جيّدة يا دكتور بيترسون»، وأومئ برأسي موافقًا. يمكنك أن تكون في غاية البراعة والذكاء فقط لو كنت تستطيع السكوت والإنصات.

يمكنني أن أكون شريكًا متعاونًا وخصمًا في الوقت نفسه حتى حين لا أتحدّث. يحدث هذا رغمًا عني؛ فتعبيرات وجهي تعلن عن استجابتي، حتى إذا كانت استجابة بسيطة. لذا فإنني أتواصل حتى عندما أكون صامتًا؛ وهو

ما شدَّد عليه فرويد وكان محقًّا فيما ذهب إليه. لكنني أتحدّث أيضًا في جلساتي السريرية. وكيف أعرف متى ينبغي لي أن أقول شيئًا؟ أولًا، كما ذكرت سابقًا، أضع نفسي في الإطار الذهني السليم، ثم أحدّد الهدف الصحيح؛ إذ أريد أن تتحسّن الأمور. وحينها يوجّه عقلي نفسه، في ضوء هذا الهدف. يحاول إنتاج استجابات أثناء الحوار العلاجي من شأنها أن تعزّز هذا الهدف. وأنا أراقب ما يحدث داخليًا، وأكشف عن استجاباتي وردود أفعالي. تلك هي القاعدة الأولى. ففي بعض الأحيان، على سبيل المثال، يقول العميل شيئًا ما، وتخطر لي فكرة، أو يثب خيالٌ ما في عقلي. وغالبًا ما تكون هذه الفكرة، أو هذا الخيال، بشأن شيء قاله العميل ذاته في وقت سابق من ذلك اليوم، أو أثناء جلسة سابقة. ومن ثمَّ أخبر عميلي بتلك الفكرة أو ذلك الخيال. أقول بشيء من الفتور: «لقد قلت هذا، ولاحظتُ بعد ذلك أنني أدركت ذلك». ثم نناقش الأمر، في محاولة لتحديد مدى أهمية رد فعلي. ربما كان الأمر يتعلّق بي أنا أحيانًا. وكانت هذه هي النقطة التي نبّه إليها فرويد؛ لكن أحيانًا يكون رد فعلي هو رد فعل إنسان منفصل ولكن له ميلٌ إيجابيٌ تجاه تصريحٍ كاشفٍ عن الشخصية أدلى به إنسان آخر. إنه رد فعل ذو مغزى؛ بل أحيانًا يكون تقويميًا. ولكن أحيانًا يكون التقويم لي أنا.

ينبغي على الإنسان أن يساير الآخرين وينسجم معهم؛ والمعالج النفسي هو أحد هؤلاء الآخرين. والمعالج النفسي الجيّد سيخبرك بحقيقة ما يفكر فيه (وهذا مختلف عن إخبارك بأن ما يظنه هو الحقيقة). وحينها على الأقل يكون لديك رأيٌ صادقٌ من شخصٍ واحدٍ على الأقلّ؛ وهذا ليس بالشيء الذي يسهل الحصول عليه. هذا شيء مهم وذو قيمة. هذا أمر أساسي في عملية العلاج النفسي: شخصان يخبر كل منهما الآخر بالحقيقة؛ وكلاهما ينصت للآخر.

كيف يجب أن تنصت؟

كان كارل روجرز –أحد أشهر المعالجين النفسيين في القرن العشرين– يعرف الكثير عن الإنصات. وقد كتب يقول: «الغالبية العظمى من الناس لا يستطيعون الإنصات؛ حيث يجد البشر أنفسهم مدفوعين للتقييم، لأن الإنصات أمر بالغ الخطورة. الشرط الأول للإنصات هو الشجاعة، ونحن لا نتحلّى بالشجاعة دائمًا»(159). كان يعلم أن الإنصات يمكن أن يغيّر

الناس ويحوّلهم. وقد علّق روجرز على ذلك قائلًا: «قد يشعر بعض الناس أنهم ينصتون جيدًا للآخرين، ولكنهم لم يروا قط نتائج تحوّلية كهذه. من المرجح جدًا أن إنصات هؤلاء لم يكن من النوع الذي أوضحته». واقترح روجرز على قرّائه إجراء تجربة قصيرة في المرة التالية التي يجدون أنفسهم فيها وسط مناقشة أو جدال، فقال: «أوقفوا المناقشة للحظة، وابدأوا في تطبيق هذه القاعدة: «يستطيع كل شخص أن يعبر عن رأيه فقط بعد أن يعيد ذكر أفكار ومشاعر المتحدِّث السابق على نحو صحيح يرضى عنه ذلك المتحدِّث»». ولقد اكتشفت أن هذا الأسلوب مفيد للغاية، في حياتي الشخصية وفي ممارستي المهنية. إنني ألخّص في المعتاد ما قاله لي الناس، ثم أسألهم إذا كنت قد فهمت ما قالوه على نحو صحيح. أحيانًا يقبلون التلخيص الذي قدّمته، وأحيانًا يقدّمون لي تصحيحًا بسيطًا، وأحيانًا، أكون مخطئًا تمامًا في ما فهمت. ومن المفيد معرفة كل هذا. هناك العديد من المزايا الأساسية لعملية التلخيص هذه. الميزة الأولى هي أنني أفهم حقًّا ما يقوله الشخص الآخر. وعن هذا يقول روجرز: «يبدو الأمر بسيطًا، أليس كذلك؟ ولكن إذا جرّبته، ستكتشف أنه أحد أصعب الأشياء التي يمكن أن تجرّب القيام بها على الإطلاق. إذا فهمت حقًّا أي شخصٍ بهذه الطريقة؛ إذا كنت مستعدًا لدخول عالمه الخاصّ ورؤية الطريقة التي يرى بها الحياة، فإنك تخاطر بأن تتغيّر أنت نفسك؛ فقد ترى الحياة بطريقته، وقد تتأثّر

مواقفك أو شخصيتك. وخطر التغيير هذا هو أحد أكثر الاحتمالات إثارة للخوف التي قد يواجهها أغلب الناس». وهذه الكلمات من أكثر الكلمات التي قرأتها فائدة على الإطلاق.

والميزة الثانية لعملية التلخيص هي أنها تساعد الشخص في تقوية الذاكرة وتثبيتها والاستفادة منها. تأمّل الموقف التالي: يروي لي العميل حكاية طويلة مستفيضة مشحونة بالمشاعر عن فترة صعبة من حياته. وأقوم أنا بالتلخيص عدّة مرّات أثناء ذلك. تصبح الحكاية أقصر، ويتم تلخيصها في ذاكرة العميل (وفي ذاكرتي) بالصورة التي ناقشناها. وحينها تصبح الذكرى مختلفة، من نواحٍ عديدة؛ وبشيء من الحظ، تصبح ذكرى أفضل. تصبح الآن أقل وطأة؛ فقد جرى تكثيفها واختزالها في موجز مختصر. لقد استخلصنا منها العبرة والمغزى. تصبح وصفًا لسبب ونتيجة ما حدث، صيغ بحيث يصبح تكرار المأساة والألم أقل احتمالًا في المستقبل. «هذا هو ما حدث؛ وهذا هو السبب؛ وهذا ما يجب عليَّ فعله لتجنّب تكرار مثل هذه الأشياء من الآن فصاعدًا». تلك ذكرى مفيدة، وهذا هو الغرض من الذاكرة؛ فأنت لا تتذكّر الماضي لكي يتم «تسجيله بدقّة»، وإعادة ترديده، وإنما لكي تستعد للمستقبل.

والميزة الثالثة لاستخدام طريقة روجرز هي الصعوبة التي تفرضها على البناء الواهي للحجج الضعيفة. فعندما يعارضك شخص ما، يكون من المغري للغاية أن تحاول الإفراط في تبسيط موقفه، أو تحريفه، أو تشويهه. وهذه لعبة هدّامة، مصمّمة لإلحاق الأذى بالمعارض وتحسين مكانتك الشخصية على نحو جائر. وعلى النقيض من ذلك، إذا دُعيتَ لتلخيص موقف شخص آخر، بحيث يتّفق المتحدّث مع الملخَّص الذي تقدّمه، فقد تكون بحاجة إلى توضيح حجّته على نحو أكثر وضوحًا وإيجازًا مما فعل المتحدّث نفسه. فإذا أقررت بالحقيقة وقلت الصدق أولًا، ونظرت في حجج الشخص الآخر من وجهة نظره هو، فيمكنك: (أولًا)، أن تجد القيمة التي تنطوي عليها تلك الحجج، وتتعلّم شيئًا ما أثناء هذه العملية؛ و(ثانيًا)، أن تحسّن موقفك ضد حججه (إذا كنت لا تزال تعتقد أنها خاطئة)، وتعزز حججك أكثر أمام الحجج المضادّة. هذا سيجعلك أقوى بكثير. ولن تضطرّ بعد ذلك إلى إساءة فهم موقف خصمك (وربما تكون قد سدَدت جزءًا من الفجوة بينكما على الأقل). ستكون أيضًا أفضل بكثير في مواجهة شكوكك الخاصة.

أحيانًا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لمعرفة المعنى الحقيقي لما يقوله شخص آخر. ويرجع هذا إلى أنه غالبًا ما تكون هذه هي المرّة الأولى التي يعبّر فيها هذا الشخص عن أفكاره بحرّية واستفاضة؛ وهو لا يستطيع أن يفعل هذا من دون التخبّط في أزقّة مظلمة، أو تقديم دعاوى متناقضة، أو حتى غير منطقية. ويرجع هذا بدوره إلى أن الحديث (والتفكير) غالبًا ما يتعلّق بالنسيان بأكثر مما يتعلّق بالتذكّر. إن مناقشة حدثٍ ما –لا سيما إذا كان حدثًا عاطفيًا، مثل حالة وفاةٍ أو مرضٍ خطيرٍ– يعني أن تختار ببطء ما ستتركه يذهب طي النسيان. ولكن لكي تبدأ هذه العملية، لا بد من صياغة الكثير مما لا ضرورة له بالكلمات. فالمتحدّث المفعَم بالعاطفة الجياشة لا بد له أن يحكي التجربة بأكملها، وبالتفصيل. وحينها فقط، يمكن للحكاية الأساسية –السّبب والنتيجة– أن تتصدّر المشهد أو تُعزّز نفسها؛ وحينها فقط، يمكن استخلاص العبرة من القصّة.

تخيّل شخصًا يمسك برزمة من الأوراق المالية من فئة المائة دولار، وبعض هذه الأوراق مزيف. قد يكون من الضروري وضع جميع الأوراق المالية على طاولة لكي يمكن رؤيتها جميعًا، وملاحظة أي اختلافات بينها، قبل أن يمكنك تمييز الأوراق السليمة من المزيّفة. هذا هو الأسلوب المنهجي الذي

يجب عليك اتّباعه حين تنصت حقًّا إلى شخص يحاول حلّ مشكلة أو توصيل رسالة مهمّة. فإذا نبذت جميع الأوراق المالية بعد أن علمت أن بعضها مزيّف (كما يمكن أن يحدث إذا كنت في عجلة من أمرك، أو إذا كنت غير مستعدٍ لبذل الجهد اللازم لتمييزها عن بعضها)، فإنك لن تتعلّم أبدًا كيف تميّز الغَثّ من الثمين.

لكن إذا أنصت من دون إصدار أحكام مسبقة، فسيخبرك الناس عمومًا بكل ما يفكّرون فيه؛ من دون أي خداع أو كذب. سيخبرك الناس بأكثر الأشياء إذهالًا، وسخافة، وإثارة للاهتمام. وقليل جدًّا من محادثاتك هو الذي سيكون مملًّا. (بل يمكنك في الواقع أن تعرف ما إذا كنت تنصت حقًّا أم لا بهذه الطريقة؛ فإذا كانت المحادثة مملّة، فالأرجح أنك لا تنصت بصدق).

ليس كلّ الكلام تفكيرًا؛ ولا كلّ الإنصات يُعزّز التحوّل. فثمة دوافع أخرى لكليهما، وبعضها يسفر عن نتائج هدّامة، وأقلّ قيمة، بل حتى خطيرة. فهناك، مثلًا، محادثة يتكلّم أحد المشاركين فيها فقط من أجل ترسيخ أو تأكيد مكانته في التسلسل الهرمي للهيمنة. يبدأ أحد المشاركين في المحادثة بحكاية قصّة عن حدث مثير للاهتمام – سواء أكان حديثًا أو قديمًا– يتضمّن شيئًا جيدًا، أو سيئًا، أو مدهشًا بقدرٍ كافٍ لجعله جديرًا بالإنصات. ويبدأ شخص آخر – أصبح الآن مشغولًا بمكانته المهدَّدة بالتدهور بوصفه أقل إثارة للاهتمام– في التفكير على الفور في أن يحكي عن شيء أفضل، أو أسوأ، أو أكثر إثارة للدهشة. هذا ليس أحد المواقف التي يتبارى فيها اثنان من المشاركين في الحوار بصدقٍ ونيّة حسنة، ويتحدّثان عن نفس الأفكار، بهدف الاستمتاع المشترك لكلٍّ منهما (ولجميع الحاضرين الآخرين)؛ بل هو موقفٌ تنافسيٌّ محتدمٌ، واضح وصريح، على المكانة.

ويمكنك أن تعرف حين ترى إحدى هذه المحادثات؛ فهي تكون مصحوبة عادة بشعور بالحرج بين المتحدثين، وكذلك بين جميع من يعرفون أن شيئًا كاذبًا ومبالَغًا فيه قد قيل للتو.

وثمّة شكلٌ آخرُ مشابهٌ جدًّا من أشكال المحادثات يُعرِض فيه كلا المتحدثان عن الإنصات للآخر إعراضًا تامًّا. وبدلًا من الإنصات الحقيقي، يستخدم كل واحد منهما الوقت الذي يتحدّث فيه الآخر في تحضير ما سيقوله لاحقًا، والذي غالبًا ما يكون شيئًا خارج السياق، لأن الشخص الذي كان ينتظر بفارغ الصبر دوره في التحدّث لم يكن ينصت حقًا. وهذا يمكن أن يوقف تسلسل الحوار بأكمله، بل هذا ما يحدث بالفعل غالبًا. وفي هذه المرحلة، من المعتاد أن يظلّ الحاضرون أثناء هذا المحادثة صامتين أثناء التصادم بين المتحدّثين، ينظرون بين الحين والآخر إلى بعضهم بعضًا بشيء من الحرج، إلى أن يغادر الجميع، أو يفكّر شخص ما في شيءٍ فطنٍ طريفٍ يؤدي إلى كسر الصّمت واستئناف الحديث.

ثم هناك المحادثات التي يحاول فيها أحد المشاركين الانتصار لوجهة نظره. وهذا شكل آخر من أشكال محادثات الهيمنة/المكانة. وأثناء هذه المحادثات –التي تميل غالبًا نحو الأيديولوجيات– يحاول المتحدّث: (1) التسفيه من وجهة نظر أي شخص يتبنّى موقفًا مخالفًا أو السخرية منها؛ و(2) استخدام أدلّة انتقائية أثناء ذلك؛ وأخيرًا (3) إثارة إعجاب المستمعين (الذين يتبنّى كثيرون منهم بالفعل طريقة التفكير الأيديولوجي نفسها) بصحّة تأكيداته. والهدف من كل ذلك هو نيل الدعم لرؤية شاملة، وموحَّدة، ومغرقة في التبسيط، للعالم. وهكذا تكون الغاية من المحادثة هي الانتصار لقضيّة أن عدم التفكير هو الموقف السليم. يظنّ الشخص الذي يتحدّث بهذه الطريقة أن الفوز في المناقشة يجعله على صواب، وأن هذا أمر يؤكّد بالضرورة على صحّة هيكل افتراضات التسلسل الهرمي للهيمنة الذي يتماهى معه. وغالبًا ما يكون هذا التسلسل – ولا غرابة في هذا– هو التسلسل الذي حقّق فيه أكبر قدر من النجاح، أو الذي ينحاز إليه بهوى وحماسة شديدين. وجميع المناقشات تقريبًا التي تتعلّق بالسياسة أو الاقتصاد تتّخذ هذا المنحى، حيث يحاول كل مشارك تبرير مواقف ثابتة بديهية –من وجهة نظره– بدلًا من أن يحاول معرفة شيء جديد أو تبنّي إطار مختلف (ولو من باب التجديد). وهذا هو السبب الذي يجعل المحافظون والليبراليون على حدٍّ سواء يظنّون بأن مواقفهم بديهية، لا سيما حين

يصبحون أكثر تشدّدًا. وفي ضوء افتراضات معيّنة قائمة على الهوى والمزاج، تظهر نتيجة يمكن التنبّؤ بها مسبقًا؛ ولكن هذا يحدث فقط عند تجاهل حقيقة أن الافتراضات نفسها يمكن تغييرها.

هذه المحادثات مختلفة تمامًا عن محادثات الإنصات. فعندما تحدث محادثة إنصات حقيقية، يتحدّث المشاركون واحدًا وراء الآخر بينما ينصت الباقون جميعًا. يحظى المتحدّث بفرصة مناقشة حدثٍ ما بجدّية، وعادة ما يكون هذا الحدث مؤلمًا أو حتى مأساويًّا، ويستجيب الآخرون جميعًا بتعاطفٍ ودِّيٍّ. وهذه المحادثات مهمّة لأن المتحدّث يستطيع تنظيم الحدث المزعج في ذهنه أثناء سرد القصة. إن الحقيقة مهمّة بما يكفي بحيث تستحقّ التكرار: والناس ينظّمون أدمغتهم من خلال المحادثات؛ وإذا لم يكن لديهم أي شخص يروون له حكايتهم، فإنهم يفقدون عقولهم. إنهم لا يستطيعون تنظيم فوضى أنفسهم؛ فمساهمة المجتمع ضرورية من أجل السلامة النفسية للفرد. وبعبارة أخرى: يتطلّب الأمر قرية كاملة لتنظيم عقلٍ واحدٍ.

ينتج قدر كبير من سلامة الوظائف العقلية عن قدرتنا على استخدام ردود أفعال الآخرين للحفاظ على سلامة أنفسنا المعقّدة. إننا نستعين بمصادر خارجية لحلّ مشكلة سلامتنا العقلية. وهذا هو السبب الذي يجعل من مسؤولية الوالدين الأساسية جعل أبنائهم مقبولين اجتماعيًا. فإذا كان سلوك شخص ما سلوكًا يستطيع الآخرون تحمّله وقبوله، فكل ما عليه فعله هو أن يضع نفسه في سياق اجتماعي. حينها سيدلّه الناس بشأن ما إذا كانت تصرّفاته وأقواله مناسبة على النحو الذي ينبغي أن تكون عليه أم لا؛ وذلك من خلال الاهتمام بما يقوله أو الشعور بالملل منه، أو الضحك على نكاته أو مقابلتها بالصمت، أو إغاظته أو السخرية منه، أو حتى رفع أحد الحاجبين. فجميع الناس دائمًا ما يعلنون للآخرين جميعًا عن رغبتهم في مقابلة الشخص المثالي. ونحن نكافئ أو نعاقب بعضنا البعض بحسب درجة توافق كل واحد منا في تصرّفاته مع تلك الرغبة؛ وذلك بالطبع باستثناء المواقف التي نبحث فيها عن المتاعب.

تشير الاستجابات الودودة المتعاطفة التي يعبِّر عنها المرء خلال محادثة حقيقية إلى أن المتحدث ذو قيمة، وأن القصّة التي يرويها مهمّة، وجادّة، وتستحق التفكير، ويمكن فهمها. وكثيرًا ما يسيء الرجال والنساء فهم

بعضهم البعض عندما تركّز مثل هذه المحادثات على مشكلة محدّدة. فغالبًا ما يُتهم الرجال بالرغبة في «إصلاح الأمور» بسرعة أكبر مما ينبغي أثناء المناقشة. وهذا اتهام يحبط الرجال، الذين يرغبون في حل المشكلات بكفاءة، والذين تلجأ إليهم النساء في كثير من الأحيان من أجل هذه الغاية تحديدًا. ولكن قد يكون من الأسهل على قرّائي من الذكور أن يفهموا سبب عدم نجاح هذا الأسلوب إذا أمكنهم أن يدركوا –ومن ثمَّ يتذكروا– أنه قبل حلّ المشكلة، يجب أولًا صياغتها على نحو دقيق. وكثيرًا ما تكون النساء عازمات على صياغة المشكلة عند مناقشتهنّ شيئًا ما، وهنّ بحاجة لمن ينصت إليهنّ – وحتى يستجوبهنّ– للمساعدة على ضمان الوضوح في الصياغة. وأيًا كانت المشكلة التي تتبقّى بعد ذلك –إن تبقّت مشكلة– يمكن حلّها على نحو فعّال. (وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن حلّ المشكلات قبل الأوان المناسب قد يشير أيضًا إلى رغبة في الهروب من الجهد اللازم لإجراء محادثة صياغة المشكلة).

أحد الأشكال الأخرى للمحادثة هو شكل المحاضرة؛ فالمحاضرة –على نحو يدعو للدهشة إلى حد ما– هي محادثة. يتحدّث المحاضر، ولكن جمهور المستمعين يتواصلون معه تواصلًا غير شفوي. يحدث قدر مدهش من التفاعل البشري –كثير منه في صورة إيصال معلومات عاطفية، على

سبيل المثال- بهذه الطريقة، من خلال وضع الجسد وتعبيرات الوجه (كما أشرنا في مناقشتنا حين تحدّثنا عن فرويد). والمحاضر الجيد لا يقدّم الحقائق فحسب (التي قد تكون هي الجزء الأقل أهمّية من المحاضرة)، ولكنه أيضًا يروي قصصًا حول تلك الحقائق، وهو يوجّهها بدقة نحو مستوى فهم الجمهور، ويمكنه قياس ذلك من خلال الاهتمام الذي يبديه هذا الجمهور. والقصّة التي يرويها لا تنقل إلى أفراد الجمهور الحقائق فحسب، ولكن تنقل لهم الأسباب التي تجعل هذه الحقائق وثيقة الصلة بالموضوع؛ والأسباب التي تجعل من المهم بالنسبة إليهم أن يعرفوا أشياء معيّنة يجهلونها حاليًا. وإظهار أهمّية مجموعة معيّنة من الحقائق يعني إخبار أفراد الجمهور بالكيفيّة التي ستغيّر بها هذه المعرفة من سلوكهم، أو تؤثّر على الطريقة التي يفسِّرون بها العالم، حتى يتمكّنوا الآن من تجنّب بعض العقبات، وتحقيق تقدّم أسرع نحو أهداف أفضل.

وبهذه الطريقة فإن المحاضر الجيد يتحدّث مع جمهوره وليس إليه. ولكي يتمكّن من هذا، يجب عليه الانتباه عن كثب لكل حركة، وإشارة، وإيماءة، وصوت، يصدر عن الجمهور. ولا يمكن تحقيق ذلك عن طريق مراقبة الجمهور بصفته جمهورًا. فالمحاضر البارع يتحدّث مباشرة إلى أناس فرادى

متمايزين ويراقب استجاباتهم(59)، بدلًا من أن يقوم بشيء مبتذل مثل «إلقاء خطاب» على الجمهور. إن كل ما تنطوي عليه عبارة «إلقاء خطاب على الجمهور» خاطئ؛ فأنت لا تلقي خطابًا؛ وإنما تتحدّث. كذلك لا يوجد شيء اسمه «خطاب» -إلا إذا كان شيئًا مُعلَّبًا مقيتًا- ولا ينبغي أن يوجد شيء كهذا. ولا يوجد أيضًا شيء اسمه «جمهور»؛ بل هناك أفراد ينبغي إشراكهم في المحادثة. والمتحدّث البارع اللبق المخضرم يخاطب شخصًا واحدًا يمكن تحديده، ويرى ذلك الشخص يومئ، أو يهزّ رأسه، أو يعبس، أو تبدو عليه الحيرة، ومن ثمَّ يستجيب بشكلٍ مناسبٍ ومباشرٍ لتلك الإيماءات والتعبيرات. وبعد بضع عبارات، وبعد استعراض بعض الأفكار، ينتقل إلى فرد آخر من أفراد الجمهور، ويستمر في فعل الشيء نفسه. وبهذه الطريقة، يستجيب ويتفاعل مع توجّهات المجموعة بأكملها (إن كان يوجد شيء اسمه المجموعة).

وثمة محادثات أخرى تعمل في الأساس على إظهار الفطنة والذكاء. وتنطوي هذه المحادثات أيضًا على عنصر هيمنة، لكن الهدف منها هو أن يكون المتحدّث هو أكثر المتحدّثين قدرة على التسليةً والمؤانسة (وهو إنجاز سيتمتّع به أيضًا كلّ مشارك في المحادثة). والغرض من هذه

المحادثات –كما أشار صديق ظريف لي ذات مرّة– هو أن يقول المرء: «أي شيء يكون إما صادقًا أو مضحكًا». ولما كان الصدق والفكاهة حليفين وثيقي الصلة ببعضهما في غالب الأحيان، فإن هذا المزيج دائمًا ما يفلح ويؤتي ثماره. أظنّ أن هذا النوع من المحادثات يمكن تسميته بمحادثة العمال الأذكياء. وقد شاركت في العديد من مواقف التهكّم، والسخرية، والإهانة، والتفاعل الهزلي عامّة، مع الأشخاص الذين نشأت معهم في شمال ألبرتا، ثم لاحقًا، مع بعض جنود فرق البحرية الذين التقيت بهم في كاليفورنيا، والذين كانوا أصدقاء لمؤلّف أعرفه يكتب روايات شعبية مرعبة إلى حدٍّ ما. كان هؤلاء جميعًا يسعدون جدًّا بقول أي شيء، بغضّ النظر عن بشاعته، طالما كان مضحكًا.

حضرت الاحتفال بعيد الميلاد الأربعين لهذا الكاتب منذ وقت ليس ببعيد في لوس أنجلوس، وكان قد دعا واحدًا من جنود فرق البحرية الذين أشرت إليهم. لكن قبل بضعة أشهر من عيد الميلاد، شُخِصَت حالة زوجته الطبية على أنها خطيرة، مما استلزم إجراء جراحة في المخ. قام بالاتصال بصديقه جندي البحرية وأبلغه بالظروف، وأشار إلى أنه ربما يجب إلغاء الحدَث. وردّ عليه صديقه بقوله: «أتظنّون أن لديكم مشكلة يا رفاق. لقد اشتريت أنا للتوّ

تذاكر طيران غير قابلة للرد لحضور حفل عيد ميلادك!»، وأنا لا أستطيع أن أخمِّن النسبة المئوية من سكّان هذا العالم التي قد تجد هذا الردّ مضحكًا. وعندما حكيت هذه القصة مؤخّرًا لمجموعة من المعارف الجدد، شعروا بالصدمة والفزع ولم يجدوا فيها أدنى طرافة أو مرح. حاولت الدفاع عن مزحته باعتبارها دليلًا على احترام جندي البحرية لقدرة الزوجين على الصمود في وجه المحنة وتجاوزها، لكنني لم أحقّق أي نجاح. إلا أنني أعتقد أنه كان يقصد التعبير عن هذا الاحترام بالضبط، وأعتقد أنه كان بارعًا وسريع البديهة إلى حدٍّ كبير. لقد كانت مزحته جريئة، وفوضوية، إلى حدِّ الطيش، وتلك هي بالضبط النقطة التي يحدث عندها الضحك الجادّ. أدرك صديقي وزوجته المجاملة التي انطوت عليها مزحته، وقد اعتبرا أن صديقهما كان يعلم أنهما قويان بما يكفي لتحمّل هذا المستوى من الفكاهة التنافسية؛ إن جاز أن نسمّيها كذلك. لقد كان هذا اختبارًا لقوّة الشخصيّة، وهما اجتازاه بتفوّق لا نظير له.

وقد وجدت أن مثل هذه المحادثات كانت تحدث بوتيرة أقل وأقل مع انتقالي من جامعة إلى أخرى، ومع ارتقائي السلم التعليمي والاجتماعي. ربما لم يكن للأمر علاقة بالمستوى الاجتماعي، على الرغم من أنني أظنه

كذلك. لعلّ كلّ ما في الأمر أنني تقدّمت في العمر، أو أن الأصدقاء الذين يكتسبهم المرء في المراحل المتقدّمة من عمره –أي بعد المراهقة– يفتقرون إلى المبالغة بالتنافس، والمزاح الأحمق المنحرف الذي يميّز تلك الروابط القبلية المبكرة. إلا أنني عندما عدت مرّة أخرى إلى الشمال حيث مسقط رأسي للاحتفال بعيد ميلادي الخمسين، جعلني أصدقائي القدامى أضحك بشدّة لدرجة أنني اضطررت مرّات عديدة إلى الهرب إلى غرفة أخرى لالتقاط أنفاسي. إن هذه المحادثات هي الأكثر متعة، وأنا أفتقدها. عليك أن تواكبها، أو تخاطر بالتعرّض للإهانة الشديدة، ولكن لا يوجد شيء أفضل من أن تقول شيئًا يتفوّق على آخر حكاية فكاهية، أو نكتة، أو إهانة، قيلت. ثمة قاعدة واحدة فقط تُطبّق هنا: لا تكن مملًّا (على الرغم من أنه من السيّئ جدًّا أيضًا أن تهين شخصًا ما فعليًّا، بينما أنت تتظاهر فقط أنك تهينه).

محادثة على الطريق

النّوع الأخير من المحادثات، الشبيه بالإنصات، هو شكلٌ من أشكال الاستكشاف المتبادل. يتطلّب هذا النوع نقاشًا صادقًا من جانب أولئك

الذين ينصتون ويتحدّثون؛ ويتيح لجميع المشاركين التعبير عن أفكارهم وتنظيمها. ويكون لمحادثة الاستكشاف المتبادل موضوع، عادة ما يكون معقّدًا بوجهٍ عامٍّ، وذا أهمية حقيقيّة للمشاركين. يحاول جميع المشاركين حلّ مشكلة ما، بدلًا من الإصرار على صحّة مواقفهم البديهية المسبقة، وجميعهم يتصرّفون على افتراض أن ثمة شيئًا يمكن أن يتعلّموه. هذا النوع من المحادثات يشكّل فلسفة نشطة، وأسمى أشكال الفكر، وأفضل استعداد لعيش حياة لائقة.

ينبغي على الأشخاص المشاركين في مثل هذا النوع من المحادثات أن يناقشوا الأفكار التي يستخدمونها بصدقٍ في هيكلة تصوّراتهم وتوجيه أفعالهم وأقوالهم. ينبغي أن يكونوا منهمكين وجوديًا في فلسفتهم: أي يجب أن يعيشوا بها، وليس فقط يؤمنون بها أو يفهمونها. ولا بد كذلك أن يكونوا قد قلبوا رأسًا على عقب –على الأقل مؤقتًا– التفضيل الإنساني المعتاد للنظام على الفوضى (ولا أقصد هنا الفوضى المألوفة لمتمرّد أحمق معادٍ للمجتمع). تحاول أنواع المحادثات الأخرى جميعًا –باستثناء الإنصات– دعم نظامٍ قائمٍ بالفعل. وعلى النقيض من ذلك، تتطلّب محادثات

الاستكشاف المتبادل أناسًا قرروا أن ما يجهلونه يمثّل لهم صديقًا أفضل مما يعرفونه.

إنك تعرف بالفعل ما تعرفه، وعلى كلّ حالٍ، ما لم تكن حياتك مثاليةً، فإن ما تعرفه ليس كافيًا. إنك لا تزال مهدَّدًا بالمرض، وخداع الذات، والتعاسة، والحقد، والخيانة، والفساد، والألم، والقصور. إنك خاضعٌ لكلِّ هذه الأشياء في النهاية لأنك جاهل للغاية إلى حدٍّ أنك لا تستطيع حماية نفسك. ولو أنك كنت تعرف ما يكفي لأمكنك أن تكون أكثر صحّة وأكثر صدقًا. كانت معاناتك ستصبح أقلّ، وكنت ستتمكّن من التعرّف على الحقد والشرّ، وتستطيع مقاومتهما، والانتصار عليهما. ما كنت لتخون صديقًا، أو تتعامل بالزيف والخداع في مجال الأعمال، أو السياسة، أو الحب. إلا أن معرفتك الحالية لم تجعلك مثاليًا ولم تجعلك في أمان. لذا، فهي غير كافية بطبيعتها؛ غير كافية على نحوٍ جذريٍّ ومُهلكٍ.

لا بد أن تتقبّل هذا قبل أن تتمكّن من التحاور فلسفيًا، بدلًا من أن تحاول الإقناع، أو الكبت، أو السيطرة، أو حتّى التسلية. لا بد أن تتقبّل هذا قبل

أن يمكنك تحمّل محادثة تعمل فيها «الكلمة» التي تتوسّط إلى الأبد بين النظام والفوضى، من ناحية نفسيّة. ولإجراء هذا النوع من المحادثات، من الضروري أن تحترم التجربة الشخصية لشركائك في المحادثة. يجب عليك أن تفترض أنهم توصّلوا إلى نتائج دقيقة، ومدروسة، وصادقة (وربما كانوا قد أنجزوا بالفعل العمل الذي يبرر هذا الافتراض). لا بد أن تؤمن أنهم إذا أطلعوك على استنتاجاتهم، فيمكنك أن تتجنّب على الأقل بعض آلام تعلّمك لهذه الأشياء بنفسك (لأن التعلّم من خبرات الآخرين يمكن أن يكون أسرع وأقل خطورة). ويجب عليك أن تتأمّل أيضًا، بدلًا من أن تحاول وضع استراتيجية لتحقيق النصر. وإذا فشلت في ذلك، أو رفضت القيام به، فإنك فقط تكرّر تلقائيًا ما تؤمن به بالفعل، وتسعى لتأكيد صحّته وتصرّ على صوابه. لكن إذا كنت تتأمّل أثناء محادثتك، فأنت تنصت إلى الشخص الآخر، وتقول الأشياء الجديدة والأصيلة التي يمكن أن تنبع من أعماق ذاتك من تلقاء نفسها من دون افتعالٍ أو تصنُّعٍ.

يبدو الأمر وكأنك تنصت إلى نفسك في هذه المحادثة، تمامًا كما تنصت إلى الشخص الآخر. إنك تصف كيف تستجيب للمعلومات الجديدة التي ينقلها المتحدِّث، وتُعلِم المتحدِّث بتأثير هذه المعلومات عليك؛ وما هي

الأشياء الجديدة التي جعلتها تظهر بداخلك، وكيف غيّرت افتراضاتك الأولية، وكيف جعلتك تفكِّر في أسئلة جديدة. أنت تخبر المتحدِّث بهذه الأشياء مباشرة. ومن ثمَّ، يكون لكلماتك نفس التأثير عليه. وبهذه الطريقة، تنتقلان معًا نحو مجال أحدث، وأرحب، وأفضل، ويتغيّر كلٌّ منكما بينما تتركان افتراضاتكما القديمة تذوي وتموت – تغيران جلديكما وتجدِّدان ذاتيكما.

والمحادثات من هذا النوع هي المحادثات التي تكون الحقيقة نفسها –من جانب كلا المشاركين– هي التي تنصت وتتحدّث فيها. وهذا هو السبب الذي يجعل تلك المحادثات جذّابة، وحيويّة، ومثيرة، وذات معنى. وهذا الشعور بالمعنى هو إشارة من الأجزاء العميقة العتيقة لكينونتك على أنك تتواجد في الموضع الصحيح الذي يجب أن تكون فيه، حيث تكون إحدى قدميك في عالم النظام، والأخرى ممدودة في عالم الفوضى والمجهول. أنت منغمس في التاو، وتتبع «طريق الحياة» الرائع. وفي ذلك الموضع، تكون مستقرًّا بما يكفي لتكون آمنًا، ولكنك أيضًا تكون مرنًا بما يكفي لكي تتحوّل. في ذلك الموضع، تسمح لمعلومات جديدة بتنويرك؛ تسمح لها بالتغلغل في استقرارك، وإصلاح وتحسين هيكله، وتوسيع نطاقه. في ذلك

الموضع يمكن للعناصر المكوِّنة لكينونتك أن تجد شكلها الأكثر روعةً وجمالًا. إن محادثة كهذه تضعك في الموضع نفسه الذي يضعك فيه الاستماع لمقطوعة موسيقية بديعة، وللسّبب نفسه تقريبًا. محادثة كهذه تضعك في عالم تتواصل فيه الأرواح، وهذا عالمٌ حقيقيٌّ. ومحادثة كهذه تجعلك تفكر: «لقد كان الأمر جديرًا حقًّا بكلِّ عناء. لقد عرف أحدنا الآخر بصدقٍ وعمقٍ». لقد سقطت الأقنعة، وكشف الباحثون عن مكنون ذواتهم. لذا، أنصت، إلى نفسك وإلى من تتحدّث معهم. حينها لن تتشكّل حكمتك من المعرفة التي تمتلكها بالفعل، وإنما من البحث المستمر الدؤوب عن المعرفة، وهذا هو أسمى شكل من أشكال الحكمة. وهذا هو السبب الذي جعل كاهنة معبد دلفي في اليونان القديمة تتحدّث بأروع الكلمات عن سقراط، الذي كان يبحث دائمًا عن الحقيقة. لقد وصفته بأنه أكثر البشر حكمة، لأنه كان يعرف أن ما يعرفه ليس بشيء.

افترض أن الشخص الذي تنصت إليه ربما كان يعرف شيئًا لا تعرفه.

القاعدة 10

كنْ دقيقًا في حديثك

لماذا يعتبر حاسوبي المحمول عتيق الطراز؟

ما الذي تراه حين تنظر إلى جهاز حاسوب؛ وعلى نحو أكثر تحديدًا، حين تنظر إلى حاسوبك المحمول؟ إنك ترى صندوقًا مسطّحًا رفيعًا رماديًا وأسود. وبصورة أقل وضوحًا، ترى شيئًا تكتب عليه وتنظر فيه. ولكن حتى بالمنظور الثاني، فإن ما تراه بالكاد هو الحاسوب؛ فهذا الصندوق الرمادي والأسود تصادف أن يكون حاسوبًا في هذه اللحظة، هنا والآن، وقد يكون حاسوبًا باهظ الثّمن، غير أنه قريبًا جدًّا سيكون شيئًا لا يشبه الحاسوب، لدرجة أنه سيكون من الصعب حتى التبرّع به.

سوف نتخلّص جميعًا من حواسيبنا المحمولة خلال الخمس سنوات المقبلة، على الرغم من أنها ربما ستظلّ تعمل على نحو مثالي؛ على الرغم من أن الشاشات، ولوحات المفاتيح، ووصلات الإنترنت، ربما ستظلّ تؤدّي

وظائفها بمثالية. وبعد خمسين سنة من الآن، ستكون أجهزة الكمبيوتر التي تعود إلى أوائل القرن الحادي والعشرين أدوات غريبة مثل الأدوات العلمية النحاسية التي تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر. تبدو هذه الأخيرة أكثر شبهًا بالأدوات الغامضة للخيمياء، والتي صُمِّمت لقياس ظواهر لم نعد حتى نعترف بوجودها. فكيف يمكن لأجهزة ذات تقنية متطوّرة، يمتلك كل واحد منها قوة حوسبية أكبر مما توافر لبرنامج أبولو الفضائي بأكمله، أن تفقد قيمتها في مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن؟ كيف يمكن أن تتحوّل بهذه السرعة من أجهزة مشوّقة، ومفيدة، ومعزّزة للمكانة الاجتماعية إلى قطع معقَّدة من الخردة؟ يرجع ذلك إلى طبيعة تصوراتنا نفسها، وإلى طبيعة التفاعلات غير المرئية غالبًا بين تلك التصوّرات والتعقيد الكامن للعالم.

يُعتبر حاسوبك المحمول نوتةً في سيمفونية تُعزف حاليًا بواسطة فريق أوركسترا هائل الحجم. إنه يمثل جزءًا صغيرًا جدًا من كلّ أكبر بكثير؛ وتكمن أغلب قدرات هذا الحاسوب وراء هيكله الصلب، وهو يحافظ على أداء وظائفه فقط لأن مجموعة واسعة من تقنيات أخرى تعمل حاليًا بتناغمٍ تامٍّ. فعلى سبيل المثال، يتزوّد الحاسوب بالطاقة من خلال شبكة طاقة يعتمد عملها بصورة غير مرئية على عدد هائل من أنظمة فيزيائية، وبيولوجيّة،

واقتصاديّة، وشخصيّة، معقّدة. ولا تزال المصانع التي تصنع أجزاء هذا الحاسوب تعمل، ويرتكز نظام التشغيل الذي يمكِّن الحاسوب من أداء وظائفه على هذه الأجزاء، وليس على أجزاء أخرى لم تُبتكر بعد. وتقوم المكونات المادية لتقنيّة الفيديو بتشغيل التكنولوجيا التي يتوقّعها أناس مبدعون ينشرون المحتوى على شبكة الإنترنت. إن حاسوبك المحمول على اتصال بنظام بيئي معيّن ومحدّد يتكوّن من أجهزة أخرى وخوادم شبكة الويب.

وأخيرًا، فقد أصبح كل هذا ممكنًا من خلال عنصر أقل وضوحًا، وهو: العقد الاجتماعي للثقة؛ فالنظم السياسية والاقتصادية المترابطة والتي تتعامل بصدق وشفافية في الأساس هي ما يجعل الشبكة الكهربائية الفعّالة واقعًا ملموسًا. وهذا الاعتماد من الجزء على الكل، الذي يكون غير مرئي في الأنظمة الفعّالة، يصبح ظاهرًا بوضوح صادم في الأنظمة غير الفعّالة. فالأنظمة الشاملة رفيعة المستوى التي تتيح الحوسبة الشخصية لا يكاد يكون لها وجود في دول العالم الثالث الفاسدة، لذلك تكون خطوط الطاقة، والمحوّلات الكهربائيّة، والمقابس، وكلِّ الكيانات الأخرى –التي يؤمل أن تدلّ بشكلٍ ملموسٍ على وجود مثل هذه الشبكة– غائبة أو متهالكة، وفي

الحقيقة فإنها لا تسهم إلا قليلًا في التوصيل العملي للكهرباء إلى منازل الناس ومتاجرهم ومصانعهم. وهذا يجعل النظر إلى الأجهزة الإلكترونية وغيرها من الأجهزة –التي جعلتها الكهرباء ممكنة نظريًّا– على أنها وحدات وظيفيّة منفصلة وفعّالة أمرًا محبطًا، على أقل تقدير، ومستحيلًا، في أسوأ التقديرات. ويعزى هذا جزئيًا إلى انعدام الكفاءة الفنية؛ فالأنظمة ببساطة لا تعمل بفعالية. ولكنه يعزى أيضًا بقدر لا يُستهان به إلى انعدام الثّقة الذي تتّسم به المجتمعات الفاسدة منهجيًّا.

وبعبارة أخرى؛ فإن ما تتصوّره حاسوبك الشخصي يشبه ورقة واحدة على شجرة في غابة؛ أو على نحو أكثر دقّة، يشبه أصابعك وهي تفرك تلك الورقة لفترة وجيزة. يمكنك انتزاع ورقة واحدة من فرع شجرة؛ فبالإمكان اعتبارها كيانًا واحدًا مستقلًا لبعض الوقت؛ لكن ذلك التصوّر يضلّل بأكثر مما يوضح. فخلال بضعة أسابيع، سوف تتفتّت الورقة وتتلاشى. إنها ما كانت لتتواجد من الأساس من دون الشجرة، ولا يمكنها الاستمرار في الوجود في غياب الشجرة. وهذا هو وضع حواسيبنا المحمولة بالنسبة إلى العالم؛ إذ يقع قدر كبير من كينونتها خارج حدودها؛ إلى درجة أن تلك

الأجهزة ذات الشاشات التي نضعها على أرجلنا لا يمكنها أن تحتفظ بمظهر أجهزة الكمبيوتر سوى لبضع سنوات قليلة.

وهذا هو حال كل شيء نراه ونحمله تقريبًا، وإن لم يكن الأمر بهذا الوضوح في غالب الأحيان.

الأدوات والعقبات والتمدُّد في العالم

نحن نفترض أننا نرى أجسامًا أو أشياء عندما ننظر إلى العالم، لكن ليست هذه حقيقة الأمر. إن أنظمتنا الإدراكية المتطوّرة لا تعمل على تحويل العالم المتشابك، والمعقّد، والمتعدّد المستويات الذي نسكنه إلى مجرّد أشياء، وإنما إلى أشياء مفيدة (أو نقيض ذلك؛ وهي العقبات التي تعترض الطريق). هذا هو الاختزال العملي الحتمي للعالم. هذا هو تحويل التعقيد شبه اللامتناهي للأشياء من خلال تخصّص أهدافنا وتحديدها. وتلك هي الكيفية

التي تؤدّي بها الدقّة إلى أن يتجلّى لنا العالم بشكلٍ معقولٍ. وهذا لا يساوي بأي حالٍ إدراك الأجسام.

إننا لا نرى كيانات لا قيمة لها ثم نخلع عليها المعنى؛ وإنما ندرك المعنى مباشرة(160). فنحن نرى الأرض وندرك معنى السير عليها، ونرى الأبواب وندرك معنى العبور منها، ونرى الكراسي ونفهم معنى الجلوس عليها. ولهذا السبب تندرج الوسائد وجذوع الأشجار المقطوعة ضمن فئة الأشياء التي نجلس عليها، رغم عدم وجود عوامل مشتركة موضوعية بينها وبين الكراسي. إننا نرى الأحجار وندرك أنه بإمكاننا أن نقذفها، ونرى السحب وندرك أنها يمكن أن تمطر علينا، ونرى التفاح وندرك أننا يمكن أن نأكله، ونرى سيارات الآخرين وندرك أنها تعترض طريقنا وتزعجنا. فنحن نرى أدوات وعقبات، وليس أجسامًا وأشياء. وعلاوة على ذلك، فإننا نرى الأدوات والعقبات على مستوى التحليل «العملي» الذي يجعلها أكثر فائدة (أو أكثر خطرًا)، بالنظر إلى احتياجاتنا، وقدراتنا، وحدودنا الإدراكية. يكشف لنا العالم عن نفسه بوصفه شيئًا نستفيد منه، وشيئًا نتجوّل في أنحائه؛ وليس بوصفه شيئًا موجودًا فحسب.

نحن نرى وجوه الأشخاص الذين نتحدّث إليهم لأننا نحتاج إلى التواصل مع هؤلاء الأشخاص والتعاون معهم. إننا لا نرى بنياتهم الفرعيّة المصغّرة؛ أو خلاياهم، أو العُضيات دون الخلوية، أو الجزيئات والذرّات التي تتكوّن منها هذه الخلايا. ولا نرى كذلك العالم الكبير المحيط بهم؛ أي أفراد عائلاتهم وأصدقائهم الذين يشكّلون دوائرهم الاجتماعية المباشرة، أو الاقتصادات التي يندمجون فيها، أو البيئة التي تشمل كل هذا. وأخيرًا، وعلى القدر نفسه من الأهمية، فإننا لا نراهم عبر الزمن؛ فنحن نراهم في ضيق الحاضر ومباشرته وغمرته، ولا نراهم مطوّقين بالماضي والحاضر، اللذين قد يكونان جزءًا أكثر أهمية من ذواتهم ومن أي شيء يظهر بوضوح منهم حاليًا. ولا مناص من أن نراهم بهذه الطريقة وإلا فسوف نشعر بالعجز والحيرة والارتباك.

عندما ننظر إلى العالم، فإننا لا ندرك سوى ما هو كافٍ لكي تفلح خططنا وأفعالنا، وما هو كافٍ لنتدبّر أحوالنا. وما نعيش فيه إذًا هو هذه «الكفاية»؛ وهذا تبسيط جذري، وعملي، وغير واعٍ، للعالم، ويكاد يكون من المستحيل تقريبًا علينا ألا نخلط بين هذا التبسيط وبين العالم نفسه. لكن الأشياء التي

نراها لا توجد ببساطة في العالم من أجل إدراكنا البسيط والمباشر(60). إنها توجد في علاقات معقّدة ومتعدّدة الأبعاد في ما بينها، وليس كأشياء مستقلّة، محدّدة، منفصلة بصورة بديهية. ونحن لا ندركها بذاتها وإنما ندرك فائدتها الوظيفية، وحين نفعل ذلك فإننا نبسِّطها بما يكفي من أجل الفهم الوافي. ولهذا السبب لا بد لنا أن نكون محدَّدين بدقة في أهدافنا. وفي غياب ذلك التحديد الدقيق، سنغرق في تعقيد العالم.

ينطبق هذا حتى في ما يتعلّق بتصوراتنا عن أنفسنا؛ عن ذواتنا الفردية. فنحن نفترض أن حدودنا هي سطح جلدنا، بسبب الطريقة التي ندرك بها. لكننا نستطيع بقليل من التفكير أن نفهم الطبيعة المشروطة لتلك الحدود؛ فنحن نغيّر ما بداخل جلدنا –إن جاز التعبير– بحسب تغيّر السياق الذي نعيش فيه. وحتى عندما نفعل شيئًا في غاية البساطة مثل الإمساك بمفك براغٍ، فإن دماغنا يعمل تلقائيًا على تعديل ما يعتبره جسدنا بحيث يستوعب الأداة التي نمسك بها(161). يمكننا حرفيًّا أن نتحسّس الأشياء بطرف مفكِّ البراغي. وعندما نمد يدنا ونحن نمسك بالمفك، فإننا نضع طول المفك في اعتبارنا تلقائيًا. يمكننا استكشاف الزوايا والشقوق بطرفه الممدود، ويمكننا فهم ما نستكشفه. وعلاوة على ذلك، فإننا نعتبر فورًا أن

المفك الذي نمسك به هو «مفكنا»، ونشعر بنزعة التملّك إزاءه. ونحن نفعل الشيء نفسه مع الأدوات الأكثر تعقيدًا التي نستخدمها في مواقف أشد تعقيدًا؛ إذ تصبح السيارات التي نقودها في الحال وبصورة تلقائية جزءًا من أنفسنا. ولهذا السبب، عندما يضرب أحد ما بقبضته على غطاء محرك سيارتنا إثر إثارة غضبه عند ممر للمشاة، نأخذ الأمر على محملٍ شخصيٍّ. ليس هذا أمرًا منطقيًا في جميع الأحوال؛ ومع ذلك، فمن دون تمدُّد الذات في الآلة، ستكون القيادة مستحيلة.

وتمتد الحدود الموسّعة لذواتنا كذلك لتشمل أناسًا آخرين؛ مثل أفراد الأسرة، والأحباب، والأصدقاء. فالأم تضحّي بنفسها من أجل أطفالها. وهل الأب، أو الابن، أو الزوجة، أو الزوج، أكثر أم أقل لُحمة بنا من ذراع أو ساق؟ يمكننا أن نجيب، جزئيًا، بالتساؤل: أيها نختار أن نخسر إذا اضطررنا؟ أي خسارة سنضحي بها من أجل تجنّب خسارة أكبر؟ ونحن نتدرب على هذا التمدد الدائم – هذا الالتزام المستمر – عن طريق التماهي مع الشخصيات الخيالية في الكتب والأفلام؛ إذ سرعان ما تتحوّل انكساراتها وانتصاراتها بصورة مقنعة إلى انكسارات وانتصارات خاصّة بنا نحن أنفسنا. وبرغم جلوسنا هادئين في مقاعدنا، فإننا نمثّل العديد من

العوالم البديلة؛ حيث نمدّد أنفسنا على سبيل التجربة، ونختبر دروبًا متعدّدة محتملة قبل تحديد الدرب الذي سنمضي به حقًّا. وبالانخراط في عالم خيالي، يمكننا حتى أن نكون أشياء لا وجود لها في الحقيقة. ففي طُرفة عين داخل القاعة السحرية لدار السينما، يمكننا أن نصبح كائنات خيالية. إننا نجلس في الظلام أمام مشاهد تومض بسرعة، ونتحوّل إلى ساحرات، أو أبطال خارقين، أو كائنات فضائية، أو مصاصي دماء، أو أسود، أو عفاريت، أو عرائس خشبية، ونشعر بكل شيء تشعر به الشخصيات، ويسعدنا إلى حدٍّ غريبٍ أن ندفع مقابل هذا الامتياز، حتى إذا كان ما نشاهده هو الحزن، أو الخوف، أو الرعب.

يحدث شيء مشابه، ولكنه أكثر تطرّفًا، عندما نتماهى، لا مع شخصية في دراما خياليّة، وإنما مع مجموعة كاملة في مباراة. فكِّر في ما يحدث عندما يفوز فريقك المفضّل أو يخسر في مباراة مهمة ضد منافس رئيسي. إن تحقيق هدف الفوز يدفع المشجعين جميعًا للوقوف والتصفيق والهتاف بانسجام عفوي من دون تفكير، كما لو كانت أنظمتهم العصبية العديدة متّصلة مباشرة بالمباراة التي يشاهدونها أمامهم. يأخذ المشجّعون انتصارات فرقهم وخساراتها على محمل شخصي، حتى إنهم يرتدون قمصان أبطالهم،

ويحتفون غالبًا بانتصاراتهم وخساراتهم أكثر مما يفعلون في أي مناسبة تحدث «فعليًا» في حياتهم اليومية. ويتجلّى هذا التماهي بعمق؛ وحتى على مستوى بيوكيميائي وعصبي. فعلى سبيل المثال، تقوم تجارب الفوز والخسارة بالنيابة عن الفريق برفع أو خفض مستويات التستوستيرون بين المشجعين «المشاركين» في المباراة(162). إن قدرتنا على التماهي هي شيء يتجلّى أمامنا في كافة مستويات كينونتنا.

وبالمثل، بقدر ما نكون وطنيين، بقدر ما تكون دولتنا ليس فقط مهمّة بالنسبة إلينا، بل تكون هي نحن. بل إننا قد نضحّي بذواتنا الضئيلة الفردية بالكامل في معركة للحفاظ على سلامة وطننا. وطيلة معظم فترات التاريخ، اعتُبر هذا الاستعداد للموت شيئًا شجاعًا يدعو للإعجاب، بوصفه جزءًا من الواجب الإنساني. ومن قبيل المفارقات أن هذه نتيجة مباشرة ليس لعدوانيتنا وإنما لحب الاندماج الاجتماعي الشديد واستعدادنا للتعاون. فإذا استطعنا أن نصبح عائلاتنا، وفرقنا، وأوطاننا –وليس فقط ذواتنا– فإن التعاون يتأتّى بسهولة، اعتمادًا على الآليات الغريزية العميقة ذاتها التي تقودنا (وتقود المخلوقات الأخرى) إلى حماية أجسادنا ذاتها.

يكون العالم بسيطًا فقط عندما تسير الأمور على ما يرام

من الصعب للغاية أن نفهم الفوضى المتداخلة للواقع بمجرّد النظر إليها. إنه عملٌ معقّد للغاية ربما يحتاج إلى نصف أدمغتنا. إن كلَّ شيء يتغيّر ويتحوّل في عالم الواقع، وكل شيء من المفترض أنه مستقل يتكوّن من أشياء أصغر من المفترض أنها مستقلّة بدورها، وفي الوقت نفسه يمثّل جزءًا من أشياء أكبر من المفترض أنها مستقلّة. والحدود بين المستويات –وبين الأشياء المختلفة ذاتها في مستوًى بعينه– ليست واضحة أو بديهية على نحو موضوعي؛ ولا بد من وضعها بصورة عملية براجماتية، وهي تحتفظ بمشروعيتها فقط في ظلّ ظروف محدّدة للغاية. إن الوهم الواعي المتمثّل في الإدراك الكامل والكافي يحافظ على نفسه فقط –أي فقط يظلّ كافيًا لأجل أهدافنا– على سبيل المثال، عندما تجري كلّ الأمور وفقًا للخطّة. وفي ظل هذه الظروف، يكون ما نراه دقيقًا بما فيه الكفاية، لذا فلا فائدة ترجى من النظر لما هو أبعد. فلكي نقود سياراتنا، نحن لسنا بحاجة إلى فهم، أو حتى تصوّر، الآليّة المعقّدة لعمل السيارة. ولكن التعقيدات الخفية لآلية عمل سياراتنا تتطفّل على وعينا فقط عندما تتعطّل تلك الآلية أو عندما

نصطدم بصورة غير متوقّعة بشيء (أو يصطدم بنا شيء). وحتى في حالة عطل ميكانيكي بسيط (ناهيك عن حادث خطير)، فإننا دائمًا ما نشعر بأن هذا التطفّل يثير القلق، على الأقل في البداية. وهذه إحدى نتائج عدم اليقين الطارئ.

إن السيارة –كما ندركها– ليست شيئًا أو جسمًا ماديًا؛ بل هي بالأحرى شيء يُقلّنا إلى حيث نريد أن نذهب. وفي الواقع، نحن لا نبدأ في الانتباه إليها كثيرًا سوى عندما تتوقّف عن نقلنا. ونحن لا نضطر إلى فهم وتحليل الأجزاء التي لا تُحصى التي تعتمد عليها السيارة بوصفها شيئًا ينقلنا سوى عندما تتوقّف السيارة فجأة، أو تتعرّض لحادث ويصبح لا بد من سحبها إلى جانب الطريق. وعندما تتعطّل السيارة، يظهر على الفور عجزنا الواضح عن فهم تعقيدها. ولذلك عواقب عملية (إذ لا نستطيع أن نذهب إلى حيث كنا نريد)، وعواقب نفسيّة كذلك؛ إذ تغيب راحة البال بتوقّف السيارة عن العمل. وحينها ينبغي علينا أن نلجأ إلى الخبراء في المرائب وورش العمل من أجل استعادة قدرة السيارة على العمل واستعادة بساطة نظرتنا إليها كذلك. وهنا يظهر دور الميكانيكي بوصفه عالم نفس.

عندئذ بالتحديد يمكننا أن نفهم -على الرغم من أننا نادرًا ما نتأمّل بعمق- قدرتنا المتواضعة قليلة الدقة إلى حدٍّ مذهلٍ على الرؤية، وعدم كفاية فهمنا المصاحب لهذه الرؤية. في الأزمات، عندما تتعطّل أغراضنا، نلجأ إلى أولئك الذين تتجاوز خبراتهم خبراتنا بكثير من أجل استعادة التوافق بين رغبتنا وبين ما يحدث بالفعل. وكل هذا يعني أن تعطّل سيارتنا يمكنه أيضًا أن يضطرُّنا إلى مواجهة عدم يقين السياق الاجتماعي الأوسع، والذي عادة ما يكون غير مرئي لنا، والذي تكون فيه الآلة (والميكانيكي) مجرّد أجزاء. فعندما غدرت بنا السيارة، صرنا في مواجهة كل الأشياء التي لا نعرفها. هل حان الوقت لشراء سيارة جديدة؟ هل أخطأت في شراء تلك السيارة من الأساس؟ هل الميكانيكي كفؤ، ونزيه، وموثوق؟ هل المرأب الذي يعمل به جدير بالثقة؟ وفي بعض الأحيان، ينبغي علينا أيضًا التفكّر في شيء أسوأ، شيء أكثر اتساعًا وعمقًا: هل أصبحت الطرق الآن في غاية الخطورة؟ هل أصبحت (أو كنت دومًا) غير كفؤ؟ هل أصبحت مشتتًا وغافلًا للغاية؟ هل أصبحت عجوزًا؟

تتجلّى حدود جميع إدراكاتنا للأشياء ولأنفسنا عندما يتعطّل شيء يمكننا في العادة الاعتماد عليه في عالمنا البسيط. وحينها يعلن العالم الأكثر تعقيدًا – الذي كان موجودًا دائمًا على نحو غير مرئي وكان يتم تجاهله بارتياح– عن وجوده. وحينها تكشف الجنّة المسوّرة التي نعيش فيها عن الحيّات التي تعيش فيها أيضًا، والتي كانت مختفية، لكنها موجودة دائمًا.

نكون أنا وأنت بسيطَيْن فقط عندما تسير الأمور على ما يرام

عندما تتعطّل الأشياء، يُداهمنا ما كنا نتجاهله. وعندما لا تعود الأمور محدّدة بدقّة، تنهار الجدران، وتعلن الفوضى عن وجودها. عندما نكون مهملين، ونترك الأمور تنزلق من بين أيدينا، يستجمع ما رفضنا الانتباه له شتات نفسه، ويتّخذ شكلًا ثعبانيًا، وينقضّ علينا؛ وكثيرًا ما يحدث هذا في أسوأ اللحظات الممكنة. وحينها ندرك ما الذي كان العزم الصارم، ودقّة الهدف، والانتباه اليقظ يحمينا منه.

تخيّل زوجة وفيّة ومخلصة تواجه فجأة دليلًا على خيانة زوجها لها، بعد أن عاشت إلى جانبه لسنوات، ورأته على الحال التي كانت تفترض أنه عليها: جدير بالثقة، وكادح، ومحبّ، ويُعتمد عليه. لقد كانت تقف في زواجها على أرض صلبة، أو هكذا كانت تظن. لكن زوجها أصبح أقل اهتمامًا وأكثر تشتّتًا. لقد بدأ يتأخر في العمل لساعات أطول، وصارت أشياء صغيرة تقولها الزوجة أو تفعلها تثير غضبه على نحو غير مبرّر. وذات يوم، تراه زوجته في مقهى بوسط المدينة مع امرأة أخرى، يتعامل معها بطريقة يصعب تبريرها أو تجاهلها. وحينها يصبح قصور وعدم دقّة تصوّراتها السابقة واضحًا على نحو مؤلم.

تنهار نظريتها حول زوجها. وما الذي يحدث نتيجة لذلك؟ أولًا، يتحوّل زوجها إلى شيء –أو شخص– آخر غريب ومعقّد ومخيف. هذا سيّئ بما فيه الكفاية، لكن هذه ليست سوى نصف المشكلة، إذ ستنهار نظريتها عن نفسها أيضًا في أعقاب الخيانة، بحيث لا تكون المشكلة في شخص غريب واحد؛ بل في اثنين: هي وزوجها. فزوجها ليس هو الشخص الذي تصوّرته؛ ولكنها هي أيضًا لم تعد كذلك؛ بل صارت الزوجة المخدوعة. لم تعد هي «الزوجة المحبوبة، الآمنة المطمئنة، والشريكة المُقدَّرة». وعلى نحو غريب

بما فيه الكفاية –وعلى الرغم من إيمانها بالثبات الدائم للماضي–تشعر أنها لم تكن أبدًا تلك الزوجة.

ليس الماضي بالضرورة هو ما كان، على الرغم من أنه كان كذلك بالفعل في وقت من الأوقات. والحاضر فوضوي، ومشوّش، وغامض، وغير محدّد. تتحرّك الأرض باستمرار تحت قدمَيّ الزوجة وأقدامنا. وبالمثل، يتحوّل المستقبل –الذي لم يأتِ بعد– إلى شيء لم يكن من المفترض أن يكون. هل تُعتبر الزوجة التي كانت راضية مطمئنّة نسبيًّا سابقًا «بريئة مخدوعة» الآن؛ أم إنها «حمقاء ساذجة»؟ هل يجب أن تنظر إلى نفسها على أنها ضحية، أم على أنها مشاركة في مؤامرة وَهْمٍ مشتركٍ؟ وماذا عن زوجها؟ هل هو عاشق لا ينال الإشباع؟ أم هدف للإغراء؟ لعلّه كاذب أو مختلّ عقليًا؟ أم تراه الشيطان نفسه؟ كيف أمكنه أن يكون بهذه القسوة؟ كيف يمكن لأحد أن يكون كذلك؟ وما هذا البيت الذي كانت تعيش فيه؟ كيف كانت ساذجة إلى هذا الحدّ؟ كيف يمكن لأي شخص أن يكون كذلك؟ تنظر الزوجة في المرآة. من تكون؟ وما الذي يحدث؟ هل لديها علاقات صادقة حقًّا؟ هل كانت لديها علاقات أصلًا؟ ما الذي حدث للمستقبل؟ كل شيء يكون محتملًا عندما تبرز الحقائق الأعمق للوجود فجأة؟

كل شيء معقّد إلى حدٍّ يفوق الخيال. كل شيء يتأثّر بكل شيء آخر. إننا ندرك جزءًا ضئيلًا للغاية من مصفوفة مترابطة سببيًا، رغم أننا نجاهد بكل ما أوتينا من قوة لتجنُّب مواجهة معرفتنا بهذه الضآلة. غير أن القشرة الرقيقة لكفاءتنا الإدراكية تتصدّع حين يحدث خطأ كبير. حينها يتجلّى للعيان عدم الكفاءة المفزعة لحواسنا، ويتحوّل كل شيء عزيز علينا إلى غبار. وحينها نتجمّد كالحجارة. فما الذي نراه إذًا؟ أين يمكننا أن نوجّه أبصارنا حين يكون ما نراه غير كافٍ؟

ما الذي نراه حين لا نعرف ما الذي ننظر إليه؟

ما هو العالم بعد سقوط برجَي مركز التجارة العالمي التوأمين؟ ما الذي بقي قائمًا، لو أن شيئًا بقي قائمًا؟ أي وحشٍ مخيفٍ سينهض من تحت الأنقاض عندما تهتز الأعمدة الخفيّة الداعمة للنظام المالي العالمي وتسقط؟ ما الذي نراه عندما تجتاحنا نيران ودراما حشد قومي اشتراكي، أو ننكمش وقد

أعجزنا الخوف وسط مذبحة في رواندا؟ ما الذي نراه حين لا نستطيع فهم ما يحدث لنا، ولا نستطيع تحديد مكاننا، ولا نعود نعرف ماهيتنا، ولا نعود ندرك ما يحيط بنا؟ إن ما لا نراه هو عالم الأدوات –الأشياء المفيدة– وعالم الشخصيات، المعروف والمريح. إننا حتى لا نرى العقبات المألوفة –المزعجة بما فيه الكفاية في الأوقات العادية، على الرغم من أننا بتنا نتقن التعامل معها– والتي يمكننا تفاديها والدوران من حولها.

إن ما ندركه، عندما تتداعى الأشياء، لا يعود هو مرحلة نظام صالح للحياة، بل هو الخراب الأزلي، الخواء الهيولي، المياه البدئية، أو جهنم، وذلك إذا استخدمنا مفردات الكتاب المقدس؛ أو هو الفوضى القابعة للأبد تحت السطح الرقيق لأمننا. ومن هذه الفوضى أطلقَت «الكلمة المقدّسة» لله النظام في بداية الزمان، وفقًا لأقدم الآراء التي عبّر عنها البشر (وعلى صورة تلك «الكلمة» نفسها خُلقنا، ذكرًا وأنثى، وفقًا للآراء نفسها). ومن تلك الفوضى ظهر الاستقرار الذي أسعدنا الحظ بأن نعايشه –لفترة محدودة من الزمن– عندما تعلّمنا لأول مرة أن ندرك. إنها الفوضى التي نراها عندما تتداعى الأشياء (رغم أننا لا نستطيع رؤيتها حقًّا). فما الذي يعنيه كل هذا؟

طوارئ... طوارئ. تشير حالات الطوارئ إلى الظهور المفاجئ من مكان مجهول لظاهرة كانت غير معروفة سابقًا (وكلمة ظاهرة في اللغة الإنجليزية phenomenon هي كلمة مشتقّة من الكلمة اليونانية Phainesathai التي تعني «يبرز» أو «يظهر»). تشير الفوضى إلى عودة ظهور التنّين السرمدي الخالد من جديد، من كهفه الأزلي، ومن غفوته المؤقتة التي انتهت بعودته. تشير إلى العالم السفلي، بوحوشه الصاعدة من الأعماق. فكيف نستعد لحالة طوارئ حين لا نعلم ما الذي ظهر أو من أين؟ كيف نستعد لكارثة، حين لا نعلم ماذا نتوقّع، أو كيف نتصرّف؟ إننا ننتقل من أذهاننا –البطيئة والثقيلة أكثر من اللازم– إلى أجسادنا، إن جاز التعبير. فأجسادنا تستجيب أسرع بكثير من أذهاننا.

عندما تنهار الأمور من حولنا، يختفي إدراكنا، ونتصرَّف. تحمينا ردود أفعالنا المنعكسة العتيقة –التي صارت تلقائية وتتسم بالكفاءة على مرّ مئات الملايين من السنين– في تلك اللحظات العصيبة، التي لا يتوقّف فيها التفكير وحده – بل الإدراك ذاته أيضًا– عن أداء وظيفته. في ظلّ هذه الظروف، تجهز أجسادنا نفسها لكل الاحتمالات الممكنة(163). ففي

البداية، نتجمَّد، ثم تتحوّل الأفعال المنعكسة اللاإرادية للجسد إلى شعورٍ، وتلك هي المرحلة الثانية من مراحل الإدراك. هل هذا شيءٌ مخيفٌ؟ شيء مفيد؟ شيء يجب مقاومته؟ شيء يمكن تجاهله؟ ما مدى قدرتنا على تحديد هذا؛ ومتى؟ لا نعرف. إننا نكون حينها في حالة تأهُّب مُلحَّة مُكلفة؛ إذ تتعرض أجسادنا لطوفان من الكورتيزول والأدرينالين، وتخفق قلوبنا أسرع، وتتسارع أنفاسنا. ندرك بألم أن إحساسنا بالجدارة والكمال قد اختفى، فقد كان مجرّد حلم، ونستعين بمواردنا الجسدية والنفسية التي كانت مُدّخرة بعناية من أجل هذه اللحظة تحديدًا (إذا كنَّا محظوظين بما فيه الكفاية لامتلاك هذه الموارد). نستعدّ من أجل الأسوأ –أو الأفضل–؛ فنضغط دوّاسة الوقود بغضبٍ وبأقصى قوّة، ونضرب المكابح بعنفٍ في الوقت نفسه. نصرخ، أو نضحك. نشمئزّ أو نرتعب. ونبكي. ثم نبدأ في تحليل الفوضى.

وهكذا فإن الزوجة المخدوعة، والمشوَّشة على نحو متزايد، تشعر بدافع للبوحِ بكل شيء –لنفسها، لأختها، لصديقتها المقرَّبة، أو لغريب في حافلة– أو تلوذ بالصمت وتعيد التفكير بهوَس، لتصل إلى النتيجة نفسها. ما الخطأ الذي حدث؟ ما الذي فعلته وكان لا يغتفر؟ من هذا الشخص الذي كانت

تعيش معه؟ أي نوعِ من العوالم هذا، الذي تحدث فيه أشياء كهذه؟ أي إله هذا الذي يخلق مكانًا كهذا؟ أي محادثة يمكن أن تستهلها مع هذا الشخص الجديد المثير للغضب الذي يسكن جسد زوجها السابق؟ أي أشكال الانتقام قد تشفي غليلها وتسكّن غضبها؟ من الذي يمكنها أن تغويه لتردّ هذه الإهانة؟ إنها تتأرجح بين الغضب، والذعر، والألم، والابتهاج باحتمالات الحرّية التي ظهرت مؤخرًا.

لم يكن ملاذها الأخير للأمان الراسخ مستقرًا في الواقع، لم يكن مؤكدًا؛ بل لم يكن راسخًا على الإطلاق. كان بيتها مبنيًّا على قاعدة من رمل؛ وكان الجليد الذي تتزلّج عليه رقيقًا للغاية، لذا فقد سقطت في الماء الموجود من تحته، وها هي تغرق. لقد تعرضت للطمة قاسية إلى درجة أن غضبها، وذعرها، وحزنها، يستنزفونها. يتّسع إحساسها بالخيانة حتى تضيق عليها الأرض بما رحبت. أين هي؟ هي في العالم السفلي بكل أهواله. وكيف وصلت إلى هناك؟ عبر هذه التجربة، هذه الرحلة في البنية الأساسيّة للأشياء؛ وكل هذا من الإدراك أيضًا، في شكله الوليد؛ هذا التفكير فيما كان يمكن أن يحدث وما لا يزال يمكن أن يحدث؛ هذا الانفعال والخيال. هذا كله هو الإدراك العميق الذي صار ضروريًا الآن قبل أن تعود الأشياء المألوفة

التي كانت تعرفها للظهور مجدّدًا -لو أنها ستظهر مجدّدًا- بشكلها البسيط والمريح. هذا هو الإدراك قبل إعادة صياغة فوضى الاحتمالات في صورة حقائق وظيفية للنظام.

وبالتفكير في الماضي، تسأل الزوجة نفسها، وتسأل الآخرين: «هل كان الأمر حقًّا غير متوقّع إلى هذا الحدِّ؟». هل يجب عليها الآن أن تشعر بالذنب تجاه تجاهل إشارات التحذير، برغم أنها كانت إشارات خفيّة، وبرغم أنه كان لديها ما يشجّعها على تجاهلها؟ إنها تتذكّر أول أيام زواجها، وتتذكّر انضمامها لزوجها بلهفة في كل ليلة ليمارسا الحب معًا. ربما كان هذا مبالغًا فيه -أو حتى لا يمكن التكيّف معه-، ولكن أن يصل الحال إلى عدم ممارسة الجنس معه سوى مرة واحدة فقط في الستة أشهر الأخيرة؟ ومرة واحدة كل شهرين أو ثلاثة أشهر خلال أعوام قبل ذلك؟ هل يمكن لأحد تحترمه حقًّا -بما في ذلك هي نفسها- أن يتحمّل موقفًا كهذا؟

ثمّة قصة أطفال أحبّها حقًّا تحمل عنوان «لا يوجد شيء اسمه تنّين» **There's No Such Thing as a Dragon** للمؤلّف جاك

كينت. إنها حكاية بسيطة للغاية، ظاهريًّا على الأقل. قرأت صفحاتها القليلة ذات مرة على مجموعة من خريجي جامعة تورنتو المتقاعدين، وشرحت معناها الرمزي(61). تحكي القصّة عن ولد صغير، يدعى بيلي بيكسبي، يرى تنّينًا جالسًا على سريره في صباح أحد الأيام، وهو وديع وبحجم قطة منزل تقريبًا. يخبر الولد أمَّه بشأن التنّين، لكنها تخبره أنه لا وجود لشيء اسمه تنّين. ويبدأ التنّين في النمو ويأكل جميع فطائر بيلي. وسرعان ما يشغل التنّين حيّز البيت بأكمله. تحاول الأمّ أن تستخدم المكنسة الكهربائية لتنظيف المنزل، لكن ينبغي عليها أن تدخل إلى البيت وتخرج منه عبر النوافذ لأن التنين يملأ المكان، ويستغرقها ذلك وقتًا لا نهاية له. ثم يفر التنّين بالبيت كلّه. ويعود والد بيلي إلى البيت ليجد مساحةً فارغةً في المكان الذي اعتاد العيش فيه. يخبره ساعي البريد أين ذهب البيت. يتعقَّبه الوالد، ويتسلّق رأس التنّين وعنقه (اللذان أصبحا يمتدان الآن في الشارع)، ليلحق بزوجته وابنه. لا تزال الأم تصرّ على أن التنّين لا وجود له، لكن بيلي -الذي ضاق ذرعًا الآن ولم يعد يطيق إنكار أمّه- يقول بإصرار: «التنّين موجود يا أمّي». وعلى الفور، يبدأ التنّين في الانكماش، وسرعان ما يصبح بحجم قطّة مرّة أخرى. ويتّفق الجميع على أن التنانين بهذا الحجم: (1) موجودة؛ و(2) هي أفضل كثيرًا من التنانين العملاقة. وتتساءل الأم بنبرة حزينة، وقد انفتحت عيناها الآن لترى الحقيقة على مضض، لماذا أصبح

التنين ضخمًا للغاية. ويجيبها بيلي بهدوء قائلًا: «ربما أراد أن يكون ملحوظًا».

ربما! هذا هو المغزى الأخلاقي للعديد والعديد من القصص. تنشأ الفوضى وسط الأسرة رويدًا رويدًا، ويتراكم البؤس والاستياء المتبادل، ويتم تجاهل وإنكار كل ما هو فوضوي وقذر، ويتغذّى التنّين على هذه القاذورات. لكن لا أحد يقول شيئًا عند اكتشاف أن المجتمع المشترك والنظام المتّفق عليه في البيت هو نظام قاصر، أو ينهار في مواجهة الأمور المفاجئة والخطيرة. يختبئ الجميع في الظّلام ويتجنّب التواصل؛ فالتواصل يتطلّب الإقرار بمشاعر رهيبة: الاستياء، والفزع، والوحدة، واليأس، والغيرة، والإحباط، والكراهية، والملل. ولحظة وراء لحظة، يصبح من الأسهل الحفاظ على السّلام الهشّ. ولكن في الخلفية، في بيت بيلي بيكسبي –وفي جميع البيوت التي تشبهه– ينمو التنّين. وذات يوم تنفجر الأمور، على نحو لا يستطيع أحد تجاهله؛ ويُقتلع المنزل من قواعده. وحينها تظهر خيانة زوجية، أو نزاع عمره عقود طويلة على حصص اقتصادية ونفسية مهلكة. ثم تظهر نسخة مركّزة من القسوة والحدّة اللاذعة التي كان يمكن، على نحوٍ يمكن احتماله، توزيعها على المشكلات الشائكة واحدة وراء واحدة طوال سنوات

الزواج الفردوسي الزائف. ثم تنفجر كلّ واحدة من المشكلات الثلاثمائة ألفٍ التي لم يُعلن عنها في وقتها، والتي جرى الكذب بشأنها، وتجنّبها، وتبريرها، وإخفاؤها، تنفجر مثل جيش من الهياكل العظمية المخبّأة في دولابٍ ضخمٍ ومرعبٍ، مثل طوفان نوحٍ ليغرق كل شيء. وليس ثمة سفينة؛ لأن أحدًا لم يهتم ببناء سفينة، رغم أن الجميع كانوا يشعرون بأنّ العاصفة قادمة.

لا تهوِّن أبدًا من شأن القوة التدميرية لخطايا التجاهل والامتناع عن القيام بالفعل المناسب.

ربما كان بمقدور الزوجين المحطّمَيْن إجراء محادثة، أو محادثتين، أو مائتي محادثة بشأن حياتهما الجنسيّة قبل أن تصل الأمور إلى هنا. وربما كان ينبغي لعلاقتهما الجسدية الحميمة التي تشاركاها بلا أدنى شك أن تنعكس أيضًا من خلال علاقة نفسية حميمة مناظرة؛ وهو الأمر الذي لا يحدث في معظم الأحيان. ربما كان بمقدورهما النضال للاضطلاع بأدوارهما. لقد انهار التقسيم المنزلي التقليدي لأعباء العمل في العديد من

الأسر خلال العقود الأخيرة، ويُعزى هذا في قدر كبير منه إلى ما يدعى بالتحرّر والحرّية. إلا أن هذا الانهيار لم يُخلِّف في أعقابه تحرّرًا كبيرًا من القيود بقدر ما خلف من فوضى، وصراع، وغموض. إن الفرار من الاستبداد لا يعقبه الفردوس في أكثر الأحيان، وإنما يعقبه مكوث في الصحراء، بلا غاية، وبِحيرَةٍ، وارتباكٍ، وحرمانٍ. وعلاوة على ذلك، في غياب التقاليد المتّفق عليها (والقيود – التي غالبًا ما تكون غير مريحة؛ وربما حتى غير عقلانية– التي تفرضها تلك التقاليد)، لا يكون أمامنا سوى ثلاثة خيارات صعبة: العبودية، أو الاستبداد، أو التفاوض. العبد ينفِّذ ما يُقال له فحسب –وقد يكون سعيدًا بعدم تحمّل المسؤولية– وهو يحل مشكلة التعقيد بهذه الطريقة. لكن هذا حل مؤقَّت. فروح العبد ستتمرّد. والمستبدّ يخبر العبد بما عليه فعله، وبهذه الطريقة يحلّ مشكلة التعقيد. لكن هذا أيضًا حلٌّ مؤقتٌ. فالمستبدُّ يرهق العبد؛ فهو لا يراه كفؤًا لشيء ولا يرى له قيمة سوى في الخضوعِ العابس النكد المتوقَّع منه. ومن ذا يستطيع التعايش مع وضع كهذا إلى الأبد؟ لكن التفاوض يتطلّب اعترافًا صريحًا من جانب كلا الشريكين بوجود التنّين. وهذا واقع تصعب مواجهته، حتى إن كان التنين لا يزال أصغر من أن يلتهم الفارس الذي يجرؤ على مواجهته.

ربما كان بمقدور الزوجين المحطّمَيْن أن يحدِّدا بدقّة أكبر الطريقة المرغوبة لكينونتهما. وربما كان بمقدورهما بهذه الطريقة أن يتعاونا على منع مياه الفوضى من التفجُّر على نحو خارجٍ عن السيطرة وإغراقهما. ربما كان يمكنهما أن يفعلا ذلك بدلًا من أن يقولا بطريقة مريحة، وكسولة، وجبانة: «لا بأس. الأمر لا يستحقّ الشجار». ففي الزواج، قليلة جدًّا هي الأشياء التافهة التي لا تستحق الشجار. أنتما عالقان في الزواج مثل القطتين اللتين يُضرب بهما المثل في برميل، ومقيَّدان بالقَسَم الأبدي الذي يفترض نظريًا أن يبقى معكما حتى يموت أحدكما أو كلاكما. والغرض من هذا القَسَم هو أن يدفعكما لأخذ الموقف على محمل الجدِّ. فهل ترغب حقًّا في أن يظلّ شيءٌ مزعجٌ تافه يؤرقك، ويسبّب لك الألم في كل يومٍ من أيام زواجك طيلة الفترة التي سيدومها هذا الزواج، والتي قد تصل إلى عقود؟

قد تفكّر قائلًا لنفسك: «أوه؛ يمكنني تحمّل هذا»، وربما كان يجب عليك أن تفكّر بهذه الطريقة. لكنك لست نموذجًا مثاليًا للتسامح الحقيقي الصادق. ربما إذا تحدّثت عن ضحكة شريك حياتك الطائشة التي تزعجك وتبدو مثل صوت دق المسامير فسوف يقول لك –على نحو ملائم تمامًا– بأن تذهب إلى الجحيم. فربما كان الخطأ خطأك، وكان ينبغي عليك أن

تنضج، وأن تجمع شتات نفسك وتلتزم الصمت. لكن ربما كان النهيق مثل حمار وسط حشد اجتماعي لا يرسم صورة جيّدة لشريكك، وربما كان عليك أن تتمسّك بموقفك. في مثل هذه الظروف، لا بديل عن خوض حرب –حرب من أجل الوصول إلى غاية هي السلام– لاكتشاف الحقيقة. لكنّك تظلّ صامتًا، وتقنع نفسك بأن السبب هو أنك شخص طيّب، ومحبّ للسلام، وصبور (وهذا أبعد ما يكون من الحقيقة). وهكذا يحقّق الوحش بعض المكاسب الإضافية.

ربما كانت محادثة صريحة بشأن عدم الرضا الجنسي ستمثّل الرتق المثالي للشرخ في العلاقة في الوقت المناسب؛ ولا يعني هذا أن الأمر سيكون سهلًا. ربما كانت السيدة ترغب سرًّا في إنهاء العلاقة الحميمة لأنها كانت متردِّدة بعمق بشأن ممارسة الجنس، لسبب لا يعلمه إلا الله. وربما كان السيد عاشقًا فظيعًا وأنانيًا. وربما كان كلاهما كذلك. ألا يستحق إصلاح ذلك شجارًا؟ هذا جانب كبير من الحياة، أليس كذلك؟ لعلّ معالجة ذلك وحلّ المشكلة يستحقان شهرين من المعاناة الخالصة المتمثّلة في إخبار كل منهما الآخر بالحقيقة (ليس بقصد الهدم، أو تحقيق النصر، لأن هذه ليست هي الحقيقة؛ وإنما حرب ضروس).

وربما لم يكن الأمر يتعلّق بالجنس. لعلّ كل محادثة بين الزوج والزوجة كانت تتردّى في هوة روتين مملٍّ، لأنه ما من مغامرة مشتركة بينهما تبعث الحيوية في الزوجين. ربما كان هذا التردِّي أسهل، لحظة وراء لحظة، ويومًا وراء يوم، من تحمّل مسؤولية الحفاظ على حيويّة العلاقة. فالأشياء الحيّة تذوي وتموت في نهاية المطاف إذا غابت الرعاية والاهتمام. والحياة ما هي إلا عمليّة إصلاح وصيانة تتطلّب جهدًا. ولا أحد يجد شريكًا مثاليًّا للغاية بحيث تختفي الحاجة إلى العناية والاهتمام والجهد المستمر (وإضافة إلى ذلك، فإنك إذا وجدت الشريك المثالي، فإنه سيفرّ من عيوبك وقصورك في فزع مُبرَّر لا يمكن أن يُلامَ عليه). وفي الحقيقة، فإن كل ما تحتاج إليه –وما تستحقّه على أي حال– هو شخص غير مثالي، مثلك تمامًا.

ربما كان الزوج الذي خان زوجته غير ناضج وأناني إلى حد مُروّع. ربما كانت لهذه الأنانية اليد العليا في حياته. وربما لم تُعارض الزوجة هذه النزعة بالقوّة والحيوية الكافيتين. ربما لم تستطع الاتفاق معه على نهج التربية المناسب لأطفالهما، وأبعدته عن حياة الأطفال نتيجة لذلك. وربما أتاح له

ذلك الالتفاف على ما اعتبره مسؤولية مزعجة. وربما اختمرت الكراهية في قلوب الأطفال، أثناء مشاهدتهم لهذه المعركة الخفيّة، ومعاقبتهم بشعور والدتهم بالاستياء والغضب، واغترابهم شيئًا فشيئًا عن والدهم الطيب الذي كانوا يعرفونه في السابق. ربما وجبات العشاء التي كانت تعدّها له –أو يعدّها لها– باردة وكان يتناولها وهو شاعر بالمرارة والسخط. وربما أدى كل هذا الصراع الذي لم تجرِ معالجته إلى جعل كليهما غاضبًا مستاءً –على نحو غير معلن– لكنه فعّال. وربما بدأت كل تلك المتاعب غير المعلنة في تقويض الشبكات غير المرئية الداعمة للزواج. ربما تحوَّل الاحترام رويدًا رويدًا إلى ازدراء، ولم يتكرّم أحدهما بملاحظة ذلك. ربما تحوّل الحب بخُطى وئيدة إلى بغض، ولكن استمرّ إخفاء الأمر.

إن كل شيء يتم توضيحه وبيانه وتفصيله يصبح مرئيًا؛ ولكن ربما لم ترغب الزوجة ولا الزوج في الرؤية أو الفهم. ربما يكونان قد تركا الأمور غائمة ضبابية عن عمد؛ بل ربما يكونان هما من أوجدا الضباب، لإخفاء ما لم يرغبا في رؤيته. ما المكسب الذي حقَّقته الزوجة عندما تحوّلت من عشيقة محبوبة إلى خادمة أو أم؟ هل استراحت عندما انتهت حياتها الجنسية؟ هل كان بإمكانها أن تكسب المزيد من التعاطف من خلال شكواها لجاراتها

ولأمّها عندما ينصرف زوجها؟ ربما كان ذلك أكثر إشباعًا لها –سريًا– من أي أمر جيّد يمكن نيله من أي زواج، بغضّ النظر عن مدى مثاليّة هذا الزواج. ما الذي يمكن مقارنته بمتعة لعب دور الضحية على نحو معقّد وبارع؟ متعة أن يُقال عنها: «يا لها من قدّيسة تصبر على زواجها من رجل فظيع كهذا. لقد كانت تستحق من هو أفضل منه بكثير». تلك خرافة بائسة ليعيش عليها الإنسان، حتى وإن جرى اختيارها بغير وعي (ولتذهب حقيقة الموقف إلى الجحيم). ربما هي لم تحبّ زوجها حقًّا قطّ. ربما لم تحبّ كل الرجال، ولا تزال لا تحبّهم. ربما كان ذلك خطأ أمها، أو جدّتها. ربما كانت تحاكي سلوكهما، وتتمثّل عناءهما الذي انتقل بطريقة ضمنية لا واعية عبر الأجيال. ربما كانت تنتقم من أبيها، أو أخيها، أو من المجتمع.

وما الذي ربحه الزوج من جانبه عندما انتهت حياته الجنسية في البيت؟ هل تقبّل الأمر بطيب خاطر –باعتباره ضحية– وذهب يشكو بمرارة إلى أصدقائه؟ هل استغل هذا بوصفه المبرر الذي كان يريده على أيّ حال للبحث عن عشيقة؟ هل استخدمه لتبرير السخط الذي لا يزال يشعر به تجاه النساء عمومًا بسبب الرفض الذي تعرّض له باستمرار قبل أن يتزوّج؟

هل اغتنم الفرصة ليصبح بدينًا وكسولًا لأنه لم يكن مرغوبًا به في جميع الأحوال؟

ربما استغلّ الزوجِ والزوجة كلاهما على حدٍّ سواء الفرصة لإفساد زواجهما انتقامًا من الربّ نفسه (الذي ربما كان هو الكيان الوحيد الذي كان يستطيع تنظيم تلك الفوضى).

إليكم الحقيقة المفزعة لمثل هذه الأمور: كلّ سبب لإخفاق الزواج لم تجرِ معالجته ولا استيعابه وجرى تجاهله طوعًا سوف يتفاقم ويتضافر، ومن ثمَّ يعصف بكيان تلك المرأة التي تعرّضت للخيانة –والتي خانت نفسها– طوال ما بقي من حياتها. ويسري الأمر نفسه على زوجها. وكل ما ينبغي عليها، وعليه، وعليهم، وعلينا، فعله لضمان الوصول إلى هذه النتيجة هو لا شيء: لا ننتبه، لا نستجيب، لا نهتمّ، لا نناقش، لا نفكّر، لا نعمل من أجل إحلال السلام، لا نتحمّل المسؤولية،لا نواجه الفوضى ونحوِّلها إلى نظام؛ بل فقط ننتظر بزوغ الفوضى وإحاطتها بنا من كلّ اتجاه؛ ويمكن تسمية هذا بأي اسم سوى البراءة. لماذا نحاول تجنّب المشكلات إذا كان هذا التجنّب سيفسد

المستقبل حتمًا وبالضرورة؟ لأن احتمال وجود وحشٍ قائمٍ دائمًا وراء كلِّ الخلافات والأخطاء. ربما كان الشّجار الذي تخوضه (أو لا تخوضه) مع زوجتك، أو مع زوجك، يعني بداية النهاية لعلاقتكما. ربما توشك علاقتكما على الانتهاء لأنك شخص سيّئ. هذا محتمل، جزئيًّا على الأقلّ، أليس كذلك؟ لذا فإن خوض الجدال اللازم لحل مشكلة حقيقية هو أمر يحتّم توفّر الإرادة لمواجهة نوعين من الاحتمالات البغضية والخطيرة في الوقت نفسه، وهما: الفوضى (وهي الهشاشة المحتملة للعلاقة –لكل العلاقات– للحياة نفسها)، والجحيم (وهو حقيقة أنك، وشريك حياتك، يمكن لأي واحد منكما أن يكون الشخص السيّئ بما فيه الكفاية لتدمير كلّ شيء بكسله وحقده وغضبه). إن كافة الدوافع لتجنّب المشكلات قد تكون موجودة؛ لكن التجنّب لن يفيد بشيء.

لماذا البقاء في غموض طالما أن الغموض يجعل الحياة راكدة وعكرة؟ حسنًا، إذا كنت لا تعرف من أنت، فيمكنك الاختباء في شكّ. ربما لم تكن شخصًا سيّئًا، أو مهملًا، أو تافهًا. من يدري؟ ليس أنت من يعرف؛ لا سيما إذا كنت ترفض التفكير في الأمر؛ ولديك كل الدوافع لكي لا تفكر فيه. لكن عدم التفكير في أمر لا ترغب في معرفته لن يجعله يختفي. أنت فقط

تقوم باستبدال معرفة واضحة ومعينة وموجهة لقائمة محدودة محتملة من عيوبك وأخطائك بقائمة أخرى أطول كثيرًا مليئة بأوجه ضعف وقصور محتملة غير محدّدة.

لماذا ترفض تقصّي الأمر في حين أن معرفة الواقع تتيح السيطرة عليه (وإذا لم تكن السيطرة ممكنة، فعلى الأقل ستحظى بمكانة شخص يحاول بصدق)؟ حسنًا، ماذا لو أن ثمة شيئًا فاسدًا حقًّا في دولة الدنمارك؟ ماذا إذًا؟ أليس من الأفضل في ظلّ هذه الظروف العيش في عمًى متعمّد والتمتّع بنعمة الجهل؟ حسنًا، ليس إذا كان الوحش حقيقيًّا! هل تعتقد حقًا بأنها فكرة جيدة أن تنسحب، وتنبذ إمكانية تسليح نفسك في مواجهة ذلك البحر الهائج متلاطم الأمواج من المتاعب، وبذلك تنهار صورتك أمام نفسك؟ هل تعتقد حقًا بأنه من الحكمة أن تدع الكارثة تكبر في الظلام بينما أنت تنكمش وتتضاءل ويزداد خوفك ورعبك؟ أليس من الأفضل أن تستعدَّ، أن تشحذ سيفك، وأن تحدِّق في الظلام، ثم تتحدّى الأسد في عرينه؟ ربما ستتأذّى، بل الأرجح أنك ستتأذى؛ فالحياة معاناة على أي حال. لكن لعل الجرح لن يكون قاتلًا.

وفي المقابل، إذا انتظرت حتى يأتيك ما ترفض مواجهته طارقًا بابك، فمن المؤكد أن الأمور لن تجري معك على خير ما يرام. سوف يحدث أكثر شيء لا تريد حدوثه لا محالة؛ وسوف يحدث عندما تكون لا تكون متحضّرًا لمواجهته. سوف يتجلّى أمامك آخر شيء ترغب في مواجهته حين تكون في أضعف حالاتك ويكون هو في أقوى حالاته. وسوف تُهزَم.

دائرًا ودائرًا في لولب متوسّع
الصقر لم يعد يسمع الصقّار
كل شيء ينهار، الوسط لا يقوى على التماسك،
فوضى صرف سُرّحت على العالم،
مدٌّ من الدم القاتم سُيّب، وفي كل مكان
شعائر البراء غرقت،
الأفضل يعوزه الإيمان بينما الأسوأ
مشحون بحدة حماسية.(164)
(ويليام ييتس، المجيء الثاني، ترجمة عبد القادر الجنابي)

لماذا ترفض تحديد المشكلة، رغم أن تحديدها يمكّنك من حلّها؟ لأن تحديد المشكلة يعني الاعتراف بوجودها. لأن تحديد المشكلة يعني أن تسمح لنفسك بمعرفة ما تريد، من صديق أو حبيب مثلًا؛ وحينها ستدرك، بدقّة ووضوحِ حين لا تنال ما تريد، وسوف يؤلمك هذا بشدة. لكنك ستتعلّم شيئًا من ذلك، وتستفيد مما تعلّمته في المستقبل؛ والبديل لذلك الألم المفرد الحادّ هو الوجع الفاتر الثقيل لليأس المستمر، والفشل الغامض، والشعور بأن وقتًا ثمينًا ينسلّ من بين يديك.

لماذا ترفض التحديد؟ لأنك بعدم تعريف النجاح (وجعله مستحيلًا بالتالي) ترفض أيضًا تعريف الفشل لنفسك، وبالتالي فإنك حين تفشل لن تدرك ذلك، ولن تتألَّم. لكن ذلك لن يُفلِح! فلا يمكنك أن تخدع نفسك بهذه السهولة؛ إلا إذا كنت قد قطعت شوطًا طويلًا على ذلك الدرب! وبدلًا من ذلك، سوف يؤرقك دائمًا شعور دائم بالخيبة في كينونتك، وازدراء الذات الذي يصاحب ذلك الشعور، والكراهية المتزايدة للعالم الناتجة عن كل ما سبق. يضيف ييتس قائلًا في قصيدته:

لا ريب أن غيبًا سينكشف وشيكًا

أكيد أن المجيء الثاني يقترب
المجيء الثاني! وما كادت هذه الكلمات تُلفظ،
حتى صورة جسيمة، خارجة من (أعماق) روح العالم
أخذت تشوّش بصري، في مكان ما على رمال الصحراء
شكلٌ له جسم أسد، ورأس إنسان،
وحملقة فارغة من أي تعبير، وكالشمس بلا شفقة،
يُحرّك فخذيه البطيئتين، في حين، حواليه، تدور
ظلال طيور الصحراء الغاضبة
الظلام ينسدل ثانيةً، لكن بدأتُ أدرك الآن
أن عشرين قرنًا من النوم الحجري
هيّجها هزيز مهد إلى كابوس،
أيٌّ وحشٍ شرسٍ، حات أخيرًا ساعة انبعاثه،
يمشي متهدلًا نحو «بيت لحم» كي يولد.
(ويليام ييتس، المجيء الثاني، ترجمة عبد القادر الجنابي)

ماذا لو أن السيدة التي تعرَّضت للخيانة، بعد أن أصبحت مدفوعة باليأس، قد عزمت على مواجهة تفكّك الماضي، والحاضر، والمستقبل؟ ماذا لو أنها قرّرت التعامل مع الفوضى، على الرغم من أنها قد تجنبت فعل ذلك حتى

هذه اللحظة، وأصبحت أكثر ضعفًا وأكثر حيرة؟ ربما سوف يستنزفها الجهد حتى يكاد يقتلها (لكنّها الآن تمضي في طريق هو أسوأ من الموت على كل حال). ولكي تعود إلى الحياة، ولكي تنجو، ولكي تولد من جديد، يجب عليها أن تصوغ بعناية الواقع الذي-على نحو مريح ولكنه خطير- تركته يختفي وراء حجاب من الجهل وستار من الوئام. يجب عليها أن تعزل التفاصيل المحدّدة لفاجعتها عن حالة الكينونة العامة غير المحتملة في عالمٍ انهار فيه كلّ شيء. كلّ شيء! هذه مبالغة كبيرة. لقد كانت أشياء معيّنة هي التي انهارت، وليس كل شيء؛ اعتقادات محدّدة هي التي خابت؛ وأفعال محدّدة هي التي كانت خاطئة وزائفة. ماذا كانت؟ وكيف يمكن إصلاحها، الآن؟ وكيف يمكنها أن تكون أفضل حالًا في المستقبل؟ إنها لن تستطيع أبدًا العودة إلى أرض ثابتة إذا رفضت تسوية الأمر بأكمله، أو إذا عجزت عن ذلك. يمكنها أن تعيد جمع شتات عالمها من جديد بقدر من الدقّة في التفكير، وقدر من الدقّة في الحديث، وقدر من الثّقة في كلمتها، وقدر من الثّقة في «كلمة الله». لكن ربما كان من الأفضل ترك الأمور في الضباب. ربما لم يتبقَ من ذاتها شيء الآن؛ ربما كان جزءٌ كبيرٌ جدًا من ذاتها قد تُرِك من دون أن يُعَبَّر عنه، ومن دون نضج أو تطوّر. ربما لم تعد لديها الطاقة اللازمة ببساطة...

ربما كان، في السابق، قد أنقذها من كل هذا العناء بعض الحرص، والشجاعة، والصدق في التعبير. ماذا لو كانت قد تحدّثت بشأن عدم رضاها عن تدهور حياتها الرومانسية، في اللحظة التي بدأ في التدهور؟ فور أن أزعجها هذا التدهور للمرة الأولى؟ وإذا لم يكن قد أزعجها؛ ماذا لو أنها تحدّثت عن حقيقة أن الأمر لم يزعجها بقدر ما كان ينبغي له أن يزعجها؟ ماذا لو أنها تصدت بوضوحٍ واهتمام لحقيقة تحقير زوجها لجهودها الأسرية؟ هل كانت ستكتشف كراهيتها لوالدها وللمجتمع نفسه (وما يترتّب على ذلك من تدنيس لعلاقاتها)؟ ماذا لو كانت قد أصلحت كل ذلك؟ إلى أي مدى كانت ستكون أقوى الآن؟ وإلى أي مدى كانت ستقلّ احتمالات تجنّبها مواجهة الصعوبات نتيجة لذلك؟ وكيف كانت ستفيد نفسها، وأسرتها، والعالم؟

ماذا لو أنها كانت قد جازفت بصدق، وباستمرار، بمواجهة الصراع والشجار في الوقت الحاضر في سبيل الصدق والسلام على المدى البعيد؟ ماذا لو كانت قد تعاملت مع المتاعب الصغيرة لزواجها على أنها دليل على عدم استقرار الزواج، ويجدر الاهتمام بها كثيرًا، بدلًا من تجاهلها، أو

تحمّلها، أو الابتسام لها بطريقة لطيفة وديّة؟ ربما كانت ستصير إنسانة مختلفة، وزوجها أيضًا ربما كان سيصير مختلفًا. ربما كانا سيظلان متزوّجين، شكليًا وروحيًّا. ربما كان كلاهما سيكون أكثر شبابًا، جسديًّا وعقليًّا، مما هما عليه الآن. ربما كان بيتها سيكون قائمًا على أساس متين راسخ وليس على رمال هشّة متداعية.

عندما تتداعى الأمور وتعود الفوضى للظهور، يمكننا أن نصنع لها هيكلًا محدَّدًا ينظمها، وأن نعيد تأسيس النظام، من خلال الحديث. فإذا تحدّثنا بعناية وبدقّة، فإننا نستطيع تسوية الأمور، ووضعها في نصابها الصحيح، وتحديد هدفٍ جديدٍ، والتحرّك باتجاهه؛ معًا في أكثر الأحيان، إذا تحدّثنا وتفاوضنا؛ وإذا توصّلنا إلى اتفاق. ولكن إذا كان حديثنا طائشًا، ومبهَمًا، وغير دقيقٍ، فستظلّ الأمور غامضةً، وستظلّ الوجهة غير معلنة، ولن ينقشع ضباب الشكّ وعدم اليقين، ولن يكون ثمة تفاوضٌ في العالم.

بناء الروح والعالم

تشترك كلٌّ من النفس (الروح) والعالم في أنهما منظّمان –على أعلى مستويات الوجود الإنساني– بواسطة اللغة، ومن خلال التواصل. لا تكون الأمور على ما تبدو عليه حين تكون النتيجة غير مقصودة وغير مرغوبة. لا تُصنّف الكينونة في فئات صحيحة حين لا تسير الأمور على خير ما يرام. عندما يحدث خطأ ما، فلا بد من التشكّك في الإدراك ذاته، إلى جانب التشكّك في التقييم، والفكر، والفعل. عندما يعلن الخطأ عن نفسه، تتمثّل لنا فوضى غير متمايزة. لكن التنانين الفوضوية ذات الوجود الحقيقي (الذي ربما كان وجودًا أوضح من أي شيء آخر) تحتفظ بالكثير من الذهب أيضًا. فوسط ذلك الانهيار نحو الفوضى المرعبة للكينونة الملغزة المستعصية على الفهم، تكمن احتمالات بزوغ نظام جديد ومفيد. ووضوح التفكير –الوضوح الشجاع للتفكير– ضروري لإيجاد هذا النظام. لا بد من الإقرار بالمشكلة في أقرب وقت ممكن لظهورها. تُعَدّ عبارة من قبيل: «أنا لست سعيدًا» بداية جيّدة (وليس عبارة «لديَّ الحقّ في أن أكون تعيسًا»، لأن ذلك لا يزال موضع شكٍّ في بداية مسار حلّ المشكلة). ربما كانت تعاستك مبرّرة في ظل الظروف الحالية. ربما كان أي شخص عاقل سيشعر بالبؤس والتعاسة لو كان في مكانك. لكن –من ناحية أخرى– لعلك أنت شخص متذمّر وغير ناضج! اعتبر أن الاحتمالين واردان بالقدر نفسه، برغم أن

التفكير بهذه الطريقة قد يكون بشعًا ومزعجًا لك إلى أقصى حد. ما هي بالضبط احتمالات كونك شخصًا غير ناضج؟ من الجائز أن ثمة هوةً لا قرارَ لها في هذا الصدد؛ لكنّك على الأقل تستطيع تدارك الأمر وحلّ المشكلة، إذا كنت تستطيع الإقرار بوجودها.

إننا نحلل الفوضى المعقّدة والمتشابكة، ونحدّد طبيعة الأشياء، بما في ذلك أنفسنا. وبهذه الطريقة، يقوم استكشافنا الإبداعي التواصلي بإنتاج العالم وإعادة إنتاجه باستمرار. إننا نتشكّل وندرك ونتنوّر من خلال ما نواجهه طوعًا، وكذلك نُشكِّل العالم الذي نعيش فيه أيضًا أثناء هذه المواجهة. هذا صعب، لكن الصعوبة لا علاقة لها بالأمر، لأن البديل أسوأ وأصعب.

ربما تجاهل الزوج حديث زوجته على العشاء لأنه كان يبغض وظيفته ويشعر بالتعب والاستياء والغضب. وربما كان يكره وظيفته لأن والده أجبره على اختيار هذه المهنة، وكان هو أضعف أو أكثر طاعة من أن يعترض. وربما تحمّلت الزوجة عدم انتباهه لأنها ظنت أن الاعتراض الصريح هو فعل وقح، وغير مهذّب، وغير أخلاقي. ربما كانت هي أيضًا تكره غضب والدها

وقرّرت حين كانت طفلة صغيرة للغاية أن العدوانية والحسم خاطئان أخلاقيًا. ربما ظنّت أن زوجها لن يحبّها لو كانت لها آراؤها الخاصّة بها. من الصعب للغاية تنظيم أمور مثل هذه؛ لكن الآلة المعطّلة ستظلّ مُعطّلة إذا لم تُشخَّص عيوبها أو لم يجرِ إصلاحها.

تمييز الثمين من الغث

الدقّة تحدّد المشكلات. فعندما يحدث أمر فظيع، تكون الدقّة هي ما يفصل بين الأمر الفظيع الذي حدث بالفعل وبين جميع الأشياء الأخرى – الفظيعة بالقدر نفسه– التي كان يمكن أن تحدث، ولكنها لم تحدث. فلو أنك استيقظت على ألمٍ، فربما كنت تحتضر. ربما كنت تحتضر ببطء وبمعاناة شديدة بسبب مرض من بين عدة أمراض متنوّعة مؤلمة وفظيعة. وإذا رفضت إعلام طبيبك بشأن ألمك، فإن مرضك يبقى غير محدّد: وقد يكون مرضك هذا أيًّا من هذه الأمراض العديدة المحتملة؛ وهو بكل تأكيد شيء هائل مروّع (نظرًا لتجنّبك خوض المحادثة التشخيصية؛ أي فعل التعبير الدقيق). لكن إذا تحدّثت إلى طبيبك، فإن كل هذه الأمراض الفظيعة

المحتملة سوف تُختزل -بقدر من الحظ- في مرضٍ واحدٍ فظيعٍ (أو ليس فظيعًا للغاية)، أو ربما حتى لم يكن هناك مرض على الإطلاق. وحينها يمكنك أن تضحك من مخاوفك السابقة، وإذا كان ثمّة خطبٌ ما حقًّا، فقد أصبحت مستعدًّا لمواجهته. قد لا تؤدّي الدقّة إلى علاج المشكلة المأساوية، لكنّها على الأقل تطرد الوحوش والشياطين.

إن ما تسمعه في الغابة ولا تستطيع رؤيته قد يكون نمرًا؛ بل قد يكون مجموعة من النمور، كلّ واحد منها جائعًا وشرسًا أكثر من الآخر، ويقودها تمساح. لكن قد لا يكون الأمر كذلك. ربما إذا استدرت ونظرت، سترى أنه مجرّد سنجاب. (أعرف أحدًا طارده سنجاب بالفعل). ثمة شيء ما في الغابة، وأنت تعلم ذلك يقينًا. لكنه سنجاب في الغالب. ولكن إذا رفضت أن تنظر، فإنه تنّين، وأنت لست فارسًا: أنت فأر يواجه أسدًا؛ أو أرنب شلّت حركته نظرة من عيني ذئبٍ. وأنا لا أقول إنه دائمًا ما يكون سنجابًا، ففي كثير من الأحيان يكون أمرًا فظيعًا حقًّا. لكن حتّى ما هو فظيع في الواقع، غالبًا ما يكون تافهًا مقارنة بما هو فظيع في الخيال. وما لا يمكن مواجهته بسبب الارتعاب منه في الخيال، يمكن غالبًا مواجهته في الحقيقة عندما

يتضاءل إلى حقيقته، برغم أن تلك الحقيقة تظلّ مريعة على نحو لا يمكن إنكاره.

إذا تنصّلت من مسؤولية مواجهة ما هو غير متوقّع، حتى حين يظهر بمقادير يمكن التعامل معها، سيصبح الواقع نفسه مضطربًا وفوضويًا إلى حدٍّ لا يطاق. وبعد ذلك ستزيد الفوضى وتبتلع النظام، والمعنى، والقدرة على التنبؤ. يتحول الواقع نفسه الذي يجري تجاهله (منتكسًا) إلى إلهة الفوضى العظيمة، و«الوحش الزاحف المجهول»؛ الوحش المفترس العظيم الذي قاتله البشر منذ فجر التاريخ. وإذا لم تنتبه للفجوة بين الادعاء والحقيقة، فستتّسع الفجوة، وسوف تسقط فيها، وستكون العواقب بغيضة. يتجلّى الواقع الذي تم تجاهله في صورة جحيم من الحيرة والمعاناة.

كن حذرًا في ما تخبر به نفسك والآخرين بشأن ما فعلته، وما تفعله، وإلى أين تذهب. ابحث عن الكلمات الصحيحة. رتّب تلك الكلمات في عبارات صحيحة، ورتّب تلك العبارات في فقرات صحيحة. يمكن التكفير عن الماضي باختزاله في جوهره الصحيح باستخدام لغة دقيقة. ويمكن للحاضر

أن يتدفّق بسلاسة من دون أن يسرق المستقبل إذا جرى التعبير عن حقائق الحاضر بوضوح. وبواسطة التفكير الدقيق واستخدام لغة حذرة ودقيقة، يمكن انتزاع المصير اللامع المتفرّد الذي يبرّر الوجود ذاته من بين عدة احتمالات للمستقبل معظمها مظلمة وبغيضة، ومن المرجّح بشدّة أن تعلن عن نفسها من تلقاء نفسها. وهكذا تُنشئ «العين» و«الكلمة» نظامًا صالحًا للحياة.

لا تتعامى عن الوحوش الصغيرة؛ فسوف تزدهر وتنمو كثيرًا في الظلام. ومن ثم سوف تقفز من مكمنها فجأة وتلتهمك، على حين غرّة منك في الوقت الذي لا تتوقّع فيه ظهورها. وحينها سوف تتردّى في جحيم غامض مبهَم محيّر، بدلًا من أن ترقى إلى فردوس الفضيلة والنقاء. إن الكلمات الشجاعة والصادقة ستجعل واقعك بسيطًا، نقيًّا، محدّدًا، وقابلًا للعيش.

إذا حدّدت الأمور بانتباه يقظ ولغة دقيقة، فإنك تعرضها على أنها أمور عملية وسلسة، وتفصلها عن ارتباطاتها الأساسيّة الشاملة. أنت تبسِّطها، وتجعلها محدّدة ونافعة، وتحدّ من تعقيدها. أنت تجعل التعايش معها ممكنًا، وتستفيد منها، من دون أن تنهار تحت وطأة تعقيدها، مع ما يصاحبها من شكٍّ وقلقٍ. ولو أنك تركت الأمور غامضة، فلن يمكنك أبدًا

التمييز بين شيء وآخر، وسوف يختلط كلّ شيء بكلّ شيء آخر، وهذا يجعل العالم أعقد من أن يمكننا التعامل معه.

عليك أن تحدّد موضوع المناقشة بوعي، لا سيما عندما يكون الموضوع صعبًا؛ أو يصبح عامًّا ويشمل كلّ شيء؛ فكلّ شيء هو أكثر مما ينبغي. وغالبًا ما يكون هذا هو السبب الذي يجعل الزوجين يكفّان عن التواصل. لأن كلّ مناقشة تتردّى لتصبح مناقشة بشأن كلّ مشكلة حدثت في الماضي، وكل مشكلة قائمة حاليًا، وكل شيء بغيض يُحتمل حدوثه في المستقبل.

لا أحد يستطيع مناقشة «كل شيء». وبدلًا من ذلك، يمكنك أن تقول: «هذا الشيء تحديدًا هو ما يجعلني تعيسًا. وهذا الشيء تحديدًا هو ما أريده كبديل (وبرغم ذلك فإنني منفتح على الاقتراحات إذا كانت محدّدة). هذا الشيء تحديدًا هو ما تستطيع تقديمه حتى يتسنّى لي أن أكفّ عن جعل حياتك وحياتي تعيستين بائستين». لكن لكي يمكنك فعل ذلك، عليك أن تفكّر: ما المشكلة بالتحديد؟ ما الذي أريده بالتحديد؟ يجب عليك أن

تتكلّم بصراحة، وأن تستدعي العالم المنظم القابل للعيش فيه من رحم الفوضى. وعليك أن تستخدم حديثًا دقيقًا وصادقًا لكي تفعل ذلك. فإذا تنصّلت واختبأت بدلًا من ذلك، فإن ما تختبئ منه سوف يتحوّل إلى ذلك التنين العملاق الذي يختبئ تحت سريرك، وفي غابتك، وفي خبايا عقلك المظلمة؛ وسوف يلتهمك.

عليك أن تحدّد أين كنت في حياتك، حتى يمكنك أن تعرف أين أنت الآن. فإذا كنت لا تعرف أين أنت بالتحديد، فيمكن أن تكون في أي مكان؛ وأي مكان هو عدد كبير جدًّا من الأماكن، وبعض هذه الأماكن سيئ للغاية. عليك أن تحدّد أين كنت خلال حياتك، لأنك إن لم تفعل فلن يمكنك الوصول إلى حيث تريد. لا يمكنك الانتقال من النقطة «أ» إلى النقطة «ب» ما لم تكن عند النقطة «أ» بالفعل، وإذا كنت ببساطة في «أي مكان»، فإن فرص وجودك عند النقطة «أ» ضئيلة للغاية في الواقع.

عليك أن تحدِّد إلى أين أنت ذاهب في حياتك، لأنك لا تستطيع أن تصل إلى غايتك إلا إذا كنت تتحرّك في اتجاهها، والتجوّل بلا هدف لن يجعلك

تتقدّم نحو الأمام؛ بل سيصيبك بخيبة الأمل والإحباط، ويجعلك شخصًا قلقًا، مهمومًا، وتعيسًا، ويصعب التفاهم معك (ثم سيجعلك غاضبًا مستاءً، ثم حاقدًا راغبًا في الانتقام، ثم ما هو أسوأ).

قل ما تقصده، حتى يمكنك معرفة ما تقصده. وافعل ما تقوله، حتى يمكنك اكتشاف ما يحدث. ثم كن يقظًا منتبهًا. لاحظ أخطاءك، وعبّر عنها، وناضل من أجل تقويمها. هكذا يمكنك أن تكتشف معنى حياتك. وسوف يحميك هذا من مأساة حياتك. وهل يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك؟

واجه فوضى « الكينونة». حدِّد هدفك في مواجهة البحر المتلاطم من المشكلات. حدّد وجهتك، وارسم مسارك. اعترف بما تريد. أخبر من حولك من أنت. كن دقيقًا، وحدّق بيقظة، وتحرّك للأمام، مباشرة.

كن دقيقًا في حديثك.

القاعدة 11

لا تزعج الأطفال وهم يتزلجون على الألواح

الخطر والبراعة

في وقتٍ من الأوقات، اعتاد الأطفال التزلّج على الألواح في الجانب الغربي من صالة سيدني سميث بجامعة تورنتو، التي أعمل فيها. وكنتُ أقف هناك أحيانًا وأراقبهم. ثمة دَرَجٌ من الأسمنت الخشن العريض قليل الارتفاع هناك يؤدّي من الشارع إلى المدخل الأمامي، ويحفُّ هذا الدَّرَج درابزين أنبوبي من الحديد، قُطره بوصتان ونصف تقريبًا وطوله عشرون قدمًا. وكان الأطفال المجانين -وغالبهم من الأولاد- يبتعدون نحو خمس عشرة ياردة عن قمّة الدَّرَج، ثم يضعون قدمًا واحدة على ألواحهم ويتزلجون كالمجانين لاكتساب السرعة، وقبل أن يصطدموا بالدرابزين، كانوا ينحنون ويُمسكون لوح التزلج بيدٍ واحدة، ويقفزون على قِمة الدرابزين ويتزحلقون بطوله نزولًا إلى الأسفل، ويدفعون أنفسهم من عليه، ويهبطون؛ وكانوا يهبطون أحيانًا برشاقة وأمان وهم لا يزالون على ألواحهم، وأحيانًا أخرى يسقطون عنها متألمين. وفي كلتا الحالتين، كانوا سريعًا ما يعودون إلى ألواحهم.

قد يصف البعضُ هذه الأفعال بالغباء، وربما كانت كذلك بالفعل. ولكنها شجاعة أيضًا. لقد كنت أرى أن هؤلاء الأطفال مذهلون، وكنت أعتقد بأنهم يستحقّون التربيت على ظهورهم مع بعض عبارات الإعجاب الصادقة. لقد كانت أفعالهم خطيرةً بالتأكيد؛ فقد كان الخطر هو الهدف أصلًا. لقد أرادوا الانتصار على الخطر. لعلهم كانوا سيصبحون أكثر أمانًا بارتداء المُعدّات الواقية، ولكن هذا كان سيُفسِد الغرض من أفعالهم. لم يكن هؤلاء الأطفال يحاولون أن يكونوا بأمان، لقد كانوا يحاولون أن يكونوا أكفّاء؛ والكفاءة وحدها هي ما يجعل الناس يشعرون بالأمان الحقيقي في نهاية الأمر.

إنني لا أجرؤ على فعل ما كان هؤلاء الأطفال يفعلونه. وليس هذا فحسب، بل إنني لا أستطيع ذلك أيضًا. أنا لا أستطع بالتأكيد أن أتسلّق رافعة بناء مثل بعض مُتهوِّري العصر الحديث الذين نراهم على موقع يوتيوب (ومثلهم بالطبع الأشخاص الذين يعملون على رافعات البناء). أنا لا أحب المرتفعات، رغم أن ارتفاع الخمسة وعشرين ألف قدمٍ الذي تصل إليه

الطائرات لا يزعجني. لقد طرت بطائرات من ألياف الكربون المخصّصة للحركات الجريئة –حتى إنني قمت بمناورة دوران رأس المطرقة– ولم تكن ثَمَّةَ مشكلة، رغم أن هذا الأمر عسير جدًا من الناحية البدنية والذهنية. (لأداء مناورة دوران رأس المطرقة، عليك أن تقود الطائرة عموديًا لأعلى حتى تُوقِفها قوة الجاذبية، وبعدها تسقط الطائرة عائدة نحو الأرض، وتلف بحركات لولبية إلى أن تنقلب في النهاية ويتوجَّه رأسها إلى الأسفل بشكلٍ مستقيم، وبعد ذلك تنتهي مرحلة السقوط. أو أنك لا تقوم بالمناورة مرةً أخرى). ولكنني لا أستطيع التزلّج على الألواح – لا سيما نزولًا على درابزين– ولا أستطيع أن أتسلّق رافعات البناء.

تواجه صالة سيدني سميث شارعًا آخر على الجانب الشرقي. وعلى طول ذلك الشارِع، الذي يُسمى شارع سان جورج –من باب المفارقات– قامت الجامعة بتركيب مجموعة من أحواض النباتات الخرسانية ذات الحواف الخشنة والقاسية، والمنحدرة للأسفل باتجاه الطريق. وقد اعتاد الأولاد الذهاب إلى هذا المكان أيضًا والتزلج بألواحهم على حوافّ الأحواض الخرسانية، وكانوا يفعلون ذلك أيضًا على طول الحافة الخرسانية لتمثالٍ مجاور للمبنى. ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلًا؛ فسرعان ما ظهرت أقواس

فولاذية صغيرة تُعرف باسم «مانعات التزلج»، وجرى تركيبها على الحوافّ وتفصل بينها مسافة قدمين إلى ثلاث أقدام. وعندما رأيتها للمرة الأولى تذكّرت شيئًا حدث في تورنتو منذ عدة أعوام. فقبل بدء الدراسة في المدارس الابتدائية بأسبوعين، اختفت جميع مُعدات الملاعب في جميع أنحاء المدينة؛ إذ تغيّرت التشريعات التي تحكم هذه الأمور، ومن ثمَّ تفشَّى بين الناس الذعر بشأن إمكانية التأمين. وبِناءً عليه، أُزيلت الملاعب على وجه السرعة، وذلك على الرغم من أن هذه الملاعب كانت آمنة بما يكفي؛ وغالبًا ما كان الآباء يدفعون (مؤخرًا جدًّا) ثمن تأمينها. وكان ذلك يعني عدم توافر ملاعب على الإطلاق لمدة تزيد على عام. وخلال هذه الفترة، كنت كثيرًا ما أرى أطفالًا شاعرين بالملل ولكنهم مثيرون للإعجاب يلعبون على سطح المدرسة المحلية. لم يكن أمامهم سوى هذا الحل، أو اللعب في التراب مع القطط والأطفال الذين لا يحبون المغامرة.

وأنا أقول عن الملاعب التي هُدِمَت إنها كانت «آمنة بما يكفي»، لأنه عندما تتوافر عوامل الأمان بشكلٍ زائد عن الحدِّ في الملاعب، فإن الأطفال إما يعزفون عن اللعب فيها أو يبدأون باللعب فيها بطُرقٍ غير متوقّعة. إن الأطفال يحتاجون إلى أن تتوافر في الملاعب بعض عوامل الخطر لكي تظل

صعبةً ومثيرة. فالناس، ومن بينهم الأطفال، لا يسعون إلى تقليل المخاطر؛ وإنما يسعون إلى زيادتها. إنهم يقودون سياراتهم، ويسيرون، ويحبّون، ويلعبون، ويفعلون كل الأشياء العادية لكي يحقّقوا ما يرغبون فيه، ولكنّهم في الوقت نفسه يضغطون على أنفسهم قليلًا أيضًا لكي يستمروا في التطوّر ويكتسبوا خبرات جديدة. وهكذا، إذا كانت الأمور آمنةً أكثر مما ينبغي، فإن الناس (ومن بينهم الأطفال) سيبدأون في ابتكار طُرقٍ لجعلها خطيرة مرة أخرى(165).

إننا نُفضّل الحياة على حافّة الخطر، إذا لم تُقيَّد حريتنا وإذا نلنا التشجيع اللازم. وهناك -عند تلك الحافّة- يمكننا أن نشعر بالثقة في خبراتنا، وفي الوقت نفسه نواجه الفوضى التي تساعدنا على التطوّر. ولهذا السبب فإن عقولنا مُبرمَجة على الاستمتاع بالمخاطر (وهذه النزعة تزيد عند البعض مقارنة بالبعض الآخر). إننا نشعر بالحيوية والحماسة عندما نعمل على تحسين أدائنا في المستقبل بينما نعيش في الوقت الحاضر؛ ولولا هذا لكنا نعيش بكسل، ونتحرّك ببطء -مثل حيوان الكسلان- من دون وعيٍ أو نظامٍ. وعندما نعيش في بيئة توفّر حماية مفرطة، فلا شك أننا سنفشل عندما

يظهر أمامنا شيءٌ خطير وغير متوقَّع ولكنه مليء بالفرص في الوقت نفسه، وهو أمر لا مفر من حدوثه.

إن مانعات التزلج غير جذّابة. وكان لا بد للمنطقة المحيطة بالتمثال القريب أن تتعرّض، أولًا لحالةٍ من الدمار البالغ بسبب المتزلّجين المليئين بالنشاط قبل أن تبدو بالقُبح الذي يعتريها الآن، وهي مليئة بالأوتاد المعدنية وكأنها طوقٌ لكلب بيتبول. وأحواض النباتات الضخمة وُضِعت عليها واقيات معدنية على فواصل غير منتظمة بطول حوافّ الأحواض، وهذا –بالإضافة إلى ما اعتراها من البِلى بفعل المتزلجين– يجعل شكلها كئيبًا بتصميمها الرديء، ويثير مظهرها الاستياء، ويدلّ على سوء تنفيذ أفكار فات أوان تنفيذها. وقد أضفى كل هذا على المنطقة، التي كان من المفترض أن يتم تجميلها بالتمثال والنباتات، مظهرًا عامًّا يوحي بأنها منطقة صناعية، أو سجن، أو مصحّة عقلية، أو معسكر عمل من النوعِ الذي يظهر عندما ينعدم الحب أو الثقة بين البُناة أو الموظفين الرسميين من ناحية وبين الأشخاص الذين يخدمونهم من ناحية أخرى.

إن القُبح القاسي المطلق الذي يغلّف الحلّ المُقدَّم يجعل من أسباب تنفيذه مجرّد كذبة.

النجاح والاستياء

إذا كنت تقرأ لعلماء عمق النفس –مثل فرويد ويونج، وكذلك سلفهما الفيلسوف فريدريك نيتشه– فستعلم أن ثمة جانبًا مظلمًا لكلٍّ شيء. لقد غاص فرويد بعمق في المحتوى الضمني الكامن للأحلام، التي غالبًا ما تهدف –في رأيه– إلى التعبير عن رغبةٍ غير لائقة. وكان يونج يؤمن بأن كل فعل من أفعال اللياقة الاجتماعية يصاحبه جانبه الشرير، أو ظِله اللاواعي. أما نيتشه فقد درس الدور الذي يلعبه ما دعاه الاستياء في تحفيز ما يبدو في ظاهره أفعالًا إيثارية – غالبًا ما تتم ممارستها علانية–(166). يقول نيتشه:

إذ أن يُخلّص الإنسان من الضغينة ذلك هو جسر العبور إلى أرقى الآمال في نظري وقوس قزح الذي يطلع بعد عواصف طويلة.

لكن العناكب تبتغي غير ذلك في الحقيقة. «إن العدالة تعني لدينا أن تغمر العالم عواصف انتقاما»- هكذا يتحدثون فيما بينهم.

«انتقاما نريد أن ننزل بكل الذين ليسوا مثلنا ونغمرهم بالشتائم».

ذلك هو الوعد الذي يأخذه ذوو قلوب العناكب على أنفسهم.

«إرادة المساواة» ذلك ما سيغدو من الآن فصاعدًا إسمًا للفضيلة، وضد كل ذي قوة سنرفع صوتنا».

أيها الداعون إلى المساواة، إن الجنون الغاشم للعجز هو الذي يصرخ من خلالكم مطالبًا باللامساواة: هكذا تتنكر رغبات الاستبداد الأكثر خفاء في دواخلكم تحت عبارات الفضيلة.(62)

كان الكاتب الإنجليزي الفذ جورج أورويل يعرف هذا الأمر جيّدًا؛ فقد كتب في العام 1937 كتاب «الطريق إلى ويجان بيير» The Road to Wigan Pier الذي شنَّ فيه هجومًا شرسًا على الاشتراكيين

البريطانيين المنتمين إلى الطبقة العُليا (وذلك على الرغم من ميل أورويل نفسه إلى الاشتراكية). وفي النصف الأول من هذا الكتاب، يصف أورويل الظروف المُروِّعة التي واجهها عُمال المناجم في المملكة المتحدة في ثلاثينيات القرن العشرين(167):

أخبرني العديد من أطباء الأسنان أنه قد أصبح أمرًا غير طبيعي في المناطق الصناعية أن يحتفظ أي شخص يزيد عمره على الثلاثين ببعض الأسنان في فمه. وقد أخبرني أناس كثيرون في ويجان بأنهم يرون أنه من الأفضل أن يتخلّص المرء من أسنانه في بواكير حياته. وقالت لي امرأة ذات مرة: «الأسنان مجرّد مأساة بائسة».

كان عمال مناجم الفحم في ويجان بيير يضطرّون إلى السير –وبالأحرى «الزحف»؛ نظرًا للارتفاع المنخفض لأعمدة المنجم– مسافة ثلاثة أميال تحت الأرض في الظلام مع تخبُّط رؤوسهم واحتكاك ظهورهم، فقط ليصلوا إلى مواقع عملهم التي يعملون فيها سبع ساعات ونصف عملًا يقصم الظهر. وبعد ذلك، كان عليهم الزحف بنفس الطريقة للخروج. يقول أورويل: «من

الممكن أن نقارن الأمر بتسلُّق جبل صغير قبل العمل وبعده». ولم يكن العمال يحصلون على أجرٍ مقابل الوقت الذي يقضونه في الزحف.

وقد كتب أورويل كتاب «الطريق إلى ويجان بيير» لنادي قراءة اليسار Left Book Club، وهي مجموعة نشر اشتراكية تُصدِر مجلّدًا مختارًا كل شهر. وبعد قراءة النصف الأول من كتابه، الذي يتناول الظروف الشخصيّة لعمال المناجم بصورةٍ مباشرة، من المستحيل ألا تشعر بالتعاطف مع العمال الفقراء، ولا يمكن أن يحتفظ إنسانٌ بقسوة قلبه أثناء قراءة حكايات الأشخاص التي يوردها أورويل، إلا إذا كان وحشًا:

لم يمضِ وقت طويل منذ أن كانت ظروف العمل في المناجم أسوأ مما هي عليه الآن. ولم يبقَ على قيد الحياة سوى عدد قليل من النساء المُسنّات اللاتي كن يعملن في شبابهنّ تحت الأرض، ويزحفن على أيديهن وأرجلهنّ ويَقُمن بجرّ أحواض الفحم. لقد كن يؤدين هذه الأعمال حتى وهنَّ في أشهر الحمل.

ولكن في النصف الثاني من الكتاب، وجَّه أورويل انتباهه إلى مشكلة مختلفة، وهي: انعدام شعبية الاشتراكية نسبيًّا في المملكة المتحدة في ذلك الوقت، على الرغم من انتشار الظلم بشكلٍ واضحٍ ومؤلمٍ وملحوظ في كلّ مكانٍ. وخلص أورويل إلى أن الاشتراكيين الذين يلعبون دور المصلح الاجتماعي، والذين يرتدون الصوف الخشن، ويتفلسفون وهم جالسون على الأرائك، ويتماهون مع الضحايا، ويوزّعون الازدراء والاحتقار على الجميع، لم يكونوا يتعاطفون مع الفقراء حقًّا كما كانوا يدَّعون. كل ما هنالك أنهم كانوا يكرهون الأثرياء. وقد أخفوا استياءهم وغيرتهم بفضائل التقوى والقداسة والصلاح. لكن الأمور في اللاوعي –أو على جبهة اليسار الذين يوزّعون العدالة الاجتماعية– لم تتغيّر كثيرًا إلى الآن. وبفضل فرويد ويونج ونيتشه –وأورويل– حين أسمع شخصًا يقول بصوت جهوري: «أنا أؤيد هذا!»، لطالما كنت أتساءل: «وما الذي تعارضه إذًا؟». ويبدو هذا التساؤل وثيق الصلة للغاية إذا كان هذا الشخص نفسه يشتكي من سلوك شخص آخر، أو ينتقده، أو يحاول تغييره.

أعتقد بأن يونج هو صاحب أكثر أدوات تشريح الأمراض النفسية حِدةً حيث قال: إذا لم تستطع أن تفهم لماذا فعل شخصٌ ما ما فعله، فانظر في العواقب؛ واستنتج الدافع. وهذا المبدأ يُعتبر مشرطًا نفسيًا. إنه ليس أداة مناسبة دائمًا؛ فقد يجرح بعمق زائد عن الحدّ أو في مواضع خاطئة. وربما يمكن استخدامه كملاذٍ أخيرٍ فقط. ولكنْ، ثمة أوقات يتبيّن فيها أن استخدام هذا المبدأ كان كاشفًا.

إذا كانت عواقب وضع مانعات التزلج (63)(**skatestoppers**) على أحواض النباتات وقواعد النصب التذكارية والتماثيل، على سبيل المثال، هي تعاسة الأولاد المراهقين، وتجاهُلٌ قاسٍ للجوانب الجمالية، فربما كان هذا هو الهدف. فعندما يدَّعي شخص ما أنه يتصرّف في ضوء المبادئ العليا، من أجل مصلحة الآخرين، فليس ثمة سببٌ يدعو إلى افتراض صحّة دوافع هذا الشخص. إن الأشخاص المتحمّسين لتغيير الأمور إلى الأفضل لا يهتمون عادة بتغيير الآخرين؛ أو –إذا كانوا مهتمّين بتغيير الآخرين– فإنهم يتحمّلون مسؤولية إحداث التغييرات ذاتها في أنفسهم أيضًا (وقبل إحداثها في الآخرين). وإنني أرى روحًا خبيثة ومعادية للبشرية تكمن وراء سَنّ قواعد

إيقاف المتزلجين على الألواح عن القيام بأمورٍ تتطلّب التحلّي بمهارةٍ عالية، وشجاعة، وروحِ مغامرة.

المزيد عن كريس

كان صديقي كريس – الذي تحدّثت عنه من قبل في هذا الكتاب– ممسوسًا بهذه الروحِ؛ على نحوٍ أضرّ بشدّة بصحته العقلية. كان الإحساس بالذنب جزءًا مما يعذّبه ويؤرقه. كان قد ارتاد المدرسة الابتدائية وحتى المرحلة الإعدادية في عددٍ من البلدات الصغيرة، في المناطق الشاسعة الباردة الممتدّة في أقصى شمال براري ألبرتا، قبل أن ينتهي به المطاف في بلدة فيرفيو، التي كتبت عنها سابقًا. كان الشجار مع الأطفال المحلِّيين يُشَكِّل جزءًا كبيرًا جدًّا من خبرته أثناء تلك التنقّلات المتكرِّرة. وليس من المبالغة أن نُشير إلى أن هؤلاء الأولاد كانوا –في المتوسط– أشدَّ بأسًا من الأطفال البيض، أو أنهم كانوا أكثر حساسية وسرعة في الغضب (وكانت لديهم أسبابٌ وجهية لذلك). وقد كنت أعرف ذلك تمام المعرفة من تجربتي الشخصية.

عندما كنت في المدرسة الابتدائية، كانت لي علاقة صداقة متزعزعة مع صبي هجين من عِرق أبيض مختلط بالشعوب الأصلية، واسمه رينيه هيك(64). كانت علاقتنا مضطربة لأن الوضع كان معقّدًا بسبب وجود فجوة ثقافية كبيرة بيني وبين رينيه. كانت ثيابه أكثر قذارةً من ثيابي، وكان خشنًا في حديثه وسلوكه. كنت أنا قد تجاوزت إحدى السنوات الدراسية، وفضلًا عن ذلك، أبدو أصغر حجمًا من سِنّي. أما رينيه فكان ولدًا كبير الحجم، وذكيًّا، وجميلًا، ولكنه كان خشن الطباع. كنا معًا في الصف السادس الابتدائي وكان والدي هو مدرّس الفصل. وفي يومٍ ضُبِط رينيه وهو يمضغ العلكة؛ فقال له والدي: «رينيه، ابصق تلك العلكة. إنك تبدو مثل البقرة». قهقهتُ ضاحكًا وقلت بصوتٍ خافتٍ بيني وبين نفسي: « رينيه البقرة». وربما بدا رينيه مثل بقرة بالفعل، ولكن حاسّة السمع لديه كانت حادّة؛ فقد سمعني وقال لي: « بيترسون، بعد انتهاء ساعات المدرسة؛ سأقتلك».

كنت أنا ورينيه قد رتبنا في الصباح –قبل تلك الواقعة– لمشاهدة فيلم تلك الليلة في دار السينما المحلّية في بلدتنا، وهي سينما «ذا جيم». ويبدو أن ذلك الاتفاق قد أُلغي بعد الواقعة. وعلى أيّ حالٍ، مرَّ باقي اليوم بوتيرةٍ سريعة وعلى نحو متوتّر وبغيضٍ، وهو ما يحدث عندما يلوحِ التهديد والألم في الأفق.

كان رينيه قادرًا تمامًا على سحق عظامي. وبعد انتهاء ساعات المدرسة انطلقت راكضًا نحو موقف الدراجات خارجِ المدرسة بأسرع ما يمكنني، ولكن رينيه سبقني إلى هناك. رحنا ندور حول الدراجات، هو من ناحيةٍ وأنا من الناحية الأخرى. كنا نُشبه تمامًا شخصيات سلسلة الأفلام الكوميدية الصامتة «شرطة كيستون»(65) **Keystone Cops**. لم يكن بمقدور رينيه أن يمسكني طالما كنت أدور في حلقات، ولكن استراتيجيتي لم تكن لتصمد إلى الأبد. صحت معتذرًا له، ولكنه لم يهدأ. لقد جُرِحت كرامتُه، وكان يريد الانتقام.

جثمت واختفيت خلف بعض الدراجات وأنا أراقب رينيه، وصحت قائلًا: «رينيه، أنا آسف أنني دعوتك بقرة. دعنا نكف عن الشجار»؛ فبدأ يقترب

مني مرةً أخرى، فقلت: «رينيه، قلت لك إنني آسف. إني آسف حقًّا. وما زلت أريد الذهاب معك إلى السينما». لم يكن ما قلته مجرّد تكتيك، بل كنت أعنيه حقًّا؛ وإلا لما حدث بعد ذلك ما حدث. لقد توقَّف رينيه عن الدوران، وحدَّق في وجهي، ثم انخرط في البكاء وركض مبتعدًا. كان هذا موجزًا للعلاقات بين البيض وأفراد الشعوب الأصلية في بلدتنا الصغيرة القاسية. لم نذهب إلى السينما معًا قط.

عندما كان صديقي كريس يصطدم بالأولاد من الشعوب الأصليّة، لم يكن يتشاجر معهم. لم يكن يشعر بأن دفاعه عن نفسه مبررٌ أخلاقيًا؛ لذا كان يتلقَّى الضربات صامتًا. وقد كتب لاحقًا يقول: «لقد أخذنا أرضهم. كان ذلك خطأً؛ ولا عجب أنهم غاضبون». ومع مرور الوقت، بدأ كريس ينسحب خطوةً خطوة من العالم. كان هذا ذنبه جزئيًا؛ فقد تطوّرت لديه كراهية عميقة للذكورة والنشاط الذكوري. كان يرى أن الذهاب إلى المدرسة، أو إلى العمل، أو إيجاد حبيبةٍ، يمثّل جزءًا من الأفعال التي أدَّت إلى استعمار أمريكا الشمالية، وإلى مأزق الحرب الباردة الرهيب، وخراب الكوكب. كان كريس قد قرأ بعض الكتب عن البوذية، وشعر بأن رفض

كينونته ذاتها هو مطلب أخلاقي في ضوء الوضع العالمي الحالي؛ وبدأ يعتقد بأن الأمر نفسه ينطبق على الآخرين أيضًا.

حين كنت طالبًا بالجامعة، كان كريس أحد رفاقي في السكن الجامعي لبعض الوقت. ذهبنا في وقت متأخّر من إحدى الليالي إلى إحدى الحانات المحلية. وبعد ذلك عدنا إلى المنزل سيرًا على الأقدام. في طريق عودتنا، بدأ كريس يكسر المرايا الجانبية للسيارات المركونة واحدةً بعد أخرى. قلت له: «كريس، كفّ عن ذلك. ما جدوى أذية أصحاب هذه السيارات؟». فردَّ عليَّ قائلًا إن الناس جميعًا جزء من النشاط البشري المسعور الذي يُدمِّر كل شيء، وأنهم يستحقون كل ما يحدث لهم. فقلت له إن الانتقام من أناسٍ لا يفعلون شيئًا سوى أنهم يعيشون حياةً طبيعية لن يفيد بشيء.

وبعد مرور سنوات، حين كنت في كلّية الدراسات العُليا في مونتريال، جاءني كريس فيما كان يفترض أن يكون مجرّد زيارة. إلا أنه كان يبدو ضائعًا بلا هدف، وسألني ما إذا كنت أستطيع مساعدته. وانتهى بنا الحال إلى انتقاله للعيش معنا. كنت قد تزوَّجت آنذاك وأعيش مع زوجتي تامي

وابنتنا ميكيلا التي تبلغ من العمر سنة واحدة. كان كريس صديقًا لتامي أيضًا منذ كنا نعيش جميعًا في فيرفيو (وكانت لديه مطامح في ما هو أكثر من مجرّد الصداقة)، وأدّى هذا إلى تعقيد الوضع أكثر، ولكن ليس بالطريقة التي قد يتصوّرها القارئ؛ فقد بدأ كريس بكراهية الرجال وانتهى به الأمر إلى كراهية النساء أيضًا. لقد كان يريدهنَّ، لكنه رفض التعليم، والعمل، والرغبة في النساء. وكان يدخِّن بشراهة وعاطلًا عن العمل؛ لذا لم يكن من المستغرب أن النساء لم يُبدين اهتمامًا به؛ وهو ما أشعره بالمرارة. حاولت إقناعه بأن الطريق الذي اختاره لن يؤدِّي سوى إلى مزيدٍ من الدمار. لقد كان بحاجةٍ إلى التحلّي ببعض التواضع؛ وكان بحاجة إلى أن تكون له حياة.

وفي إحدى الأمسيات، كان دور كريس في إعداد العشاء. وعندما عادت زوجتي إلى المنزل، وجدت الشقّة معبّأة بالدخان. كانت قطع الهامبرجر تحترق في المقلاة، وكريس منحنيًا على يديه وركبتيه يحاول إصلاح شيء ما خرج من أرجُل الموقد. كانت زوجتي تعرف ألاعيبه، وعرفت أنه يتعمَّد إحراق العشاء. لقد كان مستاءً من اضطراره إلى إعداد العشاء، ومستاءً من الدور الأنثوي (على الرغم من أننا قمنا بتقسيم الواجبات المنزلية بصورة معقولة، وعلى الرغم من أنه كان يعرف ذلك جيّدًا). لقد كان يُصلح الموقد

ليقدم ذريعة معقولة، بل وقابلة للتصديق لحرق الطعام. وعندما أشارت زوجتي إلى ما كان يحاول أن يفعله، تبنّى دور الضحية، لكنه كان غاضبًا غضبًا شديدًا وخطيرًا. لقد كان جزءٌ منه -وهو ليس الجزء الصالح- مقتنعًا بأنه أذكى من الآخرين جميعًا، وكانت قدرة زوجتي على اكتشاف ألاعيبه بمثابة طعنةٍ في كبريائه. كان الموقف سيئًا.

وفي اليوم التالي، ذهبت أنا وتامي في تمشية باتجاه متنزّهٍ محلّي في البلدة. كنا بحاجةٍ إلى الخروجِ من الشّقة، على الرغم من أن درجة الحرارة كانت تقلّ عن خمس وثلاثين درجة تحت الصفر؛ وكان الجو باردًا للغاية، ورطبًا، وضبابيًّا، والرياح شديدة؛ وكان الجو سيئًا ولا يصلح للحياة. قالت تامي إن الحياة مع كريس لا تُطاق. دخلنا المتنزّه، وكانت فروع الأشجار تمتد عارية جرداء في الهواء الرطب الكئيب. كان سنجاب أسود بذيل أجرد من الشعر بسبب الجرب يمسك بفرعٍ عارٍ من الأوراق وهو يرتجف بشدةٍ ويجاهد ليتماسك في وجه الرياح العاتية.

ما الذي كان يفعله هذا السنجاب في هذا البرد القارس؟ من المعروف أن السناجب من الحيوانات التي تدخل ببيات شتوي جزئي؛ فلا تخرج في

الشتاء إلا إذا كان الجو دافئًا. ثم رأينا سنجابًا آخر، وثالثًا، ورابعًا، وخامسًا. كانت هناك سناجب حولنا في كل مكان في المتنزّه، وجميعها بلا شعر، في ذيولها وأجسادها على حد سواء، وجميعها تقذفها الرياح وهي ترتجف وتتجمّد في هذا البرد القاتل. لم يكن ثمة أحد آخر حولنا؛ فقد كان هذا مستحيلًا. كان وجود بعض الناس أمرًا لا يمكن تفسيره في هذا الطقس. وكان هذا ملائمًا تمامًا لوضعنا؛ لقد كنا كأننا في مسرحية عبثية، من إخراج الإله. وسرعان ما رحلت تامي بعدها لبضعة أيام إلى مكانٍ آخر ومعها ابنتنا.

وبالقرب من موسم أعياد الكريسماس في العام نفسه، جاء أخي الأصغر وزوجته الجديدة من غرب كندا لزيارتنا. كان أخي يعرف كريس أيضًا. ارتدوا جميعًا ملابسهم الشتوية استعدادًا للخروج في نزهةٍ في أنحاء وسط مدينة مونتريال. ارتدى كريس معطفًا طويلًا داكن اللون، وقبّعة سوداء من الصّوف من دون حوافّ وأسدلها لتغطّي معظم رأسه. كان معطفه أسودَ وكذلك سرواله وحذاؤه الشتوي. كان يبدو طويلًا جدًّا ونحيفًا ومنحنيًا قليلًا. مازحته قائلًا: «كريس، إنك تبدو مثل سفّاح»، وضحكت. وعاد الثلاثة من النزهة، وكان كريس متعكّر المزاج. كان ثمة غرباء في منطقته؛ زوجان سعيدان آخران. كان هذا بمثابة ملحٍ وُضع على جراحه النازفة.

تناولنا العشاء في جوٍّ سعيد نسبيًا. تجاذبنا أطراف الحديث وانتهت الأمسيةِ؛ لكن النومَ لم يعرف طريقه إليَّ؛ فقد كان ثَمَّةَ أمر غريب. كان الجو لا ينبئ بخير. وفي الرابعة صباحًا، فاض بي الكيل. قُمتُ من فراشي، وطرقت باب غرفة كريس بهدوء ودخلت من دون أن أنتظر إجابة. وجدته مستيقظًا ممدّدًا على الفراش يُحدِّق في السقف، على الحال التي كنت أعرف أنه سيكون عليها؛ فجلست إلى جواره. لقد كنت أعرفه جيدًا؛ فتحدّثت إليه وأخرجته من حالة الغضب التي قد تودي به إلى ارتكاب جريمة قتل. وبعد ذلك عدت إلى فراشي ونمت. وفي الصباح التالي، أخذني أخي إلى ركنٍ منفردٍ حيث كان يريد أن يتحدّث معي. جلسنا وقال لي: «ما الذي كان يحدث ليلة أمس بحقّ الجحيم؟ لم أستطع النوم، هل كان ثمة خطبٌ ما؟». أخبرت أخي أن كريس في حالة سيئة، ولم أخبره أنه محظوظ لأنه لا يزال على قيد الحياة؛ وأننا جميعًا محظوظون لأننا لا نزال على قيد الحياة. لقد كانت روحِ قابيل تحوم في أجواء منزلنا، لكننا نجونا ولم نُصَب بأذًى.

ربما أكون قد شممتُ بعض التغيّر في رائحة الجو في تلك الليلة، حين كان الموت يحوم في الأجواء. لقد كانت هناك رائحةٌ مريرة تفوح من كريس. ورغم أنه كان يستحمّ كثيرًا وبانتظام، فإن الرائحة ظلّت في المناشف وملاءات الفراش، وكان من المستحيل التخلّص منها. لقد كانت نتيجة روحٍ وجسد لا يعملان على نحو متناغم. وقد أخبرتني أخصائية اجتماعية كنت أعرفها، وكانت تعرف كريس أيضًا، أن تلك الرائحة مألوفة لها. وكان جميع العاملين في مكان عملها يعرفون تلك الرائحة جيّدًا، رغم أنهم لم يتحدّثوا عنها إلا همسًا خافتًا، وكانوا يطلقون عليها رائحة العاطل.

بعد ذلك أنهيت دراسات ما بعد الدكتوراه، وانتقلت أنا وتامي من مونتريال إلى بوسطن، ورُزقنا بطفلنا الثاني. كنت أتحدّث أنا وكريس عبر الهاتف بين الحينِ والآخر، وقد جاء لزيارتنا هناك ذات مرّة، ومرّت الزيارة بسلام. كان قد وجد وظيفةً في متجر لبيعِ قطع غيار السيارات، ويحاول تحسين الأمور، ويبدو في حالةٍ جيّدة في ذلك الوقت. ولكن هذا التحسّن لم يستمرّ طويلًا. ولم أرَه في بوسطن مرةً أخرى. وبعد ذلك بنحو عشر سنوات –وتصادف أن كان ذلك قبل عيد ميلاد كريس الأربعين بليلة– اتصل بي مرةً أخرى. كنت آنذاك قد انتقلت مع أسرتي إلى تورونتو. كانت لديه بعض الأخبار؛ فقد

كانت إحدى القصص التي كتبها ستُنشر ضمن مجموعة قامت بجمعها دار نشر صغيرة ولكنها شرعيّة، وأراد أن يخبرني بذلك. كان كريس يكتب قصصًا قصيرة جيّدة وقد قرأتها جميعًا، وتناقشنا بشأنها مناقشات مطوَّلة. وكان أيضًا مصوّرًا فوتوغرافيًّا بارعًا؛ إذ كان يمتلك عينين مبدعتين. وفي اليوم التالي، قاد كريس شاحنته الصغيرة القديمة –وهي السيارة البالية ذاتها التي كانت لديه في فيرفيو– إلى الأدغال، وقام بتوصيل خرطوم من فتحة العادم إلى كابينة القيادة. يمكنني أن أتخيله هناك، ينظر عبر النافذة الأمامية المتشقّقة للشاحنة، يُدخّن وينتظر. وقد وجدوا جثته بعد بضعة أسابيع قليلة. اتصلت بوالده لأخبره، فانتحب لدى سماعه الخبر وقال: «ابني الجميل».

دُعيت مؤخّرًا لإلقاء محاضرة في إحدى فعاليات «تيدكس» **TEDX** في جامعةٍ قريبة. تحدّث قبلي بروفيسور آخر. كانت قد وُجِهت إليه الدعوة ليُلقي محاضرة بسبب أبحاثه –وهي أبحاث تقنيّة مدهشة ومبهرة– في مجال الأسطح الحاسوبية الذكيّة (مثل شاشات اللمس لأجهزة الكمبيوتر، والتي يمكن وضعها في أي مكان). وبدلًا من ذلك، تحدّث البروفيسور عن التهديد الذي يُمثِّله البشر على بقاء كوكب الأرض. كان هذا البروفيسور – مثل كريس، ومثل الكثيرين جدًّا من الناس– قد أصبح معاديًا للبشر حتى

النخاع. لم يقطع هذا البروفيسور شوطًا طويلًا على هذا الطريق كالذي قطعه صديقي، لكن الروحِ المفزعة ذاتها كانت هي المحرّك لكليهما.

كان يقف أمام شاشة تعرض صورًا بطيئة لا نهاية لها لمصنع تكنولوجيا فائقة صيني يمتدّ بطول عدّة تجمعات سكنية. كان مئات من العُمال الذين يرتدون بدلات بيضاء يقفون مثل مجموعة من الروبوتات الآلية العقيمة غير البشرية وراء خطوط التجميع، ويقومون بوضع القطعة «أ» في الفتحة «ب» بدقّة وهدوء. أخبر البروفيسور الجمهور الجالس أمامه –ومعظمه من الشبان اللامعين– بالقرار الذي اتّخذه هو وزوجته بتحديد نسلهما بحيث ينجبان طفلًا واحدًا فقط، وقال لهم إن هذا قرار ينبغي عليهم جميعًا أن يفكّروا فيه، إذا أرادوا أن يعتبروا أنفسهم بشرًا ذوي أخلاق. وشعرت بأن هذا القرار كان مناسبًا تمامًا؛ لكن في حالته هو تحديدًا (حيث ربما كان من الأفضل في حالته تحديد النسل إلى أقل من طفل واحد). استقبل الحاضرون من الطلاب الصينيين الكثيرين موعظته الأخلاقية بتبرّم ولا مبالاة. لعلّهم كانوا يفكّرون في فرار آبائهم من أهوال «الثورة الثقافية» الصينية التي قادها ماو، وسياسة الطفل الواحد التي فرضتها. لعلّهم كانوا يفكّرون في التحسُّن الرهيب في مستوى المعيشة والحرية الذي وفّرته لهم تلك المصانع نفسها

التي يتحدّث عنها البروفيسور. وقد عبّر بعضهم عن الكثير من هذه الأشياء في الفترة المخصّصة للأسئلة التي تلت المحاضرة.

هل كان البروفيسور ليُعيد النظر في آرائه لو أنه أدرك ما يمكن أن تؤدّي إليه مثل هذه الأفكار؟ كنت أود أن أقول: نعم، لكنني لا أعتقد ذلك. أظنّ أنه كان بمقدوره أن يعرف، ولكنه رفض أن يعرف. وربما كان الأسوأ من ذلك أنه يعرف بالفعل، ولكنه لا يكترث؛ أو أنه يعرف وهذا هو ما يهدف إليه ويريده على أية حال.

الذين نصَّبوا أنفسهم قضاة على الجنسِ البشري

لم يمض وقت طويل منذ كانت الأرض تُعتبر أكبر من البشر الذين يسكنونها؛ ففي أواخر القرن التاسع عشر فحسب، قال عالم الأحياء اللامع توماس هكسلي(66) (1825–1895) – المدافع الصنديد عن داروين، وجَدّ ألدوس هكسلي(67) – في البرلمان البريطاني إنه من المستحيل أن

تستنفد البشرية موارد المحيطات؛ فقدرة المحيطات على التجدّد هائلة للغاية بكل بساطة –على حدّ علمه– مقارنةً بأقصى قدرات البشر ضراوة في الاستهلاك. بل إن كتاب راشيل كارسون(68) «الربيع الصامت» **Silent Spring** الذي بعث الحركة البيئية لم يظهر سوى منذ خمسين عامًا فحسب(168). خمسون عامًا فحسب! تلك فترة لا تُذكر! بل إنها تكاد تكون بالأمس.

لقد طوَّرنا مؤخّرًا الأدوات والتقنيات المفاهيميّة التي تتيح لنا فهم شبكة الحياة، وإن كان فهمنا لها لا يزال قاصرًا. ونتيجةً لذلك، فإننا نستحق بعض التعاطف إزاء الغضب الافتراضي لسلوكياتنا المدمّرة؛ فنحن أحيانًا لا نعرف ما هو أفضل مما نفعله، وأحيانًا نعرف ما هو أفضل ولكننا لا نكون قد شكّلنا بعدُ أي بدائل عملية. إن الحياة ليست يسيرةً على الجنس البشري، على أية حال، حتى في وقتنا الراهن؛ ولم تمض بعدُ سوى بضعة عقود فحسب على الوقت الذي كان أغلب البشر يتضوَّرون فيه جوعًا، ويعانون من الأمراض، والجهل والأمية(169). وعلى الرغم من ثرائنا (الذي يتزايد في كل مكان)، فإننا لا نزال نعيش بضعة عقودٍ يمكن عدُّها على أصابع أيدينا. وحتى في الوقت الراهن، عائلات نادرة محظوظة فقط هي التي لا

تضم فردًا واحدًا على الأقل مصابًا بمرضٍ خطيرٍ؛ وجميع العائلات ستواجه هذه المشكلة حتمًا في نهاية المطاف. إننا نبذل قصارى جهدنا لتحقيق الأفضل، بضعفنا وهشاشتنا وقلّة حيلتنا، وكوكب الأرض يبدو قاسيًا علينا بأكثر من قسوتنا نحن عليه. يمكننا أن نكون أكثر تسامحًا مع أنفسنا.

إن البشر -برغم كل شيء- مخلوقاتٌ استثنائية فعلًا؛ فنحن لا مثيل لنا، وليس من الواضح أن ثمة أي قيود حقيقية تقيّدنا. ففي الوقت الحالي، تحدث أشياء كانت تبدو مستحيلة على البشر في الماضي القريب، عندما بدأنا نفتح أعيننا على مسؤولياتنا الهائلة تجاه الكوكب. فقبل كتابة هذه الكلمات ببضعة أسابيع قليلة، شاهدت بالصدفة مقطعَي فيديو على موقع يوتيوب. كان أحد المقطعَين لفائزة بالميدالية الذهبية الأوليمبية للعام 1956؛ بينما يعرض المقطع الآخر الفائزة بالميدالية الفضية الأوليمبية للعام 2012. لم يبدُ لي حتى إنها نفس الرياضة؛ أو نفس الكائن البشري. إن ما فعلَته ماكايلا ماروني في العام 2012 كان يُعتبر أمرًا خارقًا للقدرات البشرية في خمسينيات القرن العشرين. إن رياضة «الباركور»(69) Parkour – وهي نوع من الرياضات المشتقّة من التدريبات العسكرية الفرنسية لتخطّي الحواجز– هي رياضة مدهشة، مثل رياضة الركض الحُر. إنني أشاهد مقاطع

مُجمعة لمثل هذه العروض بإعجابٍ واضح لا أحاول إخفاءه. يقفز بعض الأطفال من فوق مبانٍ مُكوَّنة من ثلاثة طوابق من دون أي إصابات. إنها رياضة خطيرة؛ ومدهشة. إن مُتسلِّقي رافعات البناء شُجعان إلى حدٍّ يحيِّر العقول. والأمر نفسه ينطبق على رياضة تسلّق الجبال بالدراجات، وهي رياضة شاقَّة، وينطبق على المُتزلِّجين تزلّجًا حُرًّا على الجليد، وراكبي الأمواج بارتفاعٍ يصل إلى خمسين قدمًا، والمتزلجين على الألواح.

لقد نصَّب الصَبيّان اللذان أطلقا النار في مدرسة كولومباين الثانوية – واللذان تحدّثنا عنهما سابقًا في هذا الكتاب– نفسيهما قُضاة على الجنس البشري؛ مثل البروفيسور الذي تحدّث في فعالية تيدكس –رغم أنهما كانا أكثر تطرّفًا منه بكثير– ومثل كريس؛ صديقي الهالك. كان البشر بالنسبة إلى إريك هاريس – الشخص الأكثر تعليمًا بين القاتلَين اللذين نفّذا المذبحة– مجرّد أنواعٍ فاشلة وفاسدة. وبمجرد قَبول مثل هذا الافتراض، فإن منطقه الداخلي سيظهر لا محالة. فإذا تبيَّن أن شيئًا ما يُعتبر طاعونًا، مثلما يقول ديفيد أتينبورو(170)، أو سرطانًا، كما تقول منظمة نادي روما(171)، يكون الشخص الذي استأصل شأفته بطلًا؛ بل ومنقذًا فعليًّا للكوكب في هذه الحالة. والمسيح المُخلّص الحقيقي هو الذي يتبع منطقه

الأخلاقي الورِع حتى النهاية، ويقضي على نفسه أيضًا؛ وهذا ما يفعله عادةً مرتكبو المذابح؛ مدفوعين بغضبٍ واستياءٍ لا حدود لهما. إن كينونتهم ذاتها لا تبرّر وجود الإنسانية. بل إنهم في الواقع يقتلون أنفسهم لإظهار نقاء التزامهم بالتدمير والإبادة. لا يمكن لأحد في العالم الحديث أن يُعبِّر عن رأيه القائل بأن الحياة ستكون أفضل إذا اختفى اليهود، أو السُّود، أو المسلمون، أو الإنجليز، من دون أن يُواجِه اعتراضًا.

لماذا إذًا نعتبر أنه من الفضيلة أن نقترح أن الكوكب قد يكون أفضل إذا كان هناك عدد أقل من الناس يعيشون عليه؟ لا يسعني إلا أن أرى جُمجمة مبتسمة ابتهاجًا باحتمال نهاية العالم تتوارى وراء مثل هذه التصريحات. ولماذا يبدو في أكثر الأحيان أن الأشخاص الذين يُناهضون التعصّب بشكلٍ واضحٍ هم أنفسهم الذين يَبدون ملتزمين غالبًا بالتنديد بالإنسانية نفسها؟

لقد رأيت طلابًا جامعيين، لا سيما في أقسام الدراسات الإنسانية، يعانون من تدهور حقيقي في صحّتهم العقلية بسبب التوبيخ الفلسفي الذي يَتلقُّونه من حُماة الكوكب لمجرّد أنهم ينتمون إلى الجنس البشري. وأعتقد بأن الأمر أسوأ بالنسبة إلى الشباب من الذكور؛ حيث تُعتبر إنجازاتهم غير مستحقّة ولا فضل لهم فيها لأنهم هم المستفيدون من ميزة المجتمع الذكوري. وبما أنهم مؤيدون محتملون لثقافة الاغتصاب، يُنظر إليهم بعين الشك في ما يتعلّق بالجنس. أما طموحاتهم فتُعتبر سلبًا ونهبًا للكوكب، ووجودهم غير مُرحَّب به. ويتدهور أداء هؤلاء الطلاب تعليميًّا في المرحلة الإعدادية، والثانوية، والجامعية. عندما كان ابني في الرابعة عشرة من عمره، تناقشنا حول درجاته، وقال لي إن أداءه جيّد جدًّا فعليًّا بوصفه صبيًا. وعندما استفسرت عن هذه النقطة، أخبرني أن الجميع يعرف أن أداء الفتيات في الدراسة أفضل من الصِّبية، وكانت لهجته توحي بالدهشة من جهلي بهذا الأمر البديهي. وأثناء كتابتي لهذه السطور، تلقّيت آخر نسخة من دورية «ذي إيكونومست». وماذا يقول عنوان صفحة الغلاف؟ « الجنس الأضعف»؛ ويقصدون بذلك الذكور. وتزيد نسبة الإناث الآن في الجامعات الحديثة عن 50 بالمائة من الطلاب في أكثر من ثُلُثَي التخصّصات.

إن الذكور يُعانون في عالمنا الحديث. إنهم إما أكثر تمرّدًا – بشكلٍ سلبي– أو أكثر استقلالية –بشكلٍ إيجابي– من الفتيات، وهم يُعانون لهذا السبب طوال سنوات دراستهم في مرحلة ما قبل التعليم الجامعي. إنهم أقلّ سلاسة (وأقصد بالسلاسة السمة الشخصية المرتبطة بالشفقة، والتعاطُف، وتجنُّب النزاعات)، وأقل عرضةً للإصابة بالقلق والاكتئاب(172)، على الأقل بعد أن يصل الجنسان إلى سن البلوغ(173). تميل اهتمامات الصبية الذكور إلى الأشياء؛ في حين تميل اهتمامات الفتيات إلى الأشخاص(174). ومن المثير للدهشة أن هذه الاختلافات – التي تتأثّر بقوة بالعوامل البيولوجية– أكثر وضوحًا في المجتمعات الاسكندنافية التي وصلت فيها المساواة بين الجنسين إلى أقصى الحدود؛ وهذا عكس ما كان يَتوقَّعه أولئك الذين يصرّون –على نحو صارخ– على أن نوع الجنس هو مجرّد بناء اجتماعي. إنه ليس كذلك، ولا مجال للجدل؛ فقد ظهرت البيانات(175).

إن الأولاد يحبون المنافسة، ولا يرغبون في الانصياع للأوامر، خاصةً في مرحلة المراهقة؛ ففي هذه المرحلة يكون لديهم دافع للخروج من عباءة أُسرهم وتأسيس حياة مستقلة. وثمة اختلاف بسيط بين القيام بذلك وتَحدِّي

السلطة؛ فنظام المدارس، الذي تأسّس في أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر بهدفٍ محدّد هو غرس الطاعة في الطلاب(176)، لا يتعامل برفق مع السلوك الاستفزازي الجريء، مهما أظهر هذا السلوك من قوّة وكفاءة لدى الصبي (أو الفتاة). وثمة عوامل أخرى تلعب دورًا في انحدار الصِّبية. فعلى سبيل المثال، يمكن أن تلعب الفتيات ألعاب الأولاد، لكن الأولاد أكثر إحجامًا بكثير عن لعب ألعاب البنات. ويُعزى هذا جزئيًّا إلى أنه من المثير للإعجاب أن تفوز الفتاة عند التنافُس مع صبي، ولا بأس كذلك إن هي خسرَت أمام صبي. أما بالنسبة إلى الصبية، فلا يصح لولدٍ أن يَهزِم فتاة؛ وأسوأ من ذلك أن يُهزَم من فتاة. تخيّل أن ولدًا وفتاةً في سن التاسعة تشاجرا. بمجرّد اشتباكهما معًا، تَحوم الشبهات حول الولد. فإذا فاز عليها، فهو مثير للشفقة، وإذا خسر، فالأفضل له أن يموت؛ فقد ضربَته فتاة.

يمكن للفتيات أن تفزن في التسلسل الهرمي الخاص بهنّ؛ أي بأن يكنّ ماهرات في الأشياء التي تُقدِّرها الفتيات. ومن الممكن أن يُضِفن إلى هذا الفوز فوزهنّ في التسلسل الهرمي للأولاد. أما الأولاد، فلا يسعهم سوى الفوز في التسلسُل الهرمي للذكور. وسوف يفقدون مكانتهم – بين الفتية والفتيات على حدٍّ سواء– إذا أصبحوا ماهرين في ما تقدِّره الفتيات وتبرع

فيه. هذا يُكلِّفهم سُمعتهم بين الأولاد، وجاذبيتهم بين الفتيات؛ فالفتيات لا ينجذبن إلى الأولاد الذين يقعون في دائرة الصداقة، رغم أنهنّ قد يُعجَبن بهم، أيًّا كان ما يعنيه هذا. إنهن ينجذبن إلى الأولاد الذين يفوزون في مسابقات المكانة مع صبية آخرين. ولكن إذا كنت ذكرًا، فلا يمكنك أن تضرب أنثى ضربًا مبرّحًا كما تفعل مع ذكرٍ آخر؛ فلا يمكن للصبية أن يلعبوا ألعابًا تنافسية حقيقية مع الفتيات (ولن يفعلوا ذلك)؛ حيث إنه ليس من الواضح كيف يمكنهم تحقيق الفوز. ومن ثَمَّ، عندما تنقلب اللعبة إلى لعبة فتيات، يرحل الأولاد. فهل الجامعات – وخاصّة تخصّصات الدراسات الإنسانية– على وشك أن تَتحوّل إلى لعبة فتيات؟ هل هذا ما نريده؟

إن الوضع في الجامعات (وفي المؤسّسات التعليمية بوجهٍ عامٍّ) يطرح إشكالية أكبر مما تشير إليه الإحصاءات الأساسية(177). فإذا استبعدنا برامج STEM (التي ترمز إلى العلوم «S»، والتكنولوجيا «T»، والهندسة «E»، والرياضيات «M») –باستثناء علم النفس– تصبح نسبة الإناث إلى الذكور أكثر انحرافًا(178). فما يقرب من 80 بالمائة من الطلاب الذين يتخصّصون في مجالات الرعاية الصحيّة، والإدارة العامّة، وعلم النفس، والتعليم –التي تُشكِّل مجتمعة رُبع الشهادات الدراسية– من

الإناث. ولا يزال هذا التفاوت يتزايد بوتيرة سريعة. وبهذا المعدل، سيكون هناك عدد قليل جدًّا من الذكور في معظم التخصّصات الجامعية في غضون خمسة عشر عامًا. وهذه ليست أخبارًا سارَّة للرجال؛ بل إنها قد تكون أخبارًا كارثية بالنسبة إليهم. لكنها أيضًا ليست أخبارًا سارّة للنساء.

الحياة المهنيّة والزواج

تجد النساءُ في معاهد التعليم العالي التي تُهيمن عليها الإناث صعوبةً متزايدة في الدخول في علاقة مواعدة، حتى ولو لمدة متوسّطة. ونتيجةً لذلك، يجب أن يَرضَين –إذا كانت لديهنّ الرغبة– بعلاقةٍ عابرةٍ، أو سلسلة من العلاقات العابرة. ربما كانت هذه خطوة للأمام من منظور التحرُّر الجنسي، ولكنني أشكّ في ذلك. أعتقد أنه أمر فظيع للفتيات(179). إن علاقة حب مستقرّة يُظلِّلها الحب هي أمرٌ مرغوبٌ فيه للغاية لدى الرجال والنساء على حدٍّ سواء؛ لكن النساء هنّ أكثر من يرغبن بمثل هذه العلاقة غالبًا. ووفقًا لمركز بيو للأبحاث(70)،(180)، ارتفعت نسبة النساء اللاتي تتراوح أعمارهنّ بين 18 و34 عامًا، اللاتي ذَكرن أن الزواج الناجح أحد أهم الأمور في الحياة، من 28 إلى 37 بالمائة (وهي نسبة زيادة تتجاوز الثلاثين

بالمائة(71))، وذلك في الفترة من العام 1997 إلى العام 2012. أما عدد الشباب الذكور الذين قالوا الشيء نفسه فقد انخفض بنسبة 15 بالمائة خلال الفترة ذاتها (من 35 إلى 29 بالمائة(**)(72)). وخلال تلك الفترة، ظلّت نسبة المتزوجين الذين تزيد أعمارهم عن 18 عامًا تنخفض؛ حيث انخفضت من ثلاثة أرباعٍ العام 1960 إلى النصف في الوقت الحالي(181). وأخيرًا، بين البالغين غير المتزوجين الذين تتراوح أعمارهم بين 30 و59 عامًا، نسبة الرجال الذين يقولون إنهم لا يرغبون في الزواج تمثل ثلاثة أضعاف نسبة النساء اللاتي تقلن إنهن لا يرغبن في الزواج (27 بالمائة مقابل 8 بالمائة).

وعلى أي حال، مَن الذي قرّر أن الحياة المهنيّة أهم من الحبّ والأسرة؟ هل العمل لمدة ثمانين ساعة أسبوعيًا في مكتب محاماةٍ راقٍ يستحقّ فعلًا التضحيات المطلوبة لتحقيق هذا النوعِ من النجاحِ؟ وإذا كان الأمر يستحقّ، فلماذا يستحق؟ إن أقليّة من الناس (معظمهم من الرجال الذين يسجّلون مجدّدًا نسبًا منخفضة في ما يتعلّق بسمة السلاسة) هم من يتسمون بالتنافسية المفرطة ويريدون الفوز بأي ثمن. وأقليّة هم من يجدون أن العمل في جوهره رائع. ولكن الغالبية ليست كذلك، والغالبية لن تشعر بالشيء

نفسه، ولا يبدو أن المال يُحسِّن حياة الناس بمجرّد أن يتوافر لديهم ما يكفي لدفع نفقات الحياة. وفوق كل ذلك، فإن أكثر النساء اللاتي يعملن في وظائف مرموقة ذات دخل مرتفع يرتبطن برجال يعملون في وظائف مرموقة ذات دخل مرتفع؛ وهذا الأمر أكثر أهمّية للنساء. فكما تشير بيانات بيو، فإن الفوز بزوجٍ يعمل في وظيفة جذابة هو أولوية قصوى لدى نحو **80** بالمائة من النساء غير المتزوجات اللاتي يرغبن في الزواج (ولكن هذه النسبة تنخفض إلى أقل من **50** بالمائة لدى الرجال).

تتخلّى معظم المحاميات المرموقات عن وظائفهنّ التي تضعهنّ تحت ضغوط كبيرة عندما يصلن إلى الثلاثينات من العمر(**182**). ولا تُشكِّل النساء سوى **15** بالمائة فقط من شركاء الأسهم في أكبر مائتَي مكتب محاماة في الولايات المتحدة(**183**). ولم يتغيّر هذا الرقم كثيرًا خلال الخمسة عشر عامًا الماضية، على الرغم من أن المحاميات موجودات بكثرة. ولا يرجع ذلك أيضًا إلى أن مكاتب المحاماة لا تريد أن تبقى النساء في المجال وينجحن؛ فالحقيقة أن ثمة عجزًا مزمنًا في المحامين الممتازين -بصرف النظر عن نوعِ الجنس- ومكاتب المحاماة في أمسِّ الحاجة إلى الاحتفاظ بهم.

إن النساء اللاتي يتركن المهنة يردن وظيفة –وحياة– تتيح لهنّ بعض الوقت. وبعد التخرّج في كليّة الحقوق، والتدرُّب في مكاتب المحاماة، والسنوات الأولى من العمل، تتكوّن لديهنّ اهتمامات أخرى. هذا أمر معروف وشائع في المكاتب الكبرى (على الرغم من أنه أمر لا يتحدّث عنه الناس علنًا، سواءٌ الرجال أو النساء). لقد شاهدتُ مؤخّرًا أستاذة بجامعة ماكجيل وهي تُلقي محاضرة في قاعة مليئة بشريكات في مكاتب محاماة، أو على وشك أن يصبحن شريكات، حول فكرة أن الافتقار إلى مرافق رعاية الأطفال، و«التعريفات الذكورية للنجاح»، قد أعاق تقدّمهنّ المهني وتَسبب في ترك النساء للمهنة. وكنت أعرف معظم النساء اللاتي في القاعة، وقد تحدّثنا مطولًا. كنت أعرف أنهنّ يعرفن أن كل ما ذكرَته البروفيسورة لم يكن هو المشكلة. لقد كانت لديهنّ مُربّيات، وكانت قدراتهن المالية تسمح لهن بجلبهن؛ كما أنهن عَهِدن بجميع الالتزامات والضروريات المنزلية إلى جهات خارجية. لقد كن يفهمن أيضًا –وبكلّ وضوح– أن السوق هو ما يحدّد معايير النجاح وليس الرجال الذين يعملون معهنّ. فإذا كنتِ تحصلين على 650 دولارًا في الساعة في تورونتو كمحامية مرموقة، ويتّصل بكِ عميلك في اليابان الساعة الرابعة صباح يوم الأحد، فعليكِ أن تردِّي عليه

فورًا. تردِّين عليه فورًا حتى لو كنتِ قد استسلمتِ للنوم لتوِّك بعد إرضاع طفلك. عليكِ أن تردِّي عليه لأن ثمة شريكًا قانونيًّا شديد الطموح في نيويورك سيكون سعيدًا بالرد عليه إذا لم تردِّي أنتِ – ولهذا فإن السوق هو ما يحدّد معايير النجاح.

إن النقص المتزايد في عدد الرجال الذين أتمُّوا تعليمهم الجامعي يُمثل مشكلة متزايدة الخطورة للنساء الراغبات في الزواج، وكذلك المواعدة. أولًا، تميل النساء بشدّة إلى الزواج من شخص في نفس مستواهنّ الاقتصادي أو أعلى منه. إنهنّ يفضّلن شريكًا مكافئًا لهنّ أو أعلى منهنّ مكانة. وهذا الأمر ينطبق على الجميع في كل الثقافات(184). وبالمناسبة، لا ينطبق الأمر نفسه على الرجال، الذين لديهم استعداد تامّ للزواج من امرأةٍ في نفس المستوى أو أقل (بحسب ما تشير بيانات مركز بيو للأبحاث)، وذلك على الرغم من أنهم يظهرون تفضيلًا للنساء اللاتي تصغرهم سنًّا نوعًا ما. ولا يزال الاتجاه الحديث نحو تجريف الطبقة الوسطى يزداد، حيث تميل النساء الثَّريات أكثر وأكثر(185) إلى الارتباط برجالٍ أثرياء أيضًا. وبسبب هذا، وأيضًا بسبب الانخفاض في الوظائف الصناعيّة ذات الأجور المرتفعة المتاحة للرجال (نسبة العاطلين من الرجال في سن العمل تبلغ حاليًا

واحدًا إلى ستة في الولايات المتحدة)، أصبح الزواج مقصورًا على الأثرياء بشكلٍ ملحوظٍ. ولا يسعني إلا أن أرى هذا الأمر مُسلّيًا بطريقة الكوميديا السوداء. لقد أصبحت مؤسّسة الزواج الذكورية القمعيّة ترفًا. فلماذا يرغب الأثرياء في تعذيب أنفسهم؟

لماذا تريد النساء الارتباط بشريكٍ لديه وظيفة، وتفضّلن أن يكون شريكهنَّ في مكانة أعلى منهنَّ؟ يرجع السبب في ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ إلى أن النساء يُصبِحن أكثر ضعفًا عند إنجاب الأطفال. إنهنّ يحتجن إلى شخصٍ مقتدرٍ لإعالة الأم والطفل عندما يصير ذلك ضروريًّا. إنه فعلٌ تعويضيٌّ عقلانيٌّ تمامًا رغم أن له أساسًا بيولوجيًّا. فلماذا ترغب المرأة التي تُقرِّر تولّي مسؤولية رضيع واحد أو أكثر أن ترتبط بشخصٍ يحتاج إلى أن تعتني به أيضًا؟ لذلك يصبح الرجل العاطل وهو في سن العمل فئةً غير مرغوب بها؛ وكذلك تكون الأمومة المنفردة بديلًا غير مرغوب فيه. فالأطفال في البيوت التي يغيب عنها الأب تزيد احتمالات أن يصيروا فقراء أربعة أضعاف؛ وهذا يعني أن الأم ستكون فقيرةً أيضًا. والأطفال الذين يَنشأون من دون أبٍ أكثر عرضةً لخطر تعاطي المُخدِّرات والكحول. أما الأطفال الذين يعيشون مع والدَين بيولوجيَّين متزوجَين فهم أقل قلقًا، واكتئابًا، وجنوحًا مقارنة بالأطفال الذين

يعيشون مع والد أو والدَين غير بيولوجيَّين. كما أن الأطفال في الأُسر ذات الوالد الواحد أكثر عرضةً للانتحار بمقدار الضعف(186).

أدى التحوُّل القوي نحو الصوابية السياسية في الجامعات إلى تفاقُم المشكلة. ويبدو أن الأصوات التي تُناهِض الاضطهاد أصبحت أعلى على نحو متناسبٍ تمامًا مع مدى المساواة التي أصبحت عليها المؤسّسات التعليميّة؛ التي أصبحت تميل ضد الرجال باطِّراد. وثمة تخصّصات كاملة في الجامعات معادية عداءً صريحًا للرجال. وهذه التخصّصات هي مجالات الدراسة التي يُهيمن عليها ادعاء ما بعد الحداثة/الماركسية الجديدة بأن الثقافة الغربية على وجه الخصوص هي بنية قمعية أنشأها الرجال البِيض للسيطرة على النساء وإقصائهن (إلى جانب فئات مختارة أخرى)؛ وهي لم تنجح إلا بسبب تلك الهيمنة والإقصاء(187).

المجتمع الذكوري: نعمةٌ أم نقمة؟

إن الثقافة بنية قمعية من دون أدنى شك. ولطالما كانت كذلك. تلك حقيقة أساسية، وجوديّة، عالمية. فالمَلِك المستبدّ هو حقيقة رمزية؛ وأحد الثوابت النموذجية. وما نرثه من الماضي قديم وأعمى على نحو مُتعمَّد. إن الثقافة شبح، وآلة، ووحش؛ إنها بناءٌ يجب إنقاذه، وترميمه، والحفاظ عليه بالاهتمام وبذل الجهد من قبل الأحياء. إنها تتهاوى بينما تضعنا في قوالب مقبولة اجتماعيًّا، وتُهدِر بذلك إمكانات هائلة. بَيدَ أنها تقدّم لنا مكسبًا عظيمًا أيضًا؛ فكل كلمة ننطق بها هي هبة من أسلافنا، وكل فكرة طرأت على عقولنا فكَّر فيها قبلنا شخصٌ أذكى، والبنية التحتية الشديدة الفعالية التي ننعم بها –وخاصةً في الغرب– هي هبة من أسلافنا: النظم السياسية والاقتصادية غير الفاسدة نسبيًّا، والتكنولوجيا، والثروة، وطول مدة الحياة، والترف، والفرص؛ جميعها هبات من أسلافنا. إن الثقافة تنال منَّا من جهة، ولكنها تمنحنا من جهةٍ أخرى، في بعض البقاع سعيدة الحظ من العالم. وتنمُّ فكرة أن الثقافة ليست أكثر من مجرّد شيء قمعي عن جهلٍ وجحود، كما أنها فكرة خطيرة. ولكنني لا أعني أيضًا أن الثقافة يجب ألا تخضع للنقد على الإطلاق (وأتمنى أن يكون محتوى هذا الكتاب قد أوضح تلك النقطة بما فيه الكفاية حتى الآن).

ولنفكِّر في هذا أيضًا من منطلقِ فكرةِ قمعية الثقافة: إن أيَّ نظامٍ هرميٍّ يخلق فائزين وخاسرين. ويميل الفائزون بطبيعة الحال إلى تبرير وجود النظام، في حين يميل الخاسرون إلى انتقاده. ولكن، أولًا: السعي الجمعي لتحقيق أي غاية ثمينة ينتج عنه نظام هرمي (لأن بعض الناس سيكونون أفضل، وبعضهم الآخر أسوأ، في ذلك السعي لتحقيق الغاية المرجوّة، بصرف النظر عن طبيعتها)، وثانيًا: السعي وراء الأهداف والغايات هو ما يعطي الحياة المعنى الذي يحافظ على استدامتها. إننا نشعر بجميع العواطف التي تجعل الحياة عميقة وممتعة تقريبًا كنتيجةٍ للسعي الناجح وراء شيءٍ مرغوب فيه بشدة وذي قيمة كبيرة. والثمن الذي ندفعه لهذا الانخراط في السعي هو حتمية استحداث أنظمة هرمية للنجاح، والنتيجة الحتمية لذلك هي اختلاف النتائج. ومن ثَمَّ، فإن المساواة المطلقة سوف تتطلّب التضحيةَ بالقيمة نفسها؛ وحينها لن يكون ثمة شيء يستحق العيش من أجله. ويمكننا بدلًا من ذلك أن نلاحظ بامتنانٍ أن الثقافة المعقّدة المتطوّرة الراقية تسمح بوجود أكثر من مجالٍ، والعديد من الأطراف الناجحة، وأن الثقافة ذات التنظيم المُحكَم تسمح للأفراد الذين يشكّلونها بالسعي، والمحاولة، والفوز، بطرق عديدة مختلفة.

ومن دلائل فساد التفكير أن نَعتبر الثقافة من صنع الرجال. إن الثقافة ذكورية من منظور رمزي، ونموذجي، وأسطوري؛ وربما كان هذا أحد الأسباب وراء سهولة تقبل فكرة «المجتمع الذكوري». ولكن الثقافة من صنع البشرية كلّها، وليس الرجال وحدهم (فضلًا عن أن تكون من صنع الرجال البيض، على الرغم من أن الرجال البيض كان لهم إسهامٌ طيِّبٌ). لقد هيمنت الثقافة الأوروبية –إلى حدّ الهيمنة على كل شيء– لمدة أربعمائة عام فحسب. وعلى مقياس التطوّر الثقافي للبشرية – الذي يُقاس بآلاف السنين على الأقل– فإن هذه الفترة لا تكاد تُذكر. وعلاوة على ذلك، فحتى لو أن النساء لم يُقدِّمن أي إسهامات حقيقية في مجالات الفنون، والآداب، والعلوم، قبل ستينيات القرن العشرين وظهور الثورة النسوية (وهي شيء لا أؤمن به)، يظلّ الدور الذي لعبته النساء في تنشئة الأطفال، والعمل في الحقول، دورًا محوريًّا في تنشئة الصبية وتحرير الرجال (قليل جدًّا من الرجال) لكي تتمكّن البشرية من التكاثر، والانتشار، والتقدُّم.

وإليكم نظريةً بديلة: لقد كافح كلٌّ من الرجال والنساء على مرِّ التاريخ للتحرّر من الأهوال الرهيبة للحرمان والفاقة. وكانت النساء غالبًا يعانين من ضعف وضعهنّ أثناء هذا الكفاح حيث كنّ يعانين من كل أوجه الضعف التي عانى منها الرجال، إضافة إلى عبء آخر هو الإنجاب، وضعف القوة

الجسدية مقارنةً بالرجال. وبالإضافة إلى القذارة، والبؤس، والمرض، والجوع، والقسوة، والجهل، التي كانت تَسِم حياة كلا الجنسين وقتها، قبل القرن العشرين، (عندما كان الأفراد حتى في الغرب يعيشون عادةً بدخلٍ يقلّ عن دولارٍ واحد يوميًا بقيمة العملة اليوم)، كان على النساء أن يتحمّلن عوائق عملية خطيرة تتمثّل في الطمث، والاحتمالات المرتفعة لحدوث حمل غير مرغوب فيه، واحتمال الوفاة أو وقوعِ ضرر خطير أثناء الولادة، وعبء وجود الكثير من الأطفال الصغار. وربما كان هذا سببًا كافيًا لتبايُن المعاملة القانونية والعملية بين الرجال والنساء، وهي المعاملة التي تميّزت بها معظم المجتمعات قبل الثورات التكنولوجية الحديثة، ومن بينها اختراع حبوب منع الحمل. ويجب على الأقل أخذ مثل هذه الأمور في الاعتبار قبل القَبول بفرضية أن الرجال كانوا يَظلمون النساء كحقيقة بديهية مسلّم بها.

ويبدو لي أن ما يُسمّى بالقمع الذي مارسه المجتمع الذكوري كان مجرّد محاولة جمعية غير متقنة من قِبل الرجال والنساء –امتدت على مدار آلاف السنين– لتحرير بعضهم بعضًا من الحرمان والمرض والكدّ. وتُعتبر قضية أروناتشالام موروغانانثام(73) الحديثة مثالًا مفيدًا؛ فهذا الرجل –» ملك الفوط الصحية النسائية» في الهند– كان تعيسًا لأن زوجته كانت تُضطر إلى

استخدام خرق قذرة أثناء دورتها الشهرية. أخبرته زوجته أن الأمر هو اختيار بين استخدام فوط صحيّة غالية أو شراء لبن للأسرة. وقضى الرجل أربعة عشر عامًا في حالة من الجنون، من وجهة نظر جيرانه، محاولًا إيجاد حلٍّ للمشكلة. وقد هجرته زوجته وأمه -لفترة وجيزة- خوفًا من هوَسه بالفكرة. وعندما نَفِدَت المتطوّعات لاختبار منتجه، لجأ إلى ارتداء كيس مملوء بدم الخنزير كبديل. ولست أدري كيف كان هذا السلوك سيُحسِّن شعبيته أو مكانته في مجتمعه. والآن نجد أن الفوط الصحيّة المنخفضة التكلفة المصنوعة محليًّا منتشرة في جميع أنحاء الهند؛ حيث تقوم بتصنيعها مجموعات مساعدة ذاتية تشرف عليها النساء. لقد قدَّم الرجل للمستخدِمات حريةً لم يجربنها من قبل. وفي العام 2014، ظهر اسم هذا الرجل الذي لم يُتمّ تعليمه الثانوي في قائمة مجلة «تايم» لأهم 100 شخصية مؤثّرة في العالم. وأنا لا أظن بأن الحافز الرئيسي الذي كان يدفع موروغانانثام هو المكسب الشخصي. فهل هو جزء من المجتمع الذكوري؟

وفي العام 1847، استخدم جيمس يانج سيمبسون(74) الإثير كمنوِّم لمساعدة امرأة مصابة بتشوّهات في الحوض أثناء عملية الولادة. وبعد ذلك، أصبح يستخدم الكلوروفورم الذي كان يوفّر أداءً أفضل. أُطلق على

أول مولود يولد تحت تأثير الكلوروفورم اسم« أناستيزيا»(75) Anaesthesia. وبحلول العام 1853، كان الكلوروفورم قد أصبح مادةً تحظى بالتقدير إلى درجة أن الملكة فيكتوريا استخدَمته أثناء وضع طفلها السابع. وبعد ذلك بفترةٍ وجيزة، أصبح خيار الولادة من دون ألم متاحًا في كل مكان. ولم يعترض على استخدامه سوى عددٍ قليلٍ من الأشخاص الذين حذّروا من مغبة معارضة كلام الله للنساء في سِفر التكوين (16:3)، حيث قال مخاطبًا حواء: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا». كما عارض البعض استخدامه بين الرجال؛ فالرجال الشبان، الأصحاء، الشجعان لا ينبغي أن يستخدموا التخدير. ولكن هذه المعارضة لم يكن لها أثر يُذكر؛ فقد انتشر استخدام التخدير بسرعة مذهلة (بوتيرةٍ أسرع بكثيرٍ مما كان يمكن أن يحدث في هذه الأيام). وحتى إن قساوسة الكنائس البارزين دعموا استخدامه.

لم تظهر أول فوطة صحية سدادة، «تامباكس»، إلا في ثلاثينيات القرن العشرين، وقد اخترعها الدكتور إيرل كليفلاند هاس، وصنعها من القطن المضغوط، وصمم قضيبًا من الأنابيب الورقية، وقد ساعد ذلك في تقليل مقاومة المنتجات من جانب الأشخاص الذين اعترضوا على لمس الأعضاء

الجنسية الذي كان سيحدث لولا هذه الطريقة. وفي بداية الأربعينيات من القرن العشرين، كان 25 بالمائة من النساء يستخدمنها. وازدادت هذه النسبة بعد ثلاثين عامًا إلى 70 بالمائة. وأصبح يستخدمها الآن أربعٌ من كل خمس نساء، في حين تعتمد المتبقيات على الفوط الصحية العادية، التي أصبحت الآن فائقة الامتصاص وثابتة في مكانها بمواد لاصقة فعَّالة (بدلًا من الفوط الصحية الضخمة، التي كانت توضع من دون تثبيت بأحزمةٍ مثل حفَّاضات الأطفال، والتي كانت منتشرةً في السبعينيات). فهل قمع موروغانانثام، وسيمبسون، وهاس النساء أم إنهم قاموا بتحريرهنّ؟ وماذا عن جريجوري جودوين بينكوس، الذي ابتكر حبوب منع الحمل؟ كيف كان هؤلاء الرجال العمليون والمستنيرون جزءًا من نظامٍ ذكوري قمعي ومقيّد؟

لماذا نُعلِّم شبابنا أن ثقافتنا الرائعة هي نتيجة لقمع الذكور؟ إن نتيجة هذا الافتراض المركزي هي تضليل تخصّصات مختلفة ومتنوّعة كثيرة، مثل التعليم، والخدمة الاجتماعية، وتاريخ الفن، والدراسات الجنسانية، والأدب، وعلم الاجتماع، والقانون –على نحو متزايد– بحيث أصبحت تُعامل الرجال فعليًّا على أنهم قمعيون وتتعامل مع النشاط الذكوري على أنه مُدمِّرٌ بطبيعته، كما أنها غالبًا ما تُعزِّز مباشرةً اتخاذ إجراءات سياسية راديكالية – وأعني

راديكالية بجميع معايير المجتمعات التي توجد فيها- يخلطون بينها وبين الإجراءات التعليمية. فعلى سبيل المثال، يُشجِّع معهد بولين جيويت للدراسات النسوية والجنسانية بجامعة كارلتون في أوتاوا مذهبَ الفعل العنيف كجزء من التعليم فيه. أما قسم الدراسات الجنسانية في جامعة كوينز في كينجستون بأونتاريو، فهو « يُدرِّس نظرياتٍ وأساليبَ نسويةً، ومناهضة للعنصرية وغريبة، تُكرِّس مذهب الفعل العنيف من أجل التغيير الاجتماعي»؛ مما يشير إلى وجود دعم لفرضية أن التعليم الجامعي يجب أن يُعزِّز المشاركةً السياسية لجنس معيّن قبل أي شيء آخر.

ما بعد الحداثة وتأثير ماركس الممتدّ

تستمد هذه التخصّصات فلسفتها من مصادر متعدّدة؛ وجميعها متأثرة بأنصار المذهب الإنساني الماركسي(76) Marxist humanism، وأحد هؤلاء الأشخاص هو ماكس هوركهايمر، الذي وضع النظرية النقدية في ثلاثينيات القرن العشرين. وأي تلخيص موجَز لأفكار هوركهايمر سيُعتبر بمثابة إفراط في التبسيط، لكن هوركهايمر كان يَعتبر نفسه ماركسيًّا، وكان

يعتقد بأن المبادئ الغربية للحرّية الفرديّة أو السوق الحرّة هي مجرّد أقنعة تعمل على إخفاء الظروف الحقيقية التي يعيشها الغرب، والتي تتمثّل في عدم المساواة، والسيطرة، والاستغلال. وكان يرى أن النشاط الفكري يجب أن يُكرَّس للتغيير الاجتماعي، وليس لمجرّد الفهم، وكان يأمل في تحرير البشريّة من عبوديتها. كان هدف هوركهايمر ومفكّري مدرسة فرانكفورت –في ألمانيا أولًا، ثم في الولايات المتحدة لاحقًا– هو توجيه نقد واسع النطاق للحضارة الغربية ومن ثمَّ تغييرها.

وكانت أعمال الفيلسوف الفرنسي جاك درّيدا(77) Jacques Derrida – رائد حركة ما بعد الحداثة– التي لاقت رواجًا في أواخر سبعينيات القرن العشرين أكثر أهمّية في السنوات الأخيرة. وصف درّيدا أفكاره بأنها شكل متطرّف من أشكال الماركسية؛ فقد حاول ماركس اختزال التاريخ والمجتمع في الاقتصاد، مُعتبرًا الثقافةَ قمعًا يمارسه الأغنياء على الفقراء. وعندما طُبِّقَت الماركسية في الاتحاد السوفياتي، والصين، وفيتنام، وكمبوديا، وغيرها من البلدان، جرت إعادة توزيع الموارد الاقتصادية بطريقة قاسية؛ فأُلغيت المِلكيّات الخاصّة، وتمَّ تنظيم المزارعين قسرًا وفقًا لمبادئ جماعية. وماذا كانت النتيجة؟ مات عشرات الملايين من البشر،

وخضع مئات الملايين الآخرين لقمعٍ يضاهي القمع الذي لا يزال يُمارَس في كوريا الشمالية، آخر معاقل الشيوعية الكلاسيكية. وكانت الأنظمة الاقتصادية الناتجة فاسدةً وغير مستدامة، ودخل العالم في حربٍ باردة طويلة وخطيرة للغاية. عاش مواطنو تلك المجتمعات حياة الكذب؛ حيث خانوا أُسرهم، ووَشوا بجيرانهم – وعاشوا في بؤس من دون شكوى (وإلّا).

كانت الأفكار الماركسية جذّابةً للغاية للمفكّرين الحالمين بالمدينة الفاضلة (يوتوبيا). لقد كان خيو سامفان(78) **Khieu Samphan** – أحد المخطّطين الرئيسيين للأهوال التي ارتكبتها جماعة الخمير الحُمر(79) **Khmer Rogue** – حاصلًا على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون قبل أن يصبح الرئيس الصوَري لكمبوديا في منتصف السبعينيات. وقد قال في رسالته للدكتوراه التي كتبها في العام **1959** إن العمل الذي يقوم به غير المزارعين في مدن كمبوديا هو عمل غير مجدٍ؛ وكان يقصد أن البنوك والموظّفين ورجال الأعمال لم يُضيفوا شيئًا إلى المجتمع، بل إنهم بدلًا من ذلك تطفّلوا على القيمة الحقيقية التي تأتي من الزراعة، والصناعات الصغيرة، والحِرف. وكان لأفكار سامفان صدّى إيجابيًا لدى المفكّرين الفرنسيين الذين منحوه درجة الدكتوراه. وعندما عاد إلى كمبوديا أتيحت له

الفرصة لتطبيق نظرياته؛ فقامت جماعة الخمير الحُمر بإجلاء مدن كمبوديا، وقادوا جميع السكان إلى الريف، وأغلقوا البنوك، ومنعوا استخدام العُملة، ودمّروا جميع الأسواق. كان ربع سكان كمبوديا يعملون بالسُّخرة حتى الموت في الريف في حقول القتل.

كي لا ننسى: الأفكار لها عواقب

عندما أسَّس الشيوعيون الاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الأولى، كان من الممكن التماس العذر للناس حين تمنّوا أن تتحقّق الأحلام الجمعية الفاضلة التي بشّر بها قادتهم الجدد. لقد أنتج النظام الاجتماعي البالي في أواخر القرن التاسع عشر الخنادق والمذابح الجماعية التي وقعت في الحرب العظمى. كانت الفجوة بين الأغنياء والفقراء هائلة، وكان معظم الناس يعيشون في ظروفٍ أسوأ من الظروف التي وصفها أورويل لاحقًا. ورغم أن الغرب وصلته أخبار عن الأهوال التي ارتكبها لينين بعد «الثورة الروسية»، فقد ظلّ من الصعب تقييم تصرفاته من بعيد. كانت روسيا تعاني فوضى ما بعد سقوط القيصرية، وكانت أخبار التنمية الصناعية الواسعة وإعادة توزيع

الممتلكات على الأشخاص الذين كانوا من العبيد حتى وقتٍ قريب تمثّل سببًا يدعو إلى التفاؤل والأمل. وكان مما زاد الطين بلة وعقد الأمور أكثر أن دعم الاتحاد السوفياتي (والمكسيك) الجمهوريين الديمقراطيين عندما اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية عام **1936**. كان الجمهوريون الديمقراطيون يقاتلون ضد القوميين الفاشيين الذين انقلبوا على النظام الديمقراطي الهشّ الذي كان قد تأسّس منذ خمس سنوات مضت فحسب، والذين كانوا يتلقّون الدعم بدورهم من النازيين والفاشيين الإيطاليين.

كان المثقّفون في أمريكا وبريطانيا العظمى وبلاد أخرى مُحبَطين بشدةٍ بسبب حياد بلدانهم. وتَدفَّق الآلاف من الأجانب على إسبانيا للقتال في صفوف الجمهوريين؛ حيث خدموا في الفرق الدولية. وكان جورج أورويل أحد هؤلاء المقاتلين، وعمل إرنست هيمنجواي هناك كصحافي، وكان يدعم الجمهوريين. وشعر الشبان الأمريكيون، والكنديون، والبريطانيون المهتمون بالشأن السياسي بالتزامٍ أخلاقي يحثّهم على التوقُّف عن الحديث وبدء القتال.

أدَّى كل هذا إلى إبعاد الانتباه عن الأحداث التي كانت تقع في الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت نفسه. ففي ثلاثينيات القرن العشرين، أثناء فترة الكساد الكبير، أرسل السوفيات بزعامة ستالين مليونَي كولاك – وهم المزارعون الروس الأثرياء– إلى سيبيريا (وكان المزارعون الأثرياء آنذاك هم الذين يمتلكون بضع بقرات، أو بعض الأيدي العاملة المستأجرة، أو بضعة فدادين أكثر من المعتاد). من وجهة النظر الشيوعية، كان هؤلاء الكولاك قد جمعوا ثرواتهم بنهب مَن حولهم؛ ومن ثَمَّ استحقّوا مصيرهم. كانت الثروة دليلًا على القمع، والملكية الخاصّة بمثابة سرقة؛ وحان الوقت لتحقيق العدالة. أُطلِقَ النار على أكثر من ثلاثين ألفًا من الكولاك من دون محاكمة، ولقي عددٌ أكبر من ذلك حتفهم على يد جيرانهم الذين تأكلهم الغيرة والحقد، والذين لم يكونوا يُنتجون شيئًا، والذين استغلوا المُثُل العليا للجمعية الشيوعية لإخفاء نياتهم القاتلة.

كان هؤلاء الكولاك هم «أعداء الشعب»، وقرودًا، وحثالة، وحشرات، وأقذارًا، وخنازير. وقد قال أحد الكوادر الوحشيّة من سكان المدن، الذين حشدهم الحزب واللجنة التنفيذية السوفياتية وأرسلتهم إلى الريف: «سنصنع الصابون من أجساد الكولاك». واقتيد الكولاك عرايا إلى الشوارع، وضُرِبوا،

وأُجبروا على حفر قبورهم، واغتُصِبت النساء، و«صودرت» أملاكهم؛ وهو ما كان يعني عمليًا أن منازلهم جُرِّدت حتى من العوارض الخشبية وعوارض السقف، وأن كل شيء فيها قد سُرق. وفي أماكن عديدة، قاوم المزارعون من غير الكولاك، وخاصّةً النساء، اللاتي لجأن إلى إحاطة العائلات المضطهَدة بأجسادهنّ. ولم تكن هذه المقاومة ذات جدوى؛ فالكولاك الذين لم يموتوا تم نفيهم إلى سيبيريا، في منتصف الليل غالبًا. وبدأت القطارات في نقلهم في شهر فبراير، في برد روسيا القارس. كان في انتظارهم عند وصولهم إلى غابات الصنوبر إسكانٌ شديد التواضع، ومات الكثيرون منهم –خاصّةً الأطفال– مصابون بالتيفوئيد، والحصبة، والحُمَّى القرمزية.

كان هؤلاء الكولاك « الطفيليون»، بوجه عام، هم المزارعين الأمهر والأكثر اجتهادًا. فثمّة أقلية صغيرة من الناس تكون مسؤولة عن معظم الإنتاج في أي مجال، ومجال الزراعة لم يكن استثناءً من تلك القاعدة؛ وبنفيهم انهار الإنتاج الزراعي، وأُخذ القليل المتبقّي عنوةً من الريف إلى المدن. أما سكان الريف الذين كانوا يذهبون إلى الحقول بعد الحصاد لجمع بعض حبوب القمح لعائلاتهم الجائعة فكانوا يواجهون خطر الإعدام.

وفي ثلاثينيات القرن العشرين، مات ستة ملايين شخص من الجوع في أوكرانيا، التي كانت سلة غلال الاتحاد السوفياتي. وانتشرت ملصقات للنظام السوفياتي تقول: «أن تأكل أطفالك لهو عمل بربري».

وعلى الرغم من ورود ما هو أكثر من مجرّد شائعات عن هذه الفظائع، ظلّت المواقف تجاه الشيوعية إيجابية بين العديد من المثقّفين الغربيين؛ فقد كانت تلوح في الأفق أمورٌ أخرى تدعو إلى القلق، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية لتجعل الاتحاد السوفياتي حليفًا للدول الغربية ضد هتلر وموسوليني وهيرو هيتو. ومع ذلك، فقد ظلت بعض العيون الراصدة مفتوحةً على ما كان يجري في الاتحاد السوفياتي. ففي وقت مبكر للغاية، نشر مالكولم موجيردج في العام 1933 سلسلة من المقالات في صحيفة «مانشستر جارديان» تصف الإبادة السوفياتية للمزارعين. كما فهم جورج أورويل ما كان يجري في عهد ستالين، وعمل على نشره على نطاقٍ واسع؛ فنشر كتاب « مزرعة الحيوان» **Animal Farm** – هي رواية رمزية تسخر من الاتحاد السوفياتي– في العام 1945، رغم ما واجهه من مقاومةٍ كبيرة لإصدار الكتاب. وفضّل الكثيرون ممن كان يجب أن يعرفوا ما يجرى

جيدًا أن يغضّوا الطرف لفترة طويلة بعد ذلك. وكان ذلك ينطبق أكثر ما ينطبق على فرنسا، وبصفة خاصّة مثقفي فرنسا.

كان الفيلسوف الفرنسي الأشهر في منتصف القرن، جان بول سارتر، شيوعيًّا ذائع الصِّيت -وإن لم يحمل بطاقة الشيوعية- إلى أنه أدان التوغُّل السوفيتي في المجر العام 1956. بَيْدَ أنه ظل مناصرًا للماركسية، ولم يخرج من عباءة الاتحاد السوفياتي حتى العام 1968، عندما قمع السوفيات التشيكوسلوفاكيين خلال موجة تظاهرات «ربيع براغ» قمعًا وحشيًّا.

ولم يمضِ وقت طويل حتى نُشر كتاب «أرخبيل المعتقلات السوفياتية» The Gulag Archipelago للكاتب ألكسندر سولجنيتسين، وهو الكتاب الذي تحدّثت عنه مطولًا في فصولٍ سابقة من هذا الكتاب. وكما ذكرت (والأمر جدير بالذكر من جديد)، فقد هدم هذا الكتاب تمامًا المصداقية الأخلاقية للشيوعية؛ في الغرب أولًا، ثم في الاتحاد السوفياتي نفسه بعد ذلك. انتشر الكتاب سرًّا في شكل «ساميزدات»(80)

samizdat. وكان أمام كل روسي يقرأ الكتاب أربعٌ وعشرون ساعة للانتهاء من القراءة قبل أن ينتقل الكتاب إلى قارئ آخر وعقل آخر ينتظر الكتاب. وكانت تُبث على إذاعة « راديو الحرية» من خارج الاتحاد السوفياتي قراءةٌ للكتاب باللغة الروسية.

احتج سولجنيتسين بأن النظام السوفياتي لم يكن ليبقى أبدًا من دون الاستبداد والسُّخرة؛ وبأن بذور أسوأ تجاوزاته كانت قد زُرِعَت بوضوحٍ في عهد لينين (الذي لا يزال الشيوعيون الغربيون يدافعون عنه ويبررون تصرّفاته)؛ وبأن ما يدعم هذا النظام هو سلسلةٌ لا تنتهي من الأكاذيب، الفردية والعامة. ولا يمكن إلقاء اللوم عن خطايا ذلك النظام على طائفة معينة من الأشخاص، كما كان مؤيدو الشيوعية يَدَّعون. ووثَّق سولجنيتسين سوءَ المعاملة المفرط بحق السجناء السياسيين، وفساد النظام القانوني، وجرائم القتل الجماعي، وأوضح بتفصيلٍ دقيق أن ما ارتُكب لم يكن مجرد انحرافات وإنما تعبيرات مباشرة عن جوهر الفلسفة الشيوعية. وما من أحد يستطيع الدفاع عن الشيوعية بعد صدور هذا الكتاب؛ ولا حتى الشيوعيون أنفسهم.

ولكن هذا لم يكن يعني فتور الافتتان بالأفكار الماركسية لدى المثقفين – خاصةً المثقفين الفرنسيين– وإنما تحوّلها فحسب. فقد رفض بعض المثقفين أن يعرفوا الحقيقة رفضًا صريحًا. فاتَّهم سارتر سولجنيتسين بأنه « عنصر خطير». أما درّيدا، لذي كان أكثر دهاءً، فقد استبدل فكرة السلطة بفكرة المال، واستمر في التأييد. وقد منحت هذه البراعة اللغوية الاحتيالية للماركسيين التائبين بالكاد الذين كانوا لا يزالون يحتلّون أعلى الدرجات الثقافية في الغرب وسيلةً للاحتفاظ بنظرتهم للعالم. فقد أصبحت الفكرة هي أن المجتمع لم يَعُد قائمًا على قمع الأغنياء للفقراء، بل على قمع أصحاب السلطة للجميع.

بالنسبة إلى درّيدا، فإن البنى الهرمية لم تنشأ إلا لتضم «المستفيدين من تلك البنية»، وتُقصي « جميع من عداهم، فيصبحوا بذلك مقموعين مضطّهدين». وحتى هذا الزعم لم يكن متطرّفًا بما يكفي، بل إنه ذهب إلى أن الانقسام والاضطهاد متأصلٌ حتى في بنية اللغة –متأصل في الفئات التي نستخدمها على نحو عملي لتبسيط العالم والتحاور معه. فثمة فئة «نساء» فقط لأن الرجال يحقّقون المكاسب بإقصائهنّ. وثمة فئة «الذكور والإناث»

فقط لأن أفراد تلك الفئة غير المتجانسة استفادوا من إقصاء أقلية صغيرة من الناس كان جنسهم البيولوجي غير واضح المعالم. والعلم لا يفيد سوى العلماء. والسياسة لا تفيد سوى السياسيين. ففي رأي درّيدا، لا تقوم الهياكل الهرمية إلا لأنها تستفيد من قمع المُستثنَيين منها، وهذه الاستفادة غير الشرعية هي التي تسمح لها بالازدهار.

هناك قول مشهور لدرّيدا (رغم أنه أنكره، لاحقًا) نصه: « **Il n'y a pas de hors-texte**»، وغالبًا ما يُترجم إلى: « لا يوجد شيء خارج النص». ويقول مؤيدو درّيدا إن هذه الترجمة غير صحيحة، وإن الترجمة السليمة يجب أن تكون « لا يوجد نصّ خارجي». ويظلّ من الصعب في الحالتين أن نقرأ العبارة من دون أن نفهم أنها تعني: « كل شيء عبارة عن تأويل»، وهكذا جرى تأويل أعمال درّيدا بشكل عام.

ويكاد يكون من المستحيل المبالغة في تقدير مدى عدمية وتدمير هذه الفلسفة؛ فهي تضع فعل التصنيف نفسه موضع شك. إنها تنفي فكرة إمكانية التمييز بين الأشياء لأي سببٍ آخر غير أسباب السُّلطة الصريحة.

وماذا عن الفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة؟ على الرغم من وجود كمٍّ هائلٍ من الأبحاث العلمية متعدّدة التخصّصات التي تشير إلى أن الفروق الجنسية تتأثّر بقوةٍ بالعوامل البيولوجية، فإن العلم في رأي درّيدا وأنصاره من مؤيّدي ماركسية ما بعد الحداثة ما هو إلا لعبة من ألعاب السُّلطة، وهو يقدّم الادِّعاءات من أجل تحقيق مصلحة أولئك الذين يحتلّون قمة المجالات العلمية. لا توجد حقائق. وماذا عن المكانة في التسلسل الهرمي والسُّمعة الناتجة عن المهارة والكفاءة؟ جميع تعريفات المهارة والكفاءة هي تعريفات لفّقها واختلقها أولئك الذين يستفيدون منها، بهدف إقصاء الآخرين، وتحقيق فوائد شخصية أنانية.

ثمة قدرٌ كافٍ من الصدق في مزاعم درّيدا الهدف من ورائه أن يفسّر – جزئيًا– طبيعتها الماكرة. فالسُّلطة قوة محفّزة أساسية (وليست « القوة المحفّزة الأساسية»). فالناس يتنافسون للوصول إلى القمة، وهم يهتمون بمكانتهم في الهياكل الهرمية للهيمنة. ولكن (وهنا موضع الفصل بين الصبية والرجال، فلسفيًّا) حقيقة أن السُّلطة تلعب دورًا في التحفيز الإنساني لا تعني أنها تلعب الدور الوحيد أو حتى الدور الرئيسي. وبالمثل، فإن حقيقة أننا من المستحيل أن نعرف كل شيء تجعل كل ملاحظاتنا وكلامنا معتمدًا على

أخذ بعض الأشياء في الاعتبار وإغفال أشياء أخرى (كما سبق وأوضحنا بإسهابٍ في القاعدة العاشرة). وهذا لا يُبرِّر الادعاء بأن كل شيء عبارة عن تأويل، أو أن التصنيف هو مجرد عملية إقصاء. لذا، احذر من تأويلات الدافع الأوحد؛ واحذر الأشخاص الذين يقدّمونها.

ورغم أن الحقائق لا يمكن أن تتحدّث عن نفسها (تمامًا كما لا تستطيع رقعة متّسعة من الأرض الممتدّة أمام المسافر أن تخبره كيف ينتقل فيها)، ورغم وجود عددٍ لا يُحصى من طرق التفاعل ولو مع عددٍ صغير من الأشياء -فضلًا عن طرق تصوّرها- فهذا لا يعني أن جميع التأويلات صحيحة على حدٍّ سواء. فبعض التأويلات يكون جارحًا لك وللآخرين، وبعضها يضعك في طريق يجعلك تصطدم بالمجتمع، وبعضها لا يصمد أمام اختبار الزمن، وبعضها لا يأخذك إلى حيث تريد أن تذهب. والعديد من هذه القيود متأصِّلٌ فينا نتيجة مليارات السنين من العمليات التطوّرية. وتبرز قيود أخرى نتيجة تنشئتنا اجتماعيًا على التعاون والتنافس بسلام وبطريقة مُثمرة مع الآخرين. ويظهر المزيد من التأويلات عندما ننبذ الاستراتيجيات الضارّة وغير المثمرة من خلال التعلم. ثمة عدد لا نهائي من التأويلات بلا أدنى شك؛ وهذا لا يختلف كثيرًا عن القول بأن ثمة عددًا لا نهائيًا من المشكلات. ولكن ثمة

عددًا محدودًا للغاية من الحلول القابلة للتطبيق؛ وبخلاف ذلك، كانت الحياة لتصير سهلة، وهي ليست كذلك.

ولديَّ الآن بعض الاعتقادات التي يمكن اعتبارها تميل إلى اليسار. فعلى سبيل المثال، أنا أعتقد بأن نزعة توزيع السلع القَيِّمة بعدم مساواة واضح وجلي يُشكِّل تهديدًا دائمًا لاستقرار المجتمع، وأظن أن ثمة أدلة جيّدة على ذلك. ولكن هذا لا يعني أن حلّ المشكلة بديهي؛ فنحن لا نعرف طريقةً لإعادة توزيع الثروة من دون خلق مجموعةٍ كاملة من المشكلات الأخرى. لقد جرَّبَت المجتمعات الغربية المختلفة مناهج مختلفة. فالسويد مثلًا تميل إلى الحد الأقصى من المساواة. أما الولايات المتحدة فتأخذ اتجاهًا معاكسًا؛ مفترضة أن صنع الثروة الصافية في ظل نظام أكثر رأسمالية ومفتوح للجميع يُعتبر بمثابة موجة مَدّ عالية ترفع معها جميع القوارب. ونتائج هذه التجارب لم تظهر تمامًا، كما أن البلدان تختلف عن بعضها بعضًا بشدة في جوانب مهمة. إن الاختلافات في التاريخ، والمساحة الجغرافية، وحجم السكان، والتنوُّع العرقي تجعل المقارنات المباشرة صعبة للغاية. ولكن المؤكد هو أن إعادة التوزيع القسري، باسم المساواة الطوباوية الفاضلة، هو علاج يخزى منه المرض ذاته. وأعتقد كذلك (في ما يمكن اعتباره فكرًا

يساريًّا أيضًا) أنه من الخطأ إعادة التشكيل التدريجي لإدارات الجامعات لتصبح كنظيراتها في الشركات الخاصة. وأعتقد بأن علم الإدارة هو علم زائف. وأعتقد بأن الحكومة يمكن -أحيانًا- أن تكون قوةً من أجل الخير، وكذلك يمكن أن تكون أداة لفرض مجموعة صغيرة من القواعد الضرورية. ومع ذلك، فإنني لا أفهم لماذا يقوم مجتمعنا بتوفير التمويل من المال العام للمؤسسات والمعلمين الذين يتمثّل هدفهم المُعلَن والواضح والصريح في هدم الثقافة التي تدعمهم. هؤلاء الأشخاص لهم الحق الكامل في التعبير عن آرائهم وفعل ما يريدون، طالما كان ذلك في إطار القانون؛ ولكن ليس لهم حق منطقي في المطالبة بتمويلٍ من المال العام. ولو كان اليمين المتطرّف يحصل على تمويل حكومي للعمليات السياسية تحت غطاء الدورات الجامعية، كما هو الحال بوضوحٍ مع اليسار المتطرّف، لكانت أصوات التقدميين في جميع أنحاء أمريكا الشمالية ستُصِمّ الآذان احتجاجًا. وثمة مشكلات خطيرة أخرى تكمن في التخصّصات الراديكالية، بخلاف زيف نظرياتها وأساليبها، وإصرارها على أن العنف الجماعي لتحقيق الأغراض السياسية إلزامي من الناحية الأخلاقية. ولا توجد أدلة دامغة تدعم أي ادِّعاء من ادِّعاءاتهم الرئيسية، وهي أن: المجتمع الغربي مجتمع ذكوري مريض؛ وأن الدرس الرئيسي المستفاد من التاريخ هو أن الرجال -وليس الطبيعة- هم المصدر الرئيسي لقمع النساء (وليس أن الرجال كانوا شركاءهنّ

ومؤيديهنّ في أكثر الحالات)؛ وأن جميع التسلسلات الهرمية تعتمد على السُّلطة وتهدف إلى الإقصاء. إن التسلسلات الهرمية موجودة لعدة أسباب –وبعض هذه الأسباب مشروع وبعضها غير ذلك– وهي موغلة في القدم، من وجهة النظر التطورية. فهل يقوم ذكور القشريات بقمع واضطهاد إناث القشريات؟ هل يجب قلب التسلسل الهرمي للقشريات؟

في المجتمعات الفعّالة – ليس بالمقارنة بمجتمع فاضل افتراضي، بل بالمقارنة بثقافات أخرى سواء أكانت حالية أم تاريخية– تكون الكفاءة، وليس السُّلطة، هي العامل الرئيسي لتحديد المكانة. الكفاءة، أو القدرة، أو والمهارة، وليس السُّلطة. وهذا الأمر واضح سواءٌ في القصص أو على أرض الواقع. فلا يوجد شخص مصاب بسرطان المخ يؤيّد المساواة إلى درجة تجعله يرفض العلاج على يد جراح تلقى أفضل تعليم، ويتمتّع بأفضل سُمعة، وربما يحقّق أعلى دخل. وفوق كل ذلك، فإن أكثر السّمات الشخصية التي يُتوقع لمن يتمتع بها النجاح على المدى الطويل في الدول الغربية هي الذكاء (بحسب ما تقيسه القدرة المعرفية أو اختبارات الذكاء)، ويقظة الضمير (وهي سمة تضم الاجتهاد والتنظيم)(188). وثمة استثناءات؛ فروّاد الأعمال والفنانون أكثر انفتاحًا على خوض التجارب(189) –وهي سمة

شخصية أساسية أخرى- في مقابل يقظة الضمير. ولكن الانفتاح مرتبط بالذكاء اللفظي والإبداع؛ ولذلك فهذا الاستثناء مناسب ومفهوم. والقدرة التنبوئية لهذه السمات -من الناحية الحسابية والاقتصادية- عالية للغاية؛ بل هي من بين أعلى القدرات ضمن أي شيء تم قياسه فعليًّا وفق الغايات الصارمة للعلوم الاجتماعية. ويمكن لمجموعة جيّدة من الاختبارات الشخصية/المعرفية أن تؤدّي إلى زيادة احتمال توظيف شخص أكثر كفاءة من المتوسّط من نسبة **50:50** إلى نسبة **15:85**. تلك هي الحقائق المؤيَّدة جيدًا بالأبحاث والدراسات في العلوم الاجتماعية (وهذا له دلالة أكبر مما تظنّ، لأن العلوم الاجتماعية هي تخصّصات أكثر فعالية مما يعتقد النقاد الذين يسخرون منها). وهكذا، نجد أن الحكومة لا تدعم الراديكالية المتحيّزة فحسب، بل إنها تدعم الحزبية والمذهبية أيضًا. إننا لا نُعلِّم أطفالنا أن الأرض مُسطحة؛ وبالمثل، يجب ألّا نُعلمهم نظريات قائمة على تنبوءات أيديولوجيات لا تستند إلى أدلّة حول طبيعة الرجال والنساء؛ أو طبيعة التسلسلات الهرمية.

من المعقول جدًّا أن نلاحظ (إذا ترك أتباع المذهب التفكيكي الأمور عند هذا الحد) أن العلم قد يكون متحيّزًا لمصالح السُّلطة، وأن نُحذِّر من ذلك

-أو نشير إلى أن الأدلة تكون في كثيرٍ من الأحيان ما يُقرِّره أصحاب السُّلطة-، بمن فيهم العلماء. فالعلماء، على أي حال، هم بشر أيضًا، والبشر يحبّون السُّلطة، تمامًا مثلما يحب الكركند السُّلطة؛ وتمامًا كما يحب أتباع المذهب التفكيكي أن يذيع صِيتُهم بسبب أفكارهم، ويناضلون للوصول إلى قمة هرمهم الأكاديمي. ولكن هذا لا يعني أن العلم -أو حتى المذهب التفكيكي- يتعلّق بالسُّلطة فحسب. لماذا نصدق شيئًا كهذا؟ ولماذا نُصِرّ عليه؟ ربما كان هذا هو الجواب: إذا كانت السُّلطة هي كل شيء، يصبح استخدام السلطة مُبرَّرًا تمامًا. ولا توجد قيود على هذا الاستخدام للسلطة، سواء أكانت أدلة، أو منهج، أو منطق، أو حتى ضرورة الاتساق. لا توجد قيود على أي شيء «خارج النص». وهذا يجعل الرأي -والقوة- واستخدام القوة جذّابًا للغاية في ظلّ هذه الظروف، تمامًا كما أن استخدامها لخدمة هذا الرأي يكون مؤكّدًا. ويصبح إصرار ما بعد الحداثة المجنون وغير المفهوم على أن جميع الفروق بين الجنسين -على سبيل المثال- هي اختلافات اجتماعية، أمرًا مفهومًا متى استوعبنا حتميته الأخلاقية؛ متى فهمنا تبريره الحاسم والنهائي للقوّة: يجب تغيير المجتمع، أو القضاء على التحيُّز، حتى تصبح جميع النتائج متساوية. ولكن حجر الأساس لموقف مذهب البنائية الاجتماعية هو الرغبة في تحقيق المساواة، وليس الاعتقاد بعدالة تغيير المجتمع. ونظرًا إلى وجوب القضاء على جميع

أوجُه عدم المساواة في النتائج (حيث إن عدم المساواة هو أصل كل الشرور)، يجب اعتبار جميع الفروق بين الجنسين قد نشأت اجتماعيًّا. وبغير ذلك، يصبح الدافع للمساواة متطرّفًا للغاية، ويكون هذا المذهب دعائيًّا بشكل صارخ؛ وهكذا يصير ترتيب المنطق معكوسًا بحيث يمكن إخفاء حقيقة الأيديولوجيا. ولا أحد يتطرّق مطلقًا إلى حقيقة أن مثل هذه الأقوال تؤدّي مباشرة إلى تضارب داخلي في الأيديولوجيا ذاتها. إن نوع الجنس شيء بنائي، لكن الفرد الذي يرغب في إجراء جراحة إعادة تحديد الجنس يجب أن يُعتبر بلا أدنى شك رجلًا محبوسًا في جسد امرأة (أو العكس). ولكن يتم تجاهُل حقيقة أن الأمرين لا يمكن أن يكونا صحيحين منطقيًا معًا في الوقت نفسه (أو يتم تبرير ذلك بواسطة ادّعاء آخر مروع من ادعاءات أنصار ما بعد الحداثة، وهو أن المنطق ذاته –وكذلك التقنيات العلمية– ليس سوى جزءٍ من التسلسل الهرمي الذكوري القمعي).

وبالطبع فإنه لا يمكن المساواة بين جميع النتائج. فأوّلًا، يجب قياس النتائج. إن مقارنة رواتب الأشخاص الذين يشغلون المنصب ذاته هي عملية بسيطة نسبيًّا (على الرغم من تعقيدها إلى حد كبير بسبب عوامل مثل تاريخ التوظيف؛ نظرًا إلى الفرق في الطلب على العمالة، على سبيل المثال، في

فترات زمنية مختلفة). ولكنْ، ثمة أبعادٌ أخرى للمقارنة يمكن القول إنها متساوية، مثل مدة شغل المنصب، ومعدّل الترقية، والتأثير الاجتماعي. ويؤدّي طرح حجة «الأجر المتساوي مقابل العمل المتساوي» إلى تعقيد مقارنة الرواتب على الفور إلى حدٍّ يفوق إمكانية عقدها عمليًّا، وذلك لسبب واحدٍ بسيطٍ هو: من الذي يُقرِّر ما هو العمل المتساوي؟

هذا غير ممكن. ولهذا السبب يوجد سوق العمل. والأسوأ من ذلك هو مشكلة المقارنة الجماعية: يجب أن تحصل النساء على دخلٍ مساوٍ لدخل الرجال. حسنًا. يجب أن تحصل النساء ذوات البشرة السمراء على دخل مساوٍ لدخل النساء ذوات البشرة البيضاء. حسنًا. هل ينبغي إذًا تعديل الراتب ليراعي جميع المعايير العرقية؟ على أي مستوًى من مستويات القرار؟ وما هي الفئات العرقية «الحقيقية»؟

لنأخذ مثالًا بيروقراطيًّا: تعترف معاهد الصحة الوطنية الأمريكية بالهنود الأمريكيين أو سكان ألاسكا الأصليين، والآسيويين، والسود، والإسبان، وسكان هاواي الأصليين أو سكان جزر المحيط الباسيفيكي، والبيض. ولكنْ هناك أكثر من خمسمائة قبيلة هندية أمريكية مختلفة. فكيف وبأي منطقٍ

يمكن إذًا اعتبار «الهنود الأمريكيين» فئة أساسية؟ يبلغ متوسط الدخل السنوي لأفراد قبائل أوساج 30 ألف دولار أمريكي سنويًا، في حين يبلغ دخل أفراد قبيلة توهونو أودهام 11 ألف دولار سنويًا؛ فهل هم متساوون في القمع؟ وماذا عن ذوي الإعاقة؟ يجب أن يحصل ذوو الإعاقة على الدخل نفسه الذي يحصل عليه غير المعوَّقين. حسنًا، يبدو هذا ظاهريًا مطلبًا نبيلًا، ورحيمًا، وعادلًا. ولكن من هو صاحب الإعاقة؟ هل الشخص الذي يعيش مع والد مصاب بألزهايمر يُعتبر معوَّقًا؟ وإذا لم يكن كذلك، فلِمَ لا؟ وماذا عن شخص ذي معدل ذكاء منخفض نسبيًا؟ وماذا عن شخص أقل جاذبية؟ وشخص مصاب بالسمنة؟ إن بعض الناس يعيشون حياةً مثقلة بمشكلات خارجة عن إرادتهم على نحو واضح، ولكن يندر أن نجد شخصًا لم يعانِ بالفعل من كارثة خطيرة واحدة على الأقل في أي وقتٍ من حياته؛ لا سيما إذا أدخلنا الأُسر كطرفٍ في المعادلة. ولم لا نفعل ذلك؟ إليكم المشكلة الأساسية: من الممكن تقسيم الهوية الجماعية إلى مستوى الأفراد. وينبغي التأكيد على هذه العبارة بشدّة. إن كل شخصٍ هو إنسان متفرّد لا مثيل له؛ ولا أعني بهذا أنه متفرّد في جوانب بسيطة؛ بل هو متفرّد في جوانب مهمة، وكبيرة، وذات مغزى. إن الانتماء إلى جماعة لا يمكن أن يحيط بكل هذا التنوع والتفرّد. وهذا قول فصل.

إن مفكّري ما بعد الحداثة/الماركسيين لم يناقشوا قَط هذه الأوجه المعقّدة. وبدلًا من ذلك، تعتمد مقاربتهم الأيديولوجية على تحديد نقطة حقيقية صادقة، وكأنها نجم الشمال(81)، ومن ثمَّ جعل كل شيء يدور في فلكها. إن الادِّعاء بأن جميع الفروق بين الجنسَين هي نتيجة التنشئة الاجتماعية هو ادعاء لا يمكن إثباته، ولا يمكن دحضه، إلى حدٍّ ما؛ حيث يمكن جعل الثقافة تؤثر على الجماعات أو الأفراد بقوّة بحيث تكون أي نتيجة تقريبًا ممكنة، لو أننا كنا على استعداد لدفع الثمن. فعلى سبيل المثال، نحن نعلم من الدراسات التي أُجريت على التوائم المتطابقة الذين يجري تبنّي أحدهم(190) أن الثقافة من شأنها أن تتسبّب في زيادةٍ بمقدار خمس عشرة نقطة (أو انحراف قياسي واحد) في معدل الذكاء (وهو تقريبًا الفارق بين الطالب العادي في مدرسة ثانوية والطالب العادي في كلية حكومية) وذلك على حساب زيادة بمقدار ثلاثة انحرافات قياسية في الثروة(191). ويعني هذا تقريبًا أن التوأمَين المتطابقَين اللذين يفترقان عند الميلاد بتبنّي أحدهما سيختلف معدل ذكائهما بمقدار خمس عشرة نقطة إذا نشأ الأول منهما في عائلة أفقر من 85 بالمائة من العائلات، ونشأ التوأم الثاني في عائلة أغنى من 95 بالمائة من العائلات. وقد ظهرت مؤخّرًا نتيجة مشابهة في ما يتعلق بالتعليم، بدلًا من الثروة(192). ونحن لا نعرف ما

الذي سيتكلّفه الأمر من حيث الثروة أو التعليم المتباين لإحداث تحوّل أكثر تطرّفًا.

إن ما تشير إليه مثل هذه الدراسات هو أننا نستطيع على الأرجح تقليل الاختلافات الفطرية بين الذكور والإناث، إذا كنا على استعدادٍ لممارسة ضغطٍ كافٍ. ولن يضمن هذا بأي حال من الأحوال أننا كنا نقوم بتحرير الأشخاص من أي من الجنسَين لاتخاذ قراراتهم بأنفسهم. لكن الاختيار لا مكان له في التصور الأيديولوجي: فإذا تَصرَّف الرجال والنساء طوعًا بحيث يحقّقون نتائج غير متكافئة بين الجنسَين، فلا بد أن هذه القرارات نفسها قد تحدّدت بواسطة التحيُّز الثقافي؛ وبِناءً على ذلك، يكون الجميع ضحيةً لغسيل الدماغ – حيثما وُجِدت الفروق بين الجنسَين– ويكون المنظرون النقديون الصارمون ملزمين أخلاقيًّا بوضع الأمور في نِصابها الصحيح. ويعني هذا أن الرجال الاسكندنافيين الذين يعتنقون مبدأ المساواة ولكنهم لا يحبّون كثيرًا العمل بمهنة التمريض يحتاجون إلى إعادة تأهيل. والأمر نفسه ينطبق من حيث المبدأ على النساء الاسكندنافيات غير المغرمات بالهندسة(193). وما الشكل الذي قد يبدو عليه إعادة التدريب؟ وأين توجد حدوده؟ عادة ما تصل مثل هذه الأشياء إلى حدود غير معقولة قبل أن

تتوقّف. ينبغي أن نكون قد تعلمنا هذا الدرس من الثورة الثقافية الصينية القاتلة التي أطلقها ماو.

الأولاد يحبّون البنات

لقد صارت فكرة أن العالم سوف يتحسَّن كثيرًا إذا قمنا بتنشئة الصبية مثل الفتيات مبدأً من مبادئ نظرية البنائية الاجتماعية. لقد افترض المفكّرون الذين وضعوا مثل هذه النظريات أولًا أن العدوانية هي سلوك مُكتسَب؛ وبالتالي يمكن ببساطة التوقّف عن تعليمه، وثانيًا (ولنأخذ مثالًا محدّدًا) أن «الصبية يجب تنشئتهم اجتماعيًّا بالطريقة نفسها التي تُنشَّأ بها الفتيات، وأنه يجب تشجيعهم على تطوير سمات إيجابية اجتماعيًّا، مثل الرِّقة، ومراعاة مشاعر الآخرين، والرعاية، والتعاون، وتقدير القيم الجمالية». وفي اعتقاد هؤلاء المفكّرين، لا يمكن تقليل العدوانية إلا إذا خضع المراهقون والبالغون الشبان من الذكور إلى «معايير السلوك ذاتها التي يتم تشجيع الفتيات عليها تقليديًّا عادة»(194). تحمل هذه الفكرة عددًا هائلًا من الأخطاء بحيث يصعب على المرء أن يعرف بأيها يبدأ. أولًا، إن العدوانية ليست مجرّد شيء مُكتسب؛ بل هي صفة فطرية متأصّلة منذ البداية. وثمة دوائر بيولوجية قديمة

-إن جاز هذا التعبير- تشكِّل الأساس الدفاعي والافتراسي للعدوانية(195). وتلك الدوائر أساسية ومتأصّلة لدرجة أنها لا تزال موجودة في ما يُعرف بالقطط منزوعة القشرة، وهي قطط نُزِعَ منها تمامًا الجزء الأكبر والأحدث تطورًا من أدمغتها؛ الذي يشكل نسبة كبيرة جدًا من الهيكل الكلي للدماغ. ولا يشير هذا فحسب إلى أن العدوانية فطرة متأصلة، بل يشير أيضًا إلى أنها نتيجة للنشاط الحادث في مناطق أساسية للغاية من الدماغ. وإذا شبَّهنا العقل بشجرة، فإن العدوانية (مع الجوع، والعطش، والرغبة الجنسية) هي جذعها.

وعلى نفس المنوال، يبدو أن مجموعةً فرعية من الأولاد البالغين من العمر عامين (نسبتها نحو 5 بالمائة) عدوانيون للغاية بالفطرة. هؤلاء الأولاد يأخذون ألعاب الأطفال الآخرين، ويركلون، ويعضّون، ويضربون. ومع ذلك، يُنشَّأ هؤلاء الأطفال تنشئة اجتماعية فعَّالة في سن الرابعة(196). لكن ذلك لا يُعزى إلى تشجيعهم على التصرُّف مثل الفتيات، بل إلى أنهم تعلموا بطريقة ما في مرحلةٍ مبكرة من طفولتهم أن يدمجوا نزعاتهم العدوانية في أشكالٍ سلوكية أكثر رقيًّا. إن العدوانية هي الدافع وراء الرغبة في التميّز، والقوة، والإنجاز، والمنافسة، والفوز؛ وكذلك أن يكون المرء فاضلًا بنجاح،

في جانب واحد على الأقل. ويُعتبر الإصرار هو الوجه الآخر الاجتماعي المثير للإعجاب للعدوانية. والأطفال العدوانيون الذين يَعجزون عن الارتقاء بفطرتهم العدوانية في نهاية مرحلة الطفولة محكومٌ عليهم بأن يكونوا مبغوضين؛ حيث إن عدوانيتهم البدائية لا تُسعفهم اجتماعيًّا في مراحلهم العمرية التالية. ولأن أقرانهم ينفرون منهم، فهم يفتقرون إلى فُرَص التنشئة الاجتماعية ويصبحون منبوذين. وهؤلاء هم الأشخاص الذين يبقى لديهم ميل كبير إلى السلوك المُعادي للمجتمع والإجرام في مرحلة المراهقة والبلوغ. ولكن هذا لا يعني أن الدوافع العدوانية تفتقر إلى المنفعة أو القيمة؛ فهي ضرورية من أجل حماية النفس، على أقل تقدير.

الرِّفق كنقيصة

الكثير من العميلات الإناث (وربما غالبيتهنّ) اللاتي أراهنّ أثناء ممارستي الطبية يعانين من مشاكل في عملهن وحياتهن العائلية، ليس لأنهن عدوانيات أكثر مما ينبغي، وإنما لأنهن لسن عدوانيات بما فيه الكفاية. يُطلِق المعالجون بأسلوب العلاج السلوكي المعرفي على علاج هؤلاء الأشخاص –

الذين يتميّزون عمومًا بالصفات الأنثوية مثل السلاسة (التهذيب والرفق)، والعُصابية (القلق والألم العاطفي)- «التدريب على الحسم»(**197**). إن النساء -والرجال أيضًا، ولكن في ما ندر- اللاتي لا يتمتّعن بقدرٍ كافٍ من العدوانية يفعلن أكثر مما ينبغي من أجل الآخرين؛ فهن يَمِلن إلى التعامل مع مَن حولهنّ على أنهم أطفال بائسون، ويَمِلن إلى السذاجة، ويفترضن أن التعاون يجب أن يكون هو أساس كل التعاملات الاجتماعية، ويتجنّبن الصراعات (وهو ما يعني أنهنّ يتجنّبن مواجهة المشكلات في علاقاتهنّ وكذلك في أماكن عملهنّ). إنهنّ يضحِّين باستمرار من أجل الآخرين. وربما يبدو هذا كله من الفضائل -وهو لا شك سلوك له فوائد اجتماعية معينة- ولكنه غالبًا ما يكون من جانب واحد على نحو غير مثمر أو مفيد. إن الأشخاص السلسين السهلي الانقياد يتقهقرون أمام الآخرين؛ وهو ما يجعلهم غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم. ولأنهم يفترضون أن الآخرين يفكِّرون مثلهم، نجدهم يتوقّعون -بدلًا من أن يتأكدوا- أن يُبادلهم الآخرون أفعالهم الكَيِّسة. وعندما لا يحدث هذا، لا يُعبِّرون عن أنفسهم أو يعترضون، ولا يطالبون بتقدير حُسن صنيعهم ولا يستطيعون ذلك؛ فيظهر الجانب المظلم من شخصياتهم، بسبب خنوعهم، ويملأهم الاستياء والغضب.

إنني أُدرِّب الأشخاص السلسين السهلي الانقياد للغاية على ملاحظة ظهور الشعور بالاستياء، وهو شعور مهمٌّ جدًّا، برغم أنه سامٌّ جدًا. وثمة سببان رئيسيان فحسب للاستياء: أن يستغلك الآخرون (أو أن تسمح للآخرين باستغلالك)، أو أن ترفض تَحمُّل المسؤولية والنضج على نحو متذمِّر. إذا كنت تشعر بالاستياء، فابحث عن الأسباب، وربما يجب أن تُناقِش الأمر مع شخصٍ تثق به. هل تشعر –على نحو غير ناضج– أنك تتعرّض لمعاملة سيئة؟ إذا كنت لا تعتقد ذلك –بعد تفكيرٍ عميقٍ صادقٍ– فربما كان أحدهم يستغلّك. وهذا يعني أنك تواجه في تلك الحالة التزامًا أخلاقيًا بالدفاع عن نفسك. هذا يعني مواجهة رئيسك، أو زوجك، أو زوجتك، أو ابنك، أو والديك. وربما يعني أنه عليك أن تجمع بعض الأدلة –على نحو استراتيجي– لكي تتمكّن حين تواجه ذلك الشخص من إعطائه أمثلة عديدة تدل على سوء سلوكه (ثلاثة أمثلة على الأقل)، لكي لا يستطيع التنصُّل بسهولة من اتهاماتك له. وقد يعني عدم التنازل عندما يُقدِّمون لك حججًا مضادة لاتهاماتك. ونادرًا ما لا يكون لدى الناس أكثر من أربع حجج جاهزة للردِّ. فإذا تمسّكت بموقفك، فإنهم يغضبون، أو يبكون، أو يهربون. ومن السهل اللجوء إلى البكاء في هذه المواقف لأنه يمكن استخدامه لاستثارة الشعور بالذنب لدى صاحب الاتهام لأنه –نظريًا– قد تَسبَّب في الألم وجرح المشاعر. ولكنهم غالبًا ما يذرفون الدموع غضبًا، واحمرار الوجه

إشارة جيدة على ذلك. فإذا استطعت تجاوز الردود الأربعة الأولى التي سيجيبك بها الشخص الذي تواجهه، وواجهت بسرعة المشاعر اللاحقة، فستحظى بانتباه الشخص المُستهدَف – وربما تحظى باحترامه أيضًا–. بيد أن هذا صراعٍ حقيقي، وهو ليس سهلًا ولا مبهجًا.

يجب أن تعرف جيِّدًا ما تريده من الموقف، وكن مستعدًّا للتعبير عن رغبتك بوضوح. ومن المُحبَّذ أن تُخبِر الشخص الذي تواجهه بما تريد منه أن يفعله بالضبط بدلًا مما كان يفعله أو ما يفعله في الوقت الفعلي. قد تقول لنفسك: «لو كان يحبّني، لأدرك وحده ما يجب أن يفعله». هذا هو صوت الاستياء النابع من الداخل. افترِض الجهل قبل أن تفترض البغض؛ فليس لدى أحد من البشر معرفة مباشرة برغباتك واحتياجاتك – ولا حتى أنت نفسك–. فلو أنك حاولت أنت نفسك معرفة ما تريده بالضبط، فستجد أن الأمر أصعب مما تتخيّل. والأرجح أن الشخص الذي يظلمك ويسيء معاملتك ليس أفضل منك معرفةً، ولا سيما في ما يتعلّق بك أنت. وبعد أن تُدرِك ما تريده بالضبط، أخبر الشخص الذي تواجهه مباشرةً بما تُفضِّله. واجعل طلبك بسيطًا ومعقولًا بقدر الإمكان؛ ولكن أكِّد على أن تحقيق

طلبك سيجعلك راضيًا. وبهذه الطريقة، تكون قد بدأت النقاش ولديك حلٌّ مقترحٌ، بدلًا من الجدل حول المشكلة فحسب.

إن الأشخاص الليِّنين، الرفقاء، المتعاطفين، الذين يَنفِرون من الصراع (وكل هذه السمات تكون مجتمعة معًا) يسمحون للآخرين باستغلالهم وإساءة معاملتهم؛ وهو ما يولّد لديهم الشعور بالمرارة. إنهم يُضحُّون من أجل الآخرين، على نحو مفرط أحيانًا، ولا يمكنهم فهم سبب عدم معاملتهم بالمثل. إن هؤلاء الأشخاص مذعِنون؛ وهذا يسلبهم استقلالهم. ومن الممكن أن يزداد الخطر المرتبط بذلك بسبب العُصابية الزائدة. الأشخاص الليّنون المنقادون يوافقون أي شخص يعرض اقتراحًا ما، بدلًا من أن يصرّوا -أحيانًا على الأقل- على فرض إرادتهم. لذا فإنهم يَضِلّون طريقهم، ويصبحون متردّدين وغير حاسمين، ومن السهل جدًّا السيطرة عليهم. فإذا كانوا - بالإضافة إلى ما سبق- يسهل إخافتهم وجرحهم، يكون دافعهم للاستقلالية والحسم أقلّ فأقلّ؛ لأن ذلك يُعرِّضهم للتهديد والخطر (على المدى القصير على الأقل). وهذا هو الطريق المؤدّي إلى اضطراب الشخصية التابعة، من منظور علم النفس(198). ويمكن اعتبار هذا نقيض اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع، أي مجموعة السمات التي تُميِّز

الجنوح في الطفولة والمراهقة والإجرام عند البلوغ. كان سيصبح من الرائع أن يكون نقيض المجرم هو القديس؛ ولكن الحقيقة غير ذلك. إن نقيض المجرم هو أمٌّ مصابة بعقدة أوديب، وهذا نوع من الجرائم.

الأمّ المصابة بعقدة أوديب هي التي تقول لطفلها: «إنني أعيش من أجلك أنت فقط». (وقد يلعب بعض الآباء هذا الدور أيضًا، لكن هذه حالة نادرة مقارنة بالأمّهات). تلك الأم هي التي تفعل كل شيء من أجل أطفالها؛ فهي تربط لهم أربطة الأحذية، وتُقطِّع لهم طعامهم، وتسمح لهم كثيرًا بالتسلّل إلى سريرهاليناموا بينها وبين شريكها. وتلك أيضًا طريقة جيّدة لتفادي الاهتمام الجنسي غير المرغوب فيه من جانبها من دون صراع.

الأمّ المصابة بعقدة أوديب تعقد ميثاقًا مع نفسها، وأطفالها، والشيطان نفسه. والاتفاق كالتالي: «قبل كل شيء، إياكم أن تتركوني. وفي المقابل، سأفعل أي شيءٍ من أجلكم. وعندما تكبرون من دون أن تنضجوا، ستصبحون بلا قيمة، وتشعرون بالمرارة، ولكنكم لن تُضطَرّوا لتحمُّل

المسؤولية، وكل خطأ ترتكبونه سيتحمَّل وزره آخرون». ويستطيع الأبناء قَبول هذا الأمر أو رفضه؛ حيث يكون لهم حرّية الاختيار في هذا.

الأم المصابة بعقدة أوديب تُشبِه الساحرة في قصة هانسل وجريتل (التي تحدّثنا عنها في القاعدة الخامسة). تحكي قصة الأطفال الشهيرة عن طفلَين يتزوّج أبوهما امرأة وتصبح زوجة أبيهما. تأمر الزوجة الجديدة زوجها بهجر أطفاله في الغابة بسبب الفقر والجوع؛ حيث تظنّ أن الطفلَين يأكلان أكثر مما ينبغي. ويُطيع الرجل زوجته ويأخذ الطفلين إلى الغابة ويتركهما ليواجها مصيرهما. وبينما يسير الطفلان وحيدَين جائعَين، يجدان معجزة. يجد الطفلان منزلًا، وليس كأي منزل، إنه منزل من الحلوى؛ منزل مصنوع من خبز الزنجبيل. وقد كان أي شخص لا يُعتبر رقيقًا، وحنونًا، ومتعاطفًا، ورفيقًا، ومتعاونًا أكثر مما ينبغي ليتشكّك في الأمر ويتساءل: «أليس هذا أجمل من أن يكون حقيقيًّا؟» ولكن الطفلَين كانا صغيرَين ويائسَين.

وكان داخلَ المنزل امرأةٌ عجوزٌ طيبة، تُنقِذ الأطفال البائسين، وتربِّت على رؤوسهم وتمسح أنوفهم، امرأة حنونة رفيقة ومستعدّة للتضحية بنفسها لتلبية

كل رغباتهم في غمضة عين. كانت تُطعِم الأطفال كلَّ ما يريدونه في أي وقتٍ يشاؤون، وليس عليهم أن يفعلوا أي شيء بالمقابل. ولكنّ تقديم هذا النوعِ من الرعاية يجعلها جائعة. لذا وضعت هانسل في قفصٍ لكي تُسمِّنه بفعاليةٍ أكبر. وكان الفتى يَخدعها بالتظاهر بأنه نحيف عن طريق تقديم عظمة قديمة عندما كانت تَتحسَّس ساقه لتختبر مدى ليونتها. وفي النهاية، ملّت الانتظار، فأوقدت الفرن استعدادًا لطهو فريستها والتهامها. أما جريتل، التي يبدو أنها لم تَنطلِ عليها أساليب العجوز ولم تخضع لها تمامًا، فقد كانت تنتظر اللحظة المناسبة، إلى أن حانت، ودفعت السيدة العجوز الطيّبة داخل الموقد. وبعد ذلك، هرب الطفلان والتقيا بأبيهما الذي ندم أشدَّ الندم على أعماله الشريرة.

في الأُسر التي يكون هذا حالها، تكون روحِ الطفل هي الهدف المنشود؛ وهي أول ما يتم القضاء عليه؛ فالمبالغة في الحماية تؤدّي إلى تدمير الروحِ التي تنشد التطور.

إن الساحرة في قصة هانسل وجريتل هي «الأم الرهيبة»؛ إنها الجانب المظلم من كل ما هو أنثوي رمزيًا. وبما أننا مفطورون على الحياة

الاجتماعية، فإننا نميل إلى النظر إلى العالم على أنه قصّة، وشخصياتها هي الأم، والأب، والطفل. إن الأنوثة -في مجملها- هي طبيعة مجهولة خارج حدود الثقافة، إنها البناء والهدم: إنها الحضن الحاني للأم وهي عنصر الزمن الهادم، إنها الأم البتول الجميلة والساحرة الشريرة التي تسكن الأدغال. وقد تم الخلط بين هذا الكيان وبين الواقع التاريخي الموضوعي في أواخر القرن التاسع عشر من قبل عالم الأنثروبولوجيا السويسري يوهان ياكوب باخوفن(82). فقد أشار باخوفن إلى أن البشرية قد مرَّت بسلسلةٍ من المراحل التطورية عبر تاريخها.

كانت المرحلة الأولى، على نحو تقريبي (بعد بداية فوضوية وأناركية إلى حدٍّ ما) تُسمى «حق الأمومة»(199) **Das Mutterrecht**؛ حيث كانت المرأة تتقلّد المناصب الرفيعة ذات السلطة والاحترام والتكريم في المجتمع، الذي كان يسود فيه تعدُّد الأزواج واختلاط الأنساب، وكانت مسألة تحديد الأُبوة والأنساب غائبةً تمامًا عن هذا المجتمع. أما المرحلة الثانية، ويُطلق عليها المرحلة «الديونيسية»(83) **Dionysian**، فقد كانت مرحلة تَحوُّلية قلب فيها الرجال الأسس النسائية الأصلية واستحوذوا على السُّلطة. أما المرحلة الثالثة، فهي المرحلة الأبولونية(84)

Apollonian، وهي المرحلة السائدة إلى يومنا هذا. وفي هذه المرحلة، تسود الذكوريةُ في المجتمع، وتكون كل امرأة تحت رجلٍ واحدٍ فقط. وقد أصبحت أفكار باخوفن مؤثّرة تأثيرًا عميقًا –في أوساط معينة– رغم عدم وجود أي أدلّة تاريخية تؤيّدها. فعلى سبيل المثال، زعمت عالمة الآثار، ماريا جيمبوتاس، زعمًا شهيرًا في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين مفاده أن أوروبا في العصر الحجري الحديث كانت تسودها ثقافة تهيمن فيها النساء وتُعبَد فيها آلهة من الإناث(200). وزعمت جيمبوتاس أن هذه الثقافة قد استُئصِلَت وقُمعت من قبل ثقافة هرمية حربية غازية، كانت هي التي وضَعت أساس المجتمع الحديث. وقد طرح مؤرِخ الفنون، ميرلين ستون، الزعم ذاته في كتابه « عندما كان الإله امرأة» **When God Was a Woman**(201). وأصبحت هذه السلسلة من الأفكار النموذجية/الميثولوجية هي معيار الحركة النسوية والدراسات الأمومية للحركات النسوية في سبعينيات القرن الماضي (وقد وصفت سينثيا إلِر –التي ألّفت كتابًا تنقد فيه هذه الأفكار، وهو كتاب « خرافة المجتمع الأمومي في عصور ما قبل التاريخ» **The Myth of Matriarchal Prehistory**– هذه الفكرة بأنها « كذبة غرضها تشريف المرأة»)(202).

وكان كارل يونج قد واجه أفكار باخوفن عن النظام الأمومي البدائي قبل بضعة عقود من وقتنا الراهن. إلا أن يونج سرعان ما أدرك أن التقدّم التطوّري الذي وصفه المفكر السويسري السابق يُمثِّل حقيقةً نفسية وليست تاريخية. لقد رأى في تفكير باخوفن نفس عمليات إسقاط الفانتازيا الخيالية على العالم الخارجي التي كانت قد أدَّت في الماضي إلى امتلاء الكون بالأبراج والآلهة. وقد عمل إريك نيومان –زميل يونج– على توسيع نطاق التحليل الذي قدَّمه زميله يونج من خلال كتابَي «أصل الوعي وتاريخه»(203) **The Origins and History of Consciousness**، و«الأم الكبرى»(204) **The Great Mother**. تتبَّع نيومان ظهور الوعي –وهو ذكوري من الناحية الرمزية– وقارنه بنظيره الأنثوي الرمزي، وهو أصل المادة (الأم، المصفوفة)، واضعًا نظرية فرويد عن عقدة أوديب الأبوية في إطار نموذج أصلي أوسع نطاقًا. ومن وجهة نظر نيومان ويونج، فإن الوعي –وهو مذكّر دائمًا، رمزيًا حتى لدى النساء– يناضل ليصعد إلى النور، كما أن تطوّره مؤلم ومثير للقلق، لأنه يحمل في طياته إدراك الضعف والموت. كذلك فإن الوعي يتعرّض لإغواء مستمر للعودة إلى التبعية واللاوعي، والتخلّص من عبئه الوجودي؛ ويساعده في هذه الرغبة المَرَضية أيُّ شيء يعارض التنوير، والتعبير، والعقلانية، وتقرير المصير، والقوة

والكفاءة – وأي شيء يُوفِّر حماية مفرطة ومن ثَمَّ يؤدي إلى إخماده وضموره–. وهذا الإفراط في الحماية هو كابوس فرويد الأوديبي الأُسري، وهو الكابوس الذي نعمل على تحويله بسرعة إلى سياسة اجتماعية.

إن «الأم الرهيبة» رمز قديم؛ فهي تظهر –على سبيل المثال– في شكل شخصيّة « تيامات»، في أقدم قصّة مكتوبة أمكننا استعادتها من التاريخ القديم، وهي أسطورة «إنوما إليش»(85) **Enuma Elish** البابلية التي تعود إلى بلاد ما بين النهرَين. وتيامات هي أم كل الأشياء: الآلهة والبشر على حد سواء. إنها المجهول والفوضى، والطبيعة التي تمنح الوجود لكل الأشكال. ولكنها أيضًا الإلهة التنّين الأنثى التي تتحرّك لتُدمِّر أبناءها بعد أن قتلوا والدهم بإهمال، وحاولوا العيش على جثته. الأم الرهيبة هي روح اللاوعي الغافل، التي تحاول إغواء روح الوعي والتنوير المناضلة على الدوام لكي تُعانِق العالم السُّفلي الذي يوفّر الحماية التي تشبه حماية الرَّحِم للجنين. إنها الفزع الذي يجتاح الشبان الذكور تجاه النساء الجميلات – اللاتي يُمثِّلن الطبيعة نفسها– المستعدّات دائمًا لرفضهم – بمودة– على أعمق مستوًى ممكن. ولا شيء يمكنه استثارة القلق، وتقويض الشجاعة،

وتعزيز مشاعر العدمية والكراهية أكثر من ذلك؛ ربما باستثناء الاحتضان الشديد الزائد عن الحد لأمٍّ مُحبّة حنون أكثر من اللازم.

تظهر شخصية الأم الرهيبة في الكثير من القصص الخيالية للأطفال، وفي العديد من قصص الكبار. تظهر الأم الرهيبة في قصّة «الجميلة النائمة» Sleeping Beauty في شخصية الملكة الشريرة؛ الطبيعة المظلمة ذاتها –وهي «مالفسنت» في نسخة ديزني من هذه القصة–. لم يدعُ الملك والملكة – والدا الأميرة «أورورا»– تلك القوة الظلامية إلى حفل تعميد ابنتهما الأميرة؛ وهكذا، كانا يحاولان حمايتها على نحو مفرط من الجانب المدمر والخطير من الواقع؛ حيث فضّلا أن تكبر من دون أن تزعجها هذه الأشياء. وماذا كانت مكافأتهما؟ عندما وصلت إلى سن البلوغ، كانت لا تزال غير واعية. وكانت الروح الذكورية، التي تتمثّل في الرجل – أميرها – الذي يمكنه إنقاذها – عن طريق انتزاعها من والديها – وإنقاذ وعيها وإفاقتها من غيبوبتها كذلك، محبوسةً في زنزانة ضيِّقة بفعل مكائد الجانب المظلم للأنوثة. وعندما هرب الأمير وضغط بشدةٍ على الملكة الشريرة، تحوّلت إلى «تنّين الفوضى» ذاته. وهزمتها الروح الذكورية الرمزية بواسطة الصدق والإيمان، ووجد الأمير أميرته، التي فتحت عينَيها إثرَ قُبلة منه.

وقد يعترض البعض (كما حدث بالفعل من خلال فيلم ديزني الحديث نسبيًا والذي يُعتبر فيلمًا دعائيًا إلى حدٍّ كبيرٍ) من منطلق أن المرأة لا تحتاج إلى رجلٍ ليُنقذها. وقد يكون هذا صحيحًا، وقد لا يكون كذلك. لعل المرأة التي تريد إنجاب طفل (أو أنجبت طفلًا) هي وحدها التي تحتاج إلى رجلٍ ليُنقذها؛ أو على الأقل يعولها ويساعدها. وعلى أي حال، فمن المؤكد أن المرأة تحتاج إلى إنقاذ وعيِها، وكما ذكرنا سابقًا، فإن الوعي مذكّر رمزيًا، وكان الأمر كذلك منذ بداية الزمان (في شكل النظام و«لوجوس»، وهو المبدأ الفاعل). قد يكون الأمير حبيبًا، ولكنه قد يكون أيضًا يقظة المرأة، ووضوحِ رؤيتها، واستقلاليتها العازمة الراسخة. وهذه الصفات أيضًا صفات ذكورية، من الناحيتين الواقعية والرمزية؛ حيث إن الرجال في الحقيقة أقل رقة وليونة ووداعة من النساء في المتوسط، كما أنهم أقل عُرضةً للقلق والألم العاطفي مقارنة بالنساء. ونعود للتأكيد مرةً أخرى على أن هذا: (1) ينطبق أكثر ما ينطبق على الشعوب الاسكندنافية التي خطت خطواتٍ واسعة في طريق المساواة بين الجنسين؛ وأن (2) الاختلافات ليست ضئيلة بموجب المعايير التي تقاس بها مثل هذه الأشياء.

جرى تصوير العلاقة بين الوعي والذكورة بشكلٍ رمزيٍّ أيضًا في فيلم شركة ديزني الذي حمل عنوان «حورية البحر» **The Little Mermaid**. البطلة آرييل تمتلئ أنوثة، لكنها تتمتّع بروحٍ استقلاليةٍ قويةٍ كذلك؛ ولهذا السبب كانت هي المُفضَّلة لدى أبيها، رغم أنها كانت أكثر من يسبب له المتاعب. ووالدها هو الملك ترايتون، وهو يُمثِّل المعلوم، والثقافة، والنظام (مع لمحة من الطغيان وفرض القواعد على نحو جائر). ولأن النظام دائمًا ما تقابله الفوضى، فالملك ترايتون له عدو؛ وهذا العدو هو أورسولا، وهي أخطبوط بمجسّات؛ حيّة، وقنديل بحر، و«هيدرا»(86). وهكذا فإن أورسولا تقع ضمن الفئة النمطية ذاتها التي تقع فيها الملكة/التنّين «مالفسنت» في فيلم «الجميلة النائمة» (أو الملكة العجوز الحقود في «سنو وايت» **Snow White**، أو «ليدي تريمين» في «سندريلا» **Cinderella**، أو «الملكة الحمراء» في «أليس في بلاد العجائب» **Alice in Wonderland**، أو «كرولا دي فيل» في «101 كلب مرقش» **101 Dalmatiens**، أو «الآنسة ميدوسا» في «المنقذون» **The Rescuers**، أو «الأم جروثيل» في فيلم «تانجليد» **Tangled**).

ترغب آرييل، حورية البحر، في أن تعيش قصة رومانسية مع الأمير إريك، الذي أنقذته من حادث تَحطُّم سفينته. خدعت أورسولا آرييل وأقنعتها بالتنازل لها عن صوتها مقابل أن تحظى بالعيش لمدة ثلاثة أيام كإنسانة من بني البشر. إلا أن أورسولا كانت تعلم تمام العلم أن آرييل لن تنجح من دون صوتها في إنشاء علاقة مع الأمير. ومن دون قدرتها على الحديث –أي من دون «لوجوس» أو «الكلمة»؛ من دون «كلمة الله»– ستظلّ تحت الماء، ومن دون وعيٍ، إلى الأبد.

وعندما تفشل آرييل في تكوين علاقة مع الأمير إريك، تسرق أورسولا روحها وتضعها مع مجموعتها الكبيرة من أشباه المخلوقات الواهنة، حيث تحميها أنوثتها. وعندما يظهر الملك ترايتون ليطالب بعودة ابنته، تقدّم له أورسولا عرضًا رهيبًا: أن يحلّ محلّ آرييل. وبالطبع كانت خطة أورسولا الخبيثة منذ البداية هي أن تُقصي الملك الحكيم (الذي يمثّل الجانب الخيّر من النظام الأبوي الذكوري، كما ذكرنا من قبل). ويُطلق سراح آرييل، ولكن ترايتون يُختزل حينئذٍ ليصبح مجرّد ظِلٍّ مثيرٍ للشفقة من ذاته القديمة. والأهم من ذلك أن أورسولا أصبحت تمتلك الرمح السحري ثلاثي الشعاب الذي كان يمتلكه ترايتون، والذي كان مصدر قوته شبه الإلهية.

ولحسن حظ الجميع (عدا أورسولا)، يعود الأمير إريك ليُشتِّت انتباه ملكة العالم السفلي الشريرة باستخدام رمح صيد الحيتان؛ مما يفسح المجال لآرييل للهجوم على أورسولا، التي ينمو حجمها نتيجة ذلك لتتحوَّل إلى وحشٍ ضخم؛ على طريقة مالفسنت، الملكة الشريرة في فيلم «الجميلة النائمة». وتقوم أورسولا بخلق عاصفة هوجاء ترتفع على أثرها السفن الحربية الغارقة من قاع المحيط. وبينما تستعد أورسولا لقتل آرييل، يستولي إريك على سفينة مُحطَّمة ويصدم أورسولا بقوةٍ بصاري مقدمة السفينة. عندئذٍ يتحرّر ترايتون وباقي الأرواح المأسورة، ويقرّر بعد أن استعاد روحه أن يُحوِّل ابنته إلى بشريّة لكي تظلّ مع الأمير إريك. وتخبرنا هذه القصص أنه على المرأة التي تريد أن تصبح كاملة أن تؤسّس علاقة مع الوعي الذكوري وتقف في مواجهة العالم الرهيب (الذي يظهر أساسًا في شكل الأم الحاضرة بقوّة). ويمكن أن يساعدها رجل حقيقي في تحقيق ذلك -إلى حدٍّ ما- ولكن من الأفضل للجميع ألا يكون هناك شخصٌ تابع بشكلٍ زائد عن الحد.

عندما كنت طفلًا، خرجت ذات يوم للعب لعبة الكرة الليّنة مع بعض الأصدقاء. كانت الفِرَق تتكوّن من مزيجٍ من الفتية والفتيات. كنا جميعًا في سنٍّ تجعل الفتيات والفتيان يبدأون في الاهتمام بعضهم ببعضٍ بشكلٍ غير مألوف. وكانت المكانة قد بدأت تصبح أكثر أهمية. كنت أنا وصديقي جاك على وشك أن نتشاجر حيث كنا نتدافع قرب المنصة التي سنقذف منها الكرة، في اللحظة التي كانت أمي تمرُّ فيها في المكان. كانت أمي تقف على مسافةٍ بعيدة، نحو ثلاثين ياردة، ولكنني رأيت فورًا من خلال التغيُّر في لغة جسدها أنها أدركت ما يحدث. وبالطبع رآها الأولاد الآخرون أيضًا. ومرّت أمي بجوارنا تمامًا. كنت أعلم أن هذا الأمر يَجرحها. كان جزء منها يشعر بالقلق من أن أعود إلى المنزل بأنف دامٍ وعينٍ مُزرَقّة. وكان من السهل عليها أن تصيح قائلةً: «أيها الأطفال، كفّوا عن ذلك!»؛ أو حتى أن تأتي إلينا وتتدخّل في الشجار. ولكنها لم تفعل ذلك. وبعد ذلك بسنوات، عندما كنت أمرُّ ببعض مشاكل المراهقة مع أبي، قالت لي أمي: «إذا كانت الأمور في المنزل مُريحة أكثر مما ينبغي، فإنك لن تتركه أبدًا».

كانت أمي سيدةً حنونًا رقيقة القلب. كانت متعاطفة، ومتعاونة، وودودة، وليّنة. كانت تسمح أحيانًا للآخرين بالضغط عليها. وعندما عادت إلى

عملها بعد فترةٍ من الانقطاع في المنزل مع أطفالها الصغار، كان من الصعب عليها أن تُواجِه الرجال، وكان هذا يجعلها تشعر بالاستياء -أحيانًا- وهو شيء كانت تشعر به أحيانًا أيضًا في علاقتها مع أبي، الذي كان عنيدًا ويُصِرّ على فعل ما يريد وقتما يريد. وبرغم كل ذلك، لم تكن أمّي مصابة بعقدة أوديب. لقد كانت تُشجِّع أطفالها على الاستقلالية، رغم أن ذلك كان صعبًا عليها. لكنها فعلت ما هو صواب رغم أنه كان يُسبِّب لها معاناةً عاطفية.

كن قويًّا أيّها الماكر

قضيت أحد مواسم الصيف في شبابي في براري وسط ساسكاتشوان حيث كنت أعمل ضمن طاقم خط السكك الحديدية. كان كلُّ رجلٍ في هذه المجموعة -التي لا تضم سوى رجال- يخضع لاختبار خلال الأسبوعين الأوَّلين من تعيينه. وكان أكثر العمال الآخرين من هنود قبائل كري الشمالية، هادئين معظم الوقت ولطفاء، إلى أن يشربوا الكثير من الخمر وتبدأ عضلات أكتافهم في البروز. كانوا من ذوي السوابق في السجون مثل جميع أقاربهم،

ولم يشعروا بالعار كثيرًا تجاه هذا الأمر؛ حيث كانوا يعتبرونه مجرّد جزءٍ آخر من نظام الرجل الأبيض. كما أن السجن كان دافئًا في الشتاء، والطعام وفير ومنتظم. وحدث أنني أقرضت أحد هؤلاء الهنود خمسين دولارًا، وبدلًا من أن يردَّ لي المال، عرض عليَّ زوجًا من سنادات الكتب المعدنية المأخوذة من بعض قطع حديد السكك الحديدية الموجودة في غرب كندا، وما زلت أحتفظ بهما حتى الآن. كان هذا أفضل من الخمسين دولارًا.

عندما يأتي رجل جديد للمرّة الأولى، كان العُمال الآخرون يُطلِقون عليه دومًا لقبًا مُهينًا. وعندما قُبلتُ كفردٍ في المجموعة، أطلقوا عليَّ اسم «هاودي دودي»(87) (وهو شيء لا أزال أشعر ببعض الحرج من الاعتراف به). وعندما سألت الشخص الذي أطلق عليَّ هذا الاسم عن سبب اختياره للاسم، رد قائلًا بمكرٍ وسخافة: «لأنك لا تُشبِهه». العُمّال الذكور غالبًا ما يتمتّعون بحسٍّ فكاهة ولكنه لاذع ومُهين (كما ذكرت في القاعدة التاسعة). وهم يَتحرَّشون بعضهم ببعض، لغرض التسلية من جهة، ولكي يُحرِزوا نقاطًا في معركة الهيمنة الدائمة الدائرة بينهم من جهةٍ أخرى، ولكن أيضًا لكي يَرَوا كيف سيتصرّف الشخص الآخر حين يتعرّض لضغط اجتماعي كبير. إنه جزء من عملية تقييم الشخصية، وكذلك بناء علاقات الصداقة. وعندما تسير

الأمور على ما يُرام (أي عندما يأخذ ويعطي الجميع بشكلٍ جيِّدٍ بقدر ما يستطيعون الأخذ والعطاء)، يكون هذا هو ما يجعل الرجال الذين يعملون لكسب العيش يتسامحون، بل وحتى يستمتعون، بوضع الأنابيب، والعمل على منصّات النفط، وتقطيع الأشجار للحصول على الحطب، والعمل في مطابخ المطاعم، والقيام بكل الأعمال الشاقّة والقذرة الأخرى التي تتطلّب جهدًا بدنيًّا كبيرًا، والأعمال الخطيرة التي لا يزال يقوم بها الرجال.

ولم يكد يمرُّ وقت طويل على بدء عملي مع مجموعة خط السكك الحديدية حتى تَغيَّر اسمي وأصبح «هاودي». كان هذا تحسّنًا كبيرًا؛ حيث كان لهذا الاسم وقع غربي ولم يكن من الواضح أنه مرتبط بتلك الدمية الغبية المسماة «هاودي دودي». ولكن الرجل الآخر الذي تم تعيينه لم يكن محظوظًا مثلي. كان يحمل علبة طعام جميلة الشكل، وكان هذا خطأً؛ حيث كانت الأكياس الورقية البُنّية هي التقليد الصحيح البسيط لحمل الطعام. كان هذا لطيفًا وجديدًا أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى العمال. وكان يبدو أن والدته اشترته (وملأته بالطعام) من أجله. ومن ثَمَّ، أصبح هذا اسمه «علبة الطعام». ولم يكن «علبة الطعام» يتمتّع بحسٍّ فكاهة جيّد؛ إذ كان يشتكي

من كل شيء، وكان أسلوبه سيئًا، كل شيء بالنسبة إليه هو خطأ الآخرين. كان سريع الغضب وردة فعله سريعة للغاية.

لم يستطع «علبة الطعام» قَبول اسمه أو الاستقرار في وظيفته. وتبنَّى هذا الشخص أسلوب الغضب المتعالي عندما يخاطبه أحد، وكان يَتصرَّف بنفس الطريقة في عمله. لم يكن التواجد معه شيئًا لطيفًا، ولم يكن يفهم الدعابات أو يتجاوب معها. وكان هذا خطأً قاتلًا في مجموعة العمل تلك. وبعد ثلاثة أيام من الاستمرار في أسلوبه الذي يفتقر إلى روحِ الدعابة والهالة المليئة بالاستعلاء المحيطة به، بدأ «علبة الطعام» يعاني من التحرُّش الذي يفوق مجرّد إطلاق لقب فكاهي عليه. كان يعمل في خط السكة الحديدية بطبعه الحاد وهو محاط بنحو سبعين رجلًا منتشرين على مساحة ربع ميل. فتظهر فجأة حصاة من حيث لا يدري أحدٌ وتطير في الهواء لترتطم بخوذته الحمراء. كانت الحصاة التي تصيب الخوذة المعدنية إصابة مباشرة يَصدر عنها صوتٌ، وكان هذا الصوت يُرضي جميع الذين يتابعون الموقف بهدوءٍ رضًى عميقًا. ولكن حتى هذا لم يُفلِح في تحسين حسِّ الدعابة لديه. ومن ثَمَّ، أصبحت الحصاة أكبر. كان «علبة الطعام» يشغل نفسه في شيءٍ وينسى أن ينتبه للأمر. وبعدها نسمع صوت «تن!» –حيث تصيبه حصاة

مُصوبة بعنايةٍ لترتطم بخوذته وينتج عنها موجة غضب عاصفة من دون أي جدوى-. وكان يسري بين الرجال على طول خط السكة الحديدية جوٌّ من التسلية الهادئة. وبعد عدة أيام على هذا المنوال، لم يصبح «علبة الطعام» أكثر حكمةً، وامتلأ رأسه بالكدمات، ثم اختفى.

حين يعمل الرجال معًا، يفرضون على بعضهم بعضًا نظامًا سلوكيًا: قم بعملك؛ لا تتكاسل في عملك؛ كن يقظًا ومنتبهًا؛ لا تتذمّر ولا تكن سريع الغضب؛ ساند أصدقاءك؛ لا تتملّق ولا تشي؛ لا تكن عبدًا للقواعد الغبية؛ لا تكن «رجلًا أنثويًّا» (بحسب التعبير الخالد لأرنولد شوارزنيجر)؛ ولا تكن عالة على أحد؛ قط. انتهى. والتحرُّش الذي يُعتبر جزءًا من القَبول في مجموعة من العمال هو مجرد اختبار: هل أنت صلبٌ، ومرح، وكفؤ، ويمكن الاعتماد عليك؟ فإن لم تكن كذلك، فلتذهب. الأمر بهذه البساطة. نحن لسنا بحاجةٍ إلى أن نشعر بالأسى من أجلك. لا نريد أن نتحمّل نرجسيتك، ولا نريد أن نقوم بعملك.

كان هناك إعلانٌ مشهور على شكل قصة رسوم هزلية نشره لاعب كمال الأجسام تشارلز أطلس قبل بضعة عقود. كان عنوان الإعلان: «الإهانة التي

جعلت ماك رجلًا»، وكان الإعلان موجودًا في كل كتب الرسوم الهزلية تقريبًا، ومعظم هذه الكتب كان يقرأها الفتيان. كان ماك، بطل القصّة، يجلس على ملاءة على الشاطئ وبجواره شابَّة حسناء. مرَّ بهما شخص متنمّر وركل بعض الرمال في وجهيهما؛ فاعترض ماك؛ فأمسكه المتنمّر الضخم الجثة من ذراعه وقال له: «اسمع، لولا أنك هزيلٌ وربما تجفُّ وتطير مع الهواء، لكنت حطمت وجهك». ورحل ذلك المتنمّر بعد ذلك؛ فقال ماك للفتاة: « سأنال من ذلك الضخم يومًا ما». فاتخذت الفتاة وضعية مستفزة وقالت له: «لا تزعج نفسك يا صغيري». وعاد ماك إلى منزله وهو يفكّر في جسده الهزيل واشترى برنامج أطلس التدريبي. وبعدها بفترة أصبح جسده قويًّا. وعندما ذهب إلى الشاطئ بعدها، لكم المتنمّر في أنفه؛ فتعلّقت الفتاة التي أصبحت معجبةً به الآن بذراعه وقالت: «أوه، ماك. لقد صرت رجلًا حقيقيًّا الآن».

هذا الإعلان شهير لسبب وجيه؛ فهو يلخّص علم النفس الجنسي البشري في سبع صور مباشرة. فالشاب الضعيف للغاية يشعر بالحرج والقلق، كما ينبغي له أن يكون. فما الجدوى منه؟ يزدريه الرجال الآخرون، والأسوأ من ذلك أن النساء الفاتنات تزدرينه أيضًا. وبدلًا من الغرق في البؤس والاستياء،

والهروب إلى القبو ولعب ألعاب الفيديو بملابسه الداخلية، غارقًا وسط أكياس شيتوس، يقدّم لنفسه ما يُطلِق عليه ألفريد أدلر -زميل فرويد الأكثر عملية- «الخيال التعويضي»(205). والهدف من هذا الخيال ليس هو تحقيق الرغبات الخيالية بقدر ما هو إضاءة طريقٍ حقيقي للمضي قدمًا. يراقب ماك بِنيَته الضعيفة الهزيلة التي تُشبه الفزَّاعة، ويقرر أنه ينبغي عليه امتلاك جسد أقوى. والأهم من ذلك أنه يضع خطته موضع التنفيذ. لقد تَعرَّف على جزءٍ من نفسه من شأنه أن يتجاوز حالته الراهنة ويصبح بطل مغامرته. ومن ثمَّ يعود إلى الشاطئ ويلكمَ المتنمِّر في أنفه. وهكذا يفوز ماك، وتفوز صديقته، ويفوز الجميع.

إن حقيقة أن الرجال لا يتحمّلون فكرة الاتكال في ما بين بعضهم البعض هي أمر يَصبُّ في مصلحة النساء بوضوحٍ. ويرجع أحد أسباب أن الكثيرات من النساء العاملات لا يتزوّجن، في عصرنا الحالي، كما ألمحنا من قبل، إلى أن المرأة لا تريد أن تعتني برجلٍ يكافح ليجد وظيفة، إلى جانب رعاية أطفالها. وهذا عادل بما يكفي؛ فالمرأة ينبغي عليها الاعتناء بأطفالها -رغم أن هذا ليس كل ما ينبغي عليها. وينبغي على الرجل أن يعتني بالمرأة والأطفال- رغم أن هذا ليس كل ما ينبغي عليه. ولكن لا ينبغي على المرأة

أن تعتني بالرجل؛ لأنها يجب أن تعتني بالأطفال، ولا ينبغي أن يكون الرجل طفلًا. وهذا يعني أنه يجب ألا يتّكل على الآخرين. وهذا أحد الأسباب التي تجعل الرجال لا يتحمّلون الرجال الذين يتّكلون على الآخرين. ودعونا لا ننسى: يمكن للنساء السيئات أن تربين أبناءً اتكاليين، ويمكن أن تعلنّ، بل حتى تتزوّجن من رجال اتّكاليين، ولكن النساء اليقظات الواعيات يرغبن في شركاء يقظين واعين.

ولهذا السبب يُعد نيلسون مونتز في مسلسل الرسوم المتحركة « عائلة سيمبسون» شخصية ضرورية وسط الجماعة الاجتماعية الصغيرة المحيطة بـ«بارت»، ابن هومر (الشخصية الرئيسية في المسلسل)، الذي يظهر بشخصيّة نقيض البطل. فمن دون نيلسون، ملك المتنمّرين، كان سيجتاح المدرسة بسرعة طلاب مستاؤون غاضبون مثل ميلهاوس، وأذكياء نرجسيون مثل مارتن برينس، وأطفال ألمان لَيِّنون يأكلون الشوكولاتة طوال الوقت، وأصحاب تصرّفات طفولية مثل رالف ويجوم. مونتز طفل يُقوِّم سلوك الآخرين، وهو قويٌّ ومستقلٌّ، ويستخدم قدراته الخاصة في الازدراء ليُحدِّد السلوكات غير الناضجة والمثيرة للشفقة التي لا يمكن ببساطةٍ القبول بها. وجزء من عبقرية كُتَّاب هذا المسلسل هو رفضهم أن ينسجوا شخصية

نيلسون كمتنمّر شرير. فنيلسون الذي هجره والده الوضيع، وتجاهلته – لحسن الحظ– والدته العاهرة، يعيش حياة جيّدة، مع أخذ كل الظروف في الاعتبار. بل إنه يثير اهتمامًا رومانسيًا لدى ليزا التقدّمية، على نحو يُشعرها بالفزع والارتباك (للأسباب ذاتها التي تجعل فيلم « خمسون درجة من جراي» ظاهرة عالمية).

عندما تكون الليونة والمُسالمة هي وحدها الفضائل المقبولة على نحو واعٍ، تبدأ القسوة والسيطرة في ممارسة سحرها اللاوعي. ويعني هذا جزئيًّا في ما يتعلّق بالمستقبل أنه إذا تم الضغط على الرجال أكثر مما ينبغي ليصبحوا أنثويين، فسيصبحون أكثر اهتمامًا بالأيديولوجيات الفاشية العنيفة. ويمثل فيلم « نادي القتال» **Fight Club** – وهو أشهر فيلمٍ فاشيٍّ أنتجته هوليوود في السنوات الأخيرة، ربما باستثناء سلسلة أفلام « الرجل الحديدي» **Iron Man**– أفضل مثال على هذا الافتتان الحتمي. والتأييد الشعبوي الجارف الذي حازه دونالد ترامب في الولايات المتحدة هو جزء من العملية ذاتها، كما هو الحال (على نحو أكثر شؤمًا) مع الصعود الأخير للأحزاب اليمينية المتطرّفة حتى في البلاد المعتدلة الليبرالية، مثل هولندا، والسويد، والنرويج.

يجب على الرجال أن يَتحلَّوا بالقوة. الرجال يحتاجون لذلك، والنساء يطالبن بذلك، رغم أنهم قد لا يوافقون على الأسلوب القاسي المفعم بالازدراء الذي يُعتبر جزءًا لا يتجزأ من العملية العسيرة اجتماعيًّا التي تُشجِّع القوة وتفرضها. بعض النساء لا يردن خسارة أبنائهنّ الذكور، لذا يتمسّكن بهم إلى الأبد. وبعض النساء لا يُحبِبن الرجال، ويُفضِّلن شريكًا خانعًا، وإن كان بلا فائدة؛ فهذا أيضًا يتيح لهنَّ مجالًا كبيرًا للتحسُّر على أنفسهنّ. فيجب عدم التقليل من شأن اللذات التي تأتي من الشعور بالشفقة على الذات.

إن الرجال يَتحلَّون بالقوة من خلال الضغط على أنفسهم والضغط على بعضهم بعضًا. عندما كنت مراهقًا، كان الفتيان أكثر عرضة بكثير للتعرّض لحوادث السيارات مقارنة بالفتيات (ولا يزال الحال كذلك). والسبب في ذلك أنهم كانوا أكثر ميلًا للتواجد خارج منازلهم ليلًا يدورون في حلقات بسياراتهم في مواقف السيارات التي يكسوها الجليد. كما أنهم كانوا أكثر ميلًا للتسابق وقيادة سياراتهم على التلال غير الممهّدة الممتدة بجوار النهر القريب والتي ترتفع مئات الأقدام فوق سطح الأرض المستوية. وهم أكثر ميلًا للتشاجر البدني، والهروب من الفصول الدراسية، والصياح بالمدرّسين،

وترك المدرسة لأنهم تعبوا من رفع أيديهم استئذانًا للذهاب إلى الحمام في حين أنهم يرون أنفسهم كبارًا وأقوياء بما يكفي ليعملوا على منصات البترول. كانوا يتسابقون بدراجاتهم النارية على البحيرات المتجمدة في الشتاء. ومثل المتزلجين على الألواح، ومتسلّقي رافعات البناء، وممارسي رياضة الجري الحُر، كانوا يقومون بأشياء خطيرة، في محاولة لأن يشعروا بأن لهم فائدة. وعند الإفراط في هذه العملية، ينجرف الفتية (والرجال) نحو السلوك المعادي للمجتمع، الذي يسود بين الذكور أكثر بكثير منه بين الإناث(206). وهذا لا يعني أن كل مظهر من مظاهر الجرأة والشجاعة عملٌ إجرامي.

عندما كان الفتيان يدورون في حلقات بسياراتهم، كانوا يختبرون حدود سياراتهم وقدراتهم كسائقين، وقدرتهم على التحكّم في موقف خارجِ عن السيطرة. وعندما كانوا يصيحون في وجوه المدرّسين، كانوا يقاومون السُّلطة ليروا ما إذا كانت هناك سُلطة حقًّا أم لا؛ أي من النوعِ الذي يمكن الاعتماد عليه -من حيث المبدأ- في الأزمات. وعندما كانوا يتركون المدرسة، كانوا يريدون العمل في منصّات البترول الشاقّة في درجة حرارة أربعين تحت

الصفر. لم يكن الضَّعف هو ما دفع الكثيرين لترك قاعات الدراسة؛ حيث كان ينتظرهم مستقبل أفضل، بل كانت القوة هي ما دفعهم إلى ذلك.

إذا كانت النساء تتمتّعن بالصّحّة النفسية، فإنهن يُرِدن رجالًا لا أولادًا. إنهن يُرِدن رجلًا ينافسنه؛ ويتشاجرن معه. وإن كنّ قويات، فإنهن يُرِدن رجلًا أقوى. وإن كنّ ذكيات، فإنهن يُرِدن رجلًا أذكى. إنهن يبحثن عن رجل يفيدهنّ بشيءٍ لا يستطعن تقديمه لأنفسهن. وهذا يجعل من الصعب على النساء القويات، الذكيّات، الفاتنات أن يجدن شريكًا؛ فليس هناك الكثير من الرجال الذين يمكنهم التفوُّق عليهنّ بحيث يصبحون مرغوبًا فيهم (الرجال الأعلى «من حيث الدخل، والتعليم، والثقة بالنفس، والذكاء، والسيطرة، والوضع الاجتماعي»، بحسب تعبير إحدى الدراسات) (207). لذا فإن الروح التي تعوق سبيل الفتية بينما يحاولون أن يصبحوا رجالًا هي عدوٌّ للمرأة كما هي عدوٌّ للرجل. وهذه الروح ستعترض بالقوة ذاتها عندما تحاول الفتيات الصغيرات الوقوف على أقدامهنّ بأنفسهنّ («لا يمكنكنّ فعل ذلك، فهذا خطير للغاية»). إنها روح تنكر الوعي، وهي ضد الطبيعة البشرية، وترغب في الفشل، وهي غيورة، وغاضبة، وهدَّامة. وما من إنسان يناصر البشرية حقًّا يمكن أن يؤيّد هذه الروح. ما من إنسان يطمح في الارتقاء

سيسمح لنفسه (أو لنفسها) بأن تتملّكه هذه الروح. وإذا كنت تظنّ بأن الرجال الأقوياء خطرون، فانتظر حتى ترى ما يمكن للرجال الضعفاء فعله.

اتركوا الأطفال وشأنهم وهم يتزلّجون على الألواح.

القاعدة 12

داعب قطة حين تصادف واحدةً في الشارعِ

ولا بأس بمداعبة الكلاب أيضًا

أبدأ هذا الفصل بالتصريح مباشرة بأنني أملك كلبًا، وهو كلب إسكيمو أمريكي(88)، أحد أنواع عديدة من فصيلة سبيتز(89) الأساسية. كانت هذه الفصيلة تعرف باسم كلاب «سبيتز الألمانية» إلى أن تسبّبت الحرب العالمية الأولى في منع الإقرار بأن أي شيء جيد، مثل تلك الكلاب، يمكن أن يأتي من ألمانيا. وتُعتبر كلاب الإسكيمو الأمريكية من أجمل الكلاب، وهي كلاب لها وجه مدبّب كلاسيكي شبيه بوجه الذئب، وآذان منتصبة، ومعطف فرو طويل وسميك، وذيل معقوص. وهي كلاب ذكيّة جدًا أيضًا. كلبنا –واسمه «سيكو» (وهو اسم يعني «الجليد» في إحدى لغات شعب الإنويت(90)، وفقًا لما أخبرتني به ابنتي، التي أطلقت عليه الاسم)– يتعلّم الحيل بسرعة كبيرة، ولا يزال بإمكانه تعلّمها حتى الآن بعد أن أصبح كبيرًا في السن. لقد علّمته حيلة جديدة مؤخرًا عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره. كان قد تعلّم من قبل كيف يصافح، وكيف يوازن شيئًا ما على أنفه من دون

أن يسقط. وقد علّمته أن يفعل كلا الأمرين في وقت واحد. لكن لا يبدو أنه يستمتع بالأمر.

اشترينا سيكو لابنتي ميكيلا عندما كانت في العاشرة من عمرها. كان جروًا لطيفًا إلى أبعد حد، ذا أنف صغير وأذنين دقيقتين، ووجه مستدير، وعينين كبيرتين، وحركات خرقاء؛ وهذه السمات تجتذب تلقائيًا الرعاية والاهتمام من جانب البشر، ذكورًا وإناثًا على حد سواء(208). وبالطبع كان هذا هو ما حدث مع ميكيلا، التي كانت مهتمة أيضًا برعاية سحالي التنانين الملتحية، والوزغات، وثعابين الكرة، والحرباءات، وسحالي الإجوانا، وأرنب فلمنكي عملاق وزنه عشرين رطلًا وطوله اثنين وثلاثين بوصة يُدعى «جورج»، وكان يقضم كل شيء في المنزل ويهرب كثيرًا (على نحو كان يثير ذعر الأشخاص الذين كانوا يبحثون بعد ذلك عن الأرنب الضخم الغريب في حدائق منازلهم الصغيرة في وسط المدينة). وكانت ميكيلا تمتلك كل هذه الحيوانات لأنها كانت تعاني من حساسية تجاه الحيوانات الأليفة الأخرى المألوفة أكثر؛ باستثناء الكلب سيكو، الذي كان يتمتّع بميزة إضافية تتمثّل في كونه أقل إثارة لاستجابات الحساسية.

كان لدى سيكو خمسين اسمًا (كنا نعدّها عدًا)، وتباينت الأسماء بشدة في درجاتها العاطفية، وكانت تعكس كلًا من المودةّ التي نُكنها له، وخيبة أملنا بين الحين والآخر تجاه بعض عاداته السيئة. ربما كان اسم «الكلب القذر» **Scumdog** هو المفضّل لديَّ، لكنني أيضًا كنت أدعوه «راتهوند» **Rathound**، و«كرة الفراء» **Furball**، و«الكلب الراضع» **Suck-dog**، بتقدير كبير إلى حد ما. وكان طفلانا يدعوانه «المتسلل» **Sneak**، و«المزقزق» **Squeak** في غالب الأحيان (مع إضافة حرف **o** إلى نهاية الاسم أحيانًا ليصبح «سنيكو» **Sneako** و«سكويكو» **Squeako**)، لكنهما كانا يستخدمان أيضًا أسماء «سنوكي» **Snooky**، و«أبدوج» **Updog**، و«سنورفالوبوجوس» **Snorfalopogus** (على الرغم من إقرارنا بفظاعة الاسم). واسم «سنوربس» **Snorbs** هو الاسم المفضل حاليًا الذي تناديه به ابنتي ميكيلا؛ وهي تستخدم هذا الاسم لتحية الكلب بعد غيابه لفترة طويلة. ومن أجل إحداث الأثر المطلوب بالكامل، يجب نطق الاسم بصوت مرتفع يشير إلى الشعور بالدهشة.

كذلك فإن سيكو لديه حساب خاص على تطبيق إنستجرام، وهو: JudgementalSikko#.

أنا أصف كلبي بدلًا من الكتابة مباشرة عن القطط لأنني لا أرغب بالتورّط في متاعب مع ظاهرة تُعرف باسم « التماهي مع المجموعة الأدنى» minimal group identification، وهي ظاهرة اكتشفها عالم النفس الاجتماعي هنري تاجفيل(91)،(209). كان تاجفيل يجلب الأشخاص الخاضعين للبحث إلى مختبره ويجعلهم يجلسون أمام شاشة يومض عليها عددًا من النقاط. وكان يطلب منهم تقدير كمية النقاط، ثم يقوم بتقسيم المشاركين إلى مجموعة من المبالغين في تقديراتهم في مقابل مجموعة من المهوّنين في تقديراتهم، إلى جانب تصنيفهم إلى مجموعة دقيقة في مقابل مجموعة غير دقيقة في التقديرات، ثم كان يضعهم في مجموعات تتوافق مع أدائهم. ثم كان يطلب منهم توزيع المبلغ المالي على أعضاء كافة المجموعات.

وجد تاجفيل أن المشاركين في التجربة أظهروا تفضيلًا ملحوظًا لأعضاء المجموعة التي ينتمون إليها، رافضين استراتيجية توزيعٍ متساوٍ، ومفضلين مكافأة أولئك الذين أصبحوا يتماهون معهم الآن. وقد قام باحثون آخرون بتوزيع أشخاص على مجموعات مختلفة مستخدمين استراتيجيات أكثر تعسّفًا، مثل الاعتماد على الحظ بواسطة عملة معدنية. لم تكن طريقة التوزيع ذات أهمية، حتى عندما أُخبرَ المشاركين في التجارب بالطريقة التي شُكلت المجموعات بها؛ فقد ظل المشاركون يفضلون زملائهم في المجموعة التي كانوا ينتمون إليها هم شخصيًا. أظهرت دراسات تاجفيل شيئين: أولًا، إن البشر اجتماعيون؛ وثانيًا، إن البشر غير اجتماعيين. البشر اجتماعيون لأنهم يحبّون أعضاء المجموعات التي ينتمون إليها. وغير اجتماعيين لأنهم لا يحبون أفراد المجموعات الأخرى. أما الأسباب الدقيقة التي تجعل الحال كذلك فقد كانت موضوع جدل مستمر. وأعتقد بأن هذا قد يكون حلًّا لمشكلة معقّدة. تنشأ مثل هذه المشكلات، على سبيل المثال، عندما يكون هناك عاملان مهمّان أو أكثر، لكن لا يمكن تعظيم أي منهما من دون إنقاص العوامل الأخرى. فعلى سبيل المثال، تظهر مشكلة من هذا النوع بسبب التعارض بين التعاون والتنافس، حيث إن كلًا منهما مرغوب فيه اجتماعيًا ونفسيًا؛ فالتعاون مرغوب فيه من أجل السلامة، والأمان، والرفقة، والتنافس مرغوب فيه من أجل النمو الشخصي والمكانة الاجتماعية. ولكن

إذا كانت مجموعة معينة من الناس صغيرة جدًا، فإنها لا تملك أي قوة أو مكانة، ولا يمكنها الوقوف في وجه المجموعات الأخرى. ونتيجة لذلك، فإنّ كون المرء أحد أفراد هذه الجماعة ليس مفيدًا. وإذا كانت المجموعة كبيرة جدًّا، فإن احتمالات الصعود إلى القمة أو بالقرب منها تتضاءل؛ لذا، يصبح من الصعب جدًّا التقدّم فيها. ربما كان البشر يتماهون مع المجموعات اعتمادًا على الحظ لأنهم يرغبون في قرارة أنفسهم في تنظيم وحماية أنفسهم، والاحتفاظ في الوقت نفسه باحتمال معقول للارتقاء في التسلسل الهرمي للهيمنة. ومن ثمَّ، يفضِّلون المجموعة التي ينتمون إليها شخصيًا، لأن تفضيل تلك المجموعة يساعدها على النجاح والازدهار؛ فارتقاء شيء فاشل ليس باستراتيجية مفيدة.

وعلى أي حال، فبسبب اكتشاف تاجفيل هذا لشروط الحد الأدنى، بدأت هذا الفصل المتعلّق بالقطط بوصف كلبي. ولو لم أفعل هذا، فقد كان مجرّد ذكر القطط في العنوان سيكون كافيًا لقلب العديد من محبي الكلاب ضدي، لمجرد أنني لم أقم بضم الكلاب في مجموعة الكائنات التي ينبغي تدليلها ومداعبتها. وبما أنني أحب الكلاب أيضًا، فلم يكن ثمة سبب يجعلني أعاني من هذا المصير. لذا، إذا كنت تحب مداعبة الكلاب حين

تلتقيها في الشارع، فلا داعي لأن تكرهني. وبدلًا من ذلك، ليطمئن قلبك إلى أن هذا أيضًا نشاط أؤيده بلا قيد أو شرط. وأود أيضًا أن أعتذر لجميع محبّي القطط الذين يشعرون الآن بأنهم تعرّضوا للتجاهل لأنهم كانوا يأملون في قراءة قصة عن القطط، ولكنهم اضطرّوا لقراءة كل ما سبق عن الكلاب. ولعلّ هؤلاء القرّاء يرضون بأن أطمئنهم أيضًا إلى أن القطط توضح المغزى الذي أردته على نحو أفضل، وإلى أنني سأتحدّث عنها في نهاية المطاف. ولكن دعونا نناقش أولًا بعض الأشياء الأخرى.

المعاناة وقيود الكينونة

فكرة أن الحياة معاناة هي عقيدة –بشكل أو بآخر– في جميع الديانات الرئيسية تقريبًا في عالمنا، كما أوضحنا من قبل بالفعل. الديانة البوذية تنصّ على ذلك بشكلٍ واضحٍ ومباشرٍ. ويوضح المسيحيون ذلك من خلال الصليب. ويُحيي اليهود ذكرى المعاناة التي تحمّلوها على مر القرون. ويسود هذا المنطق على نطاق واسع في الديانات الكبرى لأن البشر يتّسمون بالضعف والهشاشة بطبيعتهم. فنحن جميعًا عرضة للأذى، وحتى الكسر –

عاطفيًا وجسديًا- ونحن جميعًا عرضة للشيخوخة والموت. هذه مجموعة من الحقائق الكئيبة المؤسفة، ومن المنطقي أن نتساءل كيف يمكننا أن نتوقّع الازدهار وتحقيق السعادة (وأحيانًا حتى مجرد الرغبة في الوجود) في ظل هذه الظروف.

كنت أتحدّث مؤخّرًا مع عميلة كان زوجها يخوض معركة ناجحة مع السرطان، لفترة مؤلمة استمرت خمس سنوات. وقد صمدا واحتملا بشجاعة كبيرة وعلى نحو يثير الدهشة والإعجاب خلال هذه الفترة. إلا أن زوجها سقط فريسة لمَيل ذلك المرض الرهيب إلى الانتشار في أعضاء الجسم، وهكذا، قيل له إنه لم يتبق له في الحياة سوى زمن محدود للغاية. وربما كان من أصعب الأمور على الإطلاق أن يسمع المرء خبرًا فظيعًا كهذا، بينما لا يزال في مرحلة ما بعد الاستشفاء التي يكون فيها هشًا ضعيفًا، وبعد التعامل بنجاح مع خبر سيئ سابق. وتبدو المأساة في مثل هذا الوقت ظالمة إلى أبعد حد. إنها مأساة من النوع الذي يجعلك تفقد الثقة في الأمل ذاته؛ وغالبًا ما تكون كافية لأن تسبب صدمة حقيقية. ناقشت أنا وعميلتي عددًا من القضايا، بعضها فلسفي وتجريدي، والبعض الآخر أكثر واقعية، وطرحت

عليها بعض الأفكار التي كنت قد بلورتها بشأن أسباب وعلل الضعف الإنساني.

حين كان ابني جوليان في الثالثة من عمره، كان لطيفًا وجذّابًا للغاية. والآن، بعد أن أصبح في الثالثة والعشرين من عمره، لا يزال لطيفًا وجذابًا للغاية (وهي مجاملة أنا على يقين من أنها ستروق له كثيرًا حين يقرأها). وبسبب جوليان، فكّرت كثيرًا في هشاشة الأطفال الصغار؛ فطفل في الثالثة من عمره من السهل جدًا أن يتعرّض للأذى. يمكن أن يعضَّه كلب؛ ويمكن أن تصدمه سيارة؛ ويمكن أن يدفعه الأطفال الأشقياء ويسقطونه أرضًا؛ ويمكن أن يُصاب بالمرض (ويصاب به أحيانًا بالفعل). كان جوليان عرضة لنوبات حمّى شديدة مع الهذيان المصاحب لها أحيانًا. وفي بعض الأحيان، كنت أضطرّ إلى اصطحابه إلى الحمام لتبريد جسمه حين كان يهَلوِس، أو حتى حين كان يتشاجر معي أثناء إصابته بالحمى. إن طفلًا مريضًا هو أحد أكثر الأشياء التي تجعل من الصعب علينا قبول القيود الأساسية التي تكبّل الوجود الإنساني.

وكانت لدى ابنتي ميكيلا – وهي أكبر من جوليان بسنة واحدة وبضعة أشهر– بعض المتاعب الصحيّة أيضًا؛ فعندما كانت في الثانية من عمرها، كنت أحملها على كتفي وأتجوّل بها في الأرجاء. يُحبّ الأطفال ذلك. إلا أنني حين كنت أضعها على الأرض بعد ذلك، كانت تجلس وتبكي. لذا، توقّفت عن فعل ذلك. وبدا أن هذه هي نهاية المشكلة؛ مع استثناء بسيط في ما يبدو. أخبرتني زوجتي، تامي، أن ثمة خطبًا ما في مشية ميكيلا. لم أستطع رؤية ما تتحدّث عنه. وظنّت تامي أن الأمر قد يكون له علاقة بردّ فعلها حين كنت أحملها على كتفي.

كانت ميكيلا طفلة مرحة ويسهل جدًا الانسجام معها. في يوم من الأيام، حين كان عمرها نحو أربعة عشر شهرًا، وكنا نعيش في بوسطن، اصطحبتها مع تامي وجدَّيها إلى خليج كيب كود. وعندما وصلنا إلى هناك، نزلت تامي وأمها وأبوها للتمشية، وتركوني مع ميكيلا في السيارة. كنا جالسين في المقعد الأمامي. كانت مستلقية تحت أشعة الشمس تتمتم بكلمات غير واضحة. انحنيت لسماع ما تقوله.

كانت تقول: «سعيدة، سعيدة، سعيدة، سعيدة، سعيدة».

كانت هذه طبيعة ابنتي.

وعندما بلغت ميكيلا السادسة من عمرها، بدأت تصبح حزينة وكئيبة. كان من الصعب جعلها تنهض من فراشها في الصباح، وكانت ترتدي ملابسها ببطء شديد، وحين كنا نتمشّى في مكان ما، كانت تتخلّف عنا. كانت تشكو من آلام في قدميها ومن عدم ملاءمة الحذاء. اشترينا لها عشرة أحذية مختلفة، لكن ذلك لم يُجدِ نفعًا. وفي هذه الأيام، التحقت بالمدرسة، وكانت ترفع رأسها وتنتبه، وتتصرف كما ينبغي لها؛ لكن حين كانت تعود إلى المنزل وترى أمها، كانت تجهش بالبكاء.

كنا حينها قد انتقلنا مؤخّرًا من بوسطن إلى تورونتو، وعزونا هذه التغيرات إلى ضغوط الانتقال. لكن الوضع لم يتحسّن مع مرور الوقت. بدأت ميكيلا تصعد السلم وتنزله خطوة بخطوة، وبدأت تتحرّك مثل شخص عجوز. كانت

تشكو إذا أمسك أحد بيدها. (وذات يوم، بعد مرور فترة طويلة، سألتني: «أبي، عندما كنت تلعب معي لعبة حملي على كتفيك حين كنت صغيرة، هل كان من الطبيعي أن يؤلمني هذا؟». إنها تلك الأشياء التي لا تعرفها إلا بعد فوات الأوان...).

قال لنا طبيب في العيادة الطبية المحلّية: «يعاني الأطفال أحيانًا آلامًا أثناء النمو. إنها آلام طبيعية. لكن يمكنكما التفكير في اصطحابها إلى أخصائي علاج طبيعي». وهذا ما فعلناه. حاول طبيب العلاج الطبيعي تدوير كعب ميكيلا، لكنه لم يتحرك. لم يكن هذا جيدًا. قال لنا الطبيب: «ابنتكما مصابة بالتهاب المفاصل الروماتويدي اليفعي». لم يكن هذا ما أردنا سماعه، ولم يعجبنا طبيب العلاج الطبيعي هذا. عدنا إلى العيادة الطبّية. وأخبرنا طبيب آخر باصطحاب ميكيلا إلى مستشفى خاص بالأطفال. قال الطبيب: «خذاها إلى غرفة الطوارئ. بهذه الطريقة، ستستطيعان مقابلة طبيب أمراض الروماتيزم بسرعة». كانت ميكيلا مصابة بالتهاب المفاصل بالفعل. كان طبيب العلاج الطبيعي الذي زفّ لنا النبأ المشؤوم على حق. سبعة وثلاثون مفصلًا متضررًا. التهاب مفاصل يفعي حاد متعدّد مجهول المصدر (JIA). السبب؟ مجهول. والعلاج؟ استبدال مبكر لعدة مفاصل.

أي إله يخلق عالمًا يمكن أن يحدث فيه شيء كهذا؛ لا سيما لفتاة صغيرة بريئة وسعيدة؟ هذا سؤال ذو أهمية مطلقة، للمؤمن وغير المؤمن على حد سواء. إنها قضية تناولتها (إلى جانب العديد من القضايا الشائكة الأخرى) رواية « الإخوة كارامازوف» **The Brothers Karamazov**، للكاتب الروسي دوستويفسكي، والتي تحدّثنا عنها في القاعدة السابعة. عبّر دوستويفسكي عن شكوكه بشأن الكينونة من خلال شخصية إيفان، الذي هو -إذا كنت لا تزال تذكر- الأخ اللبق، الوسيم، المثقّف (وأهم خصوم) أخيه المتديّن المترهبن أليوشا. يقول إيفان: «ليس الإله هو ما أرفضه. افهم عني هذا جيدًا. إنما الذي أرفضه هو العالم الذي خلقه. هذا العالم، ولا يمكنني قبوله».

يروي إيفان لأليوشا قصّة عن فتاة صغيرة عاقبها والداها بالحبس في مرحاض خارج البيت طوال الليل (وهي قصة التقطها دوستويفسكي من إحدى الصحف في ذلك الوقت). يقول إيفان: «هل يمكنك تخيل هذان الشخصين يغفوين بينما تبكي ابنتهما طوال الليل؟ هل تتخيل تلك الطفلة

الصغيرة وهي عاجزة عن فهم ما يحدث لها، وهي تضرب صدرها الصغير المتجمّد من البرد، وتبكي دموعًا حارّةً وديعةً، وتتوسّل إلى «يسوعِ الرحيم» لإخراجها من ذلك المكان الرهيب!... أخبرني يا أليوشا: لو أنك تلقيت وعدًا –بطريقة ما– بأن العالم يمكن أن يحظى أخيرًا بسلام تام وشامل، لكن فقط بشرط تعذيب طفل صغير حتى الموت، وليكن هذا الطفل هو تلك الفتاة التي كانت تتجمّد من البرد في المرحاض خارجَ المنزل... هل كنت لتفعلها؟». ويجيبه أليوشا نافيًا بوداعة، ويقول: « كلا، ما كنت لأفعل»(210). ما كان أليوشا ليفعل ما يبدو أن الله يسمح بحدوثه ببساطة.

كنت قد أدركت شيئًا وثيق الصلة بهذا قبل سنوات، حين كنت أفكّر في ابني جوليان البالغ من العمر ثلاث سنوات (هل تذكره؟:). قلت لنفسي: «إنني أحب ابني. إنه في الثالثة من عمره، وهو لطيف، وصغير، ومرح. لكنني أخاف عليه أيضًا، لأنه قد يصاب بأذى. لو كانت لديَّ القدرة على تغيير ذلك، فماذا أفعل؟». وقلت لنفسي: «لو أن طوله يبلغ عشرين قدمًا وليس أربعين بوصة، لن يستطيع أحد حينها أن يُسقِطه أرضًا. لو أنه مصنوع من التيتانيوم، وليس من لحم ودم، حينها لن يبالي إذا ضرب طفل شقيّ رأسه

بشاحنة لعبة. لو أن له دماغًا مُحصنًا بالكمبيوتر، حينها حتى إذا تضرّر دماغه، بطريقة ما، يمكن استبدال أجزائه على الفور. وهكذا حُلَّت المشكلة!». لكن لا، لم تُحَلّ المشكلة؛ وليس فقط لأن مثل هذه التصورات مستحيلة حاليًا؛ ولكن لأن تحصين جوليان بشكل اصطناعي كان سيعني أيضًا تدميره. فبدلًا من أن يكون ذلك الطفل اللطيف البالغ ثلاث سنوات من العمر، سيكون روبوتًا باردًا جامدًا. لن يكون هو جوليان؛ بل سيكون مسخًا. لقد أدركت من خلال هذه الأفكار أن ما نحبّه حقًّا في شخص ما لا يمكن أن ينفصل عن القيود التي تحيط بهذا الشخص. ما كان جوليان ليكون صغيرًا، ولطيفًا، ومحبوبًا، ما لم يكن أيضًا عرضة للمرض، والألم، والفقد، والقلق. وبما أنني كنت أحبه كثيرًا، فقد توصّلت إلى أنه بأفضل حال كما هو، برغم ضعفه وهشاشته.

كان الأمر أكثر قسوة مع ابنتي. فمع تقدّم مرضها، بدأت أحملها (ليس على كتفي) حين كنا نذهب للتنزّه. بدأت ميكيلا في تناول نابروكسين(92) **naproxen** عن طريق الفم، والميثوتريكسات(93) **methotrexate**، وهذا الأخير هو علاج كيميائي قوي. كذلك تلقّت عددًا من حقن الكورتيزول(94) **cortisol** (في المعصمين، والكتفين،

والكاحلين، والمرفقين، والركبتين، والوركين، وأصابع اليدين، وأصابع القدمين، والأوتار)، وكل ذلك وهي خاضعة للتخدير الكلي. وقد أفاد ذلك مؤقتًا، لكن حالتها استمرت في التدهور. وفي أحد الأيام، اصطحبت تامي ميكيلا إلى حديقة الحيوان، وكانت تدفعها على مقعد متحرك.

لم يكن ذلك يومًا جيدًا.

اقترحت طبيبة الروماتيزم التي تعالجها استخدام عقار بريدنيزون(95) **prednisone**، وهو كورتيكوستيرويد(96) **corticosteroid**، لطالما كان يستخدم لمكافحة الالتهاب. غير أن بريدنيزون كانت له آثار جانبية عديدة، ليس أقلها تورّم حادّ في الوجه. ولم يكن واضحًا كيف يكون هذا أفضل من التهاب المفاصل، لا سيما بالنسبة إلى فتاة صغيرة. ومن حسن الحظ -إن جاز لنا أن نقول ذلك- أخبرتنا الطبيبة عن عقار جديد، كان قد استُخدم من قبل، ولكن فقط مع البالغين. وهكذا أصبحت ميكيلا أول طفل كندي يتلقّى عقار إتانرسِبت(97) **etanercept**، وهو عقار «بيولوجي» مُصَمم خصيصًا لأمراض المناعة الذاتية. وقد قامت تامي -

بطريق الخطأ– بإعطاء ميكيلا عشرة أضعاف الجرعة الموصى بها في أول بضع حقن. واختفى المرض! شفيت ميكيلا. وبعد بضعة أسابيع من الرحلة إلى حديقة الحيوان، كانت ميكيلا تتجوّل، وتلعب كرة القدم في دوري الفتيات الصغيرات، وقضت تامي الصيف كله في مشاهدتها وهي تركض.

أردنا أن تتحكّم ميكيلا في أكبر قدر ممكن من حياتها. كانت دائمًا يمكن تحفيزها بالمال. في أحد الأيام وجدناها خارج المنزل، محاطة بكتب طفولتها المبكرة وهي تبيعها للمارة. جلست معها ذات مساء وأخبرتها أنني سأعطيها خمسين دولارًا إذا أمكنها أن تعطي نفسها الحقن. كانت في الثامنة من عمرها، وقد كافحت لمدة خمس وثلاثين دقيقة، وهي ممسكة بالإبرة بالقرب من فخذها. ثم أعطت نفسها الحقنة. وفي المرة التالية، أعطيتها عشرين دولارًا، لكنني منحتها عشر دقائق فحسب لتحقن نفسها. ثم عشرة دولارات، في خمس دقائق فحسب. وظللنا مستمرين على عشرة دولارات لفترة طويلة نسبيًا. لقد كانت تلك صفقة.

وبعد بضع سنوات، أصبحت ميكيلا خالية تمامًا من أعراض المرض. اقترحت طبيبة الروماتيزم أن نبدأ في إيقاف تناولها للأدوية؛ فبعض الأطفال يتخلّصون من التهاب المفاصل اليفعي الحاد عندما يبلغون. لا أحد يعرف أسباب ذلك. بدأت تتناول الميثوتريكسات في شكل حبوب وليس حقن. وظلت الأمور جيدة لمدة أربع سنوات. وبعد ذلك، في أحد الأيام، بدأ مرفقها يؤلمها. أخذناها مرة أخرى إلى المستشفى. قال مساعد طبيب الروماتيزم: «لديك مفصل واحد فقط مصاب بالتهاب المفاصل». لم تكن كلمة «فقط» تعني شيئًا جيدًا؛ فاثنان ليس أكثر كثيرًا من واحد، لكن واحدًا أكثر كثيرًا من الصفر. كانت إصابة مفصل واحد تعني أنها لم تتخلّص من التهاب المفاصل نهائيًا، برغم الفترة التي اختفى فيها المرض. وتسبب هذا الخبر في تدميرها نفسيًا لمدة شهر، لكنها ظلّت تذهب إلى فصل الرقص وتلعب مباريات الكرة مع صديقاتها في الشارع أمام منزلنا.

كان لدى طبيبة الروماتيزم بعض الأنباء الإضافية غير السارة في شهر سبتمبر التالي، حين كانت ميكيلا في بداية عامها الدراسي الحادي عشر. كشف التصوير بالرنين المغناطيسي تدهور مفصل الورك. قالت الطبيبة

لميكيلا: «سيكون علينا استبدال مفصل الورك قبل أن تبلغي الثلاثين من العمر». هل حدث الضرر بالفعل قبل أن يحقّق عقار إتانرسِبت المعجزة؟ لم نعرف ذلك أبدًا. كان هذا خبرًا مشؤومًا. وذات يوم، بعد مرور بضعة أسابيع على ذلك، كانت ميكيلا تلعب الهوكي في صالة الألعاب الرياضية بالمدرسة الثانوية حين تيبّس مفصل الورك. اضطرت للخروج من الملعب وهي تعرج. وبدأ الألم يزداد أكثر وأكثر. قالت طبيبة الروماتيزم: «يبدو أن بعض عظم الفخذ قد مات. لن تحتاجي إلى استبدال مفصل الورك قبل سن الثلاثين؛ بل تحتاجين إلى استبداله فورًا».

حين كنت أجلس مع عميلتي –وأثناء مناقشتنا لحالة زوجها المتدهورة– تحدّثنا عن هشاشة الحياة، وكارثة الوجود، والشعور بالعدمية الذي يستثيره شبح الموت. بدأتُ المناقشة ببعض أفكاري حول ابني، جوليان. لقد كانت تسأل، مثل أي شخص في موقفها: «لماذا زوجي؟ لماذا أنا؟ لماذا هذا؟». كان إدراكي للترابط الوثيق بين الضعف والكينونة هو أفضل إجابة لديَّ. أخبرتها قصة يهودية قديمة، وأعتقد بأنها جزء من تفسير التوراة. تبدأ القصة بسؤال مُصاغ في صورة مفارقة من المفارقات الشهيرة لطائفة الزن البوذية.

تخيل كائنًا كُلّي العلم، كُلّي الوجود، وكُلّي القدرة. ما الذي ينقص مثل هذا الكيان؟(211) الجواب: القيود.

فلو أنك كنت بالفعل كلّ شيء، وموجود دائمًا في كلّ مكان، وفي كلّ زمان، فلن يكون ثمة مكان تذهب إليه، ولا شيء تحتاج لأن تكونه؛ فكل ما يمكن أن يكون هو كائن بالفعل، وكل ما يمكن أن يحدث قد حدث بالفعل. ولهذا السبب –حسب ما تقول القصة– خلق الله الإنسان. فإذا لم تكن هناك قيود، فلن تكون هناك قصة. وإذا لم تكن هناك قصة، فلا توجد كينونة. وقد ساعدتني هذه الفكرة في التعامل مع الهشاشة الرهيبة للكينونة، وساعدت عميلتي أيضًا.

ولست أرغب في المبالغة في أهمية هذا الأمر، ولست أرغب في الادعاء بأن هذا يجعل كل شيء على ما يرام بطريقة ما. لقد ظلّت عميلتي تواجه السرطان الذي ينهش جسد زوجها، تمامًا كما كنت أنا لا أزال أواجه مرض ابنتي الرهيب. ولكنْ، ثمة شيء يمكن قوله بشأن إدراك أن الوجود والقيود يرتبطان ارتباطًا لا انفصام له.

ثلاثون ذراعًا تتشارك محور العجلة؛

ولكن الثقب المركزي هو ما يجعلها نافعة.

اصنع من الطين إناءً:

الفراغ بداخله هو ما يجعله نافعًا.
افتح للغرفة أبوابًا وشبابيك؛
الفتحات هي ما تجعلها نافعة.
تأتي المكاسب إذًا من الوجود،
أما النفع فمن اللاوجود(98) (212).

وقد ظهر إدراك من هذا النوع في الآونة الأخيرة في عالم ثقافة البوب، أثناء تطوّر شخصية «سوبرمان» التي تُعد أيقونة ثقافية لشركة «دي سي كوميكس». ابتُكِرَت شخصية سوبرمان في العام 1938 علي يد جيري سيجل وجو شوستر. في البداية، كان يستطيع تحريك السيارات، والقطارات، وحتى السفن، وكان يستطيع الركض أسرع من قاطرة، ويستطيع «القفز فوق مبانٍ شاهقة بوثبة واحدة». لكن أثناء تطوّره على مدار العقود الأربعة التالية، بدأت قوة سوبرمان تزداد. وبحلول أواخر الستينيات، كان يستطيع الطيران بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وكان يمتلك حاسّة سمع فائقة ورؤية بالأشعة السينية، ويستطيع إطلاق أشعة حرارية من عينيه. وكان يستطيع تجميد الأشياء وتوليد الأعاصير بأنفاسه. كان يستطيع تحريك كواكب بأكملها. ولم تكن التفجيرات النووية تزعجه أو تخيفه، وإذا تعرض

للضرر –بطريقة ما– فسوف يشفى على الفور. وهكذا أصبح سوبرمان منيعًا لا يمكن النيل منه بأي حال.

ثم حدث شيء غريب. لقد أصبح مملًّا. فكلما أصبحت قدراته مذهلة أكثر، كان من الأصعب التفكير في أشياء مثيرة للاهتمام يمكنه أن يفعلها. تغلّبت شركة «دي سي» في البداية على هذه المشكلة في الأربعينيات؛ إذ أصبح سوبرمان ضعيفًا أمام الإشعاع الناتج عن الكريبتونايت، وهو مادة متبقية من حطام كوكبه الأصلي. وفي النهاية، ظهر أكثر من عشرين عامل ضعف آخر. فالكريبتونايت الأخضر يمكنه إضعاف سوبرمان؛ وإذا كانت الجرعة كبيرة بما فيه الكفاية، يمكن حتى أن يقتله. أما الكريبتونايت الأحمر فكان يجعله يتصرّف بغرابة. والكريبتونايت الأحمر المشرّب بالأخضر فكان يجعله يتحوَّر (فقد ظهرت له ذات مرة عين ثالثة في مؤخّر رأسه).

كانت هناك حاجة ماسّة إلى أساليب أخرى للحفاظ على جاذبية قصة سوبرمان. وفي العام 1976، كان من المقرر أن يقاتل «الرجل العنكبوت» («سبايدرمان»). وكان هذا أول لقاء يجمع بين الأبطال الخارقين لشركة

ستان لي الناشئة، «مارفيل كوميكس»، بشخصياتها الأقل مثالية، وبين شركة «دي سي»، صاحبة شخصيتي سوبرمان وباتمان. لكن كان على مارفل تعزيز قدرات سبايدرمان لكي تكون المعركة متكافئة. وكان هذا بمثابة خرق لقواعد اللعبة؛ فالرجل العنكبوت هو الرجل العنكبوت، لأنه يمتلك قوى العنكبوت. وإذا تم منحه فجأة أي قوى خارقة أخرى، فهو ليس سبايدرمان. وهكذا انهارت الحبكة.

وبحلول ثمانينيات القرن العشرين، كان سوبرمان يعاني من مشكلة يشار إليها بمصطلح لاتيني معناه «إله من آلة». وكان هذا المصطلح يصف إنقاذ البطل المعرّض للخطر في المسرحيات اليونانية والرومانية القديمة من خلال الظهور المفاجئ والإعجازي لإله كُلّي القدرة. وفي القصص سيئة الحبكة – حتى يومنا هذا– يمكن إنقاذ شخصية تقع في مأزق خطير أو إنقاذ حبكة فاشلة بواسطة قدر من السحر غير القابل للتصديق، أو حيلة أخرى لا تتماشى مع التوقّعات المقبولة للقارئ. ففي بعض الأحيان، تقوم شركة «مارفل كوميكس» –على سبيل المثال– بإنقاذ قصة فاشلة بهذه الطريقة بالضبط. فشخصية « لايفجارد»، على سبيل المثال، هي شخصية رجل متحوّل، «إكس مان»، يمكنها اكتساب أي قوة لازمة لإنقاذ حياة شخص

ما. ومن السهل جدًا استخدام تلك الشخصية في أي وقت. وتعجّ الثقافة الشعبية بأمثلة أخرى كثيرة. ففي نهاية رواية «ذا ستاند» **The Stand** للمؤلف ستيفن كينج، على سبيل المثال (تنبيه من حرق القصة)، يدمر الله بنفسه الشخصيات الشريرة في الرواية. وقد تبين لاحقًا أن الموسم التاسع بأكمله (1985–1986) من مسلسل «دالاس» **Dallas** الشهير كان مجرّد حُلم. ويعترض المشاهدون على مثل هذه الأشياء، ومعهم كلّ الحق. لقد تعرّضوا للخداع. فالأشخاص الذين يتابعون قصة ما على استعداد لتعليق عدم التصديق طالما كانت القيود التي تجعل القصة ممكنة قيودًا متّسقة ومتماسكة. والمؤلفون من جانبهم يوافقون على الالتزام بقراراتهم الأولية. وعندما يقوم المؤلفون بالخداع، ينزعج المشاهدون. وحينها يودّون لو يلقون بالكتاب في الموقد، أو يقذفون جهاز التليفزيون بقالب من طوب.

وقد باتت تلك مشكلة سوبرمان: فقد اكتسب قدرات هائلة للغاية بحيث يمكنه إخراج نفسه من أي مأزق، في أي وقت، وكأنه «إله». ونتيجة لذلك، في ثمانينيات القرن العشرين، كادت شخصية سوبرمان تحتضر. غير أن الكاتب والفنان جون بيرن أعاد بث الحياة فيها، حيث أعاد كتابة شخصية سوبرمان، محتفظًا بسيرته الذاتية، ولكن مع حرمانه من العديد من قدراته

الخارقة الجديدة؛ فلم يعد سوبرمان يستطيع حمل الكواكب وتحريكها، ولم يعد يستطيع الاستهانة بقنبلة هيدروجينية. كما أصبح يعتمد على الشمس لتمدّه بالقوة، مثل مصاص دماء لكن بصورة عكسية. اكتسب سوبرمان بعض القيود المعقولة. إن البطل الخارق الذي يستطيع فعل أي شيء يتبين أنه ليس بطلًا من الأساس. إنه ليس شيئًا محدّدًا، لذا فهو ليس شيئًا على الإطلاق. ليس هناك شيء يقاومه، لذا لا يمكن أن يكون رائعًا وجديرًا بالإعجاب. يبدو أن الكينونة بأي شكل معقول تتطلّب قيودًا. ربما كان هذا لأن «الكينونة» تتطلّب «صيرورة»، وربما بنفس القدر الذي تتطلّب فيه مجرّد الوجود الثابت؛ والصيرورة هي أن تصير شيئًا أكبر، أو على الأقل شيئًا مختلفًا. وهذا ممكن فقط بالنسبة إلى شيء مقيّد ومحدود.

جيّد جدًّا.

ولكن ماذا عن المعاناة التي تسببها هذه القيود؟ ربما كانت القيود التي تتطلبها الكينونة متطرّفة إلى حد أنه ربما كان من الأفضل إلغاء المشروع برمته. يعّبر دوستويفسكي عن هذه الفكرة بوضوح شديد على لسان بطل

روايته «ذكريات من منزل الأموات»: «وهكذا ترون أنه يمكنكم قول أي شيء عن تاريخ العالم؛ أي شيء وكل شيء يمكن أن يختلقه الخيال الأكثر مرضًا، عدا شيء واحد، وهو أنه لا يمكن القول بأن تاريخ العالم معقول. إن الكلمة لتعلق في حلق المرء ولا يستطيع لفظها»(213). ويعلن مفستوفيلس –عدو الكينونة لدى جوته– معارضته الصريحة لخلق الله في رواية «فاوست» **Faust**، كما رأينا من قبل. وبعد سنوات من «فاوست»، كتب جوته « فاوست، الجزء الثاني»، وجعل الشيطان يكرر عقيدته، بشكل مختلف قليلًا، لكي يؤكّد على رسالته(214):

مضى! يا لها من كلمة حمقاء. لماذا مضى؟ مضى

والعدم المحض: هما شيء واحد! أي معنى إذًا في هذا الخلق الأبدي!

ما يخلق مآله إلى العدم!

هاهو ذا مضى! ماذا ينبغي أن يقرأ في هذه العبارة

أنه كما لم يكن قد وجد، ومع ذلك فهو يدور دورته كما لو كان موجودًا.

من أجل هذا أحببت الخلاء الأبدي.(99)

يمكن لأي شخص أن يفهم مثل هذه الكلمات عندما ينهار حُلم، أو ينتهي زواج، أو يُصاب أحد أفراد الأسرة بمرض مهلك. كيف يمكن تشكيل الواقع على هذا النحو الذي لا يُطاق؟ كيف يمكن هذا؟

ربما كان من الأفضل ألّا يكون المرء موجودًا أصلًا، كما أشار قاتلا مدرسة كولومباين (راجع القاعدة السادسة). وربما كان من الأفضل حتى عدم وجود كينونة على الإطلاق. لكن الأشخاص الذين يصلون إلى الاستنتاج الأول يداعبون الانتحار، وأولئك الذين يصلون إلى الاستنتاج الأخير يعبثون مع شيء أسوأ، شيء وحشيّ بحق. إنهم يلهون بفكرة تدمير

كل شيء؛ يتسلّون بفكرة القتل الجماعي –وما هو أسوأ من ذلك–. فحتى المناطق الأكثر ظلمة تظل فيها زوايا أكثر وأكثر عتمة. والشيء المرعب حقًا هو أن مثل هذه الاستنتاجات مفهومة تمامًا، وربما حتى تكون حتمية؛ رغم أن التصرف بموجبها ليس حتميًا. فما الذي ينبغي أن يفكّر به شخص منطقي حين يرى طفلًا يعاني، على سبيل المثال؟ أوليس الشخص المنطقي، الشخص الرحيم المتعاطف، تحديدًا هو الذي سيجد مثل هذه الأفكار تشغل ذهنه؟ كيف يمكن لإله خيِّر أن يسمح بوجود عالم مثل هذا؟

قد تكون هذه الاستنتاجات منطقية، وقد تكون مفهومة؛ غير أنها تنطوي على خدعة رهيبة. فالأفعال التي يجري تنفيذها تماشيًا مع تلك الأفكار (إن لم تكن الأفكار ذاتها) تؤدّي حتمًا إلى جعل الوضع السيئ أسوأ. فكراهية الحياة، واحتقار الحياة –وإن كان ذلك بسبب الألم الحقيقي الذي تسببه الحياة– لا يؤدّي سوى لجعل الحياة أسوأ؛ أسوأ إلى حد لا يُحتمل. هذا لا يمثّل اعتراضًا حقيقيًا، ولا ينطوي على أي خير، وإنما ينطوي فقط على رغبة في توليد المعاناة، فقط من أجل المعاناة. وهذا هو جوهر الشر. والأشخاص الذين يصلون إلى هذا النوع من التفكير يكونون على بُعد خطوة واحدة من

الفوضى الشاملة. وأحيانًا يكون كل ما يفتقرون إليه هو الأدوات اللازمة؛ وفي أحيان أخرى -كما في حالة ستالين- تكون أصابعهم على زر نووي.

ولكن هل ثمة أي بديل منطقي متماسك، بالنظر إلى أهوال الوجود الواضحة؟ هل يمكن حقًّا تبرير الكينونة ذاتها، في ظل وجود أشياء مثل البعوض المسبّب للملاريا، وتجنيد الأطفال للقتال، والأمراض العصبية التنكّسية؟ لست واثقًا من أنه كان بمقدوري صياغة إجابة مناسبة عن هذا السؤال في القرن التاسع عشر، قبل وقوع الأهوال الشمولية الرهيبة في القرن العشرين بحق ملايين البشر. أعتقد بأنه لا توجد أسباب تجعل مثل هذه الشكوك محظورة أخلاقيًا بعد محرقة الهولوكوست، والتطهير الستاليني، وقفزة ماو العظيمة إلى الأمام(100)، التي كانت كارثية(215). كما أنني لا أعتقد أيضًا أنه يمكن الإجابة عن السؤال من خلال التفكير. التفكير يؤدي إلى الهاوية بلا رحمة. لم يفلح التفكير مع تولستوي. وكان يمكن ألا ينجح مع نيتشه، الذي يُقال إنه فكّر في مثل هذه الأمور بوضوح أكبر مما تأتّى لأي شخصٍ آخر في تاريخ البشرية. ولكن إذا كان لا يمكن التعويل على التفكير في أسوأ المواقف، فما الذي يتبقى لنا؟ فالفكر، على أي حال، هو أسمى منجزات البشرية، أليس كذلك؟

ربما لم يكن كذلك.

ثمة شيء يفوق التفكير ويتفوّق عليه، على الرغم من فعالية التفكير الرائعة حقًّا. فعندما يعلن الوجود عن نفسه بوصفه أمرًا لا يُحتمل وجوديًا، فإن التفكير ينهار على نفسه. في مثل هذه المواقف - في أعماقها- تكون الملاحظة -وليس التفكير- هي التي تفي بالغرض. ولعلك تبدأ بملاحظة ما يلي: عندما تحب شخصًا ما، فإنك لا تحبّه برغم قيوده؛ وإنما تحبّه بسبب قيوده. الأمر معقّد بالطبع. فأنت لست مضطرًا لأن تحب كل جوانب ضعفه وقصوره، وأن تتقبّلها فحسب، ولا ينبغي عليك أن تكفّ عن محاولة تحسين الحياة، أو أن تترك المعاناة تحدث من دون مقاومة. لكن يبدو أن ثمة حدودًا على طريق التحسّن قد لا نرغب في تجاوزها، لكي لا نضحي بإنسانيتنا ذاتها. إنه لمن السهل بالطبع أن تقول إن «الكينونة تتطلّب قيودًا» ثم تمضي في حياتك بسعادة، حين تكون الشمس مشرقة، وحين لا يعاني والدك من مرض ألزهايمر، وحين يكون أطفالك بصحة جيدة، ويكون زواجك سعيدًا. ولكن ما الذي يحدث عندما تسوء الأمور؟

الانهيار والألم

ظلّت ميكيلا مستيقظة عدّة ليالٍ حين كانت تتألم. وعندما جاء جدها لزيارتها، أعطاها بعض أقراص التايلينول 3 إس **Tylenol 3s** التي يتناولها (وهو مسكّن قوي للألم)، والتي تحتوي على الكوديين. ومن ثمَّ، أمكنها النوم؛ ولكن ليس لفترات طويلة. بلغت طبيبة الروماتيزم المعالجة لابنتنا- والتي لعبت دورًا أساسيًا في شفاء ميكيلا- أقصى درجات الشجاعة في التعامل مع ألم الطفلة. كان قد سبق لها أن وصفت مواد أفيونية لفتاة صغيرة، فتحوّلت الفتاة إلى مدمنة، وأقسمت الطبيبة ألا تكرّر ذلك مطلقًا. قالت لها: «هل جربت الإيبوبروفين؟». وحينها أدركت ميكيلا أن الأطباء لا يعرفون كل شيء. وكان الإيبوبروفين بالنسبة إليها بمثابة كسرة خبز لا تغني ولا تسمن من جوع بالنسبة إلى إنسان يتضوّر جوعًا.

تحدّثنا إلى طبيب جديد. أنصت إلينا بعناية، ثم بدأ في مساعدة ميكيلا. أولًا، وصف لها الطبيب دواء T3s، وهو الدواء الذي كان جدّها قد أعطاه لها لفترة وجيزة. وكانت هذه شجاعة من جانبه. يواجه الأطباء ضغطًا كبيرًا لتجنّب وصف المواد الأفيونية؛ ولا سيما للأطفال الصغار. لكن الأفيون فعّال. وسرعان ما أصبح تايلينول غير كافٍ، فبدأت ميكيلا في تناول الأوكسيكونتين، وهي مادة أفيونية تُعرف باسم هيروين المناطق القروية. واستطاع هذا العقار السيطرة على آلامها، لكنه تسبّب في مشكلات أخرى. فقد اصطحبت تامي ميكيلا لتناول الغداء خارج المنزل بعد أسبوع من بدء الوصفة الطبية، وكانت في حالة أشبه بالثمالة؛ إذ كان حديثها مدغمًا ملتبسًا، وكان رأسها يترنّح. لم يكن هذا جيدًا بأي حال.

قالت أخت زوجتي، وهي ممرضة متخصصة في رعاية تسكين الآلام، إنه يمكننا إضافة الريتالين – وهو مادة أمفيتامينية تستخدم كثيرًا مع الأطفال المصابين بفرط النشاط– إلى الأوكسيكونتين. وأدى استخدام الريتالين في استعادة ميكيلا ليقظتها، وكانت له بعض خصائص تثبيط الآلام بدوره (وهذه معلومة من الجيد للغاية أن تعرفها إذا كنت في موقف مع شخص يعاني معاناة هائلة). لكن آلام ميكيلا ما لبثت أن اشتدّت مرة أخرى. وبدأت الفتاة

في الانهيار. ثم عاودتها آلام وركها مرة أخرى، وكانت هذه المرة في المترو في يوم كان المصعد فيه معطّلًا. حملها صديقها على الدرج، ثم استقلّت سيارة أجرة إلى المنزل. وهكذا لم يعد المترو وسيلة انتقال يُعتمد عليها. وفي شهر مارس من العام نفسه، اشترينا لميكيلا دراجة بخارية بسعة 50 سي سي. كان من الخطير أن نتركها تركبها؛ لكن كان من الخطير أيضًا أن تفقد حريتها كليًا. وقد اخترنا الخطر الأول، وتركناها تركبها. اجتازت اختبار تعلم القيادة، وهو ما أتاح لها قيادة الدراجة خلال النهار. وقيل لها إن أمامها بضعة أشهر لتحقّق فيها التقدّم اللازم لكي تحصل على رخصة القيادة الدائمة.

في شهر مايو من العام نفسه، جرى استبدال مفصل الورك. وقد تمكن الجراح أيضًا من ضبط اختلاف قدره نصف سنتيمتر في طول الساق كان موجودًا مسبقًا. كذلك لم يكن العظم قد مات؛ بل كان الأمر مجرّد ظل في الأشعة السينية. جاءت خالتها وأجدادها لرؤيتها، وعشنا أيامًا أفضل نسبيًا. لكن بعد العملية الجراحية مباشرة، تم إيداع ميكيلا في أحد مراكز إعادة تأهيل البالغين. كانت أصغر مَنْ في المكان، بفارق يبلغ ستين سنة تقريبًا. كانت شريكتها في الغرفة –وهي سيدة مُسنة عُصابية للغاية– لا تسمح

بإطفاء الأنوار، حتى في الليل، ولم تكن تستطيع الذهاب إلى الحمام، وتضطر إلى استخدام قصرية السرير. ولم تكن تحتمل إغلاق باب غرفتها، غير أنه كان بجوار مركز تجمّع الممرضات، الذي كانت الأجراس العالية ترن فيه باستمرار، ولا تنتهي فيه المحادثات الصاخبة. لم يكن النوم ممكنًا في تلك الغرفة، وكان النوم ضروريًا لابنتنا. لم يكن يُسمح بالزيارة بعد الساعة السابعة مساءً. وكان طبيب العلاج الطبيعي –وهو السبب الرئيسي وراء إيداع ميكيلا في ذلك المركز– في إجازة. كان الشخص الوحيد الذي ساعدها هناك هو حارس الباب، الذي تطوّع بنقلها إلى جناح متعدّد الأسرّة عندما أخبرت الممرضة المناوبة أنها لا تستطيع النوم. وكانت هذه هي الممرضة نفسها التي ضحكت بلا مبالاة عندما عرفت بشأن الغرفة التي خُصِّصَت لميكيلا.

كان من المفترض أن تبقى في المركز لمدة ستة أسابيع، ولم يمضِ عليها فيه سوى ثلاثة أيام. وعندما عاد طبيب العلاج الطبيعي من الإجازة، صعدت ميكيلا درج مركز التأهيل وسرعان ما أتقنت التمارين المطلوب منها القيام بها. وبينما كانت تمارس التمارين، قمنا بتجهيز منزلنا بالدرابزين اللازم. ثم عدنا بها إلى المنزل. تعاملت ميكيلا مع كل هذا الألم ومع الجراحة على نحو جيّد. وماذا عن مركز إعادة التأهيل الفظيع؟ لقد تسبّب في إصابتها باضطراب ما بعد الصدمة.

التحقت ميكيلا بدورة كاملة لتعلم قيادة الدراجات النارية في شهر يونيو، لكي تتمكّن من الاستمرار في استخدام درّاجتها بشكل قانوني. شعرنا بالرعب تجاه حتمية هذا الأمر. فماذا لو سقطت؟ ماذا لو تعرّضت لحادث؟ في اليوم الأول، تدرّبت ميكيلا على دراجة نارية حقيقية. كانت ثقيلة، وأسقطتها عدة مرات. لقد رأت راكبًا مبتدئًا آخر يسقط ويتدحرج في ساحة الانتظار التي انعقدت فيها الدورة التدريبية. وفي صباح اليوم الثاني من أيام الدورة، كانت خائفة من العودة إلى التدريب. لم ترغب في القيام من فراشها. تحدّثنا معها لفترة، وقرّرنا معًا أنه ينبغي عليها على الأقل أن تعود مع تامي إلى موقع انعقاد الدورة التدريبية، وإذا لم تتمكن من خوض التدريب، فيمكنها البقاء في السيارة حتى انتهاء الدورة التدريبية. وفي الطريق، استعادت شجاعتها. وبينما كانت تتلقّى شهادتها، وقف جميع المشاركين الآخرين في الدورة وصفقوا لها.

ثم انهار كاحلها الأيمن. أراد أطباؤها دمج العظام الكبيرة المصابة معًا في قطعة واحدة. لكن هذا كان من شأنه أن يتسبّب في تدهور العظام الأخرى

الصغيرة في قدمها –التي سيزيد عليها الضغط–. ربما كان هذا أمرًا محتملًا بالنسبة لشخص في الثمانين من عمره (رغم أنه يظل صعبًا أيضًا)؛ لكنه لا يكون حلًا حين تكون في سن المراهقة. أصررنا على بديل صناعي، على الرغم من أن هذه التكنولوجيا كانت جديدة. وكانت هناك قائمة انتظار لمدة ثلاث سنوات. ولم نكن ببساطة نستطيع الانتظار كل هذا الوقت؛ فالكاحل التالف كان يتسبب في ألم أكبر بكثير من ألم وركها. وفي إحدى الليالي السيئة، أصبحت ميكيلا غريبة الأطوار وغير منطقية. ولم أستطع تهدئتها. كنت أعلم أنها وصلت لنقطة الانكسار. وسيكون من باب التهوين أن نسمّي هذا ضغطًا؛ لقد كان الأمر يفوق ذلك بكثير.

أمضينا أسابيع ثم شهورًا في فحص يائس لجميع أنواع الأجهزة البديلة، في محاولة لتقييم مدى ملاءمتها، وبحثنا في كل مكان لإجراء عملية جراحية في وقت أسرع: الهند، الصين، إسبانيا، المملكة المتحدة، كوستاريكا، فلوريدا. اتصلنا بوزارة الصحة في مقاطعة أونتاريو، وكانت في غاية التعاون وأفادتنا كثيرًا؛ فقد وجدت لنا أخصائيًا في الناحية الأخرى من البلاد، في فانكوفر. استُبدِلَ كاحل ميكيلا في شهر نوفمبر. وبعد الجراحة، كانت في حالة معاناة مطلقة. كانت قدمها في وضع خطأ؛ حيث كانت الجبيرة تضغط

الجلد إزاء العظام. ورفضت العيادة الطبية إعطاءها ما يكفي من الأوكسيكونتين للتخفيف من آلامها؛ وكانت هي قد اكتسب قدرة عالية على تحمّل المادة بسبب استخدامها لها من قبل.

وعندما عادت ميكيلا إلى المنزل، بألم أقل، بدأت في تقليل استهلاكها من المواد الأفيونية. لقد كرهت الأوكسيكونتين، برغم فائدته الجلية لحالتها. قالت إنه يجعل حياتها كئيبة. وربما كان هذا شيئًا جيّدًا، في ظل الظروف. توقّفت عن استخدام العقار بأقصى سرعة ممكنة، وعانت من أعراض الانسحاب لعدة أشهر، حيث كانت تتعرّق في الليل وتعاني من التنميل (وهو الشعور بوجود نمل يزحف تحت جلدها). وأصبحت غير قادرة على الشعور بأي متعة؛ وكان هذا أحد الآثار الأخرى لانسحاب الأفيون.

خلال أغلب أوقات هذه الفترة، كنا في حالة عجز. إن متطلّبات الحياة اليومية لا تتوقّف لمجرد أنك تعرّضت لكارثة. فكل ما كنت تفعله في الظروف العادية يظلّ مطلوبًا منك أن تفعله أيضًا في الظروف الاستثنائية. كيف تتدبّر أمورك إذًا؟ إليك بعض الأشياء التي تعلمناها:

خصّص بعض الوقت للتحدّث والتفكير في المرض، أو في غيره من الأزمات، وفي كيفية التعامل معه يوميًا. لا تتحدّث عنه أو تفكّر فيه في أي وقت آخر؛ لأنك إن لم تحدّ من تأثيره، فسيصيبك الإرهاق، وسوف ينهار كل شيء من حولك. وهذا لن يفيد. حافظ على قواك. إنك في حرب، ولست في معركة، والحروب عبارة عن عدة معارك؛ وعليك أن تحتفظ بقدرتك في كل معركة منها. وعندما تبزغ مخاوف مرتبطة بالأزمة في أوقات أخرى، ذكّر نفسك بأنك ستفكّر في تلك المخاوف خلال الفترة المحدَّدة للتفكير في الأزمة. عادة ما يفلح ذلك. إن أجزاء دماغك التي تولّد الشعور بالقلق تهتم بحقيقة أن هناك خطة أكثر مما تهتم بتفاصيل الخطّة. لا تقم بجدولة وقت التفكير في المساء أو في الليل؛ لأنك عندئذ لن تستطيع النوم، وإذا لم تستطع النوم، فسينهار كل شيء بسرعة كبيرة.

غيِّر وحدة الوقت التي تستخدمها في تخطيط حياتك. فعندما تكون الأمور على خير ما يرام، حيث الشمس مشرقة، والخير وفير، يمكنك وضع خطط للشهر التالي، والعام المقبل، والسنوات الخمس القادمة. بل يمكنك أن تحلم لعقد قادم من الزمان. لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك عندما تكون

ساقك عالقة بقوة بين فكَّيْ تمساح قاتل. وكما تقول الآية 34 من الإصحاح السادس في إنجيل متى: «يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ». وغالبًا ما تُفسّر هذه الآية بالقول: «عش في الوقت الحاضر، ولا تقلق بشأن المستقبل»، لكن هذا ليس ما تعنيه الآية؛ بل يجب تفسيرها في سياق «موعظة الجبل»، التي تُعد الآية جزءًا لا يتجزأ منها. وتلك العِظة تلخّص «النواهي» العشر في وصايا موسى في صورة «أمر» واحد وجوبي؛ إذ يطالب المسيح حوارييّه بالإيمان بمملكة الرب السماوية، وبالحقيقة. هذا قرار واعٍ بافتراض الخير الأساسي للوجود. وهذا عمل يتطلّب شجاعة. يجب أن تكون طموحًا. عليك أن تتطلّع إلى النجوم، ومن ثمَّ تتصرّف على النحو المناسب، وفقًا لما يقتضيه هدفك. وبعد أن تكون على وفاق مع السماء، يمكنك التركيز على يومك. كن يقظًا؛ واهتم بالأشياء التي يمكنك التحكّم بها والسيطرة عليها. نظّم الفوضى، وحسِّن ما هو جيد بالفعل. الأرجح أنك ستتمكن من تدبّر أمورك، إذا كنت حذرًا ويقظًا. إن البشر أقوياء للغاية؛ ويمكنهم تجاوز الكثير من الألم والمعاناة والخسارة. ولكن لكي يتمكّنوا من الاستمرار في النضال، لا بد أن يروا الخير في الوجود. وإذا فقدوا هذا، فهم ضائعون حقًا.

الكلاب، مرة أخرى – ولكن القطط، أخيرًا

الكلاب يشبهون البشر. إنهم أصدقاء البشر وحلفاؤهم. إنهم اجتماعيون، وهرَميون، وأليفون. إنهم يبتهجون بوجودهم في أسفل التسلسل الهرمي للأسرة، ويقابلون الاهتمام الذي يتلقّونه بالولاء، والإعجاب، والحب. الكلاب رائعة.

أما القطط فهي مخلوقات مختلفة. إنها ليست اجتماعية وليست ذات تسلسل هرمي. وهي ليست مستأنسة بالكامل. القطط لا تتعلّم الحيل، وهي ودودة بشروطها الخاصة. الكلاب تم ترويضها، أما القطط فقد اتخذت قرارًا. إنها تبدو مستعدة للتفاعل مع البشر، لأسباب غريبة خاصة بها. وبالنسبة إليَّ، القطط هي مظهر من مظاهر الطبيعة، من «الكينونة»، في صورتها النقية تقريبًا. وإلى جانب ذلك، فهي شكل من أشكال «الكينونة» ينظر إلى البشر ويوافق على وجودهم.

عندما تقابل قطّة في الشارع، يمكن أن تحدث أشياء كثيرة. فعلى سبيل المثال، عندما أرى قطة على مسافة بعيدة، فإن الجزء الشرير من ذاتي يرغب في أن يفزعها بصوتٌ عالٍ، مع إبراز الأسنان الأمامية فوق الشفة السفلية. هذا من شأنه أن يجعل قطًا عصبيًا ينفخ فراءه ويقف متأهّبًا بحيث يبدو أكبر حجمًا. ربما لا ينبغي للمرء الضحك من القطط، لكن يصعب مقاومة هذا. إن حقيقة أنه يمكن إجفالها هي إحدى أفضل الحقائق بشأنها (إلى جانب حقيقة أنها تشعر بالغضب بسهولة وعلى الفور، ثم تشعر بالحرج من رد فعلها المبالغ فيه). ولكن عندما أكون مسيطرًا على نفسي على النحو اللائق، فإنني أنحني لأسفل، وأدعو القطة للاقتراب، حتى أتمكن من التربيت عليها ومداعبتها. في بعض الأحيان، تهرب القطة. وفي أحيان أخرى، تتجاهلني تمامًا، لأنها قطة. لكن في بعض الأحيان الأخرى، تأتي إليّ، وتقرّب رأسها من يديَّ المنتظرة، وتسعد بذلك. بل إنها أحيانًا تنقلب على ظهرها وتقوّسه على الخرسانة المتربة (رغم أن القطط التي تتخذ هذا الوضع كثيرًا ما تعضّ وتخدش ببراثنها اليد الممدودة إليها حتى لو كانت يدًا ودودة).

في الناحية الأخرى من الشارع الذي أعيش فيه، تعيش قطة تُدعى «جينجر»؛ وهي قطة سيامية جميلة في غاية الهدوء والاستقلالية. إنها قطة تأتي في مرتبة متدنية على مقياس «الخمس الكبار» **Big Five** للسمات الشخصية العصابية، وهو مؤشّر للقلق، والخوف، والألم العاطفي. والقطة جينجر لا تنزعج مطلقًا لوجود الكلاب، وكلبنا، سيكو، صديق لها. تعبر القطة جينجر الشارع –أحيانًا حين تدعوها، وأحيانًا أخرى تأتي من تلقاء نفسها– وهي رافعة ذيلها لأعلى، مع انعطافة صغيرة في مؤخرة الذيل، ثم تنقلب على ظهرها أمام سيكو، الذي يلوي ذيله سعيدًا بذلك. وبعدها –إن كانت لديها رغبة– تأتي إليك في زيارة لمدّة نصف دقيقة، فتكون بمثابة استراحة لطيفة، وشعاع بهجة إضافي لطيف في يوم جميل، أو استراحة قصيرة في يوم عصيب.

ولو أنك كنت منتبهًا –حتى في يوم عصيبٍ– فلعل الحظّ يسعدك بما يكفي لتجد بعض الفرص الصغيرة المشابهة لهذا في يومك. لعلك ترى فتاة صغيرة ترقص في الشارع لأنها ترتدي ملابس الباليه. أو لعلك تشرب فنجان قهوة جيّد للغاية في مقهى يهتم بعملائه بحق. أو لعلك تستطيع أن تسرق عشرًا أو عشرين دقيقة للقيام بشيء مضحك يهدّئ أعصابك، أو يُذكّرك بأنه

يمكنك الضحك على عبثية الوجود. أنا شخصيًا أحب مشاهدة حلقات مسلسل عائلة سيمبسون بسرعة قدرها 1.5 السرعة العادية: ضحكٌ صافٍ؛ ثلثي الوقت.

ولعلك تجد أثناء تمشيتك، وبينما تدور بعينيك في الأنحاء، قطة تظهر فجأة، وإذا انتبهت لها بعناية، فستتلقّى تذكيرًا مدته خمس عشرة ثانية فحسب بأن روعة «الكينونة» قد تعوّض عن المعاناة الأصيلة الملازمة لها.

داعب قطّة حين تصادف واحدةً في الشارِع.

ملحوظة: بعد فترة وجيزة للغاية من كتابة هذا الفصل، جرّاح ميكيلا أخبرها بأنه سيتعيّن إزالة الكاحل الاصطناعي، ودمج كاحلها. وكان هذا يعني أن البتر هو نهاية هذا الطريق. لقد ظلّت تعاني الألم لمدة ثماني سنوات، منذ إجراء جراحة الاستبدال، وظلّت قدرتها على الحركة مقيّدة إلى حد كبير، على الرغم من أن كلًا من الألم والقدرة على الحركة كانا قد تحسّنا كثيرًا

عن ذي قبل. وبعد أربعة أيام من ذلك، وجدت بمصادفة بحتة أخصائي علاج طبيعي جديد. كان شخصًا رائعًا، وقويًّا، ومنتبهًا للغاية، وكان قد تخصّص في علاج الكاحل في لندن بالمملكة المتحدة. وضع يديه حول كاحلها وظل يضغط عليه لمدة أربعين ثانية، بينما كانت ميكيلا تحرّك قدمها انزلقت عظمة كانت في وضع خاطئ عائدة إلى مكانها الصحيح، واختفى الألم تماماً. لم تعتد ميكيلا قط البكاء أمام أفراد الطواقم الطبية. لكنها في تلك اللحظة أجهشت بالبكاء. لقد استقامت ركبتها، وأصبح بمقدورها الآن أن تمشي لمسافات طويلة، وتتجول بقدميها العاريتين. وعادت عضلة ربلة الساق في ساقها التالفة للنمو من جديد، وأصبح مفصلها الصناعي أكثر مرونة بكثير وأكثر قدرة على الانثناء. وقد تزوجت هذا العام وأنجبت طفلة أطلقت عليها اسم إليزابيث، تيمناً باسم والدة زوجتي الراحلة.

كل شيء على ما يرام.

في الوقت الراهن.

خاتمة

ماذا أفعل بقلمي الضوئي الجديد؟

في أواخر العام 2016 سافرت إلى شمال كاليفورنيا للقاء صديق وزميل عمل. أمضينا الأمسية معًا في التفكير والحديث. وفي لحظة معينة، أخرج قلمًا من سترته ودوَّن بعض الملاحظات. كان القلم مزوَّدًا بصمام مشعّ للضوء LED، وكان يشعّ الضوء من طرفه، بحيث يسهل الكتابة في الظلام. فكرت قائلًا لنفسي: «أداة أخرى جديدة». لكن لاحقًا، في إطار ذهني مجازي أكثر، أدهشتني بعمق فكرة القلم المضيء. كان ثمة شيء رمزي بشأنه، شيء ميتافيزيقي. إننا جميعًا في الظلام، معظم الوقت، على أي حال. ويمكننا جميعًا أن نستفيد من شيء مكتوب بالضوء لإرشادنا في الطريق. أخبرت صديقي أنني أرغب في الكتابة قليلًا أثناء جلوسنا وتحدّثنا، وسألته إن كان يستطيع أن يعطيني قلمه، كهدية. وعندما أعطاه لي، وجدت نفسي مسرورًا للغاية. الآن أصبح باستطاعتي أن أكتب كلمات مضيئة في الظلام! وكان من الواضح أنه من المهم أن أفعل هذا على نحو صحيح. لذا

قلت لنفسي بكل جدّية: «ماذا أفعل بقلمي الضوئي الجديد؟». ثمة آيتان في العهد الجديد تتعلّقان بمثل هذه الأشياء. وقد فكرت فيهما كثيرًا:

اِسْأَلُوا، تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا، تَجِدُوا. اِقْرَعُوا، يُفْتَحْ لَكُمْ. فَكُلُّ مَنْ يَسْأَلْ، يَنَلْ؛ وَمَنْ يَطْلُبْ، يَجِدْ؛ وَمَنْ يَقْرَعْ، يُفْتَحْ لَهُ.

(متى، 7:7–8:7)

للوهلة الأولى، لا يبدو هذا أكثر من مجرّد شهادة لسحر الصلاة، بمعنى التوسّل إلى الله لمنح العطايا. لكن الله –أيًا تكن كينونته– ليس مجرّد مانحٍ للعطايا أو محقّقٍ للأماني. فعندما امتُحِنَ المسيح نفسه من قبل الشيطان في الصحراء – كما رأينا في القاعدة السابعة («اسعَ وراء المعنى [وليس وراء النفعية]»)– لم يكن مستعدًا لأن يطلب من ربه منحة أو معروفًا؛ وإضافة إلى ذلك، في كل يوم، يدعوا أناسٌ يائسون ربّهم ولا تُلبّى دعواتهم. ولكن ربما كان هذا لأن الطلبات التي يدعون بها ليست مصاغة على النحو

الملائم. فربما ليس من المعقول أن نطلب من الله خرق قوانين الطبيعة في كل مرة نخفق فيها، أو نرتكب خطأً خطيرًا. ربما، في مثل هذه الأوقات، لا يمكنك ببساطة أن تضع العربة أمام الحصان وترجو ببساطة أن تُحل مشكلتك بطريقة سحرية ما. وبدلًا من ذلك، ربما يمكنك أن تطلب أن تُلهَم معرفة ما يتعيَّن عليك فعله الآن لكي يزيد عزمك، وتقوى شخصيتك، وتجد القوة اللازمة للمضيّ قُدُمًا. ربما يمكنك أن تطلب رؤية الحقيقة.

لطالما اختلفت أنا وزوجتي في مناسبات عديدة طيلة ما يقرب من ثلاثين عامًا من الزواج؛ وأحيانًا كان الخلاف يكون حادًا وعميقًا. في تلك المناسبات، كان يبدو أن وحدتنا قد تحطمت –على مستوًى عميقٍ إلى حدٍّ غير معروفٍ– ولم نكن نستطيع علاج الشرخ الذي حدث بسهولة من خلال الحوار. كنا نعلق في جدالات غاضبة، وقلقة، ومشحونة بالمشاعر. واتفقنا على أن ننفصل لفترة وجيزة عندما تحدث مثل هذه الظروف: هي في غرفة، وأنا في أخرى. كان هذا صعبًا للغاية في كثير من الأحيان، لأنه من الصعب الانفصال في خضمّ جدال، عندما يولِّد الغضبُ الرغبةَ في تحقيق النصر والفوز. لكن بدا هذا أفضل من المخاطرة بعواقب نزاع يهدّد بالخروج عن السيطرة.

وبينما نكون بمفردنا، نحاول أن نهدأ، كان كلٌّ منا يطرح على نفسه السؤال نفسه: ما الذي فعله كل منا للإسهام في تصاعد الموقف الذي كنا نتنازع بشأنه؟ لقد ارتكب كل واحد منا خطأً ما... مهما كان صغيرًا، أو بعيدًا. وبعد ذلك، كنا نجتمع من جديد ويعرض كل منا نتائج تساؤلنا قائلًا: إليك ما كنت مخطئًا بشأنه....

والمشكلة في طرح هذا السؤال على نفسك هي أنه يجب عليك حقًّا أن تكون راغبًا في الإجابة. والمشكلة في ذلك هي أن الإجابة لن تروق لك. فعندما تتجادل مع شخص ما، أنت تريد أن تكون محقًّا، وتريد أن يكون الآخر مخطئاً. وحينها يكون الطرف الآخر هو المطالَب بالتضحية بشيء ما ومحاولة التغيير من نفسه، وليس أنت، وهذا أفضل كثيرًا. فإذا كنت أنت المخطئ وكان لا بد من أن تغيّر من نفسك، فعليك أن تعيد النظر في ذاتك؛ في ذكريات ماضيك، وطريقة عيشك في الحاضر، وخططك للمستقبل. ثم يجب عليك أن تعقد العزم على أن تحسّن من نفسك وعلى أن تعرف كيف تفعل ذلك. ثم يكون عليك أن تنفّذ ما عقدت العزم عليه. هذا أمر مُرهِق،

وهو يتطلّب تدريبًا متكررًا، من أجل تدعيم التصورات الجديدة واعتياد التصرفات الجديدة. ومن الأسهل كثيرًا ألّا تدرك، وألا تُقِرّ، وألّا تنخرط في الفعل الإيجابي. من الأسهل كثيرًا أن تصرف انتباهك عن الحقيقة وتبقى في عماك المتعمَّد.

ولكن عند هذه المرحلة، ينبغي عليك أن تقرّر ما إذا كنت تريد أن تكون محقًّا أم تريد أن تنعم بالسلام(216). يجب عليك أن تقرّر ما إذا كنت ستصرّ على صحة رأيك المطلقة، أم ستنصت وتتفاوض. إنك لا تنعم بالسلام عن طريق كونك على حق؛ وإنما كل ما تفوز به حينها هو أن تكون على صواب، في حين يكون شريكك مخطئًا –مهزومًا ومخطئًا. وإذا فعلت ذلك عشرة آلاف مرة فسوف ينتهي زواجك (أو ستتمنّى أن ينتهي). ولكي يمكن اختيار البديل –أي أن تسعى للسلام– عليك أن تقرّر أنك تريد الإجابة، أكثر مما تريد أن تكون محقًّا. هذا هو السبيل للخروج من سجن تصوّراتك المسبقة العنيدة. هذا هو الشرط الأساسي للتفاوض. هذا هو الالتزام الحقّ بمبدأ القاعدة الثانية («عامل نفسك كما تعامل شخصًا أنت مسؤول عن مساعدته»).

أدركت أنا وزوجتي أنك إذا طرحت على نفسك مثل هذا السؤال، وكنت راغبًا بصدق في معرفة الإجابة (مهما كانت بغيضة، وفظيعة، ومخزية)، فإن ذكرى شيء غبي وخاطئ فعلته في مرحلة ما من الماضي غير البعيد جدًا سوف تظهر من أعماق عقلك. وحينها يمكنك أن تعود إلى شريك حياتك وتكشف عن سبب حماقتك، وتعتذر (بإخلاص)، ويمكن للطرف الآخر أن يفعل الشيء نفسه، ثم يعتذر (بإخلاص)، ثم يمكن للأحمقَيْن أن يعودا للمحادثة والحوار مجدّدًا. ربما كانت هذه هي الصلاة الحقيقية؛ إنها سؤال: «ما الخطأ الذي ارتكبته، وما الذي يمكنني عمله الآن لتصحيح الأخطاء ولو قليلًا؟». ولكن لا بد أن يكون قلبك مفتوحًا للحقيقة الفظيعة. لا بد أن تكون متقبّلًا لما لا تريد سماعه. وعندما تقرّر معرفة أخطائك، بحيث يمكن تصحيحها، فإنك تفتح قناة تواصل مع مصدر كل الفكر المُلهم. ربما كان هذا هو معنى مراجعة ضميرك. ربما كان هذا –بطريقة ما– معنى إجراء حوار مع الله.

بهذه الروح، ومع وجود بعض الأوراق أمامي، طرحت سؤالي: ماذا أفعل بقلمي الضوئي الجديد؟ وقد طرحت السؤال وكأنني أريد معرفة الإجابة حقًّا.

وانتظرت الردّ. كنت كمن يجري محادثة بين جانبين مختلفين من ذاتي. كنت أفكّر حقًّا؛ أو أنصت، بالمعنى الوارد في القاعدة التاسعة من هذا الكتاب («افترض أن الشخص الذي تنصت إليه ربما كان يعرف شيئًا لا تعرفه»). يمكن أن تنطبق هذه القاعدة على نفسك بقدر ما تنطبق على الآخرين. لقد كنت أنا بالطبع من طرح السؤال؛ وكنت أنا بالطبع من أجاب. لكن هذان الجانبان من نفسي لم يكونا واحدًا. إنني لم أكن أعرف ماذا سيكون الجواب. لقد كنت أنتظر ظهوره على مسرح خيالي. كنت أنتظر ظهور الكلمات من الفراغ. كيف يمكن للمرء أن يفكر في شيء يفاجئه هو ذاته؟ كيف يمكنه ألّا يعرف بالفعل ما الذي يفكر فيه؟ من أين تنبع الأفكار الجديدة؟ مَنْ، أو ما، الذي يفكر فيها؟

وبما أنني قد أُعطيت للتو –دون كل الأشياء الأخرى– قلمًا ضوئيًا منيرًا يمكنه أن يكتب «كلمات منيرة» في الظلام، فقد أردت استخدامه في فعل أفضل ما يمكنني به. لذا، طرحت السؤال المناسب؛ وعلى الفور تقريبًا، تجلّت لي إجابة: اكتب الكلمات التي تريد نقشها على روحك. وكتبت تلك الكلمات؛ إذ بدت لي جيدة جدًّا؛ أقر بأنها رومانسية إلى حد ما، لكنها كانت متّسقة مع حالتي. ثم اتخذت خطوة إضافية؛ فقرّرت أن أسأل نفسي

أصعب الأسئلة التي يمكنني التفكير فيها، وأنتظر الإجابة عنها. فعلى أي حال، إذا كان لديك قلم مُنير، فعليك استخدامه للإجابة عن «الأسئلة الصعبة». وكان هذا أول الأسئلة: ما الذي يجب عليَّ فعله غدًا؟ وجاءت الإجابة: أفضل عمل صالح ممكن في أقصر فترة ممكنة. كانت تلك إجابة مُرضية أيضًا؛ إذ جمعت بين هدف طموح وبين متطلّبات الكفاءة القصوى. كان هذا تحدّيًا جديرًا بالمحاولة. وكان السؤال الثاني في السياق ذاته: ماذا أفعل في العام المقبل؟ أحرص على أن يكون الخير الذي سأفعله في ذلك العام أكثر مما فعلته في أي وقت مضى، وأقلّ فقط من الخير الذي سأفعله في العام الذي يليه. بدت تلك إجابة جيّدة أيضًا؛ فهي بمثابة امتداد جيّد للطموحات المذكورة في الإجابة السابقة. أخبرت صديقي أنني كنت أجري تجربة جادة تتعلّق بالكتابة بالقلم الذي أعطاني إياه، وسألته ما إذا كان بإمكاني قراءة ما كتبته حتى الآن بصوت مرتفع. مست الأسئلة – والإجابات– وترًا حسّاسًا لديه أيضًا. كان ذلك جيّدًا؛ كان حافزًا للمتابعة.

وكان السؤال التالي هو الأخير في المجموعة الأولى: ماذا أفعل في حياتي؟ أهدف إلى الجنة، وأركز على الحاضر. ها! كنت أعلم ما يعنيه ذلك. إنه ما تفعله شخصية «جيبيتو» في فيلم ديزني «بينوكيو»، عندما

يتمنّى نجمة. يرفع نحّات الخشب عينيه إلى الألماسة المتلألئة المرتفعة بعيدًا فوق عالم المخاوف البشرية الدنيوي، ويُعبّر عن أعمق رغباته: أن تفقد عروسة الماريونيت التي صنعها الخيوط التي يتحكّم الآخرون بها من خلالها وتتحول إلى صبي حقيقي. وهو أيضًا الرسالة الرئيسية لموعظة الجبل، كما رأينا في القاعدة الرابعة (« قارن نفسك بما كنته بالأمس...»)، والتي تستحق تكرارها هنا مرة أخرى:

وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ. وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا. فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ فَإِنَّ هذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الأُمَمُ.
لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذِهِ كُلِّهَا. لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ.

(متى، 6: 28-6: 33)

ما الذي يعنيه كل ذلك؟ يعني ضرورة توجيه نفسك على النحو الصحيح. وعندئذ –وعندئذ فقط– تركّز على الحاضر. ضع عينيك على «الخير»، و«الجمال»، و«الحق»، ثم ركّز بدقة وبعناية على المشاغل اللحظية. صوِّب دائمًا نحو السماء، بينما تعمل بكدٍّ على الأرض. انتبه تمامًا للمستقبل بينما تهتم تمامًا بالحاضر. حينئذ ستكون لديك أفضل فرصة لتحسين كليهما.

انتقلت بعد ذلك من فكرة كيفية استغلال الوقت إلى العلاقات مع الناس، وكتبت ما لديَّ، ثم قرأت الأسئلة والإجابات على صديقي: ماذا أفعل مع زوجتي؟ عاملها كما لو كانت هي أم الرب المقدّسة، لكي تتمكّن من ولادة البطل المخلّص للعالم. وماذا أفعل مع ابنتي؟ ادعمها، وأنصت إليها، واحرسها، ودرِّب عقلها، واخبرها بأنه لا بأس إذا كانت ترغب في أن تكون أمًا. وماذا أفعل مع والديَّ؟ عاملهما بطريقة تجعل أفعالك جديرة بالمعاناة التي تحمّلاها من أجلك. وماذا أفعل مع ابني؟ شجعه على أن يكون ابنًا حقيقيًا للرب.

تكريم زوجتك كأمٍّ للرب يعني أن تدرك العنصر المقدّس لدورها كأم وتدعمه (وليس فقط باعتبارها أمًّا لأطفالك). إن المجتمع الذي ينسى هذا لا يمكن أن يستمر. فوالدة هتلر أنجبت هتلر، ووالدة ستالين أنجبت ستالين. هل كان ثمة خطأ ما في علاقاتهما الجوهرية؟ يبدو هذا مرجّحًا، بالنظر إلى أهمية دور الأم في ترسيخ الثقة(217)؛ وهذا مجرّد مثال واحد مهم. ربما لم تحظ أهمية واجباتهما كأمَّين، وأهمية علاقاتهما بابنَيهما، بالاهتمام اللازم والملائم؛ ربما لم يكن الأب، والوالد، والمجتمع، ينظرون بالشكل الصحيح لما كانت تفعله النساء في دورهنّ كأمهات. وبدلًا من ذلك، تُرى من الذي يمكن أن تنجبه امرأة حظيت بمعاملة كريمة، ولائقة، وتنطوي على الرعاية والاهتمام؟ إن مصير العالم –في نهاية المطاف– يقع على عاتق كل طفل رضيع جديد، صغير وهش وضعيف، ولكنه، مع مرور الوقت، قادر على نطق الكلمات والقيام بالأفعال التي تحفظ التوازن الأبدي والحساس بين الفوضى والنظام.

وماذا عن دعم ابنتي؟ هذا يعني تشجيعها على كل ما ترغب بشجاعة في أن تفعله، ولكن بشرط أن يشتمل ذلك على تقديرٍ صادقٍ لحقيقة كونها أنثى: أي الإقرار بأهمية بناء أسرة وإنجاب أطفال، وتجنّب إغراء تشويه هذا الدور أو الاستهانة بقيمته عند مقارنته بتحقيق الطموحات الشخصية والمهنية. إن الأم المقدسة والرضيع المقدّس يمثّلان صورة إلهية لأسباب وجيهة؛ كما أوضحنا للتو. والمجتمعات التي تكفّ عن احترام تلك الصورة -التي تكف عن النظر لتلك العلاقة باعتبارها ذات أهمية قصوى وجوهرية- تحكم على نفسها بالفناء.

والتصرّف بطريقة تجعل أفعالك تستحقّ المعاناة التي تحمّلها والداك، يعني تذكّر كل التضحيات التي قدَّمها لك جميع من عاشوا من قبلك (لا سيما والداك) خلال الماضي الرهيب، وذلك لكي تشعر بالامتنان تجاه التقدّم الذي تحقّق بهذه الطريقة، ومن ثمَّ تتصرّف بموجب هذه الذكرى وذلك الامتنان. لقد ضحّى الناس بالكثير من أجل تحقيق ما نحظى به الآن، وفي كثير من الحالات ماتوا، حرفيًا، من أجل ذلك؛ وعلينا أن نتصرّف بقدر من الاحترام لتلك الحقيقة.

وماذا عن تشجيع ابني على أن يكون ابنًا حقيقيًّا للرب؟ يعني هذا أن تشجّعه قبل كل شيء على أن يفعل ما هو صواب، وأن تناضل من أجل دعمه أثناء قيامه بذلك. هذا –في ظني– جزء من رسالة التضحية: أن تقدّر وتدعم التزام ابنك بالخير الأسمى قبل كل شيء آخر (بما في ذلك تقدّمه الدنيوي –إن جاز التعبير– وسلامته الشخصية، وربما حتى حياته).

واصلت طرح الأسئلة. وكانت الإجابات تأتي في غضون ثوانٍ. ماذا أفعل مع شخصٍ غريبٍ؟ أدعوه إلى منزلي، وأعامله كأخٍ، لكي يصبح أخًا بالفعل. ويعني هذا مد يد الثقة لشخصٍ ما لكي يتمكّن الجزء الأفضل من ذاته من المضيّ قدمًا بدوره نحو المعاملة بالمثل. يعني هذا إظهار كرم الضيافة المقدَّس الذي يجعل الحياة ممكنة بين أناس لا يعرفون بعضهم بعضًا. وماذا أفعل مع روحٍ سقطت نحو الهاوية؟ أمدُّ يد المساعدة بصدق وبحذر، ولكن أحرص على ألّا أسقط بدوري في المستنقع. هذا تلخيص جيِّد لما تناولناه في القاعدة الثالثة («صادق من يتمنّون لك الأفضل»). هذه وصية للامتناع عن طرح اللآلئ أمام الخنازير، والامتناع كذلك عن أن تكسو رذائلك بثوب الفضيلة. وماذا أفعل مع العالم؟ أعامل نفسي من منطلق أن الكينونة أفضل

من عدم الكينونة. تصرّف على نحو يمنعك من الشعور بالمرارة ومن الفساد بسبب مأساة الوجود. وهذا هو جوهر القاعدة الأولى («قف منتصبًا باسطًا كتفيك للوراء»): واجه عدم اليقين في العالم بإردتك، وبإيمان وشجاعة.

كيف أربّي من أعول؟ أشاركهم في الأشياء التي أعتبرها مهمة بحق. وتلك هي القاعدة الثامنة («تحرَّ الصدق؛ أو على الأقل، لا تكذب»). ويعني هذا أن تسعى إلى الحكمة، وأن تلخّص تلك الحكمة في كلمات قليلة، وأن تقول تلك الكلمات بقوّة بوصفها كلمات مهمة، باهتمام حقيقي صادق. وهذا كله وثيق الصلة أيضًا، بالسؤال التالي (وإجابته): ماذا أفعل مع أمّة ممزّقة؟ أرتق التمزّقات والخروق مرة أخرى بكلمات صدقٍ مخلصة. وقد أصبحت أهمية هذه الوصية أكثر وضوحًا خلال السنوات القليلة الماضية: إننا ننقسم، ونستقطب، وننجرف نحو الفوضى؛ ومن الضروري – في ظلّ هذه الظروف، وإذا أردنا تجنّب وقوع كارثة – أن يعبّر كل واحد منا عن الحقيقة، كما يراها: ليس عن الحجج التي تبرر أيديولوجياتنا، وليس عن الآليات التي تعزّز طموحاتنا، ولكن عن الحقائق الواضحة الصارخة بشأن وجودنا، نكشف عنها للآخرين ليتأمّلوها، حتى نتمكّن من إيجاد أرضية مشتركة ونمضي معًا جميعًا إلى الأمام.

وماذا أفعل مع الرب إلهي؟ أضحّي بكل عزيز وغالٍ لديَّ من أجل مزيد من الكمال. أترك الأخشاب الميتة تحترق، لكي تستطيع أشجار فتية جديدة أن تنمو. هذا هو الدرس الرهيب المستمد من قصة قابيل وهابيل، والذي تحدّثنا عنه بالتفصيل في مناقشتنا للمعنى في القاعدة السابعة. وماذا أفعل مع إنسان كاذب؟ دعه يتكلّم حتى يكشف عن نفسه. تنطبق القاعدة التاسعة («انصت...») هنا أيضًا، كما ينطبق أيضًا مقطع آخر من العهد الجديد:

مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ. هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَبًا، أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِينًا؟ هكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، وَلاَ شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. كُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. فَإِذًا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ.

(متى، **7:16–7:20**).

يجب اكتشاف العفن والفساد قبل أن يمكن استبداله ووضع شيء صالح مكانه، كما أوضحنا أيضًا في القاعدة السابعة؛ وكل هذا يتعلّق بفهم السؤال والإجابة التاليين: كيف أتعامل مع الشخص المستنير؟ استبدل به شخصًا يسعى حقًّا للتنوير. ليس هناك أحد مستنير؛ هناك فقط شخص يسعى إلى مزيد من التنوير. إن الكينونة السليمة عملية مستمرّة وليست حالة ثابتة؛ هي رحلة، وليست وجهة. إنها عملية تغيير مستمرة لما تعرفه –من خلال مواجهة ما لا تعرفه– بدلًا من التشبّث اليائس باليقين الذي لا يكون كافيًا قط بأي حال من الأحوال. وهذا يفسر أهمية القاعدة الرابعة («قارن نفسك بما كنته بالأمس...»). أعطِ صيرورتك دائمًا الأولوية على كينونتك الراهنة. وهذا يعني أنه من الضروري أن تدرك أوجه قصورك وتتقبّلها، بحيث يمكن تحسينها باستمرار. هذا مؤلم بالتأكيد؛ لكنه صفقة رابحة.

شكّلت الأسئلة والأجوبة القليلة التالية مجموعة أخرى متماسكة، وركّزت هذه المرة على الجحود: ماذا أفعل عندما أزدري ما لديَّ؟ تذكّر أولئك الذين لا يملكون شيئًا، وحاول جاهدًا أن تشعر بالامتنان. قيِّم ما لديك. تأمّل القاعدة الثانية عشرة («داعب قطة حين تصادف واحدةً في الشارع»). فكّر أيضًا أنه قد يُعرقل تقدّمك، ليس لأنه ليست لديك فرصة، ولكن لأنك كنت

متعجرفًا إلى حدٍّ أعاقك عن تحقيق الاستفادة الكاملة مما هو لديك بالفعل. وتلك هي القاعدة السادسة («أصلح من نفسك قبل أن تنتقد العالم من حولك»).

تحدّثت مؤخّرًا مع أحد الشبان بشأن أمور مثل هذه. لم يكن قد ابتعد قط عن أسرته تقريبًا، ولم يغادر الولاية التي نشأ فيها أبدًا؛ لكنه سافر إلى تورونتو لحضور إحدى محاضراتي ومقابلتي في منزلي. كان قد عزل نفسه بشدة تفوق الحد خلال فترة حياته القصيرة حتى تلك اللحظة، وكان يعاني بشدة من القلق. عندما التقينا للمرة الأولى، كان بالكاد يستطيع الكلام. إلا أنه عزم خلال العام الماضي على أن يفعل شيئًا حيال مشكلاته. وبدأ في ذلك بقبول وظيفة متواضعة في غسل الصحون، وقرر أن يتقن هذا العمل، في حين كان يمكنه أن يزدريه. وكان ذكيًا بما يكفي بحيث لا يسمح لعالم لم يدرك مواهبه أن يُشعره بالمرارة والإحباط، فقرّر بدلًا من ذلك أن يقبل بأي فرصة يجدها، وهذا تواضعٌ صادقٌ يُعتبر هو المؤشر الحقيقي على الحكمة. وهو الآن يعيش مستقلًا بنفسه؛ وهذا أفضل من العيش في منزل والديه. الآن لديه بعض المال؛ ليس كثيرًا من المال، لكن أكثر من لا شيء.

مال كسبه بجهده. وهو الآن يواجه العالم الاجتماعي، ويستفيد من الصراع الناتج عن تلك المواجهة:

معرفة الأخرين حكمة.

معرفة النفس استنارة.

قيادة الآخرين تتطلب قوة.

قيادة النفس تقتضي القدرة.

مَن يشعر بأن عنده ما يكفيه غني.

المثابرة من علامات قوة الإرادة.

مَن يحافظ على مكانه يبقى.

أن تموت، من دون أن تهلك، ذلك هو الحضور الأبدي(218).

كتاب الطاو والفضيلة، م. س.

وإذا استمر زائري صاحب العزم – الذي لا يزال قلقًا ولكنه يعمل على تغيير ذاته– في سيره على الدرب الذي يسلكه حاليًا، فسوف يصبح أكثر كفاءة وبراعة بكثير مما كان عليه، ولن يستغرقه هذا وقتًا طويلًا. ولكن هذا

سيكون راجعًا فقط إلى أنه تقبّل وضعه المتدني وكان ممتنًا بما فيه الكفاية لاتخاذ الخطوة الأولى المتواضعة أيضًا لتغيير هذا الوضع. هذا أفضل كثيرًا من انتظار ظهور حل سحري، إلى ما لا نهاية. هذا أفضل كثيرًا من الوجود المتعجرف، الهامد، الراكد، بينما تتجمّع شياطين الغضب، والاستياء، والحياة الضائعة التي لم تُعش.

وماذا أفعل عندما يغويني الجشع؟ أتذكّر أن العطاء أفضل حقًّا من الأخذ. إن العالم عبارة عن منتدى للمشاركة والمقايضة (تلك هي القاعدة السابعة، مرة أخرى)، وليس مغارة كنز تنتظر من ينهبها. العطاء هو أن تفعل كل ما تستطيع بهدف تحسين الأمور. سوف يستجيب الجانب الخيّر لدى الناس لذلك، ويدعمونه، ويقلّدونه، ويكثرونه، ويعيدونه، ويُعَزِّزونه، بحيث يتحسّن كل شيء في العالم ويتحقّق التقدم.

وماذا أفعل عندما تفسد الأنهار؟ أبحث عن الماء الحي في نفسي وأتركه يطهّر الأرض. كان هذا السؤال، وكذلك إجابته، غير متوقّعَين إلى حد بعيد، وهو يبدو أكثر ارتباطًا بالقاعدة السادسة («أصلح من نفسك...»). ربما لم

تكن الصياغة التقنية هي أفضل تعبير عن مشكلاتنا البيئية؛ وربما كان الأفضل هو التفكير فيها من ناحية نفسية. فكلما زاد فهم الناس لأنفسهم، زاد تحمّلهم لمسؤولية العالم من حولهم وحلّوا المزيد من مشكلاته(219). فمن الأفضل، على سبيل المثال، أن تحكم نفسك بدلًا من أن تحاول أن تحكم مدينة كاملة. ومن الأسهل إخضاع عدو خارجي عن إخضاع عدو داخلي. ربما كانت المشكلة البيئية مشكلة روحية في نهاية المطاف. فلو أننا أصلحنا من أنفسنا، فربما سنفلح في إصلاح العالم أيضًا. وبالطبع، ما الذي يمكن أن يفكر فيه عالم نفس بخلاف هذا؟

ارتبطت المجموعة التالية من الأسئلة والإجابات بالاستجابة الصحيحة للأزمات والإنهاك:

ماذا أفعل عندما ينجح عدوّي؟ أحاول تحقيق ما هو أفضل منه قليلًا وأكون ممتنًا لهذا الدرس. بالعودة إلى إنجيل متى: «سَمِعتُم أَنَّه قِيل: «أَحْبِبْ قَرِيبَك وأَبْغِضْ عَدُوَّك. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا

إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ»

(45:5–43:5).

وما الذي يعنيه هذا؟ تعلّم من نجاح أعدائك؛ أنصت (المادة التاسعة) إلى منتقديهم لكي تكتسب من معارضيهم أي شذرات من الحكمة قد يمكنك توظيفها في تحسين نفسك؛ اطمح إلى خلق عالم يرى فيه أولئك الذين يعارضونك النور، ويستيقظون، ويحقِّقون النجاح، بحيث يشملهم جميعًا الخير الأكبر الذي تسعى إلى تحقيقه.

وماذا أفعل عندما أكون متعَبًا وينفد صبري؟ تقبّل بامتنان يد المساعدة الممدودة لك. هذا شيء ذو معنى مزدوج. أولًا، تلك وصية بملاحظة حقيقة قيود الوجود الفردي، وثانيًا، أن تتقبّل دعم الآخرين لك وتكون شاكرًا ممتنًا لذلك الدعم: من الأسرة، والأصدقاء، والمعارف، والغرباء على حد سواء.

الإرهاق ونفاد الصبر محتَّمان ولا مفرّ منهما؛ فثمة الكثير جدًا مما يجب فعله، والقليل جدًا من الوقت اللازم لفعله. لكننا لسنا مضطرين للنضال وحدنا، ومن المفيد توزيع المسؤوليات، والتعاون في الجهود، ومشاركة الفضل في إنجاز عملٍ مثمرٍ وذي مغزى تم إنجازه بهذه الطريقة.

وماذا أفعل مع حقيقة الشيخوخة؟ أجعل إنجازات نضجي تحلّ محلّ طموحات شبابي. يحيلنا هذا إلى مناقشة الصداقة الواردة في القاعدة الثالثة، وقصّة محاكمة سقراط وموته؛ والتي يمكن تلخيصها على النحو التالي: إن حياة تُعاش بإشباع وكمال تُعتبر تبريرًا للقيود المحيطة بها. إن الشاب الذي لم يحقّق شيئًا في حياته بعد يمكنه مقارنة إمكانيات شبابه وفتوّته بإنجازات من هم أكبر منه سنًا. ولا يمكن اعتبار هذا صفقة خاسرة بالضرورة لأي من الطرفين. وقد كتب ويليام بتلر ييتس يقول: «الكهل المسنّ ليس سوى كيان بائس؛ أسمال بالية معلّقة على عصا، ما لم/ تصفق الروح بيديها وتغني، وترفع صوتها بالغناء/ لكل الأسمال البالية في ثيابها الفانية...» (220).

وماذا أفعل عند موت طفلي الرضيع؟ أحتضن أحبائي الآخرين وأداوي آلامهم. من الضروري أن نكون أقوياء في مواجهة الموت، لأن الموت متأصلٌ في الحياة. ولهذا السبب أقول لطلابي: في جنازة والدك، حاول أن تكون الشخص الذي يعتمد عليه الجميع لمواساتهم في حزنهم وبؤسهم. ثمة طموح نبيل وجدير بالثناء هو: القوة في مواجهة الشدائد. وهذا أمر مختلف تمامًا عن الرغبة في حياة خالية من المتاعب.

ماذا أفعل في اللحظة الرهيبة التالية؟ أركّز انتباهي على الخطوة الصحيحة التالية. الطوفان قادم؛ دائمًا ما يكون الطوفان قادمًا. دائمًا ما تحيق بنا نهاية العالم. وهذا هو السبب الذي يجعل قصة نوحٍ قصة أصلية نموذجية. الأمور تتداعى؛ وقد أكّدنا على ذلك في مناقشتنا في القاعدة العاشرة («كن دقيقًا في حديثك»)؛ والوسط لا يمكنه الصمود. وعندما يصبح كل شيء فوضويًا وغير يقيني، فإن كل ما يتبقى لإرشادك قد يكون هو الشخصية التي بنيتها من قبل، من خلال محاولة الارتقاء والسموّ، وكذلك التركيز على اللحظة الحالية. وإذا كنت قد فشلت في ذلك، فسوف تفشل في لحظات الأزمات، وعندئذ، ليكن الله في عونك.

وضمت المجموعة الأخيرة الأسئلة التي اعتقدت أنها الأكثر صعوبة في تلك الليلة. ربما كانت وفاة طفل هي أسوأ الكوارث على الإطلاق؛ فالعديد من العلاقات تنهار في أعقاب مأساة كهذه. لكن الانهيار في مواجهة مثل هذا الرعب ليس قدَرًا محتومًا، رغم أنه أمر مفهوم. لقد رأيت أناسًا يدعمون ويعزّزون روابطهم العائلية المتبقية بقوة كبيرة بعد وفاة شخص قريب منهم. رأيتهم يلجأون إلى أولئك الذين تبقّوا لهم ويضاعفون جهودهم للترابط معهم ودعمهم. وبسبب ذلك، كان جميعهم يستعيدون بعضًا مما مزقه حادث الوفاة الرهيب. لذا ينبغي علينا جميعًا أن نتواسى في أحزاننا. ينبغي علينا أن نجتمع ونتآزر في مواجهة مأساة الوجود. يمكن أن تكون عائلاتنا بمثابة غرفة المعيشة المريحة الدافئة، بينما عواصف الشتاء تهبّ في الخارِج.

إن المعرفة المتزايدة بالهشاشة والفناء الناتجَين عن الموت يمكن أن ترعبنا، وتروّعنا، وتفصل بيننا. إلا أنها يمكن أن توقظنا أيضًا؛ إذ يمكن أن تذكر أصحاب الأحزان بعدم بخس قيمة الأشخاص الذين يحبونهم. لقد أجريت ذات مرة بعض الحسابات المخيفة في ما يتعلّق بوالديَّ، اللذين أصبحا في الثمانينات من عمرهما. كان هذا مثالًا على فكرة كراهية الحساب التي تحدّثنا عنها في مناقشتنا في القاعدة الخامسة («لا تجعل أطفالك يفعلون

أي شيء يدفعك إلى كراهيتهم»)؛ وقد خرجت من تلك الحسابات عازمًا على أن أبقى واعيًا ويقظًا بالقدر اللازم واللائق. إنني أرى أمي وأبي مرتين سنويًا تقريبًا؛ وعادة ما نقضي معًا عدة أسابيع في كل مرة، كما أننا نتحدث عبر الهاتف كثيرًا في الفترات الفاصلة بين الزيارات. غير أن العمر المتوقّع لمن هم في الثمانينات من عمرهم أقل من عشر سنوات؛ وهذا يعني أنني سأرى والديَّ أقل من عشرين مرة أخرى على الأرجح، إذا كنت محظوظًا. من البغيض أن أعرف هذا؛ ولكن معرفتي به تمنعني من الاستهانة بقيمة الفرص القليلة المتبقية لرؤيتهما.

كانت المجموعة التالية من الأسئلة –والأجوبة– متعلّقة بتطوير الشخصية.

ماذا أقول لأخ غير مؤمن؟ أخبره أن الملعون الأكبر (إبليس اللعين) هو حكمُ سيئ على «الكينونة». إنني أؤمن إيمانًا راسخًا بأن أفضل طريقة لإصلاح العالم –وهو حلم رائع– هي إصلاح نفسك، كما ناقشنا في القاعدة السادسة. وأي شيء بخلاف ذلك هو شيء وقح ومتعجرف؛ أي شيء بخلاف ذلك ينطوي على مخاطرة بالتسبب في الأذى، بسبب جهلك وقلة مهارتك. لكن لا بأس بهذا؛ فلا يزال هناك الكثير مما يمكنك فعله. فعلى كل حال، إن عيوبك ومثالبك الشخصية المحدّدة تؤثر سلبًا على

العالم. وخطاياك الواعية التي اقترفتها طوعًا (وأقول خطاياك لأنه ما من كلمة أخرى تفي بالغرض حقًا) تجعل الأمور أسوأ مما يجب أن تكون. إن سلبيتك، وكسلك، وتشاؤمك، جميعها تزيل من العالم ذلك الجانب من ذاتك الذي يمكنه أن ينهي المعاناة ويحقق السلام. هذا ليس جيدًا. ثمة أسباب لا حصر لها لليأس من العالم، والشعور بالغضب، والاستياء، والرغبة في الانتقام.

إن الفشل في تقديم التضحيات المناسبة، والفشل في التعبير عن نفسك، والفشل في العيش وقول الصدق؛ كل ذلك يوهنك. وبهذه الحالة من الوهن، لن يمكنك النجاح في العالم، ولن تكون ذا فائدة ترجى، سواء لنفسك أو للآخرين. سوف تفشل وتعاني، بحماقة، وهذا سوف يفسد روحك ويلوّثها. وهل ثمة بديل آخر بخلاف ذلك؟ إن الحياة صعبة بما فيه الكفاية حتى عندما تسير الأمور على ما يرام. ولكن ماذا يحدث عندما تسوء الأمور؟ لقد تعلّمت من خلال تجربة مؤلمة أنه ما من شيء يبلغ من السوء المنتهى، بحيث لا يمكن أن يصبح أسوأ. ولهذا السبب فإن الجحيم هو هاوية لا قعر لها. ولهذا السبب يرتبط الجحيم بتلك الخطيئة المذكورة أعلاه. في أكثر الحالات فظاعة، يمكن أن تُعزى المعاناة الرهيبة للأرواح

البائسة إلى الأخطاء التي ارتكبها أصحابها عن عمد وقصد في الماضي: أفعال الخيانة، والخداع، والقسوة، والإهمال، والجبن، إضافة إلى الخطيئة الأكثر شيوعًا بين جميع الخطايا؛ وهي العمى المتعمَّد. الجحيم هو أن تعاني بشكل رهيب وأنت تعرف أنك السبب في معاناتك. وبمجرد أن تهوي في ذلك الجحيم، يصبح من السهل جدًا أن تلعن «الكينونة» ذاتها. ولا عجب في ذلك. لكنه أمر لا يمكن تبريره. وهذا هو السبب وراء كون الملعون الأكبر حكمُ سيئ على الكينونة.

كيف يمكنك بناء ذاتك لكي تصير شخصًا يمكن الاعتماد عليه، في السراء والضراء؛ في السلم والحرب؟ كيف تبني لنفسك شخصية لا تتحالف –في معاناتها وبؤسها– مع كل سكان الجحيم؟ واستمرت الأسئلة والأجوبة، وكلها متصلة ببعضها، بطريقة أو بأخرى، لتقودني إلى القواعد التي طرحتها في هذا الكتاب:

ماذا أفعل لتعزيز روحي؟ لا أكذب، ولا أفعل ما أزدريه.

ماذا أفعل لاحترام جسدي؟ أستخدمه فقط في خدمة روحي.

ماذا أفعل مع أصعب الأسئلة؟ أعتبرها البوابة المؤدية إلى طريق الحياة.

كيف أتعامل مع محنة فقير بائس؟ أناضل لأكون قدوة له لمداواة قلبه المكسور.

وماذا أفعل عندما يغويني حشد كبير؟ أقف شامخًا وأتكلم بالحقائق التي أعرفها.

وهذا كل شيء. ولا يزال معي قلمي الضوئي المنير. إنني لم أكتب به أي شيء منذ ذلك الحين. ربما أكتب به مرة أخرى عندما تتلبّسني روح الكتابة وينبع من أعماق نفسي شيئًا جديرًا بالكتابة. لكن، حتى إن لم يحدث ذلك،

فقد ساعدني قلمي في العثور على الكلمات المناسبة لإنهاء هذا الكتاب على نحو لائق.

آمل أن تكون قد استفدت مما كتبته. وآمل أن يكون قد كشف لك أشياء كنت تعرفها لكنك لم تكن تعرف أنك تعرفها. وآمل أن تزوّدك الحكمة القديمة التي تحدثنا عنها بالقوة والعزيمة. وآمل أن تكون قد أذكت شرارة الإيمان بداخلك. وآمل أن تتمكّن من دعم أفراد عائلتك وفهمهم، وتتمكن من تحقيق السلام والازدهار لمجتمعك. وآمل -اتساقًا مع القاعدة الحادية عشرة، («لا تزعج الأطفال وهم يتزلّجون على الألواح»)- أن تدعم وتشجع أولئك الذين ترعاهم، بدلًا من أن تحاول حمايتهم إلى حد يصيبهم بالضعف.

أتمنى لك كل التوفيق، وآمل أن تتمناه بدورك للآخرين.

ماذا ستكتب بقلمك الضوئي؟

شكر وتقدير

عشت وقتًا عصيبًا بينما كنت أحاول تأليف هذا الكتاب، وهذا أقل ما يمكن قوله عن ذلك الوقت. وكان لديَّ أكثر مما أستحق من الأشخاص الموثوقين الأكفاء الرائعين الذين كانوا إلى جواري أثناء ذلك الوقت، وأحمد الله على ذلك. أود بشدة توجيه الشكر إلى زوجتي، تامي، التي هي أيضًا صديقتي الرائعة الصالحة منذ ما يقرب من خمسين عامًا. لقد كانت ركيزة أساسية للصدق، والاستقرار، والدعم، والمساعدة العملية، والتنظيم والصبر خلال سنوات الكتابة، وظلت صامدة معي بينما كنا نجتاز كل ما واجهنا في حياتنا، بغضّ النظر عن مدى إلحاحه أو أهميته. كما كانت ابنتي ميكيلا، وابني جوليان، وكذلك والداي، والتر وبيفرلي، جميعهم إلى جواري يولونني عناية فائقة، ويناقشون معي قضايا معقّدة شائكة، ويساعدونني في تنظيم أفكاري، وكلماتي، وأفعالي. وينطبق الأمر نفسه على صهري، جيم كيلر، مهندس الرقائق الحاسوبية الاستثنائي، وأختي الداعمة والمغامرة على الدوام، بوني. وقد تبيَّن لي أن صداقة ووِدك شمبرج وإستيرا بِكير لا تقدَّر بثمن بالنسبة لي، من نواحٍ عدة، طيلة سنوات عديدة، وكذلك الدعم الخفي الذي قدّمه لي البروفيسور ويليام كانينجهام من وراء الكواليس. وقد تجاوز الدكتور نورمان دويدج نداء الواجب بكتابته وتنقيحه لمقدمة هذا الكتاب، وهو الأمر

الذي تطلّب جهدًا أكبر بكثير من تقديري المبدئي، وقد كانت الصداقة والدفء اللذان قدمهما لي على الدوام هو وزوجته، كارين، موضع تقدير جَمّ من جانب أسرتي بأكملها. وقد كان من دواعي سروري أن أتعاون مع كريج بيتي، وهو محرر كتاباتي في دار نشر « راندوم هاوس كندا». لقد كان الاهتمام الدقيق بالتفاصيل من جانب كريج وقدرته على كبح جماح التدفّقات العاطفية الزائدة من جانبي (والهياج الساخط أحيانًا) في مسوداتي الكثيرة، سببًا في خروج كتاب أكثر اعتدالًا وتوازنًا بكثير.

وقد استخدم جريج هورويتز، الصديق والروائي وكاتب السيناريو، العديد من قواعد الحياة التي وضعتها في روايته الأكثر مبيعًا « اليتيم إكس» **Orphan X**، قبل تأليف كتابي هذا بوقت طويل، وهو أمر كان بمثابة إطراء رائع، ومؤشّر على القيمة المحتملة لتلك القواعد ورواجها بين عامة الناس. كذلك فقد تطوّع جريج أيضًا بوصفه محرّرًا ومعلّقًا مخلصًا، ومثابرًا للغاية، وناقدًا مرحًا، أثناء عملية الكتابة والتحرير. لقد ساعدني في تقليل لغو الحديث غير الضروري (أو بعضه على الأقل) وعلى الالتزام بالمسار السردي. وكان جريج أيضًا هو من أوصى بالاستعانة بإيثان فان سكريفر – الذي زوّدنا بالرسوم التوضيحية الرائعة في بداية كل فصل– وأود أن أقدم

الشكر لجريج على ذلك، كما أرفع قبعتي لإيثان نفسه، الذي أضفت رسوماته لمسة ضرورية من الخفة، والرشاقة، والجمال، والدفء، على كتاب ربما كان سيبدو كئيبًا، وموحشًا، ودراميًا أكثر مما ينبغي لولا تلك الرسومات.

وأخيرًا، أود أن أشكر سالي هاردينج، وكيلتي الأدبية، والأشخاص الرائعين الذين تعمل معهم في وكالة «كوك ماكرميد»؛ فمن دون سالي، ما كان هذا الكتاب ليرى النور أبدًا.

نشأ في الأراضي القاحلة الباردة في شمال ألبِرتا، وقام بمناورة دوران «رأس المطرقة» على متن طائرة من ألياف الكربون، وقاد مركب سباق شراعي من خشب الماهوجاني حول جزيرة ألكاتراز، واستكشف فوهة نيزك أريزونا مع مجموعة من رواد الفضاء، وبنى منزلًا تذكاريًا من منازل قبيلة كواجول فوق الطابق العلوي بمنزله في تورنتو بعد دعوته للانضمام إلى تلك الأمة الكندية الأولى. عمل بيترسون في غسيل الصحون، وفي محطة وقود، كما عمل نادلًا، وطباخًا لفترة قصيرة، ومربّي نحل، وعاملًا على حفارة تنقيب عن البترول، وعاملًا في مصنع خشب، وعاملًا في خط للسكك الحديدية. درَّس بيترسون الميثولوجيا للمحامين، والأطباء، ورجال الأعمال، وكان مستشارًا للجنة التنمية المستدامة رفيعة المستوى التابعة للأمانة العامة للأمم المتحدة، وساعد المرضى في عيادته على التعامل مع الاكتئاب، واضطراب الوسواس القهري، والقلق، والفصام، وشغل منصب مستشار لدى شركات محاماة كبرى في كندا، وألقى المحاضرات في أمريكا الشمالية وأوروبا. كما نشر الدكتور بيترسون أكثر من مائة بحث علمي ساهمت في تطوّر الفهم الحديث للشخصية، وفي تحويل مجال علم نفس الدين من خلال كتابه الذي أصبح أحد الأعمال الكلاسيكية الآن: «خرائط المعنى: بنية الاعتقاد». وكأستاذ

بجامعة هارفارد، رُشِّحَ لنيل جائزة ليفينسون للتدريس، وهي جائزة مرموقة، ويعتبره طلاب جامعته الحالية –جامعة تورنتو– أحد أساتذة ثلاثة يؤثّرون في حياة طلابهم. وبيترسون هو «الكاتب الأكثر مشاهدة» على موقع «كوورا» في قسمي «القيم والمبادئ» و«التربية والتعليم»، وقد تحولت محاضراته الدراسية في علم الأساطير إلى سلسلة تلفزيونية مكوَّنة من ثلاثة عشر جزءًا على التلفزيون العام. وقد ساعد برنامج دكتور بيترسون لتحسين الصحة العقلية على شبكة الإنترنت، **www.selfauthoring.com** (والذي كُتِبَ عنه مقال في مجلة **O: The Oprah Magazine**، وعلى موقع **NPR** الوطني)، الآلاف من الأشخاص على معالجة مشكلات ماضيهم وتحسين مستقبلهم، في حين أن المعلومات التي يوفّرها اختبار الشخصية الجديد الذي صمّمه – والذي يمكن العثور عليه على موقع **www.understandmyself.com**– من يجرونه في سعيهم نحو معرفة أنفسهم ومعرفة الآخرين.

تابع دكتور جوردان بيترسون على:

على «تويتر» **@jordanbpeterson**

وعلى «فيسبوك» **Dr Jordan B Peterson**

وعلى «يوتيوب» **JordanPetersonVideos**

(1) جوزيف مينجِل، يعرف أيضًا باسم «ملاك الموت»: يأتي على رأس قائمة الأطباء الأكثر شراً في التاريخ؛ حيث كان مكلّفًا بوضع التقارير عن سجناء النازية من أجل تحديد من منهم يصلح للبقاء على قيد الحياة من أجل الاستعباد وإجراء تجارب شيطانية عليه، ومن يجب إعدامه. ولكن سمعة مينجِل السيئة لم تكن بسبب هذه العمليه فقط؛ فقد قام بإجراء تجارب مختلفة على المعتقلين، منها وضعهم في حاويات مغلقة ذات ضغط عال، وتجارب التجميد حتى الموت، وكان اهتمام جوزيف منصبًا على التوائم. (المترجم)

(2) يزعم البعض – خاطئين– أن فرويد (الذي يرد ذكره كثيرًا في هذه الصفحات) أسهم في توقنا الحالي إلى ثقافة، ومدارس، ومؤسَّسات « لا تطلق أحكامًا أخلاقية». صحيح أن فرويد أوصى المحلّلين النفسيين بأن يكونوا متسامحين، ومتعاطفين، وألا يصدروا أحكامًا أخلاقية نقدية عند الإنصات إلى مرضاهم أثناء العلاج؛ إلا أن ذلك كان لأغراض واضحة متمثّلة في مساعدة المرضى على الشعور بالارتياح تجاه كونهم صادقين

تمامًا، ولكي لا يقلّلوا من أهمية مشكلاتهم. شجّع هذا المرضى على تأمّل ذواتهم، وسمح لهم باستكشاف مشاعرهم ورغباتهم المكبوتة، وحتى دوافعهم المخزية المعادية للمجتمع. كما سمح لهم ذلك أيضًا –وكانت هذه هي الضربة الكبرى– باستكشاف ضمائرهم اللاواعية (وأحكامها)، وانتقادهم الذاتي القاسي ل»زلّاتهم»، وشعورهم اللاواعي بالذنب، الذي غالبًا ما يخفونه عن أنفسهم، ولكنه برغم ذلك غالبًا ما يشكِّل أساس تدني احترامهم لذاتهم، واكتئابهم، وقلقهم. ولو أن فرويد أوضح لنا شيئًا، فهذا الشيء هو أننا أكثر أخلاقية وأكثر لا أخلاقية مما ندرك، في آن واحد. وهذا النوع من «عدم إصدار الأحكام»، في العلاج، هو أسلوب أو تكتيك فعال ومُحرّر؛ أو توجّه ذهني مثالي عندما ترغب في أن تفهم نفسك على نحو أفضل. لكن فرويد لم يزعم قط (كما يفعل البعض ممن يريدون أن تصبح الثقافة كلّها عبارة عن جلسة علاج جماعية كبرى) أنه يمكن للمرء أن يعيش حياته بأسرها من دون إصدار أحكام أبدًا، أو من دون أخلاق. وفي الواقع، كان رأيه في كتاب «قلق في الحضارة» **Civilization and its Discontents** هو أن الحضارة لا تنهض إلا عند ترسيخ بعض القواعد المقيّدة والأخلاق.

(3) رمز ين/يانج هو الجزء الثاني من «التاجيتو» الأكثر شمولية المكوّن من خمسة أجزاء، وهو مخطّط يمثّل كلًّا من الوحدة المطلقة الأصليّة وانقسامها إلى تعدّديّة العالم المُشاهد. وسوف نتناول هذا بالمناقشة بمزيد من التفصيل في القاعدة الثانية في هذا الكتاب، وفي مواضع أخرى من الكتاب.

(4) جون ميلتون (1608–1674): شاعر إنجليزي شهير عاش في القرن السابع عشر، ويُعد أحد أعظم الشعراء الإنجليز على مر العصور، بعد إصابته بالعمى في العام 1652، كرّس وقته لكتابة أشهر أعماله، «الفردوس المفقود»، التي يحكي فيها قصة الشيطان، وآدم وحواء، وهبوطهما من الجنّة. (المترجم)

(5) أَسْتَخدِمُ مصطلح «الكينونة» **Being** (بحرف **B** كبير) جزئيًا بسبب تعرّضي لأفكار فيلسوف القرن العشرين الألماني مارتن هايدجر، الذي حاول التمييز بين الواقع، كما نراه بموضوعيّة، وبين مجمل التجربة الإنسانيّة (وهي «الكينونة»). إن «الكينونة» **Being** (بحرف **B** كبير) هي ما يعيشه كل منا؛ ذاتيًا، وشخصيًا، وفرديًا، بالإضافة إلى ما يعيشه كلٌّ

منا بالاشتراك مع الآخرين. وبوصفها كذلك، فإنها تتضمّن مشاعرنا، ودوافعنا، وأحلامنا، ورؤانا، وإلهاماتنا، وكذلك أفكارنا وتصوّراتنا الخاصة. و»الكينونة»، أخيرًا، هي شيء ينبثق إلى الوجود من خلال الفعل، لذا فإن طبيعتها ناتجة عن قراراتنا واختياراتنا (بدرجة معقولة)؛ أي إنها شيء يتشكّل بواسطة إرادتنا الحرّة المفترضة. وبهذا التأويل، فإن «الكينونة» (1) ليست شيئًا يمكن اختزاله بسهولة وعلى نحو مباشر في المادّيّة والموضوعيّة، و(2) هي شيء يتطلّب بالتأكيد مصطلحًا خاصًا به، وهو ما عمل هايدجر طوال عقود على توضيحه.

(6) الكركند أو جراد البحر **Lobster**: حيوان بحري من القشريات له خمسة أزواج من الأرجل. له أهمية اقتصادية كطعام بحري. (المترجم)

(7) بروزاك: هو الاسم التجاري لعقار فلوكسيتين، وهو عقار مضاد للاكتئاب، ويساعد في علاج عدة أمراض أخرى، مثل: الشراهة، والوسواس القهري، وبعض مظاهر الرّهاب، والقلق، والتوتّر. وقد أحدث العقار عند ظهورة ثورة في عالم طب النفس، حيث إنه من أكثر الأدوية فعاليّة وأقلّها من حيث الأعراض الجانبية. (المترجم)

(8) «خمسون درجة من جراي»: رواية إغراء رومانسية من تأليف الكاتبة البريطانية إ. ل. جيمس مكونة من ثلاثة أجزاء. تحكي حكاية العلاقة التي تجمع بين خريجة جامعية، ورجل أعمال ملياردير شاب يُدعى كريستيان جراي. وتحتوي الرواية على مشاهد إغرائية صريحة تتضمّن ممارسات جنسية عنيفة تشتمل على العبودية، والهيمنة/الخضوع، والسادية. حقّقت مبيعات تجاوزت المائة مليون نسخة، وتُرجمت إلى أكثر من خمسين لغة، لكن الاستقبال النقدي لها كان سلبيًّا في معظمه. (المترجم)

(9) المصدر الكهنوتي: أحدث المصادر الرئيسية الأربعة للتوراة بحسب الفرضية الوثائقيّة المعيارية لفلهاوزن. من تأليف كاهن هاروني، لذا فمن مميزاته التي تنسب للكهنة التركيز الشديد على الإحصاءات والأنساب، ويعتقد بأنه يصف فترة النفي البابلي (بين العام 550 إلى العام 400 قبل الميلاد تقريبًا)، ولذا فقد أدخل في التوراة حوالى العام 400 قبل الميلاد. (المترجم، نقلًا عن ويكيبيديا)

(10) اليهوي: أحد المصادر الرئيسية الأربعة للتوراة في الفرضية الوثائقية، وهو أقدم المصادر ويشكّل نصف سفر التكوين، والنصف الأول من سفر الخروج، وأجزاء من سفر العدد. يوصف الله في هذا المصدر بشكل يشبه الإنسان، ويدعى يهوه. يهتم اهتمامًا خاصًّا بأرض مملكة يهوذا. (المترجم، نقلًا عن ويكيبيديا)

(11) جون رونالد رويل تولكين (1892–1973): فيلولوجي إنكليزي وروائي وأستاذ جامعي اشتهر بسلسلته الملحمية «سيد الخواتم» ورواية «الهوبيت». (المترجم)

(12) بينوكيو Pinocchio: شخصية خياليّة في رواية كتبها الروائي الإيطالي كارلو كولودي العام 1880، وترجمت إلى أكثر لغات العالم، وتحوّلت لعشرات الأفلام. تتحدّث هذه الرواية عن طفل مصنوع من الخشب وله أنف طويل. (المترجم)

(13)من المثير جدًا للاهتمام في هذا الشأن أن رمز «التاجيتو» المكوّن من خمسة أجزاء (المشار إليه في الفصل الأول، ومصدر رمز ين/يانج الأكثر بساطة) يشير إلى أن أصل الكون هو، في البداية، شيءٌ مطلقٌ لا متمايز، ثم ينقسم إلى ين ويانج (فوضى/نظام، أنثى/ذكر)، ثم إلى العناصر الخمسة (الخشب، النار، التراب، المعدن، الماء)، ثم -بتعبير بسيط- إلى «عشرة آلاف شيء». وبنفس الطريقة، ينبثق من نجمة داوود (فوضى/نظام، أنثى ذكر) أربعة عناصر أساسية: النار، الهواء، الماء، التراب (والتي ينبثق منها كل شيء آخر). ويستخدم الهندوس نجمةً سداسيةً مشابهةً؛ حيث يرمز المثلّث الذي يتّجه رأسه لأسفل إلى شاكتي، الأنثى، ويرمز المثلث الذي يتّجه رأسه لأعلى إلى شيفا، الذكر. ويُعرف كلا العنصرين باسم أوم **Om** وهريم **Hrim** في اللغة السنسكريتية. وتلك أمثلة استثنائية على التناظر الفكري بين الثقافات.

(14) وفي تأويل آخر، قسّم الله خلقه البشري الأول الذي يحمل صفات الجنسين إلى جزأين، ذكر وأنثى. ووفقًا لهذا التأويل، فإن المسيح، أو «آدم الثاني»، هو أيضًا إنسان أول، قبل حدوث التقسيم الفرعي الجنسي. ولا بد

أن يكون المعنى الرمزي لهذا واضحًا لأولئك الذين تابعوا تلك المناقشة حتى الآن..

(15) (1903–1957) John von Neumann: رياضي أمريكي مجَرِيُّ المولد، ويعتبر من أهم علماء الرياضيات في التاريخ الحديث. (المترجم، نقلًا عن ويكيبيديا)

(16) الخطيئة الأصلية Original Sin: عقيدة مسيحية تشير إلى وضع الإنسان الآثم الناتج عن سقوط آدم في الخطيئة. (المترجم)

(17) The Golden Rule: عامل الآخرين كما تحبّ أن يعاملوك. (المترجم)

(18) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، (الإصحاح 12، الآية 19).

(19) ألبرتا **Alberta**: مقاطعة كندية ظهرت لأول مرة باسم الأراضي الشمالية الغربية في سنة 1881م. انضمت إلى الاتحاد الكندي العام 1905، وتبلغ مساحتها 661,188 كيلومترًا مُربعًا، وعدد سكانها حوالى 4,1 ملايين نسمة. (المترجم)

(20) **Waiting for Godot**: مسرحية للكاتب الأيرلندي صامويل بيكيت تدور أحداثها حول رجلين ينتظران ظهور شخص يدعى «جودو» لا يأتي مطلقًا. أثارت هذه المسرحية الكثير من التحليل والجدل حول المعنى المبطّن لأحداثها، وحازت على تقييم أهم عمل مسرحي في القرن العشرين باللغة الإنجليزية. (المترجم)

(21) التكرار القهري: ظاهرة نفسية يكرر فيها الشخص حدثًا معينًا أو ظروف ذلك الحدث مرارًا وتكرارًا. يتضمّن ذلك إعادة تنشيط الحدث أو

وضع نفسه في المواقف التي يحتمل أن يحدث فيها الحدث مرّة أخرى. (المترجم، عن ويكيبيديا)

(22) **The Simpsons**: مسلسل أمريكي كرتوني كوميدي من إنتاج شركة فوكس موجّه للكبار فقط. يعد أطول وأنجح مسلسل كرتوني على شاشات التليفزيون الأمريكي، حيث بلغ حتى الآن 30 جزءًا و662 حلقة. المسلسل فكرة وتأليف مات جرينينج. (المترجم)

(23) تمثال «ديفيد» **David** للفنان مايكل أنجلو: تمثال هائل من الرخام يصل طوله إلى ستة أمتار تقريبًا. كان في الأصل منحوتة غير مكتملة لنحات آخر، واستحوذ عليه مايكل أنجلو ليخلق تمثالًا يجسِّد النبي داوود، وهو عبارة عن تمثال لذكر عارٍ يقف متكئًا بكامل جسده على ساق واحدة. (المترجم)

(24) العمى المستديم الغافل، ويعرف أيضًا بالعمى الإدراكي: هو نوع من العمى ينتج عن عدم الانتباه غير المرتبط بعيوب في البصر، ويحدث عندما

يعجز الإنسان عن رؤية مثير غير متوقع ظاهر بوضوح في نطاق قدرته على الرؤية. (المترجم)

(25) النُقرَة: تجويف صغير في شبكيّة العين تكثر فيه الخلايا المخروطيّة الحسّاسة للضوءين الأحمر والأخضر. (المترجم)

(26) الفيدا Vedas: هو الكتاب المقدس للديانة الهندوسية، وفيه النصوص المقدّسة من الترانيم والتراتيل لدى الآريين الهنود لتكريم الآلهة. (المترجم)

(27) Tao te Ching: هو كتاب للحكيم الصيني لاو-تسو كان له أثر كبير على تشكيل العقل الصيني وعلى ثقافة الشرق الأقصى بصورة عامة منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وما زال موضع اهتمام من قبل الفلاسفة والمفكّرين شرقًا وغربًا. (المترجم)

(28) يهوه: هو اسم الله المذكور في التوراة وفي العهد القديم. (المترجم)

(29) ما وراء الخير والشر، فريدريك نيتشه، ترجمة جيزيللا فالور حجار، منشورات دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى 2003.

(30) Richard Dawkins: عالمُ سلوك حيوان، وعالم أحياء تطوّري، وكاتب، وحاصل على زمالة الجمعية الملكية. بدأت شهرة دوكينز بعد نشر كتابه «الجين الأناني»، والذي أشاع فيه وجهة نظر تقول بارتكاز التطوّر على الجينات. (المترجم)

(31) أعتمد في ما أكتبه هنا، وفي مواضع عديدة من هذا الكتاب، على تجربتي الطبيّة، تمامًا كما أعتمد على تجربتي الشّخصيّة). وقد حاولت الحفاظ على المغزى الأخلاقي للقصص التي أسردها، مع إخفاء التفاصيل من أجل الحفاظ على خصوصيّة أصحاب هذه القصص. وآمل أن أكون حافظت على التوازن السليم بين الأمرين.

(32) **Lord of the Flies**: رواية رمزية للكاتب الفائز بجائزة نوبل، ويليام جولدينج. (المترجم)

(33) جين جودال **Jane Goodall**: عالمة بريطانية متخصّصة في الرئيسيات، وعلم السلوك، والأنثروبولوجيا، وسفيرة للأمم المتحدة للسلام. عملت على نطاق واسع في قضايا الرفق بالحيوان. (المترجم)

(34) **Iris Chang** (1968–2004): مؤرّخة، وصحافيّة، وكاتِبة أمريكية. (المترجم)

(35) « اغتصاب نانكينج»: كتاب للمؤلفة « إريس تشانج» نُشِرَ عام 1997. يتناول الكتاب المذبحة الرهيبة التي قام بها جنود الجيش الإمبراطوري الياباني بين العامين 1937 و1938 بعد سقوط مدينة

نانكينج، التي كانت حينها عاصمة الصين، في أيديهم خلال الحرب الصينية – اليابانية. (المترجم)

(36) كونج بوشمان: جماعة عرقية بدائية تعيش في صحراء كالهاري بين دولتي بتسوانا وناميبيا. وتُعد من أقدم الجماعات العرقية، إن لم تكن أقدمها في أفريقيا. (المترجم)

(37) شفرة أوكام: أحد أهم المبادئ المنطقية، وتشمل تطبيقاتها طيفًا واسعًا من المجالات المتباينة من علم المنطق، ونظرية المعرفة، وعلم الاقتصاد، والفلك، والفيزياء، والرياضيات. تقضي بتفضيل أقل البراهين تعقيدًا عند تساوي البراهين في النتيجة والعمومية. ويعتبر الفيلسوف الإنجليزي ويليام أوكام أول من صاغ هذا المبدأ العام 1285. (المترجم)

(38) حكاية بيت الحلوى أو حكاية هانسل وجريتل: حكاية خيالية مشهورة للأطفال من تأليف الأخوين جريم الألمانيين. (المترجم)

(39) حادثة إطلاق نار مدرسة «ساندي هوك» الابتدائية هي حادثة وقعت في العام 2012، وتسبَّبت في العديد من الضحايا، وذلك في إطلاق نار قتل جماعي في قرية «ساندي هوك» التابعة لمدينة نيوتاون بولاية كونتيكت الأمريكية. وقد قام الجاني، آدم بيتر لانزا، بإطلاق النار على نفسه في النهاية. (المترجم)

(40) مذبحة أورورا حدثت في العام 2012، في إحدى دور السينما في مدينة أورورا في ولاية كولورادو. قتل خلال المذبحة 12 شخصًا وجُرح 70 آخرون. (المترجم)

(41) مذبحة ثانوية كولومباين وقعت في العام 1999، في مدرسة كولومباين العليا بالولايات المتحدة. قتل الطالبان، إريك هاريس وديلان كليبولد، 12 طالبًا ومدرِّسًا واحدًا، كما أصيب 21 طالبًا آخرون. وفي النهاية، انتحر الطالبان. (المترجم)

(42) فاوست. جوتِه، ترجمة محمد عوض محمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1914.

(43) كارل بانزرام (1891–1930): سفاح، ومغتصب، وسارق. أُعدم في عام 1930 لِقتله أحد موظفي سجن ليفنوورث الاتحادي. (المترجم)

(44) لاحظ أن هذا كله صحيح، سواء أكان هناك بالفعل مثل هذا الكيان القوي المهيمن «في السماء» أم لم يكن.

(45) اضطراب ما بعد الصدمة: حالة نفسية تتطلّب العلاج ويمكن أن تؤثّر على أي شخص تعرّض لحادث صادم أو شاهد حادثًا يتضمّن تهديدًا حقيقيًا، أو متوقّعًا بالإصابة أو الموت. يعاني هؤلاء الأشخاص من إحساس

قوي بالخطر، مما يجعلهم يشعرون بالتوتّر أو الخوف، حتى في الحالات الآمنة. (المترجم)

(**46**) **جون ميلتون، الفردوس المفقود، ترجمة محمد عناني، الدار المصرية اللبنانية – مشروع كلمة 2009.**

(**47**) **تيودور أدورنو: فيلسوف، وعالم اجتماع، وعالم نفس، وموسيقي ألماني، اشتهر بنظريَّاته النقدية الاجتماعية. يُعتبر أحد أهم المفكّرين في القرن العشرين في فلسفة وعلم الجمال.** (المترجم)

(**48**) **تتّفق هذه الملاحظة مع حقيقة أن كلمة «سِت» هي كلمة سابقة اشتقاقيًا لكلمة «الشيطان» بالإنجليزية Satan. انظر موردوك، دِ. م.** (**2009**). **كتاب «المسيح في مصر: العلاقة بين حورس ويسوع» Christin Egypt: the Horus-Jesus connection. سياتل، واشنطن: ستيلر هاوس، ص 75.**

(**49**) **لكل مَن يعتقد أن هذا غير واقعي إلى حدٍّ ما، بالنظر إلى الواقع المادي الملموس والمعاناة الحقيقية المرتبطة بالحرمان، أود أن أوصي مرة أخرى بقراءة كتاب «أرخبيل المعتقلات السوفييتية» The Gulag Archipelago للأديب الروسي ألكسندر سولجنتسين، والذي يحتوي على مجموعة من المناقشات العميقة على نحو استثنائي حول السلوك الأخلاقي السليم وأهميته الفائقة، وليس المتضائلة، في حالات العوز الشديد والمعاناة.**

(**50**) **الخيمياء: ممارسة قديمة ترتبط بعلوم الكيمياء، والفيزياء، والفلك (التنجيم)، والفن، وعلم المعادن، والطب كما نعرفها في الوقت الراهن. وعلى الرغم من أن هذه العلوم لم تكن تمارس بالطريقة العلمية التي نعرفها اليوم، فإن الخيمياء تعتبر أصل الكيمياء الحديثة قبل اكتشاف الأسلوب العلمي. (المترجم)**

(51) لوجوس **Logos**: واحدة من أكثر الكلمات أهمية، وأشدها غموضًا، في الفكر الغربي الديني والفلسفي، وهي كلمة تدلّ في سياقات شتى على مدلولات متنوعة، مثل اللغة، والعقل، والقانون، وكلمة الإله، وغير ذلك من المعاني. (المترجم)

(52) **wishful thinking**: الاعتقاد بصحة أمر ما لمجرد رغبة المرء في ذلك أو تمنيه. (المترجم)

(53) ديان أربوس **Diane Arbus**: مصوّرة شهيرة من الولايات المتحدة الأمريكية، وحصلت خلال مسيرتها المهنية على العديد من الجوائز. (المترجم)

(54) هيرونيموس بوش **Hieronymus Bosch**: رسّام هولندي. معظم أعماله تدور حول الخطيئة والفشل الأخلاقي الإنساني. (المترجم)

(55) جنون الارتياب Paranoia: اضطراب عقلي يتميّز المصاب به بخصال أبرزها الشك، والارتياب، والحسد، والشعور بالاضطهاد، وإساءة فهم أي ملاحظة أو إشارة أو عمل يصدر عن الآخرين. وكثيراً ما تؤدّي هذه الحالة إلى اتّخاذ المصاب مسالك تعويضية توقع في نفسه أنه عظيم الشأن، متفوّق على الآخرين. (المترجم)

(56) Soren Kierkgaard (1813-1855): فيلسوف ولاهوتي دنماركي كان لفلسفته تأثير على الفلسفات الوجودية المؤمنة. (المترجم)

(57) مرّة أخرى، أخفيت هنا أيضًا العديد من تفاصيل هذه الحالة، حفاظًا على خصوصية الأشخاص المعنيين، وحاولت الحفاظ على المغزى الأساسي لحوادث القصة.

(58) التداعي الحرّ **Free Association**: تقنية ابتكرها سيجموند فرويد في طريقة التحليل النفسي، وتعتمد على التعبير (بالحديث أو الكتابة) عن مكنون النفس من دون أي رقابة كوسيلة لمعرفة العمليات اللاواعية. (المترجم)

(59) استراتيجية التحدّث إلى أفراد متمايزين ليست ضرورية فحسب لتوصيل أي رسالة، بل هي ترياق مفيد ضد الخوف من التحدّث أمام الجمهور. لا أحد يحب أن تحدّق به مئات العيون الناقدة أو العدائية. ولكن كل إنسان تقريبًا يمكنه التحدّث مع شخص واحد يقظ منتبه. لذا، إذا كان عليك إلقاء خطاب (وتلك عبارة فظيعة أخرى) فافعل ذلك إذًا. تحدّث إلى الأفراد الذين يتكوّن منهم الجمهور؛ ولا تختبئ: لا تختبئ وراء المنصّة، ولا وراء عينين مسدلتين، ولا وراء حديث هادئ أكثر مما ينبغي أو وراء غمغمة، ولا وراء اعتذار عن افتقارك إلى الذكاء أو عن عدم استعدادك، ولا وراء أفكار ليست هي أفكارك، ولا وراء عبارات أصبحت مبتذلة من كثرة ترديدها.

(60)لهذا السبب، على سبيل المثال، استغرقنا وقتًا أطول بكثير مما افترضنا في بداية الأمر لصنع روبوتات يمكنها العمل باستقلال ذاتي في العالم. وتعد معضلة الإدراك أعقد بكثير مما تؤهلنا لاستنتاجه قدرتنا على الوصول الفوري واليسير إلى إدراكاتنا. وفي الواقع فإن معضلة الإدراك معقّدة للغاية إلى درجة أنها عرقلت بصورة تكاد تكون قاتلة (من منظور ذلك الوقت) التقدّم المبكر للذكاء الاصطناعي، حين اكتشفنا أن العقل المجرّد المتحرّر من الجسد لا يمكنه حتى أن يحل المشكلات البسيطة في العالم الحقيقي. واقترح رواد مثل رودني بروكس في أواخر ثمانينيات وأوائل تسعينيات القرن العشرين أن نشاط الأجساد يُعتبر شرطًا أساسيًا لا غنى عنه من أجل تحليل العالم إلى أشياء يمكن التعامل معها، ومن ثمَّ استعادت ثورة الذكاء الاصطناعي ثقتها وزخمها.

(61) التسجيل متاح على Peterson, J.B. (2002). محاضرة «ذبح التنّين الموجود بداخلنا»، بُثَّت في الأصل عبر قناة «تي في أو» TVO، وهي متاحة على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=REjUkEj1O_0 Pete_0

(62) هكذا تكلم زرادشت، فريدريش نيتشه ترجمة علي مصباح، منشورات دار الجمل، الطبعة الأولى 2007.

(63) مانعات التزلج هي أدوات تُركب في أماكن وأسطح يراد منع التزلج عليها مثل الدرابزين والمقاعد الحدائق العامة. (المترجم)

(64)قمت بتغيير الأسماء وغيرها من التفاصيل بهدف الحفاظ على الخصوصية.

(65) «شرطة كيستون» **Keystone Cops**: سلسلة أفلام كوميدية صامتة أبطالها هم فرقة من رجال الشرطة عديمي الكفاءة الذين يقعون دائمًا في مواقف صعبة، خاصّة عندما يندفعون في مطاردات مع بعض المجرمين. (المترجم)

(66) توماس هنري هكسلي Thomas Huxley (1825-1895): عالم أحياء بريطاني اشتهر بدفاعه الشرس عن نظرية التطور لتشارلز داروين، انتُخب هكسلي رئيسًا للجمعية الملكية البريطانية بين عامي 1883 و1885. (المترجم)

(67) ألدوس هكسلي Aldous Huxley (1894–1963): كاتب إنجليزي اشتهر بكتابة الروايات والقصص القصيرة وسيناريوات الأفلام. كان هكسلي مهتمًا بالباراسيكولوجي والتصوّف الفلسفي. (المترجم)

(68) Rachel Louis Carson (1907–1964): عالمة أحياء بحرية وكاتبة علمية أمريكية ألفت العديد من الكتب التي عكست اهتمامها بالبحار والسواحل والبيئة. (المترجم)

(69) الباركور **Parkour**: مجموعة من حركات الوثب الغرض منها الانتقال من نقطة إلى نقطة بأكبر قدر ممكن من السرعة والسلاسة باستخدام القدرات البدنية، ومع تجنّب الإصابات والجروح قدر المستطاع. تعتمد هذه الرياضة على المهارة والرشاقة في تخطّي العقبات والموانع. (المترجم)

(70) مركز بيو للأبحاث **Pew Research Center**: مركز أبحاث مقره واشنطن، يُجري المركز استطلاعات الرأي العام، والبحوث الديموغرافية، وتحليل محتوى وسائل الإعلام وغيرها من بحوث العلوم الاجتماعية التجريبية. (المترجم)

(71) 37–28/28 = 28/9 = 32 بالمائة. (72) 35–35/29 = 35/6 = 17 بالمائة.

(73) **Arunachalam Muruganantham**: رائد أعمال هندي اخترع ماكينة لإنتاج الفوط الصحية بتكلفة منخفضة، ويعود إليه الفضل في ابتكار آليات لنشر الوعي الشعبي بالممارسات غير الصحّية التقليدية في الريف الهندي. (المترجم)

(74) **James Young Simpson**: طبيب أمراض نساء اسكتلندي كان أول من استخدم الكلوروفورم في التخدير أثناء عمليات الولادة، وأصبح طبيبًا لملكة بريطانيا. (المترجم)

(75) **Anaesthesia**: كلمة إنجليزية تعني «الخدر» أو «التنويم». (المترجم)

(76) المذهب الإنساني الماركسي أو الإنسانية الماركسية: مذهب فكري وسياسي عالمي ترجع جذوره إلى بعض تأويلات أعمال كارل ماركس. (المترجم)

(77) جاك درّيدا: فيلسوف وناقد فرنسي وناقد أدبي شهير، أول من استخدم مفهوم التفكيك بمعناه الجديد في الفلسفة. كان هدف درّيدا الأساسي هو نقد منهج الفلسفة الأوروبية التقليدية. (المترجم)

(78) خيو سامفان: سياسي شيوعي كمبودي سابق شغل منصب رئيس دولة كمبوديا، وكان أحد أقوى المسؤولين في حركة الخمير الحمر. حكم عليه بالسجن المؤبد بتهمة ارتكابه جرائم ضد الإنسانية أثناء الإبادة الجماعية في كمبوديا. (المترجم)

(79) الخمير الحمر: هو الحزب السياسي الحاكم في كمبوديا في الفترة بين 1975 إلى 1979، وهو حلفٌ لمجموعة أحزاب شيوعية كمبودية شكّلت الحزب الشيوعي في البلاد. يعتبر الحزب مسؤولًا عن قتل ما يتراوح بين مليون إلى ثلاثة ملايين إنسان بسبب التعذيب، والأعمال الشاقة، والإعدام. (المترجم)

(80) ساميزدات: كلمة روسية تشير إلى نوع من الكتابة والنشر مارسه المنشقّون في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية تحدّيًا للرقابة على الكتب المعارضة. وكانت المطبوعات المحظورة تُكتب باليد وتُمرَّر من قارئٍ إلى آخر. (المترجم)

(81) نجم الشمال **North Star**: هو نجم يعلو القطب الشمالي للكرة الأرضية ويُستخدم كدليل إلى جهة الشمال عندما يضيّع المرء الاتجاهات. (المترجم)

(82) **Johann Jakob Bachofen** (1815–1887): مؤرّخ سويسري للقانون والدين، يُعد كتابه الشهير «حق الأمومة» عملًا رائدًا في دراسة تاريخ الأسرة. (المترجم)

(83) الديونيسية: نسبة إلى ديونيسيوس أو باكوس أو باخوس، وهو إله الخمر والمرح، وملهم طقوس البهجة والنشوة في الميثولوجيا الإغريقية. (المترجم)

(84) الأبولونية: نسبة إلى أبولو في الميثولوجيا الإغريقية، وهو إله الشمس والموسيقى والرماية. (المترجم)

(85) إنوما إليش: هي قصة الخلق البابلية القديمة التي اكتشفها هنري لايارد عام 1849 في آثار مكتبة آشور بانيبال في نينوى بالعراق. تتألّف القصّة من ألف سطر تقريبًا مكتوبة على سبعة ألواح فخارية باللغة البابلية القديمة. (المترجم)

(86) هيدرا: كائن خرافي في الميثولوجيا الإغريقية عبارة عن حيّة ذات تسعة رؤوس تحرس مدخل العالم السفلي، كلما قُطع لها عنقٌ نما مكانه ثلاثة. (المترجم)

(87) **Howdy–Doody**: برنامج عرائس تلفزيوني للأطفال كان يبث في أمريكا في ستينيات القرن العشرين، وهو عبارة عن دمية تُمثِّل رجلًا قبيحًا غبيًّا. (المترجم)

(88) **American Eskimo**: كلب من سلالة أمريكية محلّية متوسطة الحجم، انتقلت إلى أمريكا في الأساس مع المستوطنين الأوروبيين. تتميّز هذه السلالة من الكلاب بمعطف فرو أبيض سميك، وآذان مدببة، وذيل طويل ومقوس. (المترجم)

(89) **Spitz**: فصيلة من الكلاب تتسم بطول وكثافة الفرو، والآذان البارزة المدبّبة، والعضلات القوية، والذيل الملتوي. (المترجم)

(90) الإنويت أو الإسكيمو **Inuit**: شعب يسكن في المناطق الشمالية القطبية من قارة أمريكا الشمالية. (المترجم)

(91) **Henri Tajfel (1919–1982)**: عالم نفس اجتماعي بولندي الأصل، اشتهر بأبحاثه الرائدة على الجوانب المعرفية من التحامل ونظرية الهوية الاجتماعية. يُعتبر أحد مؤسّسي الرابطة الأوروبية لعلم النفس الاجتماعي التجريبي. (المترجم)

(92) **naproxen**: دواء مضاد للالتهابات. (المترجم)

(93) **methotrexate**: دواء مضاد للأورام. (المترجم)

(94) **cortisol**: هرمون يشتق من الكورتيزون، ويستخدم في علاج التهابات المفاصل. (المترجم)

(95) **prednisone**: عقار مخلّق يشبه الكورتيزون ويستخدم كمضاد للحساسية ومثبط للمناعة ومضاد للالتهابات لعلاج التهاب المفاصل الروماتويدي. (المترجم)

(96) **corticosteroid**: هرمون ستيرويد تفرزه القشرة الكظرية. (المترجم)

(97) **etanercept**: مُرَكَّب مُهَندس جينيًا يُحقن في المريض مرتين أسبوعيًا ويستخدم لعلاج التهاب المفاصل الروماتويدي. (المترجم).

(98) كتاب الطاو والفضيلة، لو تسو، ترجمة علاء الديب، الكرمة للنشر، 2016.

(99) فاوست، تأليف وولفجانج جوته، ترجمة عبد الرحمن بدوي، سلسلة من المسرح العالمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- دولة الكويت، 2008.

(100) The Great Leap Forward: حملة اقتصادية واجتماعية قام بها الحزب الشيوعي الصيني بزعامة ماو تسي تونج، من أجل تسريع التقدّم الاقتصادي من خلال العمل القسري تحوّلت إلى كارثة أسفرت عن وفاة ما لا يقل عن عشرين مليون نسمة. (المترجم)

الفهرس